شهادة

فيصل حوراني

دروب المنفى

الوطن في الذاكرة

شمل SHAML مركز اللاجئين والشتات الفلسطيني



مؤسسة الدراسات المقدسية

مركز اللاجئين والشتات الفلسطيني (شمل) ومؤسسة الدراسات المقدسية

فيصل حوراني

دروب المنفى (١)

الوطن في الذاكرة

«شهادة»

رام الله، ٢٠٠٤

سلسلة التاريخ الشفوي، رقم ٢

Fayssal Hourani

Pathways of Exile 1
A Homeland in Memory
(A Testimony)

P.O. Box 2456 – Ramallah, Palestine
Institute of Jerusalem Studies
P.O. Box 54769 – Jerusalem, Palestine

Ramallah 2004

This book is published as part of a co-operation agreement with the Ford Foundation.

فيصل حوراني

دروب المنفى١، الوطن في الذاكرة
(شهادة)

الناشران: شمل - مركز اللاجئين والشتات الفلسطيني
ص.ب. ٢٤٥٦- رام الله، فلسطين



مؤسسة الدراسات المقدسية
ص.ب. ٥٤٧٦٩- القدس، فلسطين

يصدر هذا الكتاب ضمن اتفاقية تعاون مع مؤسسة فورد

لوحة الغلاف: سامر أبو عجمية
تصميم الغلاف: خالد حوراني
تنفيذ: مؤسسة ناديا للطباعة والنشر والاعلان والتوزيع
رام الله - هاتف ٢٩٦٠٩١٩-٠٢

ISBN 9950-315-02-6

المحتويات

مدخل

سأبدأ بما يبدأ الفلسطيني به حين يُعرّف بنفسه، فأنا من "المسمية الصغيرة"، وهي القرية التي جلجلت فيها صرختي الأولى معلنة قدومي إلى الحياة. وبعد بداية كهذه، سأضيف على الفور أن القرية التي خلّفت فيها سنوات طفولتي التسع الأولى لم تعد موجودة على الأرض. فقد افترس الظلم دور القرية وشرّد أهلها، مثلما افترس مئات القرى الفلسطينية وشرّد أهاليها في العام ١٩٤٨. إلا أن امّحاء الدور وتشتت الأهل لم يلغيا وجود القرية إلغاء تاماً. فخارطة فلسطين بالصورة التي كان عليها هذا البلد قبل العام ١٩٤٨ تحمل اسم القرية بين ما تحمله من أسماء المواقع الأخرى. والخارطة موجودة، كما يعرف هذا من يعنيهم الأمر كافة، في كل مكان يوجد فيه الآن فلسطيني، في أي بقعة من بقاع الأرض. ومن الخطأ أن تتوهم أن الخارطة غدت قديمة. فمنذ صارت الجغرافيا مستودع الفلسطينيين لذكريات الروح، تتالت طبعات جديدة من الخارطة وتداولها الناس. فتسنى حتى لمن لم يروا فلسطين رؤية العين أن يحتفظوا بصورتها العزيزة معلقة أمام أعينهم في المنازل، وأماكن العمل، والمنتديات العامة. كما تسنى للجميع أن يعاينوا المواقع التي أقصوا عنها، ويحددوا المسافات التي تفصل بينها، ويملأوا هذه المسافات بما تختزنه الذاكرة الفردية والجماعية من أنبائها العامة والخاصة. ومن الفلسطينيين من يحرص على اقتناء نسخة من الخارطة من كل طبعة جديدة، مجدِّدا بهذا صلته الروحية بالوطن الذي كان يسكنه، فغدا هو، أي الوطن، يسكن الأرواح الهائمة ويعيش فيها.

وإذا شئت أن تعرف موقع "المسمية الصغيرة" على الخارطة، فيحسن أن تتحلى بالصبر، وينبغي أن تكون حادّ البصر، أو أن تستعين بعدسة مكبرة، وأنت تبحث بين أسماء المواقع الشهيرة المطبوعة بحروف بارزة عن اسم من الأسماء المطبوعة بحروف دقيقة. ولو فعلت هذا، فستلتقط عيناك اسم المسمية الصغيرة بين مئات الأسماء المتلاصقة. عندها، ستكتشف أن القرية تقع نقطة وسط على الطريق الممتد بين يافا والمجدل، في المكان الذي يتقاطع فيه هذا الطريق مع الطريق الواصل بين القدس وغزة، وسترى أن الحبّة الضائعة في سديم الأسماء المنثورة فوق سهل فلسطين الساحلي من الناحية الأقرب إلى الجنوب لا تبعد كثيراً عن شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وإن كانت لا تقع على هذا الشاطئ بالضبط. ثم إذا كنت خبيراً في قياس الخرائط، أو إذا استعنت بخبير، وحفزتك الحاجة إلى التيقن على قياس المسافة، فستجد أن المسافة التي تفصل القرية عن البحر لا تزيد كثيراً على بضعة وعشرة كيلومترات.

أما إذا توخيت الحصول على مزيد من المعرفة بجغرافية القرية، متشبثاً بالاقتناع بأن الجغرافيا المتروكة هي حقاً وعاء الروح الهائمة، فسترى أن المسمية الصغيرة قامت حين كانت ما تزال موجودة على كتف واد يسيل فيه الماء في مواسم الأمطار، وحدها. وإذا كنت ممن يدركون قوة التأثير الخارق لاسم الموقع في الروح المبعدة عنه، فستمعن النظر في الخارطة، أو تلجأ ثانية إلى العدسة المكبرة، فتعرف أن هذا الوادي هو "وادي الزريقة"، وأنه يرفد نهراً صغيراً هو نهر "صقرير". وهناك مصادر أخرى بإمكانك أن تستعين بها لتظفر بالمزيد من المعرفة. و أقربها إلى متناولك هذه الموسوعة الفلسطينية التي ألفها الفلسطينيون لا لشيء إلا ليختزنوا فيها غذاء روحهم. فإذا عدت إلى الموسوعة، فستفيدك بأن عدد سكان المسمية الصغيرة بلغ قبل عام نكبتهم خمسمائة وثلاثين نسمة، وستقرأ في الموسوعة أن عدد مساكن القرية كان في العام ١٩٣١ ثلاثة وسبعين. ومادامت الموسوعة لا تذكر عدد المساكن كما صار إليه في العام الفاصل؛ عام التشرد، فسيتوجب عليك أن تحسب بنفسك مقدار الزيادة المحتملة بين ١٩٣١ و ١٩٤٨، ولا بدّ من أن تستنتج أن العدد بلغ المائة أو اقترب منها في أقل تقدير.

هذا الحضور على الورق بالرغم من الامحاء عن الأرض لا تجده على الخارطة وحدها، أو على صفحات الموسوعة والمؤلفات الأخرى وحدها، بل يمكن أن تضيف إليه ألوف الأوراق التي يرد اسم القرية فيها ويتداولها الناس منذ العام ١٩٤٨ حتى يومهم هذا. إن اسم القرية مكتوب في العدد الكبير من الوثائق الشخصية العائدة لأهل القرية، فهو يملأ خانة مكان الولادة، في شهادات الميلاد، والشهادات المدرسية، وأذونات الإقامة، ووثائق السفر، وبيانات الوفاة، وأذونات الدفن، وفي عقود الزواج ووثائق الطلاق وما إلى ذلك، والاسم

مكتوب، أيضاً، في كواشين الطابو، وهي شهادات ملكية الأرض والمنازل، التي يحتفظ بها أصحابها ويحرصون عليها حرصاً شديداً ويورثونها لذريتهم مع التنبيه إلى أهميتها وضرورة الحرص عليها. وستعرف مدى اتساع هذا الحضور في الوثائق حين تعرف كثرة ما يقتنيه أهل القرية منها. فهؤلاء، في أي منفى كانوا، يتزوجون وينسلون ذرية كثيرة العدد، أولاداً وبنات. والأولاد والبنات يذهبون إلى المدارس، ثم يلتحقون بالأعمال المتاحة لهم، ويتزوجون بدورهم، وينسلون، وهم جميعاً مرغمون على الحصول على أذونات إقامة ووثائق سفر، بمقدار ما هم مرغمون على التنقل وتبديل الأذونات والوثائق. وفي هذه الحالات كلها يملأ الواحد من أهل القرية طلبات ويحصل على بيانات. وبهذا، تتكرر كتابة اسم القرية ألوف المرات في كل عام.

وبالرغم من سعة هذا الحضور على الورق، مع الامحاء عن الأرض، فأنت لن تجانب الصواب إذا اعتقدت أنه ليس الحضور الأهم ولا الأوسع، إذ إن هناك، حقاً، ما هو أهم منه وأبعد مدى. وإذا كان للحضور على الورق أهميته من وجهة النظر الرسمية، أو إذا كانت له وظيفته في الإشارة إلى حقوق أهل القرية المادية والأدبية المسلوبة وفي التعبير عن تمسكهم بها، فهو على كل حال حضور بارد، خصوصاً إذا قورن بأشكال الحضور الأخرى. أما الحضور الحار والأشد تأثيراً في مجال الاحتفاظ بحيوية الروح فإنه هذا الذي يشتعل في الذاكرة ويزداد توهجاً بمرور الأيام. والمألوف في الأحوال العادية أن حضور وقائع الحياة المنقضية يبهت في الذاكرة مع مضي الزمن. أما في الحالة الفلسطينية فقد صار الواقع المنقضي هو أمثولة المستقبل. إنه سلاح الذاكرة، يشرعه الذين اقتلعوا من أرضهم واغتصبت حقوقهم لحماية أنفسهم ضد الضياع والتغييب، ويستخدمونه في كفاحهم من أجل استعادة الوطن والحقوق. وحين يكون المرء بحاجة إلى السلاح بمقدار حاجة الفلسطيني إلى سلاح الذاكرة، فإنه يشحذه على الدوام. والذاكرة الفلسطينية يشحذها حرصها الدائم على الاحتفاظ بالوقائع المختزنة قبل التشرد والإبقاء عليها حية وفاعلة. هنا يتساوى الذين يعون هذه الحقيقة والذين يتصرفون بهديها دون أن يعوها.

وفي الذاكرة التي أقف معك هذه الوقفة لاستخراج مكنوناتها، لا تستقر الجغرافيا وحدها، ولا تلتمع الصور المادية وحدها، بل تتوهج مئات الحكايا والتواريخ والوقائع المرتبطة بهذه وتلك. وهنا، أي في الذاكرة أيضاً، كل شيء حيّ تماماً. وحتى حين يكون هذا الشيء قد مات فعلاً، كما هو حال الدور التي امّحت، فإن حضوره في الذاكرة يحتفظ بطزاجة الحضور الحيّ ذاته. والنقطة التي لم تعد موجودة إلا على الخرائط القديمة، والتي لا ترى على الخارطة إلا بصعوبة، هي في الذاكرة البقعة التي تفاعلت فوقها حيوات الناس خلال الأجيال المتعاقبة وانتظمت فيها علاقاتهم وانبثقت منها آمالهم ومطامحهم وحامت فوقها

أحلامهم، بما يتصل بهذا كله من شتى التفاصيل. والوادي الذي يرتسم على الخارطة خطاً ضئيلاً تحتاج إلى عدسة مكبرة كي تراه، أو الذي تجيء الموسوعة على ذكره في جملة واحدة، هو المجرى الذي سالت فيه أو درجت على حوافّه حيوات بكاملها، منذ ما لا يدري أحد من السنين.

وحين يتعلق الأمر بأهل المسمية الصغيرة، فوادي الزريقة هو الحدّ الذي يفصل بين مساكنهم وحقولهم، وكان على كل واحد منهم أن يعبره في الذهاب والإياب. والوادي هو، أيضاً، المكان الذي تنبت على أطرافه الأعشاب والخضار والفواكه والفطور البرية التي ينتظر أهل القرية مواسمها ليطروا طبق وجبتهم اليومية بما يلين يباس المعدة بعد طوال اغتذائها بالعدس والبقول الجافة. والوادي إلى هذا وذاك هو المسبح وهو خط النزهات، وحنواته هي الأماكن المفضلة للخلوات والأحاديث الحميمة. وبهذا كله ترتبط التفاصيل الحيّة التي يحتفظ بها المبعدون عن الوطن بدافع الحاجة إلى تقوية حلمهم في العودة إليه، أو الحاجة إلى خلق الإحساس بالانتماء إلى مكان.

وإلى جانب الوادي تستقر في الذاكرة، كما كان الحال على الأرض، صورة البركة الصغيرة التي كان ماؤها يملأ منخفضاً في شمال القرية بين الدور وحافة الوادي. هذه البركة لا تشير أي خارطة إلى وجودها، ولا تتحدث عنها حتى الموسوعة. بالرغم من هذا فحضور البركة قوّي في الذاكرة كما كان شأنه في القرية، فهي المشهد الجميل في أيام امتلائها بالماء الذي يكسر رتابة المشهد العام للقرية، وهي المستودع الذي يختزن ماء الشتاء لينتفع به من يحتاج إليه بعد ذلك، وهي الملعب الذي تمرح فيه طيور البط والإوز وتمارس طقوس حياتها فتبتهج وتبهج الناظرين إليها، كباراً وصغاراً. والبركة إلى كل هذا هي الكثير مما هو نافع وسار حين تكون مترعة بمائها المتموج، أما حين يجف الماء من هذه البركة فإنها تصير شيئاً آخر أو أشياء أخرى عديدة، فهي مصدر التراب الناعم لمن يحتاجون للتراب من أجل تلييس الجدران بالطين الأملس، وهي ملعب الأولاد الذين يلاحقون الحشرات والزواحف النادرة، والمكان الذي ينصبون فيه أفخاخهم لاصطياد الطيور. وبين امتلائها وجفافها، تصير البركة مصدراً للمتاعب، حيث يتكاثر البعوض والهوامّ على صفحة الماء الآسن. وبهذا كله، ترتبط، أيضاً، وقائع حية لا حدّ لحصرها، وترتسم حيوات وعوالم لا حدّ لغناها.

وفي الذاكرة، أيضاً، كما على الأرض، أيضاً، صورة موقع آخر في القرية، هو بين مواقعها العامة الأكثر حيوية. فعلى نقطة متميزة في محيط القرية، حفر أهلها البئر الوحيدة التي يتزود منها الناس بالماء النقي، وجعلوها ملكية عامة، أو مشاعة بتعبير تلك

الأيام. تعاونت الأيدي الباحثة عن السائل العزيز فحفرت أربعين متراً في عمق التراب، فلما واجهتها الطبقة الصخرية الصلدة التي تخزن الماء تحت جلاميدها، شقت الأيدي المتعاونة الصخر بالفؤوس حتى انبثق سائل الحياة. ولكي يسهل إيصال الماء إلى أعلى بدل انتشاله بالدلاء، ولأن الأهالي لم يعرفوا المحركات الآلية، لجأ هؤلاء إلى الوسيلة التي كانت شائعة، فاستخدموا نظام القواديس، أو النواعير، الذي ابتكره الأسلاف الغابرون وعمموه في بلاد الشام كلها. والقادوس قالب مصنوع من الخشب يتسع لبضعة لترات من الماء. وقد علقت قواديس عديدة متتابعة على سلسلة حديدية تدور حول حامل منصوب فوق البئر، وتتقاطع مع محور يمتد من الأرض إلى أعلى، بحيث تهبط القواديس الواحد تلو الآخر إلى عمق البئر فتمتلئ بمائها، ثم تصعد، في دورة متتابعة. وحين يصل القادوس إلى أعلى، يميل بحكم الآلية المستخدمة في هذا النظام، فينصب ماؤه في قناة توصل الماء بدورها إلى الجابية التي تخزنه. وهذه الجابية مستودع للماء مبني من الحجارة المطلية بالإسمنت، على هيئة مسبح صغير يتجمع فيه ماء القواديس فيسهل على طالبيه الانتفاع به، إما باغترافه مباشرة من الجابية، أو عبر الصنابير الستة الموصلة بها. أما المحور الذي يرتبط به نظام استخراج الماء كله، فيدور بفعل دوران دولاب خشبي كبير، قريب من الأرض، يحركه بغل يُشدّ إليه، ويظل يدور إلى أن تمتلئ الجابية بالماء.

هذه البئر ألحق بها أهل القرية الأولون حاكورة صغيرة يستثمرها من يختارونه للإشراف على عمل البئر بمثابة أجر لهذا المشرف. ولأن الماء في المتناول ومن حق المشرف، كما أن من السهل عليه استخدامه لريّ الحاكورة، فقد صارت حاكورة البئر أخصب بقعة في القرية. وألف المشرف أن يستنبت في الحاكورة نباتات البستنة والخضار في معظم فصول السنة. وحين يتيبس كل شيء في شهور الصيف القائظة تزدهي الحاكورة وحدها بخضرتها، وتبدو يانعة تجتذب الباحثين عن الطراوة وتغوي من يمتلكون القدرة الشرائية ويرغبون في الحصول على الثمر الطازج.

وتنتصب بجانب البئر سدرة غرسها الذين حفروها. ولهذه السدرة في حياة القرية أهمية خاصة تنبع من موقعها بجوار البئر ومن حجمها الهائل وخضرتها الدائمة. فبعد أن بلغ عمر السدرة عشرات السنين، امتد جذعها عدة أمتار إلى أعلى، وتشابكت فروعها واستطالت على محيط الجذع، فشكلت السدرة مستظلاً فسيحاً بحيث يمكن أن يأوي إليه عشرات الناس ومئاتهم في وقت واحد، دون أن يضيق بهم المكان الظليل. فإذا تذكرت كم هي مديدة الأوقات القائظة، وكم يحلو للمتعبين من العمل أو الذين يشعرون بالملل من طول الفراغ أن يجدوا في الأيام الحارة مستظلاً يجمعهم للسمر في الهواء الطلق، فستدرك لماذا تحول مستظل السدرة إلى منتدى يلتقي فيه رجال القرية في النهارات التي يشتدّ

فيها لهيب الشمس، وفي الأماسي الحارة التي يخرج الحر الناس فيها من دورهم ويدفعهم إلى تلمس الطراوة في الهواء الطلق. وإذا أضفت، إلى هذا، الثمر الكثير الذي تهيؤه السدرة من دومها وتمنحه بلا مقابل لمن يقصدها، فستعرف بنفسك أهمية هذه السدرة في حياة القرية، سواء تعلق الأمر بالكبار فيها أو بالصغار، ولماذا صارت السدرة في واقع القرية كما في ذاكرة أهلها معلماً يؤكد حيوية الموقع الذي تتوسطه البئر.

وفي الذاكرة مما يتصل، أيضاً، بهذه الجغرافيا المفعمة بالحياة أماكن متميزة أخرى. فهناك المسجد، أو الجامع حسب التسمية الشائعة في القرية. وجامع القرية بناء بسيط فيه حجرة واحدة فسيحة بعض الشيء، يتصدرها منبر خشبي بسيط هو الآخر، إذ إنه منصة صغيرة يصعد إليها الخطيب مرتقياً ثلاث درجات. وليس في هذا البناء مئذنة، ولا يميزه عما يجاوره إلا كثر نوافذه. وفي جامع يفتقر في أغلب الأوقات إلى إمام متفرغ يلتقي المصلون من رجال القرية مرة واحدة فقط في الأسبوع، وذلك حين يؤدون صلاة الجمعة. فيما عدا ذلك من أوقات، يبقى الجامع فارغاً، ولا ينشغل إلا حين تقتضي مناسبة طارئة أن يجتمع رجال القرية كلها في مكان واحد. وقد ينبغي أن تعرف أن مناسبات كهذه هي في العادة قليلة أو حتى نادرة. وكان في هذا الوضع ما يشجع الأولاد على استخدام الجامع لممارسة أنشطتهم الغامضة، خصوصاً في الأماسي غير المقمرة حين تبهت فعالية رقابة الكبار.

وقد يحدث أن يلمّ بالقرية هذا أو ذاك من الوعّاظ الجوّالين. يأتي هؤلاء في الغالب من مصر، يطوفون القرى الفلسطينية بدوافع شتى، فمنهم من ينتمي إلى جمعيات أو هيئات تهتم بنشر الوعي الديني وتمول رحلات وعاظها، ومنهم من يمارس الوعظ لحسابه الخاص ويتخذه وسيلة للتكسّب، كما أن منهم من يستهدف الحصول على الحسنيين، فيمارس الوعظ متوخياً منافع الدنيا التي في المتناول ومنافع الآخرة الموعودة. النوع الأول من الوعاظ يفضل أن يلتقي الناس في الجامع، وإن كان لا يرفض دعوات الموسرين حين يولمون له في منازلهم. أما الآخرون فيقصدون مضافة المختار أو دور الموسرين رأساً. فإذا آنس المضيف في زيارة الواعظ شيئاً من الجدية ووجد في هيئته وسلوكه ما يحمل على الاحترام، دعا الناس للاستماع إليه في داره، مع الوليمة التي لا بدّ منها في هذه الأحوال. أما إذا كان الزائر من الوزن الخفيف الذي لا يبعث على الاحترام، فإن المضيف ينصحه بالتوجه إلى الجامع ووعظ الناس فيه. وفي ذاكرة القرية أن جامعها شهد فترة ازدهار في وقت سابق، وذلك قبل افتتاح المدرسة، حين كان الجامع يستخدم بوصفه كُتّاباً لتعليم مبادئ القراءة والكتابة والحساب. يلم بالقرية رجل من غير أهلها فيقيم في الجامع ويحيله إلى كتّاب يؤمه الأولاد الذين ترغب أسرهم في تعليمهم. ويتلقى شيخ الكتّاب هذا

أجرة عينية، خبزاً وبيضاً وشيئاً من الخضار، ولحماً في الأعياد والمناسبات الهامة، وحصّة معلومة من القمح أو الشعير في كل سنة. ولكي يسوغ الشيخ إقامته في الجامع الذي هو في نهاية الحساب منشأة عامة فهو يمارس في الجامع وظيفة الإمام، أيضاً، فيقيم صلوات جامعة في كل يوم. وكان شيوخ الكتّاب يمارسون أنشطة أخرى يوسعون بأجرها على أنفسهم. فهم الذين يكتبون الحجب والتعاويذ، حجباً تحمي من الأوبئة وأخرى تشفي من الأمراض، وحجباً تفتح القلوب للحبّ وأخرى تبرئ منه، وحجباً تهيئ للعاقر أن تحبل وأخرى تجعل الجنين صبياً، وتعاويذ تصون حامليها من أذى الجان أو الإنس، وأخرى توقع الأذى بمن يرغب حاملها في إيذائه. ولكل من هذه الحجب أو التعاويذ سعره المعلوم، حيث يستقر في أذهان طلاب الحجب أن كاتب الحجاب يتقاسم ما يحصل عليه مع ملوك الجان الذين يتصل بهم ليكونوا في خدمة زبائنه.

وهناك في ظاهر القرية مما يلي الوادي مكان متميز آخر يسميه الناس "بئر أبو جاظوم". حول هذا المكان بالذات تتداول حكايا كثيرة يفوق عددها عدد أي حكايا متداولة حول أي مكان غيره. ويختلط في الحكايا الواقعي بالمتخيل والحقيقي بالأسطوري. ولو أجريت تمحيصاً صبوراً لما تسمعه، فستستنتج أن إنساناً ما له هذا الاسم الغريب "أبو جاظوم"، أو أطلق عليه الفلاحون هذا الاسم لاعتقادهم أنه منهم، شاء في سنة من السنين أن يقيم في القرية مزرعة عصرية، فاشترى قطعة الأرض. وقد أراد الرجل أن تكون المزرعة مروية، فحفر البئر التي حملت اسمه أو لقبه كي يظفر بالماء اللازم للريّ. والواضح أن الحفر جرى في منطقة ذات تربة كلسية. وقد امتد الحفر عميقاً وتكوّمت بجانب الحفرة كومة معتبرة من الكلس ناصع البياض دون أن يظهر الماء. ويبدو أن الرجل كان عنيداً أو غريب الطبع فلم يكلّ عن الحفر ولم يقبل بنصائح الخبراء الذين أشاروا عليه بأن يجرب حظه في بقعة أخرى، بل أصر على الاستمرار في الحفر في المكان ذاته الذي بدأ فيه. وفي مجتمع يؤمن بأن ربّ السماء هو مقسم الحظوظ وهو الواهب والمانع، انتهى الناس إلى الاعتقاد بأن هذا الربّ لا يريد للماء أن يظهر لهذا الرجل في هذا المكان. أما صاحب المزرعة المأمولة فشاء أن يتحدى القدر ولم يقبل بالقسمة. وفي النهاية، أجهض المشروع كله؛ تعمقت الحفرة بحيث لا يستطيع الناظر أن يسبر غورها، وكبرت كومة الكلس فصارت أكمة، ولم يظهر الماء. وطوى الرجل أحلامه وغاب عن القرية وغابت عنها أخباره، وبقيت الحفرة المشؤومة وكومة الكلس والحكايات الغامضة التي انداحت وتوسعت بمضيّ السنين.

وهكذا، استقر في الأذهان أن المكان منحوس، وأنه موئل للشرّيرين من ملوك الجان وأتباعهم، وهؤلاء هم الذين حالوا دون ظهور الماء كي لا يستولي الإنس على مكانهم الأثير. وقد وجدت حكايات كهذه ما يعزّز الاعتقاد بصوابها كلّما نجم عن بقاء الحفرة المكشوفة

حادث ما. فإذا وقعت في الحفرة دابّة ضالة ظن الناس أن الجان هم الذين أهلكوها. وإذا قتل أحد ما غريماً له، أو سفكت أسرة دم ابنة لها فرطت بعرضها، ثم أخفيت الجثة في الحفرة، توهم الناس أن الجان هم الذين ارتكبوا الجريمة لغرض في نفوسهم. بالإجمال،صار المكان حين جئت إلى الدنيا مرهوباً يتهيّب الناس الاقتراب منه. وإذا أرغم أحدهم على الذهاب إلى المكان، كأن يكون بحاجة إلى الكلس من أجل طلاء الجدران أو للبحث عن دابّة مفقودة أو لأي شأن آخر، فإنه يذهب بعد أن يتزود بالتعاويذ ويتسلح بالتمائم الملائمة ويردد الأوراد المقدسة في الذهاب والإياب. وفي كل الأحوال، لا يذهب أحد إلى البئر في أوقات الظلام.

ومن الأماكن الأخرى المتميزة، تحتفظ الذاكرة بصورة لمزبلتين ضخمتين متجاورتين هما في الواقع أكمتان تجمعت فيهما الفضلات، يميز الناس بينهما باسميهما: المزبلة الشرقية والمزبلة الغربية. وقد تسأل: لماذا مزبلتان وليس واحدة مادامتا متجاورتين؟ إن الذاكرة لا تحتفظ بتفسير لهذا الازدواج. والأقرب إلى المفهوم أن تكون خلافات قديمة بين حمائل القرية قد أدت إلى انقسامها لمعسكرين، فأثّر الانقسام حتى في مجال كهذا فصار لكل واحد من المعسكرين مزبلته الخاصة، ثم استمر الأمر بعد ذلك بفعل تلك الآلية الغامضة التي تبقي أي شيء في المجتمعات المحافظة على حاله حتى بعد أن تزول أسباب وجوده. وعلى كل حال، قد يبدو لك غريباً أن يكون للمزابل قوة الحضور هذه، فيتواصل حضورها في ذاكرة الناس حتى بعد تشردهم. هنا يحسن أن أنبهك إلى أن المزبلة ليست المكان الذي تلقى فيه الفضلات كي تنسى بعد ذلك، بل هي، وهذا هو الهام في الأمر، مستودع للسماد. فالمخلفات التي تتخمر تحت حرارة الشمس تتحول إلى سماد نافع للزرع، وهي في ظروف القرية المصدر الوحيد للسماد، ذلك أن الناس لم يعرفوا السماد الذي يباع في الأسواق، ولم يكونوا قادرين على شرائه حتى لو عرفوه. وبهذه الصفة، تندرج المزابل بين الأشياء التي تؤثر في حياة الناس وتفعل فعلها في توجيه علاقاتهم بعضهم ببعض، في هذا الاتجاه أو ذاك.

وتري الصورة الإجمالية للقرية حين نستعرض تفاصيلها في الذاكرة الدور الطينية المائة وقد تلاصقت في بقعة شبة دائرية. وبالرغم من انحدار أهل القرية كلهم من منبت واحد، فإن حظوظهم في الغنى والفقر تفاوتت، وتجلى هذا التفاوت في مظاهر شتى، بينها أحجام الدور التي كانوا يسكنوها. فبعض هذه الدور فسيح، تضم الواحدة منها حجرتين أو ثلاثاً وفسحة تتوزع في أركانها الملاحق التي تفرض حاجات الحياة وجودها. وفي الدور التي يصنف أصحابها بين الميسورين ستجد من هذه الملاحق "البايكة"، وهي مستودع للتبن والقصل والعلف وحظيرة للدواب، كما ستجد القن الذي يأوي إليه الدجاج

والآخر الذي يسكنه الإوز والبرج الذي يربى فيه الحمام. وبعض الدور صغير، فلا تضم الدار سوى حجرة واحدة تعيش فيها الأسرة كلها، وفي هذه الحجرة تنام في الليالي الباردة الدواب التي تملكها الأسرة، إن كان للأسرة ما تملكه من الدواب.

وفي القرية زقاق واحد وحيد ضيق موحل في الأيام الماطرة ومترب في أيام الجفاف. والزقاق يخترق القرّية من ناحيتها الشرقية إلى الناحية الغربية فيقسمها بهذا إلى حيين: قبلي، أي جنوبي، تطل معظم دوره على البيادر، وشمالي تطل دوره على البركة. وفي القرية حانوتان يبيعان القليل من الحاجات الضرورية للفلاحين، واحد في الحيّ القبلي، يملكه رجل متعدد الأنشطة اسمه أبو زكري، وآخر في الحي الشمالي كان يملكه قريب لي متعدد النشاطات هو الآخر، وهو العم محمود. ولم يكن أي من هذين الرجلين متفرغاً للحانوت، ولا كانت حاجات الناس بما هم عليه من قدرة شرائية متدنية تقتضي التفرغ. لذا، كان كل من الحانوتين يستقبل زبائنه في أوقات محدودة، أو يفتح عند الحاجة، فقط. أما في أيام الأحداث الساخنة، كأن يقع في القرية شجار بين الحمائل المتنافسة أو المتنابذة، أو تنشغل القرية بشأن عام طارئ ويتعذر التقاء الناس في الجامع، فإن المصاطب الطينية المقامة أمام كل من الحانوتين تتحول إلى منتدى يجتمع فيه الرجال ويتداولون الآراء في الأحداث.

هذه القرية لا يعرف أحد على وجه اليقين سنة إنشائها. والذين توارثوا عن الأسلاف حكاية إنشاء القرية يروون وقائع وأحداثاً تبيح للمستمع المتبصر أن يعتقد أن المسمية الصغيرة أنشئت قبل سبعين أو ثمانين سنة من مولدي. أما لماذا لصقت صفة الصغيرة بالقرية فلهذا حكاية هي حكاية إنشاء القرية، وهي ذاتها التي تفسّر واقع أن أهل القرية كلهم ينتمون لعشيرة واحدة، ويحمل كل منهم اللقب العائلي الذي هو لقبي.

قبل هذه العشرات من السنين، سبعاً كانت أو ثمانياً، أو أكثر أو أقل، كانت عشيرة الحوراني، أو عائلة الحوراني وفق التسمية الألصق بالعصر الراهن، تعيش مع عشائر أو عائلات أخرى في قرية تحمل اسم المسمية دون أوصاف إضافية. انحدرت هذه العشيرة من نسل رجل وفد إلى المسمية قادماً من حوران قبل ذلك بما لا يدري أحد من السنين، وهو من أبناء عشيرة كبيرة اسمها المحاميد تسكن هذه المنطقة من جنوب سورية، وتتوزع فيها بين مدينة درعا وسبع قرى في محيطها. ولأن الرجل قادم من حوران، سماه الناس الحوراني وورث نسله هذا الاسم، وقد أنسل الحوراني الأول الوافد إلى المسمية سبعة ذكور، أنسلوا بدورهم آخرين، وشكلوا عائلة مهابة الجانب. وبالطبع، نشأت بين هذه العائلة وعائلات القرية الأخرى الشبكة المألوفة من العلاقات في مثل هذه الحالة، فكان

للعائلة أصدقاؤها مثلما كان لها خصومها. وفي وقت من الاوقات، استفحل نزاع قديم بين عائلة الحوراني وعائلة أخرى، وانفجرت عداوة مزمنة عكرت العلاقات بين العائلتين وقسمت القرية كلها إلى معسكرين. وحين ولدت، لم يكن أحد يتذكر، بعد، أو يهتم بأن يتذكر، الأسباب الأولى للنزاع أو السبب الذي فجر العداوة. ومن الممكن أن تتصور أن النزاع اشتعل في البداية لواحد من الأسباب العديدة التي تشعل النزاعات في القرية. فربما تعلق الأمر بخلاف على توزيع أنصبة الأرض بين العوائل حين كانت الأرض مشاعاً يعاد توزيعها مرة كل سنة أو بضع سنين، وتتبارى العوائل للحصول على الأنصبة الأجود. أو ربما تعلق الأمر بالخلاف على حصص العائلات من الماء، أو على ساعات ورود ماشيتها إلى الآبار. كما أنه من الممكن أن يكون النزاع قد ابتدأ بشأن واحد من المناصب البارزة، حيث يمكن أن يتشاجر المتنافسون على منصب المختار أو عضوية هيئة الاختيارية، أو المسنين، أو مركز إمام الجامع أو المشرف على البئر، أو حتى المنادي الذي يبلغ إلى الأهالي تعليمات الحكومة وأخبارها ودعاياتها. إن هذه الأسباب وما يشبهها هي التي توقد نيران العداوة في القرية، وتنفث فيها سموم الكراهية المتبادلة، فيستمر تأثيرها عبر الأجيال المتعاقبة حتى بعد أن تزول الأسباب وينساها الناس. ويمكن للمرء أن يضيف لهذه الأسباب ذات التأثير الدائم قائمة لا حصر لها من الأسباب الطارئة. فقد تشتعل الخصومة بتأثير حادث عرضي يترتب عليه أذى لهذا أو ذاك من الناس، كأن تشرد دابّة لشخص ما فتخرب الزرع في حقل شخص آخر، أو أن يتشاجر ولدان فيجرح أحدهما الآخر، أو أن يعض كلب إنساناً. كما قد تشتعل الخصومة بسبب حادث سطو، أو اعتداء على عرض، أو منافسة على امرأة مرغوبة، أو سباق في ميدان طراد الخيل. وهناك خصومات تنشب دون أن يكون وراءها سبب سوى مشاعر الحسد والغيرة المختزنة في النفوس. مثل هذه الأسباب قد لا تكون هامة في حدّ ذاتها، إلا أنها حين تتغذى بتأثير الأسباب الأخرى الدائمة تؤجج مشاعر العداء المختزنة، وتسمم العلاقات، وتدفع المتخاصمين إلى الاقتتال.

ومهما يكن من أمر، فإن واحداً من هذه الأسباب فجر النزاع في المسمية بين عائلة الحوراني وخصومها، وكان النزاع دامياً، إذ قتل واحدٌ من الحورانيين واحداً من الخصوم. عندها، توجب على الحورانيين كلهم، وفقاً لتقاليد الثأر التي بقيت قائمة حتى في أيامي، أن يتحملوا المسؤولية مجتمعين، وهي مسؤولية خطيرة ومتعدّدة الجوانب. ففي غياب الولاء للدولة، ومع الافتقار للقناعة بنزاهة أجهزتها، ومع سطوة المفهوم العشائري، كان أهل القتيل يلبّون حاجتهم للثأر بأيديهم، ويصبح الرجال من عائلة القاتل جميعهم مستهدفين، مثلهم مثل القاتل نفسه. ولدواعي الحيطة، ولإفساح المجال أمام المساعي الخيّرة التي تستهدف تحقيق المصالحة، يوجب التقليد على أهل القاتل أن يرحلوا فوراً من البلد الذي

تقع فيه الجريمة. وإذا تعذر تحقيق المصالحة تتبادل العائلتان القتل لفترات تطول أو تقصر حسب الأحوال، إلى أن تستجد الظروف التي تسمح بعقد مصالحة شاملة بين الجانبين ويفلح سعاة الخير في حقن الدماء.

خضع آل الحوراني، إذن، لهذا التقليد إثر مقتل خصمهم. إلا أن التقليد طبق عليهم في صورة مخففة بعض الشيء. ولعل هذا جرى بسبب مكانتهم الخاصة في القرية وكونهم من أصحاب الأرض فيها. وبدل أن يرحل الحورانيون إلى مكان ناء، انتقلوا إلى الإقامة في الجزء الذي كان يخصهم من حقول القرية. وفي البداية، سكن الراحلون في بيوت الشعر منتظرين أن تفلح مساعي الخير في إعادتهم إلى القرية. ولما طال الأمر، بنى هؤلاء المساكن الطينية واستقروا فيها. وهكذا، أنشأ الحورانيون في واقع الأمر قرية جديدة بجوار المسمية الأم، وأطلقوا عليها هي الأخرى اسم المسمية. ولكي يميز بين القريتين، أضافوا إلى القرية الأم صفة الكبيرة فصارت المسمية الكبيرة، كما أضافوا صفة الصغيرة إلى القرية الجديدة، فصارت المسمية الصغيرة. والتصقت الصفتان باسمي القريتين حتى صارتا جزءاً منهما. ثم لم تلبث التسمية التي أطلقها الناس أن دخلت السجلات الرسمية وظهرت على خارطة البلاد. ولما سوّي النزاع بعد ذلك بقليل أو كثير من السنين، كان الحورانيون قد استمرأوا العيش في مستقرهم الجديد وثبتوا حيازتهم للأرض الزراعية المحيطة بها، فآثروا، بالطبع، البقاء في القرية التي تخصهم وحدهم. إلا أن الحورانيين ظلوا بالرغم من ذلك يضيقون بصفة الصغيرة هذه التي لصقت بالقرية، فيما استطاب أهل المسمية صفة الكبيرة التي ظفرت بها قريتهم دون عناء، وأضافوها إلى أسباب تفاخرهم في منافساتهم اللاحقة مع المسمية الأخرى.

تكاثر الحورانيون في مسميتهم الصغيرة، فصاروا بمضي السنين سبع حمائل، حملت كل واحدة منها اسم الرجل الذي انحدرت من نسله. ونشأ بين الحمائل السبع ما ينشأ في العادة بين أبناء العمومة من علاقات شائكة. فكانت الحمائل المتعددة تتوحد حين تواجه خطراً يستهدف القرية كلها، كأن يعتدي غريب على بعض ناسها أو حقولها أو مواشيها أو مائها، أو إذا دهم الدرك العثماني أو البوليس الإنجليزي القرية، أو إذا شن رجال الضرائب حملاتهم الشهيرة. في مقابل هذا، كانت الخصومات تشتعل بين الحمائل من وقت لآخر، وتصل في بعض الأحيان إلى حدود القطيعة والتنابذ، وحتى الشجار والاقتتال. تحفز على هذه الخصومات الأسباب ذاتها التي تشعل الخصومات في أي قرية، سواء انحدر أهلها من أصل واحد أو جاءوا من أصول متفرقة. وبين هذا وذاك، كان أبناء الحمائل يتزاوجون، ويتبادلون المجاملات، ويتشاركون في الأعمال، ويتقاسمون الأتراح والأفراح.

أما الخصومة مع أهل المسمية الكبيرة، فإن المصالحة التي انعقدت في نهاية المطاف قد أطفأت حدتها، فانفتح المجال لتطبيع العلاقات بين القريتين. غير أن آثار الخصومة، خصوصاً حين تؤججها دوافع مستجدة، بقيت تنساب في عروق العلاقات التي تصل بين الناس في القريتين، وإن لم تدفع في أي وقت من الأوقات إلى حدّ إراقة الدماء مرة أخرى. وبدل الاقتتال ساد التنافس. وإذ تحرر هذا التنافس من صبغته الدامية السابقة، فقد تبدلت أشكاله وأساليبه وكذلك ميادينه وتنوعت بمرور الزمن وتغير الظروف. ومع اكتساء التنافس بالصبغة السلمية، نبتت من إرث الخصومة القديمة علاقات تعاون بين القريتين، فانعقدت مصاهرات، وقامت شراكات، وانفتح المجال للتوسع في تبادل الزيارات والمجاملات، ونجم عن هذا كله صداقات وتحالفات جديدة.

والحقيقة أن دوافع التعاون بين القريتين الجارتين، كما هو الحال بالنسبة للقرى الأخرى، اتسعت في السنوات التي تلت إنشاء المسمية الصغيرة. ففي هذه السنوات، أخذ السخط الشعبي المتزايد على جور السلطات العثمانية يفصح عن نفسه بصور أوضح من السابق وأحد، ويوحد الناس ضد السلطات.

كانت الإمبراطورية التي تشكل فلسطين ولاية من ولاياتها العربية العديدة قد أصبحت رجل الشرق المريض. وأنت تعرف الحال الذي آلت إليه هذه الإمبراطورية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فقد افترست الحروب حيوات شبانها، وامتصّ الفساد الذي استشرى في أجهزتها المدنية والعسكرية دماء شعوبها، وأجهزت حروب التحرير في المستعمرات الطامحة للخلاص على ما بقي من قوة الإمبراطورية وهيبتها، وأودت التدخلات الأجنبية في شؤون الإمبراطورية بما بقي من تماسك بين أجزائها. ضعفت سلطات الإمبراطورية، ولم يبق لها من الحضور إلا الجور الذي يشتط الحكام الضعفاء في تسليطه على من يتمكنون منه من رعاياهم. وازدادت إجراءات القمع، وأكل متعهدو الضرائب وجُباتها وحماتُها من رجال الأمن أرزاق الناس، وغالوا في الفظاظة. وتوسعت أعمال السخرة المفروضة على الأهالي، حين يرغم الناس على ترك أعمالهم الخاصة ويساقون بالسياط والسباب للعمل بغير أجور وربما بغير مؤونة، في مشاريع الدولة أو في المشاريع الشخصية للحكام والمتنفذين.

واتسعت، بجانب هذا كله، حملات التجنيد الإلزامي. فكان رجال الدولة الموكَّلون بتجنيد الفلاحين، بما لديهم من صلاحيات مطلقة، يدهمون القرية بغتة، فيجمعون رجالها ويختارون من بينهم من يقدّرون أنهم في سن التجنيد، ثم يسوقون المجندين كما تساق البهائم إلى معسكرات التدريب، ثم إلى المسالخ التي ينصبها للجنود قادة جهلة وفاسدون ومفعمون

بالغرور. وهكذا، كان على الفلاح الذي لا يعرف غير المسمية، ولا يحمل أي دافع حقيقي للدفاع عن الدولة العثمانية أو لمعاداة الدول الأخرى، أن يترك أسرته بغير معيل لأن جسده قوي، بالصدفة، أو لأن أسنانه سليمة، بالصدفة، أيضاً، و لأنه عاجز عن تقديم الرشوة التي تنقذه من هذا المصير. ثم كان على هذا الفلاح ذاته أن يذهب إلى معسكر التدريب، حيث يتولاه مدربون أجلاف، ويتناوبون العمل لترويضه على الانصياع وتقبل إهانات الرؤساء وأوامرهم الحمقاء، دون أن يتعلم من فنون القتال الذي سيزج فيه إلا أقلها. فإذا تم ترويض هذا الفلاح، بحيث يدرك أن أي إيماءة تشي بإحساسه بالكرامة أو تمرده على الظلم ستكلفه التعرض لأشد العقوبات قسوة، سيق الرجل الذي لا يحقد على أحد سوى قادته لكي يحارب أعداء هؤلاء القادة من الروس أو البلغار أو اليونانيين أو حتى اليمنيين الذين يتكلمون لغته ذاتها ويدينون بدينه.

وكان مجندون كثيرون يقتلون في الحروب وهم محرومون حتى من الإحساس بالفخار. وكان آخرون يموتون في البراري أثناء التنقل، أو تهلكهم الأمراض والأوبئة التي لا يهتم أحد بمعالجتها، أو تختفي أخبارهم في ظلام الغربة دون أن يعرف الأهل شيئاً عن مصيرهم. أما إذا كان المجند محظوظاً فنجا من الموت أثناء القتال وصمد أمام هجمات الأوبئة الفتاكة وتحايل بحيث لم يضع في البراري والجبال المجهولة، ثم إذا فطنت أجهزة التجنيد المفتقرة إلى النظام إلى أن أوان تسريحه قد حان، فيتوجب على الرجل أن يتدبر أمر عودته إلى أهله بنفسه. وعندها، تبدأ سلسلة أخرى من المتاعب. فرحلة العودة غالباً ما تكون طويلة. وعلى العائد أن يتدبر أمر طعامه ومبيته خلال شهور مديدة. وهو في العادة يعمل عند هذا أو ذاك من أرباب العمل في البلدان التي يجتازها. ولكثرة طلاب العمل، لا يحصل العامل إلا على الطعام والمبيت، فيما هو بحاجة إلى أجرة الانتقال. ويجتهد العامل في الحصول على شيء من المال وادخاره لبقية الطريق، وقد لا يتيسر له هذا أو لا يتيسر بسهولة، وقد يصل إلى محطة لا يجد فيها عملاً مقابل الطعام أو الإقامة فيرغم على إنفاق ما ادخره. ويتكرر الأمر، مرة ومرات. ويظل الجندي العائد معرضاً لتعسف عارضي العمل ولشتى المخاطر الأخرى التي تعشش في إمبراطورية الفساد والفوضى والأمن المفقود. وفي رحلة العودة من الحرب، كما في رحلة الذهاب إليها، يغيب آخرون ويفتقد الأهل أخبارهم. وإذا وصل واحد من هؤلاء إلى أهله بالرغم من كل شيء فإنهم يستقبلون بقايا إنسان.

لقد أدى إفراط السلطات العثمانية في الجور وشططها في إثقال الرعايا بالأعباء إلى تفنن الناس في التهرب من حمل هذه الأعباء. واقتضى ذلك أشكالاً جديدة من التعاون بين الفلاحين، في القرية الواحدة وفي القرى المتجاورة. وفي وضع كهذا، ازدادت فرص التعاون بين المسميتين، وتراجعت تأثيرات النزاع السابق.

ثم رحل رجال الدولة العثمانية، كما تعرف، وانهارت مؤسساتها غير مأسوف عليها. وحتى الذين اعتادوا على أن يسلموا بوجود الحكم العثماني بدوافع دينية باعتباره حكماً إسلامياً، وينظروا إلى سلطان بني عثمان بوصفه خليفة المسلمين، لم يشعروا بالأسف حين انزاح عبء هذا الحكم عن أكتافهم. لقد أحس الجميع بالانفراج حين رأوا قلاع الظلم العتيق وهي تنهار الواحدة تلو الأخرى، وظنوا أن ليل الجور الذي أثقل على أرواحهم وأجسادهم وأرزاقهم قد ولى إلى الأبد.

وفرح الناس بقدوم الإنجليز الذين جللتهم الدعاية بسمعة طيبة، خصوصاً حول عدالتهم. واستقبلت البلاد جنود بريطانيا بما هم محررون. جاء الإنجليز بصحبة الثوار العرب الذين حالفوا دولة بريطانيا العظمى بأمل أن تساعدهم على التخلص من التسلط التركي وإشادة دولة العرب الكبيرة الواحدة الموحدة الممتدة من جبال طوروس إلى شواطئ المحيط الهندي. وعقد الجمهور آمالاً عريضة على الاستقلال والوحدة الموعودين. والحقيقة أن شيئاً ما تبدل في البداية. وقد بدا الحكام الجدد، والقرية ترى منهم الجندي والضابط ورجل البوليس وضابطه وحاكم الناحية أو ربما القائم مقام، مهندمين ومهذبي السلوك وحسني التصرف ولبقي الحديث، على نحو لم يألفه الفلاحون في الحكام السابقين، فتعززت الآمال، وتبارى الناس في إكرام هؤلاء الحكام وتنافسوا في هذا المجال أيما تنافس. وشهد الناس وقائع بعينها غذّت آمالهم في التمتع بالعدالة، فالحكام الجدد اهتموا بعدد من الشكاوى، والمحاكم الجديدة أظهرت حفاوة في النظر في دعاوى المظلومين وحققت لهم شيئاً كثيراً أو قليلاً من الإنصاف، والدوائر التي يتعامل معها الناس بدت أكثر عصرية وأشدّ تفهماً لشؤونهم.

إلا أن هذا كله لم يلبث أن تكشّف عن قشرة براقة ليس أكثر، أما في العمق فلم يكن ثمة فرق كبير بين استعمار وآخر. وقد تبين للفلسطينيين أن الإنجليزي الذي وفد إلى بلدهم تحت رايات التحرير ليس سوى مستعمر، كما اكتشفوا أن الاستعمار يحمل في طياته خطراً تهون أمامه جميع المخاطر الأخرى التي سبق أن تعرضوا لها. رحل الظُّلاّم الناطقون بالتركية فجاء الأظلم الناطقون بالإنجليزية. ومع هؤلاء، تدفق الصهيونيون الناطقون بلغات الأرض كلها. وفي القرى، ظهر رجل البوليس الإنجليزي الذي يجيء إليها راكباً الجيب محل الدركي العثماني الذي يمتطي الخيل. وحلّ مدير الناحية، أو القائم مقام المهندم ببذلة مصنوعة من الصوف الإنجليزي، محل زميله الراحل الذي يلبس السروال التركي. وسادت سطوة حكام الولاية والمندوب السامي البريطانيين بدل سطوة الولاة الأتراك وأعوانهم. ولم يمض وقت طويل حتى أدرك الناس أن الأيام التي انقضت كانت أقل قسوة من هذه التي وفدت. ففي الأيام التي انقضت، كان الناس يشكون فظاظة

الحكم وفداحة الضرائب والغرامات. وفي الأيام التي وفدت، أضاف الناس إلى هذا كله الشكوى من الإجراءات التي تستهدف أرضهم ومصادر رزقهم الأخرى ووجودهم ذاته في بلدهم.

وعرف فلاحو قريتنا المستوطنين اليهود أول ما عرفوهم حين منحت الدولة المستوطنين أرضاً تقع على بعد ثلاثة كيلو مترات من القرية أو أربعة. على هذه الأرض، أقام المستوطنون المحميّون من المستعمر مستوطنة، أو مستعمرة، "كفار مناحيم". كان الوافدون الجدد المسربلون بكل أنواع الغموض التي تحيط بمشروعهم يرطنون بلغات غير مفهومة ولا مألوفة. وكانت لهم سيماء غريبة وأوجه سلوك غريبة هي الأخرى، كانوا غرباء تماماً في كل شيء، بحيث لم يدر أحد كيف يتعامل معهم، فلا هم ضيوف فيكرموا، ولا رجال سلطة فيهابوا، ولا سياح يتفرجون على البلاد فيتفرج عليهم أهل البلاد، ولا عابرو سبيل فتقدم لهم المساعدات التي توجب التقاليد تقديمها للمحتاجين.

لقد بلبل حضور المستوطنين اليهود أفكار الناس. فلما عرف الفلاحون أن هؤلاء الوافدين امتلكوا الأرض، وأنهم يعدون أنفسهم للإقامة فيها إقامة دائمة، ثم لما شاع بين الناس أول الأخبار عن طبيعة المشروع الصهيوني كله، بدأ الفلاحون يدركون أنهم إزاء وافدين طماعين، ونبت الحذر في النفوس. ثم وقع أمر هام رآه أهل القرية رأي العين فأدركوا بالملموس أن السلطات البريطانية منحازة لهؤلاء الغرباء، وأنها لا تهتم بأهل البلاد ولا تقيم لهم وزناً. حدث هذا بينما كان العمل جارياً لبناء المستعمرة اليهودية والفلاحون يتداولون أخبارها باندهاش ورهبة. فقد أنفقت السلطات أموالاً طائلة كي تمدّ طريقاً للسيارات يصل المستعمرة بالطريق العام من جهة المسمية الكبيرة، على آثار الطريق القديم الذي سبق أن شقته الأقدام والعربات المجرورة بالدواب. وكان على الطريق القديم الذي يصل كفار مناحيم بالطريق الواصل بين يافا والمجدل أن يمر، بحكم الجغرافيا، بالمسميتين، وكان هذا هو حال الطريق القديم. غير أن الطريق الجديد المعبّد شقّ بحيث يبدأ من نقطة تبعده عن المسمية الكبيرة ويمر من موقع يبعده، أيضاً، عن المسمية الصغيرة، مع أن الطريق يصبح، بهذا الالتفاف حول القريتين، أطول وأكثر كلفة. وقد فهم الفلاحون أن السلطات فعلت هذا عن عمد، وما داموا لم يدركوا أن الدوافع الأمنية هي التي أملت إبعاد الطريق عن الأماكن المأهولة بأهل البلاد، فقد فسروا الأمر على أساس أن السلطات الغريبة تتعمد أن تحرمهم من الاستفادة من الطريق المعبد وتحصر الاستفادة منه بالغرباء الذين يتمتعون بحمايتها وعطفها.

وكان بإمكان فلاحي القريتين، بالطبع، أن يستخدموا الطريق الجديد، غير أن وصولهم إليه يوجب عليهم أن يقطعوا دروب المشاة الموحلة شتاء، والمتربة صيفاً، التي تفصلهم عنه.

وفي القرية التي لم تعرف من وسائط النقل حتى ذلك الوقت سوى الدوابّ وعربات الجرّ، صار على الأهالي أن يروا الباصات الفاخرة والشاحنات الكبيرة والسيارات ذات الألوان الزاهية، الخاصة منها والحكومية، رائحة غادية أمام أعينهم في خدمة المستوطنين، دون أن ينال أهل البلاد منها إلا ما تثيره في نفوسهم من شتى المشاعر المؤلمة. ثم صار على أهل القرية أن يعاينوا ما تنقله هذه الآليات من غريبي الوجوه وعجيبي المتاع، دون أن يكون لهم حتى الحق في الأمل بأن يحظوا برعاية كهذه. وكان طبيعياً، إذن، أن تنبت مشاعر الحنق فتمازج الإحساس بالاندهاش، وأن تتداول المجالس التعبير عن هذه المشاعر ويختزنها الفلاحون تحت الجلود.

ثم تجلّى خطر المستوطنين، عياناً، بصورة لا يختلف اثنان في تأويل مدلولاتها، حين سعى هؤلاء، كما فعل أمثالهم في أنحاء البلاد الأخرى، للاحتياز على مساحات من الأرض أوسع من تلك التي منحتهم إياها السلطات. وأنت تعرف أن الاحتياز على الأرض هو مفتاح النجاح بالنسبة للصهيونيين، وقد بنوا عليه أملهم في إقامة الدولة اليهودية في فلسطين. وبوجود الاحتلال البريطاني، بدت الظروف كلها مواتية للمشروع، إلا حين يتعلق الأمر بموقف أهل البلاد. فالسلطات تمنح الوافدين اليهود ما تحتاز عليه من أرض الملكية العامة، أو تبيعه للمؤسسات اليهودية بأسعار رمزية. والمال بحوزة الصهيونيين كثير، جاء بعضه مع المستوطنين أنفسهم، خصوصاً من بينهم أولئك الذين كانوا في بلدانهم الأوروبية ميسوري الأحوال واجتذبتهم فرص الاستثمار المتاحة في البلد الذي تحتله بريطانيا العظمى. وتبرع مؤيدو المشروع الصهيوني في أوروبا والمستفيدون منه بالكثير من المال، كذلك. والقوانين التي وضعتها السلطات الجديدة التي تحكم البلاد دون اعتبار لرغبات أهلها، والإجراءات المتعاقبة التي اتبعتها هذه السلطات وفرضتها بالتحايل أو بالعسف، هذه وتلك وفرت ما هو لازم لتسهيل انتقال الأرض إلى أيدي اليهود والمؤسسات الصهيونية التي ترعاهم. وقد أنشأ هؤلاء مؤسسات مسلحة بالخبرة، وبنوكاً لا تفتقر خزائنها للمال، وفرقاً منظمة تتعاون مع جيش الإنجليز وبوليسهم. فحوصر أهل البلاد من كل النواحي، فلم يبق أمامهم إلا أن يتعاونوا بمقدار ما يستطيعون وفي الحدود التي أمكن أن يتحرروا فيها من أسر منازعاتهم وخصوماتهم السابقة، وأن يتهيأوا للمواجهة أمام الخطر الزاحف.

وبينما راح يتشكل في البلاد هذا الوضع المفعم بشتى المخاطر السافرة والغامضة، نشأت أشكال جديده للتعاون بين أهل المسمية الصغيرة وبينهم وبين أهل المسمية الأم. وتطورت هذه الأشكال وازدادت إحكاماً مع تنامي الوعي بالخطر، وتضخم هذا الخطر الذي يدهم نشاطات الجميع. وصار من المألوف أن يشترك الأهالي في نشاطات عامة

موحدة هدفها. وصار الهدف هو التخفيف من فداحة الضرائب والغرامات ومواجهة جباتها، أو التخفيف من سطوة البوليس، أو تقديم العون للضحايا الذين تفترس أجهزة السلطة أرزاقهم أو حرياتهم، أو إخفاء المطلوبين عن عيون مطارديهم من رجال هذه السلطة. كما صار الأجدى أن يتشاور أهل القرية أو الوجهاء في قرى عدة متجاورة في مجال العمل لتعبئة الناس للدفاع عما في حوزتهم من أرض، والامتناع عن بيعها للمستوطنين أو للسماسرة الذين يخدمون هؤلاء المستوطنين. هذه الأشكال الأولى من التعاون شكلت المهاد التى أنبتت الأشكال الأخرى الأشد فاعلية ثم لم يلبث أن انخرطت البلاد كلها في المجابهة، صار الجسد كله محموماً، فتجندت أعضاؤه كلها للمقاومة، وتوالت الهبات والانتفاضات والثورات. لم يلغِ هذا الخصومات السابقة بين الناس بطبيعة الحال، ولم يحل دون نشوب أسباب جديدة للخصومة، غير أن طغيان الهم العام أزاح الخصومات المحلية من موضعها فنقلها إلى المحلات المتأخرة من الاعتبار.

وحين جئت أنا إلى الحياة، كانت نيران الخطر الزاحفة قد كوت الجلود كلها، وكان الإحساس بالخطر قد بلغ ذروته، وكانت آثار الخصومة القديمة بين المسميتين، مثلها مثل آثار الخصومات بين حمائل المسمية الصغيرة، قد غارت ولم يبق منها إلا الحكايات التي يرويها الكبار إذا حفزتهم على ذلك إحدى المناسبات.حتى هنا، أدخل رواة الحكايات تحويراً مقصوداً عليها، بما يلبي الحاجات إلى تجاوز ما يؤجج النزاع المنطفئ، وما يشد العزائم لمواجهة الخطر المشترك. فشجاعة الفتى الفلاني من أهل القرية، وكان الحديث يرد عنها في السابق للتدليل على جرأته في مواجهة القرية الأخرى، صارت في الرواية المحوّرة شجاعة الفتى ذاته في التصدي للعثماني أو الإنجليزي أو الصهيوني. وحكمة الشيخ الفلاني وطول باعه في تدبير الأمور وإعداده أشكال الانتقام من الخصوم صارت حكمته وطول باعه في مجال الإيقاع بدرك العثماني أو بوليس الإنجليزي أو مسلحي المستعمرات. ومأساة الصبية التي اعتدى عليها، ذات يوم، واحد من قرية أخرى صارت مأساتها حين تعرضت للمضايقة من الغرباء الذين لا تعرف رطانتهم.

وما دام التعاون بين أهل المسميتين قد حلّ محل تنابذهم القديم، فقد استبدل الاقتتال بهذا النوع من التنافس الذي شهدت تجلياته وأنا أدرج في سنوات عمري الأولى. تنافس الناس دون عداء، فتباروا في المجالات التي تبيح حياة الريف التباري فيها. وهكذا، تباهى الناس باستنبات أجود المحصول، واقتناء العدد الأوفر من المواشي والنوع الأجود من الخيول، والظفر بالزيجات الأنسب والنساء الأجمل، والتجلي في ميادين الدبكة والغناء والعزف على الربابة والمجوز والشبابة، والبروز في المناسبات العامة كالأعراس والموالد ومواسم الأنبياء والأولياء والصالحين وفي المآتم والجنازات وفي الحصول على الحظوة

لدى فاتنات الغجر حين يلمّ هؤلاء بالقريتين، ويقيمون معسكرهم في مكان وسط بينهما، ويجتذبون طلاب المتع البريئة وغير البريئة، ويتسولون أو يسرقون أو يسوقون منتجاتهم اليدوية مجتذبين جمهور الفلاحين والفلاحات بما هو مشروع وما هو غير مشروع، أيضاً، من وسائل الإغراء. وعندما حظيت القريتان بأول مدرسة حديثة، وكانت مشتركة بينهما، انفتح ميدان جديد للتنافس، تجلى فيه الصغار هذه المرة. فقد راح الأولاد يتبارون في الحصول على المراتب الأولى في الصفوف، كما يتبارون في الألعاب الرياضية الحديثة التي جاءت إلى القريتين مع إنشاء المدرسة. وظفر ذوو الأولاد بدورهم بفرص أخرى للتباهي والتفاخر. ولما جاء دور الهبّات والانتفاضات والثورات الوطنية، ظفر الفلاحون بأكثر الميادين جاذبية في مجال التنافس والتفاخر. هنا، صار الرجال يتنافسون للحصول على المواقع البارزة في صفوف المجاهدين، ويتبارون في البروز في مواقع الخطر، ويتباهون بامتلاك الأنواع الأجود من السلاح.

- ١ -

سَمِيُّ الملك
لا أقلّ من أبيه

في وقت ما من العام ١٩٣٩، اصطدمت عيناي بأول دفقة من نور عالمنا. ولدت حين كانت الثورة الفلسطينية الوطنية الكبرى ما تزال تبثُّ شيئاً من ألقها وتستحوذ على اهتمام الجمهور. وأنت تعرف أن هذه الثورة اشتعلت في العام ١٩٣٦ واستمرت طيلة ثلاث سنوات. بدأ الأمر بالإضراب العام، في نيسان/ إبريل من ذلك العام، وهو الإضراب الذي شمل البلاد كلها ودام ستة شهور. لجأ الشعب الفلسطيني إلى هذا الإضراب الطويل، بعد سلسلة من الإضرابات والهبّات والصدامات القصيرة مع سلطات الاحتلال البريطاني والمستوطنين اليهود المتمتعين بحمايتها، وبعد أن تراكم الأذى الذي لحق بهذا الشعب فراكم السخط في صفوفه وبلغت لسعة الأذى حداً لا يحتمله أعتى الصابرين، آثر المتأذون الساخطون أن يرفعوا راية الإضراب والعصيان المدني، آملين في أن تستجيب السلطات لمطالبهم، دون أن يحتاجوا للّجوء إلى السلاح. تحرك الجميع، مثقفين وفلاحين وأفندية مدن وملاكي أرض وصناعيين وحرفيين وتجاراً وعمالاً وعاطلين عن العمل، مطالبين بأن تعترف بريطانيا بحق أهل البلاد في حكم أنفسهم بأنفسهم، وإقامة نظام برلماني ديمقراطي تتمثل الأقلية اليهودية في مؤسساته بنسبة عددها لعدد المواطنين العرب، وإلغاء المشروع الصهيوني الهادف إلى تحويل فلسطين إلى دولة يهودية صرفة. وأعلن المضربون، وهم أهل البلاد العرب كلهم، التوقف عن التعامل مع مؤسسات السلطة الاستعمارية القائمة والامتناع عن دفع الضرائب، وعمموا وسط الجمهور العربي في طول البلاد وعرضها الشعار الذي صارت له جاذبية ساحرة: لا ضرائب من دون تمثيل!

ولما ظهر أنّ السلطات تأبى الاستجابة لأي من مطالب المضربين وتتمسك بسياستها الاستعمارية وبدعمها المشروع الصهيوني، اشتعلت الثورة بالسلاح. بدأت الثورة المسلحة جذى متفرقة، ثم اتصلت الجذى، وعم الحريق كل مكان. هنا، حين صار اللجوء إلى العنف هو السبيل الوحيد المتيسر للذين أرادوا أن يدافعوا عن أرزاقهم المنهوبة وحقوقهم المصادرة ووجودهم في وطنهم، ظهر السلاح في الأيدي وصار صوته هو الأعلى. واندفع الجمهور إلى التضحية، تحفزه على الحركة كل المرارات وخيبات الأمل التي عانى منها طيلة دزينة ونصف من السنوات. أخرج الذين ظفروا بالسلاح قبل هذا الوقت، أي في سنوات الترصد والترقب والاصطبار، سلاحهم المخبأ، فظهرت الخناجر التي يزيد طول نصالها على إنشين ونصف، والتي كانت القوانين تحظر حملها وتعاقب حامليها بالحبس والغرامات، كما ظهرت السيوف، ومنها سيوف توارثتها بعض الأسر منذ حروب الفتح العربي أو الحروب الدفاعية ضد غزوات الصليبيين والمغول والتتار، أو احتفظت بها منذ العهد العثماني. وإلى جانب الخناجر والسيوف التي يتقن أغلب مقتنيها استخدامها، ظهرت البنادق الآلية التي لم يتدرب على استخدامها إلا أقل الناس. وعرفت جماعات الثوار بنادق من كل صنف وجيل، قديمة وحديثة، عثمانية وطليانية وروسية وفرنسية وبريطانية، ومن كل قياس، بما فيها بنادق الصيد العتيقة. كما أخرج الذين يفتقرون إلى السلاح جنيهاتهم التي اكتنزوها للأيام السوداء واشتروا البنادق. والذين افتقدوا السلاح والمال باعوا حتى أعزّ ما يملكون: حليّ الزوجات والأمهات والبنات أو المواشي أو الخيول. ومن الناس من رهن محصول أرضه، أو رهن الأرض ذاتها، حتى لا يتخلف عن الركب. ولأن الخطر استهدف الفلاحين، بملاكي الأرض منهم وأُجرائهم والعاطلين عن العمل بينهم، أكثر ما استهدف أيّ فئة أخرى وأشدّ مباشرة، ولأنّ هؤلاء هم الذين عانوا أكثر مما عانى غيرهم من جراء سياسة الإفقار والتسلط التي اتبعتها السلطة الاستعمارية، تقدم ناس الريف صفوف الساخطين. وفي الثورة، لم تبق قرية واحدة إلا قدمت نصيباً من التضحيات وظفرت في المقابل بحصة من المفاخر.

وفي العام الأخير من أعوام الثورة الثلاثة، قبل أن تندلع الحرب العالمية الثانية فتجرف ظروف الحرب ما بقي من ألق الثورة، وضعت أمي ابنها البكر الذي هو أنا.

كنت الثمرة الأولى لزواج أمي من ابن عمها، وقدر لي أن أصير الثمرة الأخيرة. تعلق أبي ابن الستة عشر أو السبعة عشر عاماً، وهو الفتى النابه، كما ستعرف هذا بعد قليل، بأمي الفتاة التي تدرج نحو عامها الثالث عشر، وما أسهل ما يتيسر للمولّه بابنة عمّه أن يتزوجها! جرى هذا قبل سنة أو نحو السنة من مولدي. ثم لم يلبث أن التحق أبي بصفوف الثوار التي اجتذبت العديدين من أمثاله، وبقي فيها حتى يوم مولدي.

لا يعرف أحد معرفة يقينية تاريخ اليوم الذي ولدت فيه، بل إن الشهر ذاته مختلف عليه. أقول لك هذا لأعرفك، أو لأذكّرك، إن كنت قد عرفت، بالحقيقة التي يعرفها أبناء جيلي ممن ولدوا في تلك الأوقات. فالفلاحون لا يعنون بتواريخ الولادة ولا يحتفلون بهذه التواريخ. ومع أن تسجيل وقائع الولادة صار أكثر شيوعاً مع قدوم الإنجليز وسجلاتهم وإحصاءاتهم المتواترة للسكان، فقد ولدت في وقت كان الناس فيه، كما عرفت للتو، يقاطعون مؤسسات الدولة ويتعمدون التمرد على تعليماتها. ولأن الإضرابات كانت عامة ورقابة السلطات غائبة، لم يجر تسجيل واقعة ولادتي في وقتها على أي نحو من الأنحاء. ثم تلا ذلك سنوات الحرب العالمية الثانية ولم تنشغل السلطات ولا الأهالي إلا بما يتصل بهذه الحرب، بحاجة السلطات إلى كبت أنفاس الأهالي ومصادرة أرزاقهم لتوفير الأمن والطعام للجنود، ومحاولات الأهالي التحايل على إجراءات السلطات في هذا المجال. وحين كبرت، وتبدلت الظروف، وصرت معنياً بتحديد تاريخ مولدي، لم يكن في المتناول غير وسيلة واحدة: أن يبحث الكبار الذين يعنيهم أمري في ثنايا الذاكرة. وأخشى أنك تجهل ما يعنيه البحث في ذاكرة فلاح وما يتطلبه من مشقة من أجل استخراج التاريخ الدقيق لواقعة لم يهتم بها، في الأصل، ولا كان بحاجة لربطها بتاريخ معين. لقد تعدد الرواة الذين أدلوا بدلوهم في سياق هذا البحث الشاق واختلفت رواياتهم. قالت أمي إني ولدت في اليوم الثالث لواحد من العيدين، الفطر أو الأضحى، مؤكدة أن اليوم كان ماطراً. وخالفها جدي لأبي الذي ولدت في داره، فذكر أن ولادتي وقعت بعد عيد المولد النبوي بثلاثة أيام، وأضاف أن الوقت كان وقت حصاد فلا كان هناك مطر ولا من يمطرون، ودلل جدي على دقة معلوماته بالقول إنهم كانوا قد أرسلوا إلى أبي من يستدعيه من معقله مع الثوار ليشارك في الحصاد، لأن اليد العاملة شحت وقتها بسبب الأحداث. أما جدتي لأمي، وهي المشهود لها بالتدقيق في ما تفعل أو تقول، فدأبت كلما تطرق الحديث لتاريخ مولدي ونشب الخلاف بشأنه على هزّ رأسها نافية هاتين الروايتين وغيرهما من الروايات. وإذا استدرجت الجدّة لتقول شيئاً يضيء الحقيقة المغيبة في طيات الذاكرة، فاهت بعبارة لا تتبدل: "يا رب لا تعينّي على الزلل! ما كان الوقت وقت عيد ولا مطر ولا حصاد"، ثم صمتت. ولم تسمح جدتي لنفسها بتحديد تاريخ لذلك اليوم أو سمات. والحاصل أن الزمن والأحداث المتعاقبة طوت هذا التاريخ.

مهما يكن من أمر، فالمحقق أني ولدت حين كان أبي غائباً. وواقعة كهذه، أي ولادة الابن البكر في غياب أبيه، لا تنساها ذاكرة فلاحة أو فلاح، حتى لو تلتها على الفور مئات الوقائع ذات الحضور الطاغي. الكل يذكر أن أبي وصل في المساء حين كانت الأسرة كلها في انتظاره ليبتّ في مسألة الاسم الذي سيحمله ابنه، بعد أن اختلف الأقرباء

الآخرون بشأن هذا الاسم. وقد حسم أبي الأمر بطريقة لا تحتمل النقاش. ففي لحظة دخوله، وقبل أن يستفهم عن أي شيء، وحتى قبل أن يحيي أحداً، هتف أبي: "أين فيصل؟".

حمّلني أبي هذا الاسم تيمناً باسم الملك فيصل الأول الذي كان أول ملوك العراق بعد انفصال هذا البلد العربي عن الإمبراطورية العثمانية. لم أحمل الاسم لأن أبي يحب الملك أو لا يحبه، ولا لأن الأب يعرف أو لا يعرف ما وصل إليك، أنت، من تاريخ هذا الملك وتقلبات مواقفه وأحواله. وأغلب الظن أن الفلاح الفلسطيني الثائر ضد الاستعمار البريطاني والمشروع الصهيوني لم يكن ليطلق على ابنه اسم ملك كهذا لو أنه عرف أن الذي يتيمن باسمه هو الذي ربط مصيره بالإنجليز وهو الذي وقّع قبل عقدين، فقط، من مولدي، تلك الاتفاقية التي نصحه الإنجليز بتوقيعها مع الزعيم الصهيوني د.حاييم وايزمن، وقبِل بموجبها المشروع الصهيوني. ولم يكن أبي ليغفر للملك توقيعه على الاتفاقية حتى لو عرف أن الملك بدّل رأيه فيما بعد وأنكرها. سماني أبي باسم الملك فيصل، لأن أهم حادثة، وأشهرها في حياته مرتبطة بهذا الملك بالذات. ففي سنة من السنين، حين كان رشاد الحوراني الذي صار أباً لي فتى يتأرجح بين الطفولة والشباب، انتقل إلى علم أهل قريتنا أن الملك فيصل يزور فلسطين وأنه سيمر بمنطقتنا في طريقه إلى مصر. وعرف الفلاحون أن قطار الملك سيتوقف في المحطة التي تخص المسميتين الكبيرة والصغيرة ليحيي الناس. وما كان هذا بالحدث الهين، فها هو ملك العرب، كما كان الناس الذين يجهلون أحابيل السياسة وتقلباتها والآخرون الذين ينتفعون بها يسمون ملك العراق، سيتوقف فيراهم ويرونه، ولا بدّ، إذن، من أن يعدّوا له أبهى استقبال. وكان أفندية المدن وذواتها الكبار وفلاحو المناطق الأخرى قد أعدوا للملك في وقفات مماثلة احتفالات واستقبالات ذاع صيتها في طول البلاد وعرضها. وبتأثير الأنباء الرائجة، نشط فلاحو المسميتين والقرى المجاورة لهما وعزموا على الدخول في المنافسة والتفوق فيها. وهكذا، نصبت الزينات، وهيئت ساحة المحطة لتفرش بالسجاد والبسط الفاخرة والفرش والوسائد المحشوة بالصوف مما تبرع الوجهاء بتقديمه للمناسبة الفريدة. وتهيأ الرجال والنساء لتقديم الدبكات والأهازيج. وأُعدت الخيول الأصيلة وجهزت بالأسرجة والرياش التي لا تستخدم إلاّ في المناسبات الكبيرة. كما أُعدت مئات الخراف أضاحي يراق دمها بين يدي الزائر الجليل. عاشت المسميتان والقرى المجاورة لهما أيام استعدادات يجزم من شهدها أنها كانت الأبهى والأفخم بين ما سبقها أو لحقها من استعدادات.

وفي زحمة الاستعداد لليوم الموعود، تذكر النبهاء ضرورة وجود خطيب يرحب بالملك باسم الجموع.

هنا، بالذات، إزاء شأن كهذا، حميت المنافسة بين القرى مثلما حميت بين الوجهاء ورؤساء العشائر والحمائل في كل قرية. ولأن الشرف المتوخى عظيم، احتدم الجدل كما لم يحتدم من قبل حول أي شأن آخر، وامتد وطال، حتى كاد يؤجج الخصومات المنطفئة ويلهب النزاعات القديمة ويبعث حكايات الصراعات الماضية من رماد السنين الغابرة. الكتل المتنافسة كثيرة والمتنافسون أكثر، وقد تسلح كل منهم بما يملكه من نفوذ أو سمعة أو سطوة وما وفره له هذا من حجج، فتعذر الإجماع على خطيب واحد. وتجنباً للعواقب التي قد تصبح وخيمة لو اشتعلت المنازعات من جديد، أفتى العقلاء بأن يتكلم من كل قرية خطيب. وكان في هذه الفتوى حلّ رضي به ممثلو القرى العديدة، وترك الأمر لوجهاء كل قرية كي ينتقوا خطيبها الملائم من أبناء القرية الذين يتقنون القراءة والكتابة، فهدأ الجدل بين القرى، وانتقل إلى مجالس الاختيارية في كل قرية. وبينما كانت مجالس الاختيارية مشغولة بالمنافسات بين أعضائها، وفد إلى المنطقة أفندي قادم من القدس ومعه تفويض من موسى كاظم باشا الحسيني، رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر الوطني الفلسطيني، شخصياً، والأفندي مخول بموجب هذا التفويض السامي بأن يشرف على تنظيم الاستقبال. وقد حمل الأفندي إلى وجهاء القرية رسالة الباشا باسم قيادة الوطن العليا، وهي تطلب منهم أن يقبلوا بما ينصحهم به ممثلها حامل الرسالة. ويبدو عند تمحيص الحكايات العديدة التي تروي ما فعله موفد القيادة هذا أن الرجل اختير للمهمة وهو جدير بها. فقد تفحص الرجل الاستعدادات الجارية بإمعان الخبير، فأقر بعضها وعدل بعضها، واستغنى عن عدد منها، وأدخل فقرات جديدة على برنامج الاستقبال، فارضاً على الفلاحين الاحترام الذي يستحقه من يفتي عن فهم ويصدر الأوامر عن معرفة. وعند التطرق لمسألة الخطباء، نبه الرجل الناس إلى أن وقت الملوك ثمين ولا يمكن أن يتسع وقت الزائر السامي للاستماع لأكثر من خطيب واحد. وأظهر الموفد منتهى الحصافة حين لم ينتق بنفسه الخطيب المطلوب، بل اكتفى بأن أبلغ إلى وجهاء القرى أن أمامهم أن يتفقوا على خطيب، وإذا لم يتفقوا فإنه هو، موفد القيادة المخول، سيتحدث باسمهم أمام الزائر.

إزاء هذا الإنذار، استؤنف الجدل القديم بين وجهاء القرى. إلا أن جدلهم صار هذه المرة محكوماً برغبة القيادة الصريحة في أن يتفقوا على خطيب واحد، ليس أكثر. وحين اجتمع مخاتير القرى، وبينهم جدّي لأبي، لم يكن لديهم متسع فسيح من الوقت، وكان عليهم أن ينتهوا إلى قرار بسرعة. بالرغم من هذا، مرت الساعات دون أن يحسموا الأمر. وكان كل مختار مستعداً لإظهار التواضع، من جهة، دون أن يتخلى عن العناد، من الجهة الأخرى. وأبدى كل مختار استعداده لسحب مرشحه تيسيراً للوصول إلى اتفاق، لكنه لم يوافق على أي مرشح آخر. وكلما برز اسم مرشح، وجد بين المجتمعين من يعترض عليه.

وبهذا، دخل الجدل في حلقة مفرغة، ودار المجتمعون في دوامة ليس لها قرار. فلمّا اتضح أن الاتفاق متعذر، اقترح جدّي أن توكل المهمة إلى شيخ مصري يقيم في المسمية الكبيرة إماماً لجامعها. كان الاقتراح مفاجئاً، فصمت الحاضرون إزاءه. وظن الموفد المقدسي أن الصمت علامة موافقة، وتوهم أن المسألة سويت فغادر الاجتماع. لكن جدّي الأعرف من الأفندي المديني بأطباع الفلاحين وبمغزى انطباق شفاههم، أدرك أن القناعة لم تتحقق، فلم يتشبث بالاقتراح.

حزر الجد أن الوجهاء يعزّ عليهم أن يمثلهم في مناسبة كهذه، جليلة ونادرة، رجل غريب عن المنطقة. كان الشيخ المصري ذاته إنساناً لا غبار عليه، فهو يقوم بواجباته بأمانة، فيؤم المصلين، ويحفّظ الصغار القرآن ويعلمهم مبادئ اللغة والحساب، ويتلو القرآن في دور الوجهاء في المناسبات العامة والخاصة، ويقرأ قصة المولد النبوي كلما ندب إلى ذلك، ويؤبن الموتى ويلقنهم ما ينبغي أن يقولوه حين يجيء الملائكة لاستنطاقهم حول معتقداتهم. كما كان الشيخ إلى هذا عفيف النفس، يترفع عن الخوض في سير الناس ويمنع نفسه عن التدخل في شؤونهم الخاصة ولا يسعى بينهم إلا بالخير. غير أن هذا كله لم يلغ في أذهان الوجهاء حقيقة أن الرجل غريب ليس له في القرية ما يملكه ولا ينتمي لأي حمولة من حمائلها. ووفق المقاييس السائدة، تتماثل مكانة هذا الغريب من بعض الوجوه مع مكانة الأجير، فهو يحصل على لقمته مما تجود به نفوس المقتدرين من الفلاحين وينام في الجامع. وحين انطبقت الشفاه، كان الوجهاء يفكرون بهذا كله ولا يجدون مسوغاً لقبول الاقتراح، حتى ولو لاح أن فيه مخرجاً من الورطة التي هم فيها.

والتقط جدي ملامح الوجوم التي كست الوجوه بعد رحيل موفد الباشا، وفسر الأمر على نحو سديد. وبدرايته المشهود بها وسمعته المشهورة كرجل كريم، فاز الجد بين متنافسين عديدين من أصل المسميتين بحق استضافة وجهاء القرى على العشاء في مضافته. ولكي يدفع الأمور في الاتجاه الذي يوائمه، أولم الجد وليمة يقسم الذين يروون حكايتها أن شهودها شكلوا أكبر حشد من الوجهاء اجتمع في وليمة واحدة في تاريخ القرية كله. وإذا كنت ممن يدفعهم الفضول إلى معرفة التفاصيل، فلتعلم أن حشد المخاتير والوجهاء الآخرين وذوي المكانة الخاصة ممن شهدوا الوليمة قد ملأ ساحة الدار الفسيحة، فيما تحلق الآخرون فملأوا الفضاء الممتد أمام الدار. وقد أعدّ جدي لضيوفه ثلاثين منسفاً جمعت أوانيها من دور القرية كلها، وجلّل كل منسف منها بلحم خاروف كامل. جعل الجدّ عدد الخراف بعدد البارزين من الضيوف ليفهمهم أنه خص كل واحد منهم بخاروف صوناً للحقوق التي توجبها مكانته، ويشبع نزعة التميّز المتأصلة فيهم. وظفر الجدّ برضا الجميع في تلك الليلة.

وبعد أن شبع الضيوف وأثنوا على صاحب الوليمة وامتدحوا سخاءه بأطيب العبارات، وبعد أن دارت فناجين القهوة المطيبة بحبّ الهال ورائحته الفواحة، انجلت الأمزجة وتكشف أجود ما فيها. هنا، أذِنَ جدّي لكنزه المخبوء بأن يظهر، فوقف فتاه الذي أصبح فيما بعد أبي وألقى في الحشد قصيدة من محفوظاته، فانتزع ما كان مقدراً لمفاجأة كهذه أن تنتزعه من الابتهاج والإعجاب. وأغلب الظن أن معظم الحاضرين لم ينتبهوا لمعاني القصيدة، إلا أنهم أخذوا بجلجلتها ورنين قوافيها، و أدهشتهم سلامة نطق الفتى كما أدهشتهم فصاحته الظاهرة. ولا بدّ أن تكون مقدرة فتى هذه الأمسية على مواجهتهم دون تهيّب، هم ذوي المهابة الظاهرة، قد جعلتهم يعدّونه إنساناً خارق القدرات. والحقيقة أن من شهد الأمسية يؤكد أن الفتى واجه الحشد بقامة منتصبة ونظرات ثابتة، وألقى ما ألقاه بصوت لا يلتوي أو يضطرب، وهو رابط الجأش يكرج صوته سلساً دون لجلجة أو ارتعاش.

في تلك الأمسية، كسب الجدّ كسباً مبيناً عاش في موروث القرية بوصفه واحداً من أهم مفاخرها. تحمس الوجهاء لفكرة أطلقها واحد من الحاضرين. وقد أسرّ لي جدي فيما بعد أنه هو الذي هيأ الرجل لعرض الفكرة في اللحظة الملائمة. وتم الاتفاق على أن يلقي أبي هذه القصيدة بالذات أمام ملك العرب.

كان جدّي لأبي، واسمه سلمان، واحداً من مختارين في المسمية الصغيرة. فالقرية على صغرها وقلة عدد سكانها وانتمائهم جميعاً لعشيرة واحدة صار لها مختاران. هذا الوضع، الذي ربما أدهشك، فرضته الحاجة إلى تسوية الخلافات التي برزت بين حمائل القرية حول المخترة فقسمتها إلى معسكرين متنافسين. وقد شجعت السلطات وجود مختارين منسجمة مع سياستها في تأجيج الخلافات والاستفادة منها وفرض أكثر من رأس واحد كلما، وحيثما، تيسر ذلك. لم يكن جدي سلمان أغنى أهل القرية، لكنه كان ميسور الحال، إذا قورن حاله بأحوال الفلاحين الآخرين. كان في حوزة الجد مئتا دونم من الأرض البعلية وقطيع أغنام يرتفع عدده وينقص حسب الأحوال. وإلى هذا، كان الجد يتقاضى تسعين جنيهاً هي الراتب السنوي المقرر للمختار من قبل السلطات. وربما كان من الممكن أن يصبح الجد غنياً لو لم تستنفد متطلبات الوجاهة ونفقات الأسرة الكبيرة موارده. واشتهر الجد بأنه رجل نزيه يتوخى الإنصاف في تعامله مع الناس ما أمكنه ذلك، فيحكم بينهم بالعدل حين يحتكمون إليه، ويوجههم إلى ما يفيدهم حين يطلبون نصحه، ويسعى إلى فض منازعاتهم بالحسنى، حتى حين يكون بمقدوره أن يجني فوائد شخصية لو شجعهم على التنازع. وتحلى الجد بخصلة أخرى تحببه للناس، إذ تمتع بمقدرة كبيرة على الحفاوة بأهل القرية والضيوف، فكانت مضافته أكبر مضافة في

القرية، وقد تفوقت حتى على مضافة المختار الآخر بما لا يقاس، بالرغم من أن ذلك المختار هو الأغنى. وكان أرباب الأسر من آل سلمان أو من حمولة سلمان التي يترأسها جدي بوصفه أكبر رجالها سناً يسهمون بأقساط معلومة في نفقات المضافة، وإن ترتب على الجد أن يشيل القسط الأكبر منها بحكم منزلته وطبعه الكريم. وقد حظي الجد في صغره بشيء من التعليم الأولي حين واظب على الكتّاب، فصار قادراً على فك الخط، حسب التعبير الشائع. وتزوج الجدّ في شبابه الأول امرأة خلفت له ابنه البكر،الذي هو أبي، ثم ماتت ولم يتسنّ لي أن أعرفها. بعدها، جاء الجدّ بزوجته الثانية من السوافير الشرقية، انتقاها من بنات أسرة صديقة من هذه القرية القريبة إلى قريتنا. وكانت الزوجة الثانية طيبة مثل الجدّ ومحببة إلى النفوس، ويبدو أن الجد عاش معها على وئام. ثم اتضح أن هذه الزوجة عاقر. فتزوج الجدّ زوجته الثالثة دون أن يطلق سابقتها. انتقى جدي زوجته الجديدة من قرية عراق المنشية، وهي التي خلفت البنات والأولاد الكثيرين الذين قدر لي أن أنشأ بينهم. وكان الجدّ المدرك لأهمية التعليم حريصاً على أن يتعلم أولاده الذكور حين لم يكن في وارد أحد تعليم البنات. ولأن أبي هو الابن البكر، صار أول المستفيدين من هذا الحرص. في البداية، حفّظ الجدّ بكره ما يحفظه هو من سور القرآن. ثم كلما تهيأ للجدّ أن يستخدم إماماً لجامع القرية، اشترط عليه أن يعلم أبناءها، بمن فيهم، بالطبع، ابنه. واعتاد الجدّ أن يستدعي الابن إلى مجلسه في المضافة كلما أمّ المضافة واحد من الوعاظ الجوالين، فيستمع الابن إلى الواعظ ويتزوّد بالمعارف الدينية. ويبدو أن أحد الأئمة الذين تعاقبوا على الجامع كان مولعاً بالأدب الشائع في زمنه، خصوصاً القصائد الوطنية التي كانت تفتن الجمهور. هذا الإمام أولى ابن المختار النبيه عناية خاصة فجوّد لغته وحفّظه الشعر. والقصيدة التي فتن الفتى بها الناس في الوليمة واحدة من القصائد التي حفظها أيّام تتلمذه على الإمام. ويبدو أن أبي ورث نباهة أبيه فتقدم في حقول المعرفة التي أتيحت له تقدماً ملحوظاً. وقد وفر الاجتهاد في الدراسة لأبي شيئاً من التميز، فأعفي من الكثير من الأعمال التي تفرض حياة القرية أن يتولاها أمثاله. ونشأ أبي في رعاية أبيه الحادبة مستقلّ الشخصية على نحو لا يتهيأ لمجايليه في القرى، حيث يخضع أولاد الفلاحين لنظام صارم يمسخ فيه حضور الصغار أمام الكبار حتى لو كانوا أبناء مخاتير، بل خصوصاً إذا كانوا أبناء أب له مكانة بارزة في محيطه.

بالإجمال، صار أبي فتى المسمية الصغيرة النابه ومفخرتها بين الفتيان. وقد توارت روايات لا بدّ من أن يكون الخيال، كما تتوقع، قد أسهم في تضخيمها تُصور أبي على انه كان خطيب المناسبات الاجتماعية والوطنية، وتظهر أنه كان في هذا المجال خطيباً لا يشق له غبار. وقد جاءت الزيارة السامية لتصير المناسبة التي اختارها الجد ليظهر نباهة ابنه الفصيح أمام القرى كلها، ويصنع له مجداً لا يحظى به سواه.

في اليوم المرتقب، وفي اللحظات التي اشتد الشوق لها، أتيح للفتى أن يتقدم الجموع المتراصة في ساحة المحطة، فيقف بين الوجهاء بجانب ممثل الباشا وبرعايته شخصياً. وعندما اخترقت صفارات القطار الحشد فطغت على ضجيجه وأسكتت أهازيجه وموسيقاه، وجه الفضول العيون الشاخصة نحو أبواب العربات ونوافذها، وسيطر الشعور بجلال الموقف على الجمهور فتجمدت كل حركة إلا حركة المقل الدائرة في المحاجر. ثم وقف القطار، وامتدّ السكون والصمت دقائق خالها الحشد دهراً. فلما انفتح باب إحدى العربات دون أن يطل منه أحد للوهلة الأولى، تجمد الدهر ذاته وصدأت حتى حركة المقل، وانصبت النظرات كلها في ظلام الباب المفتوح. وانقضت لحظات أخرى، وفجأة، انفجر الضجيج المختزن، واستؤنفت الحركة، وهدرت الموسيقى والأهازيج، وبدأت مراسيم الاستقبال.

أطل الزائر السامي على الحشد من الباب وحيا الناس بحركة من يديه المرفوعتين، ثم وقف على العتبة ولم يهبط. وتقدم موفد الباشا فحيا الزائر من موقعه على الرصيف دون أن يتمكن من مصافحته. وتحاشر الوجهاء خلف الموفد، محتفظين بالصمت التام معبرين به، ليس، فقط، عن عظيم تقديرهم للزائر، بل، أيضاً، عن تهيبهم إزاء هذا الموقف الفريد وجهلهم لما ينبغي قوله أو عمله في مناسبة كهذه. ولما فرغ الزائر من توجيه تحياته للجمهور وأسدل يديه على جنبيه، وجه نظره ناحية صف الوجهاء. هنا، التفت الموفد إلى أبي ودعاه إلى التقدم ليكون بين يدي الواقف على عتبة الباب.

يؤكد شهود العيان الذين رأوا أبي في هذا الموقف عن كثب أن الزائر استمع إلى الفتى بانتباه شديد وعيناه مفتوحتان. ومن الشهود من يجزم، مؤكداً صدقه بكل الأيمان، أن الزائر هزّ رأسه مرتين أو ثلاثاً تعبيراً عن الاستحسان الشديد. كما يؤكد الرواة، مدللين على صدق روايتهم بعشرات التفاصيل، أن الفتى ألقى قصيدته دون تردد، محتفظاً، طيلة الوقت، بسلامة النطق ووضوح النبرة وصفاء الصوت واستقامته، وأن قامة الفتى بقيت منتصبة وثابتة، دون ارتعاش. والأهم من هذا أن الزائر هبط عن العتبة بعد أن فرغ الفتى من إلقاء قصيدته وليس قبل ذلك. ومن الرواة الذين لا يكتفون بسرد الوقائع بل يقرنونها بالتحليل الملائم من يرى أن زائراً له هذا المقام ما كان لينزل إلى الرصيف ويقف بمستوى الرعايا العاديين لو لم يحمله على هذا التواضع إعجابه الشديد بالفتى وبقصيدته. وسواء صح هذا الرأي أو أن الزائر نزل لأنه، وهو ابن العشيرة الخبير بالتقاليد، يقدر أهمية الاتصال المباشر بوجهاء القوم الذين يستقبلونه، فالمحقق أنه هبط عن العتبة وتوقف على الرصيف، فيما تقدم صف الوجهاء نحوه وأحاط به. وقد اختلط الجميع في دائرة متلاصقة يتوسطها ثلاثة: الزائر السامي ومندوب الباشا والفتى المقدام.

ويحكي الرواة أن الزائر أخرج من جيبه، بيده ذاتها، قلماً من الذهب الخالص، وهدايا الملوك في كل الحكايات لا تكون، كما لا بد من أنك تعرف، إلا من الذهب الخالص. وقد قدم الزائر القلم للفتى بعد أن احتضنه وأثنى عليه. ثم أشار الزائر لأحد مرافقيه، فأعطى للفتى صرة، ثم أعطيت، بعد هذا وليس قبله، صرر مماثلة لكل من الوجهاء الذين حددهم موفد الباشا لتلقي العطيّة السامية. واتضح أن في كل صرة قطعة من الحرير مما يستخدم لتفصيل القنابيز الفاخرة، وعباءةً من الصوف، وحطّة وعقالاً مقصباً من الطراز الذي يستخدمه الأشراف الحجازيون.

في أيّ سنة، وفي أي تاريخ من هذه السنة، حظي أبي بمجده الملكي هذا؟ لقد انطوت فرصة معرفة تاريخ الواقعة وسط اختلاف الرواة الشديد بشأنه. وصل بعض الرواة إلى حدّ الجزم بأن الزيارة الملكية لفلسطين تمت بعد هبّة يافا، حين تصادم العرب واليهود في شوارع المدينة فأخذ البوليس البريطاني العرب إلى السجون وأبقى الآخرين طلقاء. ورواية كهذه لن تفيد، حقيقة، في تحديد التاريخ لمن يتوخى الدقة. فيافا، حاضنة الميناء الذي يتوسط الشاطئ الفلسطيني على البحر الأبيض المتوسط، والتي أنشأ المستوطنون اليهود مدينتهم الأولى تل أبيب بجوارها، شهدت أكثر من صدام بين العرب واليهود، في أكثر من سنة. والرواة الذين يربطون الواقعة بالصدام الذي جرى في يافا لا يشيرون إلى واحد بعينه من هذه الصدامات. حتى لو تعقبنا تواريخ الصدامات في المصادر الموثوقة، فلن نظفر بما هو مفيد لبحثنا عن تاريخ الزيارة، وبمقدوري أن أسوق أمثلة تريك صعوبة هذا البحث، فالصدام الأول بين الجانبين وقع في أيار/ مايو ١٩٢١، وهو صدام مشهور، ليس لأهميته في حد ذاتها بل لأنه الصدام الأول، ولأن من المؤرخين من يعده الهبة الشعبية الفلسطينية الأولى ويسميه انتفاضة يافا، مع ما في تسمية كهذه لصدام استغرق بضع ساعات، فقط، من مبالغة، ومع ما في التسمية، أيضاً، من مغالطة ناجمة عن سوء فهم شديد. فالذي وقع، حقاً، في ذلك الوقت، انطوى على ذروة من ذروات سوء الفهم المتبادل بين الجانبين. ففي عيد العمال، الأول من أيار/ مايو من ذلك العام، شاءت مجموعة صغيرة من اليهود اليساريين، من سكان تل أبيب، أن تحتفل بالعيد وسط العرب في يافا. وكانت هذه المجموعة ممن يؤمنون بالمساواة بين العامل اليهودي والعامل العربي ويناهضون الصهيونية. وقد أراد هؤلاء أن يظهروا بالاحتفال بين العرب تضامنهم مع العامل العربي. وهكذا، حمل أفراد المجموعة راياتهم ورموزهم واتجهوا في مظاهرة ناحية يافا القريبة، ورآهم، وهم مقبلون على المدينة، الأولاد العرب الذين يلعبون في أطرافها، فظنوا أن يهود تل أبيب يريدون دهم العرب، فتفرق الأولاد وهم ينذرون ذويهم بأن اليهود قادمون. ومع غلبة مشاعر التوجس التي راكمها في النفوس نشاط اليهود الصهيونيين ضد العرب، هبّ

الناس للدفاع، ووقع الصدام قبل أن تتضح الملابسات. ومن المؤكد أن الزيارة التي التقى فيها أبي بالملك الذي حمّلني اسمه لا يمكن أن تكون قد تمت في هذا الوقت، فأبي لم يكن، عندها، قد ولد. وهبة يافا الثانية المشهورة وقعت في آب/ أغسطس ١٩٢٩ في سياق الهبة الفلسطينية الشاملة التي نهضت في هذا التاريخ. وقتها، تصادمت مناسبتان: واحدة تخص اليهود وأخرى تخص العرب، و أراد اليهود المتدينون في القدس أن يستأثروا بما في المدينة من رموز دينية، فاختاروا هدفهم موقع البراق بالذات. وهذا الموقع يوقره المسلمون، فهو بالنسبة لهم المكان الذي صعد منه رسولهم محمد إلى السماء. والموقع ذاته بالنسبة لليهود هو حائط المبكى الذي يعتقد المتدينون منهم أنه من بقايا هيكل نبيهم سليمان، ويؤمونه للصلاة والبكاء على الهيكل المندثر وما يرمز إليه من أمجاد إسرائيل القديمة الموصوفة في التوراة. أما المناسبتان فإحداهما كانت عيد المولد النبوي عند المسلمين، والأخرى ذكرى تدمير الهيكل عند اليهود. وقد اختار الصهيونيون اليهود المتدينون هذه المناسبة ليقيموا في الموقع شعائر تمس حقوق المسلمين فيه. ولأن هذا تم في سياق استفزازات متلاحقة أخرى للعرب فإن هؤلاء تداعوا للدفاع عن حقوقهم، وسال الدم في القدس. ثم انتقلت المصادمات إلى مناطق فلسطين الأخرى التي يتواجد فيها يهود بجوار العرب وطحنت الكثير من الجانبين، بما في ذلك في يافا. والرواة الذين يربطون زيارة الملك بهبة الفلسطينيين للدفاع عن حقوقهم المهددة يقولون إن ملك العرب جاء إلى فلسطين، وقتها، ليؤكد تضامنه مع أهلها. ومن المؤكد أن أبي لم يكن وقتها في سنّ تؤهله لمواجهة ملك أو لتمثيل القرى أمام هذا الملك.

رواة آخرون يقولون: إن زيارة الملك لم تقترن بأي هبة من هبات يافا أو سواها. وهم يجزمون أن الملك جاء إلى فلسطين في وقت عرضت فيه الدولة البريطانية على قادة البلاد التعاون معهم في إدارتها على أساس أن يقبلوا الانتداب وما اقترن به من تعهد بتحقيق المشروع الصهيوني الذي يحرمهم من بلادهم. غير أن الأخذ بهذه الرواية، أيضاً، لا يجعل الأمر أقل التباساً، إذ ما أكثر المشاريع التي عرضتها بريطانيا على ممثلي شعب فلسطين كي يقبلوا الانتداب ويقروا أن اغتصاب الصهيونيين لوطن الفلسطينيين عمل شرعي!

ومن الرواة من يذكر أن الزيارة الملكية تمت في الوقت الذي عرض فيه المندوب السامي على الفلسطينيين مشروع الدستور فرفضوه. هذا المشروع أعطى لممثلي البلاد سلطة شكلية، ليس غير، وأبقى السلطة الفعلية بيد المندوب السامي وأعوانه بحيث يتحول ممثلو البلاد الفعليون إلى مجرد شهود زور يسوغون ما تفعله السلطات البريطانية. المشروع رفضته القيادة الفلسطينية، وإن وجد بين ملوك العرب و أمرائهم من ينصحها بقبوله، على

قاعدة "خذ وطالب" التي اتبعوها هم في بلادهم مع محتلي تلك البلاد. والرواة الذين يقدمون هذه الرواية لتفسير زيارة الملك يقولون إنه جاء بنفسه ليقنع قادة الشعب الفلسطيني باتباع القاعدة التي اتبعها هو نفسه مع البريطانيين، والقبول بالدستور. ولو صحت هذه الرواية فلا بد أن تكون الزيارة قد جرت في وقت ما من العام ١٩٢٣ الذي عرض فيه مشروع الدستور، أو العام الذي يليه على أبعد تقدير. وهذا، بالضبط، ما يصعب الأخذ به حين يتعلق الأمر بدور أبي في استقبال الملك. ففي كل من هذين العامين، كان أبي ما يزال أصغر من أن يقف أمام هذا الملك أو أي ملك آخر.

ولست أخفي عليك أني حاولت، أمام اختلاف الروايات الشديد وتعذر الأخذ بأي منها، أن أجد بنفسي تاريخ زيارة الملك لفلسطين أو عبوره إياها في طريقه إلى مصر. لقد قرأت ما يتصل بتاريخ البلاد الحديث أو تاريخ الملك الذي تنقل من بلاط والده شريف مكة إلى العرش الذي أهداه إليه الثوار العرب في دولتهم قصيرة العمر في دمشق ثم إلى عرش بغداد. وخلال القراءة، رحت أبحث عن تاريخ الزيارة، فما وقعت على شيء يقيني، وقد اتضح أن فيصل الأول هذا زار فلسطين مرة واحدة، وذلك في العام ١٩٢١. وفي هذا ما يؤكد لي أن أبي لم يقف وقفته المشهورة تلك إزاء الملك نفسه. وأغلب الظن أن الفلاحين استدرجوا لاستقبال واحد من مبعوثي الملك، وقيل لهم إنه هو الملك لاستثارة مزيد من حماستهم، أو أن الخيال الفلاحي والرغبة في المباهاة هما اللذان جعلا الزائر ملكاً وليس أقل من ملك. ولا بدّ من أن هذا جرى في وقت ما قبل وفاة الملك فيصل الأول في العام ١٩٣٣. والواقع أن شخصيات عراقية كثيرة مقربة من الملك أو مبعوثة من قبله قد زارت فلسطين أو عبرتها في طريقها إلى مصر. وليس من المستبعد أن يكون أحد ذوي الشأن من هؤلاء قد طلب أن تنظم له مثل هذه الاستقبالات لتتعزز مكانته في العراق، أو تكون القيادة الفلسطينية قد طلبت منه التحدث إلى الناس هنا وهناك في المدن والقرى لدعم مركزها هي بين الجمهور وتعزيز شعبيتها. في جميع الأحوال يبقى من المفيد أن أنبهك مرة أخرى إلى صعوبة الركون لدقة الروايات التي تتداول في القرى دون إثبات حاسم. وإزاء رواية كهذه بالذات تتصل بنباهة فتى في قرية صغيرة وجرأته أمام ملك كبير يصعب التمييز بين ما يصنعه الخيال حين تنشطه الرغبة في المباهاة والتعويض عن بؤس الواقع وما يحتوي عليه التاريخ من أحداث حقيقية.

ومهما يكن من أمر، فإن الروايات التي يتداولها أهل المسمية الصغيرة تؤكد، جميعها، أن الزائر المرموق هو الملك فيصل، وأني لذلك حملت هذا الاسم.

لا شكّ في أن أبي فرح بقدومي. وقد أقام في القرية أياماً تلقى خلالها التهاني والهدايا. وجاء من يقرأ قصة المولد النبوي احتفالاً بولادة الابن البكر. غير أن الأب الذي عرف

الهناءة بضعة أيام، ثم توجب عليه أن يترك الأسرة ليلتحق بمعقل الثوار، لم يقدّر له أن يتمتع بالراحة بعد ذلك. فالثورة لم تلبث أن انطفأت حين اشتعلت الحرب العالمية. وأنت تعرف أن بريطانيا دخلت هذه الحرب ضد ألمانيا النازية ودول المحور الأخرى وهي مصممة على كسبها بأي ثمن. وقد وجد البريطانيون أن بلدان الشرق الأوسط الخاضعة لسيطرتهم ذات موقع استراتيجي في حسابات الحرب الطاحنة التي يخوضونها، ولأن البريطانيين كانوا في هذه البلدان محتلّين مستعمرين، ولأن مشاعر المواطنين كانت، بالإجمال، ضدهم، فقد عمدوا إلى تشديد قبضتهم، الشديدة حتى دون ذلك، واستقدموا قوات عسكرية جديدة، في مجال الاستعداد لمواجهة قوات المحور لو وصلت إلى هذه المنطقة ولتمكين السلطات من السيطرة على الأهالي وقمع تمرداتهم القائمة أو المحتملة. وفي فلسطين، انفرط عقد الثورة، وتشتت الثوار، فمنهم من غادر البلاد أو توارى عن الأنظار، ومنهم من أطبقت عليه السجون حين أمكن أن تعرفه عيون السلطة فتطارده. وعاد الآخرون إلى مدنهم وقراهم حاملين مرارة الخيبة والجراح النفسية أو الجسدية التي لحقت بهم. ودفعت الحاجة البريطانيين للاستفادة من اليهود الموالين لبريطانيا في المجهود الحربي، فزودت السلطات هؤلاء اليهود بالسلاح، وشكلت منهم مجموعات مقاتلة جديدة أو فرق استطلاع، وجندتهم، هم الذين لا يفتقرون إلى الدوافع الذاتية، لملاحقة المتمردين من أهل البلاد والمساهمة مع الجنود البريطانيين في إطفاء نور الثورة.

وقد عاد أبي إلى القرية بمجد المساهمة في الثورة، لكن دون نصر، ثم مات بعد شهور قليلة، فقط، وهنا، أيضاً، تختلف الروايات حول تحديد سبب موته. يقول البعض إن أبي عانى من تأثير جرح أصيب به أثناء القتال حتى أودت مضاعفات الجرح بحياته. ويقول آخرون إن الأب التقط مرضاً أثناء إقامته غير المريحة في معاقل الثورة، وإن حالته الصحية تفاقمت بعد ذلك حتى رحل. ويروي هؤلاء أشياء أخرى أشدّ غموضاً. ومهما يكن من أمر فقد فارق أبي الدنيا قبل أن أُتم سنتي الأولى وقبل أن تثبت صورة وجهه أو قامته في الذاكرة، ودون أن يخلّف صورة فوتوغرافية تعينني على التعرف على ملامحه.

وهكذا، قدر لأمي أن تصبح أرملة وهي بعد فتاة صغيرة، كما قدر لي أن أصبح يتيم الأب وأنا رضيع. ولم يبق لي مما هو نافع من أبوّة الأب إلا العطف الخاص الذي يحيطني به معارف أبي، باعتباري ابن الرجل ذي السمعة الطيبة والصيت الذائع. وقد كان حسناً أن أرث هذه السمعة. إلا أن هذه السمعة شكلت، كما يمكن أن تدرك هذا بسهولة، قيداً على سلوكي. فأن تكون في مجتمع من نوع مجتمع قريتنا صارمٍ في مراقبة سلوك أعضائه ابناً لأب محمود السيرة، فهذا يعني أنك ملزم بالتصرف بما لا يسيء إلى سمعة أبيك.

وأن تكون ابناً يتيماً لأب رحل فيما بقي الناس يتذكرون حسناته ويغالون في تصويرها، فهذا يعني أنك مطالب بأن لا تكون أقل من أبيك. إن الناس عندنا لا يجيزون أن يكون المرء أقل من أبيه.

-٢-

الأم تقع وتوقعني بين نارين

تختزن ذاكرتي من أحداث طفولتي صورة أمي وهي تبكي في يوم زواجها الثاني. في الصورة عروس مجللة بملابس الاحتفال والزينات والحليّ، يزفها الناس إلى العربة التي ستحملها إلى منزل الزوج وهم يرقصون ويهزجون على وقع الطبول والمجاوز، والعروس تبكي.

حدث هذا بعد ثلاث سنوات من رحيل أبي.

نشأت لبقة، وهذا هو اسم الأم التي أحدثك عنها، في دار أبيها الوجيه المعتبر نشأة حققت لها تميزاً ملحوظاً عن قريناتها في المسمية الصغيرة، فقد تمتعت برعاية أم مقتدرة، واكتسبت الخبرات التي توفرها الحياة في دار وجيه واسع العلاقات ومتعدد النشاطات. ومنذ وقت مبكر، تبين للمحيطين بالبنت أنهم إزاء فتاة غير عادية، لا يتعلق الأمر، هنا، بنمو شخصيتها وقوة حضورها، فقط، بل بالجمال الباهر والأنوثة الطاغية اللذين جللاها واستقطبا انتباه الجميع، حتى حين كانت ملامح الطفولة ما تزال تخالط هجمة الأنوثة المبكرة على جسدها. هذا الحال جعل لبقة حكاية في القرية يتابع الناس تفاصيلها، ويراقبون تطوراتها، ويتفننون في روايتها، ويضيفون إليها أو ينقصون منها، حسب أمزجتهم واختلاف مواقفهم من صاحبة الحكاية وذويها. ويقول الرواة إن الراغبين في الزواج، في وقت كان فيه الزواج بالنسبة لهم متعة في المقام الأول، قد بدأوا يتوافدون على أبيها لطلب يدها، حين لم تكن لبقة هذه قد بلغت سنتها الحادية عشرة. كانت البُنية تدرج

مع فتيات القرية فتلاحقها العيون وتكتنفها التلميحات، تذهب مع الذاهبات إلى العمل في الحقول أو لجمع الفطور والأعشاب البرية أو لمّ أقراص الجلة، أو تتردد على البئر، أو تتمشى مع قريناتها على أطراف البركة وحواف الوادي، فتبدو في الحالات كلها واسطة العقد ومركز الاستقطاب بين القرينات، تمناها الجميع لأنفسهم، وتقدم لخطبتها من بينهم من توسم في نفسه الكفاءة اللازمة لإقناع أبيها. واشتدت المنافسة بين الخطّاب، فراح كل خاطب جديد يعرض مهراً أغلى من المهر الذي يعرضه سابقه، حتى بلغت العروض حداً لم تألفه القرية من قبل. وإذ أدرك أبو البنية أن في حوزته كنزاً، فقد تأنى في إعطاء موافقته، وكانت لديه الحجة: البنت صغيرة.

ولا بدّ من أن يكون أبي، وهو ابن عمّ الأم، قد تنبه هو الآخر إلى مزايا ابنة العم، وألمح بهذا أو صرح به أمام أبيه، أو أن يكون أبوه قد تنبه للأمر من تلقاء نفسه ففاتح أخاه بشأن الربط بين ابني العم، أما الرواة فيضيفون إلى هذا أن ابني العم تعلقا أحدهما بالآخر، ونشأت بينهما قصة حب يقارنونها بحكاية قيس وليلى.

ولكي تدرك لماذا صار حب كهذا، حقيقي أو متوهم، حكاية يتناقلها الناس، فعليّ أن أذكرك بأن الحبّ في المجتمع الذي نشأ فيه ابنا العم كان محرماً وأن الجهر بالحبّ يُعدُّ فضيحة. والرواة، وهم الذين يعرفون هذا معرفة جيدة، يقولون إن فضيحة كهذه كانت على وشك أن تنفجر في المسمية الصغيرة لو لم يتعجل ذوو الفتيين تزويجهما فيداروا الفضيحة المتوقعة. وسواء جرى الأمر كما يجري عادة بين أبناء العم الراغبين في الزواج، أوانطوى، حقاً، على قصة حبّ، صريحة أو غامضة، فقد تزوج أبي أمي حسب الأصول المتبعة، وانتقلت الزوجة للعيش مع زوجها في دار أبيه التي هي دار عمها. ولم يكن أبي بحاجة لبذل أي جهد في المنافسة مع الخطّاب الآخرين. فالتقاليد تعطي لابن العم الراغب في الزواج من ابنة عمه أفضلية حاسمة، بحيث يكفي أن تُعرف رغبته في الزواج حتى ينقطع سيل الخطّاب الآخرين.

والواقع أن جدي لأمي استجاب لسطوة التقاليد، فأعطى موافقته على الزواج منذ فاتحه أخوه به. وكان هذا، بالطبع، متوقعاً ومألوفاً، أما غير المتوقع وغير المألوف في سلوك جدّي لأمي فقد ظهر بعد هذا، حين كبّل أخاه وابن أخيه بالشروط التي وضعها ثمناً للزواج. تعامل جدي لأمي مع الأمر كما لو كان الخاطب غريباً، وليس ابن أخيه، ففرض عليه المهر الأغلى و أضاف إلى المهر قائمة من الطلبات الثقيلة الأخرى. وهكذا، توجّب على جدي لأبي شراء أفخر الثياب والحليّ الكثيرة وتهيئة لوازم العرس الذي قيل إنه كان أغلى أعراس القرية كلفة وأشدها أبّهة. وقد خلف هذا كله في نفس جدي لأبي حنقاً إزاء أخيه، وأسس بينهما جفوة دفعت أميّ جانباً من ثمنها، ودفعت أنا، فيما بعد، جانباً آخر.

ولما رحل أبي في وقت غير متوقع، كما رأيت، اضطرب وضع أمي حين لم تكن مهيأة لمواجهة السؤال حول المصير. وصار على الأرملة المفجوعة أن تتوه بين ما توجبه التقاليد وما تفرضه مصالح الأهل المتضاربة، وما تمليه عليها عواطفها وحاجاتها. كان على الأم، وفقاً لواحد من التقاليد، أن تبقى في بيت الزوج الراحل وأن ترعى ابنها اليتيم. ولكن الأم ما كانت تعيش في دار مستقلة بل بصحبة أهل زوجها، وهذا يقتضي، بحكم تقليد آخر، أن تعود إلى دار أبيها وتترقب مصيراً جديداً تقرره مشيئة الأب. وحين يكون الوضع عادياً، يحتفظ أهل الزوج الراحل بالابن، فالابن في القرى ينشأ في كنف أبيه أو ذوي أبيه، وحدهم. أما في حالة أمي الخاصة فالابن المتروك كان ما يزال رضيعاً ومن الصعب أن يبتعد عن أمّه، ثم إن ذوي الزوج هم في الوقت ذاته أقرباء حميمون للأم الأرملة. وقد جعل هذا كله وضع أمي ملتبساً، وفتح الباب أمام شتى الاجتهادات لتفسير التقاليد والاختلاف حولها. فكان من رأي جدي سلمان أن تبقى أمي في داره، كي ترعى حفيده الذي سينشأ في كنفه في هذه الحالة دون أن يفتقد رعاية الأم. أما جدي لأمي فقد أصر على أن تعود الابنة التي ترملت إلى كنفه، كما أصر على أن يجيء رضيعها معها، وكانت حجته في ذلك أن اليتيم لا ينتقل إلى دار غريبة، فهي دار جدّه الذي هو عم أبيه. ولم يأبه جدي لأمي لحجج أخيه سلمان، ولا حاجة هذا الأخ إلى بقاء زوجة ابنه وحفيده في كنفه، بما يحمله بقاؤهما عنده من إحساس بالتعويض عن فجيعته برحيل الابن النابه.

هذا الاختلاف في الآراء والاجتهادات انطوى على مصالح متضاربة بين الأخوين، واقترن، بالتالي، بتفجير الضغائن المخزونة بينهما، فأشعل بين الأخوين خصومة امتدت سنوات. واكتويت أنا و أمي على الجانبين بنار هذه الخصومة. وهنا، أجدني مضطراً إلى الإمعان في الاستطراد كي أشرح لك الأمر، خصوصاً إذا كنت غير مطّلع على الفرق بين تقاليد الإرث في الريف، كما تطبق في الواقع، وقوانين الإرث التي تعرفها، والتي لا تطبق إلا على الورق. كان أبي يملك أرضاً مساحتها مائتان وعشرون دونماً، جاءته عن أمه. هذه الأرض التي سجلت باسم أبي وهو، بعد، صغير أضيفت، عملياً، إلى الأرض التي بحوزة جدّي سلمان بوصفه المشرف على ابنه القاصر. وبقي الوضع على هذه الحال فيما تلا من سنوات، خصوصاً أن أبي مات قبل أن يستقل بملكيته أو ينتقل إلى دار خاصة به فيحتاج إلى فصل الملكية عما بحوزة أبيه. فلما مات أبي، أوجب القانون أن تنتقل ملكيته إلى ورثته، أي لي ولأمي، وهذا يعني أن يصير ثُمْنُ الملكية باسم الأم ويصير الباقي باسمي. ولو بقيت أمي معي في دار جدي لأبي، فسيبقى الوضع، عملياً، كما كان في السابق، وسيظل هذا الجدّ هو المشرف على الأرض دون منازع. أما انتقال أمي وأنا معها إلى دار جدّي الآخر، فيستتبع أخذ الأرض من حيازة جدي سلمان وانتقالها، عملياً،

للجد الآخر، إذ إن وجودي في كنفه يعطيه حقاً أدبياً بالمطالبة بالإشراف على الأرض العائدة لي. وبهذه المشكلة، اقترنت مشكلة أخرى هي نتاج الفرق بين أحكام التقاليد وأحكام القانون. ففي القانون، ترث البنت ويسجل ما يخصها في الميراث باسمها في أوراق الدولة. أما في التقاليد، فلا يهتم إلا قليلون باستئثار البنت بحصتها من الإرث، ولكي لا يخالف أحد القانون، يقضي العرف أن تتنازل البنت عن حصتها في الميراث لواحد من ذويها الأقربين الذكور، أبيها إن كان حياً، أو أخيها، أو من هو في حكمهما من الكبار.

ومع انتقالنا، أمي وأنا، إلى دار أبيها، برزت المشكلة بوجهيها. وإذ إن انتقالنا قوّى مركز جدي لأمي الأدبي، فقد تعجّل هذا الجد تسجيل الميراث باسمي واسم أمي، كما تعجّل وضع يده عليه بوصفه وليّ أمرينا. ثم بدأت ضغوط هذا الجدّ على أمي لكي تقوم بما يفرضه العرف الذي لا يرحم الأنثى، فتتنازل له عن حصتها الموروثة وتقبل تسجيلها باسمه، غير أن أمي المتمتعة بقوة شخصية غير عادية، والمعنية بالتفكير بمستقبلي قبل أي أحد، تمردت على العرف وواجهت الضغوط بعناد. وكانت أمي تحذو بهذا خذو أمها التي رفضت قبل ذلك أن تتنازل عن ميراثها لأخيها الكبير وتميزت بين إناث القرية بأنها الأولى التي فعلت ذلك. كما كانت أمي في تمردها هذا تلقى الدعم الكامل من جدي لأبي ومن عدد آخر من الأقرباء الذين ساهموا، بالأساس، في أن يرغمها أبوها على ترك منزل الزوج الراحل.

اشتعال هذه الخصومة بين الأب وابنته شجّع جدي سلمان على المطالبة بعودتي إليه، وهي مطالبة تنطوي على المطالبة بعودة أمي، أيضاً. وهكذا، اتسع نطاق الخصومة و ازداد عدد المنخرطين فيها، واستنفر كل من الجدين أقصى قواه الأدبية والمادية وانتضى أحدّ أسلحته. وقد تمايزت عواطف الناس وتماوجت، وانقسمت القرية بين مؤيد لهذا الأخ ومؤيد لذاك، أو ساعٍ لتحقيق الاتفاق بينهما، أو متفرج مشفق، أو متفرج شامت، حسب الأحوال. و أخذت الكفة تميل نحو جدي لأمي تارة فينجح في الاستئثار بي، فأنتقل إلى داره، ثم تميل نحو جدي لأبي تارة أخرى، فأعود إلى داره. دائرة طباشير قوقازية احتواني جحيمها في سنوات طفولتي الأولى، وعاشت حروقها في روحي، وكوت كبد أمي التي لم تحط بها إلا الكوارث. والحقيقة أن أمي صمدت أمام ضغوط أبيها صموداً مدهشاً. فلما حاصر الأب ابنته مستعيناً عليها بقوة التقاليد القاهرة ابتكرت أمي الحل الذي يلائمها هي: تنازلت عن حصتها من الأرض، لكنها لم تسجلها باسم أبيها، بل جعلتها لي أنا، وأسقط في يد الأب الذي استشعر إعجاب الناس بما فعلته الابنة العنيدة.

في إبّان اشتعال الخصومة، وفي ظل حرص جدّي لأمي على الاستئثار بي، لم يكن وارداً

أن يوافق هذا الجدّ على تزويج ابنته الأرملة. وقد توافد الخُطّاب من جديد، وتباروا للظفر بالصبية الجذابة. لكن الجدّ رفع حجته الدامغة في وجه الجميع: الصبي صغير. فلما أقفلت أمي النزاع على الأرض بحلّها المبتكر، كنت أنا قد بلغت الثالثة من عمري، وكانت الكفة تميل وقتها نحو جديّ لأبي وأنا في رعايته. وقتها، بدأ جدي لأمي يتفحص إمكانات الخاطبين المتنافسين، ويوازن بينها لينتقي من بينهم من يلائمه. لم يكن وارداً في ظروف تلك الأوقات، أن تختار الابنة شريك حياتها بنفسها وفق إرادتها الحرة. وكان أقصى ما يمكن لابنة شجاعة أن تفعله هو أن ترفض خاطباً يقبله وليّ أمرها، مع المجازفة بمواجهة استنكار المجتمع لهذا الرفض و إدانته لها ونعتها بأقبح الأوصاف. ومهما تكن الابنة شجاعة فهي تستطيع أن ترفض خاطباً أو اثنين وتكرر ذلك مرات قليلة، لكنها لا تستطيع أن ترفض إلى الأبد. كانت أمي شجاعة، كما لاحظت ذلك، على نحو غير مألوف، إلا أنها كانت ملزمة بالرضوخ في النهاية. وقد رفضت أمي فكرة الزواج من جديد، وتسلحت بالحجة التي واءمت أباها في وقت من الأوقات، وهي أني صغير محتاج لرعايتها. فلما بطلت هذه الحجة، راحت الأم ترفض هذا أو ذاك من الخاطبين لهذا السبب أو ذاك، إلى أن استنفدت كل مسوّغ لعزوفها عن الزواج. ثم لما حان أوان استسلامها للضغط والتقاليد، بدا أنها غير معنية بشخص بعينه، وأن الخطاب كلهم سواء في نظرها. وقد أطلق هذا الاستهتار من الأم يد الأب وحفّزه على انتقاء أكثر الخطاب مواءمة لمصالحه هو. وفي النهاية، فاز في السباق رجل من أهل المسمية الكبيرة. والرجل من جيل الجد، وهو من أصدقائه الحميمين، كما أنه جمّ الحيوية مثل الجدّ ومتعدد النشاطات، وكانت بينه وبين الجدّ شراكة في بعض الأعمال.

كان أبو عمر، وهذه هي كنية حسن مهنّا الرجل الذي تزوج أمي، من زوار دار الجد القدماء الذين يحظون بحفاوة خاصة كلما حلّوا فيها، وكان إنساناً حسن المظهر، مهيباً، كما كان كريماً سمح النفس طيب العشرة. ولا بدّ أن يكون هذا الرجل قد عرف لبقة، ابنة صديقه، منذ كانت طفلة صغيرة تدرج في ساحة الدار إلى إن أصبحت البنية الشهية التي يتسابق الرجال للظفر بها، ومن يدري، فلعلّ الرجل تمنى أن يتزوجها قبل زواجها بابن عمها، إلا أن السنوات الخمس والعشرين التي تفصل بين سنها وسنه حالت دون إفصاحه عن هذه الأمنية، وأياً ما كان عليه الأمر، فالرجل لم يسابق الدفعة الأولى من الخطّاب الذين تباروا للحصول على البنية قبل زواجها الأول. وهو لم يبرز حتى بين البارزين في الدفعة الثانية الذين جددوا المبارزة بعد ترمل أمي. وقد احتفظ الرجل في كل الأوقات بعلاقته المستقيمة مع الدار وأهلها جميعاً. وبحكم منزلته الخاصة بما هو ضيف عزيز ومعتبر، كانت للرجل صلات بأهل الدار كلهم، صغارهم و كبارهم، يتحف الصغار بهداياه

المتواترة وملاطفاته وأمازيحه، ويستحوذ على إعجاب الكبار بمجاملاته واهتمامه بمصالحهم وتشبثه بالواجبات التي تقتضيها الصداقة الحميمة، وحين كان الصراع محتدماً بين جدّي وأمي، اتخذ أبو عمر موقفاً متوازناً قوامه العمل على تهدئة الخواطر المهتاجة وتبريد العواطف الملتهبة والدعوة إلى تغليب الحكمة وترجيح مقتضيات القرابة على دواعي الخصومة. وإذ كان من غير اليسير حتى على زائر للدار له هذه المنزلة أن ينفرد بأمي ويوصل إليها آراءه، فقد كانت مواقف الرجل تصل إليها عبر أحاديثه مع جدتي. وكان في هذا المواقف الكثير مما يسترضي الأرملة الحانقة ويلبي حاجتها إلى الظفر بفهم الآخرين لموقفها. وسواء أخفى أبو عمر رغبته في الزواج لبعض الوقت أو أنه لم يحمل، من قبل، رغبة كهذه، فإنه لم يفصح عما في نفسه إلا في وقت متأخر، وبعد أن توفرت الظروف التي حملت جديّ لأمي على التفكير بتزويجها وتكاثر سيل طلاّبها.

هنا، تقدم الرجل الواثق من مكانته بثبات وعرض طلبه بألبق صورة وأدعاها للموافقة عليه. ولم يغفل الطالب ذو الدراية الواسعة عن الاهتمام بالحصول على دعم جدتي، بل كاشف الجدّة برغبته في الزواج من ابنتها وأفهمها أنه بين جميع الذين تقدموا لخطبة الابنة المتمردة المتعبة أقدرهم على رعايتها وحمايتها من نزوات رأسها الحامي وصون مصالحها. وعزز الرجل مطالبته التي جرت حسب الأصول بما يعرف أنه شديد الوقع في نفس الجدّ صاحب القرار حول مصير الابنة، فعرض مهراً لم تحصل على مثله فتاة في المنطقة كلها من قبل، وتعهد بتغطية النفقات اللازمة كافة، و إغراق العروس بالثياب والحليّ، وترضية كل من يعنيهم أمرها. وهكذا، دفع أبو عمر ألف جنيه فلسطيني نقداً خالصاً للأب وحده، وتكبد مثل هذا المبلغ الهائل نفقات أخرى. ويقول الرواة، هم الذين يبحثون في كل حكاية عما هو خفي من وقائعها، إن الرجل دفع من ماله ما ضمن به رضا الأقرباء الآخرين الذين يمكن أن يكون لهم رأي في هذه المصاهرة بين المسميّتين أو سكوتهم. والمغرمون بتتبع التفاصيل من الرواة يقولون إن كل ذي شأن من الذكور البالغين في حمولة آل سلمان تلقى ترضية من الخاطب، وكل امرأة حادّة اللسان في الحمولة حصلت على ما يليّن حدة لسانها.

وبعملية واسعة كهذه، جنّد أبو عمر كثيرين لصالحه، وضمن حياد من تعذر تجنيده، وظفر بالأرملة الجميلة.

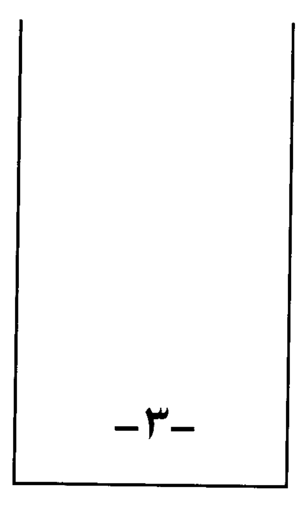
أمران لم يأبه لهما أحد ممن أدارت العطايا والمجاملات رؤوسهم: الفارق الكبير في السن بين الخاطب والخطيبة، وكون الخاطب متزوجاً وله جيش من الأولاد منهم من هو في سنّ الخطيبة. ولكي لا يُتهم أحد بغير ما يستحق، عليّ أن أذكّرك بأن زواج كبار السن

بالصغيرات كان شائعاً شيوعاً واسعاً، بحيث لا يأبه له إلا القليلون، وأن تعدد الزوجات كان، أيضاً، شائعاً بوصفه حقاً من حقوق الرجال لا يجادل فيه أحد.

هل كانت أمي راضية عن هذا الزواج، وهل اندفعت إليه برغبتها متأثرة بما تأثر به الآخرون من مزايا الزوج ومكانته وتميزه، أم أنها قبلت بما قبل به أبوها بعد أن طال تمردها، ووهنت قواها في الصراع الذي وجدت نفسها فيه منذ صغرها؟ أصارحك بأني عاجز عن تقديم الإجابة عن هذا السؤال. فحين تم الأمر، كنت أصغر من أن أعي ما يدور حولي أو أميز بين المألوف والشاذ. أما بعد ذلك فقد جرفتنا، جميعاً، أمي وأنا والآخرين، أحداث طاغية، بحيث لم يتهيأ لي أن أتوقف للبحث عن الإجابة الشافية. ثم حين صار من الممكن أن أنشغل بأمر كهذا، كان زمن طويل قد انقضى، ولم يعد من الضروري أو المفيد أن أنبش الماضي، و أثير ما قد ينطوي عليه من شجون، وأفتح ما قد انغلق من جراح.

والحاصل أن ذات الجمال ذائع الصيت، فتاة المسمية الصغيرة التي نشأت نشأة لامعة و أحاطت بها آمال ورغبات متباينة، تزوجت قبل أن تُتم الثالثة عشرة، وترملت وهي في الخامسة عشرة، ثم وهنت قواها في صراع فرضته عليها تقاليد عتيقة ومصالح متباينة، قبل أن تتزوج ثانية وهي لم تبلغ الثامنة عشرة. وبهذا الزواج، الذي احتفل به الآخرون وهي تبكي، صار لي زوج أم وصار عليّ حسب التقاليد أن أخاطبه بـ: "يا عمي".

وبالزواج الذي سيقت إليه الأرملة الجميلة، تم الفصل بين الأم وابنها اليتيم. فآل الحوراني كلهم، وليس آل سلمان وحدهم، لا يقبلون أن ينشأ ابنهم الذي هو أنا في دار زوج غريب، أياً ما كانت عليه مكانة هذا الزوج أو معزتهم له، ومنذ انتقالها إلى المسمية الكبيرة وغرقها في الشجون التي تكتنف الدار التي انضمت إليها، تحددت العلاقة بيني وبين أمي، فضاقت إلى أدنى الحدود. وبمضيّ الوقت، اقتصرت هذه العلاقة على زيارة أقوم بها، أنا، مرة كل أسبوع، حيث تستضيفني، هي، وسط حشد الناس الذين تعيش بينهم، والزيارات القليلة التي يتاح لها، هي، أن تقوم بها إلى المسمية الصغيرة في الأعياد والمناسبات الهامة الأخرى. وهكذا، عملياً، فقدتُ الأم، بعد أن فقدتُ الأب، وصرت أشهر أيتام القرية.



رجل صنع تميزه بنفسه

أظلم جدي عبد المجيد ظلماً لا يستحقه لو اكتفيت بما ذكرته عنه حتى الآن. فهذا الرجل هو ابن زمانه قلباً وقالباً، كما يقال، ومن الظلم، فعلاً، محاكمة سلوكه دون أخذ قيم زمانه بعين الاعتبار. وهو على كل حال الرجل الذي قدّر له أن يلعب الدور الأهم في حياتي، في طفولتي وفتوتي. وقد كانت للجدّ شخصيته متعددة الجوانب، فلا يكفي أن تعرف جانباً واحداً منها إذا أردت أن تعرف هذه الشخصية الغنية. كان الرجل صلباً حين يندفع للمواجهة، كأنما قدّ من الصوان، وكان ليناً حين يحتاج للمناورة، كأنه منسوج من خيوط الحرير. يقسو حين يقسو، فلا يعرف الوهن، ويسخو، حين يسخو، فلا يعرف الاقتصاد، ويحسب، حين يحسب، فلا يقع في الإسراف. وكان الجدّ يكدّ في الأحوال كلها دون توقف. وكان يتمتع وهو فتى بحكمة يحسده عليها الشيوخ، وظل يتمتع بحيوية يحسده عليها الفتيان حتى بعد أن تقدم به العمر. وكان هذا الجد، ككل عصامي صنع مكانته الخاصة بنفسه، عنيداً عناداً لا يلينه شيء، فإذا وضع لنفسه هدفاً عمل بلا هوادة، وأتعب نفسه وأتعب غيره من أجل تحقيقه. فإذا أعجزت الظروف الجدّ عن تحقيق هدف يتوخاه، كان يجعل الدنيا من حوله جحيماً لا يطفئه إلا نجاحه في تحقيق هدف آخر. وكان الجدّ حين ينجح في الوصول إلى هدف لا يتوقف للتمتع بنجاحه أو الاحتفال بالحصول عليه، بل يترك المتع والاحتفالات للآخرين، ويستأنف هو على الفور حركته نحو هدف آخر يرتسم أمامه بحكم الظروف أو يرسمه لنفسه.

تجاوز جدّي نهاية العقد الرابع من عمره حين أدركت وجوده. وكان هذا الجد، وكنيته أبو نافذ، قد قطع الشوط كله، كما يشهد كل من عرفه، دون أن يعرف الراحة أو الهدوء. اقتحم الجدّ هذه الدنيا مع إطلالة القرن العشرين وحطّ في أسرة كثيرة العدد كبيرة المسؤوليات محدودة الموارد، يكدّ أعضاؤها بأقصى جهدهم في الأرض العائدة لرب الأسرة الوجيه، فلا يبقى لهم من كدّهم إلا القليل مما يقيم الأود، لأن موارد الأرض تتبدد من أيديهم بين متطلبات الوجاهة وما يستولي عليه جباة الضرائب والغرامات والطامعون في الهدايا والرشاوى من رجال السلطة العثمانية. ومنذ نشأته الأولى، تميز الفتى عبد المجيد بين إخوته بحيوية فائقة، وذكاء متقد، ومقدرة ناشطة على المبادرة، واستعداد غير مألوف في المحيط الرتيب الذي اكتنفه للاستفادة من الفرص المواتية أو خلقها خلقاً. كما تميز هذا الفتى وهو، بعد، طفل برغبة في التعلم كانت نادرة في زمنه، ولم تكن الظروف تسمح بتلبيتها إلا في أضيق الحدود. وحين كان مجايلو الفتى يؤثرون اللعب ومشاركة الكبار في غدواتهم وروحاتهم ومصاحبتهم في أوقات الفراغ، انصرف الطفل عبد المجيد إلى التعلم كلّما أتيحت له الفرص. فعرف كتّاب القرية هذا الطفل تلميذاً مواظباً حين كان يتاح للكتّاب أن يحظى بشيخ مقيم يعلّم الأولاد القراءة والكتابة ومبادئ الحساب. ولأن وضعاً كهذا ما كان يتوفر بانتظام، ولا كان يشجع المبتدئين في التعلم على المتابعة، فقد تميز عبد المجيد بين أقرانه الذين لم يتابعوا الشوط بترصده فرص التعلم المتقطعة ومتابعة الجولات، حتى صار بإمكانه في نهاية مطافٍ امتد سنوات أن يقرأ ويكتب ويجمع ويطرح ويقسم الأرقام.

ومنذ نما الطفل واشتدّ عوده، صارت قوة زنديه مطلوبة لتلبية حاجات الأسرة، فمارس العمل في الحقل. لم تكن الآلات الزراعية مستخدمة في الحقول، والأرجح أنها لم تكن حتى معروفة في ذلك الوقت، وكان على أبناء الأسرة ودوابهم أن يتقاسموا الأعباء. وقد نهض الفتى بحصته من العمل الشاق، دون أن يصرفه الجهد اليدوي الذي يستهلك طاقات العاملين ويبلّد أذهانهم عن الاهتمام بالشؤون الأخرى، فظل يتسقط الفرص القليلة لقراءة كتاب، ويتابع الأنباء العامة من مصادرها المتاحة في ذلك الوقت. وبهذا، توسعت مدارك الفتى فشملت ساحتها أكثر مما تشمله، في العادة، المدارك الضيقة لسكان القرى الصغيرة. ومع توسع مدارك الفتى، نما طموحه فتجاوز الطموحات المحدودة لأقرانه. وما كاد الفتى يقترب من منتصف عقده الثاني حتى قامت الحرب العالمية الأولى. وأنت تعرف أن إمبراطورية بني عثمان الفقيرة المتأخرة المنهكة بالأعباء، والتي ترتع في أرجائها الفوضى ويعشش فيها الفساد، قد دخلت الحرب إلى جانب دول المحور ضد الحلفاء. وصار على مواطني الإمبراطورية في البلدان العديدة التي تضمها أن يدفعوا ثمناً باهظاً

لنزوة سلاطين بني عثمان وتوهمهم أن دخولهم الحرب سوف يحمي الإمبراطورية من الانهيار الذي يتهددها. وفي ظروف الحرب، أخضعت فلسطين للقوانين العسكرية العثمانية كغيرها من بلدان الإمبراطورية. وإذ توقف الاستيراد والتصدير وسيق الرجال إلى طواحين المعارك، بارت الأعمال وحل الكساد بكل شيء وجاع الناس. وقد لجأت الدولة المحتاجة إلى نتاج الحقول، من أجل إطعام عساكرها وبغالها، إلى حظر الاتجار بالحبوب، و أوجبت على الفلاحين، مع القيود الكثيرة الأخرى التي تكبلهم، أن يبيعوا حبوب حقولهم للدولة وحدها، وفرضت أسعاراً تجعل من عملية شرائها للحبوب أقرب إلى المصادرة.

وحين لا يحترم الناس دولتهم ولا يجدون لأنفسهم مصلحة في حروبها، تنشأ السوق السوداء. وكان إغراء العمل في السوق السوداء شديداً، والربح العالي المرتقب كان يعادل الجهد المطلوب، ويدفع إلى المجازفة بالتعرض للمخاطر التي يتعرض لها المتاجر بالحبوب من وراء ظهر الدولة. ولم يضع الفتى عبد المجيد الفرصة التي تعده بتحقيق الآمال وتلائم نزعته إلى المبادرة وحيويته الفائضة وتغويه بلذائذ المغامرة. وبدل أن ينخرط الفتى في خدمة أحد الكبار من تجار السوق السوداء، أنشأ لنفسه تجارة خاصة، وكانت عملياته صغيرة ومتواضعة لكنها ليست قليلة الفائدة. بدأ الفتى مغامرته وهو، بعد، في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره. في البداية، اكترى الفتى حمارين أو ثلاثة، وحين تحسنت أحواله اشترى الحمير، وظل في الحالتين مصراً على أن لا يشرك أحداً في مغامرته، لا بصفة شريك ولا بصفة أجير. وراح الفتى يشتري من أهل القرية الكتومين القمح والشعير والذرة والعدس ويخزنها في بايكة دارهم. وحين يحل الظلام كان الفتى ينصرف إلى عمله السري، فيعبئ الحبوب في أكياس، ويحمّل كل حمار كيسين، ثم يقتاد قافلته منطلقاً إلى خارج القرية بعد أن ينام الناس.

كانت رحلة المهرب الصغير تبدأ مع منتصف الليل، فيصير في مقدوره أن يبلغ مدينة الرملة قبل أن تفضحه أنوار الفجر. وقد تفنن الفتى في اختيار الدروب التي تقل عليها المخاطر وابتكار الحيل التي تجنبه التعرض لعيون الدولة المتلصصة والوقوع في أيدي الدوريات، فقد كان يتبع دروباً غير مطروقة، حتى لو كان السير عليها أشقّ والمشوار أطول، ويتعمد الدخول إلى الرملة وقت الفجر حين يثقل النعاس أشد العيون يقظة ويهمد أعظم الأبدان حيوية. وعند الوصول إلى الرملة، يتجه الفتى إلى دار تاجر اهتدى إليه، فيسلمه البضاعة، ويتقاضاه الثمن نقداً، ثم يصلي وراء التاجر صلاة الفجر جماعة، ويتناول إفطاره في الدار، فيكون الصباح قد حلّ والنشاط قد دبّ في عروق المدينة، فيغادر الدار بصحبة التاجر كأي زائر محترم، ويتجه مع مضيفه إلى المتجر الذي يملكه هذا المضيف في سوق المدينة، ويختار من موجودات المتجر ما يحتاج إليه أهل المسمية الصغيرة

من البضائع التي تبيح الدولة الاتجار بها، ويعود إلى القرية في وضح النهار كأي تاجر نقيّ الضمير.

كان الجدّ حين يروي لنا، نحن الصغار المتحلقين حوله المشوّقين للاستماع، حكايات مغامراته هذه ينبهنا إلى أن الليالي المعتمة، خصوصاً تلك منها العاصفة أو الماطرة، هي أنسب الأوقات لعمل كهذا. فالدوريات التي توكل السلطات إليها مهمة مراقبة المهربين يندر أن تنشط للعمل في ليال كهذه، وغالباً ما يحملها سوء الطقس على التقاعس وعدم الخروج للمهمة.

أما إذا خرجت دورية، فرجالها، في نهاية الحساب، بشر يؤذيهم لسع الريح وقرصات البرد وتخيفهم العتمة وما تنطوي عليه من مخاطر، ولذا فهم يؤدون المهمة بكلال ويتعجلون العودة إلى مخافرهم، فضلاً عن أنهم يتجنبون، في العادة، المجازفة. وإذا كانت تعليمات الرؤساء مشددة بحيث يتعذر على رجال الدورية أن يعودوا لمخفرهم قبل انقضاء فترة دوريتهم المقررة، فإنهم يلجأون إلى أقرب مأوى دافئ في طريقهم، أو يشعلون النار للتدفئة، ويتركون الدروب داشرة لمن تطيب لهم المغامرة من المهربين، ممن لا تعوزهم الجرأة ولا يفتقرون إلى القدرة والاحتمال. أما في الليالي المقمرة، خصوصاً تلك منها الدافئة، فالخطر كبير ولا بدّ من الاحتياط له. ففي هذه الليالي، تكثر الدوريات على الدروب، وتحرك رجالها همة إضافية يعوضون بها تقاعسهم في ليالي الكسل. ويمكن لرجل الدورية أن يرى لمسافات بعيدة في الليالي المقمرة، فيسهل عليه تصيّد المطلوبين، ويتضاءل خطر المفاجآت التي قد يتعرض لها. وهذه الليالي هي الأوقات التي تشتد فيها رغبة مكافحي التهريب في الحصول على الرشوات، أو في التباهي بالإنجازات التي يحققونها حين يقع عباد الله في قبضاتهم. وقد ابتكر الفتى حيلة تجنبه خطر دوريات المراقبة هذه واحتفظ بسرّها لنفسه حتى لا تشيع بين زملاء المهنة فيبطل مفعولها. كان الفتى، ككل المهربين النبهاء، يشدّ خرقاً من القماش على حوافر حميره، فيخفت صوت دبيبها على الأرض فيصعب على الدورية التقاط الصوت عن بعد، ويسهل عليه هو أن يلتقط دبيب الأقدام، فإذا سمع دبيباً ذا وقع منتظم عرف أنها الدورية فاتقاها. وكان المتسلح دوماً باليقظة يكمّ أفواه حميره حين يلتقط الإشارة المحذرة، ويلتجئ إلى أقرب مكان يستطيع الاختفاء فيه: يتوارى خلف صخرة، أو يكمن في مهبط واد، أو يختفي في أجمة أو بستان، حسب المتيسر، ثم يراقب الموقف ويدرسه حتى يتحقق من الاتجاه الذي تمضي الدورية فيه. فإذا كان الاتجاه معاكساً لاتجاهه هو، صبر الفتى حتى تجتازه الدورية ثم أتمّ مشواره، أما إذا كانت الدورية متجهة إلى الرملة، فإنه يستخدم حيلته. والحيلة بسيطة، كما يصفها الجدّ نفسه، واستخدامها لا يقتضي المهرب إلا أن يكون فطناً

وغير هيّاب، وهي تنطلق من قاعدة بسيطة هي الأخرى: إذا كنت عاجزاً عن مواجهة الخطر فلا تهرب منه ولا تنثن عن إتمام مهمتك، بل سر معه! وكان الجدّ، متبعاً القاعدة، يسير وراء الدورية، محتفظاً بمسافة ملائمة بينه وبينها. وتعليل الجد للأمر بسيط، هو الاخر، فلليل رهبته حتى لو كان مقمراً، ورجال الدورية يكونون متعبين، والسير في البراري صعب في الليل، والسائر في الليل مضطر لأن يعاين مواقع قدميه عند كل خطوة حتى مع وجود ضوء القمر، والرجال المتخوفون من المفاجآت الهيابون إزاء المخاطر المتوقعة يسلّون أنفسهم أثناء السير بالحديث الصاخب، فيطغى صخب حديثهم ووقع أقدامهم على دبيب حمير الجد المكتوم فلا ينتبهون لوجودها. وللعساكر، كما يقول الجدّ عنهم، طريقة في السلوك تجعلهم أحاديي النظرة، فإذا مروا بقربه وهو مختبئ وهم ينظرون إلى أمام، فقط، فهو يضمن أن نظرهم سيبقى موجهاً إلى أمام حتى النهاية.

وفي كل الأحوال، حين يقع ما ليس في الحسبان فيبطل مفعول الحيلة، يكون الجدّ متأهباً لمعالجة الموقف. والعلاج معروف، فهو يهيئ الرشوة الملائمة، وإذا اكتشفته الدورية فإن الرشوة تؤمن له متابعة الطريق دون معوقات. ومفعول الرشوة، يقول الجد، هو الوحيد الذي لا يبطل في أي حال من الأحوال.

ازدهرت أحوال الجدّ وهو، بعد، صغير السن، وهيأ له هذا شيئاً من الاستقلالية وسط الأسرة لا يتمتع به من هم في سنه، وتوفرت له خبرات مبكرة في التجارة والأعمال والعلاقات مع مختلف أنواع البشر. غير أن النعم، كما يدرك هذا سكان البلاد التي لا تستقر أحوال دولها ولا أحوال رعاياها، لا تدوم إلى الأبد. وهذه النعمة التي ظفر بها الجدّ في الأوقات الأخيرة من عمر إمبراطورية بني عثمان غارت حين دالت دولتهم في فلسطين. تشتت جيش الدولة العليّة أمام ضربات القوات البريطانية والثوار العرب، وحل جيش بريطانيا العظمى محل الجيش المهزوم. كان جدّي قد جمع حتى هذا الوقت ثروة صغيرة أهّلته لفتح دكان في القرية يبيع فيه البضائع التي يجلبها من سوق الرملة، ويتخذه مركزاً لتنظيم عمله المستور. فلمّا انتهت الحرب، خسر الجدّ مركز دخله الأساسي، فلم يبق له غير الدكان. وما كان الدكان كافياً لاستيعاب طموح الفتى النشيط بعد أن انفتحت عيناه على دنيا الله الواسعة وما فيها من آفاق. وإذا كانت الفرصة التي انفتحت له أيام الحرب قد ولّت، فالجد مؤمن بأن الله لا يبتلي أحداً إلا أعانه. وها هو الاحتلال الإنجليزي يتكشف عن بلوة للبلاد وأهلها، لكنه يهيئ للجد فرصة أخرى لمغامرات جديدة. راقب الجد مجرى الأحوال ليستكشف اتجاه الرياح، لبد في الدكان المتواضع بعض الوقت، وشحذ بصره وبصيرته كليهما. وقد اتضح أن الإنجليز، وهم الذين جاءوا إلى البلاد بصفة محررين ثم تحولوا إلى محتلين، راغبون في أن يصبغوا سلطتهم بصبغة

تميزها في نظر الناس عن سلطة بني عثمان الجائرة الفاسدة. ومنذ حلّوا في البلاد، أشاع الإنجليز أجواء توحي بأن سلطة القانون هي التي ستسود، و أعطوا أمثلة عاجلة ليقنعوا الناس بأن الحاكم الجديد منصف، وأنه يحكم بين الناس حسب القانون واستناداً إلى الأدلّة، وليس وفق المزاج كما كان الأمر من قبل. ولا بدّ من أنك تحزر أن فلاحينا الذين أزمنت شكوكهم في كل سلطة قد راقبوا محاولات السلطة الجديدة بحذر، وانتظروا ما تجيء به الأيام من براهين.

وحين كان جدي يفكر في ابتكار الوسيلة التي تنفعه في الظروف الطارئة، جاءته الفرصة من تلقاء نفسها. رجل من الأتراك التقاه الجد صدفة فتهيأت له الفرصة التي يبحث عنها لمغامرة جديدة. كان هذا الرجل هو المسؤول عن المستودعات في معسكر قريب من قريتنا حين كان الجيش العثماني يشغل المعسكر. ولما انهزم الجيش وانسحبت فلوله، تخلف الرجل، لسبب أو لآخر، ثم توارى عن الأنظار كي لا تقع عليه يد المحتل الجديد. ولأنه اعتقد أن عيون الإنجليز تطارده، راح الرجل ينتقل من قرية إلى أخرى إلى أن التقى جدّي في المسمية الصغيرة. هذا الرجل عرض على الفلاح الذي يتوسم فيه النباهة أن يخدمه خدمة جليلة إذا ساعده الفلاح على الخروج من البلاد وأعطاه المال اللازم للرحلة. وهكذا، دفع جدي مالاً وهيأ للمطارد رحلة آمنة، وحصل منه مقابل ذلك على وثيقة موقعة بإمضائه ومختومة بختم المعسكر تظهر أن عبد المجيد الحوراني اشترى بصورة شرعية خشب المعسكر قبل أن يرحل عنه شاغلوه العثمانيون.

حمل الجدّ الوثيقة الدامغة، وتوجه إلى غزة التي هي مركز اللواء الذي تتبعه المسمية الصغيرة. وفي غزة، تقدم الجد بوثيقته إلى الحاكم العسكري البريطاني مطالباً بالخشب.

لا بدّ من أن يكون الحاكم قد احتار أمام هذا الطلب الغريب، ولا بدّ من أن تكون الشكوك قد راودته حول هذا الفلاح الشاب الذي اشترى خشب معسكر بأكمله في ظروف لا تحمل على الاطمئنان إلى وقوع بيع أو شراء من هذا النوع. غير أن الحاكم كان عاجزاً عن الطعن في صحة الوثيقة ذاتها، كما كان حريصاً في هذا الوقت المبكر من عمر الاحتلال البريطاني لفلسطين على تقديم الترضيات الصغيرة لأهل البلاد حتى يبتلعوا ما هو أهمّ، وهو وجود الاحتلال ومشاريعه. وبين الشك والحرص، حاول الحاكم أن يجد حلاً وسطاً: فالخشب الذي يطالب به جدّي كان قد استخدم في بناء منشآت جديدة في المعسكر بعد احتلال الإنجليز له، ولم يعد من الممكن تسليمه للجد، والسعر الحقيقي المفترض لهذا الخشب أضخم من أن يأذن الحاكم بدفعه للفلاح الذي يلوح بوثيقته. ولأن الفلاح صغير، ولا بدّ من أن يكون الحاكم قد استهان به، عرض هذا الحاكم مبلغاً زهيداً من المال ترضية، وقرن العرض بالتهديد المناسب، ظاناً أن جدي سيبتهج بالحصول على أي مبلغ ويتهيب الدخول في مماحكات مع سلطة لها هيبة السلطة البريطانية.

غير أن الجدّ المتمسك بالفرصة التي لاحت له استشعر في حيرة الحاكم، واستخلص من عرضه ما يشجعه على التمسك بالطلب الأصلي، فلم يقبل العرض ولم يذعن أمام التهديد، بل صمد عند موقفه: أريد الخشب. وشاعت القصة، وصارت حكاية تجتذب الناس الذين كانت عيونهم مشدودة لمراقبة سلوك السلطة الجديدة وسبر أغوارها. والتقط محامٍ فلسطيني مناوئ للإنجليز الحكاية فعرض على الجدّ المساعدة، وانتقل الأمر إلى القضاء العسكري. وهكذا، شهد لواء غزة واحدة من المحاكمات التي تتوزع فيها مشاعر القاضي العسكري الإنجليزي بين ما تفرضه الأدلة وما تقتضيه مصلحة الجيش الذي يستخدم هذا القاضي. وفي النهاية، كسب المحامي الدعوة، وحصل جدي على تعويض مناسب. وظفر الجدّ بسمعة واسعة، بوصفه المواطن البسيط الذي ضحك على جيش الإمبراطورية البريطانية.

بهذا الكسب، وبما توفر له من خبرات وعلاقات جديدة، انفتحت أمام الفتى الذي غدا شاباً معتبراً بين النابهين من الرجال آفاق واسعة للعمل خارج حدود القرية. وقد أغلق الجدّ الدكان الصغير، وانتقل إلى نوع آخر من التجارة، فكان يشتري حمولة شاحنة أو بضع شاحنات من حمضيات فلسطين الشهيرة ويذهب بها إلى دمشق الشام، فيبيعها، ثم يعود حاملاً معه الأقمشة الدمشقية المرغوبة في محيطه والعباءات والحطات والعقل ليسوّقها في قريتنا وقرى المنطقة. ثم اهتدى الجدّ، بجانب هذا، إلى تجارة الأغنام، فصار يسافر في الموسم الذي تهبط فيه أسعار الأغنام إلى شرق الأردن، فيجلب الغنم من بواديها ويبيعها للراغبين في اقتنائها، وإذ تحسّن رأسماله واتسعت علاقاته وتوطدت خبرته في التعامل مع موظفي الحكومة، اقتحم الجدّ عالم الأشغال الحكومية، فأخذ يشترك في المناقصات من أجل الظفر بتنفيذ هذا أو ذاك من المشاريع الصغيرة التي تلزّمها السلطات في العادة إلى متعهدين محليين.

بالرغم من هذا، من وفرة النشاط وتنوع الأعمال وتعددها، لم يصبح جدي بين الأغنياء في يوم من الأيام. وقد تسأل عن السبب، فعليّ أن أوضح الأمر، لقد تضافرت أسباب عديدة، غير أن السبب الأول والأهم يعود إلى طبيعة شخصية الجد.

اندفع الرجل المسكون بالرغبة في الحركة، دون روّية، فنوّع أعماله وعدّدها، حباً بالحركة في المقام الأول، واستجابة للطاقة المختزنة التي لا تأذن له بالهدوء. وكان في طبع الرجل عناد لا يلائم الطامع في تكديس المال. كما كان هو شديد الحرص على ألاّ يفشل. وكل هذا جعل الرجل يتشبث بأيّ فرصة تلوح له، ويستمر في أي مشروع يبدأه حتى لو تجمع مئة دليل على أن المشروع خاسر، يعتزم السفر إلى دمشق، فيحقق عزمه حتى لو عرف أن

تجارة الحمضيات بائرة، ويجتذبه هوس السفر إلى البوادي الأردنية لجلب الأغنام، فيتبع هواه وينخرط في عقد الصفقة التي يرغب فيها، حتى لو أدرك أن الصفقة خاسرة، وتجتذبه مناقصة للظفر بتعهد جديد، فيشترك فيها مصرّاً على الفوز، حتى لو أرغمته المنافسة على دفع رشوات تزيد قيمتها على ربحه المرتقب أو عرض أسعار لا يقرّها رجل أعمال أريب. وفي كل الأحوال، كانت فرص الأعمال التي من هذا النوع محدودة بالنسبة لرجل طالعٍ من قرية صغيرة، حين يتوجب عليه أن ينافس التجار الكبار والمتعهدين الراسخين من أصحاب الخبرات العميقة، في المدن.

ثم إن الجدّ، الذي تميز بنشاطه عن أهل القرية كلهم، ميز نفسه عن محيطه بنمط معيشته، أيضاً، وكان يعيش حياة تستهلك ما تبقيه له مغامراته من مداخيله. فقد ابتنى الجدّ داراً واسعة، اختار لها مكاناً يجعلها خارج الدائرة التي تضم دور القرية كلها. وكانت الدار فريدة بين الدور، فقد أقامها على منبسط من الأرض في الزاوية الشمالية – الغربية التي يشكلها اتصال البركة بحافة الوادي، وهي الدار الوحيدة في القرية المكونة من طابقين، وفيها فسحة مساحتها دونم كامل. وهي، أيضاً، الدار الوحيدة التي اشتملت فسحتها الواسعة هذه على حديقة. وقد أحاط الجد فسحة داره بسياج متصل من أشجار السرو بموازاة سياجها المبني من الطوب، وغرس في أركان الفسحة أشجار الكينا فشكلت مستظلات يتفيأ الجدّ وزواره ظلالها في الأوقات القائظة. وبنى الجد في الدار الجديدة أشياء مما لا تعرفه دور القرية الأخرى، فجعل فيها مستودعاً فسيحاً يختلف اختلافاً كبيراً عن البايكة التقليدية، كما جعل فيها مطبخاً مستقلاً وحماماً ومرحاضاً على الطراز الحديث. ولم يمسك الجد يده في الإنفاق على المأكل ولا في الإنفاق على الملبس. وكانت دار هذا الجدّ هي الوحيدة في القرية التي تعدّ فيها ثلاث وجبات في اليوم بانتظام، فيما ألف الفلاحون من حوله أن يطبخوا للعشاء وحده، ويتدبروا أمورهم في الوجبات الأخرى كيفما اتفق. وعرفت أسرة الجد عادة أكل الفاكهة والحلويات مع الوجبة، فيما اعتاد الفلاحون الآخرون أن يلتقطوا الفاكهة كلما تيسر ذلك، فقط، وأن يأكلوا الحلويات في المناسبات السعيدة وحدها، وفي الأعياد القليلة التي تقتضي طبيعتها إعداد هذا النوع أو ذاك من الحلويات البسيطة. وإذا كان هذا شأن الجد في الأيام العادية، فلك أن تتصور مستوى بذخه حين يعدّ الولائم لزوار داره، خصوصاً حين يكون هؤلاء الزوار ممن تربطه بهم علاقات عمل أو من الوجهاء والمتنفذين. هنا، لم يعرف بذخ الجدّ حدوداً.

أما الملابس التي كان الجدّ يعدها لنفسه أو يجلبها لأفراد أسرته فقد صارت حديث الناس وموضع دهشتهم وحسدهم. ولكي تعرف سبب هذا، عليك أن تتذكر أن الفلاحين الذين لا يستقر في أيديهم من نتاج كدهم إلا ما يسدُّ الرمق بصعوبة ما كانوا قادرين على

البذخ حين يتعلق الأمر بالملبس. وقصارى ما يستطيعه الفلاح العادي هو أن يشتري لنفسه حين يجود الموسم بصورة استثنائية قمبازاً جديداً وعباءة وحذاء، يستخدمها في المناسبات الهامة وحدها، بدل تلك التي تكون قد بليت من طول الاستخدام. وقد شاع بشأن ندرة الملابس الملائمة قول أورده لك لأنه يوجز الأمر: هذه هدوم الجمعة والعيدين. فيما عدا ذلك من أيام، يستر الفلاح بدنه بأي شيء متيسر، ويلفّ رأسه بحطة قديمة أو يعتمر طاقية تصنع باليد، من وبر الجمال للشتاء ومن القطن أو الكتان للصيف، ويسير في أغلب الأوقات حافياً، أو ينتعل الحذاء القديم الذي يحوله إلى مشاية بعد أن يتمكن من الحصول على حذاء جديد. وسط بؤس هذا المحيط، كما صار بإمكانك أن تتخيله، كان الجد يزدهي بملابسه المتعددة، فيظهر في كل موسم بقمباز وعباءة وغطاء رأس وحذاء تلائم هذا الموسم. لم ير أحد جدّي، ولو مرة واحدة، كما لم يرَ أحد أحداً من أبناء أسرته في هندام غير ملائم. ولم يسعَ الجدّ أو أي من أبناء أسرته في القرية حفاة في أي وقت من الأوقات.

شيء آخر كان يستهلك جانباً من مداخيل الجد، وذلك هو حرصه على تعليم أبنائه. فالرجل الذي لم تتح له الظروف أن يحصل على تعليم منتظم، على شدّة رغبته في التعليم، حرص حرصاً شديداً على أن يظفر أبناؤه الذكور بفرص التعليم المتاحة في البلاد. وعندما أصبح أولاده الأوائل في سن الدراسة، أمكن أن يتعلموا في المدرسة الحديثة، غير أن هذه المدرسة ما كانت تضمّ، آنذاك، سوى أربعة صفوف. فلم يكتف الجدّ بتوفير هذه الدرجة من التعليم وحدها لأولاده، بل عمد إلى إرسالهم إلى أماكن أخرى في البلاد ليتابعوا الدراسة. ولم يبخل في الإنفاق عليهم، بل وفر لهم ما يلزم من مصاريف، ومكنهم من أن يكونوا في مستوى واحد من اللياقة يعادل مستوى أولاد الأغنياء الذين يواصلون الدراسة.

وإلى هذا كله، أنفق الجدّ جزءاً كبيراً من مداخيله في المجالات التي تمكنه من الاحتفاظ بالعلاقات اللازمة لاستمرار أعماله، خصوصاً الهدايا والرشاوى. فلكي يحتفظ الفلاح الذي يقتحم عالماً يتزاحم فيه العتاة بموطئ قدم له في هذا العالم، صار عليه أن ينفق الكثير لشراء ضمائر ذوي النفوذ المتطلبين وكسب ودّهم.

لقد بدا لمن عرفوا عبد المجيد الحوراني أن شغله الشاغل تركز في الاحتفاظ لنفسه بموقع في مركز النشاط، بصرف النظر عن مقدار العائد المالي الذي يظفر به في هذا الموقع. كان الرجل تواقاً للتميز، فتوجب عليه أن يجهد وأن يبذل الكثير كي يحتفظ بتميزه. وهكذا، سلك الجدّ سلوك الميسورين، إلا أنه لم يتمكن من مراكمة المال، فلم يرتق إلى مرتبة الأغنياء، مع أن نشاطاته الكثيرة تؤهله لبلوغ هذه المرتبة لو عرف الموازنة بين الأمرين.

وإلى نشاطاته الخاصة، كان الجدّ رجل المشاكل العامة في القرية، ولئن وفرت له مساهماته في هذا المجال مرتبة زعامة لا ينالها حتى المخاتير، فقد جلبت معها سخط الكثيرين.

خاض الجدّ معركته الشهيرة الأولى لصالح أهل القرية، عندما قررت سلطات الانتداب البريطاني إلغاء نظام مشاعية الأرض الزراعية، أي نظام الملكية الجماعية بصورتها البدائية، والانتقال إلى نظام الملكية الفردية. ففي عهد الإمبراطورية العثمانية، استنت القوانين بما يتواءم مع أحكام الشريعة الإسلامية. وفي الإسلام، يملك الله الأرض وما عليها. ولأن سلطان المسلمين هو ظل الله على الأرض، أي الحاكم باسمه، فالسلطان هو صاحب الحق في التصرف بأرض الله. وقد تصرف سلاطين بني عثمان بالأرض وفق أمزجتهم ومصالح عروشهم، آخذين بعين الاعتبار حاجتهم لتوليف قلوب الزعماء وقادة الجيوش ومكافأة من أدوا خدمات بارزة للعرش، مراعين موازين القوى وتبدلاتها في الأحوال كلّها. وأقطع السلاطين مساحات من الأرض، هنا أو هناك، في أرجاء إمبراطوريتهم، لمن شاءوا إكرامه أو تعزيز نفوذه من المحظيين والمنافقين. فنشأت الإقطاعيات الواسعة التي يستحوذ عليها مالك فرد ثم تنتقل حيازتها إلى ذريته ويتوزعونها من بعده. والحائز على أرض كهذه سلطان صغير، يتصرف بالأرض وما عليها ويُعدّ العاملون فيها أُجراءَ في خدمته أو أقناناً ترتهن حياتهم ومعيشتهم بمشيئته، وله أن يبقيهم في الأرض أو يطردهم، منها حسب أهوائه وحاجاته.

ولأن أرض الله شاسعة ولم يتوفر لأي سلطان العدد الكافي من المحظيين الذين يحتازون عليها كلها، فقد فاض من هذه الأرض ما بقي ملكاً للسلطان، أو الدولة التي هي دولة السلطان، كما بقي منها ما أصبح ملكية مشاعية لأهل كل قرية من القرى التي لم تلحق بملكية إقطاعي بعينه. وبمضيّ السنين، ترسخت أنواع عديدة لملكية الأرض. وعندما استقل الحورانيون في مسميتهم الصغيرة، سافر علي الحوراني، وجيه الحورانيين وجدّ جدي، إلى إسطنبول وأقام فيها شهوراً حتى وجد الطريق إلى باب السلطان وعاد من عنده بقرار يجعل أرض المسمية الصغيرة ملكية مشاعية لسكانها الحورانيين. وبنجاحه في هذا المسعى، تكرست زعامة آل سلمان للقرية، وبرزت الحمولة بوصفها أهم حمائلها.

واتبع آل الحوراني العرف السائد، فتوزعت حمائلهم أرض القرية، حصة لكل حمولة، وتداولوا الحصص بحيث تنتقل حيازتها من حمولة إلى أخرى كل بضع سنين. ووزعت كل حمولة حصتها إلى أنصبة تتداولها أسر هذه الحمولة.

كان هذا، كما لا بد من أن تدرك، نظاماً متخلفاً لاستثمار الأرض اقترن به تخلف مريع في أدوات الإنتاج وأساليبها. فالفلاح الذي يعمل في الأرض، ويعرف أنها ستنتقل لسواه

بعد سنة أو بضع سنين لا يعطي هذه الأرض من جهده ما كان من شأنه أن يعطيه لأرض يعرف أنها ستبقى في حيازته على الدوام. وفي وقت شهد حركة واسعة لعصرنة الحياة بعد أن تحررت البلاد من سلطة العثمانيين المتخلفة، كان من شأن الفلاحين أن يتحمسوا لإلغاء نظام المشاعة ما دام إلغاؤه سيمكن الفلاح من الاحتياز على قطعة أرض تخصه، وحده، وسيلبي النزعة العميقة للتملك في نفسه. وفي كل البلاد الأخرى، ساند الفلاحون إجراءات إلغاء المشاعة وتعاونوا مع السلطات التي نفذتها. أما في فلسطين، فقد اختلف الأمر: تدخل، هنا، عامل تختص به فلسطين وحدها، وهو وجود الحركة الصهيونية ومستوطنيها ونشاطهم الكثيف للاحتياز على الأرض. وعندما قررت سلطات الاحتلال البريطاني إلغاء نظام المشاعة في المناطق التي يؤخذ فيها بهذا النظام، تناهبت الفلاحين مشاعر متباينة، فقد دفعتهم حاجتهم للاحتياز على الملكية الفردية إلى الترحيب بالإجراءات الجديدة، فيما أثار قلقهم على مستقبل الأرض حذرهم إزاء هذه الإجراءات.

ومالت القيادة الوطنية إلى الاحتفاظ بنظام المشاعة لأن فيه ضمانة لعدم انتقال الأرض إلى أيدي المستوطنين الطامعين فيها. فحيث لا يوجد مالك شخصي للأرض يتعذر بيعها. فقد تستطيع المؤسسات الصهيونية أن تغوي فرداً أو أفراداً ليبيعوا أرضهم، إلا أن من المتعذر على هذه المؤسسات أن تغوي أهل قرية بكاملها ليبيعوا أرض القرية كلها. باختصار، ظهر أن التشبث بالملكية الجماعية، على تخلف حالها في نظام المشاعة، يشكل سلاحاً لحماية الوطن المهدد. وقد تأسست الأهمية الحاسمة لهذا السلاح بعد أن تمكنت المؤسسات الصهيونية من شراء عدد من الإقطاعيات الكبيرة حين أغوت ملاّكيها الأفراد بالمال الكثير الذي عرضته عليهم، وبعد أن عاين فلاحو المناطق الأخرى المآسي التي تعرض لها من كانوا يعتاشون من هذه الإقطاعيات حين طردوا منها كي يحل فيها المستوطنون اليهود، ولم تأبه السلطات لمصير المطرودين.

و مع توزع المشاعر العامة بين متحمس لنظام المشاعة وراغب في إلغائه، توزع أهل البلاد إلى فريقين، جمهرة الفلاحين التي رضيت بالمرّ حتى لا تتعرض لما هو أمرّ منه، وجمهرة ذوي المصالح التي أدركت أن إلغاء النظام القديم سيوفر لها فرصاً للثراء. وتشكلت أوساط ساندت قرار السلطة بإلغاء نظام المشاعة.

هذه الأوساط ضمت خليطاً من المتنفذين: الإقطاعيين الذين يهيئ لهم الوضع الجديد فرصاً لشراء الأرض وتوسيع إقطاعياتهم، والسماسرة الذين يشترون قطع الأرض من مالكيها الأفراد حين يرفض هؤلاء المالكون بيعها لليهود، كي يبيعوها، هم أنفسهم، لهؤلاء اليهود، والموظفين الكبار والصغار الذين تهيئ لهم الأعمال الجارية لتوزيع الأرض وإعادة تسجيلها فرصاً جديدة وافرة للحصول على الرشاوى.

هذه الأوساط ذات المصلحة المباشرة في العملية لقيت الدعم من أوساط أخرى لها في العملية ذاتها مصالح غير مباشرة. ومن هؤلاء بعض التجار والرأسماليين الآخرين ممن لم يولوا، خصوصاً في البداية، انتباهاً كافياً للخطر الصهيوني الذي يهدد الوطن كله. وفي أوساط صغار الفلاحين ذاتهم، وجد، أيضاً، من تحمس للعملية، لأن انتباهه تركز على الفوائد الآنية التي سيجنيها، أو لأنه لم ينتبه لشيء على الإطلاق. وفي أجواء التضارب بين أهل البلاد، مضت السلطات البريطانية في إجراءاتها لإلغاء المشاعة، وبين أهدافها توفير ظروف أخرى تساعد على تنفيذ وعد بريطانيا للحركة الصهيونية بدعم مشروع هذه الحركة لإقامة الوطن القومي اليهودي في البلاد. ونالت المسمية الصغيرة حصتها من هذا كله، تضارب الآراء وتداخل المصالح والاضطراب الذي ينجم عنها. وكان أن وجد الجدّ ما يحفزه على المبادرة إلى النشاط.

في وضع المسمية الصغيرة، الذي عرفته قبل قليل، مرت الصراعات المتصلة بالنظام الجديد بمراحل عدة متعاقبة، وكان جدّي رجل هذه المراحل جميعها.

ففي المرحلة الأولى، أراد بعض المتنفذين في المسمية الكبيرة أن يحولوا دون تثبيت ملكية أهل المسمية الصغيرة للأرض التي بحوزتهم، وطعنوا في صحة القرار الذي جاء به علي الحوراني من إسطنبول. وكانت حجة الطاعنين بالقرار أن الذين انفصلوا عن قريتهم الأم قبل عشرات السنين استأثروا، آنذاك، بأخصب حقولها، وأن زائر إسطنبول حصل على قرار السلطان بالرشوة، وأن القرار صدر في حينه دون استشارة أهل القرية الأم ودون إجراء أي دراسة لأحوالها. وناشد الطاعنون الحكام الجدد أن يعيدوا تقسيم الأرض بين المسميتين على أسس أكثر عدالة قبل أن يتقاسم سكان كل قرية ما بحوزتهم من أرض.

وهكذا، اقتضى الأمر الحورانيين كافة أن يتكاتفوا كي يدافعوا عن مصلحتهم المشتركة، وبرز الجد، بما له من خبرات وعلاقات في دوائر السلطة والأوساط النافذة الأخرى، بوصفه أقدر الجميع على صيانة هذه المصلحة. وقد تجند الجدّ للمهمة، وعمل على كافة الاتجاهات والميادين، وأنفق من ماله الخاص فضلاً عن المال الذي جمعه أهل القرية، فأشبع بطوناً وسدّ حلوقاً وملأ جيوب الطامعين في الرشوة، واستنفر معارفه العديدين في المنطقة، ووسّط منهم من يصلح للوساطة وضغط بمن يملك القدرة. وفي هذه المرحلة من الصراع، وقد دار الجانب الحاسم منه في دوائر الحكومة في غزة، تمكن الجد من أن يجتذب إلى تأييده ناسا من آل العلمي الغزيين. كان هؤلاء أفندية أرض يقيمون في المدينة، ويستثمرون ملكياتهم التي يمتد بعضها حتى تخوم أرض المسمية الصغيرة. وقد أيدّ هؤلاء من ظنوا أنه الطرف الأضعف لأنهم توهموا أن من الأسهل عليهم افتراسه فيما

بعد. وإلى هذا كله، اقتحم الجد جبهة منافسيه ذاتها، فاستثمر العلاقات التي كانت قد توطدت بين أسرٍ من المسميتين، وركز على حاجة القريتين إلى تجنب النزاع و إحياء الحزازات القديمة، مشيراً إلى حاجتهما للتضامن في وجه السلطة والصهيونيين. وفي النهاية، سوّى الأمر على أساس أن يبقى وضع المسميتين على حاله الموروث عن زمن بني عثمان. وتكرست مكانة الجدّ بين أهل قريته، دون أن يخسر العلاقات التي كانت له في القرية الأخرى.

في المرحلة الثانية، اشتعلت المنافسة بن حمائل آل الحوراني السبع والأسر العديدة في كل حمولة منها. اختير جدي، أو تدبر هو الأمر، ليكون ممثل القرية في اللجنة المشرفة على توزيع الأنصبة، فأرضى هذا الاختيار آل سلمان وبعض الحمائل الأخرى، لكنه أسخط بقية الحمائل. وبذل الساخطون جهدهم متكتلين حول مختار القرية الثاني العم عبد الحميد، إلى أن تم ضمّ هذا المختار، أيضاً، إلى اللجنة. وبالرغم من وجود العضو الثاني من أهل القرية، ظفر الجدّ لنفسه ولمؤيديه بالأنصبة الأجود. وبعد أن كان الجدّ رجل القرية كلّها، اضطر إلى أن يدفع من شعبيته ثمن محاباته لناس منها على حساب آخرين. حتى بين من حاباهم الجدّ، لم يخل الأمر من ألسنة تسوطه بالنقد، فاستئثاره بأجود الحقول لنفسه أثار عليه الحفائظ وحرك الحسد، واندفع البعض إلى حدّ مجافاته. ويبدو أن جدّي سلمان، وهو الذي يدقق أكثر من أخيه حين يتعلق الأمر بإنصاف الناس ويحرص على الاحتفاظ برضاهم، لم يغلق أذنيه أمام الانتقادات التي تعرض لها الأخ. وقد أضاف هذا سبباً جديداً لأسباب الجفوة بين الأخوين وأبقى علاقاتهما باردة.

على أرضية النزاع بين القريتين وبين الحمائل المختلفة في القرية الواحدة، اتبّع رجال السلطة البريطانية أسلوبهم الأثير في تأجيج الخصومات وسط الأهالي واستثمار التباينات العارضة من أجل تحويلها إلى عداوات مزمنة. وكان من شأن دسائس السلطة أن تحقق غرضها كاملاً لو لم تطغ متطلبات الشأن العام على ما هو خاص وتدفع الجميع إلى الاتحاد في مواجهة الخطر الصهيوني المدعوم من دولة الانتداب. وقد رأيت كيف نشب النزاع بين المسميتين، في البداية. وقد تجافى من جديد الذين كانوا قد تصالحوا في ما بينهم قبل ذلك، حتى الذين احتفظوا بعلاقات الصداقة اضطروا لتضييق صلاتهم، مراعاة للجو المتلبد السائد وتجنباً للمشاكل التي قد تواجه أيّاً منهم في محيطه. وفي المسمية الصغيرة، وجدت السلطة الجوّ مناسباً تماماً للإبقاء على وجود مختارين وتكريس هذا الوضع، بعد أن برزت المطالبة بإلغائه. وراحت السلطة تحرض بشتى الأساليب كل واحد من المختارين والذين معه ضد الطرف الآخر، تدعم هذا المختار وتحابي أنصاره بعض الوقت، فترجح كفته ضد المختار الثاني، وتؤجج غيظ أنصاره، ثم لا تلبث أن تفعل العكس.

وفي أجواء حمولة آل سلمان، ورجالها جميعهم أخوة أو أبناء عمومة، تكرست ازدواجية السلطة بين جديّ سلمان وعبد المجيد، وتموجت مشاعر الناس وتوزعت ولاءاتهم بين الأخوين. وكان الناس يلجأون إلى المختار إذا احتاجوا للخدمات العادية أو النصيحة النزيهة والحكمة المتفهمة، ولكنهم يلجأون إلى الرجل المقتدر حين تواجههم مشاكل ويحتاجون لخبرته ومقدرته من أجل حلها. كان الناس يحبون في دخائلهم الجد سلمان ويستريحون له، ويهابون الجد عبد المجيد ويحتاجون لنفوذه، وكانوا في الحالتين يقتصدون في إظهار مشاعرهم، أو يكتمونها حتى لا يخسروا أياً من الاثنين حين تضطرب العلاقة بينهما.

إلا أن النزاعات التي أججها الخلاف على توزيع الأرض والمشاعر التي ألهبها غارت حين عمت الهبة التي ابتدأت حول البراق، أو حائط المبكى، في القدس، ووصلت أصداؤها إلى منطقتنا. هنا توحد الناس من جديد في مواجهة الخطر المشترك واحتاجوا إلى التعاون ضد السلطة لأن هذه السلطة شددت إجراءات القمع في كل مكان، وصار الجميع معرضين لأذاها. وهنا، أيضاً، استعاد جدّي عبد المجيد مكانته السابقة بتمامها، لأن حاجة الناس إلى جهوده وحنكته برزت من جديد. وانخرط الجدّ في معمعان المعارك التي يحبّها.

في هذا الجوّ، حلّت المرحلة الثالثة من مراحل النزاع على الأرض، ونشب النزاع هذه المرة مع أفندية الأرض من آل العلمي الغزيين. لم تكن المعركة مع آل العلمي هي الأضخم بين معارك الدفاع عن ملكية الأرض، إلا أنها كانت الأعقد. فبعد إزالة مشاعة الأرض، تحركت أطماع الأفندية لتوسيع ممتلكاتهم. وكان واحد من الذين ساندوا أهل المسمية الصغيرة في نزاعهم مع المسمية الكبيرة قد أنشأ لنفسه علاقات شخصية مع الوجهاء، ونظم صلاته بهم، أثناء النزاع. ثم، بعد أن همدت هبة البراق، وساد البلاد ذلك الركود الذي يعقب إخماد التحركات الكبيرة، جدد الأفندي صلاته السابقة. راح الأفندي يتردد على القرية، يزور معارفه فيها ويعرض عليهم خدماته، ويعاين في الوقت ذاته الأحوال، ويتصيد الفرص الملائمة لمطامعه. وكان كساد الأحوال، في ظل سياسة الإفقار التي تمارسها سلطات الانتداب، قد أوصل الفلاحين العرب إلى قاع البؤس، وجعل كثيرين منهم عاجزين عن توفير ضرورات الحياة. وقد حدد الأفندي خلال زيارته المتعاقبة حقولاً بعينها متوسماً أن أصحابها الضعفاء سيوافقون على بيعها له، ثم راح يقدم العروض. هنا، تنبه ذوو الفطنة في القرية للأمر ونبهوا الآخرين، وتداعى الذين استشعروا الخطر للتكاتف في وجه الطامع الجديد.

لم تكن تعبئة الناس ضد البيع، هذه المرة، سهلة، ولا كان الخطر واضحاً. فالراغب في الشراء فلسطيني، وهو من أسرة عريقة، وليس في سلوك الأفندي ما يوحي بأنه يقوم

بالسمسرة على الأرض لحساب اليهود، بل إن الأمر كان نقيض ذلك، فأفندية آل العلمي، مثلهم مثل كثيرين من أفندية الأرض في البلاد كلها، يتخذون أكثر المواقف تشدداً في مواجهة مطامع الصهيونيين، ويتصدرون المقاومة القائمة ضدهم. وهذا الأفندي الوافد إلى المسمية الصغيرة، بالذات، كان واحداً من قادة الحركة الوطنية في مدينة غزة. ثم إن متلقي العروض كانوا محتاجين لبيع حقولهم بعد عجزهم عن الوفاء بالالتزامات المترتبة عليها. فكواهل هؤلاء أثقلتها الضرائب والغرامات وفوائد الديون التي كبّلهم بها المرابون. وليس من السهل إقناع فلاح عاجز عن الوفاء بالتزامات حقله بأن انتقال ملكية هذا الحقل إلى فلسطيني مثله، محترم الحسب والنسب، فيه خطر قليل أو كثير على القرية. أما الذين نشطوا لمعارضة البيع فقد حركهم إدراكهم لما حلّ بالقرى التي سيطر عليها أفندية الأرض. كان الواحد من الأفندية يشتري حقلاً أو اثنين في قرية فيصير له موطئ قدم ثابت فيها، يبدأ الأمر على هذا النحو، ويكون ظاهره بريئاً كل البراءة، ثم يتلوه التوسع، فيمتد ملك الأفندي وتختفي البراءة، وينتهي الأمر بأن يصير أهل القرية أُجراء في أرضهم ذاتها، يتكشف الأفندي المهندم عن طاغية طماع، يستعين على أُجرائه بقوة أزلامه ونفوذه ويسومهم أقسى العذاب. وفي القرى التي وجد فيها، كما هو حال المسمية الصغيرة، زعامات محلية يقظة، وقفت هذه الزعامات بصلابة ضد توسع الأفندية بعد أن رأت ما حل بالقرى الأخرى، حيث جعل طغيان المالك أعزّة أهل القرية أذلّة، وأفقدهم نفوذهم حتى بين أهلهم. وعندما عُرفت محاولات الأفندي الغزّيّ للحصول على مسمار جحا في المسمية الصغيرة، أخذ وجهاء القرية زمام المبادرة لمواجهته.

أنت تدرك أن الأمر لم يكن سهلاً، صحيح أنه كان من الممكن تنبيه الراغبين في البيع وإثارة حذرهم بتذكيرهم بما حل بالقرى التي افترسها طمع الأفندية، وصحيح، أيضاً، أن التحذير قد يحدث بعض الأثر، غير أن الأصح هو أن الفلاح المحتاج يتأثر بحاجته الخاصة أكثر مما يتأثر بما آلت إليه أحوال البعيدين عنه. وفي مواجهة آل العلمي، ومع اتحاد وجهاء المسمية الصغيرة كافة في المواجهة، أظهر الجدّ واحدة من أشهر براعاته، وتكشف عمق إدراكه للظروف ومدى قدرته على استثمارها.

ولكي تدرك ما أعنيه عليّ أن أنبهك إلى الوضع الفريد الذي تميزت به حركة الصراع على الأرض في فلسطين. أنت تعرف أن البريطانيين استعمروا فلسطين مع ما استعمروا من بلاد أخرى عديدة. وفي كل بلد استعمره البريطانيون بحثت السلطة المستعمرة بين العائلات المتنفذة وملاك الأرض والأغنياء عن ركائز تسند وجودها في البلد، وكان من شأنها أن تفعل الأمر ذاته في فلسطين، بل إنها لم تخالف القاعدة في البداية. حتى لقد تشكلت في البلاد هيئات من ملاك الأرض والأغنياء، تجهر بالولاء لبريطانيا العظمى،

وكان من بينها حزب أطلق عليه مؤسسوه أنفسهم، وليس خصومهم، اسم "الحزب الموالي لبريطانيا". غير أن اهتمام بريطانيا بمصالح الصهيونيين والتزامها بالسياسة الرامية إلى إقامة الوطن القومي اليهودي في البلاد خلقا الأساس الذي جعل تطبيق القاعدة عسيراً. فلكي يقوم الوطن اليهودي الموعود، ولكي توفر بريطانيا الظروف الملائمة، حقاً، لقيامه، اتجه الصهيونيون إلى التوسع في حيازة الأرض، ما وسعهم الأمر، وفعلت السلطات البريطانية كل ما أمكنها فعله لكي تسهل هذا التوسع. هنا، فهم ملاك الأرض، صغارهم وكبارهم، أن بيع الأرض لليهود ليس مجرد بيع للملكية، بل هو تفريط بالوطن ومجازفة واضحة بفقدان وجودهم ذاته في هذا الوطن. وإذا كان بعض البيوع قد تمّ، في البداية، فإن معظم الذين باعوا كان من غير أهل فلسطين أو من غير المقيمين فيها، أو ممن لم ينتبهوا للخطر الذي يستهدف الوطن ووجودهم فيه. ولم تمض سنوات كثيرة حتى نهضت في البلاد حركة ناشطة وحاسمة في حثّ المواطنين على عدم بيع الأرض لليهود أو للسماسرة الذين يتعاونون معهم. وبوضع كهذا، انخرط ملاك الأرض في حركة المقاومة السياسية ثم المقاومة المسلحة ضد البريطانيين والصهيونيين. وترتب على هذا أن نفوذ الملاك في دوائر السلطة لم يعد معادلاً لنفوذ أمثالهم في البلاد الأخرى التي تعرضت للاستعمار التقليدي. وقد سبق أن عرفت أن الأفندي العلمي الطامع في شراء أرض المسمية الصغيرة كان من قادة الحركة الوطنية، وتبع هذا أن النفوذ المفترض لأمثاله عند السلطة قد انخفض إلى أدنى الحدود. بل إن السلطة الساخطة على موقف آل العلمي، وأمثالهم، كانت تغض الطرف عن مجابهة الفلاحين لهؤلاء، بأمل أن تضعف نفوذهم التقليدي، إن لم تشجع الفلاحين على المجابهة.

وحين بدأت المجابهة مع الأفندي العلمي وأنصاره، لم يكن الجد بحاجة لحثّ وجهاء الحمائل الحورانية السبع على الانخراط فيها. فقد تحرك هؤلاء للمجابهة من تلقاء أنفسهم تحفزهم عليها الدوافع ذاتها التي تحفز جدي. كان نفوذ الجميع معرضاً للخطر، فصار عليهم أن يتّحدوا من جديد. وفي غزة التي ذهب إليها الجدّ موفداً من القرية، جرى العمل في اتجاهين: ضمان حياد السلطة حتى لا يستخدم الأفندي أدوات السلطة للضغط على القرية الصغيرة، وتجنيد وجهاء الحركة الوطنية والعقلاء فيها حتى يضغطوا على الأفندي فيتوقف عن حشر أنفه في شؤون المسمية الصغيرة. وحين أنوه ببراعة الجد الفائقة، في هذه المعركة بالذات، فأنا أشير إلى براعته في العمل في هذين الاتجاهين في وقت واحد. لقد أفلح الرجل الذي لا تعوزه القدرة على استثمار الظروف. وفي القرية، مارس الوجهاء كافة ضغوطهم على الراغبين في البيع. كان الشعار: لا مكان لغريب بين آل الحوراني، أما النهج فاشتمل على الترهيب والترغيب. وبالجهد الذي لا يتقن الصبر

عليه أحد بمقدار ما يتقن ذلك وجهاء القرى، أمكن إقناع الراغبين في البيع، واحداً بعد الآخر، حتى تم إقناعهم جميعاً إلا واحداً منهم ركب رأسه، ورفض الحجج والتحذيرات.

تمترس هذا الرافض الوحيد وراء القول الذي يتشبث به الفلاح حين يعتزم، مسبقاً، أن يصمد ضد منطق الآخرين: أنا ما لي؟ أنا حرّ! كان الرجل من اللاصقين بالجدّ، وقد انتوى أن يبيع حقله ويهاجر إلى أميركا التي تجتذب سمعتها المتطلعين إلى الثراء، فكتم نيته ولم يظهر إلا العناد. أحرج موقف الرجل الجدّ إحراجاً شديداً وسبب مشكلة أقلقت الجميع. غير أن الجدّ وجد لهذه المشكلة الحل الذي يلائمه ويلائم صديقه في الوقت ذاته. فقد عرض الجدّ على الرجل السعر الذي يعرضه عليه الأفندي ثمناً لحقله، شريطة أن يقفل صاحب الحقل الموضوع ولا يسمح للأفندي بالمزايدة في الأسعار. وهكذا، ضمّ الجدّ الحقل إلى أملاكه، وحظي بمزيد من إعجاب الناس به، فحقق لنفسه فائدة ملحوظة وبرز في القرية بوصفه صاحب النخوة الحريص على حماية أملاك آل الحوراني من الغرباء.

نجاح المواجهة مع آل العلمي عمم في القرية قناعة صارت لها قوة العرف الثابت: لا أرض للغرباء في المسمية الصغيرة، أفندية كانوا أو يهوداً. وقد حدث أن الذي حاول كسر هذا العرف تعرض لنهاية مؤسية، فعزز مصيره قناعة الناس بالعرف الذي ثبتوه فيما بينهم. فقد فشل الرجل في الحصول على تأشيرة الدخول إلى أميركا، وافتضح أمره، وخسر سمعته وحقله، دون أن يحقق أمله في الهجرة، ودون أن يجد من يشفق عليه. وحاول الرجل أن يستثمر صداقته القديمة مع الجد، وعرض عليه أن يعيد له المال ويسترد الحقل، غير أن قلب الجد لم يعرف اللين. وعلى النقيض من ذلك، تعمد الجد أن يعمل ما في وسعه لإذلال الرجل. وربما كان بين دوافع الجد رغبته في معاقبة صديقه السابق الذي باعه الحقل بالسعر الذي عرضه الغريب، والذي خالف إجماع أهل القرية وكاد يخرب ما اتفق عليه وجهاؤها جميعهم. ومهما يكن من أمر، فإن أحوال الرجل تدهورت إلى الحضيض، فصار أمثولة يراها الفلاحون أمام أعينهم ويعتبرون بها.

أما مواجهة محاولات الصهيونيين لشراء الأراضي، فكانت، في القرية، جزءاً من المواجهة العامة التي تخوضها البلاد كلها. هنا، في هذه المواجهة، كان الأمر سهلاً في أحد وجوهه، وصعباً في وجهه الآخر.

هو سهل لأن القناعة كانت متوفرة لدى ملاك الحقول بأن انتقال الأرض إلى حوزة المستوطنين اليهود لا يعني، فقط، توفير الفرصة لغريب كي يدس أنفه في شؤون القرية، ولا يعني، فقط، خسارة صاحب الحقل لحقله، بل يعني، أيضاً، تقوية الذين جاءوا إلى البلاد غزاة ومساعدتهم

للاستيلاء عليها. وقد ساهم سلوك الصهيونيين أنفسهم، حتى في بداياته الأولى حين كانوا حريصين على تمويه هدفهم النهائي، في ترسيخ القناعة بأنهم يريدون الاستيلاء على البلاد بعد إفراغها من سكانها. لقد تشبث الصهيونيون بشعارهم الذي تعرفه؛ شعار العمل العبري ذي الصبغة العنصرية البغيضة، فأسهم تشبثهم الصارم بتطبيق الشعار في فتح أعين أهل البلاد على الهدف الحقيقي للاستيطان اليهودي.

كانت المؤسسات الصهيونية تشتري الأرض، وتعمد، على الفور، إلى إفراغها من فلاحيها، وتضعها في حوزة المستوطنين اليهود الوافدين من الخارج، وتحظر على هؤلاء أن يستخدموا الفلسطينيين حتى كأُجراء وتعاقب المخالفين. وربّ ضارّة، يقول المثل العربي الشهير، نافعة. وقد كان للتشبث بالعمل العبري بعض النفع على الجانب الآخر، إذ صار من السهل على الزعامات المتيقظة للخطر الصهيوني أن تجند الجمهور ضد بيع الأرض لليهود. وقد تشكل في البلاد رأي عام حاسم في الضغط ضد انتقال الأرض إلى المؤسسات الصهيونية، فلم ينتقل منها إلى حوزة هذه المؤسسات إلا ما اشترته في السنوات الأولى، وما منحته لها السلطات البريطانية من أملاك الدولة، والقليل القليل الذي تسرب عبر السماسرة قبل أن يفتضح أمرهم.

وعدّ الناس بائع الأرض لليهود خائناً للوطن وخارجاً على الدين، ونظروا إليه نظرتهم إلى جاسوس كافر، وشملوا السمسار بالنظرة ذاتها. وقد تشدد الناس في معاقبة بائع الأرض والسمسار. وزاد التشدد بمضيّ الوقت مع استفحال الخطر. ولم يتعرض الواحد من هؤلاء لجفوة الناس، فقط، بل لمقاطعتهم التامة له، إنه الحرمان الكامل، إذا جاز التعبير. وفي القرى، حيث يعرف الناس بعضهم بعضاً ولا يستطيع أحد أن يتفلت من رقابة المجتمع، يتعذر على البائع أو السمسار أن يستمرا في العيش.

أما لماذا كانت المواجهة مع بائعي الأرض لليهود صعبة، ما دام الأمر كذلك، فلهذا حكاية طويلة. والحكاية تبدأ بما تعرفه أنت، أي بسلسلة الإجراءات العديدة التي اتخذتها السلطات البريطانية في البلاد، فجعلت الفلاح عاجزاً عن التشبث بأرضه إلا بشق النفس: الضرائب التي تأكل محصول الأرض، والكدّ، والغرامات التعسفية التي لا تنجي منها إلا الرشاوى، والسياسة الاقتصادية كلها التي تتعامل مع المواطن على طريقة "جوّع كلبك يخضع لك!"، والملاحقات والاعتقالات والنفي والإعدامات وكل أشكال القمع الأخرى التي تحرم الفلاح من الاستقرار اللازم لانتظام عمله في أرضه وتترك أسراً كثيرة بغير معيلين. وقد اقترنت بهذه الإجراءات الإغراءات المعروضة على من يكتم هواجس ضميره، ويتخطى الخوف من مقاطعة المجتمع له، أو يرضى بالانتقال من مكان إقامته إلى مكان آخر، أو يتطلع للهجرة إلى خارج البلاد. ومن هذه الإغراءات، كانت هناك فرصُ العمل في

مشاريع الدولة، المدنية والعسكرية، حيث يمكن للفلاح أن يحصل على أجر نقدي معلوم ويشتري البضائع الشهيّة التي دخلت البلاد بعد مجيء البريطانيين واليهود إليها. كما كان هناك، مما يساعد على تليين الضمائر ويقوي الاستعداد للمجازفة، السعرُ الذي تعرضه المؤسسات الصهيونية للأرض، وهو سعر يفوق كثيراً أي سعر سمع الفلاح به من قبل.

وكان من المتيسر لبائع أرض، ولو صغيرة، لليهود أن يصبح بين الأثرياء، فيظفر بما يظفرون به من متع العيش التي لا يستطيع الحصول عليها بغير الخيانة.

ثم كان، هناك، مما عقد الأمور، الدورُ الذي لعبه السماسرة. فحين أدرك الصهيونيون مصاعب إغراء الفلاح الفلسطيني ببيع أرضه لهم، شجعوا السماسرة. اختار الصهاينة سماسرتهم من بين ضعاف الضمائر من الفئات المخلوعة من مجتمعاتها، وجعلوهم يذوقون طعم المال والمتع الحديثة، وأغووهم بكل أشكال الغواية الأخرى حتى غرّبوهم عن مجتمعهم وهمومه. وقام السماسرة، هنا وهناك، حيث تيسر، بدور الوسطاء، يشترون الأرض من الفلاحين المعوزين، بما هم فلسطينيون مثلهم، ويسجلونها بأسمائهم حسب الأصول، ثم يضعونها في حوزة المؤسسات الصهيونية. والمواجهة الرئيسة، في معركة الدفاع عن الأرض الزراعية ضد مطامع الصهيونيين، جرت مع هؤلاء السماسرة، وهي لم تكن معركة جولة واحدة، بل معركة السنوات التي عاشها الانتداب البريطاني في فلسطين.

لم يبع أي من أهل المسمية أرضاً لليهود، ولا خطر لواحد منهم أن يبيع، ولا كان أحدٌ قادراً على أن يفعل ذلك أمام تشدد الجميع في هذه المسألة تشدداً لا يعرف التسامح. بل إن اليهود أنفسهم كفّوا عن المحاولة، منذ أدركوا أن مساعيهم للاحتياز على الأرض لا تثير لدى أهل القرية سوى المزيد من الحذر والتشدد.

أما السماسرة، فقد اختلف الأمر معهم. وقد جرت محاولات جادة من قبل بعض السماسرة غير المفضوحين لإغواء عدد من مالكي الحقول ببيعها. هنا، توجب على زعامات القرية أن تزيد يقظتها. وكان وجهاء القرية في موقفهم ضد بيع الأرض مؤيدين برأي عام شديد التماسك ضد الخطر. وبمضيّ الوقت، أصبحت القرية حصناً منيعاً ضد مطامع الصهيونيين، قبل أن تشتد مناعتها ضد مطامع أفندية الأرض، أيضاً.

غير أن السماسرة لم يكفوا عن البحث عن حصان طروادة لاختراق الحصن. وقد كان هذا هو دأبهم، على كل حال، في أي مكان آخر، ولم يكن أمامهم للقيام بدورهم إلا هذه الوسيلة. وأفضل الأحصنة الملائمة لهذه المهمة كانت تتوفر، في العادة، بين الذين يعتزمون الهجرة إلى خارج الوطن. وهؤلاء يكونون بحاجة للمال المعروض عليهم كي يتسلحوا به

في حياتهم الجديدة، ومغادرتهم الوطن تجعلهم بمنأى عن العقاب المرتقب، والسماسرة خبراء في التقاط هؤلاء الناس وتزيين الخيانة لهم وتسهيل الأمر. وقد وقع واحد من السماسرة على واحد من أهل المسمية الصغيرة يعتزم الهجرة. وتفاوض السمسار مع الراغب في الهجرة، سراً، وتمت الصفقة، وضع الخائن بصمته على الأوراق، وشهد على ذلك شهود جاء بهم السمسار، وقبض البائع المال، وغادر القرية قبل أن تنكشف الفضيحة.

أذهلت المفاجأة التي كشفتها زوجة البائع المهجورة أهل المسمية الصغيرة وبلبلتهم. وأسقط بيد الوجهاء، إذ ما الذي يمكن عمله بعد أن دقّ هذا الفارُ مسماراً صهيونياً في جدار القرية وانتهى الأمر. وبحث الجميع عن وسيلة يواجهون بها هذا الخطر، وتطلعت العيون إلى الجد، وعقد الناس آمالهم على براعته. لم يقرّ جدي بالهزيمة، كان الاستسلام مخالفاً لطبع هذا الرجل. وكانت حكايةٌ تطورت فولدت حكاية أخرى. وقد أمضى جدّي حياته التي عاشها بالطول والعرض، وذاق فيها حلاوة الظفر في العديد من الصراعات، وهو يعدّ تغلبه على اليهود في هذه الحكاية أعزّ مفاخره كلها. والآن، فيما أنبش الذاكرة، أجد من السهل عليّ أن أقصّ عليك وقائع الحكاية، فقد انطبعت تفاصيلها في الذاكرة بقوة، لكثرة ما رددها الجد.

في بحثه عن حل للمشكلة، تذكر الجدّ أن بائع الأرض المهاجر كان قد اشتراها من رجل آخر في القرية قبل سنين. وبعد استشارة المحامين الذين تجندهم القيادة الوطنية لمساعدة الفلاحين كلما تعلق الأمر بالدفاع عن الأرض، وضعت الخطة الملائمة: تم إقناع البائع الأول، وكان قد غدا هرماً يتطلع للظفر بنعيم الآخرة ويثق بأنه سيحصل عليه إذا حال دون وقوع الأرض في أيدي الصهيونيين، بأن يضع بصمته على عقد يظهر أنه وهب أرضه للجامع وجعلها وقفاً تنفق عائداته على بيت الله. وهيئت وثائق أخرى تظهر أن البائع المهاجر كان يستخدم الأرض بالاتفاق مع أهل القرية، بما هو مرابع وليس أكثر. ولا حاجة إلى القول إن هذه الخطة لقيت الدعم من أهل القرية كلهم واستعدّ كثيرون منهم، بمن فيهم زوجة الرجل المهاجر، للشهادة أمام المحاكم بما يثبت أن ما جاء في الأوراق صحيح كله.

وبعد أن تم إعداد كل ما يلزم في القرية للطعن في صحة البيع الأخير، توجبت معالجة العقبة التي من شأنها أن تجعل كل التدابير المتخذة هباء، تلك هي سجلات الطابو التي تظهر بالدليل الدامغ اسم مالك الأرض، وتؤكد، بالتالي، حقه في بيعها لمن يشاء. هنا استخدم الجدّ علاقاته وبراعته وخبرته في انتهاج الدروب الملتوية للوصول إلى جيوب موظفي الدولة وتبريد ضمائرهم المهنية. ودفع الجد من ماله والمال الذي جمعته القرية مئة ليرة ذهبية بتمامها لموظفي دائرة تسجيل الأراضي في غزة. وبرشوة كهذه، سهر الموظفون

ليلة بكاملها فبدّلوا سجل الطابو الذي يضم وقائع السنة المفترضة لهذا الوقف كلها، كما بدلوا السجل الذي يضمّ واقعة البيع الأول بكامله، أيضاً. وبعد هذا وذاك، توجه المحامي إلى المحكمة باسم أهل القرية، بوصفهم المنتفعين بالوقف، طاعناً في صحة البيع الجديد. وكانت محاكمةٌ أخرى من تلك المحاكمات التي برع جدي في إشغال الناس بها. انضم محامون فلسطينيون آخرون لإسناد المحامي الأول، وواجههم محامون يهود. وتصارع الطرفان، وقدم كل منهما أدلته، وفيها، على الجانبين، ما هو دامغ، واحتار القاضي وطال أمد المحاكمة فامتد سنوات. ولم يجرؤ الشاري اليهودي على الوصول إلى الأرض، ولا كان من حقه أن يفعل قبل أن تبت المحكمة في الأمر. وعندما اشتعلت الثورة الكبرى في العام ١٩٣٦، كانت القضية ما تزال تتلكأ في المحاكم. وفي الجوّ الذي أوجدته الثورة، خشي الشاري اليهودي أن لا ينال شيئاً في نهاية المطاف، فعرض التفاهم على تسوية، والتقط الجدّ العرض الذي أبلغه محامي الجانب اليهودي إلى محامي القرية. وفي النهاية، أعادت القرية للشاري اليهودي المال الذي دفعه للبائع عبر السمسار، وانسحب هذا من القضية، وثبتت صفة الأرض كوقف للجامع.

في هذا العام الذي شهد النهاية المظفرة للقضية، كافأ الناس الجدّ على جهوده بأن جعلوه المشرف على الحقل المستعاد. وفي العام ذاته، ولدت جدتي ابنها الذكر الثالث، فأعطاه الجدّ، تيمناً بالظفر، اسم غالب.

في غضون ذلك، كانت علاقة جدي بالحكام البريطانيين ومن في منزلتهم من الموظفين المحليين معقدة، فهو مضطر للتعامل معهم بحكم أعماله الكثيرة، كما أنه مضطر لتبادل المجاملات مع أصحاب النفوذ في دوائر الدولة كي يصون مصالحه. إلا أن الجد كان بحكم ارتباطه بمصالح القرية مضطراً للتصادم بين وقت وآخر مع هؤلاء. وكان الجد يوازن بين الأمرين ما وسعه ذلك، كان يرشو البعض ويبذخ في إكرام من يرفض الرشوة، فيكسب نفوذاً يستخدمه للتأثير على الآخرين، أما الذين لا ينفع معهم الرشوة ولا الكرم، فيمكن التأثير عليهم بأساليب أخرى، وإذا تعذر ذلك فالأفضل تجنبهم. وحتى وقت متأخر من عمر الانتداب البريطاني، لم يكن للجدّ نشاط معروف في ميادين المواجهات العنيفة أو المسلحة مع البريطانيين أو مع الصهيونيين، وإن كان معدوداً بين الوطنيين الذين يرفضون المشروع الصهيوني ويستنكرون مساندة بريطانيا له. ولكن الجدّ لم يكن بريئاً كل البراءة في واقع الأمر حين يتعلق الأمر بالعمل المسلح. صحيح أنه لم يحمل هو نفسه السلاح إلا في وقت متأخر، لكن صحيح، أيضاً، أنه أقام علاقات إيجابية مع الجماعات المسلحة التي نشأت في البلاد. والواقع أن علاقات الجد مع العمل المسلح اقتصرت خلال سنوات طويلة على توفير الحماية اللازمة للثوار والقيام بما يجب لإخفائهم عن أعين السلطات أو تضليلها وهي تبحث عنهم، أو استخدام نفوذه وخبرته لتبرئة من

يستطيع تبرئته ممن يقع في أيدي السلطات من الثوار. ثم إن الجد دأب، منذ شكلت الحركة الوطنية نفسها في أطر معترف بها من الجمهور، على تقديم عون مالي منتظم لهذه الحركة. ولما عمت روح المقاومة في البلاد واشتدّ عود الحركة الوطنية، وتكرست الزعامة للحاج أمين الحسيني، أصبح جدّي معدوداً من الموالين لها. وكان يجهر هو نفسه بهذا، ويفتخر بعلاقته الشخصية مع المفتي الأكبر، كما كان يحضر الاجتماعات العامة التي تنظمها القيادة الوطنية، ويجهر مع المجتمعين بمعارضة السياسة التي تنفذها بريطانيا في فلسطين. وفي زمن الثورة الكبرى، لم يلتحق جدي بالثوار الذين حملوا السلاح، غير أن الجد زاد المساعدات متعددة الأشكال التي كان يوفرها للثورة. وحين نقلت أول التقارير السرية إلى رجال السلطة أن عبد المجيد الحوراني يساعد الثوار، أنكر الجد، بالطبع، ذلك في التحقيق الذي تعرض له. ثم توالت تقارير أخرى أكّدت مضمون التقرير الأول وعززته بوقائع جديدة عن نشاط الجد في هذا المجال. ووُضع الجد تحت المراقبة من قبل مخبري السلطة، إلى أن تيقن المسؤولون من وجود أساس لاتهامه بالصلة بالعمل المسلح. هنا، تعرض الجدّ لتحقيق أشدّ صرامة. وهنا، أيضاً، استخدم الجد براعته واستثمر حسن تقديره للظروف. ففي ذلك الوقت، كان كل أهل البلاد منخرطين في الثورة أو في الأعمال المساندة لها ومؤيدين لأهدافها، وما كان بوسع البريطانيين أن يعاقبوا أهل البلاد كلهم. واختار الجد أن يقرّ بأنه يساعد الثورة على نحو أو آخر. فعل الجدّ هذا أثناء التحقيق، وكان المحقق ضابطاً إنجليزياً ملأت رشوات الجد جيوبه طيلة سنوات. ثم شفع الجدّ إقراره بتسويغ سلوكه بما رأى أنه يلائم المقام، فذكّر المحقق بوضعه بوصفه رجلاً مرموقاً تتوجه إليه الأنظار في محيطه. ثم بيّن الجد للمحقق أنه، بهذه الصفة، لا يستطيع أن يكون ناشزاً حين تكون البلاد كلها ثائرة. ثم أفهم الجدّ الضابط الذي سبق أن ملأ فمه بأمواله أن مكانته بين الناس تتعرض للانهيار لو لم يجار المزاج العام. وقرن الجدّ حججه بدفق جديد من الرشوات، فنجا بجلده، لكنه لم يظفر بعد ذلك، وحتى نهاية الانتداب، برضا المسؤولين عنه. وتعرض الجد على كل حال لعقوبة عاجلة، إذ وضع اسمه في القائمة السوداء بين رجال الأعمال الذين تحظر السلطات التعامل معهم في تنفيذ مشاريعها. وكانت تلك عقوبةً مكلفة، خصوصاً حين تتذكر أن الحرب العالمية الثانية اشتعلت بعد ذلك بوقت قصير، وأن فرص غنى جديدة انفتحت أمام رجال الأعمال الحائزين على رضا المسؤولين. غير أن الأمر لم يخل من فائدة، بل لعلي أجرؤ على القول إن الفائدة كانت كبيرة، فقد صار جدّي أكثر حرية في ممارسة نشاطه الوطني وأشد مقدرة على الجهر والتفاخر به.

وكان هذا هو حال الجد عندما بدأت، أنا حفيده الطفل، أعي وجوده، في السنوات الأولى من الأربعينيات.

-٤-

وضحة الصغيرة ووضحة الكبيرة ودار المختار

أنت تعرف، الآن، أن جدّي الآخر، سلمان، كان قد تزوج ثلاث مرات حين ولدت أنا. الزوجة الأولى هي جدتي فاطمة، وقد ماتت قبل أن أولد وقبل أن يتزوج أبي. وهي لم تعمر طويلاً على كل حال، بل ماتت شابةً بعد أن أنجبت ابنها الأول والوحيد، الذي هو أبي. ولأن أبي مات هو الآخر وأنا بعد رضيع، فلم يبق من يحدثني حين كبرتُ عن هذه الجدّة التي لا أعرف سوى اسمها. وكان جدي سلمان صموتاً، حين يتعلق الأمر بأحواله الشخصية، خصوصاً بالولايا، أي بالإناث، شأنه في هذا شأن مجايليه من الرجال. وهو لم يجيء أمامي ولو مرة واحدة على ذكر زوجته الأولى المتوفاة. أما زوجة الجدّ الثانية فهي وضحة التي قدر لها أن ترعاني بعد انتقال أمي إلى منزل زوجها الجديد. والزوجة الثالثة هي، أيضاً، وضحة. ولكي يميز الناس بين الوضحتين، سموا الأولى وضحة الكبيرة، وأطلقوا على الثانية اسم وضحة الصغيرة. وكانت كل منهما راضية عن الوصف الذي أضيف لاسمها. فالأولى أخذت صفة الكبيرة على أنها توقير لها والثانية اعتبرت صفة الصغيرة إشارة إلى فتوتها. وفي الدار التي تضم هاتين الزوجتين، قُدّر لي أن أعيش بقية السنوات التي أمضيتها في المسمية الصغيرة.

لم يكن الاختلاف في الصفتين الملحقتين بالاسمين هو الاختلاف الوحيد بين الضرتين، فقد اختلفتا في كل شيء، وكان لكل منهما طبع يناقض طبع الأخرى.

كانت وضحة الكبيرة هادئة، محتشمة السلوك والنطق، طيبة إلى أبعد حدود الطيبة، تعطي

من نفسها ووقتها وجهدها لمن يطلب ولمن لا يطلب، وتحدب على الجميع وتحتفي بهم، دون أن تتقاضى أحداً ثمناً لعطائها، وكانت لا تشتكي مهما ضاقت بها الأحوال، ولا تتذمر أياً كان الأذى الذي تتعرض له، تسامح من يؤذيها وتواسي من يطاله أذى بسببها، فلا تعرف الحقد ولا الضغينة، وتقوم بما يترتب عليها من أعباء الأسرة دون أن يحس أحد بثقل وجودها. لم تكن هذه المرأة ضعيفة الشخصية، وإن بدا لكثيرين أنها كذلك، ولم يكن في خلقها عيب يحملها على الاستكانة، وإن توهم الذين لا يعرفون أعماقها أنها مستكينة. لقد جبلت هذه المرأة على أن تكون قنوعة فلا تطلب الكثير لنفسها، ومتواضعة فلا تدلّ بوجودها أو منزلتها، ولما اتضح أنها عاقر، وكان هذا يعد في محيطها عيباً، لم تجزع، بل قبلت الأمر على أنه إرادة القدر، ورضيت بأن تدفع الثمن، فشجعت زوجها على الزواج بثانية، وراضت نفسها على أن تتعامل مع الزوج باحترام ومودة، وجهدت، ما وسعها الأمر، لكي لا تنغص حياته كما تُنغّص في العادة حياة زوج الاثنتين. ومع غلالة الحزن الخفية التي تجللها، حرصت وضحة الكبيرة على أن تبدو مرحة بغير إسراف، واحتفظت بعادتها في الحفاوة بالآخرين دون تبذل، وظلت، على الدوام، كريمة اليد من دون تفريط. بكلمات قليلة، كانت وضحة الكبيرة التي رعت تنشئتي نموذجاً للفلاحة المحترمة التي تعرف منزلتها، كما تعرف حدودها وتقدر منازل الآخرين وحدودهم. ولأمر ما، لم أعرفه في أي وقت من الأوقات لأن مثله لا يناقش في القرى أمام الأطفال، انقطع جدّي سلمان عن فراش هذه الزوجة، في وقت ما، بعد زواجه بالثانية. وإذا كان هذا هو، على ما يبدو، السبب الذي أورث راعيتي حزنها الهادئ، فإنه لم يبدل شيئاً آخر في مظهرها أو سلوكها، ولم يحملها انقطاع الزوج عن فراشها على التقليل من إعزازها له أو تقديرها لمنزلته، هو المختار الذي ينبغي أن تتوفر له كل دواعي الهيبة والاحترام، ولم أسمعها يوماً تذكر زوجها المقاطع لها إلا بالخير، فيما غرقت، أكثر فأكثر، في تأدية الواجبات التي تترتب على زوجة المختار في الدار التي يطرقها الزوار والضيوف في أي وقت من أوقات الليل أو النهار، وصارت لا تؤدي ما يتوجب عليها، فحسب، بل تبادر إلى حمل أعباء الآخرين، كل هذا تقوم به مع الحرص على أن يظل حضورها في الحالتين ليناً، فلا يثقل على أحد. وعلى كثرة الاستفزازات المقصودة وغير المقصودة التي كانت تتعرض لها من ضرتها، احتفظت وضحة الكبيرة على الدوام بهدوئها ورواق نفسها، فتجنبت تأجيج التوترات التي تثيرها الضرة وجنبت زوجها المشاكل، كما جنبت الأسرة كلها النكد الذي يسمم حيوات الأسر في مثل هذه الأحوال. والواقع أن المرأة الطيبة، حتى مع استشراء رغبة ضرتها في خلق المشاكل، كسبت بثباتها على هذا السلوك احترام أقرباء الزوج وأهل القرية ومحبتهم. ولم تكن هذه المرأة ذات النبل الراسخ بمثابة أم لي وحدي، بل كانت، أيضاً، أماً حنوناً لأولاد ضرتها. وقد وجد هؤلاء، وهم أعمامي وعماتي، في زوجة أبيهم الحنان الذي

يفتقدونه عند أمهم الأصلية، وكانوا يلجأون إليها، وليس إلى أمهم، كلما احتاج الواحد منهم إلى الكلمة المشجعة واللفتة المتفهمة والحضن الحفيّ.

أما وضحة الصغيرة فكانت شخصاً مختلفاً تماماً. تزوج جدي سلمان وضحته الثانية، حين كانت هذه فتاة صغيرة تدرج مع قريناتها في أنحاء قريتها، ولا تملك الوعي الكافي، ولا تتوفر لها الخبرة اللازمة للتعامل مع زوج في سن أبيها أو لشيل أعباء الدار المترعة بالمشاغل. وبزواج كهذا، انتقلت الفتاة الغريرة من الجو الذي تألفه إلى جو جديد، كل ما فيه غريب عليها، القرية والناس والزوج نفسه. ووجدت الفتاة نفسها مطالبة بأن تنشئ لنفسها موطئ قدم في الجو الغريب، وتتصرف بوصفها الزوجة الجديدة في دار المختار، وتكون نداً للزوجة القديمة التي يحترمها الناس ويتوجهون إليها. كان هذا، على صعوبته، ممكناً لو توفرت للقادمة الجديدة الحكمة التي تؤهلها لتكوين منزلتها بالحسنى. إلا أن الفتاة افتقرت لحكمة كهذه. ثم إن الفتاة غرقت منذ قدومها في أعباء الدار التي تستهلك أعمالها طاقة النساء المقتدرات، ناهيك بالغريرات، وتفري أعصابهن، هي التي لم تحضّر للعيش في دار كهذه ولا في غيرها. بهذا المعنى، كانت وضحة الصغيرة هذه ضحية، وكان من شأنها أن ينتهي أمرها، مثلما انتهى أمر كثيرات مثلها، إلى أن تصير، وهي الزوجة الجديدة، بمنزلة الخادمة، ترعى شؤون الزوج وتلد له الأولاد وتطيع الزوجة القديمة، وتمّحي شخصيتها في كل الأحوال. أما في الواقع، فإن الوافدة من قرية "العراق الشرقية" إلى المسمية الصغيرة تميزت بشيء واحد هو ميلها إلى البروز واستقطاب الانتباه. واقترن هذا الميل بما في طبع الفتاة من طيش وما في سلوكها من استعلاء لا تسوغه قدراتها، فعبرت عن ميلها بسلاطة اللسان والتسلط على الآخرين، فلم تستقر ولم تسمح لأحد من حولها بالاستقرار.

أرادت وضحة الصغيرة أن تنتزع مكانة وضحة الكبيرة بين الناس، فعادت ضرّتها، دون مسوغ، وقابلت رفق الضرّة بها وتفهمها لها بالنفور والغطرسة، فلم تظفر إلا بضيق الناس بها ونفورهم منها وازدياد تعاطفهم مع الضرة الصابرة. شاءت الزوجة الجديدة أن تستأثر باهتمام الزوج، وظنت أن كثرة الخلف ستعزز مكانتها في الدار، فحملت ووضعت في كل سنة، إلا أنها لم تحسن العناية بالأولاد، ولم تكن قادرة على ذلك، فلم تزد على أن طوقت حياة الزوج بالصخب والمشاكل. ولو لم يكن جدّي سلمان مسالماً بطبعه وميالاً إلى تفويت ما يتأذى منه، لساءت حال هذه المرأة في الدار أكثر مما هي سيئة في الأساس. كان من حظ الزوجة الجديدة أن الجد صبور ومتفهم، بل كان في طبعه نوع من الضعف إزاء نزوات النساء، فاحتمل هموم الزوجة المشاكسة. وكان قصارى ما يفعله الجد حين تشتد مضايقات زوجته للآخرين أن ينهرها بأقصر العبارات

كي تكفّ على الأذى، وأن يعوض المتأذين منها بما يسبغه هو عليهم من عطف ويحيطهم به من رعاية، دون أن يخرج عن طوره أو يفقد صبره الراسخ. وحين استقر بي المقام، في نهاية المطاف العسير، الذي صرت تعرفه في دار جدّي سلمان، كانت وضحة الصغيرة قد خلفت صبيين وبنتين، وكانت نضارتها قد غاضت وعودها قد جفّ، فصارت قاسية الروح والجسد.

أما جدي سلمان، وقد عرفت حتى الآن الكثير من خصاله، فقد كان حنوناً إلى درجة يتمنى معها أي طفل أن يكون له جدّ مثله. تميز هذا الجد عن محيطه بشدّة انتباهه للأطفال وعظيم رعايته لهم والحنان البالغ الذي يصبغ سلوكه وعواطفه إزاءهم. ولكي تعرف الأهمية الحقيقية لهذه الميزة عليك أن تستعيد في ذهنك موقف مجايليه حين يتعلق الأمر بمعاملة الصغار. لا شك في أن أي فلاح في قريتنا يحب أولاده، كما يحب أي أب في الدنيا الأولاد، إلا أن التقاليد التي تراكمت فوق تلال من الأفكار الخاطئة عمقت القناعة بأن معاملة الأب لأولاده بالحسنى تعدّ ضرباً من ضروب الضعف الذي يفسد الصغار ولا يليق بالكبار. كان الأب الأمثل، حسب المنطق السائد، هو ذلك الأب الذي لا تجرؤ البنت على توجيه نظرها نحوه أو نحو أي رجل آخر. وكانوا يعدّون الولد الذي يجرؤ على التكلم في حضرة أبيه عديم التربية، والولد الذي يصل إلى حد معارضة الأب في الرأي وقحاً يستحق العقاب، وأقل ما يمكن أن يتعرض له الولد المعارض هو الطرد الفوري من مجلس الأب. أما البنت التي تحادث الكبار ونظرها موجه إليهم فهي ذات العين البيضاء، أو "أم عين بيضا". وهذه شتيمة تتضمن اتهام البنت عينها التي يرى محدثها بياض عينها بأنها تتبع سلوك الفاجرات. شذّ جدي سلمان عن هذه القواعد، ليس لأنه يعي بؤسها أو يعترض على التزام الآخرين بها، بل، ببساطة، لأنها لا تلائم طبعه الودود ولأنه غير قادر على مخالفة هذا الطبع. وكان الناس يعدّون تساهله في هذه المسائل ضعفاً في شخصيته، وقد حاولوا أن يحملوه على تعديل مسلكه إزاء الصغار، فلما أدركوا أن الجدّ عاجز عن مداراة ضعفه كفوا عن المحاولة، وإن ظلوا يعدّون الأمر نقيصة لا يغفرها إلا كثرة المزايا التي يعترفون بها للجد. ومهما يكن من أمر، فقد ثبت الجدّ على معاملته الحادبة للأولاد، وكان يخصني، من بين أولاده جميعاً، بمعاملة ذات دفء خاص، فأنا، بعد كل شيء، حفيده الأول، وأنا، أيضاً، الابن الوحيد الذي خلفه ابنه النابه بعد أن فارق الدنيا شاباً وترك في نفس الجدّ حسرة لا تندمل.

عشنا في رعاية جدي سلمان في دار تعدّ واحدة من أكبر دور القرية. والدار مبنية من الطوب الذي يصنعه الفلاحون بأيديهم من خليط التراب والقصل كبقية دور القرية. وللدار سور بارتفاع القامة يحيط بها على هيأة مستطيل يمتد من الشمال إلى الجنوب،

ولها فضاء فسيح تتصدره من الناحية الجنوبية حجرتان تستخدمان للمعيشة والنوم في آن واحد، فيقيم جدي وزوجته الجديدة وأبناؤهما في واحدة من الحجرتين، فيما أقيم أنا مع زوجته القديمة، وضحة الكبيرة، في الحجرة الأخرى. وفي الناحية الشمالية للدار حجرتان فسيحتان، وأولى الحجرتين هي المضافة، وفيها يستقبل الجدّ زواره الذين يجيئون لشرب القهوة والسمر أو للتداول في الشؤون الخاصة والعامة، كما يستقبل ضيوفه الشخصيين وضيوف القرية الذين يؤمونها في المناسبات الاجتماعية الكبيرة، وكذلك رجال الحكومة الذين يأتون في مهمات رسمية فيغتنمون الفرصة للتمتع بما تمليه واجبات الضيافة من كرم. وفي المضافة، ينام الضيوف الذين تقتضي طبيعة علاقاتهم بالجد أو مهماتهم الرسمية أن يبيتوا في القرية. أما الحجرة الثانية فهي البايكة، وهي المستودع الذي يخزن فيه التبن وعلف الدوابّ، وفيها تبيت هذه الدوابّ في الليالي الباردة. وفي أنحاء الفضاء الأخرى تقوم المنشآت الصغيرة التي تتطلبها حياة الأسرة الريفية، فهناك أقنان وعرائش يأوي إليها الدجاج والبط والإوز وديوك الحبش، وبرج للحمام، وهناك عريشة مسقوفة تظلل مكاناً فسيحاً يأوي إليه قطيع الغنم. وفي ركن قريب من حجرات المعيشة والنوم، خصص مكان تطبخ فيه الأسرة طعام الولائم الكبيرة. هنا، يستخدم الحطب الذي يتقد تحت حلل كبيرة تتسع الواحدة منها للحم خاروف أو عجل أو لأرطال من الأرز. أما وجبات الأسرة، حين لا يكون عندها ضيوف، فتعد في الحجرات، حيث يمكن استخدام بابور الكاز (الكيروسين)، أو حتى الحطب ذاته حين يتعذر الحصول على الكاز أو يتعطل البابور.

وفي ركن آخر من الدار، أقيم ما يشبه الحجرة الصغيرة، حيث ينتصب الطابون ذو الأهمية البالغة في حياة الأسرة. والطابون، الذي لا أعرف له اسماً آخر أسميه به حتى يتسنى لك أن تعرفه، ابتكار فلسطيني صرف، وهو موجود في معظم الدور، في معظم القرى. وعلى كثرة ما تتماثل الأشياء والعادات وأساليب المعيشة بين فلسطين والبلدان المحيطة بها، لم يعرف أي من هذه البلدان الطابون. أنت هنا إزاء فرن أو تنور من نوع خاص يعتمد تسخينه على الوقود بطيء الاحتراق، ويعدّ فيه الخبز، وتنضج أشهى الأكلات. يُحمّى الطابون عادة بالزبل، وهذا وقود مجاني متيسر في القرى للجميع. وإذا أعجزك أن تتصور ما هو الطابون وما هو الزبل الذي يوقد فيه، ثم إذا كنت مشوقاً للمعرفة، فعليك أن تكون صبوراً فلا تلمني إذ أمعن في الاستطراد لأصف لك الطابون الذي تسمع عنه حين تقابل أي فلسطيني في أي مكان. يتكون الطابون من نصف كرة مجوف مصنوع من الطين المشويّ الشبيه بالفخار، أسفله مفتوح بتمامه، وفي أعلاه فتحة تتسع للأرغفة والأطباق التي تدخل إلى الطابون، وللفتحة غطاء منفصل يساعد، حين وضعه عليها، في

حفظ الحرارة. هذا الجهاز الطيني البسيط يقوم على أرضية مخصصة له، تتوسط شبه الحجرة المخصصة للطابون. وهذه تفرش، عادة، بالرضف، أي الحصى الأملس، ويُطبُّ الجسم الطيني فوقها فيغطيها فيصبح الجهاز كله محكم الإغلاق على قاعدة من الحصى الذي يختزن الحرارة. أما الزبل فخلطة من فتات الفضلات الجافة القابلة للاحتراق، و أجوده ما يكون من بعر الأغنام، وبه يدمل الطابون. يتقد الزبل، في العادة، ببطء، فيوفر للطابون والرضف الذي يحتويه حرارة منتظمة تستمر عدة ساعات. وبهذه الوسيلة التي يمكن توفيرها بغير كلفة تحصل الأسر على خبز جيد النضج ذي مذاق لذيذ، وتطبخ الأطباق التي تقتضي طبيعتها إنضاجها على نار هادئة. وبإمكاني أن أقول إنني، على كثرة ما عرفت من أصناف الخبز وما تذوقت من أطباق مختلفة في أرجاء الأرض الأربعة، لم أقع على ما هو أشهى من خبز الطابون والأطباق التي تطبخ فيه. ولعلك تدرك، بعد هذا، لماذا احتفظ الفلسطينيون الذين أخرجوا من بلادهم بصورة الطابون في أعزّ مكان من ثنايا الذاكرة التي تختزن الوطن كله، ولماذا بقيت صورة طابون الدار حيّة في ذاكرتي، بوصفه أشدّ منشآتها حضوراً في هذه الذاكرة.

وللدار التي حملني طابونها العزيز على الاستطراد مدخل واسع أقيمت عليه بوابة تفتح في المناسبات الكبيرة، حين يجيء إلى الدار جمهور غفير، أو حين يتطلب الأمر دخول عربة أو إيواء الماشية. أما في الأحوال العادية فالناس يدخلون الدار من باب عاديّ الحجم شق وسط البوابة. وهذا الباب، في دار جدي سلمان، لا يغلق أبداً.

وفي مكان في فضاء الدار لا يعرفه الغرباء، شأنه في هذا شأن أمثاله في الدور الأخرى، شُقّت حفرة تشبه البئر ولها اسم يلائم وظيفتها فهي المطمورة. في هذه المطمورة، تخزن الحبوب، ثم تموه الفوهة فلا تميزها العين الغريبة. بهذه الوسيلة، يمكن إخفاء الفائض من إنتاج المواسم، فلا تقع عليه عيون رجال السلطة الذين يأتون إلى القرى لجبي الضرائب أو تحصيل الغرامات أو مصادرة أرزاق الفلاحين كلما احتاجت الدولة للموارد، أو كلما شاءت أن تنتقم من بعض رعاياها. والمطمورة التي أحدثك عنها حفرت في المكان الذي يستخدمه من يعدّ الطعام للضيوف. وقد انتقي هذا المكان بالذات، كما لا بدّ من أن تحزر ذلك، عن بصيرة، فلو صدف أن كان أحد رجال الحكومة خبيراً بحيل الفلاحين فحدس مكان وجود المطمورة، فقد يخجله أن ينبش المكان الذي تعدّ فيه الوجبة المخصصة لإكرامه. وفي كل الأحوال، لو وقع ما ليس في الحسبان، فالرشوة، مثل الكيّ، هي العلاج الأخير.

لم تعرف المسمية الصغيرة ، شأنها في هذا شأن القرى الأخرى كافة، الكهرباء، فقد اقتصر التمتع بالكهرباء على عدد من المدن، وليس على المدن كلها. حتى في المدن

المحظوظة، غطت تمديدات الكهرباء أحياء دون سواها، فلم يحظ بالطاقة التي توفر الخدمات الحديثة إلا ميسورو الحال. أما المستعمرات اليهودية فقد تضافرت جهود السلطة مع جهود المنظمات الصهيونية كي تصل إليها الكهرباء بشتى السبل. ظفرت بعض المستعمرات بالطاقة المستخرجة من المشاريع الكبيرة، وحصل بعضها الآخر على مولدات للطاقة تخصها وحدها. وتميزت المستعمرات اليهودية عن القرى العربية بأنوارها التي تشع في الليل، فتثير في نفوس أهل البلاد مشاعر الدهشة والحسد والحرمان، وتذكرهم بأحوالهم المعتمة كلها. كان أهل القرى يستخدمون السرج البدائية التي تتقد بزيت الزيتون للإضاءة. فلما توفرت مشتقات النفط، أضيفت إلى هذه السرج المصابيح التي تتقد بالكاز. وبينما حظي سكان المستعمرات بوسائل الطبخ والتدفئة والتبريد الحديثة واستخدموا المواقد والمراوح والثلاجات الكهربائية، بقيت لأهل البلاد وسائلهم الموروثة منذ مئات السنين، فبقي الحطب والزبل في رأس القائمة. هنا، أيضاً، يتمايز الناس، فالميسورون منهم يقتنون الكوانين، وهذه أنواع ودرجات، فمنها الكوانين النحاسية الفاخرة، ومنها الحديدية، أو تلك المصنوعة من الطين. أما الذين لا تمكنهم أحوالهم من اقتناء الكوانين فإنهم يحفرون في أركان الحجرات حفراً تقوم مقام الكانون. وفي دار جدّي سلمان، خصص للمضافة كانون نحاسيّ مهيب يتقد فيه حطب الزيتون باستمرار وتصطف عليه بكارج القهوة، كما خصص للحجرة التي يقيم فيها الجدّ مع زوجته الثانية كانون حديدي. أما التي أقيم فيها مع زوجته الأولى فقد بقيت فيها الحفرة القديمة.

ولم تعرف القرية، شأنها في هذا شأن القرى الأخرى والعديد من أحياء المدن، تمديدات الماء في الدور. فكان الماء يجلب من بئر القرية، تجلبه النساء، في أغلب الأحوال، ويُجلب على ظهور الدواب في المناسبات الخاصة. وقد تنوعت الأواني المعدّة لجلب الماء وخزنه، فهناك الأواني الفخارية متعددة الحجوم والأشكال، منها الجرة الكبيرة التي تحملها المرأة على رأسها، والعسلية التي تحملها الفتيات الصغيرات، ومنها، أيضاً، الإبريق والشربة، أو القلّة، والبلبول. وهذه الثلاثة الأخيرة آنية يصب فيها الماء المجلوب من البئر، فيرشح من مسامها الفخارية، ويتبخر فيبرد ماؤها ويصبح شربه مستساغاً. وهناك القِرَب المصنوعة من الجلد، والصفائح المعدنية التي دخلت في الاستخدام بعد مجيء البريطانيين وجيشهم. وهذه ينقلها الرجال أو تحمل على الدواب، وهي تستخدم في المناسبات التي تحتاج الدار فيها إلى ماء وفير. وفي دار الجد، وهي التي تضم مضافة الحمولة، أضيف إلى هذه الآنية الزير الفخاري الكبير المنتصب بمهابة عند مدخل الدار، بين البوابة وباب المضافة. وكانت نساء الدار هن اللواتي يجلبن الماء في الأحوال العادية، أما في المناسبات فيجلبه ذلك النوع من الرجال الذين يسعدهم أن يحفوا بالمضافة ويبادروا لأداء الخدمات وكسب رضا المختار كلما لاحت الفرصة.

في هذا الجوّ، عشت سنوات العمر الأولى التي شهدت تفتح وعيي على الحياة وخطواتي الأولى للتدرج على دروبها الضيقة، قبل أن أنطلق في فضائها العريض. والحقيقة أني، على يتمي المبكر وما طبعني به اليتم من حساسية مفرطة إزاء الإساءات، تمتعت في هذا الجو، بل لقد تهيأ لي من المتع ما لم يظفر بمثله من أقراني إلا قليلون. فحنان جدي سلمان وحده عليّ عوضني عن الأب المفقود. وفي رعاية وضحة الكبيرة لي وعطفها وتفهمها، وجدت ما يعوضني عن دور الأم الغائبة.

احتسبتني راعيتي ابناً لها وجدت فيه العوض عن فقدان الخلف، وعاملتني على هذا الأساس. وقد غمرتني وضحة الكبيرة بما اختزنته طيلة السنين من عواطف الأمومة. كانت طيبتها بحراً أجدف فيه بسهولة، فكأني أطوف على جناحي ملاك. كنت أجيء في المساء إلى الحجرة التي تؤوينا أنا وهي، بعد عبث النهار، فيكتنفني حدبها الذي لا ينضب، تنزع عني ثيابي المتسخة وتغسل أطرافي التي تيبس عليها الوحل أو تكاثف الغبار، وتنظف شعري مما علق به من أتربة، ثم تلبسني الجلابية النظيفة وتهيئني للنوم، تفعل هذا بأناة ورقة، وهي تمازحني أو تغني لي، حتى تزول تقطيبة وجهي ويتبدد توتري، ثم تجلسني وتروي لي الحكايات حين أكون عاقلاً ومستعداً للإصغاء. وكانت راعيتي المثابرة تذكرني في صلواتها الخمس، فتدعو لي، دائماً، بالخير والفلاح، لا تغفل عن هذا مرة واحدة. وفي الليالي الباردة والعاصفة، حين يصعب فتح النافذة لتجديد هواء الحجرة، وحين يمتزج دخان الحطب بسخام السراج فيتسمم الهواء ويضيق التنفس ويتخرش الزور وتتأذى الجفون، كانت الراعية الحدوبة تقف إزائي، وأنا في فراشي، وتكشّ الدخان بطرف ثوبها كي أتمتع بنوم مريح. وحين أفيق في الصباح، كنت أجد كل شيء معداً لكي أخرج إلى النهار وأنا في وضع لائق تماماً.

أما علاقاتي بعماتي وأعمامي فبقيت طيبة على الدوام. كنت، بالنسبة لهم، أخاً، بل أخاً عزيزاً. أكبر العمات هي عمتي نظيرة، وعمرها لا يزيد على عمري إلا بعدد قليل من السنين. وقد كانت هذه العمة في حياتي الأخت الكبيرة التي أحببتها وأحبتني. وإذ لم أكن، وأنا في رعاية وضحة الكبيرة، بحاجة لمزيد من الرعاية، فقد عبّر حبّ عمتي لي عن نفسه باللفتة الودودة والنظرة المتفهمة والمواساة التي تخصني بها كلما تعرضت لما يؤذيني أو يجرح مشاعري، خصوصاً حين تكون أمّها هي المتسببة في إيلامي. أما البنتان الأخريان، زينب المجايلة لي وفوزية الأصغر مني، فكنّ يتعاملن معي كما يتعاملن مع أخ كبير، تلعب زينب معي وتستشيرني في شؤونها، وتدرج فوزية حولنا مالئة الجوّ بهذرها وصخبها المبكرين. وأكبر الأعمام هو عمي محمد، وهو يكبرني بسنتين أو ثلاث. وقد كنا، هو وأنا، إلى الحبّ الذي يجمعنا، زميليْ لعب، ثم صرنا، منذ انضممت إلى

المدرسة، زميلي دراسة، أيضاً. اكتسب هذا العم، منذ صغره، حدّة طبع أمه، لكنه كسب، أيضاً، طيبة الأب وحنوّه وبرّه بالآخرين. ومن هذا المزيج، تكونت للعم الصغير شخصية مركبة، فكان حاداً في دفاعه عما يعتقد أنه صحيح، خصوصاً حين يتعلق الأمر بحقوق المقربين إليه، لكنه لا يبادئ أحداً العدوان. ولا تمحى من ذاكرتي صورة عمي وهو يتصدى، بصوته وحركاته الطفولية، لأمه حين تقسو عليّ أو على أحد من أولاد الدار، أو وهو يبادر لحمايتي من عبث الأقران في الملاعب أو المدرسة. كان محمد الأخ الحقيقي الملائم لوضعي بما أنا يتيم، وقد وقف دائماً إلى جانبي، ظالماً كنت أو مظلوماً، فصارت له في نفسي منزلة لم ينافسه عليها أحد من الأقران. أما الأعمام الآخرون، وأنا لا أذكر منهم، الآن، غير إسماعيل، الطفل الذي كان رضيعاً حين استقر بي المقام في الدار، فكانوا كلهم أصغر مني.

شكلنا، نحن الصغار في الدار، جبهة موحدة ضد الأذى الذي قد يطالنا مجتمعين، أو يطال أي واحد منا على حدة. وكانت لنا جلسات تضمنا وحدنا، نسرق أوقاتها من أوقات العبث التي نتفرق فيها بين الآخرين والمشاغل التي تتوزعنا في الدار والحقول والمدرسة. في هذه الجلسات، كنا نتسارّ أو نتشاكى، ونعدّ الخطط للمشاريع المشتركة، وننظم أعمال الدفاع عن النفس. كانت عمتي نظيرة هي نجمة هذه الجلسات، فيما كان عمي محمد هو نجمها، نظيرة هي الحكيمة ومحمد هو القائد، وكنا نحن الجنود المنفذين. وما أكثر المهام التي تستطيع مجموعة كهذه، متعاونة ومتجانسة، أن تقوم بها، خصوصاً حين يتوفر لها حكيمة رزينة وقائد مقدام!

أما الكبار فكانت لنا جلسات تضمنا مع من نحبّ منهم، خصوصاً حين لا تكون الدار كلها مشغولة بالضيوف أو بالظروف الاستثنائية التي تستغرق الجميع. وكان جدي سلمان هو، بالطبع، أحبّ أهل الدار إلى قلوبنا. إلا أن مشاغل الجدّ الكثيرة قللت فرص اختلائنا به، فمقامه شبه الدائم في المضافة مع الضيوف والزوار، وسفره المتواتر إلى المجدل وغزة لمتابعة شؤون المخترة، أو إلى القدس للصلاة في مسجدها الأقصى والاتصال بقادة الحركة الوطنية، أو إلى الرملة للتسوق، كل هذا لا يبقي لنا طويل وقت نتمتع فيه بالجلوس مع الجد. بالرغم من هذا كله، كان هذا يتيسر، خصوصاً في الأماسي الباردة، حين يحبس القرّ والأعاصير رجال القرية في دورهم فلا يجيئون للسمر في المضافة. في أماسٍ كهذه، كان الجد يستدعي أبناءه الذكور حيث لا تتمتع البنات بحق الجلوس في المضافة، أو يجمعنا كلنا إناثاً وذكوراً في حجرته، ويفرغ لنا بكليته، فيؤنسنا ويستأنس بنا. أما جلساتنا الأطول والأكثر تواتراً فهي تلك التي كانت تضمنا مع وضحة الكبيرة في الحجرة التي أشاركها النوم فيها. فهنا، في حضرة المرأة البصيرة، كانت نفوسنا

تنطلق على سجاياها ويطيب السمر بغير حدود. وهنا، في الحجرة التي تعبق أجواؤها بدخان الموقد أو سخام السراج أو بكليهما، انطبعت في ذهني الصور المفرحة والأخرى المفزعة التي ترسمها حكايات وضحة الكبيرة عن الشاطر حسن وعلي الزيبق ودليلة المحتالة وليلى والذئب والغولة والغول ونص نصيص وأبو الرجل المسلوخة والأقزام والعمالقة والسحرة والجان. كانت المرأة التي تحب الصغار تروي الحكايات بأسلوب يجعل عيوننا وعقولنا مشدودة إلى شفتيها طيلة ساعات، وكانت تحرص في روايتها على أن تؤكد المغزى التربوي الذي تشتمل عليه الحكاية، ووصول هذا المغزى إلى مستمعيها: وهكذا، يا أولاد، كاد الذئب يفترس ليلى لأنها لم تتبع نصيحة جدّتها.

طبيعي أن متعاً كهذه لا تتوفر في الأوقات كلها. ففي مواسم العمل الكثيف في الحقول، في أوقات الحرث والبذر والتعشيب والحصاد والدرس، ينشغل الكبار ويستهلك العمل الشاق طاقاتهم فيسلم الجميع إلى النوم المبكر في الليل أو يفرق بينهم في النهار، ولا يجد الكبار، في مواسم كهذه، وقتاً للاهتمام بالصغار. وحين تتعكر العلاقات، زيادة على المألوف، بين الوضحتين، كانت وضحة الصغيرة تتشدد في منع أولادها من المجيء إلى حجرتنا، فأحرم أنا من سمر الأماسي اللذيذ وأدفع، إزاء المرأة المتشددة، ثمن علاقتي الطيبة بضرتها.

كانت زوجة الجدّ الصغيرة هي السبب الأهم لتنغيص حياتي في الدار التي لا تكثر فيها المنغصات الأخرى، كانت قاسية، وكانت عدوانية، حتى لقد انطبعت لها في ذاكرتي الطفلة صورة أقرب إلى صورة الغولة التي ترسمها الحكايات. ولعل اليتم وما يقترن به من إحساس مبالغ فيه بالتأذي هما اللذان جعلاني أتوهم أن مضايقتها منصبة عليّ وحدي، مع أني كنت ألحظ الطريقة الفظة التي تعامل بها أبناءها، أيضاً. وقد ضقت بمشاكسات المرأة القاسية حتى صرت عاجزاً عن التنبه إلى الجوانب الأخرى في شخصيتها، بل صرت أفسر طيبتها، في الحالات النادرة التي تظهر فيها هذه الطيبة، على النحو الذي يتفق مع صورتها المهولة في ذهني، فإذا وقع لي مكروه فغمرتني بحنان مفاجئ عددت هذا مخاتلة من زوجة الجدّ ونسبته إلى الشماتة. وإذا أبدت المرأة إعجابها بشيء حسن حققته، كأن أتفوق على أقراني في اللعب أو أحصل على الدرجات الأولى في الدراسة أو أظفر بالثناء في مجالس الكبار، رحت أتسقط في أقوالها ونبرتها، ما يقنعني بأنها حاسدة. أما حين لم أجد في سلوكها الطيب، والنادر على كل حال،ما يسوغ ضيقي المزمن بها فكثيراً ما نسبتُ السلوك إلى رضوخ المرأة لضغط الجد، وأقنعت نفسي بأنها لا تتصرف بطيبة خاطر. وهكذا، كانت الملاطفات الطارئة تنفرني من هذه المرأة أكثر مما تنفرني قسوتها المألوفة، كانت الجفوة، على كل حال، طبعاً متأصلاً فيها، وكذلك النكد

وقلة البصيرة، وما كانت توقر أحداً، ولا كانت قادرة على التواؤم مع أحد، وكان مزاجها العصبي مصدر الخصومات الحادّة في الدار الكبيرة. إذا غاب جدّي عنفته لأن غيابه طال، فإذا قعد في الدار ضاقت به ووصفته بالتقاعس، أما نحن، أولادها وأنا، فكنا الهدف الدائم للسانها السليط ويدها الثقيلة، تشتمنا، وتضربنا، لسبب ولغير سبب، إذا لعبنا في ساحة الدار استنكرت صخبنا، واشتكت من أننا نسبب لها وجع الرأس والمشاكل، فطردتنا إلى الخارج بالسباب والعصيّ، وإذا لعبنا في الخارج عاقبتنا لغيابنا أو لاتساخ ثيابنا أو لما يكون قد لحق بنا أثناء اللعب من كدمات وجروح، ووصفتنا بأننا زعران نسرح مع أولاد الأزقة ولا نراعي وضعنا بوصفنا أولاداً للمختار، وإذا طلبنا الطعام بأنفسنا عدّتنا متعجلين، وكثيراً ما عاقبتنا بالحرمان منه، فإذا صبرنا على الجوع وأبقينا ألسنتنا ساكنة وبختنا لانصرافنا عن الطعام إلى اللهو، إن زارنا أقراننا، طردتهم بحجة أن الدار تضيق بهم أو أنهم يشغلوننا عن واجباتنا، وإن زرنا نحن هؤلاء الأقران أخذت علينا أننا نثقل على الناس، أو نوقر بالزيارة ناساً لا يستحقون التوقير. وفي نظرة امرأة الجد، هذه، الناس نوعان: الذين تحبّهم، وهم أقل الناس، وهؤلاء هم الذين يدارونها فتشتطّ في إطلاق الأوصاف الإيجابية عليهم، والآخرون، وهم الأغلبية، وهؤلاء، في نظرها وعلى لسانها، إما خسيس أو بخيل أو حقير أو غشاش أو معادٍ مخادع أو واطئ المنزلة. وليس في ذهن هذه المرأة نوع وسط بين النوعين. وعندما صرنا نغدو إلى المدرسة، أُضيفت أسباب جديدة للنكد. ففي سريرتها، كانت امرأة الجدّ لا ترى مسوغاً لذهابنا إلى المدرسة. وإذا كانت المرأة قد أقرت بضرورة الذهاب إلى المدرسة، فلأنه يعزز المكانة الخاصة للدار ويلائمها، ليس أكثر، إذ ما دام أولاد الذي يستحق والذي لا يستحق يذهبون إلى المدرسة فالأحرى أن يذهب إليها أولاد المختار! وأغلب الظن أن ضيق وضحة الصغيرة بالمدرسة ناجم من أن التعليم يوفر لنا ميداناً لا تعرف، هي الأمية، كيف تتدخل في شؤونه. وكان هذا الضيق ينفجر في وجوهنا شتائم وعقوبات، دون أن نفهم السبب.

-٥-

جدتي مدللة
تعزز مكانتها بالاستقلال

مع هذه الأجواء التي موجت حياتي بين اللين والقسوة في دار جدي سلمان، توفر لي منبع حنان لا يغيض أبداً، فعوضني في طفولتي ثم في جزء كبير من حياتي بعد ذلك عن عزلة اليتيم، وروّى ظمأي الملتهب إلى العواطف التي تقدم نفسها بنفسها دون أن تصدر عن إحساس بأداء الواجب، أو تحمل شبهة الإشفاق على اليتيم والرغبة في توفير بعض البهجة له. هذا المنبع وجدته عند جدتي لأمي، فشكل بالنسبة لي الملاذ الذي ألتجئ إليه كلما دهمتني المنغصات، والواحة التي أستريح فيها حين أضيق بقسوة الآخرين عليّ أو بما أعده شفقة منهم إزائي.

كانت جدتي مدلّة، وهذا هو اسمها، أو أمّ نافذ، كما يدعوها الناس نسبة لابنها البكر، أو أمّي، كما تعودت أن أدعو الجدّة منذ غابت الأم، هي، حقاً، هذا الملاذ، وهي، حقاً، أيضاً، هذه الواحة، وهي الأم التي لا أمّ أعزّ منها بين كثيرات لعبن في حياتي دور الأم. كذلك بدت الجدّة، بينما كنت أتمزق بين داريْ الجدّين اللتين تناوبتاني، وكان حنانها الذي تفصح عنه النظرة المتفهمة واللمسة الحادبة يحتويني، كما كان حضنها الدافئ ورعايتها الأمينة يوفران لي الإحساس بالأمان وهي تخوض، على طريقتها، معركة الدفاع عن حفيدها اليتيم ضد أطماع الكبار التي تناوشت مصيره. وقد اختلفت الجدة، من هذه الناحية، عن الأم التي ولدتني ثم حمتني، هي الأخرى، من الأطماع، فالأم الوالدة خاضت معركة الدفاع عني بصخب الفتاة الغريرة التي فتح الترمل المبكر شهيتها لتأكيد استقلال

شخصيتها في مجتمع تُمسخ فيه شخصيات النساء، فبدا أنها تخوض معركتها هي من أجل تأكيد الذات وليست معركتي أنا. و أحسست، أنا الطفل، بهذا إحساساً مبهماً. واستقر في قاع الذهن المشوش الذي كان لي أن هذه الأم ليست أمي أنا، وحدي، بل هي، أيضاً، أمّ نفسها. أما جدتي مدللة فكانت، حين نشأت هذه المشكلة، قد أتمت معركتها الخاصة، فلما انخرطت في معركة الدفاع عني تولاني إحساس بأنها تفعل هذا من أجلي أنا. وبقيت الجدّة كذلك بعد أن انتقلت الوالدة إلى دار زوجها الجديد، حين تفاقم إحساسي باليتم واشتدت حاجتي إلى الملاذ الآمن والمريح.

لقد تعلمت، بالخبرة، أن اليتيم، عندما يكبر وينمو عوده ويتسع وعيه، يتفتت ضيقه بالكروب التي لقيها في حياته، ويبهت استنكاره لوقائعها الشاذة، وينسى تأذّيه مما تعرض له من إساءات، لكنه لا ينسى الذين أحسنوا إليه ولا حلاوة فضائلهم. إني أدرك مغزى أن تظل وقائع صلاتي بجدتي حاضرة في ذاكرتي حضوراً ساطعاً، فأنا أتذكر زياراتي لها لحظة بلحظة، وأستحضر ما كانت تحيطني به من عطف ورعاية وما أجده لديها من حنان ومودة، فأدرك كم كان عونها الخالي من الغرض عظيماً، وكم كان عميق الأثر في روحي.

أني أتساءل، دوماً، ولعلك تتساءل أنت الآخر: كيف تأتّى لفلاحة مولودة في العقد الأول من هذا القرن، حين كان الجهل المتراكم عبر قرون وطغيان الظروف الجائرة يتضافران فيلقيان بالمرأة في قاع السلم الاجتماعي، أن تشق طريقها في الأربعينيات ضد التقاليد الآسرة، فتحقق لنفسها الشخصية المستقلة والمتفهمة التي كانت لجدتي حين عرفتها؟ هذا التساؤل لا تجيب عنه إلا دراسة وافية ترصد التفاعلات التي حركت المجتمع الفلسطيني، وهو موزع بين ظلام العهود العثمانية والتأثيرات المتتابعة لدعوات التنوير، وتستخلص دور هذه التفاعلات في حيوات القرى الراكدة. ولست بصدد القيام بدراسة كهذه. ويكفيني أن أعرض الحالة المشخصة التي عاينتها في دار جدتي، وإن توجب عليّ أن أنبهك إلى أنها لا تمثل حالة عامة. فدعوات التنوير التي كان صخبها شديداً في المدن، خصوصاً في العواصم البارزة، لم تتجلّ في الريف إلا بأبهت الأضواء. وقد شهدت حياة الجدة مأساة شخصية فاجعة، قد يكون لها تأثير حاسم في بلورة شخصيتها المتميزة. إلا أن شخصية الجدة تميزت، قبل تعرضها لهذه المأساة، بصفات خاصة لم تتوفر لكثيرات من قريناتها، وهي التي مكنتها، على ما يبدو، من أن تتخطى المأساة دون أن تدمرها هذه المأساة، وهي، أيضاً، التي صقلت الشخصية فقوت سماتها المتميزة وأبرزتها.

كانت جدتي مدللة قوية الحضور إزاء الآخرين، دون إثقال عليهم، وكانت قليلة الكلام موجزة العبارة، دون أن تنقصها الحكمة أو الفصاحة. وظلت الجدّة متماسكة دوماً،

قادرة على التشبث بما تعتقد أنه الرأي السديد، دون أن تبدو متزمتة. أدارت الجدّة شؤونها الخاصة بكفاءة وانتباه، وكفّت عن التدخل في شؤون الآخرين، تنصح من ترى أنه يتقبل النصح ولا تسمح لنفسها بالتطفل. لم تستفزّ الجدّة أحداً ولا أباحت لأحد أن يستثيرها فيخرجها عن طورها. كانت تعطي بلا منّة ولا تطلب شيئاً، فإذا عرض أحد خدماته عليها شكرته بغير لجاجة، وقبلت من العرض ما تجده ضرورياً، وفي أضيق الحدود.

نشأت الفتاة مدللة في أسرة فقدت معيلها في وقت مبكر. أخذت الدولة العثمانية ربّ الأسرة إلى الجيش لأنه لم يعرف كيف يتهرب من زبانية التجنيد الإجباري، وساقته مع الذين ساقتهم إلى بلاد اليمن البعيدة ليحاربوا أئمتها الذين يرفضون الرضوخ لسلطان بني عثمان. ثم أكلت دروب الغربة ربّ الأسرة في واحدة من الصحارى وهو ذاهب إلى حرب اليمن أو وهو عائد منها، ولم تعرف أسرته شيئاً عن مصيره سوى أنه لم يرجع حين رجع أقرانه.

وقد خلف هذا الأب في الدار التي لم يرجع إليها أمّه صافية، وزوجته خضرة، وابنه محمد يوسف وابنته مدللة، كما خلّف الأرض التي كانت بحوزته والتي تقاسمها الورثة حين ألغي نظام مشاعية الأرض. ونهض محمد يوسف بعبء الأسرة تعاونه صافية وخضرة والفتاة مدللة. وفي وضع كهذا، يزيد فيه عدد الإناث في الدار على عدد الذكور، وتحتاج معيشة الأسرة إلى جهودهن، تحققت للنساء سلطة قلّما تتوفر لنظيراتهن في دور أخرى. وقد تأكدت هذه السلطة عند توزيع الميراث، فمحمد يوسف لم يطلب من شقيقته مدللة أن تتنازل له عن حصتها من الأرض مع أن التقاليد تبيح له ذلك، بل أبقاها باسمها حتى حين كان ناتج الأرض كلها يعود إلى الأسرة مجتمعة. ثم تزوجت الفتاة مدللة ابن عمها عبد المجيد.

تمّ الزواج قبل أن تزدهر أحوال الفتى، وذلك حين كان يجاهد لكي يصير شيئاً مذكوراً في محيطه. انضمت مدللة إلى أسرة الزوج الكبيرة وانخرطت في الصخب والمشاكل التي تحيط بهذه الأسرة. ويبدو أن الفتاة التي كانتها الجدة حملت للفتى الذي كانه الجد نوعاً خاصاً من الحبّ، وإن توجب عليها، حسب التقاليد، ألا تجهر به. وقد عاش الزوجان سنوات عدة متفاهمين. كانت هذه هي السنوات التي أرسى خلالها الجدّ قواعد انطلاقته في عالم التجارة خارج القرية. ولما استقر الرجل في داره الكبيرة، شالت الزوجة، وحدها، عبء العمل في هذه الدار، ووفرت الجوّ الذي يلائمه كي يصرّف أعماله الكثيرة دون منغصات. وساعدت الزوجة رجلها حتى بمالها وجعلته المتصرف بقطعة الأرض التي ورثتها عن أبيها مؤثرة الزوج، بهذا، على أخيها الوحيد. جعلت مدللة من نفسها

المحطة التي يستريح فيها عبد المجيد من متاعبه، وحولت الدار إلى مضافة حفيّة يلقى فيها الضيوف ما توجبه علاقات الزوج من إكرام، ولم تضق بغيابات الزوج الطويلة التي يقتضيها تنوع نشاطاته، بل عملت على أن تظل داره مفتوحة للزوار، في غيابه، كما في حضوره، فصانت علاقاته النافعة، حاضراً وغائباً، ووفرت الجوّ الذي يساعده على تنمية ثروته وتوطيد وجاهته. وإلى هذا، أهدت الجدّة للدار صبيتين جميلتين وثلاثة صبيان، واعتنت بأولادها وأنشأتهم أحسن تنشئة، فتميزوا جميعهم، بين أولاد القرية، بالسلوك اللبق والهندام اللائق والمشاركة في الحياة العامة، وذلك منذ سنّ مبكرة. وشاركت الجدة، على أميتها، الجدّ حرصه على تعليم الأولاد وتوفير متطلبات دراستهم، وأخذت العبء على عاتقها، وحدها، حين كان هو يغيب.

وبسبب تعدد مهامّها ومسؤولياتها، كانت جدتي تنشغل بشؤون الدار أغلب أوقات النهار والليل، لكنها لا تضطرب ولا تشكو، بل تواصل العمل بهدوء، وتعطي لكل شيء ولكل إنسان حقّه من العناية والاهتمام. لم تكن تتذمر أو تتشكى، وكان من عادتها، إذا ساءها شيء فأثار أعصابها، أن توجه الشتيمة للشيطان المجهول، وحده، وإذا حملها شيء على الشكوى أن تتوجه إلى ربّ السماء الذي لا تراه. وقد توفرت للجدّة قدرة مدهشة على تدبير الأمور، مهما تعقدت الظروف، فكانت تنجز أي عمل بالمقدار الملائم من الجهد أو النفقات فلا تبدد جهداً ولا مالاً ولا تسرف حتى في الكلام. ولعل هذه الخصلة، بالذات، هي التي حملت بعض الناس على الظن بأن الجدة بخيلة، وجعلت بعضهم يتصور أنها متكبرة، أيضاً. والحقيقة أن ما في الجدّة لا يسوغ إطلاق نعوت كهذه عليها. كل ما في الأمر أن موهبة التدبير الفذّة واستقلال الشخصية الواضح ورسوخ الثقة بالنفس كانت، بين النساء في زمن الجدة، خصالاً نادرة، ما أشاع حول صاحبتها الظنون. فالذين ظنوا أنها بخيلة هم الذين لاحظوا أن مدللة لا تفرد طعامها لأي زائر، كما يفعل الفلاحون المحكومون بالتقاليد المسيطرة منذ قرون، بل تنتقي من بين الزوار من يستحق، فعلاً، أن يقدم له الطعام فتفرد له طعامها. فالطعام يقدم، في دار الجدّة، لفقير يحتاج إليه حقاً، أو لقريب عزيز، أو لزائر ذي وجاهة ونفوذ خاصين، أو لمن له صلة بأعمال الجد، أو لمن سبق له، هو نفسه، أن أكرم أهل الدار، أو حين تحلّ مناسبة خاصة تستوجب الاحتفال بتقديم الطعام. وقد كان لموائد الجدّة درجات متفاوتة في البذخ، فلحاكم اللواء أو القائم مقام أو من في حكمهما درجة، ولمدير الناحية درجة أخرى، والأمر كذلك بالنسبة لضابط البوليس ومرافقيه، أو مدير المدرسة ومعلميه، أو التجار ورجال الأعمال وأصدقاء الزوج. وفي ذلك الزمن، كانت تقاليد الضيافة توجب على المضيف حين يولم لزائر أن يدعو إلى المائدة أكبر عدد من الرجال، ممن لهم دخل بالزيارة وممن ليس لهم دخل فيها. وكان مقدار إكرام

المضيف للمحتفى به يقاس بعدد من يجمعهم على المائدة من الأكلة في حضرة الضيف. ولم تلتزم الجدة، مثلها في هذا مثل الجد، بالتقاليد، بل كانت حريصة على أن لا يحضر المائدة إلا من يعنيهم الأمر، وحدهم. أما الموائد التي تدعو إليها الجدّة أعداداً كبيرة من الناس فهي التي تقام في الأعياد والمناسبات الكبيرة، أو تعدّ وفاء لنذر أو فدية للنجاة من مصيبة أو احتفالاً بنجاح مشروع من مشاريع الجدّ. هنا، كان حسن تدبير الجدة ومقدرتها يتجليان أمام الجميع بتمامهما، فتصمت الألسنة النمامة وتتلاشى الظنون.

ولم تكن الجدّة، وهي المطبوعة على قلّة الكلام، تحبّ الإفراط في الحديث، بل كانت تفوه بعبارات وجيزة، تقيسها حسب المقدار المطلوب وتطلقها في الوقت الملائم، كانت تمقت الاستغابة، وتأبى التخويض في سير الآخرين، وتقسو على النمامين، وإذا أخذ جليسها في حديث لا تستسيغه فهي توقفه بأدب حازم: "اتركنا من سيرة الخلق!"، وتتجه بالحديث إلى ناحية أخرى، وإذا تمادى الجليس، غير آبه لرغبتها، أو محاولاً استدراجها، فإنها تسكته بصيغة مباشرة: "في حضرتي لا تلاك سير الخلق، فاسكت!"، أو تنصرف عنه. وكانت الجدّة، كما توصف النساء اللواتي يخالطن الرجال دون تهيب، أخت رجال، تتعامل مع القريب والغريب، مع من تعرف ومن لا تعرف، من يوازيها في المنزلة ومن يفوقها أو يدانيها، من دون خشية، تخاطب من يحاورها، رجلاً كان أو امرأة، وهي تنظر إليه، وتجهر برأيها، دون مواربة، حتى حين لا يواتي الرأي محدثها. بكلمات أخرى قليلة، كان للجدّة شخصية يعادل حضورها حضور شخصية الجدّ، وتقف إزاءها في موقع الندّ، وليس في موقع التابع.

أعرض هذا كله لكي تدرك طبيعة المأساة التي تعرضت لها الجدة وعمقها. إن هذه الندّية أوجبت على الجدّ احترام الجدة، إلا أنها، على ما يبدو، قللت من تعلقه بها كأنثى. فمهما بلغ تميز الرجل عن محيطه، فهو، في نهاية المطاف، ابن هذا المحيط، يتأثر بالسائد من قيمه، بمقدار أو بآخر. وفي المحيط الذي نشأ فيه الجدّ، كانت أشهى النساء هي تلك التي تؤكد، بأقوالها وسلوكها، في كل لحظة، ضعفها إزاء الرجل وتبعيتها له فتعزز إحساسه بالسيطرة. كانت الذكورة مقترنة بالإحساس بالسيادة، والأنوثة مقترنة بإظهار الرضوخ. ولم يكن في سلوك الجدة ما يدغدغ حاجة الزوج إلى الإحساس بالسيطرة. كما لم يكن في هذا السلوك، في الوقت ذاته، ما يبيح للجد الاعتراض أو يسوغ له التشكي.

وهكذا، تضاربت، على ما يبدو، مشاعر الرجل وتداخلت إزاء المرأة التي ترضيه دون أن تخضع له. ولا بدّ من أن أمر الجد كان معقداً غاية التعقيد. فلا شك في أن الجدّ كان مرتاحاً لمواهب زوجته وقدراتها ونشاطها الجمّ، وأن قوة شخصيتها كانت تتلاءم مع

حاجته إلى معوناتها الكثيرة، فكان يحترمها احتراماً خفياً واحتراماً ظاهراً، وهي، أمام الناس، كما هي حين يختليان، أم نافذ التي لا تخاطب إلا مع التوقير الملائم لمكانتها المعترف بها. بل يمكن القول إن الرجل كان يهاب هذه المرأة، بمعنى من المعاني. لكن، لا شك أيضاً في أن الجدّ افتقد في الجدّة الليونة التي يشتهيها الرجل في شريكة فراشه، وذلك دون أن يجرؤ على الشكوى من أمر لا يفهمه هو نفسه.

كان الزوجان يلتقيان حين يفرغ كل منهما من مشاغله الكثيرة فلا يجدان ما يتبادلان من الحديث إلا حديث هذه المشاغل، يصغي هو إلى عباراتها الموجزة ويستجيب لطلباتها المعروضة بأوضح الكلام، ثم لا يجد ما يقوله لها، إلا إذا تعلق الأمر بطلب يريدها أن تلبيه أو عمل يرغب في أن تتابعه. كانت الأحاديث تدور حول حاجات الأولاد أو متطلبات الدار والأعمال، دون أن تتطرق إلى أي شيء يخص علاقة الزوجين، أحدهما بالآخر. وما كان الجدّ يعترض على رأي للجدة إلا نادراً، وإذا اعترض فعل هذا بأكثر العبارات التزاماً بالأدب وأفصحها في التعبير عن الاحترام. أما هي فلا تجادل الزوج في أي حال من الأحوال، بل تستخدم طريقتها المعهودة في الإفصاح عن التأييد أو المعارضة: "هذا يصير" أو "هذا لا يصير". أما الحديث الحميم واللمسة المثيرة والالتفاتة المؤنسة، وما إلى ذلك من الأمور التي تجعل الزوج زوجاً والزوجة زوجة، فلم يكن لها مكان في خلواتهما القليلة. عند هذا، عليّ أن أذكّرك بأن العلاقة بين الأزواج والزوجات في الريف كانت في تلك الأوقات على هذا النحو، وما كان لأحد أن يجد في الأمر شذوذاً. بل إن علاقة جدي وجدتي، حين تقارن بالمألوف من العلاقات في محيطهما، كانت تعدّ حميمة.

ولا بدّ من أن يكون ضيق الجدّ بهذا النوع من العلاقة قد أخذ يتشكل بعدما أتاحت له زياراته للمدن أن يعرف أنواعاً أخرى من الزوجات اللواتي يحطن أزواجهن بأريج الأنوثة وينثرنه في أرجاء المنزل كله. وحين بدا الزوج يقارن بين زوجته، أخت الرجال، هذه، وزوجات أصحابه من أهل المدن، بين جفاف حياته في داره والنعومة التي تكسو الدور في المدن، تأسس في نفسه ضيق غامض لا يسوغه تقديره لمكانة الزوجة ودورها في حياته. ولا بدّ من أن يكون الجدّ قد راجع نفسه أكثر من مرة، واستنكر هذا الضيق، وحاول أن يقنع نفسه بأن ما توفره الزوجة المقتدرة شيء يعتدّ به. ثم جاء وقت صار فيه تعبير الجدّ عن هذا الضيق يتجلى بأشكال غير مباشرة، فيظهر في تجنبه الاختلاء بالجدّة حين يكون في الدار، وفي التواتر المتزايد والاستطالات المتزايدة لسفراته وغيباته عن الدار. يأخذ الجدّ شحنة الحمضيات إلى دمشق الشام، أو يتوجه إلى شرق الأردن لجلب الغنم، فيطيل الغياب ما أمكنه ذلك. حتى إذا عاد الجد إلى الدار ملأ وقته بالعمل واستقبال الزوار واغتنام المناسبات، أو افتعالها، من أجل إعداد الموائد والاحتفالات. وعرف الجدّ التعامل

مع أماكن اللهو التي يعدّها مجتمعه مباءات ولا يبيح التعامل معها، فصار يرتاد معسكرات الغجر، حيث يمكن أن تقام السهرات الماجنة، والكباريهات التي بدأت البلاد تعرفها مع حلول عسكر البريطانيين فيها. يفعل الجدّ هذا، خفية، بالطبع، كلما زار مدينة وأتيحت له صحبة تسمح علاقته بها أن يتبذل.

وما كان للجدّة، على تميزها، أن تدرك حقيقة ما يجري في نفس زوجها، لقد نشأت على الاعتقاد بأن الحبّ خطيئة، والجهر به يعادل الفجور، وأن الإفصاح عن حاجات الذكورة أو الأنوثة قلة أدب لا يجرؤ على إتيانها إلا الفاسقون، فأنّى لها، إذن، أن تنتبه إلى ما يشغل بال زوجها، خصوصاً إذا كان هذا الزوج، وهو أسير المفاهيم ذاتها، لا يظهر شيئاً مما في نفسه. وهذا الحال الذي انتهت إليه علاقة الزوجين، بمضيّ السنين، هو الذي مهّد للواقعة التي قلبت حياة الجدّة رأساً على عقب، وحفرت في روحها جرحاً لم تبرأ منه أبداً.

ففي واحدة من سفراته إلى دمشق، تأخر الجد. ولأن الأمر كان مألوفاً فإنه لم يسبب للجدّة أي قلق. حدث هذا قبل أن أجيء إلى الدنيا بسنتين، أي حين كانت الجدة في أواخر العقد الثالث من عمرها. وبعد غيبته الطويلة، أرسل الجد من يبلغ إلى زوجته أنه بصدد صفقة كبيرة مربحة تقتضي بقاءه في العاصمة السورية أطول من المألوف وهو بحاجة إلى مبلغ من المال لإتمام الصفقة. جمعت الجدّة ما لديها من نقد وباعت من حليّها حتى وفرت المبلغ المطلوب وأرسلته إلى المدينة البعيدة. وبينما هي تنتظر إياب زوجها بالربح الوفير، شاع في القرية نبأ نقله إليها واحد من تجار الرملة مفاده أن عبد المجيد الحوراني تزوج شابة شامية ولن يلبث أن يعود بها إلى داره. تناقل الناس النبأ بين مصدق ومكذب. فأن يتزوج وجيه من وجهاء القرية، وهو رجل في تمام العافية فضلاً عن أنه ميسور الحال، زوجة ثانية، وأن تصغره هذه الزوجة بعشرين سنة، وأن يتقاضاه أهلها مهراً عالياً فيضطر إلى الاستعانة بمال زوجته الأولى، فهذه جميعها من الأمور الشائعة التي لا يثير وقوعها الاستهجان أو الدهشة. أما أن يظفر فلاح من المسمية الصغيرة بزوجة من بنات دمشق الشام، فهذا هو ما يبعث على الدهشة، وهو الذي قسم الناس بين مصدق ومكذب، وأثار فضول الجميع فراحوا يتصيدون الأخبار.

سمعت الجدّة النبأ، وانتهت إليها أصداء الأحاديث الدائرة حوله، إلا أنها لم تأذن لنفسها بأن تخوض فيها. ولا بدّ من أن الجدّة كانت، هي الأخرى، بين مصدقة ومكذبة، كما لا بدّ من أن الشكوك ثارت في نفسها، فالرجل، في نهاية المطاف، هو الرجل، حتى لو كان هذا الزوج الذي فعلت من أجله ما لا تفعله أي زوجة سواها، وما الذي يمنع أن تغويه نعومة

الشاميات وغنجهن الشهير. ولا بدّ، أيضاً، من أن الجدّة غالبت الشكوك، فما الذي ينقص زوجها فيحمله على جلب امرأة غريبة إلى داره؟ ومهما يكن من أمر، سواء صدقت الجدّة النبأ أو كذبته أو تموجت مشاعرها بين التصديق والتكذيب، فقد احتفظت برصانة سلوكها وأبقت لسانها صامتاً طيلة الوقت، فلم يعرف أحد من الناس حقيقة ما كان يدور في نفسها.

ويوماً بعد يوم، صار النبأ حكاية، وتفرعت عنه تفاصيل تتداول، وأسماء ووقائع يتناقلها الناس في مجالسهم ويتبارون في استخلاص مدلولاتها، فيبالغون في تصوير ما يلائمهم ويختزلون ما عداه. شاع في الناس أن العروس الجديدة صبية متعلمة حصلت على العلم في المدارس، وهي ابنة تاجر شاميّ معتبر وسليل عائلة من الأشراف. وصورت الروايات فتاة فارعة القوام باهرة الجمال طلقة الحديث. وقال الذين لامست الصورة رغبتهم في الافتخار بابن قريتهم المحظوظ: إنه عبد المجيد، أبو نافذ، الذي يعرف أين يقع، أما الذين أثارت الصورة حسدهم فقالوا: ننتظر ونرى.

ثم جاء يوم أعدّت فيه الزينات في الفضاء الذي يكتنف القرية من ناحية دار الجدّ. وعرفت الجدّة أن الناس يتهيأون لاستقبال زوجها العائد مع عروسه الشامية. ولم يبق أي مجال لمغالطة النفس. وفي يوم الاحتفال بعرس الوجيه العائد، بينما الناس ينتظرون لإشباع فضولهم الشديد، قعدت الجدّة في دارها، حريصة على أن تبقى وحدها، فما الذي دار في نفسها، هي التي لم يعد بمقدورها أن تتعلق بأي وهم؟ لقد غدر الرجل بالمرأة التي شاركته حياة حافلة وموفقة، أخذ مالها ليجيئها بضرة وعرّضها لشماتة الشامتين، فهل أمكن أن تظل بمنأى عن الإحساس بالقهر الذي يفري الأكباد ويفجّر الدموع الكاوية؟ سنخالف الطبيعة لو قلنا إن الحزن لم يعصر روح الجدة وأحشاءها في ذلك اليوم، أو إنها استطاعت السيطرة على نفسها فلم تطلق لدموعها العنان، ولكنا لا نملك دليلاً واحداً على أن هذا قد حصل، فما من أحد رأى المرأة المغدورة في حالة غير عادية ولا هي أفصحت عن مشاعرها، لا في ذلك اليوم، ولا في أي يوم آخر.

الشيء الوحيد الذي رآه الناس في سلوك الجدّة، في ذلك اليوم، وحفظوه في ذاكرتهم بين معجب ومدهوش ومستنكر هو ما فعلته الجدّة خلال اللحظات التي واجهت فيها زوجها أمام الجميع وفي الهواء الطلق.

كان الفضاء مكتظاً بالخلق الذين ملأوا المساحة بين الدور وحافة الوادي. وكان الصخب قد بلغ ذروته، حين خرجت الجدّة من الدار ووقفت أمام البوابة التي تشرف على الحشد. ألقت الجدة على الاحتفال نظرة غائمة، ثم تحركت بهيئة من حزمت أمرها في تلك اللحظة.

وشق سهم صامت دائرة الناس والضجيج وتوجه مباشرة نحو مركز الدائرة. في غضون ذلك، هيمن الصمت على صفوف المتحلقين، صفاً بعد صف، حتى لفّ الساحة كلها. وكان من الممكن، كما يردد شهود العيان، أن يُسمع حتى رنين الإبرة، حين وصلت الجدّة إلى هدفها، فصارت المرأة المغدورة في مواجهة المحتفى بهما. وبنظرة لم تطل، استوعبت الجدة حال الواقفين أمامها المفاجئين بظهورها على هذا النحو. لم تكن العروس تلك الغادة التي صورتها مخيلات المفاخرين والحاسدين. وما رأته الجدّة أمامها كان هيئة جسد ضئيل تستره ملاءة غريبة الزي من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين. وكان وجه الشامية ذاته مغطى بمنديل من الحرير الأسود الشفاف فلا تبين ملامحه. وبهذا وذاك، بدا حضور العروس باهتاً. وبدت العروس ذات القامة القصيرة، بوقفتها إزاء الجد ذي القامة المديدة والوجه الصبيح والأبهة الظاهرة، هزيلة ومتطامنة. وكان من السهل أن تلتقط عينا الجدّة، حتى بنظرتها السريعة تلك، التبدل الكبير الذي طرأ على ملابس الزوج ومظهره الخارجي كله. كان الجدّ قبل هذه السفرة المشؤومة إلى الشام يلبس، على عادة الوجهاء في زمنه، القمباز بالتفصيلة الفلسطينية المتميزة ويضع فوق القمباز الساكو، وهو المعطف، ويكون، مثله مثل القمباز، من الصوف في الشتاء والحرير في الصيف. وإلى هذا، كان الجدّ يلتف بالعباءة السابغة التي تكون خفيفة أو ثقيلة، حسب المواسم. كما كان الجدّ، قبل هذه السفرة، يتخذ لغطاء رأسه العمامة الشهيرة من الأغباني ذي اللون الذهبي اللماع. أما ما رأته الجدّة، في وقفتها تلك، فكان قمبازاً وساكو شاميين مختلفي التفصيلة وطربوشاً أحمر قانياً ينتصب فوق رأس الجد، وتضطرب طرته السوداء فتتأرجح ذات اليمين وذات الشمال، ولا عباءة.

وكانت أم نافذ، كما يشهد بذلك الذين رأوا الواقعة، في أتم هندامها، الثوب المطرز والوقاية التي تلمُّ شعر الرأس وقد اصطفت عليها، بين تطاريزها، عشرات الليرات وأنصاف الليرات والغوازي الذهبية والحطّة البيضاء التي يتموج فيها لون النيلة الأزرق فيضفي على مظهر الجدّة سحره الأخاذ. وقد وقفت الجدةّ إزاء الجد بقامة ثابتة ووجه لا تفصح تعابيره إلا عن تماسكها الكامل. أما الجد، فقد ركبه الاضطراب وازداد تأرجح الطرة فوق طربوشه المستجد، وبدا، وهو المفاجأ، عاجزاً عن التصرف. وبخطا لا يؤطرها الثبات، فحسب، بل هي الثبات عينه، تقدمت جدتي مدللة من جدّي عبد المجيد وهي تقيسه بنظرات لا تسجل ذاكرة القرية ما هو أفصح منها في التعبير عن الازدراء، حتى صارت في مواجهته تماماً، الوجه إزاء الوجه وحدقة العين تصدم الحدقة المقابلة. وقبل أن يفطن المشاهدون الصامتون لأي شيء، قذفت الجدّة زوجها الغادر بالعبارة الوحيدة التي نطقت بها في هذا المشهد: "طَرْبَشُوك، أهل الشام؟!"، وقرنت العبارة بصفعة ثقيلة، يحلف الشهود

أنهم سمعوا رنينها المنداح عبر الصمت. صبت الجدّة الصفعة صباً محكماً على صدغ الجد، فسقط الطربوش وراح يتدحرج بين أقدام المحتشدين والناس يبتعدون عنه كأنه نجس. ثم عادت الجدّة، بالطريقة التي جاءت بها، صامتة ومهيبة، وانطفأ الاحتفال.

لم تطلب جدتي الطلاق، ولا كان مألوفاً أو مقبولاً أن تطلب الزوجة الطلاق لأن الزوج جاءها بضرّة. ولم يطلّق الجدّ جدتي من تلقاء نفسه بالرغم من الإهانة التي ألحقتها به والتي تعد، بمقاييس مجتمعه، فظيعة. إلا أن الجدّة قاطعت الجدّ مقاطعة تامة وصارمة، فهي لا تحدثه ولا تتعامل معه. وقد وضعت الجدّة لهذه المقاطعة قواعد صارت لها في الدار الكبيرة قوة القانون. ولم يجرؤ الجد حتى على محاولة ثني الجدّة عن المقاطعة، ولم يستخدم سلطته المضمونة بما هو ابن عم أو بما هو زوج لكسر تعنتها، ولم يوسط وسيطاً لإصلاح الأمر بينهما، ولم يقبل عروض من تطوعوا بالقيام بالوساطة. انقطعت الجدّة، بالطبع، عن زيارة الجدّ في حجرته، و لم تبح له أن يزورها في الحجرة التي تنام فيها مع أولادها. وتجنبت الجدّة، ما وسعها ذلك، أن يضمّها مع زوجها مجلس واحد، فإذا حدث أن التقيا في مجلس حرصت على عدم مبادلته الحديث، أما إذا اقتضت الحاجات العملية أن يستفسر منها عن شيء، ووجدت هي من الضروري أن تجيب على الاستفسار، فعلت ذلك بصورة غير مباشرة دائماً. فإن كانت هي في حجرتها ووقف الجد خارج الباب وجهر بسؤاله، أرسلت له الجدّة واحداً من الأولاد لينقل له الجواب، و إن كانا كلاهما في مجلس واحد ووجه الخطاب إليها، فكان من شأنها أن توجه الخطاب، من جانبها، لواحد من الأولاد أو الحاضرين الآخرين، على طريقة: يا فلان قل لهذا الرجل ! وإذا لم يكن في المجلس من تهيئه مكانته لمهمة كهذه، وجهت الجدّة خطابها للحاضرين كلهم وضمنته إجابة غير مباشرة عن سؤال الجد، دون أن تخرج على قواعد المقاطعة.

بقيت الجدّة في الدار الكبيرة، متمتعة بالاستقلال الذاتي الذي حققته لنفسها، طيلة السنوات التي قدرت أنها لازمة لرعاية صغارها حتى يكبروا، فهي، على ما يبدو، لم تشأ أن تترك صغارها لرعاية زوجة الأب. في هذه السنوات، تزوجت أمي زواجها الأول ثم الثاني، وكبر نافذ وشقيقه عمر الذي يليه في العمر وأنهيا الصفوف الأربعة الأولى في مدرسة القرية، ثم انتقلا إلى قرية يبنة الساحلية حيث توجد مدرسة تدّرس التلاميذ حتى الصف السابع. وفي هذه السنوات، كبرت، أيضاً، خالتي شفيقة، الابنة الثانية للجدّة، ودخل أصغر الأولاد، وهو غالب، المدرسة الابتدائية. لم تتشبث الجدّة باستقلال شخصيتها، وحده، بل عززت استقلالها المالي، أيضاً، فحررت الأرض التي تملكها من إشراف الجدّ، واستثمرتها لمصلحتها وأنفقت على نفسها من ريعها، وحرصت على المساهمة في النفقات التي يحتاج إليها أولادهما.

في غضون هذا كله، كانت الجدة تبيت أمراً احتفظت بسره لنفسها، فلم يطّلع عليه أحد قبل أوانه. كنت أتهيأ للالتحاق بالمدرسة عندما عرفت سرّ الجدّة المبيت هذا، أطلعتني عليه لأنها تحبني، ولأنها احتاجت لمن ينقله إلى ولديها المقيمين في يبنة، ولأن أوان الكشف عنه كان قد اقترب. كان خالاي نافذ وعمر قد توجها إلى يبنه منذ بضعة شهور، وكنت في زيارة لجدتي كي أبيت عندها، كما اعتدت أن أفعل بين وقت وآخر. يومها، باحت لي الجدّة بسرها، قالت وقد اختلت بي: "ليس لي غيرك، خالك غالب لا يحفظ لسانه"، ثم أفهمتني ما يتوجب عليّ أن أفعله. وكان علي أن أنقل إلى نافذ وعمر في يبنة أن الجدّة تعتزم ترك الدار الكبيرة لتسكن في دار أخيها، وعليهما، هما، أن يحتفظا بعلاقة طيبة مع الأب، وأن ينزلا في داره حين يجيئان إلى المسمية الصغيرة، ويبديا له كل واجبات الاحترام والطاعة، ويتجنبا الإساءة لزوجته الثانية، ويصونا أختهما وأخاهما الأصغر، ويدافعا عنهما بحزم إذا تعرضا لسوء.

بهذا، لم تمتعني الجدة بثقتها بي، فقط، بل أتاحت لي، أيضاً، أن أقوم بأول مغامرة لي خارج القرية. ووفق خطة الجدة، كان عليّ أن أغادر المسمية الصغيرة مع الفجر كي أبلغ يبنة قبل ذهاب الولدين إلى المدرسة وأعود في اليوم ذاته. وقد انتقت الجدة لرحلتي حماراً نشيطاً وعاقلاً من تلك التي يسمونها في القرية: القبرصية، واختارت برذعة مريحة وملأت الخرجين بالهدايا، وزودتني بالتوجيهات والنصائح اللازمة حول الطريق. وصدف أن كانت الليلة مقمرة، والسماء صافية، وضوء القمر شديد السطوع، بحيث صعب على الجدّة المؤرقة التمييز بين الأوقات المتعاقبة. ولما ظنت منظمة مغامرتي أنه الفجر، أذنت لي و للحمار بالانطلاق فيما الجميع نيام، ورافقتني حتى أسلمتني لأول الدرب المتجه ناحية القرية البعيدة. كنت في غاية الابتهاج، قوّت الثقة الممنوحة لي معنوياتي، و أزال الإحساس بالأهمية تهيبي، وهيجني الإقدام على المغامرة. ورحت أحث الحمار على الجري مدفوعاً بمشاعري المستثارة، والحمار القوي يستجيب دون معاندة، كنا، هو وأنا، كأننا في سباق، هو بقوائمه وأنا بمشاعري، كان يجري وأنا، على ظهره، أصيح، أو أنشد، أو أقلد نداءات الخيالة كأنني عنتر بن شداد الذي سمعت حكايته وهو يحث مطيته في طريقه إلى مضارب أهل عبلة. لم يساورني أي إحساس بالخوف، ولم أشعر بالوقت طيلة الطريق، إلى أن أشرفت على القرية المقصودة. هنا، فاجأني صوت المؤذن وهو يدعو لصلاة الفجر. عندها، فقط، أدركت أني قطعت الرحلة كلها في بهمة الليل وسط المخاطر، فحطّ عليّ خوف مباغت كأن غولاً اعترض طريقي فجأة، فجمدت حركتي ووقف شعر رأسي. ولا بد من أن يكون الحمار قد أحسّ بما حل بي، أو أن الخوف الذي دهمني قد دهمه، فقد تجمدت حركته هو الآخر وانتصبت أمام ناظري أذناه الطويلتان كأنهما ذراعان ارتفعتا

لتعلنا استسلامي واستسلامه أمام الخطر المبهم. ودون أن أدري كيف وقع ذلك، انزلقت عن ظهر الحمار ووجدتني مختبئاً بين قوائمه وأنا أرتعش. وحين أقنعني ذعري، وليس أي شيء آخر، بأن من الأسلم لي أن أتقدم، جذبت الحمار وسرت حتى بلغت أول الزقاق الرئيسي في القرية، ثم قعدت بجانب أول حائط صادفني وتكومت على نفسي مثل طائر مذعور، وأطلقت العنان لدموعي. ومع خوفي وهواجسي، وربما بسببها، غلبني النعاس، فنمت، إلى أن أيقظني واحد من المارة وشمس النهار تغمر المكان وتفرش أشعتها على صفحة ماء البحر الممتد أمامي في الناحية الأخرى من القرية. وأشفق عليّ الرجل الذي أيقظني وراح يهدئني ويلعن الذين فرطوا بي فسرحوني في البراري وحيداً. ثم اقتادني الرجل وهو يبسمل ويحوقل إلى دار صديق العائلة الذي يسكن خالاي عنده. ولما عدت آخر النهار إلى المسمية الصغيرة ورويت لجدتي ما وقع لي، لم تزد على أن قالت: "الله يخزي الشيطان".

وفي اليوم التالي، رأى الناس الجدّة وهي تشرف على بناء حجرتين لها في طرف الباحة في دار أخيها محمد يوسف، وتطلب من البنّاء أن يجعل لهما باباً على الشارع، بالإضافة للبابين اللذين يصلانهما بالدار، بحيث صار للجدة، في واقع الأمر، منزل مستقل بجوار دار أخيها.

سكنت جدتي مدللة في الدار الجديدة مع أمّها، جدتي الكبيرة خضرة. وأنت تعرف أن الجدة الكبيرة، وهي، في الأصل، من قرية دير الدبان القريبة من بيت جبرين، قد ترملت منذ غيبت حرب السفر – برّ أو السفر برلك أخبار زوجها، أي منذ ما لا أدري من السنين. ولم ترجع الجدّة الكبيرة إلى دير الدبان، بل آثرت البقاء في المسمية لترعى ولديها وأقامت في دار محمد يوسف. وحين أدركت أنا وجودها، كانت هذه الجدّة امرأة مسنّة لكنها جمّة النشاط. وقد عرفت جدتي خضرة، هذه، امرأة قليلة الاختلاط بالآخرين مثلما هي قليلة الرغبة في الكلام. وكانت الجدة الكبيرة تُرى، دائماً، مشغولة بشيء ما، جادّة الهيئة، دون أن تعرف ما الذي يشغلها. كانت، كما يصفون الشخص الذي يستغرق في شؤونه دون أن يطلب معونة أحد، امرأة في حالها. وقد تعلقت جدتي خضرة بهواية توليها جلّ اهتمامها وهي الإشراف على تربية الماعز، وكانت تحت إشرافها عنزات تخصها هي وأخرى تخص جدتي مدللة، بالإضافة إلى عنزات الخال محمد يوسف. وكان من الممكن أن ترى الجدة الكبيرة في أي وقت من أوقات النهار غادية لجلب العلف من البايكة أو من المروج، أو عائدة به، أو ناشرة إياه أمام العنزات، أو منصرفة لحلب قطيعها، أو مستغرقة في إعداد اللبن الرائب والزبدة والجبنة. وكانت أعراض العمى قد بدأت تظهر على الجدّة المسنة ويلاحظها المحيطون بها دون أن يجرؤ أحد على مفاتحتها بالأمر، أو تقرّ هي به أو

بالمصاعب التي تواجهها وهي تتنقل هنا وهناك. وقد احتالت جدتي خضرة طويلاً، متوهمة أن بإمكانها أن تحجب عن الآخرين العاهة التي تفترس بصرها، فحفظت مكان كل شيء في الدار وكل ركن من أركانها حتى تتجه إليه دون عناء. وحرصت هذه الجدّة على أن تظل خطواتها ثابتة وحركتها سوية. وكنا نحن الصغار، نعمد إلى معابثة الجدّة الكبيرة، إذا تحررنا من رقابة الكبار الحريصين على عدم المس بمشاعرها، لعلنا نستدرج المرأة العمياء إلى الاعتراف بالعاهة، لكن دون فائدة. كنا ننقل حاجة من الحاجات التي تخص الجدة الكبيرة من المكان الذي تضعها فيه ونخبئها في مكان آخر، غير أن الجدّة المتنبهة لا تقع بسهولة، فكانت تتجه إلى المكان المعهود، وحين لا تجد حاجتها فيه لا تطيل البحث، بل تجلس وتجأر بشكوى موجزة من العبث المفسد، وتعلن تصميمها على عدم التحرك حتى تأتيها حاجتها،ثم تستأنف النشاط بعد أن تحصل عليها، كأن شيئاً لم يكن.

ومع كبر سنّها، وصمتها شبه الدائم وانطوائها على نفسها، وغدواتها وروحاتها الكثيرة، ثم مع هذا العمى الذي لم يقعدها عن النشاط ولم يبدل من عاداتها، شاع في القرية أن الجدّة خضرة امرأة مبروكة، واعتقد الناس أنها صاحبة كرامات وأن لمستها تجلب الرزق. وقيل في القرية إن عنزات الجدّة تدر من الحليب بمقدار ما تريد هي. وإذا غاض الحليب في ضروع العنزات الأخرى، بقيت ضروع عنزات الجدة مترعة، متى شاءت هي ذلك. ورويت عن المرأة المبروكة حكايات أخرى كثيرة من هذا القبيل، فقيل إن محمد يوسف، ابنها، افتقد في سنة من سنيّ القحط القمح اللازم للمؤونة، ونفد الطحين من خابية داره، وتأكد هو نفسه من نفاده، فخرج يبحث عمن يقرضه كيس قمح أو كيساً من الطحين فلم يقع على من عنده فائض، فعاد إلى الدار أسيان خائباً، ليفاجأ بالجدة الكبيرة جالسة وبين يديها لجن مملوء بالعجين. فلما سأل الخال أمه عن مصدر الطحين الذي تعجنه، أشارت إلى الخابية، فذهب إليها ليفاجأ بأن الخابية التي تركها فارغة قبل قليل قد امتلأت بالطحين حتى سقفها. وقيل، كذلك، إن وقائع كهذه تكررت في أوقات عزّ فيها العدس أو نضب الزيت أو خلت بايكة الدار من علف الدواب. كانت جدتي خضرة تسمع هذه الحكايات من أفواه الذين يتداولونها أمامها، وتتعرض لإلحاح الوافدين إلى الدار كي تمنحهم بركتها، فلا تأبه لهم أو لحكاياتهم ولا تأتي بشيء خارق أمامهم. وقد عزز ترفع الجدّة اعتقاد الناس بخوارقها. وتناقل الناس في ما بينهم أنها متصلة بعالم الجنّ الخفي، وانتهوا إلى الاعتقاد بأنها لا تفعل شيئاً إلا إذا جاءتها الأوامر من أسياد هذا العالم. وكلما وقع في القرية حادث مبهج لا يدرك الناس سببه نسبوه إلى خوارق الجدة، فإذا شفي أحدهم من مرض ميئوس منه، وتصادف أن الجدّة لمسته قبل ذلك، نسب الناس شفاءه إلى لمستها وعدّوا المعافى محظوظاً لأن الأسياد أولوه عنايتهم. وإذا نجا خيّال من وقعة قاسية، وتصادف أن الجدة رأته حين وقع، نسبوا نجاته إلى نظرتها. وإذا أعطت

أرضٌ غلالاً أكثر من غلال أرض تجاورها، اعتقد الناس أن الجدّة، حين جمعت الأعشاب ذات يوم من هذه الأرض، إنما فعلت ذلك تنفيذاً لرغبة الأسياد الذين بيتوا مفاجأة سارة لصاحب هذه الأرض.

جدتي خضرة هذه هي، وحدها، إذن، التي شاركت جدتي مدللة السكن في الدار الجديدة. وقد أتاح الوضع الجديد للجدة الكبيرة أن تنصرف أكثر فأكثر لشؤونها الغامضة، دون أن تكف عن رعاية العنزات أو تتوقف غدواتها وروحاتها الكثيرة داخل الدار وخارجها.

وقد أقامت جدتي مدللة في دارها المستقلة مضافة يؤمها الزوار كما يؤمون مضافات الرجال. فعلت الجدّة هذا دون إعلان مسبق ودون أن تطلب من أحد أن يزورها. والناس الذين اعتادوا أن يزوروا الجدة في منزل الجد احتفظوا بالعادة ووجدوا من واجبهم زيارتها بعد انفصالها عن داره. وما شذ أحد عن هذه القاعدة. بل إن من الناس من كانت بينه وبين جدّي عد المجيد خصومات فهو لا يزور إلا مضافة الجدة، وحدها. وانتقلت العادة إلى زوار القرية الغرباء. وبمضيّ الوقت، صارت مضافة أم نافذ واحدة من المضافات المطروقة في القرية. ثم دخلت جدتي مدللة عالم التجارة، لم يكن الباب الذي ولجته عريضاً كالأبواب التي يقتحمها الجدّ، ولا كان هذا، على كل حال، متيسراً لامرأة، لكنه لبّى حاجتها لتأكيد نديتها إزاء الزوج الذي فارقته، وتأكيد مكانتها بما هي امرأة أخت رجال، وتغطية النفقات الإضافية المترتبة عليها في وضعها الجديد. أعطت الجدّة مالاً لأحد رجال القرية ليفتح دكاناً جديداً وصارت شريكته في الربح، وزادت عدد العنزات التي ترعاها أمها، واقتنت دجاجاً كثيراً فراحت تبيع البيض والفراخ للباعة المتجولين، وقد وفر لها هذا كله، فضلاً عن الدخل الذي يجيئها من ريع الأرض، حياة مستقرة، دون عسر.

وألزمت جدتي نفسها إزاء أولادها واجبات لا تلتزم النساء بمثلها، في العادة. فالتقاليد، وكذلك أحكام الشرع الإسلامي الصريحة، تضع على عاتق الأب، وحده، عبء الإنفاق على الأولاد ولا تكلف الأم شيئاً منه. لكن جدتي أخذت على عاتقها، من تلقاء نفسها، أن تقدم لأولادها الكثير مما يتوجب على الأب تقديمه: يشتري الأب حلية للبنت فتشتري لها الجدّة ما يضاهيها، ويجلب لها ثوباً فتجلب هي للبنت ثوباً مثله أو أحسن منه، ويرسل الجدّ إلى أولاده، حيث يدرسون خارج القرية، مؤونة، فترسل الجدة لهم مثلها، أو يمنحهم الجد نفقة فتدفع لهم ما يوسعون به على أنفسهم. وحين يجيء الولدان في أيام العطل، تتوزع أوقاتهم بين دار أبيهم ودار أمهم، فيلقون عند الأم مثل ما يلقونه عند الأب من رعاية وإكرام.

وقد صارت دار الجدة، بالنسبة لي، داراً ثانية أتردد عليها بكثرة وأقيم فيها كلّما حلا لي ذلك. وكنت ألجأ إليها كلما ضاقت بي الدنيا لأي سبب من الأسباب، فأجد الفرج، وألجأ إليها، أيضاً، إذا تهيأ لي ما هو مبهج لأنبئها بالأمر، فأحظى بالتكريم. وفي كل الأحوال، كنت أجد في الجدّة الأم الحقيقية، وألقى عندها أشكالاً من الحفاوة لا تتيسر لي في أي مكان آخر. وما أزال، إلى الآن، أتذكر أصناف الطعام الذي تميزت جدتي مدللة بإعدادها، وكانت تتحفني بها كلما زرتها أو تدعوني إليها كلّما أعدتها، كانت قهوتها الممزوجة بالحليب ذات مذاق لم أحظَ في حياتي بما هو أفخر منه أو ألذّ، كانت تشتري أجود أنواع البن العدني وتحمصه وتطحنه بنفسها ولا تستخدمه إلا طازجاً، وقد خصت نفسها والأثيرين من زوارها بحليب عنزة بعينها انتقتها من عنزات قطيعها ووفرت لها غذاء خاصاً، هو دائماً من العشب الطازج، لتحصل على أجود الحليب وأزكاه طعماً ورائحة. ومن هذا الحليب بالذات، كانت الجدة تعدّ طبقاً من الجبنة فنأكله طازجاً ساعة إعداده. وحين يتعلق الأمر باللحم، كانت الجدّة تختار من الذبيحة كبدها وخصاويها وفتائل ظهرها الطرية، فتملحها وتتبلها ثم تضعها في صحن من الفخار له شكل المخروط الناقص المقلوب يسمونه في القرية "صحن أبو عشرة"، وتضع الصحن، بأطايبه المنتقاة، هذه، في الطابون لينضج على مهل، ثم تضيف إليه اللبن الخاثر الذي تشتقه من حليب عنزتها الأثيرة، فيكون من ذلك رائحة وطعم ما يزال ريقي يتحلب كلما عنّا على بالي. وما بتّ ليلة عند جدّتي إلا ابتدأت صباحي بفطور البيض المغمور بالزبدة وكوب الحليب بالقهوة والخبز الطازج الخارج لتوه من الطابون. وما كان لفطور كهذا أن يتيسر لي، على الدوام، إلا عند الجدة.

كانت ثقة جدتي بي، كما عرفت هذا، قد نشأت وتعززت منذ كانت هي في الدار الكبيرة، ثم استمر الأمر بعد استقلالها. وقد صرت، أنا التلميذ الصغير، كاتم أسرار الجدّة والمطلع على حساباتها، فضلاً عن أني حفيدها المحبوب.

-٦-

مملكة شامية صغيرة في القرية

بقيت دار جدّي عبد المجيد تجتذبني إليها، قبل أن تنفصل جدتي عنها، وبعد ذلك. ولم يضنّ عليّ الجد ببعض وقته كلما جئت إلى الدار، وكانت حفاوته بي تمتعني. والحقيقة أن الطفل الحساس الذي كنته حمل في ثنايا نفسه شيئاً ما، غامضاً، ضد هذا الجدّ، شيئاً تخلّف عن الخصومة التي اشتعلت بينه وبين جدّي سلمان والنزاع الذي نشب بينه وبين أمي. غير أن هذا لم يستقر في النفس الطفلة إلى الأبد. فقد غاض الشعور السلبي بعد أن انطفأت الخصومة وبرد النزاع، ثم امّحى بعد أن غابت الأم وألفت غيابها. وفي وضعي الجديد، تبدلت نظرتي إلى جدّي عبد المجيد، وصرت أرى فيه الشخصية الجذابة المتميزة بكل ما هو مثير، وأجد في داره الأشياء المدهشة التي لا أجدها في أي دار أخرى، فيشدني هذا وذاك إلى الرجل والدار.

لم آت إلى دار الجد مرة إلا وجدته في أتمّ النشاط وأكمل الهندام: كان قد تخلى، منذ تلك الواقعة المشهودة، عن الطربوش الذي ألزمه أنسباؤه الشاميون لبسه عندما طلب يد ابنتهم، كما تخلى عن القمباز والساكو الشاميين، وعاد إلى الزي الفلسطيني الذي يتخذه وجهاء الريف، إلا أن الجد لم يعد يستخدم العمامة الأغبانية، هي التي صارت على كل حال زياً قديماً قلّ استخدامه بعد رحيل الأتراك. وقد استبدل الجدّ العمامة بالحطة البيضاء والعقال الأسود، وصارت له، بهذا، هيئة مهيبة تبعث على الاحترام. وظل الجدّ حريصاً على أن يبدو في هذه الهيئة في أي وقت من أوقات اليوم، داخل داره وخارجها،

في الأيام العادية وفي المناسبات الخاصة. وكان حديث الجدّ يشوق مستمعيه، خصوصاً حين يكون المستمع طفلاً تشوقه الغرائب وتلهب الأشياء غير المألوفة فضوله وخياله. فحديث الجدّ يكشف عن معرفة بالدنيا لا تتوفر لسواه في محيطه. والجدّ متابع دؤوب للشؤون العامة وهو يتحف مستمعيه، دوماً، بآخر تطوراتها. وقد جلب الجدّ إلى داره الراديو الأول الذي عرفته المسمية الصغيرة، فعرفت، في داره، هذه الآلة العجيبة التي تنطق، فتقرأ القرآن وتنقل الأخبار وتغني ويصدح صندوقها الخشبي بالألحان. وفي أوقات الأحداث الكبيرة، أضاف الجدّ الجريدة إلى الراديو. وكان الناس يجيئون إلى الجد ليعرفوا منه أين وصلت جيوش هتلر، وما الذي حلّ بالبلشفيك، أو ما الذي قاله الإنجليز، وماذا فعل اليهود، وأين يختبئ سماحة المفتي الأكبر وأعوانه في هذه الأيام. وكان التعرف على آخر الأخبار يقترن بالمناقشات الصاخبة التي كان صخبها يستهويني. تحمس الجدّ لهتلر زمناً طويلاً، كان يرى فيه الجبّار الجديد الذي هيأه الله ليكسر جبروت الإنجليز الطغاة، وكان يعتقد أن هتلر هو الذي سينقذ فلسطين من طمع الصهيونيين ويبطل مشروعهم للسيطرة على بلاد العرب. وأعجب الجدّ، في الوقت ذاته، بالروس، أعجبته ضرواتهم في الدفاع عن وطنهم، وكان يتمنى لو توقف هتلر عن محاربتهم وتفاهم معهم بحيث يمكن أن يتفرغ هتلر لمحاربة الإنجليز والبلشفيك معه. وكان الجدّ يسوغ موقفه المتضارب هذا بمبررات يعرضها أمام مستمعيه ويكررها بوضوح كلما اعترضوا عليه. فهتلر، عنده، هو الظالم الذي أرسله مدّبر الكون كي يحطم الظّلام الآخرين. والظّلام العتاة، في نظر الجدّ، هم الإنجليز الذين يحتلّون البلاد ويعينون الصهيونيين الطامعين بسلبها من أيدي أصحابها. وكان الجدّ يرى في حملة هتلر على اليهود إضعافاً للصهيونيين، فإذا ضعف اليهود في البلدان التي يجيئون منها إلى فلسطين انكسرت شوكة الصهيونيين واستراح أهل البلاد من بلاياهم. وفي تمسكه بقناعته، كان الجد يأبى أن يصدق ما تنشره الجريدة أو تذيعه إذاعة القدس وإذاعة الشرق الأدنى اللتان يشرف عليهما الإنجليز من أنباء الفظائع التي يرتكبها هتلر بحق اليهود. وقد دأب الجد على أن يردد كلما تبسطت مصادر الأنباء في عرض هذه الوقائع: "هذا كله بروباغندا، الإنجليز الذين يتهمون هتلر هم أظلم منه". سأفهم مواقف الجد هذه حين أكبر. أما في حينها فقد كنت أصغي إلى حديث جدي السياسي فلا أفهم منه إلاّ القليل، ولكني التقط الكلمات الغريبة وأحفظها، حتى إذا التحقت بأقراني الصغار رحت أرددها أمامهم متبجحاً. وكانت أعسر الكلمات على فهمي هي هذه البروباغندا التي لم أفهم معناها وإن أدركت، على نحو غامض، أنه سلبي. وقد صرت أقذف هذه الكلمة في وجه أي واحد من أقراني حين يروي شيئاً لا يدخل المخ :"أنت، مثل الإنجليز، بروباغندا" وأشعر بالغبطة، إذ أظن أني أتفصحن.

أما أكثر أحاديث جدّي عبد المجيد تشويقاً واجتذاباً لي فكانت تلك التي يروي فيها وقائع سفراته ومشاهداته في الشام وشرق الأردن. لقد استحوذت حكاياته عن دمشق الشام على خيالي زمناً طويلاً، وارتسمت للمدينة في مخيلتي صورة ثابتة: فالشام مدينة كبيرة لا حدود لاتساعها، وفيها دور لا تعدّ ولا تحصى، جميلة وفخمة، تكتنفها الحدائق من أنحائها كلها. في الشام يجيء الماء إلى الدور من تلقاء نفسه فلا تتعب النساء في نقله إليها. ففي كل دار قناة يغرف أهل الدار منها ما يحتاجونه إليه من الماء. وفي دور الشام حجرات كثيرة، لكل واحدة منها استخدام خاص، واحدة للنوم، وواحدة للأكل، وأخرى لجلوس أفراد الأسرة ومسامراتهم، وغيرها للضيوف. وكل الحجرات مفروشة بأعاجيب الأثاث، والناس تجلس فيها على الكنبات، وتنام على الأسرة، وتأكل على موائد مرتفعة، وتقضي حاجتها في بيوت خلاء مسقوفة، وتستحم في حماماتٍ أرضها مفروشة بالبلاط والماء فيها يسخن من تلقاء نفسه والفائض منه يسيل في مجار محفورة تحت الأرض فيغيض دون أن يخلف أثراً. وكل هذه أمور لا نعرفها في المسمية الصغيرة. وفي دور الشام فسحات مكشوفة يزرع الناس فيها الورود وأشجار الفاكهة، وإذا جلست في الفسحة فأنت جالس بين أشجار التفاح والإجاص والخوخ والدراق والمشمش أو الليمون والنارنج، أو حول أحواض الفلّ والياسمين، أو تحت عرائش الدوالي. ويكفي أن تفتح أنفك لتشم أزكى الروائح أو أن تمدّ يدك لتلتقط أطيب الثمر، حتى وأنت مضطجع. وليل الشام نهار، يضيئه شيء غامض هو هذه الكهرباء التي لم يتوصل خيالي إلى تصور طبيعتها، وهي التي تضيء الدور والشوارع والساحات العامة، دون وقود. أما حكايات الجدّ عن شرق الأردن فلم تكن أقل جاذبية أو إثارة للخيال، فهنا البدو والبوادي والمضارب وبيوت الشعر وقطعان الماشية التي تملأ المروج، الإبل التي تسرح هنا وهناك، وقصص الخطف والثأر المزمنة، والغزوات، والكرم الباذخ، وما إلى ذلك من أجواء تتماوج فيها غرائب الصور.

وكانت في دار الجدّ أشياء كثيرة فتانة لا تجدها في الدور الأخرى. وقد جلب الجدّ إلى الدار أشياء كثيرة مما يُقتنى في دور المدن. فإلى جانب الراديو العجيب، كانت هناك حجرة النوم بموجوداتها غير المألوفة، ففيها السرير النحاسي الضخم وأغطيته المطرزة بعجيب الأشكال والألوان، والخزانة الكبيرة ومراياها الظاهرة والمخفية حيث يمكن أن ترى فيها قامتك بطولها، والزينات المحفورة على خشب هذه الخزانة، وساعة الحائط المنصوبة بغموض على جدار الحجرة وجرسها الخفيّ الذي تدهشني دقاته المتواترة فيستبقني الفضول للاستماع إليها مرات ومرات. وهناك أدوات المطبخ ذات الاستخدامات المتعددة، جرن الكبة الصخري هائل الوزن والحجم ومدقته الخشبية الضخمة، والأنواع

المتعددة من الأطباق الخزفية بالزينات المرسومة عليها، والكؤوس الزجاجية والأكواب متفاوتة الحجوم، وأدوات المائدة الأخرى. وقد احتوت الدار، بعد أن تمكنت الزوجة الشامية من تأكيد حضورها فيها، على أحواض الزرع وأصص الورود، كما عرفت حجراتها الأطر ذات الألوان الذهبية أو الفضية التي تضم مخطوطات من آيات القرآن وأحاديث النبي أو صوراً لمشاهد طبيعية وحيوانات أو لمشاهد من حكايات ألف ليلة وليلة وعنترة وعبلة والزير سالم وعلي الزيبق ودليلة المحتالة. ثم لم يلبث أن أقيم في الدار عجائب أخرى، فصار لها كما في دور الشام مطبخ وحمام ومرحاض، وأُنشىء ممر مسقوف يصل بين الحجرات وتوابعها. وبعد ذلك، جاءت عجيبة العجائب حين ظهرت مائدة الطعام وكراسيها المرتفعة وأطقم الملاعق والشوك والسكاكين والأطباق التي يخصص كل نوع منها لنوع من الطعام. هذه العجيبة وضعت في حجرة مستقلة، ولم تكن تستخدم إلاّ حين يؤم الدار الضيوف الكبار الذين يجيئون من المدن. ومع هذه المستجدات، عرفت الدار أصنافاً جديدة من الأطعمة: الكبب متنوعة الأشكال والحجوم، المشوي منها والممدود في الصواني والمقليّ بالزيت والمطبوخ باللبن، والمحاشي المملوءة بالرز واللحم المفروم، والحلويات المتنوعة التي تذوب في الفمّ دون مضغ وينعشك مذاقها فيحملك إلى أجواء الجنة.

كانت زوجة جدي الشامية، واسمها خيريّة، لا تفتقر إلى ما يجذبني إليها، هي الأخرى. فقد اجتذبتني لهجة السيدة المدينية ذات الرتم الهادئ والجرس الأنيق، وعباراتها التي تتواتر بإيقاع منتظم وصياغاتها الجاهزة التي تؤدي معانيها بطريقة غير مباشرة. وقد تميزت أم عدنان، كما غدت تدعى بعد أن ولدت ابنها البكر، بسلوك منمق ذي سمات مرسومة بعناية وحركات ترافق حديثها وتتواءم معه، بحيث تتفق كل حركة مع العبارة التي تتفوه بها السيدة والمعنى الذي تفصح عنه: يعلو الحاجب أو يهبط، ينكمش أو ينفر، حسب الأحوال، وتنطبق الأجفان أو تنفتح، لحظاتٍ قصيرة أو مديدة، حسب الأحوال، أيضاً. وينبسط الكفّ أو ينقبض، وتمتد الذراع على مداها أو تنثني، أو تنتصب أو تنوس، وكذلك الجذع، وكل هذا يجري بمقدار معلوم، وما من حركة تجيء في غير أوانها أو تزيد أو تنقص عن الحاجة. أما حديث أم عدنان فهو مزيّن، دائماً، بالتحيات والمجاملات التي تزجيها لمجالسيها، وكلها مصيّغة بالتعابير الجاهزة المنمقة الملائمة للمقام، فواحدة للزائر المرغوب فيه، وأخرى مختلفة لمن يجيء دون رغبة في حضوره، واحدة لمن يحلّ في الوقت الملائم، وأخرى لمن يتطفل في الأوقات غير الملائمة، للجليس المحبوب وللآخر غير المحبوب. وكل هذه التعابير تبدو حفيّة، حسب ظاهر كلماتها، لكنها تنطوي على المعنى الذي تريد المتحدثة لسامعها أن يلتقطه. وقد تميزت أم عدنان بالقدرة على إدارة الحديث

والسيطرة على موضوعاته دون أن يبدو أنها تتقصد ذلك. ولهذه المرأة أسلوب خاص في استدراج محدثها إلى الخوض في ما يحب وما لا يحب من سير واستخلاص المعلومات منه دون أن يدرك أنه مستدرج، فإذا شاءت أن تستقصي ما يعرفه محدثها عن شخص أو واقعة ظفرت بهذا دون مشقة، حتى لو كان المحدث كتوماً في العادة ، وإذا رغبت في أن يحمل جليسها حكاية تريد لها أن تشيع، أو أن تصل لشخص بعينه، أثارت شهية الجليس لنقل الحكاية، دون أن يحس بأنه اختير اختياراً لأداء المهمة. بهذه الطريقة، كان بوسع زوجة الجدّ الشامية أن تلم بما يجري في القرية دون أن تنهمك فيه، وتعرف ما يقال عنها وتردّ عليه دون أن تتورط في القيل والقال مباشرة. وهكذا، كانت الغريبة تتدخل في شؤون محيطها وتؤثر فيه، دون عناء ودون أن تحمل أيّ مسؤولية.

وفي ما يتعلق بالشؤون الداخلية للدار، عملت أم عدنان على رسم حدود مملكتها على نحو واضح، وظفرت بهذا مع الوقت، فصار ما لها معروفاً وما للآخرين معروفاً، أيضاً. وقد أعفى موقف جدتي مدللة ضرّتها الشامية من عناء المنافسة المفترضة في مثل حالتهما. ونشأت بين المرأتين علاقة قوامها الأول عدم الاعتداء. ساعد على إنشاء علاقة من هذا النوع أن الجدّة تعففت عن التحريض ضد الضرة وربت أولادها على الاحتفاظ بعلاقة معقولة مع زوجة الأبّ وأولادها.

وبهذا أتيح لأم عدنان أن ترسم المواقف والمواقع وتعيّن الحدود على النحو الذي يروق لها، إلا أنها لم تغفل طبائع الناس أو متطلبات الواقع. وقد جعلت أم عدنان من نفسها سيدة الدار، دون أن يبدو انّها تتعمد مصادرة حق أحد فيها. وميزت المرأة نفسها من الأخريات بما هي ابنة مدينة عريقة وسط قرويين ومتعلمة بين أمّيات والزوجة الأثيرة للوجيه النافذ. وبطريقتها المتسمة باللباقة المدروسة، قننت الزوجة الأثيرة علاقات الجدّ مع أولاده من الزوجة الأولى، بما لا يجعلهم في عوز، ولا يستثير حفيظتهم ضد وجودها، ولا ينتقص من حاجاتها وحاجات أولادها. ونظمت أم عدنان الدار الريفية بحيث تعيش فيها كما تشتهي ابنة مدينة. وقد أعفت الوافدة من المدينة نفسها من الواجبات التي تضطلع بها القرويات، فهي لا تعمل في الحقول، ولا تجلب الماء أو الحطب، ولا تذهب لجمع الفطور والأعشاب البرية، إلا إذا كان هذا بقصد النزهة. أما جناح الزوجة الخاص في مملكتها فكان العليّة، أو الطابق الثاني الذي أضيف إلى الدار، حيث أقيمت حجرة فسيحة لنومها هي والجدّ وصالون صغير ألحق بهذه الحجرة تقضي فيه أوقات فراغها أو تستقبل الأثيرات من صاحباتها. وجعلت أمّ عدنان لزينتها وقتاً ولراحتها وقتاً ولعملها في الدار وقتاً، وخصصت أوقاتاً بعينها تستقبل فيها الزائرات. وكانت هذه كلّها أموراً غير مألوفة في المحيط الذي جاءت إليه. أما زوار الدار من الرجال فلم تكن لها علاقة مباشرة

بشؤونهم. وأما الضيوف الذين يستوجب حضورهم إعداد الموائد فكانت سيدة الدار، هذه، تشرف على إعداد طعامهم وتوفير ما يلزم للحفاوة بهم، دون أن تختلط بأي منهم، لا يستثنى من هذه القاعدة إلا أشخاص قليلون من ضيوف الدار المنتظمين، ممن عرفوا كيف يجتذبون اهتمام المرأة الشامية ويتوددون إليها. وقد لاحظت الشامية القادمة إلى الدار الكبيرة المضيافة أن أعداد الضيوف كثيرة وأنهم يفدون إلى الدار في أي وقت من أوقات النهار والليل دون إخطار مسبق. ولا بدّ من أن يكون ذلك قد ساء المرأة المطبوعة على تقنين كل شيء وبلبلها. وقد صبرت المرأة على هذا الوضع، دون أن تكفّ عن إظهار السخط بطريقتها المألوفة غير المباشرة. وظلت زوجة الجد تتذرع بالصبر وتحتال لحمل الجدّ على تبديل سلوكه، إلى أن ظفرت بإقناعه.

والذي حصل أن الجدّ تعهد أن ينظم الأمور بحيث لا تستقبل الدار من هب ودبّ من الضيوف الطارئين. وانتهى الأمر إلى أن تصير دار الجدّ هي الدار الوحيدة في القرية التي يغلق بابها في كل الأوقات ويحتاج القادم إليها إلى أن يطرق الباب وينتظر من يجيء ليفتحه له. وكان هذا، في القرية، معدوداً بين العجائب الكثيرة التي تكتنف الدار الكبيرة منذ حلت فيها السيّدة الغريبة. ففي القرية، كما ينبغي لك أن تعرف، لا تغلق أبواب الدور في وجه أي قادم إليها، قريباً كان أو غريباً، ولا يحتاج الوافد إلى أي دار لإذن للدخول. أما إذا شاء الوافد نفسه أن يعلن قدومه، لسبب أو لآخر، فإنه يبطئ خطوه حين يبلغ البوابة ويفعل ما ينبه أهل الدار لوجوده، كأن يتنحنح أو يلقي التحية بصوت مرتفع أو يجهر باسم ربّ الدار أو يوجه النداء لأهل الدار كلهم، ثم يدخل عليهم. ومهما يكن من أمر، وبالرغم من التحوطات التي فرضتها أم عدنان، ظلت الدار الكبيرة تجتذب الضيوف، يجيء بعضهم بدواعي العمل، ويجيء آخرون للسمر أو للاستماع لحكايات الجد وأخباره، ومنهم من يجيء ليظفر بأطايب الأطعمة والحلويات التي لا يقع عليها في الدور الأخرى. وقد استخدمت أم عدنان فطنتها لتخفف سيل القادمين من أجل كببها ومحاشيها وحلوياتها، فقصرت تقديم الأطباق الشامية على الضيوف الهامين، وحدهم، وتعلمت أن تقدم للآخرين المنسف التقليدي الذي يستطيعون أن يقعوا على مثله في أماكن عديدة أخرى. وصار بإمكان الوافدة الغريبة أن تجد، دائماً، امرأة أو أخرى لمساعدتها في العمل حين يكون ضيوف الدار من هذا النوع. وفي الختام، تحقق لأم عدنان ما ترضى به، فانتظمت حركة الضيافة على النحو الذي يلائمها وتوازنت، وإن توجب على الجدّ أن يكتوي بلهيب الألسنة النمامة التي تسوطه من وقت لآخر، وتذهب إلى حدّ اتهامه بالبخل والتكبر، أو تصمه بالخنوع أمام امرأة والتنكر لعادات القرية وتقاليدها.

نشأت بين الزوجة الجديدة وفتاة الدار الكبيرة، التي صارت أمي، علاقة من نوع خاص.

اجتذب السيدة القادمة من الشام مظهر الفتاة الحسن وتعففها وإحجامها عن السعي بنقل الكلام في الدار التي قسمها الزواج الثاني إلى معسكرين. كان سن الفتاة وسن الزوجة متقاربين. ولا بدّ من أن الغريبة كانت بحاجة إلى رفيقة، فوجدت هذه الرفيقة في ابنة جيلها وإن تكن ابنة زوجها. أما الفتاة فاجتذبها إلى الوافدة من الشام ما فيها من جديد القول والسلوك، فاستجابت للاهتمام الظاهر الذي أبدته زوجة أبيها بأحسن منه، وصارت نجيّتها ورفيقة سمرها وموضع سرّها. وكانت العلاقة نديّة بين المدينية المتميزة والقروية الطالعة ذات الشخصية الطامحة إلى الاستقلال. اتفقت الصديقتان على أشياء، واختلفتا على أشياء أخرى، وظلت بينهما، بالطبع، دواعي الجفاء الخفية المقترنة بموقعيهما في المعسكرين المتقابلين، إلا أنهما لم تتعاديا ولم تلغيا متطلبات الاحترام. وعندما تزوجت أمي زواجها الأول، حظي أبي، هو الآخر، باهتمام خاص من زوجة عمّه الشامية. هذا الاهتمام ورثته أنا بعد وفاة أبي وترمّل أمي. كانت أم عدنان ترضع ابنها البكر حين جئت أنا مع أمي للإقامة في دار جدي عبد المجيد، وكنت رضيعاً. وقد اعتقدت أمي أني سأنمو أكثر وأظفر بصحة أفضل بمقدار ما أرضع من حليب. وكانت الأم المدفوعة بهذا الاعتقاد تطلب من أيّ مرضعة تلتقي بها أن تخصني بوجبة من حليبها. أما أمّ عدنان فقد تولت إرضاعي بصورة منتظمة وفاء منها لذكرى الراحل واستجابة لرغبة أمي وشفقة على اليتيم. وهكذا، شربت الكثير من حليب هذه المرأة، فصار لها عندي، وفق الشرع والتقاليد، حقوق الأم، وصرت معدوداً بمنزلة ابن من أبنائها. وظلت أم عدنان تحدب عليّ بعد أن غادرت أمي الدار وتوليني عناية خاصة. إن أمّ عدنان واحدة من النساء اللواتي قدر لي أن يكنّ في مقام أمي. وقد كانت، على العموم، أمّاً طيبة.

وفي دار جدي عبد المجيد، كنت ألتقي أخوالي، وكان أكبرهم نافذ ويليه عمر. كان الاثنان يدرسان، كما عرفت، خارج القرية حين وعيت أنا وجودهما. وقد أنهيا، كلاهما، الصف السابع في مدرسة يبنة الابتدائية في السنة التي انتسبت أنا فيها إلى المدرسة. وإذ لم يكن في أي من القرى الفلسطينية، الصغيرة أو الكبيرة، ما هو أعلى من الصف السابع، فقد توجب على الخالين أن ينتقلا إلى المدينة للالتحاق بالمدرسة الثانوية. كان الجدّ، كما عرفت، حريصاً على تعليم أولاده الذكور. ولم يكن لهذا الحرص حدود. فلم يكتف بما حصل عليه الخالان من تعليم حين أتما الصف السابع، بل أراد أن يمضيا حتى نهاية الشوط ويظفرا بالفرص الممكنة كلّها. والواقع أن الفرص لم تكن واسعة ولا كان الظفر بها سهلاً. فالمدن ذاتها قليلة، والمدارس الثانوية في هذه المدن قليلة، أيضاً، والمقاعد المتوفرة في هذه المدارس أقلّ من أن تستوعب الراغبين في التعلم من أبناء المدن ذاتها. ولذا كانت المنافسة في غاية الصعوبة، خصوصاً بالنسبة لطلاب العلم من أبناء القرى. ثم إن الجدّ الذي لا يثنيه أي شيء عن السعي لتحقيق طموحه أراد أن يتعلم ولداه في أفضل

مدارس البلاد، فاختار لنافذ أن يتعلم في الكلية العربية في القدس، وهي أشهر مدارس فلسطين الثانوية وأهمها على الإطلاق، كما اختار لعمر أن ينتسب للكلية الزراعية،أو لمدرسة خضوري الزراعية، في طولكرم، وهي المدرسة الزراعية المرموقة الوحيدة في فلسطين كلها. ولك، إذن، أن تتصور المصاعب التي واجهها الجد، والجهود التي احتاج إليها، والأموال التي أنفقها، كي يحقق طموحه الكبير ويُدخل تلميذين قرويين مدارس يعجز حتى بعض النافذين في المدن عن إرسال أبنائهم إليها.

والحقيقة أن الجدّ خاض معركة حامية ومعقدة دخلت تفاصيلها في موروث القرية من الحكايات واستقرت في ذاكرتها. وضع الجدّ علاقاته كلها وثروته كلها في الميزان، واستخدم براعته وخبراته المتراكمة، حتى أمكن أن يظفر بتنسيب خالي عمر إلى الكلية الزراعية. أما نافذ فقد قامت في وجه انتسابه للكلية العربية عقبة لا يمكن تجاوزها. وقد اتضح للجد، بعد أن ذلل سلسلة من العقبات الأخرى، أن سن نافذ أكبر بسنة واحدة من السن المقبولة في المدرسة الشهيرة. وكان من شأن أي فلاح آخر أن يتراجع، حين يتعلق الأمر بما لا يمكن تخطيه من أنظمة. ولكن جدّي، وقد صرت تعرف طبعه، ما كان من هذا النوع، فهو، إذن، لم يتراجع، بل ذهب إلى المحكمة. وفي المحكمة، جلب الجدّ شهوداً وقدّم أدلة أقنعت القاضي بتبديل سن ابنه. وهكذا انتسب نافذ هو الآخر إلى مدرسة معتبرة، وصار زميلاً لأبناء الصفوة من أغنياء المدن وكبار المتنفذين فيها، وواحداً من المحظوظين القليلين من أبناء وجهاء الريف، وتلميذاً لأكثر الأساتذة شهرة في البلاد. أما تكاليف إقامة الخالين في المدينتين ورسوم الدراسة ومتطلباتها فلم تكن من الأمور التي يتردد جدي عبد المجيد في تحمل عبئها. والواقع أن تكاليف الدراسة في مدارس كهذه كانت مبهظة حتى بالنسبة للأغنياء. فالمدرسة تتقاضى رسوماً عالية ومتنوعة، وتفرض على تلاميذها أن يقتنوا أصنافاً من الملابس تحدد إدارة المدرسة أزياءها وأعدادها، دون تساهل. ولأن كلاً من الخالين أقام في القسم الداخلي في مدرسته، فقد ترتب على هذا دفع رسوم أخرى مبهظة واقتناء أشياء أخرى عديدة مكلفة.

كان هذان الخالان يجيئان إلى المسمية الصغيرة خلال العام الدراسي في عطلتي المدارس، في الشتاء والربيع، فيبقيان معنا أسبوعين في كل مرة. وما كان تخلف المواصلات في البلاد يسمح لهما بأن يجيئا في العطل القصيرة، في الأعياد أو في نهاية الأسبوع. وكان الجدّ والأقرباء والآخرون يحتفلون بالابنين النابهين عند مجيئهما في أسبوعي كل عطلة كما يحتفلون بالضيوف الأعزاء، وسكان القرية يتبارون في تكريمهما والاحتفاء بهما. وكانت تلك بالنسبة لي أوقاتاً مميزة، حقاً، أوقات مباهج متصلة، لا تتوقف إلاّ في ساعات النوم. وكنت بالطبع أصحب الخالين في غدواتهما وروحاتهما، وألحظ اهتمام الناس

بهما، وأفرح وأتمتع، أما في العطلة الصيفية، وهي في فلسطين شهران ونصف الشهر، فما أكثر ما كان يوفره لي وجود الخالين العزيزين من مباهج ومشاغل لذيذة.

خالي الثالث من أبناء جدتي هو غالب ولا يكبرني إلا بسنتين أو ثلاث. وكان في طبع غالب منذ صغره شيء لا أحبه، شيء غامض لا تتبينه ولكنك تنفر منه دون أن تعي السبب. نشأ آخر أبناء الجدة في الوقت الذي استحكمت فيه القطيعة بينها وبين الجد، وتوزعت أطراف الأسرة المنقسمة اهتمامات الطفل، وتركت بصمات عميقة على شخصيته وسلوكه، وراح هو يوزع ولاءه هنا وهناك دون أن يكون مخلصاً إخلاصاً حقيقياً لأي طرف.

باختصار، نشأ غالب طفلاً نهّازاً للفرص، يستجلب لنفسه المنافع الصغيرة من خلال السعي بين المتنابذين والظهور أمام كل واحد منهم بوجه مختلف. كان الطفل يمالئ الجدّة بالتودد المفرط، وزوجة الجد بإظهار الإعجاب المبالغ به، ويمالئ الجد بالولاء الزائد. وكان غالب شديد الذكاء، فكان يسعى بالمتناقضات دون أن يكشف نفسه، ويحقق لنفسه مكانة من يحتاج الجميع إلى خدماته فلا ينبذونه حتى لو كشفوه. وكان الطفل الذكّي، إلى هذا، جريئاً، بل حتى وقحاً، فهو لا يتهيب ولا يتحرج، بل يعالج الأمور على نحو أو آخر حتى يبقي على صلاته بالجميع في وقت واحد ويظفر بمكافآتهم الظاهرة والخفية. ولكي يضمن غالب استمرار الوضع الذي يريحه، اهتدى بوعيه الطفلي إلى حقيقة أن الكبار يحتاجون الصغار، فجعل من نفسه مفيداً للنافذين من أهل الدار الكبيرة، وتعامل مع الآخرين بصلف وتكبر. وكان غالب، بالنسبة لأبيه، اللاقط اليقظ الذي يجمع أخبار الدار في غياب الأب ليطلعه عليها حين يعود، وكان، بالنسبة لزوجة الأب، المداح الذي يشيد أمامها بإنجازاتها وابتكاراتها في الدار، ويتصدى، في حضورها، للآخرين حين يرون أن ما تفعله غريب. أما بالنسبة للأم فهو الصبي الحنون الذي يدفئ حضنها ويهدهد روحها مستفيداً من غياب حبيبيها الكبيرين عن القرية. وأما بالنسبة لأطفال الدار، فهو لسان الكبار السباق إلى انتقادهم حين يكون لدى هؤلاء الكبار ما يؤاخذون أطفالهم عليه، وهو المراقب الذي ينقل للكبار أخبار الصغار حين يرتكبون أخطاءهم خارج الدار، يفعل ذلك بدعوى الحرص على سلامة سلوك إخوانه والترفع عن مشاركتهم النشاطات الشاذة التي لا تليق بأبناء الوجهاء. وإذ لحظ هذا الخال أن لي عند الجدّ وأهل الدار الآخرين منزلة خاصة، حاول أن يشركني في نشاطاته، فلما واجه تمنعي اكتفى بأن يعمل على تحييدي حتى لا يفسد تزمتي مؤامراته الصغيرة، وصار يتجنب الاختلاط بي، ويستثنيني من دسائسه، ويحرص على أن لا أعرف ما يقوم به. وحين كنت أعرف ما يغيظني من أفعال غالب وأنتقده، كان هو يواجهني مباشرة، كان يطلب مني، بصراحة، الصمت، ويهددني بخلق المتاعب لي إن أفسدت خططه. والواقع أن الجد والجدة، كليهما، وكلاً من جانبه،

وكذلك الكبار الآخرين، كانوا يحبّون هذا الولد ويغضون الطرف عن صغائره ويستجيبون لطلباته حتى حين تبدو هذه الطلبات شاذة. أم عدنان، وحدها، هي التي اكتشفت طبيعة غالب المفسدة، منذ وقت مبكر، فصارت تتعامل معه بواقعية سافرة: تستفيد منه وتستخدمه، كلما لزم الأمر، وتدفع له الثمن، دون أن تتكلف تصنع المودة.

على النقيض من علاقتي بغالب، اتسمت علاقتي بخالتي شفيقة، وهي أكبر من غالب بسنة أو سنتين، بحلاوة المودة وعمق الحبّ وسلاسة التفاهم واستقامة التعامل. نشأت شفيقة في الجوّ ذاته المسممّ بالتنابذ الظاهر والخفيّ بين أطراف الأسرة، إلا أنها لم تتبع النهج الذي اتبعه أخوها الصغير نهّاز الفرص، بل نهجت نهجاً مغايراً تماماً. تميزت شفيقة منذ طفولتها المبكرة بمبدئية صارمة وطبع حاد وعواطف صاخبة تفصح عنها بوضوح ما بعده وضوح. وكانت شفيقة هي الوحيدة بين أبناء الجدّة التي لم تستجب لتعاليم أمّها بمداراة زوجة أبيها. وقد أظهرت شفيقة لزوجة الجدّ العداء السافر بغير مواربة، ووقفت بجانب الجدّة المغدورة دون تساهل. وفي ما يخصني، لعبت شفيقة في حياتي دور الأخت الكبرى، أنا الذي لم يكن لي أخ أو أخت. فعلت البنت المستقيمة ذلك دون اصطناع، لأن هذا هو الدور الذي هيأتها طبيعتها للقيام به. ولم تحطني أختي وأخت أمّي، هذه، برعايتها وحنانها، فحسب، بل ندبت نفسها، أيضاً، لصون حقوقي والتصدي لمن تعتقد أنه يعتدي على هذه الحقوق، وتولت الدفاع عني حتى حين لم أكن أنا أحس بما يستوجب الشكوى من جانبي. وقد تعاملت أنا، أيضاً، مع شفيقة بوصفها أختاً لي، حتى أنني لم أكن أسميها، حين أخاطبها، خالتي بل أستخدم اسمها المجرد، كما يفعل الأخوة. وكانت مواقف هذه الأخت تبهجني بما توفره لي من حماية وما تحمله من تعويض عن الإحساس باليتم وغياب الأم الوالدة. إلا أن من هذه المواقف ما كان يحرجني في الوقت ذاته ويبلبلني. وأنا أتذكر مرة جئت فيها إلى الدار الكبيرة وكنت في قمة النشوة حين وضعني موقف من مواقف شفيقة في قاع الحرج. يومها، تلقتني أم عدنان مرحبة كعادتها، ثم أخذتني إلى المطبخ، وقدمت لي طبقاً من أطايب مأكولاتها مما كان قد فاض عن وليمة كبيرة شهدتها الدار في اليوم السابق. وكنت آكل بشهية، كما كنت، حقاً، في غاية الاستمتاع، حين دخلت شفيقة، ابنة الأعوام التسعة أو العشرة إلى المطبخ. ولم تلبث شفيقة سوى لحظة ألقت خلالها نظرة عن طبقي، ثم اندفعت، مثل نمرة مهتاجة، وشالت الطبق من أمامي وألقت بمحتوياته على الأرض بصخب، وصرخت في وجه أم عدنان بصوت هيّجه الحنق: "ابن الأكابر لا يأكل فضلات الموائد، وإذا كنت تجهلين من هو أبوه وجدّه وجدّ جدّه فالمسمية كلّها تعرفهم". وحين تدخل الجدّ الذي اجتذبه الصراخ المشتعل في المطبخ، صرخت شفيقة في وجهه هو الآخر: "يا ليتني كنت بغير أب! ما الذي جرى

لابن الأصول حتى يسمح لهذه الغريبة بالتحكم في ذريته؟". قالت شفيقة ذلك ثم قعدت وهي تشدّ شعرها وتبكي وتندب سوء ما آلت إليه الأحوال، دون أن ينفع شيء في إطفاء هياجها. ووجدتني مدفوعاً لأن أقعد بجانب نصيرتي وأبكي، أنا الآخر، وإن لم أفهم سبب اهتياجها.

على العموم، كان في دار جدّي عبد المجيد، حين كنت أقيم فيها، ثم حين صرت أجيء إليها زائراً، الكثير مما يحببها إليّ، وكنت في الحالتين معدوداً، بين أهل الدار، واحداً من أعضاء الأسرة.

-٧-

يشبع الضيف وتجوع أسرة المضيف

خارج هذه الدور الثلاث، كان في القرية أشياء أخرى وناس آخرون يثيرون الاهتمام.

وقبل أي شيء آخر، كان هناك شلل الأولاد وكانت هذه تكبر أو تضيق، يزيد عددها أو ينقص، حسب الأحوال. وكنا نحن أبناء الحمائل المتعددة نشكل شللاً موحدة حين تكون العلاقات رائقة بين الحمائل، وإذا تعددت الشلل فمن أجل تنويع الألعاب والنشاطات وليس بداعي التنابذ. أما حين تقع الخصومات ويتجافى ناس الحمائل فقد كان هذا ينعكس على علاقات الأولاد بعضهم ببعض فيقسمهم بدورهم إلى شلل متخاصمة ومتجافية. كنّا نتأثر بالمحيطين بنا بدراية أو بغير دراية، وينحاز كل منّا لأقربائه. وكان الأهل أنفسهم يأمرون الأولاد بالابتعاد عن أولاد الخصوم، ويتشددون في مراقبة تنفيذ أولادهم للأوامر.

وقد كنّا نحبّ أن نمضي ما يتيسر من أوقات الفراغ خارج الدور، لا لأن الدور تضيق بنا وبصخبنا، فحسب، بل لأن الابتعاد عنها يحررنا من رقابة الكبار، ويفسح المجال الواسع كي نلهو على هوانا، وننوع ألعابنا، ونتفنن في ابتكار المغامرات. ففي خارج الدور، فقط، كنا نظفر بالحرية، فنتعاون دون منغص، أو نتنازع دون رادع، أو نتنافس دون رقيب، نفعل هذا وذاك وغيرهما، ونجد، في نهاية المطاف، اهتمامات مشتركة.

في أوقات تخاصم الحمائل، كنا، نحن أولاد سلمان، نتجمع وننتقي شركاءنا في اللهو من أولاد الحمائل الحليفة، وإذا تطفل علينا ولد من حمولة مخاصمة، كنا نطرده بغير رحمة،

فتنشأ الخصومات بين الصغار أنفسهم ويقع الشجار، وقد يتطور أي شجار إلى قتال، فتتطاير الحجارة في فضاء القرية أو تتواجه العصيّ، وكان للقتال بين الألاود، مثله مثل تقاتل الكبار، أصول وتقاليد، لها في أغلب الأحوال. قوة القانون النافذ. إذا تساوت القوى جرى القتال بالأيدي أو استخدمت العصيّ. وإذا تفاوتت القوى أو بدا ميزانها غير واضح، فالفريق الأضعف يؤثر أن يرشق الفريق الأقوى بالطوب والحجارة من بعيد، فيضطر الأقوى للرد بالسلاح ذاته، حتى إذا خارت القوى ودبّ الذعر في نفوس أعضاء الفريق الخائر، هجم الفريق القوي وطارد المهزومين ودفعهم إلى الاختفاء في الدور، إن كانت قريبة، أو إلى التشتت في الحقول أو الاختباء في الحواكير والبساتين. أما إذا كان الخلل في ميزان القوى كبيراً، كأن تخاصم شلة صغيرة من الأولاد مجموعة كبيرة منهم، فالأسلوب المفضل كان هو الكمائن، يعدّها أفراد الأقلية ويترصدون أفراد الأغلبية حتى يتم الاستفراد بواحد أو بعدد قليل منهم.

وسواء أكنا ضاربين أم مضروبين، غالبين أم مغلوبين، فإن آثار الاقتتال لا بدّ من أن تظهر على أجسادنا وملابسنا. والحقيقة أن الواحد منا قلّما عاد إلى داره بالمظهر ذاته الذي غادرها به. وكانت ردود فعل الأهل تتنوع تبعاً لأسباب الاقتتال وتنوع نتائجه. فالتعنيف لا يقع، وإذا وقع يكون هيناً، حين يعود الواحد منا إلى داره منتصراً على خصوم يعد الأهل أسرهم من الخصوم. بل إن التعنيف في هذه الحالة يمتزج ببعض العبارات المشجعة. ويظل التعنيف هيناً حتى حين كنّا نعود بعد معركة كهذه مهزومين، وغالباً ما كان يقتصر على التنديد بالجبن وقلة الحيلة، وقد يمتزج ببعض العبارات المواسية. أما الاشتباكات التي نشترك فيها لحسابنا الخاص دون أن يكون لمشاعر الأهل دخل في تأجيجها، فهي التي كانت تعرضنا للعقوبات الشديدة وتسبب سخط الأهل، لا يختلف الأمر، في هذه الحالة، حين نكون ظافرين أو خاسرين. وأما أشدّ العقوبات فهي التي كنّا نتعرض لها حين نشتبك مع أبناء الذين يعدّهم الأهل أصدقاء أو حلفاء لهم. في حالة كهذه، لا بدّ من أن تشتمل العقوبات، فضلاً عن التقريع والضرب المألوفين، على الحرمان من أشياء نحبّها أو نحتاج إليها، كأن يُمنع الواحد منّا عن الخروج من الدار، أو يحرم من وجبة طعام، أو من تنفيذ وعد بالحصول على نفقة أو هندام. بالرغم من ذلك كلّه، ما كان لشيء أو لعقوبة أن يمنعانا عن الاندفاع إلى الاقتتال كلما وجدنا سبباً لذلك. ألفنا العقوبات وتعودنا على التقريع، فلم نعد نقيم لها وزناً، والمتعة التي يوفرها التخاصم، مثلها مثل المتع التي يوفرها اللعب، لا يقلل من لذائذها أي حرمان يفرضه الأهل. وكان المهم، في بداية الحساب ونهايته، أن نأخذ حريتنا خارج الدار. وكنا ندرك، بالخبرة، أن الأهل يضيقون بطول مكوثنا بينهم مثلما نضيق نحن به. ولو تعمد الواحد منا أن يبقى في الدار مدة طويلة لدفعه الأهل إلى الخروج منها دفعاً.

كانت أسباب الخصومة بين الأولاد، عدا تلك التي تنتقل من أجواء الكبار إلى الصغار، عديدة. في المقدمة، كان الحسد. والحسد في الأوساط المحرومة لا يفصح عن نفسه بوضوح إلاّ إذا أجّجه التفاخر. يكفي أن يلبس أحدهم هنداماً جديداً في غير أيّام الأعياد، أو ينفرد بلبس حذاء فيما الآخرون حفاة، أو تفوح منه رائحة اللحم الذي أكله في غير المواسم التي يؤكل فيها اللحم، أو ترنّ في جيبه الملاليم والقروش، حتى يصبح موضع حسد أقرانه، بمن فيهم أقرب المقربين إليه. فإذا تباهى المحسود بما أتيح له من نعم لم تتح لسواه، استفزّ مشاعر المحرومين فانفجر الخصام، والخصام يقود إلى العراك والاقتتال. كان من النادر أن يخرج الواحد منا بهدم جديد ثم يعود به إلى الدار وهو محتفظ بأناقته. وفي الأعياد، حين يتهيأ لأغلب الأولاد أن يلبس شيئاً ما جديداً، أو شيئاً حفظ من أجل العيد فاحتفظ بشيء من جدته، وأن يأكل اللحم وأن يظفر ببعض القروش والملاليم، فإن أسباب الخصام لا تنتهي مع هذا، إذ يظل، حتى في هذه الحالة، محرومون لا يتهيأ لهم ما يعيّدون به، ويظل التفاوت في جودة الهندام الجديد وحسن تفصيله، وفي مقدار النقود، ويختلف الأولاد حول تقييم ما تيسر لهم. وبهذا كلّه، يثور الحسد وتتوفر أسباب التباهي والخصام. بل إن الحسد يشتدّ لأن حساسية المحظوظين والمحرومين تشتد في أوقات كهذه. وإلى كل ما تقدم من أسباب، كانت هناك المنازعات التي تنشأ أثناء اللعب. ولهذا النوع من المنازعات طابع خاص، إذ يكاد يقتصر، في أغلب الأحوال، على التصايح وتبادل الشتائم، وإذا اشتد فلن يعدو التدافع بالأيدي. ذلك أن النزوع إلى استئناف اللعب يكون، في العادة، أقوى من الحاجة إلى المحاجة، فيحول دون الاقتتال الذي يوقف اللعب.

كنا نلعب "الكورة"، أو كرة القدم، وإذ لا تتيسر لنا الكرات المصنوعة من المطاط أو الجلد إلا في حالات نادرة، فغالباً ما كنّا نستخدم كرات مصنوعة من لفائف الخرق. ولم نكن نعرف أنظمة اللعب، ولا أصوله، وغاية ما كنّا نعرفه هو العمل على ركل الكرة وتوجيهها في اتجاه مرمى الفريق المقابل ومحاولة تسجيل الأهداف. يختار الواحد منا الفريق الذي ينتمي إليه، ويتشكل فريقان، دون الانتباه إلى تساوي العدد أو تعادل الإمكانات من حيث الأعمار وأطوال القامات ودرجة إتقان اللعبة، وقد لا يعجب الواحد منا الفريق الذي ينتمي إليه، أو قد يتشاجر مع أحد أعضائه، فينتقل إلى الجهة الأخرى. كانت اللعبة قد دخلت فلسطين، ثم شاعت بتأثير وجود البريطانيين فيها ووصلت إلى أصغر القرى. وكنا، ونحن نلعب، نختلف على أي شيء، فيتدخل الحكم، فإذا لم يعجبنا حكمه نستبدله بآخر. وكانت في جعبة كل منا حصيلة وافرة من الشتائم، ومنها ألفاظ إنجليزية التقطناها دون أن نفهم معناها.

الأنشطة المشتركة الأخرى كان أمتعها الجولات التي نقوم بها هنا وهناك، داخل القرية أو في الحقول، ننطلق في هذه الجولات حين لا يكون البرد أو الحرّ شديدين. وفي ليالي الصيف، حين تمتلئ الأجران بنتاج الحقول، كان لنا شأن آخر. ففي هذه الأوقات التي تروق فيها أمزجة الكبار وتهدهدهم الآمال الخلاّبة، كان الأهل يأذنون للصغار باللعب خارج الدور حتى ساعات المساء المتأخرة، وكانت الألعاب أقرب إلى الاحتفالات.

كانت الدور تلفظنا حين يتوجه الرجال إلى العمل في الحقول، أو يلتقون في المضافات للسمر أو للتباحث في الشؤون التي تهمهم، وتنشغل النساء بالأعمال المنزلية، أو يتحلقن في الأفنية ويتجاذبن الحديث ويتبادلن الأنباء والنمائم. وكنا نجتمع في ساحة القرية، ثم توزعنا الأمزجة وتأثيرات الظروف والرغبات المتفقة والمتباينة على فرق متعددة. وكان من هذه الفرق ما يتوجه إلى البساتين والبيارات المتطرفة ليتلذذ بالسطو على ثمارها، ومنها ما كان يؤثر التسريح في البراري والبحث عن الأعشاب والفطور والثمار البرية والزهور النادرة، أو ينطلق لمطاردة الحراذين والسحالي، أو متابعة الفراشات، أو مناكفة الحيات اللابدة في جحورها، أو البحث عن أعشاش الطيور وبيوضها. ومن الفرق ما كان يخاطر بدهم خلايا النحل البرّي والتمتع بإيقاع الاضطراب في حياتها المنتظمة وبما يمكن التوصل إليه من عسلها. وكان من الأولاد من تتخطى رغباته المتع البريئة المتاحة، فيتواطأ مع أقرانه على إلحاق الأذى المتعمد بصاحب بيارة أو بستان أو حاكورة والانتقام منه لأي سبب من الأسباب. الأعمال الانتقامية كنا نستعدّ لها استعداداً مسبقاً: نحدد الهدف، ويكون، في العادة، ملك رجل اعتدى من قبل على واحد منا، شتمه أو ضربه أو وشى به للأهل فسبب له عقوبة، ونترصد الرجل وملكه، حتى إذا غاب اقتحمنا المكان المقصود وعثنا فيه إفساداً. هنا، لا يكون المقصود هو جني الثمار والتمتع بها، بل التخريب: حاكورة الخضار نقتلع نباتاتها أو ندوس عليها بالأقدام، والبستان أو البيارة نمرط أوراق الشجر فيها، أو نقصّف الأغصان، أو نكتّ الأزهار، أو نلقي بالثمار على الأرض. وأنت تدرك، دون شك، أن الإعداد لنشاطات كهذه، وكذلك تنفيذها، يتطلبان التصرف بسرية تامة حتى لا يكتشفنا المستهدفون بها أو يشي بنا من لا يوافق عليها من الأقران. ولذا، كان اختيار فريق الانتقام يتم بعناية فائقة، ولا بدّ من أن يكون المشارك فيه من اللصيقين جداً بالولد الذي تعرض للأذى فنظمت الإغارة انتقاماً له. ومن الضروري أن يُنتقى المشاركون من الأولاد الجريئين والكتومين في الوقت ذاته. وبالرغم من الحرص على إجادة الاختيار، ما كان الأمر يخلو من هفوات، كأن يضعف أحد الأولاد فيستنكف عن المشاركة ثم يسارع للوشاية بهم كي يظفر لنفسه بالبراءة، أو كأن يكتشف أولاد فريق منافس العملية كلها فيفضحون القائمين بها، أو كأن تقع عين أحد الكبار على المنتقمين

فينهرهم ويطاردهم ويتعرف عليهم بعضهم أو كلهم، فتقع الفضيحة وتتلوها التحقيقات والعقوبات. في هذه الحالات، كانت العقوبات مشددة، بل مضاعفة، إذ يقتضي الأمر أن يدفع الجناة ثمن سخط الأهل على شقاوتهم وثمن حاجة الأهل لاسترضاء أصحاب الأملاك المتضررين والتعويض عن خسائرهم. غير أن المتع التي يحققها الانتقام، خصوصاً حين يتم على الوجه الأكمل، كانت أشدّ اجتذاباً للنفوس من أن تلغيها المخاطر أو تبطلها أيّ عقوبة، مهما اشتدت.

وإلى هذه وتلك من الجولات، كانت هناك النشاطات المرتبطة بموسم الحصاد. يتبع الأولاد الحصادين أثناء العمل، ويلتقطون ما تخطئه المناجل من سنابل أو ما يتساقط من الأيدي المكدودة، ويجمع اللاقطون غنائمهم ويقايضون بها الباعة المتجولين. بهذا، يمكن الحصول على قطع الحلوى المتنوعة، والدمى والأمشاط والمرايا، أو الزمامير والصفارات والبالونات. وكان هناك التخويض في حقول الخضار، في نهاية موسمها، بعد أن يستنفدها أصحابها، حيث يبقى، دائماً، ما يمكن الوقوع عليه مما يلذّ أكله، وفي حالات خاصة، كان يتهيأ لولد من الأولاد أن يجيء بدابّة، حمار أو بغل أو حتى حصان معتبر، عندها يصبح هذا الولد مَلِكَ الساحة، ويتنافس الأولاد الآخرون في كسب ودّه كي يضمهم إلى فريقه فيتاح لهم ركوب الدابّة وتقليد الكبار حين ينطلقون بها بأقصى سرعتها.

وكما يمكن لك أن تحزر، كان لكل واحدة من هذه الجولات مخاطر تقترن بها، والمخاطر توتر النفوس فتسهل وقوع المنازعات، وقد تستتبع الاقتتال بين الأولاد في البراري.

أما أحلى متعنا الجماعية، وهي المتعة التي تستتبع أشد خصوماتنا، فكنا نظفر بها حين يغيب المشرف على البئر. وقت كهذا كان بالنسبة لنا عيداً حقيقياً. فموقع البئر هو الجنة التي يجتذبنا سحرها في الأوقات كلها: نظام القواديس المعقد، والبغل الذي يرتبط به هذا النظام وحركته الدائبة، والجابية، والصنابير التي يسيل منها ماء الجابية، والحاكورة دائمة الخضرة، والسدرة، نعم، هذه السدرة، المغوية، والوافدون إلى البئر، خصوصاً النساء اللواتي يسهل علينا معابثتهنّ. كل هذه الميادين المتاحة للهو كانت تجتذبنا، والنحل والدبابير، والفَراش، وأصناف الهوام الأخرى المتعددة، وكذلك الطيور التي تعشش في الموقع أو ترتاده للشرب أو الاستراحة، وفراخها، وبيوضها، هذه جميعها كانت أهدافاً حيّة تؤجج فضولنا وتلهب شوقنا إلى المغامرة وتجتذبنا إليها. كنا نذهب إلى البئر في أي وقت، لكننا لا نحظى بالحرية التامة إلا إذا غاب المشرف وتخلصنا من رقابته الصارمة. وكان الحقل الملحق بالبئر مركز جذب خاصاً لفضولنا ومعدنا الخاوية. وكذلك البغل الذي يمكن أن نمتطيه وهو يعمل أو نوقفه عن الحركة فيتوقف نظام العمل كله.

وكلما حانت الفرصة، كنا نتهافت على منطقة البئر تهافتاً ونتوزع أركانها كأننا قوة احتلال تحكم سيطرتها على موقع مرغوب فيه، فينتشر بعضنا في الحقل، فيقتلع جذور الجزر والشمندر والبطاطا، أو يقطف أوراق الفجل والبصل اليانعة، أو يحيط بثمار الخوخ والدرّاق والتفاح والإجاص والتين. وتجتذب السدرة البعض فيمتطي أغصانها، ويجمع دومها الذي نسميه التمامير، ويعابث الطيور ويبحث عن صغارها وبيضها، ينشغل بعض الأولاد بالبغل، يعتلون ظهره، أو يرغمونه على إبطاء حركته أو تسريعها، ويتلذذون بمراقبة الخلل الذي يحلّ بنظام القواديس وحركة انسياب الماء في الجابية، ومنهم من يوقف البغل فيتوقف انسكاب الماء، وذلك حباً بالأذى أو رغبة في إتيان ما هو غير مألوف، ليس أكثر، ويتوجه أولاد إلى صنابير الماء يزاحمون النساء الوافدات لملء جرارهن ويعابثوهنّ، يغسلون أذرعهم وسيقانهم ورؤوسهم بالماء، ويتعمدون أن يبلل رشيش الماء ثياب النساء، ويطيلون العملية ما أمكنهم ذلك، وينصرف أولاد لمناكدة النساء بطرق أخرى، يعقدون حطات النساء المتجاورات بعضها ببعض دون أن ينتبهن لذلك، يقومون بالعملية بينما المستهدفات يتبادلن الحديث وينتظرن امتلاء الجرار، حتى إذا عزمن على الانصراف انزلقت الحطات المعقودة، وتهاوت الأواني الفخارية عن الرؤوس، ووقع الهرج والمرج الشجّيان. والأكثر جرأة من الأولاد كان يصعد الدرجات إلى أعلى الجابية ويلقي نفسه في مائها. وتتوفر لكل ولد الفرصة لمطاردة الحشرات والهوام وإلقاء القبض عليها. وكان من هواياتنا المشوقة مطاردة النحل والدبابير و الإمساك بها حيّة وانتزاع عسيلاتها السامّة، ثم ربط أرجلها بخيط وإطلاقها لتطير على مزاج الممسك بالخيط وفي الاتجاه الذي يريده.

غير أن فرحتنا باحتفالات صاخبة وشيّقة كهذه ما كان لها أن تدوم، فالصخب الذي يستشري مع حلول الأولاد بالموقع والأذى الذي يحدثونه يستثيران مقاومة المتأذين. وما كان لغارة كهذه أن تنتهي دون حادث ما: طبيعي، كأن ينقصف غصن ركبه ولد فيسقط راكبه، أو يتعرض ولد آخر لرفصة من البغل، أو لسعة حشرة، أو بشريّ، كأن تثور امرأة تأذت فتخرج عن طورها وترد للولد الذي آذاها الصاع صاعين. وفي كل الأحوال، كان الاحتفال كله ينطفئ حين يظهر المشرف على البئر. وفي العادة كان المشرف يطبّ فجأة فيما الأولاد مستغرقون في اللذائذ وقد بهت حذرهم، ويبدأ في المطاردة، ويا ويل من يقع في يده! وبعد الاحتفال، تكون عقوبات الأهل في الانتظار، فهم يتلقون شكاوى النساء ويساندون حاجة المشرف إلى الاحتفاظ بالنظام في الموقع الذي ترتبط به حياة القرية. والذين ينجون من يد امرأة ثائرة أو مشرف مغتاظ قاسي اليدين يقعون في أيدي أهليهم وكنت وحدي، بين من قد تلتقطهم يد المشرف، الذي ينجو من قسوتها. كان الرجل ينظر إليّ وفي عينيه مزيج من اللوم والشفقة: "لا أمدّ يدي عليك يا ابن رشاد، رحم الله الرجل

الطيب، انقلع !"، وأنا أشعر بأن العقاب أهون من هذه المعاملة الخاصة. كان الرجل زميل أبي أيام الثورة.

ومن المناسبات التي لا تحلّ كل يوم، لكنها توفر لنا حين تتيسر ألواناً شتى من المباهج، زيارات الضيوف الذين يأتون من أماكن بعيدة، ممن تربطهم بالأسرة علاقات قرابة أو نسب أو صداقة حميمة. هؤلاء ضيوف تقترن زياراتهم بالتوتر اللذيذ وتكسر رتابة الحياة المألوفة فضلاً عن أنهم يحملون هدايا ويقيمون مدة أطول مما يقيم الزائر العابر أو الضيف الغريب، فيطيلون أمد ابتهاجنا بالزيارة. وكان هؤلاء، إلى هذا وذاك، يخصوننا، نحن الأولاد، بعطايا نقدية، فتتوفر لنا في أيام إقامتهم ملاليم كثيرة، وربما قروش، وحتى شلنات في بعض الأحيان، فننفقها دون محاسبة أو مراقبة، كأننا في أيام عيد. وماتزال ذاكرتي تختزن صوراً واضحة قوية الحضور لثلاثة من هؤلاء الضيوف، ممن كانت زياراتهم للمسمية الصغيرة تتواتر بانتظام، وكنت أترقبها بتوق شديد. كان هؤلاء أحبّ الجميع إلى نفسي، وكانت زياراتهم لنا أنفع الزيارات وأبهجها.

واحد من الثلاثة رجل من "بيت دراس"، القرية التي تبعد عن المسمية الصغيرة، وفق حسابات مخيلتنا، نحن الأطفال، مسافة طويلة. كانت لحسن بارود، وهذا هو اسم الرجل، وهو فلاح متوسط العمر، علاقة قرابة بالأسرة لم أتحقق من درجتها وإن أدركت أنها بعيدة، وإن تكن، في الوقت ذاته، حميمة. ولهذا الرجل وجه صلب التقاطيع حتى لكأنه قد قدّ، حقاً، من الصوان، بل إن لهذا الوجه لون الصوان، بالفعل وبريق الاحمرار الذي يخالطه. وللرجل جسد متين كأنه جسد فتى في مقتبل العمر، وله عينان كعيني فهد، تصدر عنهما نظرة سافرة لا يلتبس معناها على أحد. وهذه النظرة هي أفصح ما كان يصدر عن حسن بارود هذا. فقد كان الرجل قليل الكلام، وأغلب الظن أنه كان عيّاً. وهو لا يتحدث إلا ليوجه تحية، تجيء، في العادة، مقتضبة، أو ليردّ على تحية، فيجمجم بعبارات الرد المألوفة جمجمة يحزرها السامع دون أن يتبين ألفاظها بوضوح. وربما قدم الرجل شرحاً لموضوع سئل عنه، إلا أنه كان لا يفيض في الشرح في أي حال من الأحوال ولا يشبع فضول سائله. يفد حسن بارود إلى القرية مرتين كل سنة في أوقات لا تتبدل، واحدة في أواخر الشتاء وأخرى في أواخر الصيف. وهو يجيء راكباً بغلة لا تتبدل هي الأخرى، ويحمّلها هدايا تتكرر في كل زيارة، دون زيادة أو نقصان. أشولة الزبيب والقطين أو التين المجفف في الشتاء، وسحاحير العنب والتين الطازجين في الصيف، وصفيحة من زيت الزيتون يخص بها جدتي مدللة في كل زيارة، وفخاخ ونقيفات تستخدم لصيد الطيور يصنعها بنفسه من عيدان الخشب ويخص بها الأولاد. وحين يتجاوز حسن بارود المألوف في هداياه فإنه يجلب كمية من أقراص اللبن المجفف (الجميد) ويوزعها على

الجميع. أما نحن الأولاد فكان هذا الزائر يخصنا بتعاريف (أنصاف قروش) معلومة، ينفحنا إياها تعريفة تعريفة في أيام إقامته بيننا. وكانت لحسن بارود في هذا الشأن عادة يتميز بها عن أمثاله من الضيوف. فأغلب هؤلاء يقرنون عطاياهم من النقود بجلبة يقصدون بها أن يعرف الأهل ما يعطونه لأولادهم: لك، يا فلان، هذه الملاليم الخمسة، أو هذا القرش، فتمتع بها! يقولون العبارة بأبهة وصوت مرتفع. أما حسن بارود فيدسّ عطاياه في أيدينا ونحن نقبل يده، أو في جيوبنا وهو يحتضننا، دون أن يشير إلى هذا، لا بصوت مرتفع ولا منخفض. وكنّا، بهذا، نحبّه أكثر من غيره، ونقدر تفهمه بامتنان شديد، ونحس في صلتنا معه بحميمية خاصة.

كان الرجل يبدأ بزيارة جدّتي مدللة، ويشرب قهوتها الطيبة الممزوجة بحليب عنزتها الأثيرة، ويترك صفيحة الزيت وهداياه الأخرى، ثم يجيء لمضافة جدي سلمان فيشرب القهوة المرّة، ويترك حصة هذا الجدّ من الهدايا، ويتلقى الدعوة للعشاء ويقبلها دون مناقشة، ثم يمضي إلى دار جدّي عبد المجيد، فإن وجد الجدّ في الدار دخلها و أدى واجب الزيارة، وإن كان الجدّ خارج القرية سلم الزائر على الأولاد وهو واقف في باحة الدار ووجه التحية للزوجة الشامية وترك الهدايا وانصرف. ومنذ حلوله في القرية، كنت ألتصق بالرجل، أرافقه في روحاته وغدواته ولا أنفصل عنه إلا في أوقات النوم والذهاب إلى المدرسة. لماذا كنت أحبّ هذا الرجل وأتعلق به؟ من الذي يستطيع أن يستقصي دوافع الطفل الذي كنته؟ ربما أحببته بسبب مسحة الحزن التي تتلبسه حتى لكأنها طبقة من جلده ذاته، وربما لأنه، وهو الصامت المزمن، كان يخصني، وحدي، كلما اختلى بي، بحديث يفيض من شفتيه فيضاً. كان حسن بارود متعلقاً ببيت دراس، قريته، تعلقاً غريزياً، فهو يحبّها كما يحبّ الطائر عشّه، وإذا تحدث فحديثه يدور عنها وعن الشؤون الجارية فيها، فتحس أن حبّها ممتزج بدمه امتزاج الزبدة بالحليب الطازج. ومن حديثه عن هذه القرية، صرت أعرف عنها الكثير دون أن أراها، أعرف دورها وحمائلها وناسها، خصوماتها وصداقاتها، جهادها ضد العثماني والإنجليزي والصهيوني. لقد زرع حسن بارود في روحي حبّ القرية التي لم أزرها في حياتي مرة واحدة، وبقي هذا الحبّ في خزين الروح يتعتق بمضيّ الزمن.

قريب آخر اعتاد أن يزورنا بانتظام هو الخال أبو عدنان: شاب من قرية دير الدبّان القريبة من بيت جبرين، يميزه طوله الفاره وقسمات وجهه اللطيفة وذرابة لسانه والتزامه الشديد بآداب السلوك الموروثة. هذا الشاب يتخذ لنفسه زيّ وجهاء القرى فيبدو، أيضاً، مهيباً، بالرغم من صغر سنه. وأبو عدنان من أقرباء جدتي الكبيرة خضرة، التي هي، كما عرفت، من دير الدبان، يدعوها عمتي خضرة ويتشدد في التعامل معها باحترام ومودة،

ولعله يكون ابن أخيها أو شيئاً من هذا القبيل. وبحكم هذه القرابة، يعدّ الرجل من مخولنا ويتوجب علينا أن ندعوه الخال. يبدأ الخال أبو عدنان زيارته هو الآخر بالتوجه إلى دار جدتي مدللة، وكان إذا تحدث عن الجدة يصفها بأنها "الولية"، وإذا نسبها إليه يقول: "وليتنا"، معطياً لنفسه، بهذا حقوق الولاية على ابنة عمته، وعاداً صلته بها وإيثاره إيّاها واهتمامه بشؤونها من باب صلة الرحم التي يحرص عليها هذا المتمسك الشديد بمستلزمات القرابة ومقتضيات التقاليد. ولا يكتفي الخال أبو عدنان بزيارته الأولى هذه للدار التي تقيم فيها "الوليتان"، بل كان يخصهما خلال إقامته في القرية بزيارات أخرى فيطيل المقام عندهما ويتفقد أحوالهما بالتفصيل، فضلاً عما يغمرهما به من الهدايا والعطايا. ويقيم أبو عدنان، حين يزور المسمية الصغيرة، في دار جدي سلمان حيث مضافة الحمولة، كما تعرف، ويخص أولاد الدار بالرعاية ويكثر من عطاياه النقدية لهم، يفعل ذلك بجلبة وبغير جلبة، أيضاً. وقد كانت لي عند هذا الخال منزلة خاصة، فأنا، قبل أي شيء آخر، حفيد وليته، وهذا يرتب لي حقوقاً ليست لأولاد الدار الآخرين. ثم إني ابن رشاد، وقد كان رشاد مجايله وصديقه وربما تزامل هو وإياه أيام الثورة،وهذا يرتب لي، بدوره، حقوقاً إضافية. وكان أبو عدنان يوازن علاقاته بين الجدّين، يقيم عند أحدهما ويكثر من زيارة الثاني، بل يجامل الزوجة الشامية، أيضاً، على نحو لا يفعله الفلاحون، في العادة، حتى لقد كسب ودّها وحظي منها بمعاملة استثنائية. وكان أبو عدنان واحداً من قليلين تجالسهم الزوجة الشامية حين يزورون زوجها. وقد دأبت هذه الزوجة على أن تعامله بحفاوة ولا تخاطبه إلا بعبارة: أخي أبو عدنان.

وكان أبو عدنان يلفت نظر الجميع بقدرته على إتقان الحديث في الموضوعات التي لا يخوض فيها إلا الخبراء، وقد كانت السياسة والشؤون العامة الأخرى في رأس مشاغله. ويبدو أن أباه توفي وهو صغير، فورث عنه منصب المختار، وألف أن يتصرف كما يتصرف وجيه مسؤول. كان حديث الرجل يتسم بأتمّ اللباقة، وهو قادر على الإفصاح عن رأيه، حتى حين يتعارض مع رأي جلسائه، دون أن يسيء لأحد أو يمسّ شعور أحد، ينمق أحاديثه بصياغات مضبوطة، ويضمنها الكثير من الحكم المنتقاة والأمثال المعبرة والأقوال المأثورة ذات المغزى الذي يعزز رأيه، يورد هذا كله بيسر يدلّ على أنه يتقن استخدام هذه الصياغات، فيبهر سامعيه ويجذب انتباههم، فيهزون رؤوسهم دهشة وإعجاباً وموافقة، ويتلذذون بمتابعة مقتبساته المفيدة، ويمتدحون سعة علمه ودرايته، في حضوره وفي غيابه. وكان هو يعرف هذا ويتلقاه بتواضع الواثق من نفسه ويجتهد لكي يحتفظ به، فيحفظ لنفسه موقع الندّ بين من هم أكبر منه.

أما ثالث الثلاثة فهو وجيه من قرية كرتيا، متقدم في السن، لا تربطه بالأسرة قرابة ولا نسب، إلا أنه يعامل معاملة الصديق الأعزّ من القريب. ألف الحاج مطاوع أن يزور المسمية الصغيرة مرات كثيرة كل سنة، فهو لا يفوّت مناسبة تستدعي قدومه، وهو يجيء حتى من دون مناسبة. ولا يجيء الحاج مطاوع ، وحده، بل يصطحب رهطاً من إخوته وأولاده وأقرانه. يفدون، جميعهم، إلى القرية على ظهور خيول أصيلة في موكب يدخل القرية مثيراً في أرجائها الضجيج والعجيج، ويتوقفون أمام دار جدي سلمان بعد أن تكون جلبتهم قد أعلنت وصولهم، فيخف الجدّ أو من يكون في الدار سواه إلى استقبالهم، ونترك، نحن الأولاد، أياً كانت مواقعنا في تلك اللحظات، ما نكون مشغولين فيه، ونسارع للانضمام إليهم، ونتسابق للظفر بلقائهم. يتميز الحاج مطاوع بمهابة هيئته وفخامة ملابسه، وبسلوكه الموسوم بمسحة أرستقراطية ريفية تجعل لحضوره بيننا طابعاً خاصاً يكتنفه إحساسنا بأهمية هذا الضيف، ويوجب علينا التصرف إزاءه على هذا الأساس. أما هدايا هذا الضيف فكانت، هي الأخرى، متميزة. فهو يحمل إلى مضيفيه، كغيره من الضيوف، أجود ما تنتجه كرتيا من الثمار الطازجة أو المحفوظة، ويجيء بكميات وافرة منها فيغرق الجميع، وهو يضيف إلى هذا علب الحلوى التي لا تباع إلا في المدن. وفي زيارة الحاج مطاوع، وحده، كنا نتذوق الكنافة المغرقة بالقطر اللذيذ، والبقلاوة المحشوة بالجوز والفستق الأخضر، وأقراص المعمول الفاخر المرشوشة بمسحوق السكر، وما شابه من أصناف الحلويات الأخرى. وكان من عادة الحاج مطاوع أن يجلب معه هدايا شخصية لآل سلمان، قطع قماش وعطوراً وأدوات زينة، أما عطاياه النقدية للأولاد فهي باذخة، حقاً، لذا كانت زياراته من المناسبات القليلة التي يملك الواحد منا فيها عدداً وفيراً من القروش دفعة واحدة، ويطرب لرنينها الأخاذ في جيبه، ويتباهى بها أمام الأقران.

كان الحاج مطاوع نموذجاً للوجيه القروي الثريّ، يتجلى ثراؤه في جسده وسلوكه، فالجسد ممتلئ، والوجه مورد طافح بعلامات العافية، والهندام متناسق، والتصرفات موزونة، والحديث موشى بالحكم والأمثال. وكان في سلوك الرجل ما يشي بالسطوة الظاهرة التي يمارسها على مرافقيه، وتأدبه إزاء مرافقيه يقترن بثقته بأن مكانته بينهم محفوظة بتمامها. كان هذا الرجل يخصني، هو الآخر، بعنايته، يفعل هذا بوصفي ابن المرحوم والحفيد الأثير لمضيفه وصديقه، ولكنه يبلغ حدّ الإفراط، كان يفتقدني إذا لم أبرز في حضرته من تلقاء نفسي، ويدعوني إلى الجلوس في حجره أو بجانبه، وينصرف لمحادثتي بعض الوقت، فيسألني عن أحوالي، ثم يملأ جيبي بالقروش ويطلقني كي يتفرغ لشؤونه الأخرى. وكانت زيارة هذا الرجل من أهل كرتيا مناسبة نكسبها، نحن الأولاد، كي نتعامل مع العدد الوفير من الخيول الأصيلة التي تحلّ في الدار. كنا نتأمل الخيول

ونحتك بها ونتطوع للمشاركة في خدمتها، فنقدم لها العلف، ونبقى قريبين منها وهي تأكل، ونرافق من يذهبون بها إلى الماء كي تشرب أو تستحم، وقد يتاح لنا، حتى، أن نركبها، فتكون فرحة ما بعدها فرحة!

إن ابتهاج الأولاد بقدوم الضيوف لا يقتصر على ما يتمتعون به من هدايا وعطايا، وحدها، بل إن وجود الضيوف يوفر للأولاد متعاً أخرى عديدة. من ذلك أن قدوم الضيف يستتبع إعداد طعام خاص. وهذا الطعام لا بدّ من أن يتصدره اللحم. واللحم لا يتوفر في غذاء الفلاحين في كل الأيام، فهم يأكلونه في المناسبات الكبيرة أو الخطيرة، كالأعياد والأعراس والمآتم، وحدها. ولم يكن في قريتنا أو في القرى المجاورة كلها دكان واحد لبيع اللحم. والفلاحون لا يعرفون، أصلاً، عادة شراء اللحم بالقطعة. وإذا عرضت مناسبة من تلك التي يأكل فيها الفلاح اللحم، فإنه يذبح عجلاً أو خاروفاً أو جدياً، أو حتى قاعوداً، أو ربما جملاً، ينتقيه مما يملك إن كان من ملاكي المواشي، أو يشتريه بالمال أو المقايضة، أو يكتفي بلحم الطيور. وكان الدم يسيل ورائحة الزفر تنتشر في الأجواء حين يفد ضيف عزيز أو زائر ذو أهمية خاصة.

وللضيافة في القرية تقاليد ثابتة لها قوة القانون الصارم، وفيها، أيضاً، ما في بعض القوانين من سطوة وجور وما في الالتزام بها من إرهاق. فالزائر، كما الضيف، له حق الضيافة، والمضيف ملزم بتلبيته حسب الأصول، يستوي في ذلك أن يكون المضيف ميسور الحال أو بائس الحال، قادراً على الوفاء بالالتزام أو مرغماً على الاستدانة كي يفي به. ولكل زائر أو ضيف مكانة معلومة يحددها نسبه ونفوذه وموقعه في السلم الاجتماعي ودرجة صلته بالمضيف أو مقدار حاجة المضيف إليه. ومكانة الضيف هي التي تحدد مقدار البذخ الذي يضطر إليه المضيف، وليس طبيعة الزيارة. فللوجيه القادم من مدينة أو قرية لا بدّ من إعداد ذبيحة. وتعد الذبيحة، أيضاً، لذوي المراتب العليا من رجال الحكومة، وكذلك للمتسلطين من ذوي المراتب الدنيا الذين تكون الذبيحة بمثابة رشوة لهم وفدية هدفها التخفيف من أذاهم. وهكذا يتكلف المضيف نفقة عجل أو خاروف، أو جدي في أقل الأحوال، إذا زاره حاكم اللواء أو القائم مقام أو مدير الناحية أو ضابط البوليس أو مأمور الضرائب أو محصل الغرامات. ويتكلف الفلاح النفقة ذاتها إذا حطّ في مضافته شاويش أو مراسل وكان من السفهاء الذين لا يتورعون عن التهديد بالتسبب بالأذى. ولمن هم دون مستحقي الذبيحة، تعدّ الطيور: البط أو الإوز أو الدجاج أو الحمام أو ديك الحبش (الديك الرومي)، وليس أقل من ذلك في أي حال من الأحوال. وإذا طالت إقامة الضيف في القرية تناوب أقرباء المضيف وأصدقاؤه دعوته وأعادوا الكرة مرتين كل يوم: ذبيحة أو طيور لغداء الضيف، ومثلها لعشائه، حتى يرحل.

وطبق الضيافة هو المنسف، وهو، على تنوع أشكاله، الطبق الذي يضمّ لحم المواشي، أو الدجاج والأرز وفتيت الخبز: يؤتى بالوعاء النحاسي الواسع، الذي هو الأنجري، ويُفتُّ الخبز الرقيق المصنوع على الصاج ويوضع الفتيت في قاع الأنجري ويبلل بالمرق، ثم يُملأ الأنجري بالرز المسلوق، ويجلل هذا كله باللحم ويسكب فوقه السمن المقدوح من الزبدة، فيكون من هذا كله ما يشبه القبّة الصغيرة. ويشال الطبق الجليل، برائحته الفواحة، إلى المضافة ويوضع أمام الضيف ليؤكد له أن مضيفه عرف مقامه وحفظ له حقه الكامل في الإكرام. وفي التقاليد، لا يأكل الضيوف وحدهم، بل يحضر الوليمة عدد كبير من رجال القرية. وكلما زاد عدد الآكلين عنى هذا أن المضيف يُقدّر مكانة ضيفه أكثر. وفي العادة، يدعو المضيف إلى الوليمة رجال حمولته كلهم، والوجهاء من رجال الحمائل الأخرى وأي شخص آخر له في القرية مكانة متميزة. وفي أغلب الأحوال، حين يكون المضيف من ذوي الأهمية ويكثر عدد المدعوين للمشاركة في الأكل، يوزع الطعام على أكثر من أنجري، فتضم الوليمة، إذن، عدة مناسف، ويجلس الضيف حول المنسف الذي يتصدر المضافة مع أعلى رجال القرية مكانة، ويتحلق الآخرون حول بقية المناسف. وكثيراً ما يفيض عدد الآكلين عن طاقة استيعاب المناسف، هنا يأكل الناس بالتناوب، حلقة بعد حلقة حول كل منسف، وتكون النوبة الأولى، بالطبع، من نصيب ذوي المكانة الأعلى بينهم.

وفي هذا الوضع، بوجود عدد كبير من الآكلين، يمكن أن تنشأ مشكلة. فحتى حين يكون الأمر أمر ذبيحة بكاملها، يتعذر أن تكفي قطع اللحم الآكلين جميعاً، أو أن يحصل كل منهم على ما يلائم مذاقه ويتناسب مع مكانته من هذه القطع. ولحلّ هذه المشكلة، أوجدت التقاليد وظيفة يتولاها في كل مضافة رجل مشهود له بالحصافة. هذا الرجل هو الذي يوزع قطع اللحم على الآكلين حتى تسير الأمور بانتظام ولا يؤدي التنافس على القطع الجيدة، أو نقص القطع، إلى التدافع والتلاسن أو إلى الفضائح. صاحب هذه الوظيفة مهمته أن يصون حقوق الضيوف والوجهاء ويستر ماء وجه المضيف أمام الآخرين حين لا يكفي اللحم الجميع وهم يسمونه المحقق، أي الذي يعطي لكل ذي حق حقه، وهو، عادة، من أهل الدار أو من المقربين إليها، ولا بدّ من أن يتسم بالفطنة ويكون قادراً على إنصاف الجميع. وعلى هذا الرجل، إذن، أن يُلمَّ بالأسس التي تتدرج وفقها مقامات الناس، فضلاً عن خبرته بالأطباع المختلفة والأمزجة المتنوعة بحيث يسهل عليه مراعاة الحالات الخاصة. والمحقق هو الذي ينتقي لكل آكل من المتحلقين حول المنسف قطعة اللحم التي تناسب مكانته. فموزات الساق، وهي في التسمية الشائعة المعلق، للضيف صاحب المقام الأول، وزند اليد للذي يليه، ولوح الكتف للثالث .. وهكذا، قطعة لكل وجيه، واسم خاص لكل قطعة، يضع المحقق القطعة المناسبة أمام الشخص المعني وهو يسميه باسمه ويسميها،

أيضاً، باسمها، ويشفع ذلك بعبارة مجاملة مناسبة: هذا الضلع لك، يا أبو فلان، يا بركة! وبهذا، لا يعرف كل من الحاضرين مقامه، وحده، بل يتعرف، أيضاً، على مقامات الآخرين وتصان للمراتب المتفاوتة اعتباراتها.

والحقيقة أن حصافة المحقق لا تتجلى في إنجاز هذه العملية الروتينية، وحدها، بل إن الحاجة لحصافته تشتد، وتصير ضرورة لا غنى عنها، حين لا يكون عدد القطع مساوياً لعدد الحاضرين. هنا يفي المحقق، قبل أي شيء آخر، بحقوق الضيف والوجهاء الآخرين وذوي الألسنة الطويلة الذين لا يسكتون على ضيم ممن قد يعرّضون به أو بالمضيف إذا لم يخصهم بقطعة لحم. وحين تستنفد قطع اللحم كلها ويبقى في الحلقة، مع ذلك، من لم يظفر بواحدة منها، يلجأ المحقق إلى الحيلة: يلفّ قطعاً من الشحم، أو حتى قطعاً من العظم، بالخبز والأرز ويكوّرها ويقدمها للذين فاتهم قطار اللحم ذاته. يدفع المحقق الحصة الزائفة أمام الرجل المعنيّ، وهو يقول له بصوت جهير: هذه لك يا أبو فلان، خصصتك بها، ويقرن القول بغمزة عين أو لكزة كوع أو ضغطة على اليد، ليفهم الرجل الموقف ويقدر حراجته ويصون سمعة المضيف.

بديهي، بعد هذا، أن لحم المناسف يستهلك كلّه، في أغلب الأحوال، في المضافة. وعندما تُحمل الأناجر، ثانية، إلى داخل الدار، لا يكون فيها إلا بقايا الخبز المفتوت والأرز، هذه البقايا يتناوشها أولاد الدار ونساؤها ومن يحفّ بهم من الجيران، ممن تستدرجهم الرائحة الشهية. وإذا كانت ربة الدار أقلّ كرماً من ربّ الدار المضيف وأقلّ حرصاً منه على إبهاج رواد المضافة وصيانة سمعتها، فهي تعمد، أثناء ترجيد اللحم على المناسف وقبل نقله إلى المضافة، إلى إخفاء بعض القطع كي تخص بها نفسها وأولادها. وقد كانت زوجة جدّي، وضحة الصغيرة، مثلها في هذا مثل معظم ربّات الدور، من هذا النوع، إلا أن جدّي سلمان، صاحب السمعة الذائعة كمضياف أصيل، كان يقف لها بالمرصاد. وقد كان هذا الجدّ حريصاً على أن يشرف بنفسه على إعداد طعام الضيوف، وكان حريصاً، بصفة خاصة، على أن يرجّد اللحم بنفسه، أي ينظم وضع القطع فوق قباب الفتّ والأرز، فيتأكد من وجود القطع جميعها. وقد شا ع هذا عن الجدّ، فأضاف إلى سمعته الطيبة، في الأساس، طيباً إضافياً.

لا يأكل الأولاد، كما عرفتَ، مع الضيوف، ولا ينوبهم من المنسف، في أغلب الأحوال، إلا البقايا التي لا تطفئ القرم إلى اللحم. غير أن الأمر ما كان يخلو من مغانم خاصة ينال الأولاد نصيباً منها. فالذبائح لها رؤوس وأقدام وأياد ومِعَدٌ وأكباد ورئات وكلى وخصاوٍ وطحالات وأمعاء غليظة وأخرى دقيقة، وهذه لا تقدم للضيوف، بل تبقى لأهل الدار فتلبي قرمهم المزمن.

كانت دار جدّي سلمان تستقبل ضيوفه وضيوف الحمولة الآخرين، والولائم تقام في المضافة، سواء تكفل بها الجدّ نفسه أو مضيف آخر من رجال الحمولة، أو اشترك الجميع في نفقاتها. وقد تحقق لي، في هذه المضافة، وضع خاص فرضه جدّي على الجميع حتى رضوا به. لن أطيل عليك بعرض مسوغات الجدّ كلها، يكفي أن أذكر منها المسوغ الأبرز الذي رضخ الآخرون له إكراماً للجد وتقديراً منهم لعواطفه. فلأني الخلف الوحيد لابنه النابه الراحل، صار لي حق مؤاكلة الضيوف، بل صار لي ما هو أكثر من ذلك، وهو الظفر بواحدة من قطع اللحم التي تقدم لذوي المقامات العليا من الحاضرين. يدعوني الجدّ إليه حين يحين وقت تقديم الطعام ويجلسني بين يديه، هو الذي لا يأكل قبل أن يفرغ ضيوفه من الأكل، ويوجب على المحقق أن يقدم لي أطايب الموزات التي يحملها زند الخاروف أو فخذ الطير المحمر بالسمن الفاخر، ويحثني على أن آكل بمقدار ما تستسيغه شهيتي. لا بدّ من أن جدّي كان يجد في هذا بعض التعويض وهو يفتقد الراحل العزيز. وفي ذاكرة القرية إرث غزير من الحكايات عن تعلق سلمان بحفيده الأثير وما كان يفعله الجد من غرائب الأعمال، محمولاً إليها بعاطفته الفياضة إزائي. واحدة من هذه الحكايات تقول إن المضافة استقبلت، ذات مرة، ضيوفاً أعزاء جاءوا إلى الدار بينما كنت أنا سارحاً في الحقول أتجول فيها مع أقراني، ولما حان موعد الطعام، افتقدني الجدّ، فأرسل من يبحث عني فلم يقع أحد عليّ، يومها لم يأكل الجد لا مع الضيوف ولا بعدهم، واكتسى وجهه الأسمر السمح بمسحة أسى لاحظها الجميع وأدركوا سببها. وعندما رجعت إلى الدار في آخر النهار، بكى جدي، ولم يفارقه الغمّ. وفي المساء، وكنت قد نمت، وفد إلى المضافة طارق غريب من هؤلاء العابرين الذين يرحلون سيراً على الأقدام ويلتمسون في مضافات القرى لقمة ومأوى أثناء الرحلة. هؤلاء يقدم لهم في العادة ما يكون قد بقي من عشاء أهل الدار العادي، إن كانوا جائعين، ولا تولم لهم ولائم خاصة. بل إن الضيوف ذوي المكانة المتميزة، أنفسهم، لا تعد لهم الولائم الخاصة إذا وفدوا بعد حلول المساء. غير أن جدّي أدهش السّمار من رواد مضافته في تلك الليلة، كما أدهش عابر السبيل ذاته، حين ضحى بجدي وقدم للعابر منسفاً كاملاً وفق المراسيم التي يحظى بها كبار الضيوف. وعند منتصف الليل، أيقظني الجدّ بنفسه وقادني، وأنا نصف نائم، كي أحظى بحصتي المألوفة من لحم الجدي. وبعد هذا، فقط، أمكن للجد الحنون أن يستريح وينام.

مثل هذه المناسبات كانت تخترق رتابة حياتنا بتواتر يضعف أو يشتد، حسب الأحوال والمواسم، لكنها لا تحلّ في كل يوم. وكانت الاحتفالات بالضيوف تثير البهجة في نفوسنا بعض الوقت، ثم تتلاشى بهجتنا كما يتلاشى الطعم الشيق في الفم بعد أكل الحلوى. وأيام القرية لا تكون كلها أيام ولائم ومناسبات بهيجة، بل إن أغلب الأيام كئيب وممل،

حتى بالنسبة لطفل. وأغلب هذه الأيام يحمل في طياته الكثير مما يبعث على الأسى ويورث الشجن في النفوس. وإذا لم يكن إحساسنا بالأسى سافراً، بحكم أننا ولدنا فيه وتآلفنا معه، فقد كان تأثيره يسكننا، فيستقر تحت الجلود، ويحمل الواحد منا على الانطواء على نفسه، ويسربل سحننا بالكآبة، ويملأ صدورنا بالضيق، ويجعل الطبائع قاسية والسلوك فظاً والعلاقات بين الناس متوترة وقابلة للانفجار، لأي سبب من الأسباب. هذا إذا لم نتحدث عن الأسباب المباشرة للأسى، التي تفرض نفسها على ساحة الشعور وتوتر الأجساد والأرواح.

حدثتك عن الولائم التي يتكلفها الميسورون ويتباهون بها، أو يتكبد المعسرون أعباء نفقاتها على حساب الحاجات الضرورية لأسرهم. فما الذي كانت الأسر تحظى به في وجبات طعامها في الأيام العادية؟

يبدأ نهار الأسرة بالفطور، تتناوله على عجل وبغير احتفال. وطعام الفطور لدى أغلب الأسر وفي معظم الأيام هو الخبز والشاي المحلّى بالسكر، لا يزيد على هذا، إلا في أضيق الحدود وفي أقلّ الأيام. أما الغداء فغالباً ما يتناوله الرجال في الحقول والأولاد في المدارس. يأخذ الرجل عند سروته المبكرة إلى الحقل صرة تعدها ربّة الدار أو فتاتها الكبيرة، وتضم الصرة رغيفاً من خبز الطابون البائت ورأس بصل جاف، أو رؤوساً من البصل الأخضر في مواسم زراعته. وقد تضم الصرة، إلى جانب هذا، أو بدلاً عنه، قطعة من اللبن المجفف، أو بيضة مسلوقة في أحسن الأحوال. وفي الموسم القصير الذي يشهد نضج الخضار والفواكه قد تحوي الصرة حبّة بندورة أو قطعة خيار أو شيئاً من العنب والتين. ولأن الماء غير متيسر في الحقول يأخذ الرجل لشرابه إبريقاً مملوءاً من ماء البئر، فيضطر لأن يشرب الماء ساخناً مع طعامه الجافر، لأن الشمس تكون قد ألهبت الإبريق على مدى ساعات. وفي المدرسة، يأكل الأولاد من صررهم وهي أفقر من صرر ذويهم من الرجال، ويشربون الماء المحفوظ في الخزان المعرض لحرارة الشمس طيلة النهار. أما بالنسبة لأفراد الأسرة الذين يبقون في الدار فالغداء وجبة لا أهمية لها ولا أحد ينشغل بإعدادها، وهي غالباً ما تقتصر على الخبز والماء. تلوك المرأة قطعة الخبز وهي منصرفة لأعمالها المنزلية الكثيرة، ويعلك الأطفال قطعهم وهم يلعبون أو يتعجلون الذهاب إلى اللعب. أما الوجبة الأساسية فهي وجبة العشاء، وهذه يعدّ لها طعام ساخن، ويكون في أغلب الأحيان من العدس المسلوق المطيب بالبصل المفروم والزيت. وتتفنن الطابخات في تنويع وجبة العدس، فيجعلن منها حساء رائقاً يسكبنه فوق قطع الخبز الجاف ويقدمن للأسرة طبقاً من الفتيت، أو يخلطن العدس بالأرز فيقدمن طبقاً مفلفلاً، أو يسلقن العدس والرز سلقاً شديداً، بحيث يتشكل منه طبق طريّ هو شيء ما بين الحساء والمفلفل، أو

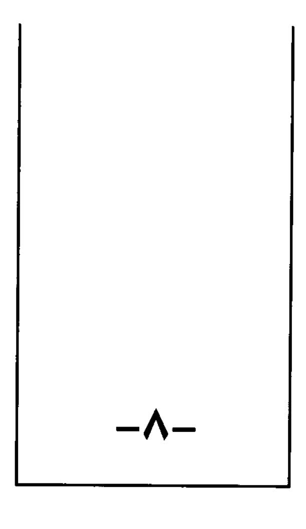
يضفن إلى العدس قطعاً من العجين الخامر، الرشتة. وبهذا أو ذاك، تكسر الطابخات الرتابة. إن مسلسل العدس اليومي، هذا، لا ينقطع إلاّ في موسم نضج الخضار أو ظهور الفطور والأعشاب في البراري. هنا، قد تأكل الأسرة في عشائها البامية والملوخية واللوبياء والفاصولياء والباذنجان والبندورة، التي تسلق وتطيّب بالبصل والزيت، أو تأكل، أيضاً، الفطر والعكوب والخبيزة والمرّار وكعب الغزال المجتناة من البراري، وتطبخ هذه بالزيت مع البصل أو الثوم.

وفي العادة، تكون أيام الشتاء أقسى الأيام، ففيها تختفي الخضار ويضمحل مخزون الدور من العدس فتضطر ربات الدور إلى التقنين الشديد في استخدامه. وتحتال الطابخات على الظروف، فيعددن أطباقاً لا تكاد تفيد في شيء أكثر من ملء المعدة وخلق الإحساس بالشبع وتدفئتها. من هذه الأطباق واحد شهير يدلّ اسمه عليه: ماء وبصل. تقلي الطابخة بصلاً مفروماً مع زيت الزيتون، ثم تضيف إليه ماء وتغلي المزيج فيتكون منه نوع من المرق ويُفتّ فيه الخبز الجاف، فيصير بالإمكان ابتلاع لقمات دافئة دون عناء. ولأمر ما، كان هذا الطبق يلذ لنا، نحن الصغار. وكان الواحد منا، إذا آنس في سيدة الدار مزاجاً رائقاً واستشعر فرصة معقولة للاستجابة، يتوسل للطابخة فتفقس في المرق بضع بيضات، ثم تجلل بها هامة الفتيت. غير أن ترفاً كهذا ما كان يتيسر كثيراً، خصوصاً في الشتاء، حين يشحّ البيض.

أما الفواكه فهي موسمية، ومواسمها قصيرة، شهران أو نحوهما للتين والعنب والبطيخ، ومثلهما أو أكثر قليلاً للبرتقال والمندرين والكريب فروت والبوملي. وفي المسمية الصغيرة الواقعة وسط سهل تزرع فيه الحبوب، في المقام الأول، لا تتوفر الفواكه بكثرة، وهي لا تتوفر، على كل حال، إلاّ لعدد محدود من الناس الذين يملكون حواكير صغيرة يستنبتون فيها الخضار ويغرسون أشجار الفاكهة ويحيطونها بأسيجة من الصبار. ولم تكن عادة تسويق الخضار مألوفة، فكان الناس يتهادونها في المواسم. لقد كانت الفواكه من المتع التي لا تدوم.

الافتقار إلى الغذاء الكافي والمناسب كان يورثنا حالة من الجوع المزمن والقرم الدائم للحم والدسم، وهي حالة طبعت سلوكنا، خصوصاً نحن الأولاد، بطابع يمتزج فيه النهم المسيطر مع الألم والإحساس بالمهانة. وكنّا، حين نتحلق حول طعامنا اليومي مع الأسرة، يدفع الجوع الواحد منا إلى الاستئثار بأكبر حصة من الطعام وسط المتنافسين على الظفر بما في الطبق من عدس أو خلافه، فيما يقتضي أدب السلوك أن يتيح للآخرين الفرصة، دون أن توائم محتويات الطبق مقتضيات هذا الأدب. وهكذا، اكتسبتُ عادة الأكل بسرعة

وابتلاع اللقم دون مضغ أو قبل إتمام مضغها. وكم كانت مؤلمة تلك الأوقات التي يقرصني الجوع فيها فأحوم حول وضحة الصغيرة، وأتحيّن الفرصة الملائمة كي أطلب قطعة خبز. وكان تهيبي وخزات لسان المرأة ينازع حاجتي إلى ملء المعدة، فأظل مشتت المشاعر إلى أن تتغلب قرصات الجوع على التهيب. وليس في دارنا وحدها بل في الدور كلها، كان الخبز يحفظ بعيداً عن متناول الأطفال. ولم تكن وضحة الصغيرة من هذه الناحية هي الوحيدة التي تتجنب الإسراف في منح الخبز، كما أنها لم تكن الوحيدة القاسية، ولا كانت قسوتها موجهة ضدي، وحدي، فأولادها كانوا يلقون المعاملة ذاتها. بل لعلي كنت، بين أولاد الدار، الأكثر حظاً والأوسع فرصة حين يتعلق الأمر بالحصول على ما يؤكل. فقد بقي بمقدوري أن ألتجئ، بين حين وآخر، إلى دار جدتي مدللة، أو إلى دار جدي عبد المجيد، وأحظى، هنا وهناك، بما يطفئ الآم الجوع.



-٨-

لطف الربّ للبلهاء من خلقه

مع الغذاء الذي يفتقر إلى اللحوم والفواكه وتقلّ فيه المواد الأخرى اللازمة لنمو الجسد وصيانته، والذي لا يكون مع ذلك منتظماً، شاعت الأمراض كلّها، خصوصاً بين الأطفال. فإذا أضفت إلى هذا متاعب الحصول على الماء وما يقترن بها من التساهل في تقاليد النظافة، يصير بإمكانك أن تتصور الحالة الصحية بأقرب ما يمكن إلى الواقع. كانت أمراض العيون والجلد والدم والأمراض الصدرية وأمراض الجهاز الهضمي وغيرها مما يفتك بالجسد أموراً شائعة، وكان كثيراً ما تقع العين على طفل أرمد أو معتلّ الصدر أو المعدة أو مصاباً بحكاك أو دمامل أو مسربلاً بالعلامات السافرة لفقر الدم. ومع عدم الاكتراث بإجراءات الوقاية وعدم توفرها، في الأساس، في أغلب الأحوال، تزمن الأمراض وتصير مألوفة. وكثيراً ما كان القمل والبراغيث وشتى أنواع الطفيليات الأخرى تساكن الناس في ملابسهم وحجرات إقامتهم وفرش نومهم، دون أن تلقى مقاومة منتظمة أو تكون وسائل مقاومتها حاسمة التأثير. وقد أسهم هذا، خصوصاً، في تعميم الأمراض ونشر الأوبئة وتقصير أعمار الناس، كباراً وصغاراً، وفتك بكثيرين من الصغار، قبل أن تزهر حياتهم.

لم تعرف المسمية الصغيرة الطبّ الحديث، إلا من بعيد، كما لم تعرفه المسمية الكبيرة، أو أي من القرى المحيطة بهما. فلم يكن في أي من هذه القرى مستوصف أو عيادة أو حتى ممرض، ولا كانت تحظى بطبيب يزورها. كانت للتطبيب مواقع أخرى، بعيدة، والوصول

إليها مكلف أو مجهد. فمستعمرة كفار مناحيم فيها طبيب يستقبل الزوار من العرب إذا كانوا يملكون القدرة على دفع أجرة الزيارة نقداً. وكان في قطرة، التي صاروا يسمونها رحبوت بالعبرية، عيادة تستقبل المرضى وتتقاضاهم الأجر نقداً، أيضاً. وفي المجدل أنشىء مستوصف حكومي يستقبل المرضى دون أجر، غير أن المجدل بعيدة والسفر إليها مكلف، فضلاً عن أن خدمات المستوصف الصغير المكلّف بعلاج سكان قضاء بكامله قلما كانت تفي بالغرض. ثم إن هناك في كل الأحوال الأدوية التي يصفها الأطباء، وهذه يتعذر الحصول عليها إلا إذا دفع المريض ثمنها نقداً. لهذه ولغيرها من الأسباب، ما كان الناس يلجأون إلى الأطباء إلا في أضيق الحدود وأندر الحالات. كان الوضع كذلك أيام الحكم العثماني، ولم يطرأ عليه تبدل يذكر في عهد الانتداب البريطاني.

وهكذا، كان معظم الأمراض يهمل، أو يعالج بالوسائل البدائية التي تمتزج فيها تقاليد المعالجين الحرفيين القدماء مع الموروث من الخرافات والمعتقدات السائدة حول القدرات العجيبة للنصوص الدينية. وحين يزمن المرض ولا ينفع شيء في التخفيف عن المبتلى به ويستقر في الأذهان أنه ميئوس منه، كان الناس يفوضون أمر المريض إلى ربّه، وينتظرون النتيجة مستسلمين، أو تغلبهم الآلام فيبكون ويشتكون، وذلك كله دون طائل، بالطبع.

وفي الطب البدائي وصفات متداولة لشتى الحالات المرضية: فآلام الأحشاء، أياً ما كان سببها أو مصدرها، لها مغليّ الميرمية، وهي عشبة يلفظون اسمها محرفاً عن اسمها الأصلي القديم المشتق من اسم مريم: المريمية، ولها شيء من القداسة. وقد شاع عن هذه العشبة الفلسطينية التي أخذت اسمها على ما يبدو من اسم والدة المسيح أنها تشفي سبعين علّة معروفة، عدا العلل غير المعروفة. ويبدو أن السمعة الطيبة لهذه العشبة نشأت عن شذاها العطري اللطيف والمذاق الزكي لمنقوعها المحلى بالسكر، كما نشأت عن كون العشبة تحتوي على مادة تسكن حدّة الآلام فيظن من يتعاطاها أنه الشفاء. وللهيجانات العصبية منقوع النعناع، يشرب وحده أو مخلوطاً بالشاي، وهو ظاهر الفائدة، فهو مهدئ لطيف، فضلاً عن أنه سائغ الطعم والرائحة. ولحالات عسر الهضم زيت الخروع الذي تنتجه شجرة لها هذا الاسم تنبت في أنحاء متفرقة من البلاد. وقد أضيف إلى هذا الزيت الطبيعي، وذلك بعد مجيء البريطانيين، عقار رخيص الثمن له شكل الملح ولونه، يسميه الناس ملح الإنجليزي، يذيبونه في الماء ويشربونه. ولإتمام فائدة هذا الملح يشرب الناس مع محلوله منقوع عشبة مريعة الطعم يسمونها السنمكّة. وكان اضطراري إلى شرب منقوع السنمكة عذاباً حقيقياً أتعرض له كلّما اكتشف الأهل، أو توهموا، أن لدي ما أشكو منه، وكثيراً ما كانوا يكتشفون هذا أو يتوهمونه، بالرغم من حرصي الشديد على إخفاء الآلام حين تنتابني وتجنب الإتيان بأيّ حركة توهم الأهل بأن معدتي ليست على ما يرام.

أما الجروح فكانوا يعالجونها في القرى بتغطيتها بمسحوق البنّ، إن تيسر، أو بالتراب الناعم، على أساس أن في تراب الأرض، وفق المعتقدات، شفاء للمؤمنين. وأما الكسور والخلوع والرضوض فهذه يتولاها المجبّرون، الهواة منهم والمحترفون. وفي كل قرية مجبّر أو أكثر، بعضهم يتعيش من مزاولة المهنة، وبعضهم متطوع أو هاوٍ يعالج الناس ابتغاء مرضاة الرب وثناء الخلق عليه. وقد كانت لبعض المجبرين شهرة طاغية. ولا بدّ من أن تكون هذه الشهرة قد تكونت لأن المجبر أفلح في معالجة كسر صعب أو شفاء شخص مرموق، فتحدث الناس بذلك، وبالغوا، فذاع صيت الرجل، وصار مقصوداً. والناس الذين لا تسمح لهم أحوالهم بالحصول على الخدمات الطبية الحديثة يزينون لأنفسهم مزايا الطب البدائي ويقتنعون بها، فلا يفطنون بعد ذلك إلى الحالات التي يتولاها المجبر فلا يظفر أصحابها إلا بالعاهات المستديمة.

وأنا أتذكر المرة التي كسرت فيها ذراعي: كنا نغزو شجرة جمّيز، وقد توزعنا فروعها واستغرقنا التمتع بالثمر اللذيذ، حين ظهر صاحب الشجرة فجأة، وانتهرنا، فسقطت على الأرض وانشقت ذراعي اليمنى عند الكوع. يومها، حملتني وضحة الكبيرة، راعيتي الطيبة، على ظهر دابّة، وأخذتني إلى مجبر شهير في قرية السوافير الشرقية التي جاءت، هي، منها. وهناك، نقع الرجل ذراعي في ماء حار غير عابئ بالآلام الشنيعة التي تعتصرني، ومسجّها بقسوة، وأنا أصرخ وهو يبلغ إلى جلسائه أن إحساسي الشديد بالألم دليل على صواب طريقته في العلاج. ثم أحاط الرجل كوعي بجبيرة من الخرق محاطة بقطع من الخشب مشتقة من فروع نخلة، وشدّ الجبيرة والخشب بخيوط غليظة، وتمنى لي الشفاء بلهجة الواثق من أنه فعل كل ما يلزم على أتمّ وجه.

بعد هذا، أمضيت عدة أسابيع وأنا أشيل ذراعي المعلقة إلى رقبتي، وأشيل معها الآلام القديمة وآلام القروح المستجدة. ولما حان الوقت الذي حدده المجبر وأخذتني الراعية إليه ثانية، فك الرجل الأربطة وهو يردد الأوردة المحفوظة، ليتضح أن القروح أدمت الجلد وبدأت تعمل عملها في اللحم، وأن الكسر قد انجبر، بالفعل، غير أن الذراع ذاتها صارت ملويّة، وقد فقد الكوع مرونته وتيبس تماماً. بكت وضحة الكبيرة. أما المجبر المعتدّ بخبرته فلم يضطرب ولم يبد عليه أن في الأمر ما يدهشه، بل تصرف ببرودة تثير، هي، الدهشة. وبدأ الرجل بتنظيف القروح، وقد فركها بالملح الذي كوتني لسعاته الحارقة حتى كاد الألم يسلمني إلى الإغماء. ثم نقع الرجل الذراع المشوهة في الماء الساخن، وطلب مساعدة زوجته، فأمسكت المرأة ساعدي من ناحية المعصم، وأحكم هو قبضته على العضد، ثم أخذا، هو وزوجته، يتجاذبان الذراع، إلى أن أُغمي عليّ حقيقة. عندما استعدت وعيي، كانت الذراع قد كسرت من جديد وانفرد وجه المجبر تعبيراً عن ابتهاجه

بهذا الإنجاز، وملأت البسمة الواثقة وجهه كله. بعد ذلك، وبعد أن شربت كوب النعناع المحلّى بالسكر، استأنف مجبّري المعالجة، فغطّى القروح بأوراق نبات يستخدم لهذا الغرض، ثم لفّ الذراع بجبيرة جديدة وأحكم ربطها حول الكوع، وتمنى لي الشفاء بثقة لا يخالطها أي شك. والمدهش أن القروح شفيت و الكسر انجبر، هذه المرة، على نحو صحيح، واستعاد الكوع مرونته السابقة. وكل ما في الأمر أن الرجل جرّب في الحالة الأولى ففشل ثم جرب ثانية ونجح، وإني كنت محظوظاً.

الأمراض التي لم يكن لها علاج، لا في الطب البدائي ولا في مستوصف الحكومة في المجدل، هي الأمراض العقلية. كانت الإصابة بمرض كهذا تعدّ ضربة من ضربات القدر. وهم يعتقدون أن الله يتفقد بعض عباده بهذه الضربات، لغاية لا تدركها عقول البشر. وكثيراً ما كان الناس، عاكسين بهذا إحساسهم بالعجز عن معالجة المرض أو فهم طبيعته، يتلقون المرض العقلي بوصفه هبة من الربّ وبركة يخص بها الأثيرين إلى نفسه من بين عباده، وذلك، خصوصاً، حين يكون المرض من النوع الهادئ. أما حين يتحول المصاب بالمرض إلى شخص مؤذ أو مزعج، ولا يسوغ سلوكه اعتباره مباركاً من الرب بأي حال من الأحوال، فلا بدّ من أن تكون إصابته من فعل الشياطين. ويطلق الناس على الأمراض العقلية صفات تلائم معتقدات كهذه، فالجنون الهادئ، مثلاً، لطف رباني، والجنون العدواني مسّ من الجان. والمجنون الصاخب شخص خطير استحوذ الشيطان أو الأشرار من الجان على روحه وسخروه لأغراضهم وغاياتهم الغامضة. وقد تنسب أسباب الإصابة بالمرض العقلي، مثلها مثل الإصابة بأي مرض آخر، إلى حسد الحاسدين أو مكر الكارهين وما تذرع هؤلاء وأولئك به من أسباب ووسائل.

ولسبب ما، لعله يكون فرط الحساسية الناجم عن اليتم المبكر، كان في نفسي ما يجذبني إلى المرضى ويدفعني إلى التعاطف معهم، وخصوصاً، من بينهم، أصحاب العاهات والمصابين باللطف الرباني أو المبليين بأفاعيل الجان. كنت أسعى للتقرب من هؤلاء وإقامة العلاقات معهم، وأجد في ذلك سعادة غامضة لا أعرف لها تفسيراً.

من هؤلاء في ذاكرتي عائشة، وهي فتاة تسلط عليها جنيّ شرير منذ كانت طفلة، فحجبها أهلها عن العيون وأبقوها في دارهم. ولما اشتد هيجان عائشة وصار من الممكن أن تؤذي أهل الدار أنفسهم، حبسها الأهل في قفص خشبي أقاموه في ساحة الدار بلصق البايكة، فصار لها وضع أقرب إلى وضع الحيوان المنبوذ. وانتهى الأهل إلى أن أهملوا ابنتهم المصابة، فهم لا يتذكرونها إلا بين وقت وآخر حين ينقلون الطعام إلى قفصها أو يتعاونون ليرغموها على تبديل ما تلف من جلابيبها. هذه الفتاة كانت ترسل صرخات حادة ممطوطة كلما دفعتها الحاجات الضرورية إلى تنبيه الأهل لوجودها أو أهاجها أي سبب

آخر. ولكثرة ما ألف الأهل صرخات عائشة، لم يعودوا يستجيبون لنداءاتها، بل خصصوا أوقاتاً بعينها تلبى فيها حاجاتها. فصارت عائشة، التي قد لا تتوافق رغباتها مع برنامج الأهل، تصرخ في أي وقت، حتى غدا صراخها أنيناً صاخباً متصلاً، وصار صراخ عائشة معلماً من معالم القرية، يثير في نفوس الكبار والصغار شتى ألوان المشاعر، لكنه لا يحمل أحداً على نجدتها. أما أنا فكنت أجدني مجذوباً إلى هذه الفتاة، لا أضيق بها، ولا تنفرني القذارات التي تفترش محبسها وتكسو جلبابها وتعشش في رأسها وجسدها كلّه.

بدأ الأمر هكذا: آتي إلى الفتاة كلما تيسر لي ذلك، فأجلس إزاء القفص، أو أقضي ما أستطيع قضاءه من حاجاتها، وأحمل لها حين يكون الأمر ممكناً شيئاً مما أحصل عليه لنفسي، عشبة أو فطراً أو قطعة خبز أو حلوى أو فاكهة. كنّا نتبادل أحاديث لا أتذكر الآن منها شيئاً، وإن بقيت في ذاكرتي رنّة التعاطف التي تصبغها. كانت عائشة تواجهني وهي مصغية بوجه تتماوج على قسماته مشاعر الفرح والذهول، وتحكي هي فيفيض لسانها بما يتصوره عقلها المختل. ثم تطور أمر الفتاة التي نما جسدها وتفجرت فيه علائم الأنوثة، فصار خطيراً، وراحت تلمّ بها حالات هياج عنيفة. وقد نجحت عائشة، مرة، في تحطيم قفصها الخشبي والفرار إلى خارج الدار، فصار لها بدل هذا القفص قفص حديدي. وبمضيّ الأيام، تفاقمت حالة الهياج وازداد تواتر النوبات الهستيرية. وما كان لشيء أن يهدئ الفتاة إلا قدومي: تراني مقبلاً فيخفت توترها، وأقبل على القفص فيستحيل صخبها إلى بكاء، ثم إلى نحيب بطيء ومديد، ويتصل نحيبها الذي يفتت كبدي بعض الوقت، ثم يهدأ، ويتلاشى في نهاية المطاف، وتستسلم هي لحالة من الحزن الصامت. عندها، تكون عائشة على استعداد للإصغاء إليّ. وإذ عرف أهلها مدى تأثيري على حبيستهم المزعجة، فقد صاروا يبحثون عني ليحضروني إليها حين لا أحضر من تلقاء نفسي، خصوصاً حين يبلغ صخبها الحدّ الذي يثير شكاوى الجيران.

وفي ذاكرتي، من هذه الحالات، أيضاً، حالة هاشم، وهاشم هذا، كان حين تنبهت إلى وجوده رجلاً تامّ النمو، بل مفرط النمو، طويلاً وعريضاً وذا تقاطيع جهمة وهيئة مهيبة. ألمّ اللطف الرباني بهاشم منذ وقت بعيد. وكان هذا اللطف، على ما يبدو، هيناً، فلم يكن في مظهر الرجل أو تصرفاته ما يؤذي، كل ما في الأمر أنه كان أبله، أو أهبل، بلغة أهل القرية، أو متخلف العقل، بلغة أهل العلم.

وفي موروث القرية، حين يدور الحديث عن هاشم، أن أهله كانوا من النبهاء؟ وقد التمس أهل هاشم الشفاء لابنهم بكلّ الوسائل التي يعرفونها: نذروا النذور، وقدموا الأضاحي،

وطافوا بابنهم على أضرحة الأولياء في المنطقة كلها، وأخذوه إلى مقام إبراهيم الخليل وأدخلوه المغارة وهزّوا قضبان القفص وقرأوا، أو استأجروا من قرأ من أجله القرآن أمام الضريح المهيب، كما أخذوه إلى المسجد الأقصى وساروا به في جوار صخرته المقدسة وهم يتلون الأوراد والآيات، وجعلوه يقبل الصخرة التي وطأها النبي بقدمه المباركة حين صعد إليها ليركب البراق الذي انطلق بالنبيّ في رحلته إلى السماوات. وأجزل الأهل العطايا لكتّاب التعاويذ والحجب، واتبعوا تعليمات أسياد الجان بحذافيرها، فأهدوا للأسياد عبر وكلائهم من كتّاب الحجب الديوك السوداء والحمراء، بل الجديان والخراف، أيضاً. وإلى ذلك، جرّب هؤلاء الأهل الوصفات التي نصحوا باستخدامها، فبيتوا ابنهم ليالي وليالي في الأماكن التي يرتادها الجان، ووضعوا قصاصات من ثيابه أو خصلات من شعره في أماكن يكتنفها الغموض. ولم يترك الأهل عشبة وصفت لهم إلا سقوا ابنهم من منقوعها، مرات ومرات، بارداً وساخناً. وأطعم هاشم خصاوي خاروف كالح السواد، وحواصل حمامات ناصعة البياض، وأكباد سنونو وفدت إلى القرية حديثاً، ولحم أفعى أمسك الأهل بها وهي في بياتها الشتوي. وعلق الأهل على صدر هاشم أظلاف بغل لم ينقل على ظهره إلا الرزق الحلال ولم يركبه إنسان خاطئ، وأظافر ديك وطأ عشر دجاجات بياضة في يوم جمعة، وحصل الأهل على نابيْ ضبع وعلقوهما في أذني الابن كما يعلق الحلق في أذني فتاة. واستخدم الأهل، بالطبع، البخّور، بخروا ثياب المريض وفراشه والدار كلها. ولجأ الأهل إلى السحر، استشاروا السحرة المشهود لهم بالمهارة، واستقرأوا حالة ابنهم في المندل، واستفتوا الذين يتعرفون على مدبري المكائد من الحساد والمبغضين من خلال إذابة الرصاص وتبريده فجأة في الماء ودراسة الأشكال التي كونها الرصاص الذائب حين يتجمد فجأة. فعل الأهل ذلك كله لعلهم يكتشفون عملاً مخبوءاً أو سحراً مبيناً أودى بعقل ابنهم. ولست بحاجة إلى من ينبهك إلى أن هذه الوسائل كلها لم تجد نفعاً.

والواقع أن الأهل انتهوا، كما ينتهي أمثالهم في العادة، إلى تفويض أمر هاشم لرب الكون. وبمضيّ الوقت، أقنع الأهل أنفسهم بصواب ما أفتى به المتصلون بالمعارف الخفيّة، ممن عجزوا عن شفاء هاشم، حين أكّد هؤلاء أن ما بهاشم ليس سوى هبةٍ خصه الربّ بها واختاره من بين أقرانه ليكون مباركاً. وترك الأهل ابنهم، الذي صار مع الوقت فتى ثم شاباً، ليهيم وفق الغاية التي حددها له الربّ، وكفّوا عن الاهتمام بشأنه، مخلين بينه وبين بلهه، يفعل به ما يشاء، دون رقيب أو حسيب.

كان من الممكن أن تقع أعيننا على هاشم في أي مكان، في الزقّاق وفي البيادر وفي أركان القرية المطروقة أو المهجورة. وكان هو يؤم المناطق التي لا يذهب إليها الناس، فيمضي

أياماً وليالي خارج القرية في المغر التي يعتقد الناس أنها مساكن للجان، أو يذهب إلى بئر أبي جاظوم ويجاور كومة الكلس الصماء، أو يختفي في أماكن أخرى، دون أن يدرك أحد أين ذهب. وعلى العموم، كان هاشم ينام حيث يستقر به تجواله، ويستريح حين يتعب حيثما اتفق، ويأكل حيث يشتهي. وكانت اللقمة ميسورة للمبروك على الدوام، فالفلاحون يعدّون إطعامه تقرباً إلى الله، ويعتبرون من يقصد هاشم داره طلباً للأكل إنساناً محظوظاً. وكان الرجل شرهاً، لا تشبعه قنطرة خبز ولا ترويه جرّة ماء. ومع ذلك، ما كان أحد يضيق بطلبات هاشم. وقد كان الأبله قليل الكلام، لا يبدأ أحداً الحديث ولا يرد على حديث أحد، إلا فيما ندر. والكلام يخرج من فم هاشم همهمة، فتبقّ شفتاه ألفاظاً غريبة ذات وقع ثقيل ومدلولات غامضة. وكان الذين يتلقون همهمة هاشم يفترضون أن لها مدلولات عميقة، فيتفننون في تفسيرها ويجهدون أنفسهم في استنباط ما تحمله من معان أو ما تشير إليه من نبوءات. وبسبب سمعته بما هو مبروك حل به لطف الربّ، كان هاشم يُقصَد في الملمات: إذا أصابت أحد أهل القرية مصيبة ، كأن تسرق له حاجة، أو تضيع دابّة من دوابه، أو يواجهه أمر شائك يعجز عن البت فيه، بحث عن هاشم وأغواه بأطايب الطعام واستدرجه إلى الحديث لعله يفوه بما هو مفيد.

وفي الوقت الذي وعيت فيه وجود هاشم، كانت فضيحة قد اقترنت باسمه فشغلت أهل القرية وأثقلت على ضمائرهم. وكاد هاشم يفقد سمعته بسبب هذه الفضيحة لو لم تكن هذه السمعة شديدة الرسوخ. والحقيقة أن سمعة المبروك لم تظل بغير خدوش بعد الفضيحة، بالرغم من احتفاظ أغلبية الناس بموقفهم السابق منه. فقد ظهرت على فتاة في القرية غير متزوجة أعراض حمل سافرة، وهذه، في تقاليد القرية، كما لا بدّ من أنك تعرف، كبيرة الكبائر. وقد حاصر أهل الفتاة ابنتهم بالأسئلة، وأدهشهم وبلبلهم أن خوفها من الإفصاح عن اسم الرجل المعنيّ يفوق خوفها من مغبّة ما أقدمت عليه مع معرفتها بأن عقوبته القتل. وحين ضيّق الأهل الخناق على فتاتهم، نطقت باسم هاشم وهي ترتجف. ثم حين استقصى الأهل التفاصيل، قالت الفتاة إن الرجل المبروك وقع عليها وحيدة، في إحدى البراري فدهمها، وإذ جمدها الخوف والتهيب من سمعته الربانية فإنها لم تقاوم. وقد انقسم أهل القرية إزاء هذه الرواية، فمنهم من شكك فيها واعتقد أن الفتاة تتهم الرجل غير العاقل لتتستر على الفاعل الحقيقي الذي تحبّه، ومنهم من مال إلى تصديق الرواية، إلا أنه لم يُدن الرجل المبروك، بل اعتقد أن وراء الفعلة، إن كان هاشم هو، حقاً، مرتكبها، حكمة سماوية. أما الناس الأكثر حماساً لهاشم فقد لاكوا سيرة الفتاة وأشاعوا أنها لعوب عاشرت آخرين كثيرين غير هاشم، فشاء الله أن يفضحها ويقتص منها على يد رجله الأثير. والحقيقة أن هذه الفضيحة بين فضائح العرض التي تشغل

الناس وتثير حميتهم وتنشط ألسنتهم كانت أعقدها، على الإطلاق. ومع تضارب الآراء، ولأن في معاقبة هاشم، حتى بالنسبة لمن مالوا من أهل الفتاة إلى تصديق روايتها، مخاطرة بالتعرض لنقمة السماء، فقد اكتفى الأهل بمعاقبة فتاتهم، وحدها، وتركوا أمر هاشم لربّه الذي يعتني به. ذبح الأهل فتاتهم ورموا جثتها لسباع البراري، وتسلحوا، بعد هذا، بالصمت إزاء المؤيدين والمعارضين.

في البداية، لم تقم بيني وبين هاشم أيّ علاقة، أثّر فيّ جوّ الفضيحة وبلبلني تضارب مواقف أهلي إزاءها، فلم أسع إلى التقرب من الرجل، بل كنت أميل إلى النفور منه. كان رأي جدي سلمان أن هاشم فعلها حقاً. إلا أن هذا الجدّ لم ينضمّ إلى المطالبين بمعاقبة هاشم، فالأبله، حسب رأيه، أبله ولا عقوبة لغير العاقل. أما جدي عبد المجيد، فهو، وإن لم يطالب بمعاقبة هاشم، لم يشأ أن يعفيه من المسؤولية. وكان من رأي هذا الجد أن رجلاً مثل هاشم، له هذا الجسم النامي، يشكل خطراً، على الناس أن يتوقوه حتى لا تحلّ بالقرية مصائب أخرى. واعتقدت جدتي مدللة أن الأمر، كله، جرى وتم بإرادة الله، فليس من حق البشر أن يتدخلوا فيه. ومع تشدد الجدة كلما تعلق الأمر بمسائل العرض، كان من رأيها أن الفتاة ليست مسؤولة عما وقع، وما كان من حق أهلها أن يعاقبوها. على العموم، أحدثت الحكاية في نفس الطفل الذي كنته الاضطراب وأثارت الأسئلة المحيرة: فلماذا يتوجب أن يكون رجل الله أبله، وكيف يجوز له أن يتسبب في ذبح فتاة وينجو من العقاب الذي لا ينجو منه سواه في العادة؟ ولا بدّ من أن هاشم أحس بنفوري منه، على نحو أو آخر. فكلما التقينا، كان المبروك يميزني بين أبناء القرية الآخرين بنظرة ساخطة، وكان شيء ما فيه يتبدل حين يقع نظره عليّ، فإن كان جالساً نهض ومشى، وإن كان ماشياً انحرف ناحية أولّ منعطف أو جلس عند أول ركن، وإن كان عابساً استغرق في ضحك مفاجئ، وإن كان ضاحكاً كتم الضحكة وعبس. وكان هذا كله يزيدني حيرة وبلبالاً، ويعيد إطلاق الأسئلة التي تشغل ذهني. وأتذكر أني شئت، مرة، أن أحدث راعيتي بشأن هذا الرجل وأكشف لها هواجسي، إلا أن الراعية المؤمنة ببركة هاشم لم تأذن لي بالخوض في سيرة رجل الله، بل استغفرت لي ربّها و أرغمتني على رفع كفيّ إلى السماء وطلب المغفرة بنفسي.

ظل هذا هو شأني مع هاشم، إلى أن وقعت الحادثة التي أسست العلاقة بيننا. حدث هذا في ليلة من ليالي الصيف، في موسم الحصاد. كنا نسمر في الجرن بين أكوام القمح والتبن. وتشارطنا، نحن الأولاد، بحيث يفوز بمكافأةٍ من يجرؤ على الذهاب إلى بئر أبي جاظوم تلك الليلة والمجيء بحفنة من الكلس المحيط بالبئر. وقد دفعتني المكابرة والرغبة في المباهاة، وربما، أيضاً، الحاجة إلى التعويض عن الإحساس الخفيّ بالنقص الناجم

عن اليتم، إلى انتداب نفسي لهذه المخاطرة والقبول بالشرط. وكان الوجه الآخر للشرط أن أتلقى من أقراني عشرين جلدة على الكفين إن تراجعت قبل إتمام المغامرة أو فشلت فيها. وواجه الأولاد تنطحي لهذه المخاطرة باندهاش، فلم أكن أكبرهم سناً ولا أشدهم جرأة. وتدخل عمي محمد فأراد منعي، بل إنه انتدب نفسه ليحل محليّ واعداً إيايّ بأن تكون المكافأة من نصيبي أنا. بالرغم من ذلك، ركبني العناد فرفضت تضحية العم وواجهت دهشة الأولاد بالتحدي. واستهوى الأمر الأولاد، في النهاية، وقد ظنوا أني سأجبن فيتاح لهم أن يتمتعوا بالسخرية بي والتناوب على جلدي والاستماع لعويلي.

وكان عليّ أن أعبر الوادي الجاف قبل الانطلاق ناحية البئر المحاطة بالتخيلات البشعة. وقد صحبني الأولاد حتى حافة الوادي من ناحية القرية، وهم يعبثون بمشاعري بين مثبط ومشجع ومستهزئ. وعند هذه الحافة توقف الأولاد بانتظار عودتي الظافرة أو الخائبة، فيما انطلقت أنا نحو المكان المرهوب.

والحقيقة أني لم أدرك رهبة المخاطرة إلا حين صرت في قعر وادي الزريقة وألفيت نفسي وحيداً وسط الظلام الدامس الذي يسكن هذا القعر. هنا، اختلّت مشاعري، وغامت الأشياء، واختلطت المقاييس، وتناوشتني عشرات الصور البشعة التي تختزنها المخيلة من حكايا ما قبل النوم: الذئب، والضبع، والغول، والعمالقة والأقزام، وأبو الرجل المسلوخة، والسحرة الشريرون. وراحت الصور تتراقص حولي وقد امتزجت ببهمة الليل على وقع صخب الأولاد الذي تنحدر أصداؤه نحوي، فيصير لها وقع النواقيس الغامضة والأصناج الضاجّة التي تنشط حركة الجان والأرواح الشريرة المحيطة بي. فقدت الإحساس بالاتجاه، ووجدتني أدور حول نفسي في قعر الوادي و أجاهد كي لا تصدر عني أيّ نأمة تستفز المخلوقات المرعبة التي أهيم وسطها، فلا أفلح إلا في تضخيم الأصوات التي أسمعها. في هذا الظرف الرهيب، لم يعد عقلي ملكاً لي. بالرغم من ذلك، أدركت في نحوٍ غامضٍ غموضاً شديداً أن لا بدّ من النكوص. وكانت الرغبة في الخلاص هي كل ما يشغلني، فلم أفكر بمرارة الفشل ولا بسخرية الأولاد الذين ينتظرون عودتي مدحوراً كي يهزأوا بي وبتنطحي لمهمة لا أقدر عليها. ورحت أحثّ قدميّ كي تطاوعاني في العودة إلى الحافة التي جئت منها، أفعل ذلك بجهد بالغ، دون أن أدرك، في حقيقة الأمر، ما إذا كنت أتحرك، فعلاً، أو أتقدم أو أتأخر.

وبينما أنا أسيرُ هذه المعاناة اصطدمت بشيء، فوقعت على الأرض، وانفجر نحيبي وأنا أتلملم على نفسي، جاعلاً رأسي بين ركبتي ومغطياً إياه بذراعيّ، وقد فقدت الجرأة على الإتيان بأي حركة أو عمل أي شيء. دام هذا لحظات لا أدري كم طالت. وعندما أرغمتني

الرغبة في الخلاص على رفع رأسي، برقت في مواجهتي حدقتان. وقبل أن يصدر عني أي رد فعل، نطق صاحب الحدقتين: "لا تخف يا صغير، أنا الأهبل!". ولأمر ما، أحسست، دفعة واحدة، أنها فُرجت. وقد تبعت القول ضحكة كان لها في نفسي وقع نغم الشبّابة حين يلعلع في أفتن الدبكات. ودون أن أدري كيف تم الأمر، وجدتني في حضن هاشم، أتمسح به وأنهنه بنشجات متقطعة تعكس فرحتي بالنجاة.

مسدّ هاشم رأسي بحركة حانية، وكرر الحركة المؤنسة حتى هدأت تماماً. ثم، دون أن يسألني، بل دون أن يفوه بكلمة، اقتادني هاشم ناحية البئر التي لم تعد، بعد، مخيفةً في نظري. كنت أتبع الرجل كالمسحور، وأحسّني خفيفاً كأني في نزهة، وقد عاودتني الرغبة في إثبات جدارتي أمام الأولاد وتجنب سخريتهم من فشلي. وعند البئر، ومرة أخرى دون سؤال أو كلمة، ملأ هاشم جيب جلبابي بالكلس، ثم عاد بي، وقد حررت الفرحة بالظفر مشاعري وعضلاتي، إلى النقطة التي لقيني فيها في قعر الواد. وهناك، أطلقني الرجل الذي ربطتني به منذ تلك اللحظات علاقة خاصة وخلّف في نفسي نوعاً من التعلق الغامض به دون أن تزيل الحاجز، الغامض هو الآخر، الذي يجعله غير مفهوم بالنسبة لي.

وحين بلغت جمع الأولاد الوجلين والمدهوشين، ألقيت قطع الكلس بين أقدامهم وأنا صامت، ثم انطلقت جارياً نحو الدار بأقصى سرعتي، غير عابئ بالمكافأة الموعودة ولا بتعليقات الأولاد واستحسانهم. ونمت، تلك الليلة، كما ينام من ربح معركة قاسية بعد عناء شديد. وكلّما لقيت هاشم بعد هذه الليلة، كنت أجدني مندفعاً إليه، فأقترب منه لأظفر بتمسيدات يديه، وكان، هو، يستقبلني بهدوء، ويمسد رأسي، ثم يرفع وجهي ناحية وجهه ويبتسم، فأدرك، دون كلام، أن اللقاء انتهى.

بجانب هاشم، عرفت القرية أبله آخر، هو عطا. كان عطا نقيض هاشم في كل شيء. فهو، من حيث شكله، ضئيل القامة نحيلها، وله وجه بارز العظام تراه فتظن أن اللحم سحب سحباً من تحت جلده. أما من حيث السلوك، فعطا، بخلاف هاشم مهذار، شديد الصخب، ناشط الحركة على الدوام. تقع عيناك على عطا فتراه في وضع بعينه، فإن ملت بنظرك عنه لحظة ثم تفقدته ثانية فستفاجأ بأنه بدّل الوضع رأساً على عقب، أو انتقل من المكان، أو اختفى كلية دون أن تدرك إلى أين توجه. ولم نكن، نحن الأولاد، نعرف أين ينام عطا ومتى أو أين يأكل وماذا. وعطا، الذي قد تجده في أي مكان وكل مكان، ربما يغيب أثره تماماً بحيث لا تقع عليه مهما بحثت عنه. وهو لا يقصد أحداً طلباً للطعام، ولم يألف الناس أن يبحثوا عنه ليطعموه، فكأنما نسي، أو نسوا، أنه بحاجة إلى الغذاء.

جمعت بين عطا وهاشم علاقة ذات وجهين متعارضين. كان الأبلهان، في الواقع، لا

يلتقيان إلا بالصدفة، وليس منهما من يقصد الآخر. وإذا التقى الاثنان بدا لمن يراهما في بداية اللقاء أنهما متوادّان. حتى إذا مضى بعض الوقت فعل تنافر الطباع فعله بين الاثنين، فظهر ضيق هاشم بجلبة عطا، وظهر، أيضاً، ضيق عطا ببلادة هاشم وغموض أحواله. وقد اعتاد هاشم أن يعبّر عن ضيقه بالانصراف عن عطا. غير أن هذا لا يلبث أن يتبع هاشم ويفرض صحبته عليه، لا لشيء إلاّ لمناكفته. وكان عطا وهو يتنطط حول هاشم المعرض عنه يواصل الثرثرة ويستفز هاشم بالقول والحركة جاهداً في إخراجه على اتزانه، ويغدو المشهد إذ ذاك طريفاً، حقاً: يسير هاشم ببطء، متجهاً بعبوس وجهه وجهامته إلى أمام صارفاً نظره عن قرينه، فيباريه عطا مرغماً إياه على الاستماع لثرثرته، وينهر هاشم قرينه المزعج بحركة من يديه أو رجليه، فيبتعد عطا، للحظة، متهرباً من اللكمة أو اللبطة، ليعود ثانية إلى المناكفة. ويستمر المشهد على هذا النحو إلى أن يخرج هاشم على طوره المألوف، فيفرّ مبتعداً أو يتكوّر بجانب حائط من الحيطان ويضع رأسه بين ركبتيه ويستره بذراعيه، أو يكف عطا عن إزعاج هاشم ويشغله شأنٌ آخر فينصرف عنه من تلقاء نفسه، وفي الحالات التي لا ينفع معها شيء في إيقاف عطا عن مناكفة قرينه، كان هياج هاشم يبلغ الذروة، فكان يهبّ فجأة ويلتقط عوداً أو طوبة أو حجراً ويهدد عطا تهديداً جدياً بالضرب. هنا، كان عطا يختفي في لمحة قبل أن يستخدم هاشم ما بيده، فيلقي المهتاج سلاحه ويستعيد هدوءه، على الفور، ويعاود سيرته المألوفة.

كنّا متعلقين بعطا، وكان وجوده بيننا يوفر لنا واحدة من تسلياتنا الضاجّة. نتفنن في الإيقاع به لنثيره ونبهج أنفسنا بالفرجة عليه وهو يؤدي حركاته المضحكة. وإذا كان هاشم هو شاغل الكبار وموضع اهتمامهم، فقد كان عطا شاغل الصغار. نقع على عطا لاطياً، مثلاً، في ظل حائط أو شجرة، فيتسلل أحدنا نحوه ليقطع عليه استراحته، وحين يقترب المتسلّل من الأبله يصرخ في أذنه صرخة حادة، فيضطرب الرجل ويهتاج ويروح يتنطط كأنه ملسوع. وحين يدرك عطا أن المفاجأة من تدبيرنا يروح يتهددنا بحركات لا تبعث فينا إلا مزيداً من الضحك. لم نكن نخشى عطا، هو صاحب الجسم الضئيل، كما كنا نخشى هاشم الجهم المهيب. وعندما يشتد صياح عطا إزاء عبثنا به فيحاول الإمساك بواحد منا، كنّا نتعمد أن نتفرق في اتجاهات متباعدة لكي نبلبله ونتعبه، فيضطر الأبله إلى الجري، هنا وهناك، دون طائل، فيما نناور نحن، نقترب ونبتعد، ليظل يجري ويدور في الأنحاء. وما كان الأبله يفقد الأمل بالظفر بواحد منا، بالرغم من أن هذا لم يتحقق له في أي وقت، وكان من شأن استمراره في المحاولة أن يطيل أمد بهجتنا بمعابثته. وفي العادة، تتصل المعابثة إلى أن ينتبه إلينا واحد من الكبار العقلاء فينقذ عطا من حلقتنا، أو يتعب عطا نفسه فيجلس وينتحب فنشفق عليه وننصرف عنه، أو نمنحه هدنة يستريح

فيها، ثم تحملنا الشقاوة على استئناف المعابثة من جديد. وكنّا نأتي إلى عطا، حين يجلس، نادمين، حقاً، في بعض الأحيان، ومتظاهرين بالندم، في أحيان أخرى، نحيط به ونطلب صفحه، فتطيب نفسه ويروق مزاجه على الفور ويقبل توبتنا. في هذه الحالات، يصير الرجل طوع بناننا تماماً، ويظهر من تلقاء نفسه استعداده لتلبية رغبتنا في العبث. وكنّا نشتط في الطلبات، نحث عطا على أن يركب عصاة ويقلد الفرسان وهو يجري، أو يدبّ على أربعته مقلداً ركض الحمار ونهيقه، أو يقفز مثل ضفدع، أو أي شيء من هذا القبيل. وكان عطا يطيعنا، بل ينفذ طلباتنا بحماس.

وأتذكر مرة كنت فيها عائداً من البريّة وحدي، تشاجرت مع الأولاد ففارقتهم غاضباً. يومها، وقع نظري على عطا واقفاً بجانب سياج من الصبار وقد رفع طرفي قمبازه وراح يبول. وأحسّ عطا بحركتي لما دنوت منه، ولا بدّ من أنه توقع أن أعمد إلى معابثته، فالتفت ناحيتي، دون أن يكفّ عما هو فيه، وهتف بنبرة محذرة: "هذا أنت، يا ابن لبقة !". نسبني عطا لأمي ليظهر أنه يستصغر شأني ولا يخشى استفزازي له. ولأمر ما، ربما لأن الطفل لا يميل إلى الشقاوة حين يكون بمعزل عن الأطفال الآخرين، شعرت بالرغبة في ملاينة عطا، فقلت: "حماك الله، يا عمّ عطا!"، فأرخى الأبله طرفيْ قمبازه، فجأة، وبدا مدهوشاً، واستدار ناحيتي بكليته، ثم لم يلبث أن اكتست هيئته ذلك الاستعداد الذي أعرفه لإبهاج الآخرين، وقال متطوعاً: "تحبّ أن أضحكك؟"، ولم ينتظر إجابتي، بل قرن القول بواحدة من حركاته التي تضحكنا في العادة.

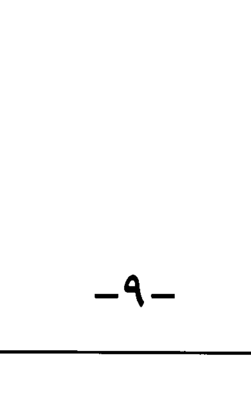
هذه المبادرة غير المتوقعة شحنت في الطفل الذي كنته شعوراً مبهماً بالشفقة على المخلوق الذي اعتدت أن أستثمر ضعفه حين أكون مع أقراني. لم أضحك لحركته، فتوقف هو، فجأة، كما بدأ فجأة، وتقدم نحوي، وقدم لي ظهره، وقال مداعباً: "أنت تعبان يا وسخ، اركب!". ولعلك تتوقع أن أكون قد رفضت العرض ما دمت قد بدأت مع الرجل بداية طيبة، أما في واقع الأمر فإن العرض شاقني، وطغت رغبتي في المتعة الميسورة على إحساسي بالشفقة على الضعيف، خصوصاً لأني كنت متعباً، حقاً. ركبت ظهر الأبله وجرى هو بي منوعاً حركته، فراح يقلد الحصان تارة، والحمار أو الجمل تارات أخرى، حتى أوقفه التعب. هذه الحكاية حملني التباهي على تعميمها بين الأولاد. فكان من نتيجة ذلك أن أضاف الصغار إلى فقرات عبثهم بعطا فقرة جديدة، وصار على المسكين كلما ظفرت به شلّة من شلل الأولاد أن يحملهم على ظهره الهزيل واحداً واحداً ويجري بهم وهم يقهقهون ويتصايحون، حتى يهدّه التعب.

وأتذكر يوماً كان مزاجنا فيه مهيئاً للعبث، افتقدنا عطا، فبحثنا عنه، فلم نظفر به. واشتدّ بنا الشوق لمعابثة الأبله، فتوسعنا في البحث، جبنا أركان القرية، وتفقدنا حنايا الوادي،

وفتشنا المكامن المخفية بين جذوع الصبار وأسيجة الحواكير، وتوغلنا في البراري، كلّ هذا دون طائل. فبتنا ليلتنا آسفين مضمرين الرغبة في متابعة البحث في اليوم التالي، وقد صار دافعنا هو التوق لمعرفة ما حل بعطا أكثر من الرغبة في معابثته. ومع بواكير الصباح، توزعنا زمراً، واتجهت كل زمرة إلى ناحية. وقد رافقت، أنا، زمرة الأولاد التي أنيطت بها مهمة البحث عن عطا في الناحية التي تلي البئر. توغلنا في الحقول حتى كلّت أجسادنا من المشي وأثقل لهيب الشمس خطونا وأنفاسنا، فعدنا مسربلين بالقلق والإحساس بالخيبة، وعادت الشلل الخائبة الأخرى لنلتقي وقد كبر السؤال: أين، إذن، عطا؟ وامتزجت النظرات التي نتبادلها بمشاعر الشفقة والإحساس الغاشم بالذنب. ولكي نهرب من المشاعر غير المريحة، توجهنا إلى منطقة البئر في غزوة من غزواتنا المألوفة لهذه المنطقة. هنا، وقعنا على عطا، ممدداً في ظل شجرة، في الطرف الأقصى للحقل المحيط بالبئر.

كان عطا مريضاً، كان يتوجع ويئن بنبرة يائسة تُفتت حتى كبد الصخر. وحرنا في أمرنا، فما الذي يمكن أن نفعله، نحن الأولاد، لنواسي مريضاً أبله تعتصره الآلام؟. حاولنا في البداية أن نضحكه كما كان يضحكنا، لكن آلام المرض كانت أقوى من تأثير محاولاتنا البائسة. وانتهينا إلى أن أشفقنا عليه شفقة سيطرت علينا، وطغت الرغبة في مساعدته بأي وسيلة. وتداولنا في أمر المساعدة لنكتشف أننا عاجزون عن فعل شيء، ولا بدّ من أنك تدرك مدى عجزنا، إذ ما الذي يمكن أن نقوم به، نحن الأولاد، لنشفي مريضاً في قرية يأتي فيها المرض ويروح، أو يروح المبتلى به، كما تأتي الظواهر الطبيعية المألوفة وتروح؟ وفي موقفنا العاجز، فطن أحد الأولاد لشيء، فاجتذبني ناحية، وقال: "اسمع! ما من أحد يقدر على شيء غيرك. جدّك سلمان رجل طيب، وهو لا يخيّب لك رجاء، قبّل يديه واطلب منه أن يؤوي عطا في داركم!". وبالفعل، لم يخيّب الجدّ رجائي فنقل عطا إلى الدار، وأفرد له مكاناً في البايكة، وأذن لراعيتي أن تعتني به.

وجد عطا المريض المأوى وتوفرت له الرعاية المثابرة، إلا أن حالته لم تتحسن. وبمضيّ الأيام، اشتدت العلّة على المريض حتى تعذر عليه أن يغادر الفراش، وتواترت نوبات الإغماء على نحو أثار أعمق القلق. وكان قلقنا، نحن الأولاد، هو الأشد، وكذلك كان حزننا. عندها، قام جدّي سلمان بما لا يقدم عليه الفلاحون، بمن فيهم مختارهم، إلا حين يتعلق الأمر بخطر يهدد حياة فتى عزيز من فتيانهم. شدّ جدي البغل على العربة، وحمل المريض إلى الطبيب اليهودي في مستعمرة كفار مناحيم. لازمت عطا أيام مرضه في دارنا وأيام نقاهته، وكان الأولاد يأتون لزيارته، فيسامرونه ويسلّونه ويعابثونه، دون شقاوة، وكان هو سعيداً كأسعد طفل بينهم. في تلك الأيام، توطدت علاقة من نوع جديد بين عطا والأولاد، ونما حبّ عطا لي كما نما حبّي له. وقد ظل الأبله الممتن للمساعدة لا يلقاني مرة إلا عرض عليّ أن أركب ظهره.



-٩-

الخليل والقدس ويافا وجدارة الانتماء للوطن

أهم الجولات في طفولتي كانت تلك التي زرت خلالها الخليل والقدس، وكذلك يافا، ومررت بما بينها وبين المسمية الصغيرة من بلدات وقرى. تيسرت لي هذه الجولة بعد أن كسرت ذراعي وشفاها المجبّر. فحين رجعت من السوافير الشرقية بجبيرتي الأولى، جاءت والدتي من المسمية الكبيرة لزيارتي والاطمئنان عليّ، والتقت بي في دار جدتي مدللة. كانت الوالدة، بطبيعة الحال، حزينة لما حلّ بي، وما كان للجبيرة الظاهرة ولا لتطمينات وضحة الكبيرة أن تطفيء قلق الأم على ابن كسرت ذراعه في غيابها وعالجه من لا تعرف من الناس. وقد بكت أمي يومها بكاء افرغت فيه ما يخزنه قلبها من هموم وأحزان قديمة ومستجدة. وفي تلهفها على إطفاء قلقها، نذرت الوالدة أمام الحضور أن تضحي من مالها الخاص بجدي لمقام أبينا إبراهيم الخليل وأن تزور القدس وتصلي في المسجد الأقصى وتقبل الصخرة المباركة، إن منّ الله عليّ بالشفاء. وأنت تعرف أن الجبيرة الأولى لم تنفع. وقد أجّج فشل العلاج الأول قلق الوالدة، فأكدت نذرها السابق، ونذرت أضحية جديدة تذبحها عند مقام النبي روبين. وحين استعادت ذراعي حالتها الطبيعية، جاءت الوالدة للزيارة مرة أخرى وتداولت مع جدتي مدللة أمر الوفاء بالنذور. وقد استقر الرأي على أن يتم الأمر في موعد يتفق مع موسم النبي روبين، أي مع الاحتفال الشعبي السنوي الذي يقام عند مقام هذا النبيّ قرب يافا.

وكان في قريتنا شيخ مسنّ غريب الأطوار اسمه الشيخ راغب، يتخذ لنفسه زيّ الدراويش،

ويتصرف على أنه رجل من رجال الله المبروكين، دون أن يكون أبلهاً، وقبل منه الناس ذلك. ويبدو أن حكاية النذور بلغت مسامع الشيخ راغب هذا، وقد جاء هو، على كل حال، إلى جدتي مهتاجاً، وروى لها أنه رأى في المنام نبيّ الله إبراهيم ونبيّه الآخر روبين، كما رأي نبيّ المسلمين المصطفى ذاته، وأن هذه النخبة من الأنبياء التي زارته في المنام كلفته، هو الشيخ راغب، أن يحثّ الوالدة على الوفاء بنذورها، ما دام الله قد استجاب لرجائها ومنّ على ابنها بالشفاء، وحذر الشيخ راغب الجدّة بعبارات تزلزل المشاعر من أن التلكؤ في أداء حقوق الأنبياء سيعرض الولد وأهله كلهم، وربما القرية بكاملها، لغضب ربّ السماوات. ونقلت الرسالة والتحذير إلى الوالدة في المسمية الكبيرة، فجاءت على عجل مصممة على أن لا يتعرض أحد لسوء بسبب تلكئها، وبعد مشاورات شارك فيها الشيخ راغب نفسه، وضعت خطة الجولة العظيمة بحيث نذهب إلى الخليل، ثم إلى القدس، ونرجئ زيارة النبي روبين إلى أن يحين موسمه. وأفتى الشيخ راغب بصواب هذه الخطة، دون أن ينتظر زيارة جديدة في المنام، وظفر الدرويش بترضية مناسبة أطفأت قلقه على حقوق الأنبياء المؤجلة.

على هذا النحو، تيسر لي أن أحظى بالجولة العظيمة، وأن أكون المحتفى به وسط الجماعة التي رافقتني. لا أتذكر الآن، بالضبط، الذين ضمتهم جماعتنا، ولكني أتذكر منهم الوالدة والجدّة وعدداً من أطفال الأسرة. وقد اقتضى الوصول إلى الخليل أن نركب في بداية الرحلة عربة يجرها بغل كي توصلنا إلى بيت جبرين، حيث يمكن أن نكمل الرحلة في الباص. ولأن بيت جبرين أبعد من أن تبلغها العربة في الوقت الملائم، نظمت الرحلة بحيث نبيت في دير الدبان التي تتوسط الطريق. ولك أن تتصور مقدار الحفاوة التي أحاطنا مضيفونا في دير الدبان بها. تلقانا الخال أبو عدنان ضيوفاً أعزّاء، وغمرنا بكرمه ومجاملاته. وكان عشاؤنا ومبيتنا ثم فطورنا في الدار التي اعتاد ناسها على الحفاوة بالضيوف من المباهج التي سيمضي وقت طويل دون أن أنسى طعمها. فالوليّة وبنتها وحفيدها، هؤلاء الأعزاء ومرافقوهم وهذه المناسبة الجليلة التي تجيء بهم إلى دار القريب المضياف، كل هذه من الأمور التي لا يحتاج الرجل إلى من يعلمه كيف يوليها حقّها الكامل من الاعتبار. والواقع أننا أمضينا في دير الدبان وقتاً طيباً. ولولا مغريات الفقرات التالية من الرحلة لتمنيت ان نبقى في رعاية مضيفنا الشهم أياماً وأياماً أخرى.

وفي وقت مبكّر من صباح اليوم الثاني، قبل أن يرتفع قرص الشمس ويشتد لهيبها، انطلقت جماعتنا نحو بيت جبرين، يرافقنا واحد من إخوة صاحب الدار بمثابة دليل. هناك، في القرية الكبيرة، أو البلدة الصغيرة، التي يعبرها الطريق المسفلت للوصول بين المجدل والخليل، اقتضى الأمر أن ننتظر بضع ساعات، زيادة على الموعد المتوقع لمرور الباص. وما كنّا نعرف أحداً في القرية، ولا قبلت الجدّة اقتراح مرافقنا بأن ننتظر في دار

واحد من معارفه. كانت الجدّة، على العموم، لا تحبّ الإثقال على من لا تعرف من الناس، وخشيت، في واقع الأمر، أن يمرّ الباص دون أن ينبهنا أحد لقدومه. وهكذا، أمضينا وقت الانتظار الطويل على الطريق، تكوينا حرارة النهار القائظ، وتلفّنا سحب الغبار المتتابعة، دون أن يقلل هذا من شوقنا إلى متابعة الرحلة. ولما ألجأنا الجوع إلى الشكوى، اتضح ان جدتي احتاطت للأمر، فظفرنا بما خبأته في صرتها من الزاد، بل تمتعنا، إلى ذلك، بحفنات من الزبيب والقطين اللذين زودنا بهما أبو عدنان قبل أن نغادر داره. وكان ذلك، في ظروف التلهف والانتظار القاسي في العراء، أعظم ما يمكن توقعه والظفر به.

وأخيراً، أقبل الباص. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها باصاً، فقد ألفنا في القرية رؤية الباص منذ أقيمت المستعمرة اليهودية في جوارنا. غير أن أمر هذه العربة المغلقة التي تسير على أربعة دواليب دون أن تجرها خيول أو دوابّ ويجلس الناس فيها هادئين بقي يحيرني على الدوام. وبالرغم من الشروح التي كثيراً ما تطوع الكبار بتقديمها، لم أتمكن في أي وقت من الأوقات من إدراك سر القوة التي تدفع العربة الكبيرة وتجعلها تسبق أي عربة أخرى عرفتها من قبل. وكانت تلك، على كل حال، هي المرة الأولى التي يتاح لي فيها أن أركب هذه العربة. كان الركاب القادمون مع الباص قد شغلوا المقاعد المصطفة في العربة بكاملها، وكان منهم من لم يجد مقعداً فقعد أو وقف في الممر. وهكذا توجب أن نتحاشر مع الذين سبقونا، وأن نحشر بيننا الصرر التي نشيلها والجدي المعدّ للأضحية، وأن نتطوح، على مدى الساعة التي استغرقتها الرحلة بين بيت جبرين والخليل، دون أن نتمكن حتى من التنفس بطلاقة. لم تكن هذه السفرة في الباص، إذن، مريحة. إلا أن المتاعب التي تكبدناها لم تقلل من الأثر البهيج لمغامرة التطوح في مواصلة عامة يكتظ في صندوقها هذا الحشد كله من الناس، وتنطلق، هي، بهذه السرعة الفائقة. وبالرغم من محشري بين الأرجل المحيطة والأذرع التي تتدافعني، فإن اهتياجي الذي أججته الرحلة لم ينطفئ لحظة واحدة.

أما لحظة بلوغنا الخليل فما أصعب أن تصفها الكلمات! وأين هي اللغة التي تستطيع أن تصور لك مشاعر الطفل الذي لم يرَ في حياته إلا ثلاث أو أربع قرى صغيرة، حين يجد نفسه، فجأة، في مدينة لها جلال مدينة إبراهيم الخليل وجمالها الأخّاذ. كانت الشمس المائلة إلى الغروب تبثّ إشعاعاتها الوضاءة فتغمر الدور الحجرية فتستخرج من بريقها ألواناً يتعذر تحديدها، وتنعكس على النوافذ الزجاجية فترتد حزماً متشعبة، فيتشكل من هذا كله مهرجان من الألوان الممتزجة والمتداخلة، ويملأ النفس بالهيبة. لقد كنت مدهوشاً إزاء هذا الزجاج الذي تحويه كل دار. كنت أرى الزجاج لأول مرة، وقد ظننت، للوهلة الأولى، أني إزاء مرايا ينصبها الناس على نوافذ دورهم لغاية لا أعرفها. وحين حملني

الفضول على الاستفسار، قدمت لي الجدّة إيضاحاً لم أفهم منه إلاّ أني مخطئ وأن الأمر ليس أمر مرايا، فازدادت حيرتي. والحقيقة أن كل ما في المدينة أدهشني: الشارع الطويل والفسيح الذي عبره الباص وهو يتجه إلى المركز، والشوارع العديدة التي تتفرع منه في شتى الاتجاهات، والدور الموزعة على الجنبين، والحوانيت المتجاورة، ونداءات الباعة الواقفين إزاء بسطاتهم، وحركة الناس الدائبة وزحامهم، والعربات العديدة التي تدفعها الأيدي أو تجرها الدواب، وكذلك السيارات وهي غادية رائحة في الاتجاهين دون أن تتصادم، وزمامير السيارات، والضجيج الفتان الذي يصنعه هذا كلّه. عالم غني يستهوي القادم من القرية الهادئة ويستغرق مشاعره.

كان مضيفونا الذين سننزل في دارهم في انتظارنا في ساحة المدينة المركزية حيث توقف الباص وأفرغ حمولاته. رجل وابنه الشابّ وبعض الأطفال أحاطوا بنا لحظة نزولنا من الباص ورحبوا بنا بمودّة وأدب ظاهرين، ثم اقتادونا إلى الدار القريبة. هنا، في الدار الحجرية ذات الطابقين التي تدهشك هيئتها الأنيقة حتى قبل أن تدخلها، كانت في الانتظار مفاجآت أخرى عديدة مدهشة. قبل كل شيء، كانت النظافة التي تشع في كل شيء تجعلك تحس، أنت القادم من جو آخر، بأنك في مكان لست أهلاً للحلول فيه. لقد دهمني إحساس كهذا فور دخولي الدار وأنا أقارن بين حالنا وحالهم هنا، بين ملابسنا المغبّرة وأجسادنا المتربة وأناقة ملابسهم ونظافتهم، وكذلك الحجرات المتعددة، متنوعة الحجوم والأشكال، والأثاث الذي يتوزع أركانها، والحيطان التي يلمع دهانها الأبيض الأملس، والشرفات التي تحيط بطابق الدار الثاني فتستطيع أن ترى منها أطراف المدينة كلها، ثم هذه المصابيح الكهربائية المعلقة في السقوف. لكم شغلني التفكير في كنه الكهرباء منذ حدثنا عنها جدّي عبد المجيد، وها أنا ذا أرى مصابيحها رؤية العين معلقة في السقوف. لست أتذكر من الذي شاء أن يدهشنا فدعانا إليه وضغط أمامنا على زر صغير ملتصق بالحائط ثم وجه نظرنا إلى السقف لنرى مصباحه المشع بالنور المتميز وسط نور الحجرة المغمورة بأشعة الشمس. كان ذلك، حقاً، حدثاً من الأحداث. ومع أني سمعت من قبل عن عجائب الكهرباء، فإني لم أصدق الأمر يجري على هذا النحو، لا نار ولا دخان ولا زيت ولا نفط، ولا حتى حطب، ثم هذا الضوء الذي يطل من أعلى فكأنه صديق يضحك لك أو جنّي يمازحك.

لقد شئت أن أجرب الأمر بنفسي، غير أن الجدّة التي اجتذبها صخبنا فدخلت المكان في تلك اللحظة منعتني بحزم. وقد حذرتني الجدّة من أن العبث بالكهرباء خطير وقد يسبب الموت. وصار على عقلي المبلبل أن يقتنع، دون معرفة، بأن في الأمر خطراً، حقاً، وليس مجرد حرص من الجدّة على أن لا نعبث بأشياء مضيفينا. والواقع أن تحذير الجدّة لي

لاءم تهيّبي إزاء الأمر الغامض كلّه، إلا أنه لم يلغ فضولي ولم يطفئ توقي إلى التجربة. وقد تيسرت الفرصة، أو قل إنها تهيأت في نحو تصعب مقاومته، حين دخلت المرحاض. فهناك، وأنا وحدي، دون رقيب، واجهني الزر المسحور والمصباح الواعد، فما عاد بإمكان أي تحذير أو تهيّب أن يلجما رغبتي في المحاولة. وهكذا، ضغطت على الزر فدهمني ضوء غامر ملأ المكان الضيق كله. وما كان أشدّ ابتهاجي حين أدركت أني قادر على التعامل مع هذه الكهرباء وإطلاق مكنوناتها! لكن المشكلة ابتدأت حين تذكرت أني لا أعرف كيف أطفئ هذا الضوء. وفكرت في ردّ فعل الجدّة المنتظر حين تكتشف أني جازفت. وحاصرني القلق والبلبال، فطال مكوثي داخل المرحاض دون أن أهتدي إلى مخرج من الورطة التي أوقعني فضولي فيها، ودون أن أجرؤ على المغادرة قبل إطفاء الضوء. وفي النهاية، لم يحدث شيء سيئ. اكتشف غالب، خالي الصغير الفضولي دوماً، أنّي أطلت المكوث في المرحاض، ودفعه فضوله إلى استطلاع الأمر، ولما فضحني الخوف الذي سربل وجهي حين فتح هو الباب، ركض غالب ليشي بي عند الجدّة. غير أن مضيفنا تدخل قبل تطور الحكاية، ولعلّه لم يفطن، أساساً، إلى وجود حكاية ما، ذلك أنه ضغط ضغطة صغيرة على الزر فانطفأ الضوء من تلقاء نفسه. وكانت الجدّة مشغولة بترتيب الأمور في الحجرة التي خصصت لمبيتنا فلم تول وشاية غالب ما توخاه هذا الواشي من اهتمام.

هذا الخلاص السهل من الورطة شجعني على العبث بالأزرار، بعد أن اكتشفت سر الكهرباء بكامله، فرحتُ أداعب هذه الأزرار كلّما أنستُ غفلة في العيون التي أخشاها، وأتلذذ بما حصلت عليه من خبرة.

وفي اليوم التالي، صحبنا مضيفنا وزوجته في زيارتنا للمقام المبارك، وما أزال أتذكر، إلى الآن، شكل المغارة التي تضمّ رفات إبراهيم الخليل، وأتذكر، مع المغارة، وقفة والدتي وجدتي الخاشعة وأيديهما المتشبثة بقضبان القفص المحيط بالمقام، وابتهالاتهما الحارة، والرنة التي يتردد بها اسمي في هذه الابتهالات. ثم لا أتذكر شيئاً عدا هذا.

أما ما تختزن ذاكرتي تفاصيله فهو الاحتفال الذي أعقب زيارة المقام. فلأمر ما، لم أدركه، تعذر القيام بمراسيم التضحية في المسجد أو قريباً منه. ولأمر ما، أيضاً ، انتقلت جماعتنا كلّها مع مضيفنا وزوجته إلى الكرم الذي يملكه هذا المضيف في ظاهر المدينة: نصبات العنب الخليلي المثقلة بالقطوف، وأشجار التين التي تطالعك ثمارها السوداء الناضجة فكأنها عيون كبيرة تبادلك النظر وتجتذبك إليها، والمنزل الصيفي الفسيح الذي يتصدر الكرم، والمصاطب العديدة المحيطة بالمنزل من أطرافه الأربعة، والبئر المحفورة بجانب المنزل حيث يُختزن ماء المطر ويُستخدم على مدار العام. في هذا الجو الطلق،

انصرف الكبار لإعداد الأضحية وتقسيمها حسب الأصول، فيما أطلق الصغار لرغباتهم الأعنّة على آخرها. ذُبح الجدي، وقسم لحمه إلى ثلاثة أقسام متساوية، فوزّع ثلثه على الفقراء الذين سماهم أهل الدار، وثلثه الآخر على الأصدقاء، وطبخ الثلث الأخير مع جريش القمح على نار الحطب التي اشتعلت في الموقد، وفاحت الرائحة فملأت الفضاء، معلنة أن الوفاء بالنذر قد تم على أكمل وجه. وتوزعنا، نحن الصغار، أركان الدار والكرم، نتلذذ بطيباتها ونستكشف حناياها وخباياها وننشر الصخب والفوضى في كل بقعة.

وفي نهاية المطاف، مع حلول المساء، هدأ الجميع، وقد تعذر علينا أن نظل سارحين في أرجاء الكرم بعد أن أطبق الظلام وهبت النسائم الباردة على التلة التي تعلوها الدار الجبلية. ولم تعد الجلابيب التي لا نلبس سواها كافية لتدفئة أجسادنا التي أنهكها الطواف. فالتجأنا، نحن الصغار، إلى حجرة تعزلنا عن مجلس الكبار الذي التأم في حجرة أخرى. هناك، باح لنا غالب بأنه اكتشف المخبأ الذي يخزن أهل الدار فيه زبيبهم وقطّينهم. وأثار غالب فضولنا وهو يسترسل في وصف المخبأ ومحتوياته، حيث حبّات الزبيب التي يفوق حجم الواحدة منها حجم حبّة الفول، وفلقات القطين التي تملأ الواحدة منها الكفّ. ثم اقتضانا غالب أن نجمع له عشرة ملاليم، أي قرشاً بكامله، كي يدلّنا على المخبأ، شريطة أن لا نبلغ إلى الجدّة إن اكتشف أمرنا أنه كان دليلنا، وهكذا، اهتدينا إلى قبو صغير نستطيع أن نذهب إليه دون أن نمرّ بقرب الحجرة التي يسمر فيها ذوونا ومضيفوهم. في تلك الأمسية، تكررت روحاتنا وغدواتنا، إلى القبو ومنه، وأخذت بطوننا تنتفخ بما نقذفه فيها من الفاكهة المجففة اللذيذة دون أن نفكر في العواقب. وبقينا على هذه الحال حتى أتعبنا الكدّ وثقلت معدنا بأحمالها، واستسلمنا لنوم غير مريح.

في الصباح، أيقظتنا جلبة الدار والاستعدادت الجارية من أجل التوجه إلى القدس. ومع استغراق الكبار بتوفير مستلزمات الرحلة وانشغال بالهم بها، لم ينتبه أي منهم إلى عزوفنا عن الفتك بمائدة الإفطار الشهية التي أعدّها أهل الدار لضيوفهم. والواقع أنه لا رائحة السمن الفواحة، ولا طزاجة الزبدة، ولا البيض المغمور به وبها، ولا الزيتون متعدد الحجوم والأشكال، والأصناف الأخرى التي فردها أهل الدار على المائدة كانت قادرة على اجتذابنا أو تحريك الشهية التي انطفأت في الليل. ومن جهتنا، نحن جوّالي الليل، كتمنا السرّ ولم تصدر عنا أي إشارة إلى مغامرتنا وطيباتها ومتاعبها. بل إننا، نحن الذين بدأت آلام المعدة تناوشنا، أفلحنا في إخفاء ما نحس به. كُنا، بالطبع، نخشى الفضيحة، إلا أننا كنا نخشى، في المقام الأول، أن يرغمنا الأهل على تجرع زيت الخروع أو شرب محلول الملح الإنجليزي الرهيب ومنقوع السنمكّة المقزز. وبغياب فطنة الأهل واصطبارنا على الآلام، أمكن أن نغادر الدار والكرم دون أن تنفجر الفضيحة أو يفطن غيرنا إلى ما نعاني منه.

باص آخر انحشرنا فيه، فسار بنا على الطريق الجبليّ المتعرج بين الخليل والقدس. كان قرص الشمس الطالع على يميننا يملأ الفضاء بنوره، وكرم العنب والتين وبساتين الفواكه الأخرى تتوزع البقع الصالحة للزراعة ويثير حميتي للّغط والثرثرة، لو لم تشغلني الآلام التي تتداولني مع موجات المغص المتعاقبة التي تعصر الأحشاء. وحين فطنت والدتي إلى هدوئي غير المتوقع ونقلت ملاحظتها إلى الآخرين، قالت الجدّة المأخوذة حتى تلك الساعة بجلال الزيارة التي قامت بها للمغارة المباركة والزيارة الأخرى التي ستقوم بها للمدينة المقدسة: "بركة من الله!".

وعلى بركة الله، هذه، بلغت مع الجماعة القدس. وقف الباص، وأنا أتعجل النزول منه، أمام البوابة التي تخترق السور شاهق الارتفاع. ولابت عيناي، في الاتجاهات كلّها، بحثاً عن مكان ألتجئ إليه كي أتخفف من آلامي. ما أسهل الطريقة التي تتم بها الأمور في أفضية القرية الفسيحة! أما في هذا المكان المكتظ بالناس والأشياء فكل شيء معقد. لم تتسنّ لي، بالطبع، أي فرصة، ولم أجرؤ على البوح بحاجتي. وقد رافقت الجماعة المتعجلة لبلوغ المسجد الأقصى وأنا أغالب الآلام. عبرنا الأزقة الملتوية، يسلمنا زقاق للذي يليه، ومن حولنا الأبنية العالية والحوانيت التي تتراصف في البلدة القديمة وهذا الاكتظاظ بالخلق والأشياء والبضائع والضجيج. ولأني لم أدرك أن هذا هو حال المدينة في أي يوم تجيئها فيه، فقد ظننت أننا في يوم احتفال خاص، وأن الناس الكثيرين الذين يتدافعون من حولنا قد جاءوا، مثلنا، لغاية خاصة. عزز هذا الظن أن جمهرة الناس كانت مندفعة في اتجاه واحد.

هنا، كان بإمكانك أن ترى شتى أصناف الناس ومختلف الأزياء: أطفالاً من الجنسين، منهم من يلبس الجلابيب ومن يزدهي بزي المدرسة الخاكي، ورجالاً من كل الأعمار، ببذلات إفرنجية وياقات منشاة وربطات عنق وطرابيش يميزها لونها الأحمر فكأنها جمرات متقدة تعتلي الرؤوس في هذا اليوم القائظ، أو بقنابيز وجبب وعمائم تتماوج لفائفها البيضاء وسط الحشد فكأنها شواهد يهتدي بها السائرون كي لا يخطئوا الهدف الذي يتجهون إليه، أو الألوان والمقاييس، أو بسراويل واسعة تتأرجح طياتها بين السيقان. وتقع عيناك بين الحشد على نساء من ساكنات المدينة تكسوهن الملابس القاتمة المحتشمة، وأخريات من لابسات الأثواب المطرزة بألوانها الزاهية القادمات من الريف.

وهنا، في القدس، رأيت يهوداً لأول مرة عن قرب، بل لقد لامس جسدي أجساد بعضهم في أحد المنعطفات المكتظة بالناس. وكان أقرب من رأيت من هؤلاء اليهود جماعة صغيرة بارتنا في مشوارنا إلى مركز المدينة. عرفت أنهم يهود لأن الناس من حولي تهامسوا

بشأنهم فاجتذب أمرهم انتباهي بالرغم من حالتي التي تعرفها. وقد تميز أفراد الجماعة بالزي المثير الذي يلبسونه، فالواحد منهم يلبس بذلة إفرنجية، لكنه يتوج رأسه بطاقية قريبة الشبه من الطاقية التي يلبسها الفلاح في قريتنا، لا يميزها عن طاقية الفلاح إلاّ ألوانها الكثيرة المتداخلة، حتى لتبدو كأنها زبدية مزركشة وضعت على الرأس بالمقلوب ولم يتسق وجودها مع البدلة الإفرنجية التي تكسو البدن. وكان أفراد الجماعة يسيرون صامتين أغلب الوقت، وإذا تحدث واحدهم نطق بكلمات قليلة هامسة، ولم نتمكن من تمييز لغتهم، فلم نعرف ما إذا كانوا يتحدثون بالعربية أو يرطنون بلغة أخرى، وكان حرصهم على ألا يحتكوا بالناس من حولهم ظاهراً تماماً، وقد بقيت أنظارهم أغلب الوقت مغضية، فإذا وجه أحدهم النظر لأحد منا رمقه بنظرة خاطفة سرعان ما يستردها. وقد أثار هذا كله انتباهي، فسألت الوالدة، فضغطت بيدها على يدي، وهمست بنبرة حازمة: "اسكت، ليس هذا وقته"، فسكتُّ.

كان في المشهد المتحرك من حولي الكثير مما يجتذبني ويسترعي انتباهي الكامل. وكان من شأن هذا ان يفتنني ويصرفني عن الآلام التي تعتصرني، وراحت جماعتنا تزاحم الحشد كي تصل إلى المكان المقصود، وأنا اتبع الجماعة، وكلي حرص على أن لا أنفصل عنها وسط هذا الزحام. في هذه الحشرة وفيما بقي المغص يتناوبني بموجاته المتعاقبة وأنا لا أهتدي إلى حل، اكتشف غالب فرصة جديدة لاقتناص بعض القروش من الأولاد. جاءني الولد الذي لا يفوت الفرص وفي عينيه تلك النظرة الواثقة من أني سأخضع له، وهمس في أذني بنبرة مخاتلة: "ادفع قرشاً، قرشاً بكامله والحل عندي". وقد غاظتني نبرة غالب المبتزّة ونظرة عينيه أكثر مما غاظني العرض ذاته. ولا بدّ من أنك تقدر مقدار ضيقي بهذا اللؤم. وبالرغم من حاجتي الشديدة لأي مخرج، رفضت عرض غالب، وصرفت نهاز الفرص هذا بنظرة غاضبة، فانصرف عني متشاغلاً بالنظر إلى ما يحيط بنا، واهملني بعد ذلك تماماً. وكان أن لحقت أنا بغالب بعد قليل: "أدفع لك خمسة ملاليم، ليس معي غيرها"، فلم يأبه لي.

لحظتها، كنا قد بلغنا بوابة المسجد، وتدافعت جماعتنا للدخول إلى الحرم المقدس. وقد بلغنا بوابة المسجد، فيا للمشهد الذي تنفتح فيه القلوب على أمديتها الواسعة! أنبجس كل الناس من الزقاق الضيق بعد تحاشرهم فانتشروا في الفضاء المكشوف وأمامهم هذه القبة الرائعة التي تعلو مسجد الصخرة وتتوج المشهد كله، لقد أخذتني روعة المكان فلم أنتبه لما عداها. وحين ثبت إلى نفسي، كان غالب والأولاد الآخرون قد اختفوا، فيما كانت بقية الجماعة متجهة إلى مسجد الصخرة كأنها مجذوبة إليه بقوة سحرية. وقد بدا أن الجمع نسوني، فتحركت معتزماً اللحاق بالجماعة. وفي تلك اللحظة، دهمتني موجة ألم لا طاقة

لي على احتمالها، ولم يعد، بمقدوري، بعد، أن أقاوم، فلابت عيناي تستطلعان أرجاء المكان الفسيح. فلما وقع نظري على كومات من الحجارة في أحد الأركان التي لا يتجه إليها الناس وقدرت مدفوعاً بالحاجة التي لا تغلب أن بإمكاني أن أختفي بين هذه الكومات، اندفعت إلى تلك الناحية. هناك، تخففت من آلامي بأسرع ما أستطيع، دون أن أنتبه، أو أن أكون قادراً على الانتباه، لأي شيء آخر. ولم أقدّر، بالطبع، أيّ عواقب محتملة لفعلة قبيحة كهذه التي فعلتها. وحين نهضت وأرخيت أطراف جلابيتي معتزماً اللحاق بجماعتي، انتصبت في مواجهتي قامة الحارس ووجهه الذي روعته فعلتي، قامة ضخمة لمارد أسود اللون ووجه متجهم، وعينان متقدتان بالغضب. ودون سؤال أو جواب، وقبل أن أفطن لأي شيء يمكن عمله في هذا الموقف، أشرع المارد خيزرانته الطويلة فانهالت الضربات على جسدي ضربة إثر ضربة، فيما علا عويلي فملأ أرجاء المكان واجتذب أنظار العابرين. وكانت الفضيحة التي تستطيع أن تتصور أبعادها دون أن أصفها لك. تحررت من آلام البطن، لكني حملت أوجاع الظهر والكتفين، وأحاطت بي شماتة الأولاد الذين استولى غالب على قروشهم، ولدغتني وخزات الخزي الذي سربل روحي وجسدي.

وبحملي الجديد، وبحكم أني الولد المحتفى به، رافقت الجماعة أثناء الجولة التي تبعت زيارة المسجد. زرنا مساجد أخرى. ودخلنا كنيسة القيامة، فوقفت متهيباً أمام الجلال الذي يغمر المكان. وتابعت دون فهم حركات القساوسة والرهبان بخطواتهم الهادئة ومسوح التقوى التي تجلل وجوههم والأزياء التي تضفي على قاماتهم سمات غامضة. ووقفت أمام القبر المقدس. وراقبت بعيون مدهوشة مراسيم زيارة القبر، الدخول إليه والخروج منه، والطريقة المهذبة التي يتبعها سدنة القبر من القساوسة كي يلزموا الزوار باتباع الطقوس المرسومة دون أن يثيروا الضجيج أو يسمحوا بأي اضطراب. ولا شك في ان مشهد جماعتنا الضاجّة التي لا تعرف شيئاً من هذه الطقوس، بل لا تعرف أن للزيارة طقوساً بعينها ينبغي اتباعها، قد اجتذب انتباه السدنة والزوار الآخرين، فكانت العيون ترمقنا، وفي بعضها استغراب وفي بعضها الآخر استنكار. ونشطت حركة السدنة، وتقدم واحد منهم لا يتكلم العربية، فوجه الجماعة وأشار إليها بضرورة التزام الصمت في حضرة صاحب القبر.

ولأني كنت في الحالة التي تعرفها، فقد كنت الصامت الوحيد والهادئ الوحيد بين أفراد الجماعة. ولا بدّ من أن شيئاً ما في هيئتي قد لفت نظر القسيس الذي تولى أمر جماعتنا وأعجبه. وعندما همّت الجماعة بمغادرة الركن الذي يقوم فيه القبر المقدس، أشار لي هذا القسيس كي أنتظر. لم أدرك ما الذي يريده منى الرجل الغريب، ولكني انتظرت. وقد غاب القسيس لحظات عاد بعدها وفي يده سلسلة وصليب فضيان وعلقهما في رقبتي. لم

أدر ماذا أفعل، ولم أجد أفضل من أن امسك بيده وأُقبّلها، كما نفعل في القرية حين نعبّر عن احترامنا للناس الأكبر منا سنّاً. وقد فعلت ذلك بعجلة سببها الارتباك، ثم انطلقت جارياً لألحق بجماعتي، ناسياً، بطبيعة الحال، أني ظفرت بهذا التكريم الخاص لأني بقيت هادئاً أثناء الزيارة. كانت الجماعة واقفة باندهاش أمام الركن الذي يضم أكوام الهدايا والنذور الممنوحة للكنيسة: أكوام حقيقية من الحلي الذهبية والفضية والمجوهرات والتحف متنوعة الأشكال والحجوم، وفي وسطها يشعّ تاج كبير، بحجم الرأس، مزين بما يبهر الناظر إليه من الدرر. وفي وقفتهم تلك، لم ينتبه أي من أفراد الجماعة للهدية التي فزت بها، وكان توقي شديداً لأن أجذب انتباههم إليها، إلا أني لم أهتد للوسيلة الملائمة. فلما غادرنا الكنيسة وصرنا في الفضاء الذي يصلها بمسجد عمر، لم أستطع أن أحبس توقي لمدة أطول، فبادرتُ الوالدة، وقلت وأنا أمسك الصليب بين أناملي:" ذاك الرجل، عند القبر، أعطاني هذا".

وانتقل النبأ إلى الجماعة، فصرت للتوّ في مركز اهتمام الجميع، وقد أثار الأمر فضولهم بأكثر مما توقعت، وأطلق ألسنتهم بالتعليقات والشروح. وكانت الحقيقة التي أكّدتها الوالدة، وهي أن الهدية من الفضة الروباص، أي النقية، هي التي أثارت أشد الاهتمام. ويبدو أن غالب المتحفظ بتجاهله لي لم يعجبه فوزي بهذه الهبة النادرة وقد علق بنبرة حاقدة: "هذا ما كان ينقص أبو ..." وقذف بشتيمة تذكر بفعلتي بين أكوام الحجارة. وحدها، الجدة وقفت إزائي صامتة بعض الوقت، وقد بدا أنها لم تؤخذ بما أخذ به الجميع، وهو القيمة المادية للهدية، ثم فاهت بنبرة من فكر في الأمر :"بركة من ربّ السماء، هذا اليتيم فيه شيء لله". وهمست الجدّة بشيء في أذن الوالدة، فجاءت هذه إليّ وانتزعت الهدية من رقبتي، وهي تقول: "قد تضيعها، سأحفظها لك" ولم أجرؤ على الاعتراض.

في القدس، ركبت التاكسي لأول مرة في حياتي. لم أدر، في حالة الذهول التي تلبستني بعد الفضيحة، لماذا توجب أن تنتقل جماعتنا بالتاكسي. ولم أعد أتذكر المكان الذي توجهنا إليه أو لماذا قصدناه. كل ما أتذكرهُ أن وجودي في السيارة الفخمة المريحة والتهزهز المثير على كرسيها الخلفي قد أبهجاني. بل إني لم أتذكر، أيضاً، أن السائق لم يتمكن من الوقوف قرب المكان المقصود لأن رجل بوليس كان يراقب هذا المكان، فاضطر السائق لأن يدور بنا دورة طويلة بعد أن جهر بشتيمة مجلجلة ضد البوليس ورجاله. كان السائق، بالطبع، مستاء، أما نحن فإن المتعة الإضافية أفرحتنا. وقد انطلقت صرخاتنا المهتاجة، فاغتاظ السائق وجلجل بشتيمة أخرى مناسبة وأمرنا بالتزام الصمت.

وفي القدس، أكلت لأول مرة في حياتي، أيضاً، في مطعم، واكتشفت أن من الممكن للمرء

أن يأكل في مكان يرتاده كلُّ الناس، وأن يظفر بأنواع متعددة من شهي الطعام، شريطة أن يدفع ثمن ذلك نقداً، وعلى الفور. وفي القدس، عرفت، لأول مرة، أيضاً، أن القهوة والشاي اللذين نتناولهما في القرية مجاناً، وكذلك المرطبات المعبأة في قوارير زاهية الألوان، يمكن الحصول عليها في مكان عام، حيث تجيء إليك مع خادم وأنت جالس أمام طاولة على كرسي، إذا دفعت الثمن. وكان هذا، بالنسبة لي، واحداً من أغرب الاكتشافات. وبالرغم من استخذائي، سألت الوالدة ونحن جالسون في المقهى: "لماذا لا يوجد في قريتنا مطعم ومقهى؟". وعجزت الوالدة عن الإجابة، فاستنجدت بالجدة: "شوفي الولد، عن أي شيء يسأل!". فقالت الجدّة بنبرة تقريرية: "أهل القدس بخلاء، لا يطعمون الغرباء في دورهم. ومن ليس له في المدينة قريب أو صاحب فعليه أن يذهب إلى المطعم". وكانت هذه، أيضاً، بالنسبة لي، واحدة من الغرائب. ومع أني ربيت على أن أعدّ البخل رذيلة، فإن مسألة الأكل في مطعم بقيت تستهويني.

وبعد أن أتممنا تطوافنا في المدينة، واجهتنا مشكلة العودة إلى المسمية الصغيرة. جئنا إلى محطة السيارات في الوقت الذي يفترض أن ينطلق فيه الباص الذي يتجه من القدس إلى المجدل، وهو الباص الذي يمرّ بالقرب من قريتنا، لنكتشف أنه قد انطلق قبل مجيئنا. وكان المبيت في فندق خارج البحث بسبب كلفته المرتفعة ورفض الجدّة رفضاً قاطعاً أن تبين في مكان غريب. واقترح أحدهم أن نعود إلى الخليل فنبيت عند مضيفينا فيها ثم نعود إلى القرية في اليوم التالي عبر بيت جبرين ودير الدّبان. غير أن الجدّة أبت أن تثقل على الناس، مرة أخرى، ورأت أننا، بهذا، سنطيل الرحلة بغير لزوم. وأخيراً، استقرّ الرأي على الذهاب في الباص المغادر تواً إلى يافا، إذ، بهذا، يمكن اللحاق بالباص الآخر المتجه من يافا إلى غزة، كما أوضح صاحب الباص، ويمكن لنا أن نكون في قريتنا قبل حلول الظلام. وهكذا، تهيأت لي متعة إضافية أخرى: دورة طويلة في الباصات ورؤية أماكن جديدة في البلاد.

على هذا النحو، عرفت يافا، عروس الساحل الفلسطيني، كما يسميها أهل فلسطين. هنا، يتوجب عليّ أن أعترف لك بأني لم أعرف من يافا إلا ما يمكن لطفل محشور في باص أن يراه منها. ذلك أننا اضطررنا للانتقال فوراً من باص إلى آخر في وسط البلدة، وغادرناها بعد دقائق من وصولنا إليها، دون أن نتمكن من إمعان النظر في أي شيء. إلا أن هذه النظرة إلى البلدة لم تكن بغير أهمية. فحين جاء الوقت الذي صار من المتعذر علي فيه أن أزور يافا، بقي لي أن أقول، حين يجيء الناس على ذكر بلد الميناء والثورات، إنيّ أعرف المدينة. وينطبق الأمر ذاته على البلدان والقرى الأخرى التي يعبرها الباص بين القدس ويافا أو بين يافا والمسمية. وحين يجلس الفلسطينيون بعضهم مع بعض ويستخرجون

مخزون الذاكرة عن الوطن الذي أخرجوا منه بعد أن صار هذا المخزون هو الوطن ذاته بالنسبة للمنفيين، ففي مقدوري أن أثبت جدارة أقوى بالانتماء للوطن، فأروي بثبات أني أعرف، معرفة شخصية، أنحاء عديدة من هذا الوطن، وأعدد أسماء المدن والقرى الكثيرة التي عبرتها أثناء تلك الجولة.

-١٠-

الشيخان وحماراهما، وسنة الدراسة الأولى

أشد أيام طفولتي في المسمية الصغيرة حضوراً في الذاكرة هو يوم دخولي المدرسة، ليس لأن هذا اليوم هو أول أيامي على درب التعليم الطويل، فحسب، بل لأنه، أيضاً، اليوم الذي اقترن بفضيحة مازلت أحسّ بوخزة خجل كلما تذكرتها.

بلغت السادسة من عمري. وكانوا في المدرسة لا يقبلون إلا من بلغ السابعة. وقد اشتهى جدي سلمان أن يرسلني إلى المدرسة مبكراً، وكان يرى أني مؤهل لها. واستخدم الجدّ نفوذه كله، ووسّط الوسطاء، ولعله، أيضاً، دفع الرشوات حتى حصل لي على إذن خاص من إدارة التعليم في لواء غزة. وتصادف أن مدير المدرسة في ذلك الوقت كان واحداً من أصدقاء أبي، ولعلّه كان رفيقه في الجهاد، أيضاً، فسهل الأمر. كانت المدرسة للصبيان وحدهم. أما البنات فلم يكن لهن في مسميتنا الصغيرة مدرسة، ولم يجازف أحد بإرسال بناته إلى مدرسة الإناث في المسمية الكبيرة. وقد تضافرت من أجل إنشاء مدرسة الصبيان جهود أهل المسميتين في وقت من الأوقات التي ساد فيها الوئام بين القريتين. وقد وجه أهالي القريتين العرائض للمسؤولين وعملوا ما يلزم مما هو مشروع أو غير مشروع، من أجل استمالة ذوي الشأن، حتى ظفروا في نهاية المطاف بالموافقة على فتح مدرسة حديثة يتعلم فيها أبناء القريتين. وجمع الأهالي كلفة إنشاء المبنى، وتكفلت إدارة التعليم بالأثاث وأرسلت المعلمين. ولإرضاء القريتين كلتيهما، وتجنباً لمنازعات كان من المحتمل أن تشتعل، أقيمت المدرسة على تلة تقع خارجهما كلتيهما، وإن كانت التلة أقرب

إلى المسمية الكبيرة منها إلى المسمية الصغيرة. وكان على أولاد المسمية الصغيرة أن يمشوا قرابة ساعة كي يصلوا إلى المدرسة، هذا إذا اجتاز الماشون الوادي وساروا عبر الحقول في خط مستقيم. أما حين يتعذر التخويض في الحقول وحولها أو اجتياز الوادي في أوقات المطر الكثير ويتوجب على التلاميذ أن يستخدموا الطريق المعبد، فكان هؤلاء يدورون دورة طويلة، فيقتضيهم المشوار ساعتين في الذهاب ومثلهما في الإياب.

كانت المدرسة حكومية، فهي لا تتقاضى تلاميذها رسوماً نقدية. وكان الأمر من هذه الناحية سهلاً وفيه تشجيع للفلاح على إرسال أولاده إلى المدرسة. بالرغم من ذلك، ما كان الأمر يخلو من تضحية، إذ إن في ذهاب الولد إلى المدرسة خسارة للأسرة التي تحتاج لجهود الأولاد في العمل في الحقول أو رعي المواشي أو جلب الحطب. ثم إن المدرسة كانت تفرض أشياء بعينها تتكلف نفقة لم يألفها الفلاحون من قبل. فهناك الزّي المدرسي الذي ينبغي شراؤه من المدينة والأحذية التي لا يجوز الذهاب إلى المدرسة من دونها وأثمان الأدوات التي يستخدمها التلميذ للكتابة، وهناك، أيضاً، الغرامات التي تتكبدها الأسر حين يخرّب أبناؤها شيئاً من أدوات المدرسة أو أثاثها، وكذلك الهدايا وأشكال التكريم الأخرى التي توجب التقاليد على أرباب التلاميذ أن يقدموها للمعلمين. ولذا، كان الموسرون، وحدهم، هم القادرين على إرسال أولادهم إلى المدارس. أما المعسرون فهم لا يقدرون على ذلك، أو يرسلون بعض أولادهم ويحتفظون ببعضهم للمشاركة في أعباء العمل.

بعد أن ضمن جدي سلمان تسجيلي في المدرسة، وكان ابنه محمد قد سبقني إليها، ذهب الجدّ إلى المدينة فجلب لنا الكسوة التي توجب الأنظمة أن تتوفر للتلاميذ. وكان الزّي المعتمد هو القميص والبنطلون الخاكيين. وقد أوجبت الأنظمة أن يستخدم التلاميذ الملابس الداخلية التي ما كنا نعرفها، وكذلك، بالطبع، الأحذية التي لم نألف استخدامها من قبل إلا في المناسبات الكبيرة، كأن يكون ثمة عيد أو عرس أو زائر عالي المقام بحيث يتوجب أن نظهر أمامه بمظهر محترم. وحين صارت صرة الملابس الفتّانة في حوزتي، لم تعد الدنيا تسع فرحتي. سُلمت الصرة في اليوم الذي سبق ذهابي إلى المدرسة إلى راعيتي. وقد أمضيتُ النهار كله وأنا أتردد على الحجرة التي وضعت الصرة فيها، وأتفقد كنزي، وأكتشف فيه المزيد من المدهشات في كل مرة، وأتلذذ بملامستها والتفرج عليها. واستجابة لإلحاحي والدموع التي فجّرها اهتياجي الشديد، ألبستني وضحة الكبيرة في ذلك اليوم الثياب مرة واحدة، من قبيل التجربة، ثم أبت أن تعيد الكرّة رغم توقي الشديد لذلك، بل أفهمتني أن إعادتها من المستحيلات. ولما هجع أهل الدار، لم يواتني النوم، فبقيت ساهراً مؤرقاً، تحثني راعيتي على النوم فأتظاهر بمطاوعتها، حتى

إذا أغفت هي، حركني اهتياجي من جديد وبلبل مضجعي. وقد أشفقت راعيتي عليّ بعد أن أعيتها الحيلة، فأذنت لي بأن أضم الصرة إلى فراشي. فاحتضنتُ الصرة الأثيرة واستسلمت لنوم مضطرب تتخلله الأحلام المقلقة وتقطعه الصحوة تلو الأخرى. وكنت أهبّ من نومي إزاء أيّ إشارة أو نأمة، متوهماً أنه صياح الديك الذي يعلن قدوم الفجر، فأوقظ راعيتي إن لم تستيقظ من تلقاء نفسها. وكان على المسكينة أن تهدئني أكثر من مرة وتعيدني إلى الفراش. وهكذا، إلى أن ظهرت أولى إشراقات الفجر الصادق، فما عاد بمقدور أي شيء أن يحبسني في الفراش. وصار على المرأة الطيبة أن تنهض وهي نصف نائمة، فتبدأ بإعدادي لليوم الجديد المشوق.

لم يكن الظلام قد تبدد، بعد، حين أصبحت نظيفاً ورحت أختال في الحجرة بهندامي الجديد. وما كادت الراعية تفرغ من شدّ شريطي الحذاء والتأكد من وجود الأزرار في عراها المناسبة، حتى انفلتُّ من يديها وجريت جرياً إلى المضافة. هناك، كان جدي سلمان وحيداً، وقد فرغ من أداء صلاة الفجر وأتمّ قراءة الحصة اليومية من القرآن وردد الأدعية التي يطيب له أن يرفعها إلى السماء في هذا الوقت بالذات، وانصرف لإعداد القهوة في انتظار زوار المضافة المبكرين الذين يجيئون للتحية أو للتشاور في شأن من الشؤون قبل الانصراف للعمل. واقتحمت المضافة اقتحاماً، ووقفت إزاء الجدّ المنشغل بتنقيل شراب البنّ بين البكارج العديدة المصفوفة على الكانون، منتظراً أن يتفاجأ الجد الحبيب بهيئتي الجديدة وأن يشاركني الإعجاب بكسوتي الفاخرة. وقد مدّ الجدّ نحوي نظرة حانية ومتفهمة، دون أن يبدو عليه أنه فوجئ باقتحامي عزلته في هذه اللحظة المبكرة أو بالهيئة الجديدة التي يراني فيها لأول مرة. ثم دعاني الجد إليه وأجلسني في حضنه متحسساً الملابس التي أبهجني ارتداؤها كل هذه البهجة ومتأكداً من ملاءمتها لي. ولم ألبث أن رأيت دموعاً تتماوج التماعاتها على وهج نار الكانون في عيني الجدّ الحاني. فقلت، بنبرة الطفل الذي يظن أن جدّه الحبيب حزين دون أن يفهم سبب هذا الحزن ولهفته على أن يتأكد من أن ظنه ليس في محله: "سيدي، أنت تبكي؟". ولم يجب الجدّ عن السؤال، بل غالب انبثاقة الدمع من عينيه، وراح يقلّب الجمرات المتقدة أمامه ويكشّ الدخان المتصاعد. وحين انتبه الجدّ إلى أني قلق فعلاً، شاء أن يطمئنني، فقال وهو يفرد وجهه ويملأه بابتسامة: "الدخان، هو الدخان، لا شيء غيره". وكنت بحاجة لأن أقتنع، فاقتنعت. ورحت أتنطط في أنحاء المضافة الخالية، وأنا أستعرض مظهري الجديد أمام جدي، والجد يضحك، فيما تتناوب عيناه النظر إلي، تارة، وإلى البكارج التي يوشك سائلها أن يفور، تارة أخرى، ويداه تتناوبان تنقيل البكارج أو تجفيف عينيه المبللتين. وكان جدي يردد في غضون ذلك: يا ليتك بقيت حياً يا رشاد! وفي حالتي تلك، بعد أن ظفرت بما يكفي من

اهتمام جدي، لم أطق المكوث طويلاً في المضافة، لكن كان عليّ أن أنتظر حتى تصبح القهوة جاهزة لكي أنال الفنجان المحلى بالسكر الذي وعد الجدّ بإعداده لي من قهوته المرة. وقد قدم لي الجد الفنجان بعد أن تأكد بنفسه من طيب مذاقه، ثم قال بنبرة من يقرر أمراً: "كبرت يا ولد، وصار لك الحق في فنجان قهوة كل صباح، تشربه قبل أن تذهب إلى مدرستك".

ولكي تدرك مغزى هذا الوعد بتمامه، عليّ أن أستطرد هنا لأقول لك إن شرب القهوة في المضافة حق من حقوق البالغين وحدهم. ولكي يحصل الولد الذي كبر على هذا الحق، أي لكي يعدّ في منزلة البالغين، عليه أن يجترح عملاً من الأعمال التي يعدونها في تقاليد الحمائل من مهام الكبار، كأن يقتل وحشاً، أو يفوز في سباق لطراد الخيل، أو يشترك ويجلّي في عراك يدافع فيه عن الحمولة، أو يقتل أحداً أخذاً بثأر، أو يتزوج، أو يفعل شيئاً آخر من هذا القبيل، وفي القرية يسمون عملاً كهذا نفيلة. وما كان أشدّ تساهل جدي سلمان معي، وهو تساهل أوقعه فيه حبّه المفرط لي، حين عدّ انتسابي إلى المدرسة دليل نضج واحتسبه بين النفائل التي ترتب لي حق تناول القهوة في مضافته! ومهما يكن من أمر، فقد رشفت السائل اللذيذ على عجل، وفزت بقرش كامل خصني به الجد في هذا اليوم الاستثنائي وقبلةٍ طبعها على خدي، ثم انفلتّ من المضافة، وغادرت الدار.

شغلني في تلك اللحظات هاجس واحد: أن يراني الناس وأنا أتباهى أمامهم بالزيّ الجديد. كانت الملابس المدرسية التي جلبها الجدّ مطابقة لمقاسي. ولكني أحسست بجسدي المعتاد على لبس الجلاليب الطلقة محبوساً في هذه الملابس. وتعرض عقباي للحسٍ مؤلمٍ من حافتي الحذاء. بالرغم من ذلك، لم آبه للأمر، وشاقني أن أعرض نفسي في أرجاء القرية، فرحت أتجوّل، هنا وهناك، آملاً في أن تقع عليّ العيون. كنت أسير بعض الوقت هادئاً، وأنا أضبط حركاتي كي تتسق مع أبهة هندامي، ثم أنسى متطلبات الأبّهة فأهرول، أعبر الزقاق من أوله إلى آخره، وأدور حول الدور، ثم أعود إلى الزقاق وأعبره من جديد، وأتمهل حين أستشعر نأمة تشي بأن هناك إنساناً قادماً. كررتُ الأمر هذا، كلّه، مرة ومرات، دون أن يمر أحد أو تقع عليّ عين. فكأن الناس قد حبسوا أنفسهم في دورهم في هذا الصباح بالذات ليحرموني من لذة إدهاشهم.

وبينما أنا لائب وقد بلغ ضيقي باحتجاب المشاهدين حدّ الحنق الشديد، دهمتني الحاجة التي لا بدّ منها، فتفاقم حنقي، إذ إن تلبيتها تفرض عليّ أن أكفّ عن التجوال في وقت يحرقني فيه التوق إلى أن تقع عليّ أي عين. هنا، عليّ أن أقول لك إن دور الفلاحين لم يكن فيها مراحيض. وقد كان الناس يتدبرون أمورهم في الأركان المهملة من ساحات الدور،

حين تكون الحاجة يسيرة، أو يتسترون بجذوع الأشجار أو عطفات الوادي أو الفجوات التي يمكن ولوجها بين أسيجة الصبّار! يفعل الناس الأمر بطريقة أو بأخرى، وتظل عيونهم تتلصص بقلق خشية أن يراهم العابرون إلى أن تنقضي الحاجة. وقد غالبت حاجتي في ذلك الصباح طالما بقي بإمكاني أن أصبّر نفسي، فلما لم يعد لي من قضائها بدّ فقد التجأت إلى فجوة في سياج الصبار القريب، مدفوعاً بالرغبة في أن أفرغ من الأمر بأسرع وقت ممكن لكي أعاود التجوال. وفجأة، أدركت أني في ورطة. فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يتوجب عليّ فيها أن أتدبر الأمر مع وجود البنطلون الجديد وأزراره الكثيرة والسروال الداخلي وكل هذه الأشياء التي لم آلفها. والذي حدث أن الحاجة الملحة غلبتني وأنا وسط سياج الصبّار قبل أن أهتدي إلى الطريقة التي أعالج بها هذه الأزرار المغروزة في عرى البنطلون. وهكذا، انطفأ الزهو، وغاضت البهجة، وحل محلها الخزي والهوان، وعدت إلى الدار منكس الرأس مبلل العينين. ولكي يكتمل غمّي، كانت وضحة الصغيرة هي أوّل من رآني وأنا مقبل على هذه الحالة، فجلجلت الفضيحة التي توقعتها.

هنا، نشأت مشكلة: كيف أذهب إلى المدرسة بعد أن اتسخت الثياب، وبين العبارات المعنّفة والأخرى المواسية التي تلقيتها وأنا محاصر وسط أهل الدار الذين التمّوا حولي، ومنهم من رأى أن أذهب بالجلابية. وكان الجدّ قد جلب لي بنطلوناً واحداً وقميصاً واحداً، أما الملابس الداخلية فجلب منها زوجاً احتياطياً. وقد قاد وجود الملابس الاحتياطية الأهل إلى اجتهاد غير فطن فتقرر أن أذهب إلى المدرسة بهذه الملابس وحدها. كان الأمر في نظرهم مسوغاً تماماً، فالملابس الداخلية لا تختلف كثيراً عن القميص والبنطلون القصير، إذ كل ما في الأمر أن لونها أبيض. والحقيقة أن حرماني من الزيّ الخاكي آلمني، غير أني رضيت بالحل الذي توصل إليه الأهل بعد طول مداولة، وهل كان بإمكاني إلا أن أرضى به! وسار الأمر في البداية سيراً حسناً. غادرت الدار بزيّي الأبيض وحذائي البنيّ الذي لمعته وضحة الكبيرة حتى يناسب المقام، وانضممت إلى حلقة الأولاد الذاهبين إلى المدرسة، فلم يشر أي منهم إلى أن في وضعي ما هو غريب. فعاد إليّ صفاء الذهن، وراق مزاجي، وانخرطت في العبث المألوف. ثم توجهنا جميعاً إلى المدرسة. وعندما بارى موكبنا دار جدّي عبد المجيد، شئت أن أظهر تميزي من جديد، فناديت الجدّ سائلاً إياه عن الوقت. وأطل الجدّ من نافذة العليّة، وهتف بنبرة متوددة، مستخدماً فصيحة يلجأ إليها كلّما شاء أن يضفي على الحديث مهابة: "الساعة سعيدة بك"، ثم استخرج ساعته من جيب قمبازه، وفتح غطاءها، وتمعن فيها، كل ذلك بحركات خاصة، وأبلغ إلينا أنها السادسة والنصف، ولم ينتبه الجدّ على ما يبدو من موقعه في العلية وفي هذه الإطلالة العاجلة إلى زيّي.

وهكذا، سعيت بقدميّ الناشطين، وأنا، إلى هذا، مبتهج، نحو الفصل الآخر، والأشد إيلاماً، في فضيحة ذلك اليوم.

اكتظت بنا باحة المدرسة وقد تحشدنا في أنحائها جماعات جماعات. وارتفعت جلبة التلاميذ القدماء، فملأت الجوّ بذلك الجرس الصاخب الذي يكتنفك وأنت بين الجموع دون أن تميز تفاصيله. وكنا، نحن الوافدين الجدد، نتنصّت ونراقب ونملأ آذاننا وعيوننا بالجوّ الجديد مأخوذين به، متهيبين الانخراط فيه. كل هذا، دون أن ينتبه أحد إلى غرابة زيّي. وقد استغرقتني لذائذ الموقف المستجد وغرائبه، فلم أفكر بما عداها. وحين حان الوقت، دعانا جرس ذو طنين نافذ إلى الاصطفاف. وجاء من هدانا، نحن الجدد، إلى المكان الذي نصطف فيه. ووقف المعلمون، كل واحد إزاء الصف الموكل إليه. ثم ظهر المدير، وشمل الجميع بنظرة دارت على الصفوف وكان من شأنها أن أحكمت الصمت الذي يلفّ الباحة. وبإشارة من هذا المدير، أطلقت حناجر التلاميذ نشيد الصباح في المدارس الفلسطينية: "يا علمي يا علم! يا علم العرب اخفق وأشرق، في الأفق الأزرق! يا نسيج الأمهات، في الليالي الحالكات! كلنا نفديك، كل خيط فيك من دماء الشهداء، من دموع الأبرياء ... ". واحتواني من جديد جلال الموقف والصمت الذي هيمن على الباحة. وقد دام هذا لحظات، ثم توجهت الأنظار كلّها نحو المدير حين بدأ إلقاء خطابه. برز الرجل بهيئته المنمقة وطربوشه الذي أضفت الشمس على لونه الأحمر بريقاً أخاذاً، وألقى كلمة طنانّة، وأنا مأخوذ بالنبرات، دون أن أفهم المعاني أو أنتبه إلى أن من الضروري أن أفهمها.

بهذا الخطاب والتصفيق الذي أعقبه، انتهى الاحتفال الافتتاحي. وتبعت ذلك عملية التفتيش التي لا بدّ من أنك تعرف مقدار تهيب التلاميذ منها. كان على كل معلم أن يتأكد من نظافة تلاميذه وحسن هندامهم ومطابقته للأوصاف المطلوبة. ورحت من موقفي وسط الصفّ أراقب ما يجري، فأتابع حركة المعلم وهو يتفحص الواقفين أمامي، وأتسقط ملاحظاته، وأتفقد رأسي وأظافري وحذائي خشية أن يكون فيها ما يعرضني لتقريع المعلم. والحقيقة أن راعيتي اليقظة أتقنت إعدادي لهذا اليوم. فرأسي الذي اجتزّ الحلاق شعره كله كان مغسولاً بصورة جيدة، وأظافري مقلمة، وفي حافظة كتبي التي خاطتها الراعية من القماش منديلٌ نظيف. وقد تيقنت الراعية بنفسها منذ الصباح الباكر من أن كل شيء في جسدي وحوائجي على أتم ما يرام. وكان المعلم فتى من المسمية الكبيرة، ظفر بالشهادة الثانوية في ذلك العام وحصل على وظيفة معلم وكيل. وكان هذا الشاب، كما بدا لنا منذ أول وهلة، شديد التدقيق، بل شديد المبالغة في التفتيش على النواقص، بحيث لم ينج تلميذ من ملاحظاته وانتقاداته اللاذعة. وبين اطمئناني لحسن استعداداتي

ورهبتي تشدد المعلم، رحت أهدهد قلقي وأمنّي النفس بأن المسألة ستمر بسلام. وتناوبتني مشاعر متباينة، ترتفع معها معنوياتي وتهبط دون استقرار.

كنت على هذه الحالة، حين انفجرت مقلتا المعلم في وجهي فجأة وانبثق حنقه من بين شفتيه. كان هذا المعلم ما يزال يفتش التلميذ الواقف أمامي مباشرة حين مال نظره ناحيتي، فبدا كأن عفريتاً شريراً ركبه دون سابق توقع: "ما هذا، أيّ جهالة، وأيّ بلاهة؟!". للوهلة الأولى، لم أدرك أني المقصود بسيل الشتائم وبريق العينين اللاسع، لكني أدركت الأمر، حين انقضّ المعلم المهتاج عليّ وأمسك كتفيّ براحتيه القاسيتين وأخذ يهزني بفظاظة ويكرر عباراته الساخطة. كان المعلم مندفعاً كسيل لا يوقفه حاجز، ولم تسعفني عباراته المتلاحقة والمتداخلة في إدراك سبب انفجاره. ولم أستطع، أنا المباغت، أن أدافع عن نفسي بأيّ نحو من الأنحاء. وهكذا، جاء ردّ فعلي الوحيد: بكاء انخرطت فيه حتى غمر جسدي كله. وقد لفت المشهد أنظار المحيطين بنا، واضطرب انتظام الصفوف المجاورة. واجتذبت الجلبة معلمين آخرين، فتركوا تلاميذهم، وجاءوا ليروا ما الذي يجري. أحسست بأن النظرات تنغرس في جسدي كالمسامير واعتصرني ألم لا يوصف، واشتدّ فيضان دموعي، وتحولت نهنهتي إلى تشنجات فقدت معها السيطرة على نفسي.

كانت تلك لحظات ثقيلة، تمنيت معها أن تنشق الأرض وتبتلعني فتخفيني عن العيون، أو تقع معجزة تنتزعني من هذا الذي أنا فيه، وخطرت لي فكرة الفرار، غير أني افتقرت إلى العزيمة اللازمة. ولا بد من أني قمت بحركة ما، فتنبه المعلم لخاطرتي، إذ إنه أطبق على معصمي براحته الكبيرة، فجأة، وجذبني بعنف، فأخرجني من الصف، واقتادني إلى المقدمة حيث يقف المدير. وقبل أن يشرح الأمر للمدير، شالني المعلم القاسي بيديه ورفعني على امتداد ذراعيه ليراني التلاميذ كافة، وراح يشرح لهم خطيئتي الكبيرة، مكرراً أوصافه لي ولأهلي: الغباء، والجهل، والهبل، وقلة الحياء، وانعدام الذوق، والاستهانة بالتعليمات، وكل ما يشبه ذلك مما هو مدرج في قاموس الشتائم. كنت أرتعش بين يدي المعلم ارتعاش سنونو رقيقة وقعت في قبضة إنسان فظ الطبع أو أطبق عليها شدقا حيوان. واشتد اعتصار الألم لجسدي فأخذت أتلوى وأنا مرفوع على ذراعين كأنهما خشبتا صليب وأحشرج حشرجة طير تذبحه يد غير رحيمة. وقد بقيت على هذه الحالة حتى كلّت ذراعا المعلم ونشف ريقه، فأعادني إلى الأرض محتفظاً بمعصمي في قبضة يده. ولم أجد ما أفعله سوى أن أتنطط وألطم بيدي الحرّة خديّ وعينيّ. لعل هذا كله لم يستغرق أكثر من دقائق معدودة، غير أن وقعه كان شديداً عليّ بحيث خلته دهراً.

وأخيراً، قدّر لعذابي أن ينتهي، وما من عذابٍ يدوم إلى الأبد. تدخل المدير الذي راقب المشهد وهو متجهم، حدث هذا عندما طلب المعلم مني أن أعلن اسمي أمام التلاميذ. وقد

ترددت، فركز الجميع، بمن فيهم المدير، أنظارهم عليّ. فتوسلت عيناي إلى المدير لعله يعفيني من هذه المهانة الجديدة، غير أن الرجل الذي أعرف أنه صديق والدي لم يزد على أن قال: "أطع المعلم، يا ولد!"، فنطقت بالاسم بنبرة خانقة، فلم يسمع اسمي إلا المحيطون بي. وشاء المعلم أن يرغمني على الجهر به ثانية، وكانت عيناي ما تزالان معلقتين بوجه المدير في محاولة يائسة لطلب رحمته، وقد التقطت العينان الباحثتان عن أيّ إشارة للنجاة الارتعاشة التي ألمت بوجه المدير حين سمع اسمي أول مرة. ولما رفع المعلم يده كي يضربني فيرغمني على اتباع أمره، تحرر معصمي من قبضته، فجريت ناحية المدير وأحطت وسطه بذراعيّ وأنا أصرخ :" دخيلك، يا عم!". هنا، كان عمي محمد قد غادر صفه وانضم إلينا، وأخذ العمّ الباسل يصرخ وهو يرمي معلمي بنظرات ساخطة متوسلاً للمدير أن ينقذ ابن آل سلمان، وبالفعل، أنقذني تعرّف المدير عليّ.

وقد أخذني المدير إلى مكتبه وهو بادي الأسف، وراح يواسيني. وكان الرجل صبوراً، فشرح لي سبب حنق المعلم عليّ. وبينّ لي المدير ما ينبغي أن أعرفه عن الفرق بين الملابس الداخلية والملابس الأخرى. وحين هدأ ارتعاشي وخفتت نهنهتي وتوقف سيل دموعي، أفهمني المدير أن من المتعذر قبولي في الصف بهذه الملابس، وطلب مني أن أعود إلى الدار وأتدبر أمري، وحملني سلامه إلى جدّيّ كليهما. وقد سمعت المدير يقول بنبرة ظاهرة الأسى وأنا أغادر المدرسة: "إيه، رحم الله رشاد!".

فضيحة اليوم الأول، هذه أطفأت توقي إلى المدرسة في البداية. غير أن الأثر المهين لقسوة المعلم الغرّ لم يلبث أن غاص مع الأيام، ولم نلبث، نحن أنفسنا، أن ألفنا قسوة المعلمين وغرائب أطباعهم. ولم يبق من الفضيحة إلا ما كان الأولاد يذكرونني به كلّما أطلت لساني على واحد منهم أو تشاجرت معهم. وسرعان ما وجدت في المدرسة مباهج عديدة يفتقدها الولد في دار أهله. كانت هناك لذّة التعلم ذاتها ومتعة اكتشاف دلالات الحروف والأرقام وعجائب المعرفة التي لا توفرها الحكايات التي نسمعها من ذوينا. وكانت هناك، أيضاً، الباحة الفسيحة ومكنوناتها الكثيرة وما توفره من فرص الانطلاق: مواقع الألعاب، النط العريض والقفز العالي وسباقات الجري مسافات معلومة، والأركان التي يتجمع فيها الأقران للعبث أو للتباري في عرض المعلومات واستظهار الأشعار المحفوظة، والأشجار التي يمكن التسلّي بها دائماً في أوقات الاستراحة بين الدروس. وفي المدرسة، تسنى لي أن ألتقي أولاد المسمية الكبيرة والقرى المجاورة الأخرى، فاتسعت دائرة معارفي وتجاوزت أولاد العائلة الواحدة، وتعددت الاهتمامات وطابت المنافسة وتنوعت حوافزها.

ولم يطل الوقت حتى صرت واحداً من نشطاء التلاميذ في الصف الأول الذي يضمّ ستين منهم. وقد توالت عليّ ثناءات المعلم الذي نسي بالطبع حكاية ملابسي البيضاء. وكثرت مكافآت جدّي سلمان وأقربائي الآخرين لي، وصرت أحظى كثيراً بأنصاف القروش المشجّعة، أو حتى بالقروش ذاتها، كلّما نلت علامة متميزة أو ظفرت بثناء المعلم أو المدير. وعندما حصلت على المرتبة الثانية في الصف في امتحانات نصف العام، كافأني جدّي عبد المجيد فجلب لي حقيبة كتب جلدية، ووعدني هذا الجد بأن يهديني حذاء للرياضة إن أنا فزت بالمرتبة الأولى في امتحانات نهاية العام. كان منافسي على هذه المرتبة ولد من المسمية الكبيرة. وقد حفز تقدمي آل الحوراني كلهم على تشجيعي، وخلق لديهم الأمل بأن أتفوق على ابن القرية الأخرى. وبالإجمال، وجد اليتيم في المدرسة فرصة أخرى للتعويض عن الإحساس بالنقص وإظهار تميزه. وتذكر الناس نباهة أبي الراحل، وصار من المألوف أن أسمع أينما حللت هذا الثناء المزدوج: "فرخ البط عوّام".

لم يكن الأمر يخلو بالطبع من منغصات، بل إن هذه المنغصات كانت عديدة ومتواترة. فالشتائم قد تنصب على الواحد منا لسبب مفهوم أو غير مفهوم، وكذلك العقوبات. فقد يستاء المعلم من تصرف واحد منا، أو من تلاميذ الصف كلّهم دفعة واحدة، فيأمرنا بأن ينسخ كل منّا عبارة: أنا تلميذ قليل الأدب، أو كسلان، أو ما يشبه ذلك مما يناسب المقام، ويعيد كتابتها مئة مرة أو مئات المرات، أو حتى ألف مرّة، فينشغل الولد بنسخ العبارة بقيّة يومه ويحرم من اللعب. وقد يخطئ الواحد منّا في قراءة كلمة أو جمع رقمين أو استظهار نشيد، فيأمره المعلم بأن يقف طيلة وقت الدرس على ساق واحدة ووجهه إلى الحائط، فيسوطه من الخلف هزء التلاميذ به وتشنيعاتهم عليه. وقد يتسبب شغب أو تقصير أو وشاية في فلقة تتورم لها الأقدام أو عدد من ضربات العصي على باطن الكفّين أو ظاهرهما، يزيد وينقص حسب الأحوال. غير أن تأثير منغصات كهذه ما كان له أن يدوم، إذ سرعان ما كانت الاهتمامات الأخرى تطغى عليه. والحقيقة أن إحساسنا بقسوة العقوبات ما كان قد نما. ففي دورنا، بين أسرنا، كنّا نتلقى عقوبات مثلها أو أقسى منها، حتى ألفنا الأمر واستقر في أذهاننا أن للكبار حق معاقبة الصغار كما يشاءون. وكان الاعتقاد الشائع أن للمعلم حقوقاً على التلاميذ بينها أن يضربهم بشدة. والأهل يتوهمون أن المعلم الأشد قسوة هو الأنفع للتلاميذ والأكثر إخلاصاً للمهنة. وكان الجميع لا يتقبلون، فحسب، قسوة المعلمين على تلاميذهم، بل يحسبونها، أيضاً، تعبيراً عن الاهتمام المناسب بتعليم الأولاد وتربيتهم تربية صحيحة. وفي الحالات التي قد تدفعنا فيها قسوة المعلم إلى التشكي، كان شعار الأهل الشهير "عظم الولد لنا ولحمه للمعلم" يلجم الشكوى. وهذا الشعار كان بمثابة ضوء أخضر يطلق يد المعلم في معاقبة الأولاد ويحرر نزواته من

أي رادع. وفي سنّنا تلك، وبتأثير قناعات كهذه، ومع تشابه الأمر بين المدرسة والدار، كنّا نأخذ العقوبات على أنها أمر واقع يقدره الكبار، فلا نظهر امتعاضنا حتى حين نمتعض إلا فيما ندر.

أما العقوبات التي كان من الصعب علينا ابتلاعها فهي تلك التي كنّا نتعرض لها بسبب وشاية كاذبة. هنا، كان الإحساس بالظلم يصير سافراً، وهو إحساس يفجر الغيظ. ولأننا لم نملك أن نجابه المعلم ذاته حتى في حالة كهذه، فقد كان حنقنا ينصب على الواشي، و ينصرف همنا نحو البرهنة على كذب الوشاية. وبأدواتنا العقلية الطرّية، كان أسهل سبل البرهان التدليل على عيوب الواشي وزلاته وإظهار المعلّم عليها. وبهذا، كان المعلم يلّم بأسرار الجميع، ويستعين بها لإحكام السيطرة عليهم وإدامة تهيبهم من لسانه وعصاه. ومن المعلمين من كان يشجع الوشاية لأنها تمكنه من الإلمام بأحوال تلاميذه. كان المعلم ديكتاتوراً صغيراً في مملكة الأطفال الغريرين. ولم نكن نعرف الديكتاتورية ولا الديمقراطية ولا يرد في بالنا أن للتعلم مناهج أخرى أو أساليب غير هذه، أو أن في الدنيا معلمين من نوع مختلف.

ومن جهتنا، كنا نحن، أيضاً، شديدي الفضول إزاء ما يتصل بالمعلمين، شؤونهم الشخصية والوظيفية، وأطباعهم، وعلاقاتهم بعضهم مع بعض. كنّا نبتهج غاية الابتهاج كلما اطّلعنا على أي جديد يخصّ معلماً من المعلمين، وتصبح البهجة عامة وطاغية حين يتعلق الأمر بفضيحة أو بشيء غير مألوف. كان حضور المعلم يملأ حياة التلميذ، فتتسابق الأعين والخواطر، وربما، أيضاً، الهواجس، لتلوين هذا الحضور. وفي العادة، ترتسم في ذهن التلميذ صورة محددة لشخصية المعلم. وتتشكل معالم هذه الصورة من المعطيات التي تتوفر للتلاميذ عن معلمهم خلال احتكاكاتهم الأوّلية به. وقد تتطابق هذه الصورة، أو لا تتطابق، مع شخصية المعلم الحقيقية، إلاّ إنها تفعل فعلها في الحالتين وتوجه أفكار التلاميذ وسلوكهم وترسم مواقفهم إزاء معلمهم. وغالباً ما تكون الصورة مهوّلة، حتى لو كونتها المخيّلة الطفلة من معطيات واقعية. يجمع التلميذ عناصر الصورة من معطيات خبرته الشخصية مع معلمه والإيماءات التي يستخلصها عبر الحكايات التي تتسرب إليه عن حياة هذا المعلم وعلاقاته، ويغني التلميذ الصورة بالعلامات التي يجدها في جسد المعلم وحركاته وزيّه وطريقة حديثه وما شابه من علامات خارجية أخرى. فإذا كانت لأحد المعلمين لحية وكان متئد الحركة خفيض الصوت، فهو متدين، وإذا كان رأس المعلم كبيراً أو كان يسير منتصب القامة فهو عنيد أو متكبر، وحين يكون المعلم جهم الملامح فلا بدّ من أنه شديد القسوة، وإن كان مكرشاً فهو نهم للطعام. أما إذا كان المعلم ليّن السلوك حفياً بالآخرين فهو ضعيف الشخصية. وأما الذي لا يزعق كثيراً في وجوه الآخرين فهو جبان،

والذي يجامل الآخرين منافق، وحين يكون المعلم بادي الهم فلا بد من أنّ في منزله مشاكل أو أن زوجته أحنقته ... وهكذا.

وفي ذاكرتي، بالإضافة للمعلم الذي قسا عليّ في اليوم الأول والمدير العطوف، صور أخرى لمعلمين آخرين كان حضورهم في أذهاننا قوياً. بين هذه الصور اثنتان اقترنتا على نحو لا يمكن معه استحضار واحدة منهما إلا حضرت الأخرى، معلمان من قرية "تل الصافي"، يسكنان في القرية البعيدة، ويجيئان إلى المدرسة كل صباح على حمارين، يحضران، أو يحضرون معاً، وينصرفان، أو ينصرفون معاً، ولا يُرى هذان المعلمان في أي مكان إلا معاً، وبقربهما، أو معهما، الحماران.

أحد هذين المعلمين وأكبرهما سناً هو الشيخ مصطفى، يناديه الناس بهذا اللقب لأنه جاور في الأزهر بضع سنوات. وفي الأزهر، ألمّ الشيخ مصطفى ببعض معارف اللغة والدين إلماماً نأى به عن الأميّة دون أن يجعله ضليعاً في المعرفة أو يؤهله لشغل وظيفة في الإدارات الدينية. فلما عاد الشيخ إلى تل الصافي، افتتح كتّاباً في قريته. حتى إذا جاء زمن المدارس لتحلّ محلّ الكتاتيب، تدبّر الشيخ مصطفى أمره فصار معلماً في هذه المدرسة. كانت للشيخ مصطفى هيئة ثابتة يؤطرها الزيّ الذي اتخذه لنفسه. وقد اشتق الشيخ هذا الزي اشتقاقاً حسب إمكاناته، فخلط فيه بين ملابس الريف الفلسطيني وملابس طلاب الأزهر. فكانت للشيخ عمامة يلفّ شاشها الأبيض على شكل مخروط مقلوب غير تام فيحيط بطربوش مقوى ومنتصب، ومع هذه العمامة الفلسطينية التقليدية جبّة أزهرية فضفاضة تكتنف قمبازاً مما يلبسه فلاحو منطقتنا، وتحت الاثنين سروال طويل من القماش الأبيض تبرز نهاياته من تحت أطراف القمباز عند القدمين وتحتكان بالحذائين اللذين ليس لهما زيّ محدد. وكانت الجبّة والعمامة هما عنوان شهرة الشيخ وتميزه. وما كان الرجل يملك إلا جبّة واحدة وعمامة واحدة، فكان يظهر لنا، في كل الأوقات، بالزيّ ذاته والملابس التي لا تتبدل. وقد شاع عن الشيخ أنه لا يغادر منزله في يوم الجمعة بعد الصلاة ولا يستقبل غريباً فيه، حتى لو تعلق الأمر بوليمة فاخرة أو مناسبة هامة أو بزائر معتبر. وقيل إن الرجل يحبس نفسه في داره لأن زوجته تغسل ثيابه ولأنه لا يريد أن يراه الآخرون دون زيّه المتميز.

ويتسق سلوك الشيخ مصطفى هذا مع زيه. فهذا السلوك هو الآخر مزيج يختص به الشيخ وحده من سلوك أزهريّ وفلاح فلسطيني. فالرجل يعتمد الحديث بالفصيحة المفخمة على طريقة الأزهريين، فيدغم أحرفاً ويقلقل أخرى، ويبالغ في هذا وذاك مبالغة غير المتأصل في معرفة قواعد النطق، فيبلبل سامعيه ويبقيهم مشدودي الانتباه لنبرات

حديثه أكثر من انشدادهم لمعانيه، يفعل الشيخ هذا ويلتزم به ما دام هادئاً مالكاً اتزانه. وحين يحنق، أو يخرجه شيء ما على طوره، ينهال من فم الشيخ أعتى الصراخ وربما أقذع الشتائم. هنا تحلّ اللهجة القروية الصرفة محلّ الفصيحة المصطنعة وتتدفق التعابير دون أي تزويق. وكان الشيخ يصطنع لنفسه مشية وئيدة، ويصغي لمحدثه بانتباه مدروس، ويرسم لنفسه حضوراً مهيباً وغامضاً. أما حين يقع حادث غير مألوف أو يخلّ شيء بالمسيرة الروتينية لحياة المدرسة، فإن الاضطراب يتلبس شيخنا، فيبدو شخصاً آخر لا شبه بين سلوكه والسلوك المهيب. وفي تعامله معنا، نحن التلاميذ، كان الشيخ مصطفى يبذل جهده ليكون منصفاً ومتفهماً، سواء حين يتعلق الأمر بمنح العلامات المدرسية، أو بحلّ المشاكل والمنازعات التي تعلق بين الصغار أو بينهم وبين الإدارة. غير أن الشيخ كان يفقد روح الإنصاف إذا حنق. وحين يستثير تلميذ من التلاميذ حنق الشيخ، فإن الصغير يذوق على يديه أقسى ما يمكن أن يناله على يد معلم ظالم. وكان الشيخ، على العموم، عفيف النفس، غير متطلب، إلا أنه يقبل بامتنان مقتصد أيّ هدية تقدمها له أسر التلاميذ ويلبيّ الدعوات إلى الولائم، دون أن يقابل هذا أو ذاك بالمثل.

المعلم الآخر هو الشيخ إبراهيم، ألصقَ الناسُ باسمه هذا اللقب لا لشيء إلا لأنه القرين الذي لا يفترق عن الشيخ مصطفى. وقد حاول التلاميذ أن يعرفوا من أين حصل هذا الشيخ على التعليم الذي يؤهله لمهنة المعلم فلم يظفروا بما يطفئ فضولهم. وكانت هناك إشاعات تقول إن الرجل خدم في شبابه الأول في الجيش العربيّ الذي عمل مع الجيش البريطاني على تحرير البلاد من العثمانيين، وإنه كان في شبابه لامعاً، وإنه عمل في معيّة الأمير فيصل، قائد هذا الجيش، ثم انتسب في دمشق لمدرسة للضباط أو ضباط الصف، إلا أن المدرسة أقفلت بعد شهور عندما انهار حكم فيصل في العاصمة العربية، وتشرد الشاب فترة انطفأت فيها لمعة شبابه، إلى أن أتاحت له ظروف غامضة أن يظفر بوظيفته في مدرستنا. ولكن ما من شيء يقيني توفر ليؤكد صحة هذه الإشاعات.

كان الشيخ إبراهيم رجلاً بلدياً بكل ما توحي به هذه الكلمة من معان. فهو كذلك في شكله وسلوكه وأسلوب حديثه وزيّه وكل شيء فيه. فزيّ الرجل غير مهندم دائماً، والبذلتان اللتان لا يملك سواهما لا تناسبان حجمه، فإحداهما ضيقة بحيث تكاد أعضاؤه تنبجس من داخلها، والأخرى واسعة تغيب داخلها معالم جسده السمين. وطربوش الرجل أصغر من مقاس رأسه، وهو لا يغطي إلا قمة هذا الرأس وحدها. ومن تحت حواف هذا الطربوش تتنافر خصلات الشعر الكثّة التي لا تعرف التمشيط إلا لماماً. والشيخ دائم الهذر، يتحدث حول الموضوعات المتداولة، ويتعمد المزاح مع كل من يلقاه من المعلمين والتلاميذ والزوار، ويضحك ضحكات مجلجلة تملأ المكان الذي يحلّ فيه، سواء كان

الوقت ملائماً للضحك أو غير ملائم، وسواء شاركه جليسه هذا الضحك أو احتفظ بالرصانة. والشيخ إبراهيم قليل العناية بالدراسة والتدريس، يجيء إلى حجرة الصف متأخراً ويغادرها مرات عدة أثناء الحصة. وفي الأوقات التي يمضيها مع التلاميذ، كان الشيخ إبراهيم ينشغل بمعاقبة هذا أو ذاك منهم، أو يسألهم عن أحوالهم وأحوال أهاليهم ومنتوجات حقولهم وحواكيرهم، ويتصيد الفرص ليطلب خدمات أو عطايا، يفعل ذلك كله دون أن يكفّ عن تضمين حواره معهم التعليقات والنكت ويتمتع بما يصدر عنهم من ردود فعل ساخطة أو مبتهجة. وقد اعتاد الشيخ أن يوجه حديثه لأبناء الأسر الميسورة، دون أن يتخلى عن أسلوبه الساخر في أي حال من الأحوال. وحين كان الشيخ يعطي وقتاً للتدريس فهو يتمّ المهمة بأسرع ما يمكن، ثم يحيل الأمر على التلاميذ أنفسهم، يطلب منهم أن يحلّوا تمارين الحساب أو ينسخوا درس القراءة، أو يقرأوا الدرس قراءة صامتة، دون أن يُعنى حتى بمراقبة ما يفعلون. وفي العادة، كان الشيخ يثقل على تلاميذه بكثرة الواجبات البيتية، ثم لا يهتم في اليوم التالي بالتأكد من إنجازهم لها.

أما الدعوات التي لا يبخل الفلاحون في توجيهها لمعلمي أولادهم، فقد كان الشيخ إبراهيم يلبيها عن طيب خاطر، بل يتصيد مناسباتها، وكثيراً ما يطلبها طلباً. وحين يحضر الشيخ إلى الوليمة يفتك بالطعام كما يفتك المدعو النهم، دون تحرج أو تحفظ. وحين لا يخصص الداعي للشيخ حصة اللحم التي يؤثرها والكمية التي تكفيه، فإن الشيخ يطلب ذلك بصوت جهير. وقد اشتهرت عن هذا الشيخ العبارة التي ألف أن يرددها في الولائم: "ما جئنا لعزيمتكم لنخرج منها جائعين، يأتي الرجل للأكل حتى يملأ معدته وليس عينيه". والفلاحون الذين يزجون في العادة احتراماً خاصاً للمعلم لم يتورعوا عن تداول التعليقات الساخرة حول نهم الشيخ إبراهيم في حضوره، لكنه لم يكن يهتم لذلك، بل كان على العكس من هذا يباريهم في السخرية حتى من نفسه، ويضحك ويجهد كي يضحكهم، أيضاً.

بكلمات قليلة، كان الرجل قليل الوقار وغير حريص على أن يوقره الآخرون. بالرغم من ذلك، أحببنا، نحن التلاميذ، الشيخ إبراهيم ووجدناه قريباً إلى نفوسنا، فهو الوحيد بين المعلمين الذي يخالطنا دون ترفع، ويبدي الاهتمام بأخص شؤوننا، ويظهر ابتهاجه لأي نبأ سار يخصنا، كما يظهر أساه لأي نبأ محزن. وإلى تساهله في التدريس، كان الشيخ متساهلاً في منح العلامات المدرسية الجيّدة، وكان هذا يريحنا ويزيدنا محبّة له.

ومن المشاهد التي كانت تتكرر كل صباح فنتجمع لنتفرج عليها مشهد وصول الشيخين إلى المدرسة: الشيخ مصطفى بوقاره المحمول على حمار أبيض منتظم الحركة متوازن الخطو، والشيخ إبراهيم بهرجه ومرجه المحمولين على حمار داكن مضطرب الحركة.

يقبل موكب الأربعة مصعداً الطريق ناحية مدخل المدرسة الرئيس، ويتقدم الشيخ إبراهيم، ومعه حماره، قرينيهما، بجسده المضطرب فوق الحمار المتنطط، وهو يتحدث غير مدرك أنه ابتعد عن رفيقه الشيخ الآخر. وعندما يتنبه الشيخ إبراهيم للوضع يتوقف بحماره أو يعود به إلى وراء، وهو يقول شيئاً أو يتمّ قول شيء كان قد بدأ به. وفي غضون ذلك، يظل الشيخ مصطفى صامتاً، متجللاً بالصورة التي يصطنعها لنفسه أمام العيون التي يعرف أنها تراقبه. حتى إذا وصل الأربعة إلى البوابة، يترجل الشيخ مصطفى عن حماره بأناة ويسلمه لآذن المدرسة ويوصيه بأن يعتني به ويتأكد من علفه وسقايته ونظافته، فيما يقفز الشيخ إبراهيم عن الحمار قفزاً، ويتركه بغير اهتمام، ويتجه نحو أقرب معلّم أو تلميذ هاذراً ممازحاً، ملقياً بآخر أنبائه وطرائفه، أو خالطاً بينها، على مسمع من الجميع، أو مستفسراً عما لدى الآخرين من أنباء، مالئاً الأجواء بصخبه وضحكاته.

ومن المعلمين الذين تحتفظ الذاكرة بحضورهم الحيّ واحد آخر تعرض وهو في المدرسة لنهاية فاجعة. وقد انحفرت صورة هذه الفاجعة في ذهني بحيث يتعذر أن تمّحي في يوم من الأيام. ينتمي هذا المعلم، الذي نسيت اسمه الأول، لعائلة النجار في المسمية الكبيرة، ويعدّه الناس ألمع شبّان هذه العائلة وأهمّهم شأناً. وقد شاعت بين الناس حكايات غامضة عن نشاطات سرّية يقوم بها هذا المعلم أو قام بها في وقت من الأوقات. وكانت الإشاعات تتداول محاطة، دوماً، بأجواء السرية والمهابة. ومن الناس من كان يهمس بأن الشاب شيوعي، فيثير الهمس في النفوس ردود الفعل المتضاربة التي تقترن بهذه الصفة في المجتمعات المحافظة، ويؤجج الفضول لمعرفة المزيد عن هذا الشيوعي الذي يكره أغنياء العرب واليهود على حدّ سواء، ويقاوم الحكومة، والذي لا يؤمن بالدين الذي يؤمن به كل الناس، إلا أنه يسلك بالرغم من ذلك سلوكاً حسناً ويلزم نفسه بمكارم الأخلاق ويتعامل مع الآخرين باستقامة تامّة. وكان من شأن سمعة الشابّ، بما هو مقاوم للحكومة وبارع في التكتم وإخفاء نشاطاته عن عيون جواسيسها، أن توفر له مرتبة البطولة في أعين الفلاحين الذين يكرهون أيّ حكومة حتى لو مالأوها. غير أن فلاحينا لم يمنحوا الشاب مرتبة كهذه على بياض، فهو بعد كل حساب شيوعي، وإذا كان مقبولاً من حيث موقفه وسلوكه، فإنه لم يكن مقبولاً من حيث عقيدته التي يستقر في ذهن الناس عنها أنها ترفض الدين والتقاليد الموروثة وتحث على الخروج عليها. ولذا ظل أمر الشاب ملتبساً، حتى بعد أن وقعت الفاجعة وأحزنت الناس على مصيره.

وأكثر ما لفت نظرنا في سلوك هذا المعلم الشابّ كان تحفظه وحذره اللذين كنّا نعزوهما إلى النشاطات الغامضة المنسوبة إليه ولا نجرؤ على سؤاله عن السبب، وكأننا، بلجم فضولنا وكتم الأسئلة التي تراودنا، متواطئون معه أو مشاركون له في حفظ السرّ الذي لا

بدّ من أن يحفظ. كان هو يسير متنبهاً لما حوله باستمرار، يمارس التدريس وعيناه تراقبان الباب والنوافذ كلّما استشعر حركة أو أحس نأمة غير مألوفتين، فكنّا ننظر حيث ينظر ونتفحص الجهة التي يتفحصها، دون أن ندرك، بالطبع، ما الذي يمكن أن يثير الانتباه خلف الباب أو وراء النوافذ، وإن كانت مشاركتنا له تزودنا بهذا الإحساس اللذيذ بأننا نفعل شيئاً ذا بال. وبقي هذا هو شأننا مع المعلم وسرّه الذي لا نعرفه، حتى تبينت لنا حقيقة الأمر يوم مصرعه.

كان المسكين ضحية التقاليد التي التزم الناس بها، وقد سمم واحد من أقبح التقاليد حياة الشاب المستقيم وأورثه هذا القلق، إلى أن قضى عليه. ففي وقت من الأوقات، ربما قبل مولد المعلم، أو حين كان طفلاً، اشتعلت بين آل النجار وحمولة أخرى في إحدى القرى المجاورة خصومة نجمت عنها عداوة فتسببت في حكاية ثأر متوارثة بين الطرفين. ولم تُجدِ الوساطات المتلاحقة في وضع حل للعداوة التي أزمنت. وفي السياق البغيض لمسلسل الثارات المتبادلة بين الجانبين، قتلت حمولة النجار واحداً من أبناء الحمولة الأخرى، قبل بعض الوقت. وكان هذا هو الوقت الذي انتقل فيه معلمنا من مدرسة كان يعمل فيها في إحدى القرى النائية إلى مدرستنا. وبسبب حادث القتل الجديد، صار على الرجال من آل النجار، كلّهم، أن يترقبوا الوقت الذي يحل فيه الدور على واحد منهم ليكون الضحية القادمة. ولأن هذا المعلم هو أكثر أبناء حمولته نباهة، توقع الناس أن يستهدفه طلاب الثأر أكثر من سواه. كان هو، يعرف بالطبع، هذه الحقيقة، ويدرك أن حياته في خطر، ويخشى أن يدهمه خصوم حمولته في أيّ لحظة.

وفي عصيرة ذات يوم، وكنّا وقتها نتهيأ للانصراف من المدرسة، سَرتْ بين جماعات التلاميذ جلبة حانقة، وتردد اسم هذا المعلم وسط الاضطراب المفاجئ الذي خلخل نظام الانصراف المعهود. وقد بلبلني الأمر كما بلبل سواي. ثم رأيت جماعة من التلاميذ تجري بأقصى سرعتها في اتجاه بعينه فلحقت بها مدفوعاً بالرغبة في استجلاء الأمر. ثم لم يلبث أن اتضح كل شيء. وصل إلى القرية ثلاثة من طلاب الثأر وكمنوا في مكان غير بعيد من سور المدرسة، وراحوا يترصدون. وكان المعلم خارجاً من المدرسة حين وقع نظره على مستهدفيه، ولا بدّ من أنه استشعر الخطر الذي أحدق به، فقد جرى، طالباً النجاة، فطارده القتلة. وألجأت المطاردة المعلم إلى الاحتماء بسور من نبات الصبار، لأنه لم يجد في طريقه ملجأ أمنع منه. هنا، استلّ الثلاثة سيوفهم التي خبأوها تحت العباءات ودهموا سور الصبار. وحين بلغت جماعتنا التي اجتذبتها المطاردة هذا السور، كان الأمر الشنيع قد تم. ووقعت عيناي على المشهد المزلزل: مزق الجسد المدماة وقد امتزجت بمزق الصبار.

وهذه هي الصورة التي انطبعت في نفسي منذ تلك العصيرة وهي التي أسست مقتي الدائم لتقليد الثأر هذا، وهي التي أحدثت، في حياتي، الصدمة الأولى التي زعزعت رسوخ التقاليد في ذهني.

ومهما يكن من أمر، فإن حياة المدرسة استعادت روتينها المألوف بعد أن تلاشى ما أثاره الحادث فيها من اضطراب. وانقضى عامي الأول في المدرسة، دون أن أظفر بالمرتبة الأولى في الصف، وإن احتفظت بالمرتبة الثانية، وذلك الولد المنافس من المسمية الكبيرة وجد ما يتباهى به هو و أهله.

وجاءت العطلة الصيفية.

-١١-

السؤال ينبثق وينطفئ ...
ويستمر مجرى الحياة

في القرى التي تزرع الحبوب معتمدة على مياه الأمطار وحدها لا يستغرق العمل في الزراعة أيام السنة كلّها، بل يتقطع، فتتخلله فترات استرخاء طويلة. فمن أجل الموسم الشتوي، يحرث الفلاح حقله في الخريف مرة، ثم مرة أخرى، ويبذر الحبّ في الحقل بعد أن ترتوي الأرض، ثم ينتظر إنبات الزرع ونموه، وقد يحتاج إلى انتزاع الأعشاب الطفيلية مرة أو مرات قبل أن ينضج الزرع. ومن أجل الموسم الصيفي، أي موسم استنبات البقول والذرة والسمسم، يقوم الفلاّح بعمليات مماثلة وإن اختلفت الأوقات. ولأن معظم الأسر لا تملك إلا حقولاً صغيرة، فإن كل واحدة من هذه العمليات لا تستغرق سوى أيام أو أسابيع معدودة. ويمضي الفلاحون فترات متقطعة بين فترات العمل الكثيف في أعمال متفرقة غالباً ما تكون خفيفة أو غير ذات أهمية كبيرة، وهم ينتظرون الوقت الذي سيظفرون فيه بجني الحقول. وهكذا، فإن موسم الحصاد هو أهم المواسم. وقد يمضي الفلاّح سنته كلها مهموماً أو مثقلاً بالأسى أو مستسلماً لوطء الأيام الرتيبة، وقد يعرف أفراحاً متفرقة في هذا اليوم أو ذاك، فتلتمع البهجة في حياته التماعة الشرارة التي سرعان ما تنطفئ، إلا في موسم الحصاد وما يليه من عمليات، فهذا هو موسم النشاط الدائب الذي لا يعرف الكلل، وهو، أيضاً، موسم الوهج الذي لا ينطفئ.

المسمية الصغيرة واحدة من قرى عديدة تتوزع على السهل الفسيح الذي يتصل من ناحية الشمال بسهل يافا الساحلي، ويمتدّ جنوباً حتى يتلاشى في صحراء النقب، ويتوقف

غرباً عند شاطئ البحر، ويصطدم شرقاً بالمرتفعات. هذا السهل اشتهر بزراعة الحبوب، أما مرزوعاته الأخرى فهي قليلة أو حديثة العهد. وقد انطبعت حياة القرية بهذا النمط من الزراعة البعلية. فالفلاح الذي يحرث حقله قبل هطول الأمطار كي تتهوى تربته وتتشمس يعقد آماله على القَدَرِ الذي يتحكم بالظواهر الطبيعية، فيجمع السحب الماطرة أو يبددها ويرسل القطر إلى الأرض أو يحجبه عنها. ويبقى أمل الفلاح معقوداً على القدر، أيضاً، في بقية مراحل الدورة الزراعية، وينتابه القلق إزاء أيّ بادرة خطرة قد توحي بأن القدر متجهم. ولا يخفت قلق الفلاح إلا حين تعلو عيدان الزرع، وتتوج السنابل هذه العيدان في الربيع، وتموج الحقول ببحر الخضرة الذي تبدو القرى وسطه كأنها جزر صغيرة أو مرافئ يستخدمها السادرون في هذا البحر. ويبدأ الأمل بالحلول محلّ القلق حين تبدأ مع أواخر الربيع تلك العملية الواعدة، فتسمن الحبات في دروج السنابل، ويزحف اللون الذهبي فيخالط خضرة الزرع. ويغيض القلق، تماماً، وتتنشحذ العزائم، حين تموج الحقول في بداية الصيف باللون الذهبيّ الذي يستكمل سيطرته على بقية الألوان. وبهذا، تكتمل دورة المشاعر السنوية في نفس الفلاح، كما تكتمل الدورة الزراعية في حقله، ويصير الاثنان، الفلاح وحقله، جاهزين لموسم الختام.

تجيء أولى الإشارات التي تدلنا، نحن الأولاد، على اقتراب موسم الحصاد عندما تنصرف النساء إلى إعداد الفريكة، تجري هذه العملية بعد أن تمتلئ السنابل بالحبّ ويتساوى اللون الذهبي مع اللون الأخضر. حينها، تختار النساء من سنابل الحقول أكثرها امتلاء فيجمعنها قبل أن يجفّ حبّها ويتصلب، ثم يشوين هذه السنابل شيّاً خفيفاً بنار عيدانها ذاته، فيضاف اللون الأسمر إلى لونيها الآخرين. وبعد الشيّ، تُفرك السنابل نصف المحترقة بين الأكف، أو تدق بالعصيّ، لينفصل الحبّ المشوي عن رماد القش المحيط به، و يترك ليجف، ثم يجرش الحبّ بين رحويّ الطاحونة الحجرية التي تدار باليد، فتظفر الأسرة بالفريكة اللذيذة التي تخزن لمؤونة الشتاء، ويقدم الحقل والجهد المبذول فيه أولى عطاءاتهما السنوية للأسرة.

أما الحصاد فهو العملية الكبرى التي يتجند لها النساء والرجال، وتستنفر من أجلها الدوابّ، ويشترك فيها الأولاد، أيضاً. تبدأ العملية في أواخر حزيران/ يونيو أو أوائل تموز/ يوليو، وهو الوقت الذي تبدأ فيه، أيضاً، العطلة الصيفية الطويلة للمدارس. وهي عملية تطول أو تقصر حسب مساحات الحقول التي تملكها الأسر وعدد الأفراد المجنّدين فيها. وغالباً ما تتعاون الأسر المتقاربة فيحصد أفرادها، جميعاً، حقل واحدةٍ منها، ثم ينتقلون إلى حقل آخر، وهكذا، بالتتابع. ويشكل موسم الحصاد بالنسبة لنا، نحن الأولاد، موسم مباهج متصلة ومشاغل لا تتوقف. حتى أن طاقاتنا الجسدية والروحية،

على توتّرها الشديد في هذا الموسم بالذات، تستنفد كل يوم فيما نحن نجري هنا وهناك لاغتنام الفرص المتاحة. فلا يجيء آخر اليوم حتى يكون الواحد منا قد انطفأ فاستسلم للنوم العميق، كي يجدد الحركة في اليوم التالي.

لم يكن في أسرة جدي سلمان سوى الزوجتين والأطفال. أما هو، وهو المختار الذي يتوجب عليه أن ينصرف لمعالجة المشاكل العديدة التي تبرز في القرية في هذا الموسم، فلم يكن يمارس الحصاد بنفسه. لذا، اعتاد هذا الجدّ أن يستعين بحصّادين مأجورين ينتقيهم من أهل القرية أو القرى المجاورة ويدفع لهم الأجر نقداً، أو حبوباً، ويتكفل في كل الأحوال بإطعامهم في أوقات العمل. وكانت راعيتي وضحة الكبيرة تستطيب المشاركة في الحصاد، تفعل هذا بهمة ظاهرة وانشراح تفصح عنه بشاشة وجهها وحركاتها وأوجه سلوكها كلُّها. أما وضحة الصغيرة فقد أعطت لنفسها حقوق امرأة المختار الوجيه، فترفعت عن المشاركة في عمل الحقول، وهي لا تذهب إلى الحقول إلا إذا كان ذلك من أجل الفرجة أو الإدلال على الآخرين بمنزلتها المتميزة. وكان على وضحة الصغيرة مع ذلك أن تعد طعام الحصادين بالإضافة إلى طعام أفراد الاسرة، بالطبع. وكان الحال مماثلاً لهذا في دار جدي عبد المجيد. فالجدّ لا يحصد بنفسه، وامرأته الشامية لا تذهب للحقول إلا من أجل الفرجة، والولدان الكبيران اللذان يقضيان عطلتهما المدرسية في القرية تلميذان متميزان لا يكلفهما أحد بمهام يدوية شاقة، وإذا اشتركا في الحصاد فمن باب إشباع الهواية، ليس غير. ولأمر ما، لم يكن هذا الجدّ الذي يملك مئات الدونمات التي تتوزعها جهات متفرقة في محيط القرية يحبّذ استئجار حصادين من أهل القرية أو من القرى المجاورة. وقد اهتدى الجدّ إلى عمال التراحيل المصريين، فآثرهم على غيرهم. وكان ألوف من هؤلاء يؤمون فلسطين في مواسم العمل، ويعرضون قوة سواعدهم مقابل أجور زهيدة. وما كان أجر الواحد منهم ليتعدى الطعام والمأوى والقليل من الملاليم أو القروش. وكان الجدّ يجيء بعدد كبير من هؤلاء إلى القرية في بداية موسم الحصاد، يدفع للواحد منهم قرشاً ونصف قرش في اليوم، ويقدم له ثلاثة من أرغفة الطابون وشيئاً من اللبن. وإذا شاء الجدّ تكريم الأُجراء أو تشجيعهم في يوم من الأيام، أمر بأن يُقدم لهم، أيضاً، شيء من الخضار أو البقول المطبوخة. وما كان مبيت هذا العدد من العمال الغرباء يشكل أي مشكلة، إذ إن في عراء الأجران وبجوار الدار الكبيرة أفضية فسيحةً، وفي دفء الطقس ما يغني عن الفرش والأغطية.

في ذلك العام الذي أنهيتُ فيه الصف الأول في المدرسة، انطلقت الإشارة الحاسمة الدالّة على موسم الحصاد حين وصلت جماعة المصريين إلى القرية وأقامت في العراء المجاور لدار جدي عبد المجيد. لقد صار وصول هذه الجماعة الذي يتكرر منذ بضع سنوات

معلماً من معالم الموسم يترقب أهل القرية ظهوره، ويتشوقون للاستمتاع بما يقترن به من مباهج، ويجدون فيه مناسبة لتنشيط الحديث عن عجائب أفعال الجدّ وغرائبها. وبين كل الأشياء التي تثيرنا، نحن الأولاد، في موسم الحصاد، كانت مخالطتنا لهؤلاء المصريين هي الأشدّ جاذبية والأوفر متعة وبهجة. ففي النهارات، يتوزع المصريون على حقول الجدّ المختلفة، ويملأون أوقات العمل بأغانيهم وأهازيجهم وتعليقاتهم وممازحاتهم بعضهم مع بعض ومع الآخرين. وما يقوله هؤلاء أو يفعلونه يتحول إلى أحاديث وحكايات يتناقلها ناس القرية، كما يتناقلون الأنباء المدهشة. وفي الأماسي، بعد العودة من الحقول، يتجمع المصريون في مأواهم بجانب الدار الكبيرة، ويلتم حولهم رجال القرية وأطفالها والفضوليات من نسائها العجائز. وتحيل الجماعة ليالي القرية إلى أعراس: موسيقى وغناء ورقص وفكاهات. وبين أفراد الجماعة، يوجد، دائماً، من يتقنون فنوناً لا يعرفها فلاحونا، فيدهشون هؤلاء الفلاحين بعرضها ويستحوذون على اهتمامهم وإعجابهم بها: رقصة العصيّ على أنغام المزمار، والمشاهد التمثيلية المقتبسة من حكايا الريف المصري، وألعاب الحواة السحرية، وغيرها من الأعاجيب. وهكذا، تتصل التسليات الصاخبة في كل أمسية وتستمر ساعات وساعات. وحين يتعب المؤدّون والمشاهدون يهجع الجميع، فينصرف من يغلبهم النعاس إلى النوم، ويواصل الآخرون السمر الهادئ. هنا، كانت تدور بين الساهرين من أفراد الجماعة تلك الأحاديث الرشيقة التي لا يتقن أحد تبادلها بمقدار ما يتقنه المصريون، وكنّا نحن نتابع ما يجري مالئين أسماعنا بطرائف الحوار ومستمتعين بجرْس اللهجة المصرية الذي لا يتوفر مثله في لهجتنا.

لقد أحببت المصريين منذ تلك السن المبكرة، واستهوتني اللهجة المصرية، فكنت أصغي للحوارات بانتباه شديد وأحاول تقليدها. وفي آخر السهرة، حين يغلب النعاس الجميع فيغالبونه رغبة منهم في الاستزادة، ينفرد أحد أفراد المجموعة بأداء موال أو أغنية هادئة أو أقصوصة مغنّاة، أو يداعب آلته الموسيقية بتقاسيم مشحونة بتلك الأحاسيس الغامضة التي لا تعبّر عنها الكلمات، فيتسرب الصوت واللحن في نفوس المتحلقين حوله، ويتثنيان في حنايا القرية الهاجعة ويهدهدان المشاعر والأحلام بشتى التلاوين. في ساعة كهذه، كان مزيج غريب من الفرح والأسى يستولي على النفوس ويثير فيها توق الفلاحين المزمن إلى ما يفتقدونه في حياتهم.

وبوعيي الغض، ما كان لي ان أدرك الوجه الآخر لوضع هؤلاء الحصادين الغرباء، الوجه البائس، إلا على نحو شديد الغموض. كنت أرى ما هم فيه، و أحس في أعماقي إحساساً مبهماً بأنه ليس من الطبيعي أن يترك الرجل داره و أهله وبلده ويجيء إلى بلد بعيد عن بلده وناس غرباء عنه ويكد طول النهار، ثم لا ينال، بعد هذا، إلا رغيفاً مغموساً باللبن

ومهجعاً قاسياً في العراء وبضعة ملاليم. وكنت أسمع ما يتهامس به فلاحونا عن بؤس هؤلاء الغرباء وعن معاناتهم في بلدهم وفي الغربة. ولكني لم أدرك ما ينطوي عليه هذا الوضع من ظلم قليل أو كثير. ولعل من الأصوب أن أقول إني كنت موزع المشاعر إزاء هؤلاء الساعين وراء لقمة العيش، أعاين، من جهة، غرابة وضعهم متأثراً بتعاطف بعض فلاحينا معهم، وأخضع، من الجهة الأخرى، لنظرة البعض الآخر الساخرة منهم أو المستخفة بهم. كان معظم الفلاحين في قريتنا يعدّ العمال المصريين أدنى منزلة من الفلاح الفلسطيني، وكان يركز على ظواهر بعينها ليسوغ هذه النظرة، متجاهلاً ما عداها. كان فلاحونا، المحتاجون، من جهتهم، على ما يبدو، للتباهي تعويضاً عن بؤس حالهم، هم أنفسهم، ما يفتأون يرددون أن الحصّاد المصري أقلّ خبرة وأدنى إنتاجاً من نظيره الفلسطيني، وأن المصري يظهر من الخنوع لربّ العمل ما يأبى الفلسطيني أن يظهره. ولأن الوافد المصري حريص على توفير القروش التي يظفر بها في الموسم، عدّه فلاحونا بخيلاً. ومهما يكن من أمر، فإن هذا أو ذاك من المشاعر المتباينة ما كان يستغرقني إلا في أقل الأوقات.

شيء واحد انطبع في ذهني وأسس نظرتي الخاصة لهؤلاء الغرباء الأثيرين إلى نفسي، ذلك هو طيبتهم وسماحة خلقهم ورغبتهم في إبهاج الآخرين. فهم، على بؤس حياتهم الظاهر، لا يترددون في ملء اجواء القرية وحقولها بالمرح. وقد كنت أجدهم من هذه الناحية متميزين حقاً عن فلاحينا، فيزداد تعلقي بهم، وينشأ في نفسي استنكار غامض لموقف أغلبية فلاحينا منهم.

وكما كنت موزع المشاعر إزاء جماعة المصريين، كنت، أيضاً، متباين السلوك: أحسّ، تارة، بأن المصريين هم الأفضل والأعمق إنسانية، فأتقرب منهم وأجهد لأظهر تعاطفي معهم. ثم أنساق تارة أخرى مع الجوّ الغالب فأردد الآراء الشائعة بشأن هؤلاء الغرباء وأشترك في السخرية منهم. وما تزال ذاكرتي تحفظ، حتى الآن، عدداً من أغاني المصريين التي كانوا يرددونها فيسيل منها حنينهم العميق إلى الأهل والوطن. وتحفظ الذاكرة، إلى جانب هذا، تلك الأهازيج التي ألفها فلاحونا ليسخروا من المصريين. واللافت للنظر، حين أمحص في الأمر بوعيي النامي، أن البائس لا يكون في سخريته مفرطاً في القسوة إلاّ حين يسخر من بائس مثله. هنا، تكشف السخرية انحطاطاً في الرؤية لا مسوغ له إلا البؤس ذاته. وقد كان على المصريين أن يتحلوا بالصبر العميق إزاء سخريات فلاحينا القاسية منهم، وكانوا على كل حال يستنكفون عن الرد، وإن ردوا فبذلك الأسلوب الذي يميز أبناء الشعب العريق: التعليق الخاطف الذكي المرح والعبارة اللماحة التي يطغى ما فيها من فكاهة على ما تتضمنه من مغزى قارس، فتردع أو تفحم دون أن تجرح. وقد

تبينت في المصريين منذ ذلك الوقت المبكر تلك الخصلة التي عاينتها على نحو أجلى في ما بعد: تحويل المأساة إلى فكاهة، وما كان أحلى فكاهاتهم وأعمق تأثيرها في نفسي حتى من قبل أن أعي مغزاها العميق!

لا يأتي إلى قريتنا في وقت الحصاد المصريون، وحدهم، بل يجيء الباعة الجوالون، أيضاً، هؤلاء الذين ينتظرون موسم الخير ليقتنصوا بعض الربح. و أوائل من يظهرون من هؤلاء هم باعة الحلوى والدمى وأدوات الزينة الذين تجتذب بضاعتهم النساء والأطفال. يفرد الباعة بضاعتهم على الأرض، في مواقع منتقاة عند تقاطع الدروب التي تصل القرية بحقولها، ويتصيدون المشترين. والبيع يتم، عادة، بالمقايضة، يعطيهم الشاري حزمة من السنابل ويأخذ مقابلها مشطاً أو مرآة أو حلية أو عطراً أو دمية أو قطعة حلوى أو أي شيء آخر من هذا القبيل، ما يستهوي النفوس المحرومة. كان الحصول على الحلوى، بالنسبة لنا نحن الأولاد، أمراً نادراً في معظم فصول السنة. ففي الدور لا يُعدُّون الحلوى إلا في الأعياد، والأصناف التي تعدّها الأسرة قليلة، وغالباً ما تكون من الكعك المحشوّ بمعجون التمر، أو الحليب المطبوخ بالسكر والنشاء. أما الباعة الذين يتكاثرون في موسم الحصاد فلديهم أصناف عديدة. ويمكن للطفل المجتهد أن يتمتع بحلاوة الطحينية والسمسمية والحمُّصية والجزرية، أو بالكعكبان ذي اللون الليلكي الخلاب وغزْلِ البنات الناعم الذي يذوب في الفم قبل أن يبلغ الحلوق، أو بحبّات الحامض حلو، وقطع النمورة المغرقة بالقطر، والبقلاوة المحشوة بالجوز والفستق. كما يمكن للطفل أن يحصل، هنا، على البالونات الملوّنة والطابات المطاطية النطاطة، وكذلك على الألعاب والدمى متنوعة الأشكال والأغراض.

من أجل الظفر بهذه الأطايب، كنّا نرافق الحصادين في سروتهم المبكرة نحو الحقول، نجمع ما يخلفونه وراءهم أثناء الحصاد من سنابل متفرقة، نلتقطها واحدة واحدة، ونعمل منها حزماً نقايض بها. وكنت في كل مساء حين أعود من عند جماعة المصريين أستحلف امرأة الجدّ التي ترعاني أن توقظني حين تستيقظ هي قبل انبثاقة الضوء، كي أصحبها إلى الحصاد. وكانت راعيتي، كغيرها من النساء، تلبي في أغلب الأيام رجاء الولد المشوق. وعندما يبدأ العمل وتنهال المناجل على عيدان القمح ويتقدم صف الحصادين هذا التقدم الوئيد الذي يقترن بعملية الحصاد، كنت أسير خلف الصف، فألتقط ما يتساقط من الأيدي من سنابل، وأقتلع ما تخطئه المناجل، وأصنع مما أجمعه على هذا النحو باقة تصغر أو تكبر، حسب الأحوال، وحسب اجتهاد الحصادين واجتهادي في متابعتهم، ثم أجدل عيدان الباقة كما تجدل النساء شعورهن، فأحصل على الحزمة المطلوبة.

وما كان الأمر سهلاً، كما قد تتصور. فالحصادون يباشرون العمل متراصّين بحيث يندر أن تخطئ مناجلهم السنابل. والأيدي خبيرة والسواعد متينة، فيصعب أن يسقط منها شيء. ثم إن الأولاد كثيرون، فعددهم يفوق عدد الأماكن المتاحة لالتقاط السنابل، والمنافسة شديدة بينهم. وقد يقتضي الأمر عمل ساعات طويلة تحت لهيب الشمس الذي يكوي الرؤوس والأجساد وعلى الأرض التي تشوي الأقدام الحافية قبل الظفر بحزمة تكفي لشراء قطعة نمورة أو قنينة شراب.

بالرغم من ذلك، كان من الممكن أن يتدبر الولد الأمر على نحو أو آخر. فمن الأولاد من يعطف عليه حصّاد قريب أو غريب فيعطيه ضمّة من السنابل ليضيفها إلى ما جمعه. ومنهم من يغتنم الفرص المتاحة فيسرق من أغمار القمح المتروكة وراء الحصادين ما يفي بالحاجة. على أي حال، كانت حظوظ الأولاد تتفاوت، فتتفاوت معها فرص الحصول على المتع. وكان الولد يجري إلى بسطات الباعة، حين يظفر بما يرضيه أو يقنع بما تيسر له خشية أن يفوته الوقت أو لقلة اصطباره، ويبدأ عملية المساومة والانتقاء. هذا النشاط كان يثير فينا كل الأحاسيس التي تتداول المشترين: الفرح بالظفر بالمرغوب والتمتع به، أو الأسى للحرمان منه، والشعور بالغبن حين يغشّنا البائع والسخط عليه، وحسد القرين الذي تتيسر له حزمة أكبر أو تتاح له مقايضة أوفر حظاً. ويظل هذا هو دأبنا طيلة النهار، نلتقط ونقايض، وقد نعاود الكرة حين يكون في الوقت متسع، وتتداولنا الأحاسيس المتنوعة، إلى أن يشتد الحرّ ويصير فوق الاحتمال. عندها، يعود الحصادون ونعود معهم إلى القرية، ويطوي الباعة بسطاتهم.

وبالرغم من البهجة التي تلون حياة الجميع، لم يكن موسم الحصاد يخلو من الحوادث التي تبعث على الأسى وتذكر الناس ببؤس حياتهم المزمن. كان هناك، دائماً، احتمال أن يشبّ حريق في حقل أو آخر، أو في كوم محصول أو آخر. يحدث الحريق بالصدفة، ويحدث، أيضاً، بفعل فاعل يريد الأذى لوجه الأذى، أو يدفعه الحسد إلى إيذاء الآخرين، أو يتعمد الانتقام من شخص أساء إليه. وكان هناك، أيضاً، خطر ضربات الشمس التي قد تجيء هينة فينجو من يتعرض لها، وقد يتضافر تأثيرها مع التعب فتصير خطيرة ولا تجدي معها العلاجات الشعبية التي لا يتوفر سواها. كما كان هناك، إلى هذا وذاك، خطر لسعات العقارب والأفاعي التي تنشط في الفصل الحار وتكون لسعاتها في بعض الأحوال قاضية. والحقيقة أن نصف حكايات الفلاحين في الأيام الرتيبة التي تعقب موسم الحصاد يدور حول هذا الخطر، بالذات، لكثرة ما يتعرضون له في هذا الموسم وفي سواه. وفي مخيّلة الفلاحين صور مرعبة عن الأفاعي، تفوق خطورتها ما عاينوه في خبرتهم الواقعية عنها. وما تزال مخيلتي تحتفظ حتى الآن بالصور التي استقرت فيها

عبر هذه الحكايا، ففيها الحنش الذي يملك قوة خارقة وإذا ظفر بإنسان التفّ حول وسطه وشدّ عليه حتى يقصمه نصفين. وفي المخيلة، أيضاً، صورة الحيّة النشابة، وهذه حيّة متينة الجسم ودقيقته، وهي تغطّ حين تحسّ دبيب الأقدام وتنطلق نحو ضحيتها وتخترقها كالسهم. بل إن في المخيّلة مما صنعته الحكايا صورة لحيّة مديدة القامة سمينتها، وهي التي تحمل الحية النشابة على ظهرها وتدور بها ثم تطلقها عند الحاجة، كما تحمل الدبابة مدفعها وتطلقه. وهناك الحية الألفية التي تعمر ألف سنة حسبما كان يشيع بين الناس، والحيّة ذات الأجراس التي يكشف رنين أجراسها عن حركتها، والأخرى التي يسيل السم مع لعابها فتكفي لمسة منه لتقتل دابة، ومثلها الحيّة التي تشع منها أضواء هي ذاتها قاتلة، وغيرها، وغيرها.

أما في واقع الأمر فالحصادون شديدو الحذر إزاء خطر العقارب والأفاعي اللابدة وسط الزرع، وإذا أحسّوا بوجود واحدة منها تعاونوا للقضاء عليها. ولو سمعت وأنت وسط الحقول ضجّة مفاجئة تصدر عن جماعة من الحصادين، فلا بدّ من أن يكون الأمر في أغلب الأحوال متعلقاً بالفتك بأفعى. إلا أن هذا الحذر ما كان يمنع المفاجآت. وإذا تعرض الحصّاد للسعة أفعى فهو الموت. فما كان فلاحونا يعرفون الترياق الواقي من سمّ الأفاعي ولا طرق إسعاف المصاب بلسعتها. والمواساة الوحيدة التي يقدمها الفلاحون للملسوع هي الصمت فيما هو وهم ينتظرون النهاية المفجعة.

وقد وقعت الواقعة في ذلك الصيف الذي تلا سنتي الأولى في المدرسة على حصّاد مصري. كان عبد السميع، وهذا هو اسم الحصاد المنكود، من أحبّ المصريين إلى قلوبنا، نحن الأولاد. فقد كان هو نفسه ولداً في إهاب رجل، يهذر معنا ويمزح ويشارك في عبثنا كواحد منا. وحين يفرغ لنا، كان عبد السميع يجلس بيننا ويحكي لنا عن الحياة في قريته المصرية فيدهشنا بكل ما هو غريب. من عبد السميع، عرفنا أن جدّه مات وهو يعمل مسخراً للباشا الذي يملك قريتهم ومصائر الناس فيها، ومنه عرفنا أن أباه ظل يكدح في أصعب الأعمال حتى أعجزه المرض فهام ابنه مع عمال التراحيل في مصر. جال عبد السميع في برّ مصر كله سعياً وراء لقمة العيش العزيزة، فلما قصّر العمل المتقطع والأجر المتدني عن توفير هذه اللقمة، انضم عبد السميع إلى الجماعة التي أغرته بالمجيء إلى فلسطين، جرياً وراء فرصة أفضل. ولما سألناه إن كان قد وجد هذه الفرصة، أجاب وهو يضحك وعيناه زائغتان: "اللقمة تجري بأسرع مما يجري الفقير". وحين تنتظم حلقة السمر حول جماعة المصريين في المساء، ويشتد توق الفلاحين والأولاد للتسلية، كان عبد السميع يبرز كأفكه السامرين. وكان من عادة الفتى أن يتحف السامرين، بين وصلات الغناء والرقص والعزف، بسيل من النكت التي تتواتر بسرعة تملك انتباه السامعين وتدفعهم إلى موجات متصلة من الضحك. وعنما يبلغ تجاوب المستمعين الأوج، يصمت

عبد السميع فجأة، ويغمزهم غمزة تحمل الوعد بوصلة نكت أخرى إذا أحسنوا الإصغاء لمن ينتدبه هو للغناء أو العزف أو الرقص، من زملائه. وكان عبد السميع نفسه يؤدي المواويل أداء شجياً مدهشاً، ولكنه لا يغني إلا إذا ألحّ الناس في مطالبته بالغناء. وإذا غنى عبد السميع، خرج صوته من قاع روحه واخترق الصمت والمشاعر وتسرب في هجعة الليل. وفي الحصاد، خلافاً لسمعة المصريين، كان عبد السميع يبزّ الجميع، فهو يتقدم صفّه دوماً ومنجله يلتمع تحت أشعة الشمس باستمرار، فيما تتكوم وراءه أغمار القمح الذي حصده.

وفي ضحى أحد الأيام، وكانت أشعة شمس شديدة الوطأ قد ألهبت الجوّ والأرض، ظمأ عبد السميع فاتجه إلى جرّة الماء فوجدها فارغة، فواصل الحصاد، فيما ذهبت إحدى الفتيات لتجلب الماء. فلما حضر الماء عبّه الظامئ عبّاً، ثم لم يلبث أن اشتكى من مغص ألمّ به، فتمدد ليستريح متكئاً على أحد الأغمار التي حصدها. هنا لسعت عبد السميع الأفعى التي أدركته وهو غافل عنها، فيما كان أقرانه مشغولين بالحصاد.

كنت إذ ذاك عائداً إلى حقل جدّي عبد المجيد ويداي مملوءتان بقطع الحلوى وأنا ألوكها وأسير على مهل. وقد اجتذبتني الضجّة، فجريت جرياً حتى بلغت المكان الذي تجمع فيه الناس حول الملسوع. وهكذا، قدّر لي أن أرى عبد السميع لآخر مرة، على هيئة تختلف كل الاختلاف عما ألفت. وليتني لم أر تلك الهيئة. كان الفتى يلفظ آخر أنفاسه، انحلت قواه، وغاضت مظاهر العافية، وازرق جلده. وبين فترة وأخرى، كان الجسد الممدد يصدر حركات تبعث في المحيطين به أملاً بارقاً، ثم لا يلبث أن ينطفئ الأمل حين يهمد الجسد من جديد. وطال نزاع الفتى الجَلد مع السمّ فاستنزف من العيون دموعها، ثم أسلم الروح.

مات عبد السميع في الغربة، واحتار الناس بشأن مصير جسده، فأين ينبغي دفن هذا الجسد، فبلده بعيد وما من أحد يعرف كيف يمكن إيصال الجثمان إليه. ثم استقر الرأي على أن يدفن في مقبرة المسمية الصغيرة، وبقيت من حكايته غصة في قلوبنا، نحن الذين أحببناه، ومسحة حزن تخايلت طيلة الموسم على وجوه زملائه.

حين يفقد الناس عزيزاً يواسون أنفسهم بالحكمة القديمة: "الحيّ أبقى من الميت". وتلك هي الحياة حقاً، فهي الأقوى حتى لو كانت حياة بائسة. ولم يلبث أن انشغل الناس، بمن فيهم زملاء عبد السميع المصريون، عن مأساته، واستغرقوا في مشاغل الموسم وحتى في مباهجه. ولست أزعم أني كنت استثناء من بين الناس. غير أن ذكرى الفتى الذي انطفأت حياته على هذا النحو الفاجع كانت تلمّ بي من حين إلى آخر. وكان حضور هذه الذكرى يطلق في ذهني الطريّ هذا السؤال: لماذا يموت الناس الطيبون؟ ولكن السؤال ذاته وكذلك الذكرى لا يلبثان أن ينطفئا، يطفئهما مجرى الحياة الذي لا يتوقف.

-١٢-

حين يظهر الخير يتكاثر قناصوه

بانتهاء الحصاد في الحقول ينتقل النشاط إلى الأجران. وفي الأفضية المحيطة بالقرية جرن لكل حمولة من حمائل الحوراني، وفي هذا الجرن بقعة لكل أسرة، تنتقل إليها أغمار القمح وتتكوّم فيها إلى أن تبدأ عملية الدرس لاستخراج الحبّ العزيز من سنابله.

ومع بداية مرحلة الدرس، يبدأ التجّار بالتوافد على المسمية الصغيرة. يأتي الواحد منهم فيستضيفه الذين يتعاملون معه ويتناوبون تنظيم الولائم له. ولأن كرم الفلاح يزداد في هذا الموسم، ثم لأنه محتاج لاسترضاء التاجر لأكثر من سبب، فإن البذخ في هذه الولائم يجري بغير حساب. وغالباً ما يكون التاجر هو ذاته المرابي، أي الذي يقرض الفلاح خلال فصول السنة الأخرى نقوداً وبضائع يستوفيها من نتاج الموسم بعد أن يضيف إليها ما يحتسبه من فوائد. وفي هذه الزيارة، تكون عيون التجار وأذهانهم في أتمّ يقظتها، فهم يقدّرون قيمة المنتوج قبل أن يتمّ الدرس، ويضعون خططهم في ضوء هذا التقدير لاحتساب السعر الملائم واستيفاء ما يمكن استيفاؤه من الديون وتدوير الباقي للسنة التالية. يفعل التجار هذا منذ البداية حتى لا يتمكن الفلاح من إخفاء شيء عنهم، وحتى لا يفاجأ الواحد منهم بتاجر منافس يستأثر بالمتعاملين معه ويشتري المنتوج من وراء ظهره.

وفي الوقت ذاته، يأتي مأمورو الضرائب، ويلقى هؤلاء إكراماً لا يقلّ عن إكرام الفلاحين للتجار. بل إن من هؤلاء المأمورين من لا يتورع عن تقريع الفلاح، صراحة، وبوقاحة، إذا

رأى أن مضيفه قصّر في البذخ. ولا يملك الفلاح إزاء ذلك إلا أن يصمت أو يعتذر. فلمأموري الضرائب سطوة على الفلاحين لا تقل عن سطوة التجار أو رجال البوليس. وربما فاقت سطوة مأمور الضرائب سطوة أي وافد آخر، خصوصاً في هذا الموسم الذي يتقرر فيه كل شيء بالنسبة لحياة الفلاح وأسرته في السنة القادمة كلها. فمع كثرة الضرائب وسلطة المأمورين المطلقة في تقدير قيمتها وجهل الفلاح بطرق المراجعة والاعتراض على هذا التقدير، تستطيع أن تفهم لماذا ترتهن معيشة الأسرة بمزاج هؤلاء المأمورين. وحين يغضب المأمور لأي سبب من الأسباب، فمن شأنه أن يشتط في تقدير قيمة الضريبة المفروضة على الإنتاج بحيث يرهق كاهل ضحيته ويحرمه، هو وأسرته، من التمتع بنتاج كدّهما طيلة عام بكامله. وأسباب غضب المأمورين كثيرة، فقد يستشعرون تقصيراً في الحفاوة بهم فيحنقون، وقد يجدون أن الرشوة المعروضة عليهم، والرشوة لا بد منها في كل الأحوال، أضأل من الوزن الذي يفترضونه لأنفسهم فيشعرون بالإهانة. وكثيراً ما يشتط المأمور في التقدير، دون أن يقع من جانب الفلاح أي تقصير، وذلك لا لشيء إلا لأن أكلاف المعيشة في المدن، حيث يسكن، قد ارتفعت فازدادت معها حاجاته، فهو يُرهب الفلاح بشططه كي يرغم هذا الفلاح على دفع رشوة أكبر، وقد يشتطّ المأمور لأن المسؤول عنه الذي يتقاسم معه الرشوة قد تبدل وحل محلّه مسؤول جديد أكثر طمعاً. وإذا أفلح الفلاح في إرضاء المأمور فأشبع نهمه وملأ جيوبه وأترع خرج حصانه أو صندوق سيارته بأجود ما في الدار من الفريكة والسمن واللبن الجميد والزبيب والقطين، فهذا لا يعني أن المأمور سيعفي الفلاح من شيء، ضريبة أو رشوة، وكل ما في الأمر أن المأمور لن يكون أكثر شططاً من المألوف.

ورجال البوليس هم الآخرون يزداد ترددهم على القرية في هذا الموسم، ولهؤلاء طلبات يتوجب على الفلاحين تلبيتها. يختلق رجال البوليس الأسباب لزياراتهم المتعاقبة، أو يأتون حتى من دون أسباب، ويفرض هؤلاء ما يطيب لهم فرضه من أتاوات متنوعة. وإذا لم يؤدّ الفلاح الأتاوة، أو إذا عنّ له أن يتذمر، فالويل له من المخالفات التي ستنظم بحقه والتي تستتبع دفع الغرامات الباهظة أو حتى الحبس، والويل للقرية التي تحنق عليها جماعة البوليس!

ليس للفلاحين مورد دخل إلا منتوج الحقول. مالك الأرض يرتزق من دخل الأرض، والعامل الأجير يحصل على أجرته من هذا المالك، وكلاهما ينتظران نهاية الموسم ليظفرا بدخلهما السنوي. أما معيشة الأسرة على مدار السنة فيتدبرها ربّ الأسرة، مالكاً كان أو أجيراً، من ثلاثة مصادر: الأول هو ما يختزنه الواحد منهم من حبوب الموسم من القمح أو الشعير، ثم من الذرة والعدس، وما شابه، والثاني، هو ما يستدينه على مدار السنة من

دكاكين القرية، حيث يجد حاجاته اليومية البسيطة من السكر والشاي والبن والصابون، يسجل عليه صاحب الدكان أثمان ما يسحبه منها، ثم يتقاضى الثمن دفعة واحدة مع نهاية الموسم، وقد يدفع الفلاح الثمن حبّاً لصاحب الدكان، أو يدفعه نقداً إن ظفر بشيء من النقد من تاجر الحبوب، والثالث هو تاجر الحبوب هذا، وغالباً ما يكون هذا التاجر صاحب دكان كبير في المدينة، يقدم لعميله الفلاح حاجاته التي لا يجدها الفلاح في القرية أو يقرضه نقداً حين يضطر إلى ذلك، وحين تقع للفلاح حاجة لا تلبيها دكاكين القرية أو حين يعوزه النقد، فإنه يحمل نفسه ماشياً أو راكباً على دابة إلى المدينة التي يعيش فيها تاجره. وهناك يتوجب على الفلاح المحتاج أن يشرح حاجته، وأن يلحف في الرجاء كي يرضى التاجر ويلبيها له، وفي العادة، لا يظهر الرضا إلا بعد عناء شديد ومماطلات تطول أو تقصر حسب مزاج التاجر وتقديره الأوليّ للموسم القادم. والتاجر لا يتعامل مع من هبّ ودبّ ولا يفتح كيسه بسهولة. وحين يعطي التاجر للفلاح بضاعة أو نقداً فهو لا يعطي إلا بمقدار حتى يظل الطالب بحاجة إليه. والتاجر لا يعطي، في كل الأحوال، إلا على أساس معرفته بأوضاع العميل وقدراته. وهكذا، يكون الواحد من هؤلاء التجار ملماً إلماماً تاماً بأحوال الفلاح الذي يتعامل معه، كلها، وأحوال الفلاحين الذين يتعاملون مع التجار الآخرين، أيضاً، ممن قد يلجأون إليه ذات يوم إذا فقد تاجرهم الثقة بهم أو ضيّق عليهم زيادة عن اللزوم.

ومن التجار ناس لا يتعاملون بالربا، صراحة، بل يعلنون كرههم له ويرددون أنه حرام، إلا أنهم يمارسون نوعاً غير مباشر من الربا لا يقل أذىً للفلاح عن الربا الصريح. يحدث، مثلاً، أن تشتد حاجة الفلاح للنقود، لأنه يريد، مثلاً، أن يزوج ابنه وعليه أن يدفع مهر العروس، هنا، يتوجب على طالب القرض أن يشتري مستلزمات العرس من الأقمشة والهدايا والحلويات من دكان التاجر الدائن. والتاجر يسجل الأسعار على نحو يفوق القيمة الفعلية للمشتريات بحيث يستوفي الفائدة بهذه الطريقة دون أن يرتكب الحرام. وحين يحلّ موسم استيفاء الدين، يسترد التاجر دينه من الإنتاج، وهو الذي يقدر الأسعار على هواه، فيكون الفلاح، بهذا، قد تكبد رباً مضاعفاً، فيما يجهر التاجر بحمد ربه لأن الربّ برأه من رذيلة الربا.

أما المرابون المحترفون فهم آفة حقيقية، والفلاح لا يلجأ إليهم إلا حين يواجه كارثة طارئة. فقد تموت الدابّة التي يعتمد عليها الفلاح في رزقه ولا تكون سمعة هذا الفلاح عند تاجر الحبوب كافية لإقناع التاجر بتزويده بدابّة جديدة، أو قد يحترق حقل الفلاح، أو يعجزه المرض عن العمل في وقت الحرث أو الحصاد فيصير بحاجة لأن يكتري عمالاً مأجورين ولا يطمئن هؤلاء لمستقبل موسم الفلاح العاجز فيطلبون الأجرة نقداً.

في حالة كهذه، لا يكون أمام الفلاح المنكوب بدّ من اللجوء إلى المرابي. وللمرابي كغيره من التجار، وربما أكثر من غيره، دراية عميقة بأحوال الفلاحين، ولديه مصادر يستوفي منها أدق المعلومات عنهم.

يأتي المحتاج إلى المرابي، فإن كان ممن لا يملكون أرضاً أو مواشي أو مصدر رزق عينياً صرفه المرابي بغير رحمة أو مجاملة، بل وبّخه على طمعه في الدنيا وتطلعه للاستحواذ على ما بيد الآخرين مما أنعم الله عليهم به. وإن كان الطالب ممن يملكون شيئاً يُعتدُّ به، حليةً أو فرساً أو جملاً، أرغمه المرابي على أن يرهن ما يملك، وجعله يوقع ببصمته على سند لا تحدد فيه قيمة الدين وحده، بل قيمة ما يفرضه المرابي عليه من فائدة، أيضاً. يفعل المرابي هذا بعد أن يبذل جهد الخبير الخبيث في تبخيس قيمة الشيء المرتهن والحديث عن الكساد وتقلب أحوال الأسواق وقلّة الفرص المتاحة لبيع الرهينة إن احتاج لبيعها. والمرابي يفرض فائدة شهرية، وليس سنوية، وهي فائدة قد تصل قيمتها إلى خمس المبلغ المفروض، ويضيف قيمة الفائدة التي تتراكم خلال الأشهر المتبقية للموسم على السند الذي يضع الفلاح بصمته عليه. وبهذا يتضاعف المبلغ المقرض مرة أو مرتين عندما يحين أوان استيفائه، دون أن يدرك المدين كيف وقع هذا.

ويقع طالب الدين بالربا في دوامة أشدّ خطورة إن كان من الذين يملكون أرضاً. فللمرابين نظرة خاصة لهؤلاء، وكثيراً ما يكون هدف المرابي هو الاستيلاء على الأرض ذاتها.

لقد كان للأرض في فلسطين، كما عرفت، وضع متميز، فهي الهدف الأول للصهيونيين الذين وفدوا إلى البلاد للاستحواذ عليها والتخلص من أهلها وإقامة الدولة اليهودية عليها. والصهيونيون الذين أعطاهم البريطانيون الكثير من الأملاك العامة بأثمان بخسة، أو حتى من دون ثمن، يعرضون أسعاراً عالية مقابل الحصول على الأملاك الخاصة. وفي مناطق عديدة كالمنطقة التي تقع فيها المسمية الصغيرة، لم ينجح الصهيونيون في دقّ أسافين كثيرة لهم، وكان من شأنهم، إذن، أن يعرضوا أسعاراً خيالية مقابل الأرض. بالرغم من ذلك، لم يبع الناس أرضهم في منطقتنا لأي صهيوني. لكن الصهيونيين، في بحثهم المثابر عن الفرص وبتوفر الأموال اللازمة لهم، استخدموا وسطاء من المتطلعين للثراء أو سماسرة كما يسميهم أهل البلاد. وكان الصهيونيون يتصيدون سماسرتهم من بين المرابين وأمثالهم، ممن فقدوا القيم والضمير والارتباط بمجتمعهم وألفوا أن يمصّوا دم أبنائه دون رادع. وكان هؤلاء السماسرة يتصيدون فرائسهم، بدورهم، من بين الفلاحين المعوزين.

ولم يكن الأمر يتم بسهولة، على كل حال. فهو ينطوي بالنسبة للسمسار على مخاطرة كبيرة، إذ إن الحركة الوطنية المدعومة بتأييد كاسح من الجمهور تعاملت مع السماسرة بوصفهم خونة وأباحت لنفسها أن تعاقبهم على هذا الأساس. وكانت العقوبة تصل إلى حد الحكم بالإعدام على سمسار الأرض إذا لم يستجب للإنذارات التي توجه إليه. ثم إن الفلاح نفسه لا يفرط بأرضه حتى لو لم يكن الصهيونيون الطامعين فيها. وبوجود هؤلاء الطامعين في السيطرة على البلاد كلها وإلغاء وجود أهلها فيها صار الفلاح أشدّ حذراً و أشدّ تشبثاً بأرضه، وتضاعف حذره من مغبّة التفريط بها.

وفي جو كهذا، لم يكن الفلاح يلجأ لرهن أرضه للمرابي إلا إذا كانت الكارثة الملمة به أكبر من أن يخرجه منها أي شيء آخر. وغالباً ما تنجم الكوارث التي من هذا النوع عن التطبيق المتشدد للقوانين الجائرة التي تضعها السلطة البريطانية المحتلة، والتي كان من بين أهدافها تسهيل انتقال الأرض إلى أيدي الصهيونيين. فهناك الضرائب الكثيرة التي يشتط مأمورو الضرائب في تقدير قيمها فتتراكم بحيث لا يكفي نتاج الأرض كله للوفاء بها. وهناك، أيضاً، المضاربات وتأثيرات الظروف الطارئة التي تؤدي إلى هبوط الأسعار فجأة، فيعجز الفلاح عن تدبر أمره مع الضرائب. وهناك الأنظمة التي تبيح للسلطة مصادرة الأرض حين لا يزرعها الفلاح عدداً محدداً من السنين.

وإذا وقع فلاح في فخّ المرابي الذي يعرض عليه القروض، فإن مصير أرض الفلاح يؤول غالباً إلى يد هذا المرابي.

في تلك الفترة من الأربعينيات، كان الناس قد عرفوا هذا كله نتيجة الخبرة الطويلة. ولا أتذكر أن حادثة من هذا النوع وقعت أثناء حياتي في المسمية الصغيرة. وقد نشأ مع نموّ الوعي الوطني وتطور الحركة الوطنية وتزايد نفوذها في أوساط الجمهور نوع من التكافل الاجتماعي من شأنه استنقاذ الأرض التي يحيق بها الخطر. وإذا بلغت نكبة الفلاح حداً يعجز معه عن احتماله ولم يبق أمامه إلا رهن أرضه للمرابي، تكافل أقرباؤه وأنسباؤه وأصدقاؤه فعوضوه بالجهد أو بالمعونات بعض، ما خسر أوكلّه، وحموا أرضه من الضياع. وإذا عجز المقربون من الفلاح عن القيام بالمهمة، تكافلت القرية كلها لإنقاذه، حتى إذا لم يبق من حلّ سوى بيع الأرض بحث الناس عن مواطن موثوق قادر على شرائها كي لا تنتقل إلى أيدي السماسرة والغرباء.

في ذلك العام، بعد أن انتهى نقل الأغمار من الحقول إلى الأجران، قدم إلى القرية اثنان من مأموري الضرائب. قدم هذان ممتطيين حصانين قويين من النوع الذي يستخدمه الجيش البريطاني، ودارا بحصانيهما حول القرية، فمرّا بالأجران كلها مستطلعين محتوياتها

بنظرة أولية عن كثب. كنت ألعبُ آنذاك مع أقراني بين أكوام القمح. وقد تركنا اللعب حين رأينا الفارسين، وتبعناهما، حتى بلغا مضافة جدي سلمان، وترجلا بجلبة، وسلّما حصانيهما لأحد رجال المضافة، وأوصياه بلهجة آمرة أن يجزل لهما في العلف.

دخلت المضافة مع الزائرين. وقد استقبل الجدّ رجلي الحكومة هذين بحفاوة مدروسة: نهض بعد أن اجتازا العتبة، وبقي في مكانه إلى أن خلعا نعالهما واتجها نحوه للسلام عليه فتقدم نحوهما، وصافحهما بيد مبسوطة، فارداً على وجهه نصف ابتسامة، ثم دعاهما إلى الجلوس قبالته دون أن يخلي لهما مكانه في صدر المضافة، وأجلسني في حضنه. وبعد تبادل الأسئلة عن الصحة والأحوال، وبعد أن شرب الزائران القهوة المرة وامتدحا جودتها ونوّها بكرم الجدّ، انتقل الحوار إلى الحديث عن الموسم. كان حواراً طريفاً، لكل كلمة فيه ولكل جملة مغزاها الخاص الذي يتجاوز ظاهرها دون أن يلغيه. وكنت أصغي بفضول شديد محاولاً أن لا يفوتني مغزى الحوار. وقد حاول الجدّ ومواطنوه الموجودون في المضافة أن يتركوا لدى الزائرين المتيقظين انطباعاً بأن الموسم ليس بالجودة التي تشاع عنه، فالسنابل كثيرة، نعم، كما أقرّ بذلك المتحدثون من أهل القرية، إلا أن امتلاءها بالحبّ أقل من المألوف، والقشّ هشّ وعيدانه رفيعة، وأجرة الحصادين ارتفعت هذا العام، بصورة مفاجئة. غير أن الزائرين لم يؤخذا بالأقوال الكثيرة التي صبت في هذا الاتجاه، فالموسم كما نوه بذلك الزائران من أجود المواسم التي عرفاها طيلة خدمتهما، فالحبّ كثير، والقش غليظ العيدان، وأجرة الحصادين إن لم تنقص عن العام الفائت فهي لم ترتفع، وكل ما في الأمر أنكم احتجتم لحصادين أكثر لأن الإنتاج أوفر.

وحين بلغ الحديث ذروة التباين، عدّل واحد من المأمورين قعدته على نحو يوحي بأنه سيتطرق للموضوع الذي جاء من أجله، ثم وجه الرجل، واسمه أبو محمود، الحديث مباشرة إلى جدي: "قل لجماعتك، من الصعب أن يُغشّ أبو محمود، نحن لا نريد لكم إلا الخير، شرط أن تريدوا الخير لنا، وكلّه بالتفاهم". ومن المؤكد أن جدّي كان يدرك أن هذا التفاهم لا بدّ منه، وقد التقط العرض وأجاب: "الخير للجميع، بإذن الله، تأكلون المقسوم، وبعدها نتفاهم". وإذ ضمن أبو محمود الوليمة والاستجابة، فقد جاء دوره ليتحدث من جانبه، بالأسلوب الملغز ذاته، عن ارتفاع أكلاف المعيشة في المدينة. كان الرجل يضع المقدمات اللازمة لتحسين موقفه في المساومة التي ستتم بعد الغداء. وبقي الرجل الثاني صامتاً، يراقب الحضور بعينين لا تكفّان عن الحركة، ويؤمّن على كلام صاحبه بهزات متواترة من رأسه.

رجال البوليس لهم أسلوب آخر ينسجم مع طبيعتهم بما هم قوة ذات سلطة مباشرة مرهوبة. يجيء هؤلاء إلى القرية جماعات وفرادى. و إذا جاءوا جماعة فهم في دورية

رسمية يترأسها شاويش أو عريف بريطاني وتحملها سيارة. تدخل الدورية القرية ومعها أوراق فيها تبليغات واستدعاءات لهذا أو ذاك من أهلها. وغالباً ما يتعلق الأمر بمخالفة ارتكبها الفلاح المقصود أو نسبت إليه نتيجة وشاية، أو التصقت به ظلماً. تقدم الدورية الورقة لصاحبها، وتطلب منه أن يضع بصمته على دفتر يحمله رئيس الدورية، ثم يتنحى الرئيس جانباً، متشاغلاً بكتابة شيء في الدفتر تاركاً لمعاونيه من أفراد البوليس العرب فرصة المساومة مع الفلاح. وأياً ما كان عليه السبب الذي أوقع الفلاح في براثن الدورية فلا بدّ من أن تبتزّ منه شيئاً قليلاً أو كثيراً، نقوداً، إن أمكن، أو بيضاً، أو طيوراً، أو كيس حبّ. وتنتقل الدورية من منزل إلى آخر حتى تمتلئ السيارة بالإحمال، ثم تجيء إلى المضافة من أجل المساومة على المسائل الكبيرة، كأن يكون ثمة شخص مطلوب للعدالة وهو فار، أو أن يكون هناك تحقيق في قضية سرقة أو مشاجرة أدت إلى جروح وكسور، أو ما شابه ذلك. هنا، لا بدّ من وسيط للمساومة، ولا بد من دفع رشوة مجزية حتى تغضّ الدورية النظر عن الشخص المطلوب، فيتاح له أن يقوم بدوره في موسم العمل، أو حتى يحوّر التحقيق كي لا يُجرّ المنخرطون في المشاجرة أو المشبوهون في عملية السرقة إلى السجن البعيد.

أما إذا جاء رجل البوليس وحده، وهذا ما لا يفعله إلا رجال البوليس من العرب لأن البريطانيين يتجنبون دخول القرى فرادى، فمعنى ذلك أنه جاء لاقتناص الفرص دون مهمة رسمية، والفرص التي يتصيدها المبتزون عديدة. فقد يتلقى مركز البوليس إخبارية عن فلاح ارتكب مخالفة ما، فتقع الإخبارية في يد رجل بوليس متصيد، فيحتفظ بهذه الإخبارية دون أن يسجلها في السجلات الرسمية، ويجيء بنفسه للمساومة. وقد تقع عين المتصيد أثناء جولته في القرية على مخالفة بناء أو رعي أو استخدام ماء أو ما شابه ذلك، فيساوم مخيّراً ضحيته بين المساءلة القانونية أو دفع الرشوة. وقد تكون المخالفة التي هي موضع المساومة من نوع التخلف في الإبلاغ عن ولادة أو وفاة أو التكتم على مرض معدٍ توجب القوانين التي لا يعرفها الفلاحون الإبلاغ عنه. وقد يتعرض الفلاح للابتزاز بسبب كلب موبوء أو جيفة دابّة تفسخت في العراء. وإذا لم يتهيأ للمتصيد الطامع أي سبب من هذه الأسباب، فإنه يظل من السهل عليه أن يفتعل السبب افتعالاً ليثير خوف ضحيته.

وكان من أرذل المتسلطين على المسمية الصغيرة واحد اسمه جمعة، والفلاحون يدعونه في ما بينهم "المصيبة". والحقيقة أن حلول جمعة في القرية كان كل مرة مصيبةً فعليةً يحسب الفلاحون حسابها ويتوقّونها بشتى الأساليب. كان هذا الزائر المداهم شاباً من إحدى القرى البعيدة، أنكره أهله ونبذوه لسوء سلوكه في قريته، فتشرد في البلاد فترة حتى وجد طريقه إلى البوليس، فانتمى إليه. وما كان بمقدور شيء أن يردع جمعة عن إلحاق

الأذى بالناس، فهو يتشمم الأخبار التي تترصدها السلطة البريطانية ويجمع المعلومات ويبلغ رؤساءه بها، تستوي في ذلك أخبار النشاطات الوطنية وأخبار المخالفات العادية. ويلاحق جمعة النساء بلا حياء، يختار من بينهن من تجاوزن سنّ الفتوة لاعتقاده أنهن أدعى للرضوخ، لأنهن يخشين الفضيحة ويتجنبن إيقاع رجالهن في مشاكل مع البوليس فيقبلن أن يكنّ ضحايا ابتزازه. ويوازن جمعة بين حاجته إلى كسب رضا رؤسائه ورغبته في الحصول على الخوّات لنفسه. فهو يرضي الرؤساء بأن يبلغ إليهم بعض ما يتيسر له من معلومات، ويلبي طمعه بالمساومة على بعضها الآخر مع المعنيين بها من الفلاحين. ويفرض جمعة الخوّات صراحة وبوقاحة: ينذر ضحيته دون مواربة، ويحدد لها وقتاً معلوماً، كما يحدد بدقة ما ينبغي أن تدفعه الضحية، ويعود في الوقت الذي حدده لتحصيل المفروض، أو للانتقام. ولهذا "المصيبة"، إلى كل ما تقدم، جولات يقوم بها في الليل خلافاً لعادة رجال البوليس الذين يتهيبون المشي فرادى في الليل. فهو يغشى الدروب التي يستخدمها المهربون أو الثوار والأماكن الخلوية التي يلتجئ إليها العشاق أو طريدو العدالة، ويكمن لهؤلاء، ويبتزهم. والناس لا يخشون "المصيبة"، هذا، لأنه قوي في حدّ ذاته، بل لأنهم يعتقدون أنه محميّ من رؤسائه الكبار وقادر على الإيقاع بخلق الله عند هؤلاء الرؤساء.

وقد جاء "المصيبة" في ذلك العام، أيضاً، وحدد مطالبه ووزعها على ضحاياه وأنذرهم بأنه سيعود لتحصيلها مع نهاية عملية الدرس. في هذه الزيارة، أمضى "المصيبة" عدة أيام في المسمية الصغيرة، يجوس أزقتها وبيوتها خلال النهار ويفرض نفسه ضيفاً ثقيلاً على من يؤثر موائده، ويختفي في الليل فلا يعرف الناس أين ذهب أو أين سيبيت، يغادر القرية بعد الغروب وبارودته الإنجليزية اللامعة معلقة في كتفه ومسدسه القلاب محزوم في وسطه. أما ما الذي يفعله "المصيبة" في هذه الأوقات، فلم يكن من الأحاديث التي تروى أمامنا نحن الصغار. ولم يكن الشابّ الوقح غبياً، فقد كان يختار ضحاياه من ضعاف النفوس والخوافين، فهو لا يدخل بيت مختار أو وجيه ولا يحتكّ بصاحب نفوذ.

وقد حملتني الصدفة، و"المصيبة" في القرية، إلى دار قريب لنا اشتهر بانطوائه على نفسه واعتزاله الناس. كان هذا القريب نكداً ضيّق الصدر سريع التأذي فكان أن جافى معظم أهل القرية. وقد أتاه "المصيبة"، في ذلك اليوم، وفرض نفسه ضيفاً على الدار. ولم تكن ربة الدار فيها حين قدم "المصيبة" فاضطر ربّ الدار إلى استدعائها كي تعد طعام الغداء. وفي غضون ذلك، ألقى "المصيبة" سنارته، قال للرجل إن كارهيه كثيرون، وإن رؤساء البوليس تلقوا إخبارية تفيد بأن هذا الرجل يساعد الثوار وأنه سبق له أن كان واحداً منهم. وادعى "المصيبة" أن لدى البوليس بلاغاً يؤكد أن صاحب الدار حفر حفرة تحت

جدار داره وخبأ فيها السلاح الذي استخدمه إبّان الثورة، وأنه، أي "المصيبة"، مكلف باستقصاء الأمر، ولو صح هذا وأبلغ هو عن المتهم، فمعناه أن تهدّ الدار بحثاً عن السلاح المخبأ، وأن يغيب الرجل في السجن، وربما تعرض للشنق، وأن يتشرد عياله ويشمت فيه الشامتون. وعندما حضرت الزوجة، كرر "المصيبة" الحكاية أمامها مشدداً على المقاطع التي تصور المصير الأسود الذي ينتظر ربّ البيت وعائلته، ومتلذذاً بمراقبة ردود الفعل على الوجهين البائسين، وموجهاً للزوجة تلك النظرات التي تفهمها أيّ زوجة مدعوة لارتكاب ما يوجع ضميرها ويخرق أمانتها لزوجها.

كنت أصغي مدهوشاً ومتشككاً دون أن يوليني "المصيبة" أي اهتمام. ولم أفهم إلا بعد حين لماذا تعمد الزوجان أن يصرفاني. وفي اليوم التالي، لقيتني الزوجة على أحد الدروب، فاستوقفتني، وسألتني عما إذا كنت قد قصصت على أحد ما سمعته في دارها، فلما تأكدت من أني لم أفعل قالت: "هذا أحسن"، ومسدت رأسي بيدها، ثم مضت.

-١٣-

يشتعل الفرح ثم يغيض والأعـوام تـدور

بانتقال الأغمار من الحقول إلى الأجران، يبدأ موسم الدرس، وينتقل مركز النشاط إلى هذه الأجران، حيث العمل المتصل طيلة النهار والسمر الذي يمتد حتى وقت متأخر من الليل والفرص الوافرة لعبثنا، نحن الأطفال.

امتلأت الأجران بأكوام السنابل، وتجاورت الأكوام وتماوجت على مدار الفضاء المحيط بالقرية، كأنها تلال متفاوتة الحجوم، بحيث يدل حجم كل واحد منها على منزلة الأسرة التي تملكه ومقدار غناها أو فقرها. كان العمل يبدأ مع إشراقة الصباح. يأخذ الفلاح من الكوم الذي يخصه ما يتناسب مع المساحة المخصصة له من أرض الجرن، ويفرده على شكل دائرة بسماكة غير كبيرة صانعاً منها ما يسمونه الطرحة، لتبدأ، بهذا، عملية الدرس. والدرس عملية شاقة في واقع الأمر، وإن وجدها الأطفال ممتعة. وهي العملية التي تستهدف فصل الحبّ عن سنابله وتفتيت العيدان إلى قطع صغيرة، بحيث يتم استخراج الحبّ والتبن والقصل، كلاً على حدة، الحبّ لمؤونة العائلة وبذار الموسم القادم وبيع ما يفيض منه، والتبن لعلف الدواب، والقصل للعلف، أيضاً، ولأغراض أخرى شتى، إذ يمكن أن تحشى به الوسائد والفرش حين يعزّ الصوف والقطن، أو يخلط مع التراب ويصنع من الخليط المجبول بالماء الطوبُ الذي يستخدم في البناء.

ولإتمام عملية الدرس، تُستخدم الأداة التي توارثها الفلاحون جيلاً بعد جيل، ربما منذ اهتدى الإنسان إلى استخدام الخشب والمعدن قبل آلاف السنين: لوح مستطيل من

الخشب مقوى بمسامير حديدية ثخينة تزين اللوح وتجعله أشدّ تماسكاً. وفي أسفل اللوح تنغرس قطع مسننة من الحديد أشبه بالمناشير، وهي تصطف متوازية، والواحدة منها بطول الكفّ. هذا اللوح المسلح بالمناشير من أسفله يجرّه ثور أو حصان أو حتى حمار ويدور به فوق الطرحة ساعات وأياماً متتالية، إلى أن يتم تفتيت السبل والعيدان إلى الحجوم الصغيرة المطلوبة. ولكي يصبح اللوح أثقل ومفعوله أشدّ، كان الأقرباء يأذنون لنا، نحن الصغار، بأن نجلس أو نقف فوقه، فندور مع اللوح وتدور في رؤوسنا الأحلام والتصورات البهيجة: نتخيل أنفسنا فرساناً من فرسان الحكايات في عربات محاربة أو قباطنة سفن أو مغامرين يرودون البراري. وكنّا نستمتع بتوجيه الدابّة التي تجر اللوح وتجرنا معه، ونحثها على الإسراع، دون أن يردعنا الكبار، لأن في ذلك ما يسرّعُ إتمام العملية.

وحين ينتهي درس الطرحة الأولى، يلم الفلاح الدريس ويفرد أغماراً أخرى في طرحة جديدة. وتتكرر العملية، حتى يختفي الكوم غير المدروس، وينهض، في الجهة المقابلة الكوم الجديد الذي تمّ درسه.

في غضون ذلك، يطيب السمر في الليل، بعد أن يتوقف العمل بحلول الظلام، وتتنوع الألعاب ويذهب الأهل المجهدون إلى الدور، ولا يبقى في الأجران إلا نحن الأولاد الذين يجافينا النوم إزاء المتع الوفيرة المتاحة.

كنّا نلعب لعبة "عسكر وحرامية" أو "عرب ويهود"، حيث توفر لنا فسح الأجران والأكوام الموزعة فيها ميادين ملائمة للمطاردة والتخفي. وإذا مللنا من الجري والمناورة أو تعبنا منهما، جلسنا في حلقات ولعبنا " طاق طاق طاقية"، وهذه لعبة رتيبة غير أنها كانت تمتعنا. نجلس متجاورين في حلقة كبيرة، ويحمل أحد الأولاد طاقية يدور بها حول الحلقة وهو يهتف بصوت منغم: "طاق طاق طاقية"، فيردد أولاد الحلقة: "رنّ رنّ يا جرس!"، وهم متيقظون لما يمكن أن يفعله حامل الطاقية. حتى إذا آنس هذا غفلة من أحد المتحلقين، وضع الطاقية خلفه خلسة، وتابع الدورة والهتاف. هنا، ينهض أحد احتمالين: أن يظل الولد الذي وضعت الطاقية خلفه غافلاً عن وجودها، فيصير من حق الولد الدائر حين يبلغ المكان أن يلتقطها ثانية و يضرب الولد الغافل بها خلال دورة كاملة حول الحلقة يقوم بها الاثنان: الضارب والمضروب، أو يتنبه الغافل فيلتقط هو الطاقية ويلاحق الذي ألقاها خلفه ويضربه بها، ثم يتابع هو اللعبة. وحين ينقص عدد اللاعبين بانصراف عدد من الأولاد إلى بيوتهم لأن الأهل لا يسمحون لهم بالسهر طويلاً خارج المنزل، تُمسي اللعبة مملة، فنتحلق في حلقة أصغر من السابقة، ونشرع في لعبة جديدة، كأن نقلد أدوار الكبار في

الأسر أو سلوك المدرسين في الفصول أو دور رجل البوليس أو جابي الضرائب أو ما هو مثل هذا من فنون.

حتى إذا نقص العدد أكثر فأكثر فلم يبق في الجرن إلا شلة الخلان المتفاهمين وحدهم، يحين الوقت للعب اللعبة التي يكون التواطؤ حولها قد تم قبل ذلك. وهي لعبة ما كنّا نجرؤ على القيام بها في حضور الكبار أو حضور الأولاد الثرثارين أو النمامين الذين ينقلون أخبارها لهؤلاء الكبار.

كانت اللعبة خطرة بمعنى من المعاني، فالشلّة تنتقي ولداً يلعب دور العريس وبنتاً تلعب دور العروس. وحين تبدأ اللعبة، يتبع الأولاد كل المراسيم التي رأوا الكبار يؤدونها في الأعراس. وبعد الدبكة والرقصات المنفردة والغناء المطعّم بالإيماءات الجنسية، أو حتى بالألفاظ الجنسية الصريحة، تزفّ الشلّة الولد وعروسه وتنقلهما إلى مكان خلويّ خلف أحد الأكوام، ثم تبتعد الشلة عن المختليين، وذلك في الظاهر، فقط، أما في الواقع، فإن كل فرد من أفراد الشلّة ينتقي لنفسه مكمناً يستطيع أن يتلصص منه فيرى ما يجري بين المحتفى بهما. وهذا الذي يجري متوقف على مدى ما يعرفه هذان الاثنان، مما أمكن لهما مشاهدته أو سماعه من العلاقات الجنسية بين الكبار، وهي العلاقات التي تتم في الحجرات التي ينحشر فيها أفراد الأسرة كلهم في أغلب الأحوال. وكثيراً ما كانت تتقطع أنفاس المتلصصين أمام سفور الحركات التي يرونها في الجرن كما تتقطع أنفاسهم، في العادة، وهم يحسون بما يجري بين الكبار في الحجرات المعتمة.

وأتذكر مرة أنيط بي فيها دور العريس. وقد أديت أنا، ابن السنوات السبع، الدور بكثير جداً من البراءة وقليل جداً من المعرفة. قلدت هيئة العريس حين يجلس بين المحتفلين، ورددت على التحايا بحفاوة، ووزعت الابتسامات المضطربة هنا وهناك، وقدت حلقة راقصي الدبكة حين دعيت إلى ذلك، واستمعت إلى الأغاني مبدياً، كما يتطلب الدور، استعجالي لانتهائها. فلما جاء أوان الزفّة، نفشت بدني، وسرت بين المحتفلين، ناصباً قامتي على مداها، متجنباً النظر نحو أحد بعينه، حاسباً خطواتي، حريصاً على أن لا يبدو عليّ الاستعجال. ثم انتهينا إلى مكان الخلوة، وغطانا الأولاد بقطعة قماش ترمز إلى فراش الزوجية، وتظاهروا بالانصراف.

كنت غراً، واعتقدت أننا إنما نلعب ونمثل ليس أكثر، ولم يكن هذا هو موقف شريكتي في اللعبة. فالبنت التي تكبرني بعامين لم تكن على دراية واسعة بما يفعله الذكر والأنثى حين يختليان فحسب بل كانت إلى هذا بادية الاهتياج، كان لهاثها لهاث أنثى أججت الشهوة مشاعرها، وحركاتها كانت حركات شبقة وهي تبذل جهدها كي تدفع شريكها إلى

الاستجابة. خلعت البنت ثوبها، فبدا جسدها العاري وقد أضفى ضوء القمر على حناياه سمتاً أخرج عينيّ من محاجرهما، وطلبت مني أن أخلع جلبابي، غير أن الحياء الذي تلبسني جمّد حركتي، فخلعته هي بنفسها بشيء من العنف، ثم استلقت كما تستلقي الأنثى للمضاجعة. وإذ لم أستجب بل بقيت مكبلاً بخجلي وتهيبي، تذرعت شريكتي المتعجلة بشيء من الصبر، وأخذت تشرح لي ما الذي ينبغي عليّ أن أفعله وتدفعني إلى ذلك دفعاً بيديها وساقيها. والحقيقة أن خشية غامضة إزاء العالم الذي رسمته شروحها منعتني من الاندفاع معها في المغامرة، في حين انبثق في داخلي شيء أشدّ غموضاً يحثني على المشاركة. ولما رأت البنت ترددي، أخذت هي المبادرة، شتمتني بنبرة مؤنبة، وقرنت الشتيمة بحركة من يديها، فألقتني على ظهري، وافترشتني، وواصلت شروحها النظرية والعملية. لم تفارقني الخشية تماماً، إلا أن شيئاً فيّ طغى على هذه الخشية فحسم ترددي، فقلبتها على ظهرها، وافترشتها وامتزج لهاث الطفلين اللذين نسيا وجود المتلصصين حولهما. ولم نعد إلى نفسينا إلاّ حين علا صخب الأولاد من حولنا، هم الذين لم يملكوا أنفسهم، فراحو يجهرون بالعبارات المعبرة عن الدهشة والاستحسان.

كان بين الأولاد أخ للبنت صغير السن، كان قد أغفى على الطرحة حين بدأنا اللعبة فنسي الجميع أمره. غير أن الولد الذي أيقظه صخب اللعبة في وقت من الأوقات، دون أن ننتبه إلى ذلك، رأى ما رآه الجميع في تلك الأمسية. ويبدو أن الولد البريء قد ثرثر أمام أسرته في اليوم التالي، وكان أن نالني من جراء ذلك علقة تطوع العم محمود بالقيام بها حين استشعر تردد جدي سلمان، أخيه، في معاقبتي بالضرب. أما البنت فقد منعت منذ ذلك اليوم من المشاركة في عبث الأولاد.

في الصيف، يكون ليل الأجران لنا، نحن الأولاد، أما نهاره فللعمل. وعندما ينتهي الدرس وتنهض أكوام الدريس في الجرن، تبدأ عملية أخرى جديدة، وهي عملية شاقة يقوم بها الرجال وحدهم، إنها التذرية التي يتم بها استخلاص الحبّ من التبن والقصل. يغمس المذّري مذراته الخشبية مخمسة الرؤوس في كوم الدريس، ويقذف ما تحمله المذراة من الخليط إلى أعلى بأشدّ ما تسعفه به قوة زندية. وحين يرتد المقذوف إلى الأرض يسقط الحبّ، وهو الثقيل، فوراً، أمام المذري، ويتلكأ فتات القش، فنتفه الأكبر، وهي القصل، تسقط بعد ذلك في مكان آخر، ونتفه الأصغر، وهي التبن الذي تذروه النسائم، تسقط في مكان أبعد. تتم العملية على أحسن وجه عندما تكون النسائم مسعفة. وبمضيّ الوقت، تتمايز المواقع الثلاثة، ويتجمع أمام عيني الفلاح أولاً بأول إنتاج كدّه طيلة العام. وغالباً ما تكون النسائم مواتية في الأصباح وفي العصاري. وفي هذه الأوقات، تقع العين على مشهد أخاذ في الأجران: رجال جادّون في العمل موزعون في الأنحاء المختلفة، ومذارٍ

تهبط وترتفع، وسحب ذات كثافات متفاوتة تتموج بلون الحبّ الذهبي والقصل النحاسي والتبن الأصفر وتمطر حمولتها على الأرض، فتتماوج الألوان الثلاثة وينداح رنين خافت من الأنغام التي يصنعها صوت تساقط الحب، فيبدو كأن ألف ساحر متخفٍ يعزفون على آلات غير مرئية وغير معروفة.

ولم يكن لدينا، نحن الأولاد، إلا القليل مما نشارك به في هذه العملية الفتّانة، كأن نحمي الأكوام من الدواب الشاردة التي قد تقترب لتفتك بالمنتوج، أو نجلب الماء للرجال. أما أغلب الوقت فنمضيه جالسين ونحن مأخوذون بهذا المشهد الذي يتناغم فيه جهد الإنسان مع عطاء الأرض.

وكانت فتنة المشهد تبلغ ذروتها في الأوقات المتأخرة من فترات العمل المتعاقبة. فحين تكلُّ السواعد من شدة الجهد المتواصل، يبدأ غناء الرجال لتنشيطها، فينطلق صوت أحدهم من أحد المواقع فيتبعه الآخرون مرددين ذلك الإيقاع الذي لا يرسم حركة السواعد ويصور اتساقها مع المشهد، فحسب، بل ينظم هذه الحركة ويسرّعها، أيضاً. وإذا فطنت إلى أن نثار التبن، بلونه البراق، يغطي في العادة ثياب الرجال ويجلل هاماتهم ويعلق بشواربهم ولحاهم، فبإمكانك أن تتخيل ما تضفيه وحدة اللون والإيقاع والحركة على المشهد، وأي سحر يتموج مع تموجاته فيجعلك تحس بأن ما تراه واقعي وغير واقعي في الآن ذاته.

كانت أوقات التذرية هي الأوقات التي يندمج فيها كل شيء مع كل شيء وتنسجم فيها الأشياء جميعها، وتحلّق أحلام الفلاح وأوهامه ورغباته إلى الذرى. ولعل من الصواب تماماً القول إن الفلاح لا ينسى همومه في أي وقت بمقدار ما ينساها في هذه الأوقات بالذات، فبين يديه ثمرة العام كله، وأمام ناظريه هذا التبر الذي استخلصته يداه، وفي الأعالي تتلامح خيالات السعادة التي يتوهم أنه سيظفر بها، حين يرد الديون التي استدانها، ويكفّ أذى المتسلطين عليه من رجال الحكومة، ويؤمن مؤونة العيال، ويضمن البذار اللازم للموسم الآتي.

يدوم هذا كله أياماً، إلا أنه يتوقف في نهاية المطاف. وعندما تنتهي عملية التذرية ويتم تجميع منتوجها في أكوامه الثلاثة المتمايزة، يحين أوان المطابقة القاسية بين حساب الحقل وحساب البيدر. من طبيعة الفلاح، حين يكون جهد عمله زرعاً يفترش الحقل، أن يزور حقله وأن يقدر قيمته، ثم يعاود التقدير مع كل زيارة جديدة. ويتأثر تقدير الفلاح لقيمة الزرع الذي في الحقل برغبته. وهو غالباً ما يبالغ في التقدير لأن رغبته التي ترسمها حاجاته تكون أكبر من المتوفر، في الحقل. ولو سألت أي فلاح عما يتوقعه من

عطاء موسمه، لما أجابك إلا بكلمة واحدة تلخص رغبته وتحدد حجمها: بركة! ويخشى الفلاح في العادة ذكر الأعداد فلا يعطي حتى لنفسه تقديراً بالأرقام. وهو يعتقد أن ذكر الرقم ينزع البركة. وهناك أرقام بعينها لا يمكن لأي فلاح حقيقي أن يذكرها بأسمائها حين يتعلق الأمر بعدّ شيء مفيد بين يديه. وحين يكون العدّ أمراً لا بد منه، يستعيض الفلاح عن هذه الأرقام بأسماء مماثلة لأسمائها متحايلاً بهذا على القوى السحرية التي يتصور أن ذكر اسم الرقم المعين يحفزها على النشاط لانتزاع البركة من إنتاجه. فعندما يصل الفلاح في العدّ إلى الخمسة، مثلاً، فإنه لا ينطق بهذا الرقم بل يشتم الشيطان، وعندما يصل إلى السبعة فهو يجعلها سمحة.

تنتهي التذرية، إذن، ويكون ثلج التقديرات السابقة قد ذاب وبان من تحته المرج بعرائه السافر، فلا يبقى ثمه مجال لمخادعة النفس. وإلى هذا، يكون التاجر والمرابي ومأمور الضرائب جاهزين بأشدّ يقظتهم لتقاضي الحساب. وهؤلاء يهتمون عادة بكوم القمح، ولهم طرق دقيقة يستخدمونها لتقدير وزنه وهو، بعد، كوم من الجرن، فهم يقيسون أبعاد الكوم فيصلون إلى التقدير الصحيح. يفرض مأمور الضرائب مقدار الضريبة، ويزيد فيها أو ينقص حسب الرشوة التي حصل عليها. ويشهر المرابي دفاتره والصكوك التي في حوزته بأرقامها وحساباتها المعقدة. ويعرض التاجر السعر الذي يفرضه حسب تقديراته لأحوال السوق التي يجهلها الفلاح ولا بدّ له من الرضوخ لها. ويستوفي الجميع من الكوم ما حددوه لأنفسهم قبل أن يتمكن صاحب الكوم من التصرف به. هنا، تتجمع شتى المصائب في وجه الفلاح وتتناوبه مشاعر الحنق والإحباط والإحساس بالظلم والعجز عن الخلاص منه. فحساب البيدر لا يطابق أبداً حساب الحقل. ومطالب رجال الحكومة لا تنتهي. والدائنون الذين لا يقلّون قسوة عن رجال الحكومة يريدون الاستيلاء على كل شيء. ويتركز هم الفلاح في انتزاع شيء من الحبّ للمؤونة والبذار، فهو يعرّض أسرته للجوع وموسمه القادم للبوار إن لم يتمكن من ذلك. وحين يتعذر أن يفي المنتوج بالمطالب كلها، فإن الفلاح يجد نفسه في ورطة، وغالباً ما تقع المشادّات ويتدخل الوسطاء والمترجون وطالبو الرحمة للرجل الفقير، إلا أن هذا كلّه ينتهي بتكبيل الفلاح بمزيد من القيود، فيضع بصمته على سندات دين وربا جديدة تدوَّر للعام التالي مع أثقالها. ولكنّ تسليم الإبهام لورقة غامضة الدلالة أهون بالطبع على الفلاح من تسليم الأسرة للجوع.

في النهاية، ينتهي اللجب الذي يرافق عمليات المساومة هذه، وتكون فرحة الفلاح التي اتقدت منذ بداية موسم الحصاد قد غاضت، وحلّت محلها هموم التفكير بالآتي. ويبدأ نقل ما بقي من المنتوج إلى الدور. يؤخذ التبن والقصل ويكومان في أركان البايكة. أما القمح فيخزن في المطمورة. ويحصل الفلاحون على استراحة من العمل ليفرغوا لشؤون

أخرى، فمنهم من ينصرف إلى ترميم داره التي يكون مطر الشتاء السابق قد عبث بسقفها وجدرانها الطينية، ومنهم من يبدأ الاستعداد لزواج جديد، فيتزوج هو إن وفر له الموسم المهر والنفقات أو يزوج ابنه، ومنهم من يقضي بقية أيام الصيف الحارة في المضافات أو في مستظل السدرة، يلعب السيجة مع أقرانه ويحكي الحكايا أو يستمع إليها ويشتم الحكومة ويتشكى مما تفعله هي وصهيونيوها بالبلاد.

وفي نهاية الصيف وبداية الخريف حين نكون قد عدنا إلى المدرسة، تتكرر العملية ذاتها وإن على نطاق أضيق بكثير، وذلك حين يجيء أوان الموسم الذي يسمى الصيفي. فبعض الفلاحين، وليس كلهم، يزرع جزءاً من أرضه بحبوب هذا الموسم وبُقوله: الذرة والسمسم، وكذلك الحمص والعدس والجلبانة والكرسنّة. وهكذا، تنشغل بعض الأجران من جديد بمنتوج هذا الموسم، في شهري أيلول/ سبتمبر وتشرين الأول/ أكتوبر، وتتكرر مشاهد مصغرة من المشهد الكبير الذي نراه في عزّ الصيف. وتلي ذلك رتابة الأيام الشتوية، التي يقضيها الفلاحون في انتظار الأمطار التي تجود بها السماء على حقولهم.

-١٤-

خطبة تتم ولا تتم
وضيوف ليسوا كالضيوف

في الصيف التالي، في موسم الحصاد، أدخل جدّي عبد المجيد، وهو صاحب المفاجآت التي لا تنتهي، بدعة جديدة في المسمية الصغيرة. ففي هذا الموسم، استغنى الجدّ لأول مرة عن حصاديه المصريين، واكترى آلة ضخمة تحصد الزرع، وتفصل الحبَّ عن القش، وتضع الحب في أكياس، وتحزم القش في رزم مكعبة الشكل، وتلقي بهذا كله في أرجاء الحقل، فيما هي تجوب المسافات رائحة غادية وسط الزرع. كان شأن هذه الآلة التي تختزل عمل أناس عدة لعدة أيام في يوم واحد، ولا تتطلب إلا عمل السائق الذي يقودها وهو متصدر على كرسيّ مريح، عجيباً ومدهشاً، فصارت موضع حديث الجميع، حتى لقد شغل حديثها الناس أكثر مما شغلتهم أحاديث الموسم الأخرى كلها، وأنساهم التسليات التي فقدوها بغياب المصريين.

وقد واجه الجدّ مع هذه الآلة مشكلة استقطبت اهتمام جمهور القرية، وراح الناس يتبارون في التنبؤ حول الطريقة التي سيحل بها الجدّ هذا المشكلة. فالآلة التي تنجز عمل الحصادين بكامله وبعض عمل الدرّاس والمذري تستخلص الحبّ من قشه حقاً، إلا أنها حين يتعلق الأمر بالقش تلمه في رزم يسهل نقلها، لكنها لا تفتته. وبهذا يتعذر على الآلة أن توفر التبن والقصل اللذين ألف الفلاحون الحصول عليهما وجعلوا لكل منهما استخدامات لا يُستغنى عنها. والقش غير المفروم لا يصلح للاستخدام من أجل علف الدواب، كما هو شأن التبن، ولا من أجل البناء، كما هو شأن القصل، وقد كان من

الصعب، إذن، تسويقه، ومن غير المفيد تخزينه. وهكذا، توجب على الجدّ الذي بدا فخوراً ببدعته وإثارة فضول الناس إزاءها، والذي لم تحمله هذه المشكلة على الاستغناء عن الآلة، أن يستأجر من أهل القرية من ينقل رزم القش إلى الجرن ومن يقوم بدرسها من أجل تفتيتها وتذريتها، أي أنه اضطر بالرغم من وجود حصادته الآلية إلى أن يتبع ما يتبعه الفلاحون الآخرون في كل موسم.

أما جدّي سلمان فلم يؤخذ بالبدعة الآلية، بل اتبع الطريقة التقليدية، غير آبه لنصائح الذين حاولوا حمله على الاقتداء بأخيه. وقد جمع جدّي سلمان محصوله، فملأ المطمورة بالحبّ، وملأ البايكة بالتبن والقصل، واستراح لعطاء موسمه، وحمد ربّه.

وجمعت جدتي مدللة هي الأخرى محصول أرضها. وقد فاض كالعادة عن حاجتها للمؤونة، ولم تكن لها حاجات أخرى، هي التي لا تستدين ولا تتعامل مع المرابين ولا يجرؤ المتطفلون من رجال البوليس والضرائب على فرض الأتاوات عليها. وقد باعت الجدة الفائض من المؤونة من منتوج أرضها، وقبضت الثمن نقداً. وأضافت الجدّة إلى حصيلتها السابقة من الليرات الذهبية قطعاً أخرى، واشترت كسوة مناسبة لابنيها اللذين يدرسان خارج القرية. ولأن الموسم كان تلك السنة أجود من المألوف، أضافت الجدّة إلى حليّها التي تستخدمها باستمرار حلية كبيرة هذه المرة، مما لا يستخدمه من الفلاحات إلا نساء الأسر الثرية. كانت الجدّة قبل شراء هذه الحلية الجديدة تملأ الوقاية التي تعلو رأسها بالغوازي الذهبية وريالات ماريا تيريزا الفضية وبعدد من أنصاف الليرات أو الليرات الذهبية الإنجليزية والعثمانية. أما الحلية التي أضيفت إلى هذا الكنز فهي المخمسة، أي الميدالية التي تزن وزن خمس ليرات إنجليزية كاملة. وهذه لا توضع عادة على الوقاية فوق الرأس، بل تعلق بهذه الوقاية من طرفيها بسلسلة ذهبية مناسبة، فتتدلى أسفل الحنك، معطية للجدة أو مضيفة إلى هيئتها ما يعزز سمعتها بما هي امرأة ذات مهابة.

ومع انشغال الناس بحسابات ما بعد الموسم وترتيباته، تواترت الأعراس التي ينتظر الناس الفراغ من عمل الموسم كي يقيموها. وقد جاءت والدتي إلى المسمية الصغيرة كي تزور الأهل وتحمل الهدايا التي خصصها الزوج لأنسبائه من منتوج موسمه، وتشترك في الاحتفال بزواج قريباتها. وزارت الوالدة منزل أبيها ومنازل أعمامها ثم أقامت في منزل الجدّة. وأذن لي جدي سلمان بالانتقال إلى هناك لأبقى بصحبة الوالدة طيلة أيام زيارتها.

هنا، قد تسأل: كيف سارت علاقتي مع الوالدة بعد زواجها الثاني؟ وأجد من المناسب أن أبيّن لك الأمر. فمنذ انتسبت إلى المدرسة، صار عليّ أن أتّبع الترتيب الذي وضعه الأهل، فأُمضي نهاية الأسبوع مع الوالدة في منزل زوجها في المسمية الكبيرة. أذهب

إلى الوالدة من المدرسة مباشرة بعد ظهر يوم الخميس، وأبيت عندها، ثم أعود إلى المسمية الصغيرة بعد ظهر الجمعة. وقد اعتدت أن أؤدي هذه الزيارة بما هي نوع من الواجب، ولا أحصل إلا على قليل من البهجة إلى جانب المرارات الكثيرة التي تخلّفها هذه الزيارة في نفسي.

يملك أبو عمر منزلاً يكاد يكون الوحيد في المسميتين المكون من طابقين والمبنيّ من الحجر وله شكل الفيلا الحديثة. في الطابق الأول من هذا المنزل ردهة فسيحة تشغل مساحته كلها وتتعدد فيها الأركان والزوايا، وإن كان معظمها يستخدم كمستودع. وفي الطابق الثاني حجرات متجاورة، تشغل والدتي واحدة منها وتقابلها الحجرة التي تشغلها ضرّتها، ويتوزع الأولاد والضيوف بقية الحجرات وكان أبو عمر كعادة زوج الاثنتين يوزع مبيته بالتناوب بين الزوجتين. وعلى هذا، كان عليّ أن أبيت في بعض المرات مع والدتي في حجرتها وهي وحدها، وأبيت بحضور زوجها مرات أخرى. ولم يكن مبيتي مريحاً في أي من الحالتين. ففي الليالي التي يحضر فيها الزوج، كان هو يشغل مع والدتي السرير الوحيد الموضوع في الحجرة فأنام أنا على فرشة تمدّ لي على الأرض وأمضي ليلتي كلها متحرجاً إزاء الوضع الغريب الذي أنا فيه. وفي الليالي الأخرى، كانت أمي تضعني بجانبها في السرير وتهدهدني حتى أغفو وأنا في حضنها. ولكني كنت كثيراً ما أصحو على صوت نحيبها الذي تحاول كتمانه، فيحملني التحرج على تجاهل الأمر، وأجهد نفسي حتى لا تحس الوالدة بأني صحوت وعرفت كم هي حزينة. فإذا جاء الصباح، طالعتني عينا أمي المحمرتان وفي نظرتهما هذا السؤال الصامت: هل عرف الولد؟ فيزداد غمي، وأفرّ من حضرتها متشاغلاً بأي شيء يبعدني عنها.

وكانت في المنزل عجوز هي والدة الزوج، امتدّ بها العمر، و أقعدتها الأمراض، وملّ أهل المنزل العناية بها، فأهملوها. وقد خُصص للعجوز ركن في فسحة الطابق الأول تستلقي فيه ليل نهار هي العاجزة تماماً عن الحركة، وحين لا ينسى أهل الدار عجوزهم،كان أحدهم يأتيها بالطعام والشراب. وإن كان القادم إلى العجوز شفوقاً، جلس بجانبها ليساعدها على تناول وجبتها. ولكنهم في هذا المنزل الغارق بالمشاكل العديدة كانوا كثيراً ما ينسون المقعدة. ولم يكن صوت المقعدة قوياً فكانت عاجزة، إذن، عن إيصال شكواها إلى الطابق الأعلى الصاخب دوماً. كان وضع العجوز يعكس مأساة حقيقية في مجتمع تتحجر فيه القلوب إزاء من لا ترتجى منهم فائدة. عند هذه المقعدة، كنت أجد سلواي الوحيدة في زياراتي الأسبوعية، أجيئها في الصباح، وأنظف المكان من حولها، وأنقل لها الطعام والشراب وأساعدها على تناولهما، و أحدثها وأصغي لحديثها وشكاواها من عقوق الابن والأحفاد وقسوة الكنتين. كان الكلام يصدر من فمها الأثرم كالثغاء بحيث لا

يبين. إلا أني كنت أفهم، ومن الذي يفهم عن الحزين أكثر مما يفهم حزين آخر ! كانت الوالدة في البداية تستنكر سلوكي، فالعجوز بالنسبة لها امرأة لا تخصها هي، إنها جدّة أبناء الضرّة، وعلى هؤلاء، وليس عليّ أنا، أن يتحملوا عبء العناية بها. كما كانت الوالدة تحتج لأني أمضي وقت الزيارة المخصص لها مع هذه المرأة الغريبة. غير أن والدتي ألفت مع الوقت شذوذي، فصارت تخلي بيني وبين نزوتي التي تراها غريبة. ولعل الوالدة أدركت في نهاية المطاف أن وجودي مع العجوز يسليني فرضيت به، أو لعلها رأت أن في انصرافي إلى المقعدة ما يشغل وقتي فيعفيها، هي، من مشاهدتي وأنا أجلس أمامها صامتاً حزيناً.

أما أولاد الزوج فكانوا أكبر سناً مني، ومنهم من كان في سن والدتي، إلا واحداً هو عبد العزيز الذي كان زميلاً لي في الدراسة، وقد جمعني معه إلى هذا عطفنا المشترك على جدّته المقعدة. وما كان الأولاد الكبار يهتمون بشأني أنا الطفل الذي يظهر مرة في الأسبوع والذي هو، فضلاً عن عبوسه الدائم ونفوره من كل شيء في أسرتهم، ابن زوجة أبيهم التي تتشاجر باستمرار مع أمهم. عبد العزيز وحده كان يهتم بي ويسعى إلى التقرب مني، يفعل ذلك في المدرسة، ويكرره أثناء زيارتي لمنزلهم. كنت أرافق مجايلي هذا في جولات في الحقول، نطارد فها الهوام والزواحف، أو نلتقط الأعشاب والفطور، أو نتصيد العصافير. وكان يأخذني في بعض الأوقات لزيارة محطة البنزين التي يملكها والده في الطرف الآخر من المسمية الكبيرة على الطريق العام، ويجول بي في أرجاء المحطة ويطلعني على العجائب التي تضمها. وكانت لعبد العزيز هواية خاصة أشركني فيها، أيضاً، فقد كان يحب العبث بالسيارة الفورد التي يملكها أبوه. كانت هذه هي السيارة الوحيدة التي يملكها رجل في المنطقة من أجل استخدامه الخاص. وكان عبد العزيز يتحين الأوقات التي ينشغل فيها أبوه عن السيارة ليلعب فيها. وقد رافقت الولد العابث، أكثر من مرة، إلى أن وقع الحادث الذي حملني على الامتناع امتناعاً حاسماً عن هذا العبث. جرى هذا حين عاد الأب مرة على غير توقع، فوجدنا، عبد العزيز وأنا، داخل السيارة، أنا في المقعد المجاور لمقعد السائق في قعدة أقلد فيها سلوك الكبار الذين يملكون سيارة خاصة، وعبد العزيز في مقعد السائق يعبث بالمقود ويقلد سلوك السائقين. يومها، نال رفيقي العابث علقةً دمي قلبي أنا لوقع ضرباتها على جسده، ونالتني من زوج الوالدة صفعة ألجمت توقي للعبث بهذه السيارة إلى الأبد.

في هذه الزيارات، لم تكن والدتي تشكو أمامي أو تشير إلى وضعها الشائك وسط الأسرة الكبيرة، وكانت الوالدة تبذل جهدها كي لا تتشاجر مع ضرتها أثناء وجودي. ويبدو أن أم عمر، الضرة، كانت تقدر من جانبها حاجتي أنا ووالدتي لفترة سلام، فتمتنع هي

الأخرى عن الاستفزاز. ومع تعمدي الغياب عن طابق الزوجتين، كان الوقت الذي تستمر فيه الهدنة بينهما قصيراً، فكان، إذن، محتملاً.

ولم تنشأ بيني وبين الوالدة في هذه الزيارات تلك الصلة التي تقوم في العادة بين أم وطفلها، ولا أتذكر أني فتحت قلبي مرة واحدة لأمّي أو أطلعتها على ما يدور في نفسي من هموم أو رغبات، ولعل هذا مما كان يضاعف حزنها ويضيف إلى أسباب ضيقها بوضعها سبباً جديداً.

ولم يكن الوضع يتبدل كثيراً عندما تأتي والدتي إلى المسمية الصغيرة. فالأم الحقيقية بالنسبة لي هي الجدّة. أما الأم التي ولدتني فهي زائرة تهتم بي. وحين كان منزل الجدّة يضمّنا، أمي و أنا، معاً، كنت أجلس لصق الجدّة في مواجهة الوالدة الزائرة، وأوجه الخطاب حين أتحدث إلى هذه الجدة. وكنت أتلقى ملاطفات الوالدة، حين تتقد عاطفتها فتلاطفني، دون استجابة حميمة. كانت زيارة والدتي تثير فضولي دون شك، لكنها لا تستثير عاطفتي إلا نادراً. وفي زياراتها لنا، كانت الوالدة تفتح قلبها للجدّة وتشكو سوء وضعها، تفعل هذا بعبارات مواربة لأنها لا تريد أن تثقل عليّ، ظانة أني لا أفهمها. لكني كنت أفهم، وأحس بشيء من الأسى، غير أني لم أكن أُبدي مشاركة. وحين كان الحديث المرّ يبلغ حدّ استنزال الدموع من مآقي المرأتين ولا أنجو من التأثر به، كنت أحتضن جدّتي وألوذ بها، وليس بالوالدة.

وفي هذه الزيارة التي أحدثك عنها، تكرر الأمر. أرتني الوالدة الهدايا التي جلبتها لي فتقبلتها صامتاً، وقلبتها مدفوعاً بفضول الطفل، ثم نحيتها جانباً، ولم أنظر إليها بعد ذلك. و أتبعت أسلوبي المعتاد في الإجابة عن أسئلة الوالدة حين تكون في حضرة الجدة، فكلما استفسرت الوالدة عن شأن من شؤوني لم يكن جوابي يزيد على بضع كلمات أقولها وأنا أنظر ناحية الجدة:"أمي مدللة تعرف، قولي لها". فلّما ضاق ذرع الوالدة بتحفظي، ولا بد من أن تكون عاطفتها قد فاضت، أيضاً، مدّت يديها لتجتذبني إليها، فتمنعت، وتشبثت بالجدّة بيديّ كلتيهما وأنا مطرق. فاقتربت الوالدة بنفسها مني، وراحت تقبلني بلهفة، ثم لم تملك نفسها، فأطلقت العنان لنشيجها ودموعها. هنا، عليّ أن أعترف لك بما لم أفصح به أمام الوالدة:لقد تقت في تلك اللحظات إلى أن ألقي نفسي في حضنها وأدفئ روحي بحنان الأمومة الذي يفيض منها، إلا أن شيئاً غامضاً فيّ، لكنه صلب بما فيه الكفاية، عاند توقي وجمد حركتي. عندها، ألقت الجدّة علي نظرة صامتة يمتزج فيها اللوم بالتفهّم. وقالت الجدّة للوالدة دون أن تصرف نظرها عني: "لا توجعي روحك، أعرف أنه يحبك، إلا أنه عنيد، رحم الله رشاد!". فأحسست

بأن دموعي تنبثق ليس من مآقيّ بل من أعماق أحشائي، فهربت جارياً قبل أن تفيض هذه الدموع فتكشفني، وذهبت إلى عائشة.

حين وصلت إلى المحتبسة في قفصها الحديدي، استقبلتني عائشة بهياج يعكس ابتهاجها لرؤيتي. ولما لاحظت عائشة أني حزين، هدأت لحظة وتأملتني بنظرة ثابتة، ثم اهتاجت ثانية، فأخذت تشدُّ شعرها في حركة اعتادت أن تعبر بها عن سخطها عندما يسوؤها أمر ما. أما أنا، وقد توهمت أن المجنونة اخترقت داخلي وكشفت عنادي البغيض، فَرُحْتُ أنظف المكان محاولاً أن لا يلتقي نظري بنظرها، واحتفظت بصمتي إلى أن هدأت هي، فجلست قبالتها عازماً على أن أبادلها الحديث عن أحوالها. و ما إن بدأتُ الحديث حتى وجدتني أحكي، عن نفسي، عن حالي، عن يتمي الذي أحس به، إلى أن أفرغت ضيقي أمام البنت الحبيسة. أصغت عائشة إلى مونولوجي مأخوذة على ما يبدو بحرارة الحديث وصدق نبرته. ولم أعرف إن كانت عائشة قد فهمت أو لم تفهم، لقد احتفظت البنت بالهدوء الكامل مدّة أطول من المألوف في حالتها وأبقت عينيها المفتوحتين على آخرهما مسلطتين على وجهي طيلة الوقت. ولا بدّ من أن الراحة التي شملتني بعد أن أفرغت ضيقي قد انعكست على وجهي. عرفت هذا حين عاودت عائشة اهتياجها المعبر عن الفرح ومدت يديها عبر القضبان وأخذت تمسح وجهي وتمسد شعري بلمسات متعاطفة.

بعد هذه الزيارة، عدت إلى جدتي، تسللت صامتاً إلى الحجرة التي تجلس فيها الوالدة والجدّة، واتخذت لنفسي مكاناً بجانب الوالدة هذه المرة دون أن ألتصق بها. وقد شملتني المرأتان بنظرات متفهمة، لكنهما لم تتوقفا عن الحديث.

كانت الوالدة قد وصلت في حديثها الشاكي إلى النقطة الحساسة التي تشغل بالها أكثر من غيرها. فقد أمضت الوالدة ثلاث سنوات مع زوجها دون أن تحمل، ولم يكن الأمر مفهوماً من الناحية الصحية، إذ سبق لها هي أن حملت بي، كما سبق لزوجها أن أولد ضرتها كتيبة من البنات والصبيان. والمقلق في الأمر أكثر من أي شيء آخر أن بقاء الزوجة الجديدة بغير خلف يعرض مركزها في الأسرة الكبيرة للضعف، خصوصاً لأن ضرتها ما تزال تحمل وتلد بلا توقف. وقد فعلت والدتي كل ما تفعله الفلاحات حين لا تواتيهن فرصة الإنجاب، استكتبت كتّاب الحجب التعويذة تلو الأخرى، واتبعت كل فنون السحر التي نُصحت بها، ونذرت النذور المتتالية، فظل هذا كله بغير نتيجة. وها هو الزوج، وهو المتلهف لزيادة عدد ذريته، يطالبها بأن تكشف نفسها على طبيب، وهو يعرف طبيباً يهودياً ذائع الصيت يعيش في قطرة وله خبرة معترف بها في معالجة أعقد الحالات. والوالدة متهيبة، إذ كيف يمكن لامرأة أن تكشف نفسها أمام طبيب، هو من دين آخر،

فضلاً عن كونه رجلاً غريباً. إلا أن الزوج ملحاح، وقد ازداد إلحاحه في الآونة الأخيرة، وهو يحاصر الوالدة برغبته في الخلف، ويصر على أن تذهب إلى قطرة.

كانت نبرة الوالدة، وهي تبسط شكواها أمام الجدّة وتستنصحها، تعكس التردد بين الحاجة والخشية. أما الجدّة فقد استمعت بأناةٍ، دون مقاطعة. وحين فرغت الوالدة من عرض شروحها، أطرقت الجدّة لحظات، ثم واجهت ابنتها بنظرة مباشرة: "أمر الله أن تطيع المرأة الزوج". ولعل الجدّة خشيت أن تخطئ الوالدة فهم المغزى الصحيح لعبارتها، فقد أضافت وهي ما تزال تواجه جليستها بالنظرة ذاتها: "إن كان هو يريد هذا، فروحي للحكيم، واستغفري الله!". وبدا على الوالدة أنها استراحت للنصيحة.

وشئت أن أقول شيئاً مدفوعاً بالرغبة في إظهار الود للوالدة بعد سلوكي المجافي غير المفهوم، فسألتها دون أن أنظر ناحيتها: "لو جاءك ولد فهل يكون أخاً لي؟". وكأنما فجّر السؤال برميلاً مخزوناً بالعواطف، فقد اجتذبتني الوالدة إليها بحركة خاطفة نقلتني إلى حضنها بغير ممانعة مني، واحتوتني بذراعيها وراحت تقبّلني وهي تردد:" أنت ابني، أنت ابني ومن ألده فهو أخوك". في تلك اللحظات، انحلّ العناد الذي يشلني عن الاستجابة لهذا الحنان الغامر. وتفجرت عاطفتي أنا بدوري، فرحت أبادل الأم القبلات وأنا أشدّها بذراعي بأقوى ما أستطيع، ثم انحنيت، وأخذت يديها ورحت أقبلهما، وأنا أردد: "أمي! أمي! أمي!".

وبصرامتها التي لم تنجح تلك المرة في إخفاء بهجتها إخفاء كاملاً، قطعت الجدّة هذه المناجاة حين نهضت وهي تقول :"علينا أن نحضر لقمةً للولد، فلا بدّ من أنه جائع".

في اليوم التالي، عادت الوالدة إلى المسمية الكبيرة، وعدت أنا إلى دار جدي سلمان. هناك، أدركت أن شيئاً ذا أهمية قد وقع أثناء غيابي. لم يقل أحد لي ما الذي جرى، إلا أني أحسست بأن شيئاً غير مألوف يطوف في جوّ الدار، حركة ناشطة، وزائرات يأتين ويذهبن، وخلوات تعقد وتنفضُ، وهمسات تدور في الأنحاء، وسحنات تتناوبها تعابير مختلفة كلها جادة. لقد أثار هذا الجوّ فضولي، بالطبع. لكني لم أجد من يجيب عن أسئلتي فيشبع هذا الفضول. ولم تمكنّي العبارات المتفرقة التي تلتقطها أذناي من هذه الحلقة أو تلك من تكوين فكرة صحيحة عن الموضوع الذي يشغل الدار. سألت وضحة الصغيرة، فازورّت عني دون أن تجيب، وسألت وضحة الكبيرة، فأعطتني إجابة زادت الأمر غموضاً. أما عمتي نظيرة فتسلحت بصمت لم آلفه منها، وكل ما فعلته حين ألححت عليها في السؤال أن مسدت رأسي بحنان، ثم بكت. ولم يكن عمي محمد في حال أحسن من حالي، فهو الآخر لائب يريد مثلي أن يعرف، فلا يقع على شيء محدد. ورحت إلى

المضافة حيث الجد جالس مع زواره والحديث دائر على أشدّه، فصمت الحاضرون حين دخلت. ومع أن الجدّ احتفى بمقدمي كعادته، فقد أدركت بوضوح أن الجميع ينتظرون أن أغادر المكان كي يستأنفوا ما هم فيه من حديث.

بقيت ألوب هنا وهناك داخل الدار وخارجها إلى أن حلّ المساء. وعدت إلى راعيتي والسؤال الذي كبر يلوب بدوره داخل نفسي المضطربة دون أن أجد ما يشجعني على طرحه. كان على وجه وضحة الكبيرة، وهي تعدّني للنوم، ما يوحي بانشغال بالها هي الأخرى، حتى أنها شردت أكثر من مرة وهي تقص عليّ حكاياتها عن نص نصيص والشاطر حسن. ولست أدري إن كانت هي قد أدركت مقدار توقي لمعرفة ما يجري أم شاءت أن تفضي بما تعرف لتخفف عن نفسها، فقد قالت فجأة: "جاءوا من قرية التينة، وقصدهم أن يخطبوا عمتك نظيرة لمختارها". وإذ لم تكن شؤون الخطبة مما يشغل اهتمامي في ذلك السن، فلم أدرك للوهلة الأولى أن الراعية الطيبة تكشف سبب الجوّ الاستثنائي الذي يسيطر على الدار. ولذا سألتها عن سبب هذا اللف والدوران الذي رأيته اليوم. فلما كررت المرأة ما قالته مؤكدة أنه هو السبب، فقد أصابني ما يشبه خيبة الأمل، وغاضت رغبتي في طرح أسئلة أخرى.

لا بدّ من أن عمتي نظيرة كانت آنذاك في سنتها الثانية عشرة، ولأن فارق السن بيني وبينها لم يكن كبيراً جداً، فلم آلف أن أنظر إليها إلا كطفلة. صحيح أنها كفّت أو بالأصح كُفت عن المشاركة في لعب الأولاد خارج الدور منذ وقت طويل، إلا أنها لم تتوقف عن اللعب معنا، إخوتها وأنا، داخل الدار. لكن البنات في مجتمع قريتنا يصرن هدفاً لطلاب الزواج منذ سن مبكرة. وحين تكون البنت ابنة مختار أو وجيه يزداد عدد طلابها. ولا بد من أن يكون كثيرون قد طلبوا يد نظيرة قبل ذلك ورفضهم الجدّ لسبب أو لآخر، دون أن ألحظ أنا الأمر أو ينبهني شيء إليه. أما هذه المرة فالطالب هو مختار التينة ذو الجاه والوزن الاجتماعي المعترف بهما. إلا أن الخاطب أكبر سنّاً من الخطيبة بكثير، فسنه تكاد تقترب من سن أبيها، وما كان لهذا أن يثير الكثير من النقاش أو التردد لو لم يكن الأب هو جدّي سلمان بالذات، هذا المتميز بحنان خاص إزاء أولاده، بناتٍ وبنيناً. وقد اتضح أن الجدّ الذي تلقى طلب الخاطب عبر الوسطاء لم يعط كلمة قاطعة، ثم بدأ مشاوراته مع أهل داره وأقربائه كأنه يستعين بهم ليحسم أمره، هو المتردد بين رضاه عن مكانة الخاطب وأخلاقه وثروته وخوفه من أن لا يكون الرجل المناسب لفتاته الصغيرة.

وفي ذات عشية، وكنّا نقترب من آخر الصيف، قدم إلى مضافة الجدّ وفد كبير بمثابة جاهة، ضمّ وجوه قرية التينة وعدداً من وجوه القرى المجاورة ممن هم أصدقاء لجدّي.

وقد أغرق الوفد الدار بما حمله من الهدايا، من الحلويات والسكاكر والفواكه المجففة والبذور المحمصة والمملحة. كان الوفد قد أبلغ عن قدومه مسبقاً، ولذا أعدّت الوليمة المناسبة للاحتفاء به، وانشغل أهل الدار جميعهم بإعدادها وتوفير مستلزمات الاستقبال الاستثنائي. وفي المضافة، احتشد الزوار بحيث لم يبق فيها مطرح واحد فارغ. ودار منذ التأم المجلس حديث لم يطرق الموضوع مباشرة إلا أنه لفّ في أجوائه. وبينما انصرف الجدّ لإعداد قهوة جديدة، توالت الإشارات المحملة بالمعاني من الوافدين في الجاهة، واحد يعدد مزايا أهل التينة ويذكّر بعلاقات الجوار الطيبة بينها وبين المسمية الصغيرة، وآخر يمتدح حمولة المختار ويبيّن أصالة حسبها ونسبها ويفيض في ذكر مزايا المختار نفسه، وثالث يتفنن في تعداد فضائل الزواج وما يؤدي إليه من تمتين الصلات بين الأسر والحمائل والقرى المتصاهرة. في غضون ذلك، جهزت القهوة، وصبّ الجدّ الفنجان الأول وناوله لأكثر أعضاء الوفد وجاهة. وقد تناول الرجل الفنجان وأبقاه في يده دون أن يشربه، وقال متبعاً التقليد: "قهوتك يا أبو رشاد مشروبة، لكنْ، لنا طلب عندك، والجوّيد مثلك لا يخيّب الأجاويد". وكان على جدّي، حسب التقليد، أن يظهر استعداده لتلبية الطلب الذي يعرفه، فيشرب الرجل قهوته ويشرب زملاؤه في الجاهة، أو أن يستنكف عن تلبيته فينسحبوا قبل شرب القهوة. وقد أطرق الجدّ لحظات، ساد المضافة خلالها صمت المترقبين، ثم نظر إلى محدثه نظرة وشت بأنه يميل للاستجابة دون اقتناع تام، وقال مؤكداً مغزى النظرة: "اشرب قهوتك على بركة الله! والخيرة في ما يختاره الله". التقط الزوار الإشارة الإيجابية التي اشتملت عليها عبارة الجدّ، وشربوا قهوتهم بحبور، ثم طرقوا الموضوع مباشرة.

وبعد مداورات أخرى من الجدّ ومطالبات ورجاءات صريحة من رجال الجاهة، أعطى جدّي موافقته الأولية، وأرجأ الموافقة النهائية إلى ما بعد المشاورات التي قال إنه سيجريها مع أهل الدار والبنت وأقربائها. وحتى مع أن موافقة الجدّ على تزويج ابنته لمختار التينة كانت أولية، فقد أدرك الجميع أن الأمر قد أبرم من حيث الجوهر. فأبو البنت هو صاحب الكلمة الفاصلة في مستقبلها. والمشاورات مع أهل الدار أو مع البنت ليست إلا إجراءً شكلياً يلجأ إليه الذين يحترمون الشرع لأن الشرع يقضي بإجرائها. أما المشاورات مع الأقرباء فهدفها تجنب أيّ مشاكل أو عنعنات منغصة قد يصطنعها هؤلاء في وجه الزواج المرتقب. وقد عرفت أن المشاورات تمت قبل مجيء الجاهة، إلا إنها لم توصل إلى نتيجة حاسمة. وبعد الوعد الذي أعطاه الجدّ للجاهة، جرت جولة مشاورات أخرى، فاستمزج الجدّ من جديد رأي أم البنت وأعمامها، وسئلت وضحة الكبيرة عن رأيها من باب الاستنارة به وليس لأن لها حقاً في ذلك. وكانت حصيلة المشاورات لصالح الزواج، فليس بين

الأعمام من لديه ابن في سن الزواج بحيث يستأثر بالبنت دون الغريب، وأم البنت أُخذت بضخامة الجاهة التي أرسلها الخاطب، كما أُخذت، من قبل، بكونه مختاراً وذا ثراء. هل استشيرت البنت نفسها؟ لم أكن في سنّي ذاك معنياً بمعرفة واقعة كهذه، ومثل هذه الاستشارات لا تجري أمام الصغار، مثلما أنها لا تجري أمام الغرباء عن الدار. وإن كان لا بدّ من أن تعرف فإني أميل إلى الاعتقاد أنّ الجدّ استشار ابنته على نحو أو آخر، فهذا مما ينسجم مع طبيعته ومع تمسكه بالشرع وتدينه، حتى حين لا تلزمه التقاليد به. ولعل الجدّ قد طلب من أم البنت أن تستقصي رأيها، إن لم يكن قد استقصاه بنفسه. ولا بدّ من أن البنت، وقد عرفت أن أباها أعطى الكلمة لرجال الجاهة من وجهاء المنطقة، لم تفكر بالاعتراض حتى لو كانت راغبة في ذلك. وأتصور أن أم البنت بذلت جهدها لتزيين مزايا هذا الزواج أمام ابنتها الغريرة التي يستوي في نظرها الخاطبون لأنها لا تعرف أياً منهم معرفة خاصة، ولا تملك الحق في اختيار شريك حياتها عن معرفة.

بعد أيام، جاءت الجاهة من جديد، عدد أقل من الرجال ضمّ أبرز من جاءوا في المرة الأولى وأعلاهم مكانة ومعه هدايا أكثر، معلناً، صراحة هذه المرة، أنها من الخاطب. وكان الخاطب قد تلقى قبل ذلك إشارة الموافقة النهائية، كما كانت اتصالات الكواليس العاجلة قد حددت الترتيبات العملية المتصلة بالخطوبة، فلم يبق، إذن، إلا الشكليات التي توجب التقاليد الأخذ بها.

وحين استعد الجميع للخوض مباشرة في الموضوع، بدأ كبير رجال الجاهة الحديث، قال الرجل: "مهر ابنتكم يا شيخ سلمان ألف جنيه، ونحن نتطلع لفضلكم، فعشّنا!". وصمت الجدّ مفكراً، فشجعه رجل آخر: "عشّ يا أبو رشاد، عشّ! وأنت الخير". وقال ثالث مؤمّناً: "كرم أبو رشاد يعرفه الصديق والعدو". هذه العبارة التي استُهلّ بها الحديث لن يفهم مغزاها من لم يَعش في قرانا، فهي بحاجة إلى شرح. فمهر البنت من حيث المبدأ هو ألف جنيه، يعرض رجال الجاهة الرقم العالي مدللين بهذه اللفتة على تقديرهم لقيمة الخطيبة وأهلها، ثم يحثون الأب على أن يتنازل بنفسه عن بعض هذا الرقم حتى يصل المهر الذي سيقبضه فعلاً إلى رقم معقول، هو في أغلب الأحوال الرقم الذي يكون التفاهم بشأنه قد تم في اتصالات الكواليس أو الذي يقتنع الجميع بأنه المهر المناسب. والمتبع، حسب التقليد، أن يعدّ ما ينقصه الأب من الرقم المبدئي بمثابة عشاء أي إكرام لهذا أو ذاك من ذوي الشأن، خصوصاً من رجال الجاهة ذاتها.

كنت في تلك الأمسية أنجذب لبعض الحديث فأتشبث بمجلسي في حضن جدي أو أمامه، وأضيق ببعضه الآخر فأتفلّت وأغادر المضافة. وظللت أخرج وأدخل إلى أن بلغ الحديث

هذه النقطة الغامضة. وقد أثار فضولي أن الرجال يطلبون من جدّي أن يعشيهم بعد أن تعشوا فعلاً وأتوا على ثلاثة مناسف كبيرة جللها لحم خرفان ثلاثة بكاملها. والحقيقة أن المناقصة التي دارت في تلك الأمسية كانت شيّقة. بدأ الجد أول تنازلاته عن الألف جنيه فقال: "لله ورسوله مئة جنيه"، وكأنما كان هذا متوقعاً فلم يثر حماساً زائداً، بل اكتفى الحاضرون بأن رددوا بنبرة روتينية: "نِعمَ بالله، وصلى الله على سيدنا محمد" دون أن ينطفئ من عيونهم التوق إلى تنازل جديد. ثم أكمل الجدّ: "مئة جنيه للحاج أمين"، وبدا أن هذا التنازل كان، أيضاً، متوقعاً، فلم يثر إلا القليل من الانتباه. وبقيت العيون بفضولها المتأجج مشدودة ناحية الجدّ. لكن الجدّ المحاصر بالنظرات صمت وطال صمته، فسكن المجلس كلّه صوتاً وحركة، إلى أن كسر صوت كبير رجال الجاهة هذا السكون:"بكم عشائي عندك يا شيخ سلمان؟!"، فأجاب الجدّ على الفور: "خمسة وعشرون"، فانتفض الرجل محنقاً، وهتف بنبرة لائمة: "أأهون عليك بخمسة وعشرين؟!"، فقال الجد غير مأخوذ بما بدا على مجادله:"من أجل خاطرك، نجعلها ثلاثين"، ونظر إلى المجادل مستفهماً عما إذا كان هذا يرضيه، غير أن الرجل احتفظ بملامح الحانق وتابع كلامه بالنبرة اللائمة ذاتها:" في مقام مثل هذا المقام، عند ناس ليست لهم نصف السمعة في الكرم التي لشيخ حمولة سلمان، كان عشائي يعادل ثلاثينك هذه مرتين وأكثر". وردّ الجد دون أن يسقط في يده:"بنات الناس لسن متساويات، ولكن لا أحب أن تتركنا وأنت تظن أننا قصرنا في حقك، أجعلها أربعين، ولنتوكل جميعاً على الله!". غير أن المجادل، وقد التقط على ما يبدو حاجة الجدّ للفراغ من الجدل معه وشاء أن ينسب لوجاهته الفضل في أكبر تنازل يقدمه الجد لرجل في الجاهة، لم يكتف بهذا، بل أضاف:"وأنا من ناحيتي، وحتى لا أتعبك، أقبل بخمسين". وحسم الجدّ الأمر مع هذا الرجل:"إذا ضمنت ألا يطمع إخوانك الآخرون مثل طمعك، فهي لك".

وتكرر الجدل، على النحو ذاته، وإن اختلفت التعابير والمحاججات مع رجال الجاهة الآخرين: يقرر الجد في كل مرة الرقم الذي يرى أنه يلائم مقام مجادله، إلى أن استقر الاتفاق على خمسمئة وخمسين جنيهاً يقبضها الجدّ، نقداً، مهراً لابنته، ثم قرئت الفاتحة، فأصبحت عمتي نظيرة الخطيبة الرسمية للمختار الذي لم تره من قبل.

عندها، وكان الليل قد اقترب من منتصفه والتعب والنعاس باديين على الجميع، طلع جدّي سلمان بالمفاجأة التي لم يتوقعها أحد. مهّد الجدّ لمفاجأته بمقدمة طويلة، فذكر للحاضرين أن آل سلمان لم يألفوا أن يزوجوا بناتهم لغرباء إلا حين يكون هذا الغريب كريم الأصل طيب السمعة عالي الجاه عزيزاً على قلوبهم. ثم أكد الجدّ أنه باستجابته لطلب الجاهة قد أعطى لرجالها حقهم الكامل بما هم ناس فضلاء لا يردّ لهم طلب. ثم قال الجد إنه إذا كان

قد تردد في الموافقة فلا لشيء إلا لأن البنت صغيرة وهو مؤمن بأن تزويجها وهي في هذه السن أمر لا يرضى عنه الله ولا رسوله. بعد هذا، قال الجدّ بحسم: "اتفقنا على كل شيء، من أجل خاطركم، وقد قبلت رغباتكم كلها. الآن عندي شرط، شرط واحد: الخطبة تمت على سنة الله ورسوله، أما الزواج فبعد صيفين، وليس قبل ذلك".

حتى هذه اللحظة، كنت أتابع الجدل مأخوذاً بما فيه من جدّة وطرافة. أما عند هذه النقطة فقد أحسست بأن الجد قد انتزع من صدري ضيقاً غامضاً تلبسني منذ أدركت أنهم يخطبون العمة العزيزة. وعندما قال الجد ما قاله، صار لديّ، أنا الولد الوحيد الذي حضر الحوار، ما أنقله إلى الجالسين داخل الدار بانتظار النتائج من النساء والأولاد، فجريت إليهم وألقيت نفسي على عمتي الصامتة وأنا أهتف: "لن يزوجوك اليوم". وقد احتاج مستمعيّ إلى جهود كبيرة كي يهدئوني ويعرفوا أصل الحكاية على نحو صحيح.

لم تكن احتفالات الخطوبة والزواج هي وحدها التي اختتمت موسم ذلك العام، بل شهدت نهاية الموسم ذلك الحدث الذي شغل المسمية الصغيرة بضعة أسابيع، واستقطب اهتمام أهلها جميعهم. لقد عرفتَ قبل الآن أن لآل الحوراني أقرباء في منطقة حوران السورية هم أبناء عشيرة المحاميد الكبيرة التي انحدر الحورانيون من أحد فروعها. وكان الراحلون وكبار السنّ الأحياء من آل الحوراني قد احتفظوا بذكرى جذورهم الأولى، وأقاموا بعض الصلات مع أقربائهم البعيدين، دون أن يترتب على ذلك إلا القليل من الالتزامات التي تفرضها أنظمة العشائر على أتباعها. ثم تعززت هذه الصلات منذ بدأ جدّي عبد المجيد رحلاته المنتظمة إلى دمشق، حيث اعتاد أن يعرج على درعا ويزور الأقرباء. وكان من عادة الجدّ أن ينقل إلى آل الحوراني أخبار هؤلاء الأقربين، كما كان من عادته أن ينشر هذه الأخبار في منطقتنا، وأن يتفنن في تصوير ضخامة العشيرة وسعة القرى التي تعود لها، والنفوذ الواسع الذي يتمتع به زعماؤها في البلد الجار. يفعل الجدّ ذلك ليعزز مكانة آل الحوراني في منافساتهم مع القرى والعشائر الأخرى في محيطهم. وقد اكتشف مجايلو الجدّ من وجهاء المحاميد في درعا ومنطقتها أن في فلسطين قرية بكاملها تعود لأقرباء لهم، وألف عدد من هؤلاء الوجهاء أن يجيء إلى القرية زائراً ويتمتع بكرم أقربائه وحفاوتهم به. فإذا أخذت بعين الاعتبار أن فلسطين كانت في تلك الأوقات محجة الباحثين عن فرص العمل من فقراء المناطق المجاورة، خصوصاً من حوران ومصر و شرق الأردن، فبإمكانك أن تتصور مدى أهمية هذه الصلة بالنسبة للمحاميد في حوران.

وهكذا، اعتاد أهل المسمية الصغيرة، خصوصاً من بينهم جدي عبد المجيد، أن يستقبلوا أبناء المحاميد الوافدين للبحث عن عمل وأن يستضيفوهم إلى أن تتوفر لهم الفرصة

المواتية، خصوصاً في سنوات القحط التي تتناوب منطقة حوران فيعزّ فيها العمل والغذاء وتقذف المنطقة بجموع كبيرة من أبنائها نحو فلسطين. ثم تطور الأمر مع توسع الصلات واعتياد الوافدين على الكرم الذي يخصهم به آل الحوراني، فصارت جموع بكاملها من المحاميد تأتي إلى المسمية الصغيرة حين تشتدّ وطأة القحط على حوران، فتتمتع بالحفاوة وتتزود بما يتبرع به الحورانيون من معونات. في نهاية ذلك الموسم، إذن، جاءت هذه الجموع، مئات من الرجال حلّوا بالقرية فجأة، بعد أن أمحلت بلادهم وشاع بينهم أن سنة فلسطين تلك كانت سنة خير وفير.

كان هؤلاء الوافدون ضيوفاً بالطبع، لكنهم لا يشبهون الضيوف إلا في بعض الوجوه. وقد استضافت دار جدّي عبد المجيد أوجه وجهاء الوافدين، وكان منهم اثنان ما فتئ الجدّ يردد أن لهما مكانة عالية في مجتمعها. هذان الاثنان هما الشيخ مزيد وابن عمّه الشيخ مفلح، وهما يتقاسمان زعامة المحاميد ويتنافسان فيتناوبان تمثيل درعا في البرلمان السوري. وكان جدي عبد المجيد يقول وهو يحدّث مستمعيه عن مكانة الشيخين أن قيمة عضو البرلمان في سورية لا تقل عن قيمة الوزير، بل إنه هو الّذي يأتي بالوزراء ويصرفهم. واستضافت الدور الأخرى وجهاء آخرين. أما جموع الوافدين فقد حلّت في بيوت الشَّعر العديدة التي نصبت من أجلهم في الأجران، وكان الطعام يصل إلى هذه البيوت، مما يتطوع أهل المسمية الصغيرة بتقديمه لأقربائهم.

والحقيقة أن أمر هذه الجماعة بلبلني، فوجهاؤها المقيمون في دار جدي يتصرفون بصلف وغلظة لا تلائمان ما نسمعه عنهم من أهلنا، والجموع التي تتوزعها بيوت الشعر تضمّ فقراء ظاهري البؤس يتقبلون العون الذي يصلهم دون فرح ودون امتنان حقيقي، بل بردود فعل أقرب إلى ردود فعل المتسولين الذين يوجعهم أن يكونوا بحاجة للعون. وهكذا، لم يقترن حضور هؤلاء الضيوف بما يقترن به حضور الضيوف إلى القرية من متع ومباهج وأجواء طيبة. ولم يكن في هذا الحضور ما يجتذبنا، نحن الأطفال، حيث لا ترى العين إلا البؤس ولا تسمع الأذن إلا التشكي من سوء الأحوال.

وبمضيّ الوقت، أخذ عدد الحالّين ببيوت الشعر يتناقص. وبعد بضعة أسابيع، وكان الطقس قد مال إلى البرودة في الأصباح والأماسي، لم يكن قد بقي من هؤلاء إلا الوجهاء المقيمون في الدور وعدد قليل من أتباعهم ممن يضمهم بيتا شعر أو ثلاثة، ليس أكثر. وكنا، نحن الأولاد، نرى هؤلاء حين نعبر الأجران متجهين إلى المدرسة أو عائدين منها. وذات يوم، عدنا مع المساء لنكتشف أنهم قد رحلوا. وحين سألت راعيتي عنهم، قالت: " أخذوا ما قسمه الله لهم وانصرفوا"، ولم يكن في نبرتها ما يشي بأي أسف على فراقهم.

-١٥-

فصيل للكبار، فصيل للصغار، أما السلاح فقليل

في العام الدراسي الجديد، مع بداية سنتي الثالثة في المدرسة، أخذ نوع جديد من النشاط يلون حياتنا، ثم لم يلبث أن طغى هذا اللون على بقية الألوان وطبع حياة الجميع بتأثيره. بدأ الأمر ببروز ظواهر عدّة في المدرسة وفي القرية. فقد اضطربت الدراسة وزادت الأيام التي تتوقف فيها. وكثرت الخطب التي يجمعوننا في الباحة من أجل الاستماع إليها ليعلنوا لنا أن اليوم التالي هو يوم إضراب. وزادت حركة الناس في القرية وتوسعت اتصالاتهم بعضهم ببعض ومشاوراتهم الخلوية. وتوالت الاجتماعات العامة التي يشهدها الجامع. وتعددت الحلقات التي تنعقد أمام الدكاكين وفي المضافات، واشتدت فيها حدّة الجدل. وكان الكبار من التلاميذ، وقد صار في مدرستنا تلاميذ كبار بعد أن أفتتح فيها الصفان السادس والسابع، منخرطين في هذا النشاط عارفين بخفاياه. أما نحن الصغار، فكنا نلتقط عبارة من هنا وإشارة من هناك، ونعاين الوضع ونعاين تطوراته، ونكوّن معرفتنا به أولاً بأول.

كانت ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ التي ولدت أنا في وقت ما من عامها الأخير قد انطفأت دون أن تحقق أهدافها الكبيرة، أطفأها تدخل ملوك الدول العربية وأمرائها ونداءاتهم المتكررة لعرب فلسطين كي يوقفوا العمل المسلح ويثقوا بجدوى المفاوضات التي يديرونها هم مع الدولة المنتدبة على فلسطين، وهي صديقتهم العظمى بريطانيا، كما أطفأها الكلال الذي أصاب الثوار بعد أن ظلوا يقرعون أبواباً يتعذر فتحها طيلة سنوات ثلاث، دون أن يظفروا

بنتيجة حاسمة أو يحصلوا على الاستقلال أو يتمكنوا من إعادة اليهود عبر البحر الذي جاءوا منه. ثم جاءت الحرب العالمية الثانية، بثقلها والإجراءات الصارمة التي استوجبتها والكثافة العسكرية البريطانية التي رافقتها، فصمتت آخر البنادق الفلسطينية، وعاد الثوار إلى منازلهم، حاملين إحساسهم المزمن بالقهر والخذلان وخيبة الآمال، ومخبئين طموحهم الغامض إلى العدل وتوقهم إلى الحرية والحياة الكريمة والاطمئنان على الأرض. واكتست وجوه العائدين بهذا السمت الذي تختفي وراءه المخبوءات فلا يدرك أحد ما إذا كان المخبوء ثورة مكبوتة أو استسلاماً للقوى القاهرة. ومع انطفاء الثورة وتشتت الثوار، أخذ السلاح طريقه إلى المخابئ التي يتفنن الفلاحون في ابتكارها فيعجز أكثر رجال الأمن مهارة وأكثر كلاب البوليس تدريباً عن اكتشافها. فقد هدمت حيطان كثيرة في دور عديدة، لا لشيء إلا لتختفي البنادق وسط طينها حين يعاد بناؤها. وشقت حفر تحت أساسات المنازل كي تستر رزم الديناميت الذي لفّ بحيث لا تفسده الرطوبة. واستخدم الناس أجواف الأشجار العتيقة التي لا يهتم بها أحد في العادة، والآبار المهجورة التي يكسو العشب فوهاتها، كما استخدموا الكهوف والمغر والأماكن الأخرى غير المطروقة، وحتى القبور، لتخبئة السلاح. واحتفظ الثوار الذين هجروا السلاح بأسرار المخابئ فلم يبوحوا بها حتى لأنفسهم حتى ليكاد الإنسان يظن أنهم هم أنفسهم قد نسوها تماماً، كما قد يظن وهو يراقب السحن المتيبسة أنهم نسوا طموحاتهم العتيقة واستكانوا للأمر الواقع واستولى عليهم الجري الشاق وراء اللقمة العزيزة. ولأن الحرب العالمية طالت، فقد طال هذا النسيان الغامض.

في غضون ذلك، كان الجانب اليهودي قد تقوى، وعزز وجوده في البلاد ووسع مؤسساته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية. تدفق المهاجرون الذين أفزعهم انتشار الرعب النازي في أوروبا. وتدفقت، أيضاً، الأموال الباحثة عن أجواء آمنة للاستثمار. وتنوعت مصادر السلاح وتوفرت فرص كثيرة للتدرب عليها. وازداد مع هذا كله نفوذ المنظمات الصهيونية في الوسط اليهودي. ولما انتهت الحرب، استفاد الصهيونيون من العطف العالمي الواسع على اليهود ورغبة العالم في مساعدة ضحايا الفاشية. وكانت الولايات المتحدة الأميركية قد انضمت إلى صف المؤيدين الفعالين لإقامة الدولة اليهودية في فلسطين ووضعت ثقلها السياسي والمادي في الميزان، تذكرت الدولة التي صارت عظمى أن حق تقرير المصير الذي اكتسب شعبية واسعة في ظل النصر على النازية ينطبق على اليهود، ونسيت أن هذا الحق ينبغي أن ينطبق على شعب فلسطين. في هذه الأجواء المواتية، باشر الصهيونيون حملة واسعة من أجل إقامة دولتهم الموعودة.

ومع توسع النشاط الصهيوني في هذا الاتجاه والضغوط التي مارسها الصهيونيون على كل الأصعدة، تجددت الاحتكاكات بين العرب واليهود في طول البلاد وعرضها، ففاضت المشاعر المخبوءة، وانطلقت بين العرب الدعوة إلى الدفاع عن الوطن المهدد بالكارثة.

وقد بدأنا نلاحظ التطورات الناشطة بمقدار وعينا وبمقدار ما تمسنا. ففي المدرسة، كان موقف المعلمين واضحاً، وكذلك جهدهم لتحريض الناس على المقاومة: جاء اليهود إلى البلاد غزاة تحميهم حراب البريطانيين، ولا بدّ من أن يعودوا هم وبريطانيوهم إلى ما جاءوا منه، لتبقى البلاد لأصحابها وتتحرر من الاستعمار. وفي القرية، أفصحت المواقف عن نفسها بأساليب متعددة. فالتعامل بين المسمية الصغيرة ومستعمرة كفار مناحيم اتسم بالحذر الشديد، فلم يعد أحد من القرية يذهب إلى المستعمرة إلا إذا اضطرته لذلك حاجة قاهرة، ولا عاد أحد من اليهود يجيء إلى القرية إلا إذا كان جريء القلب ممن تربطهم بأهلها علاقات وطيدة طويلة الأمد. وبالإجمال، لم نعد نرى من اليهود إلا كبار السن الذين يتقنون العربية ويقولون كلاماً ودياً ويشتمون صراحة الذين يتسببون في الفرقة بين عرب فلسطين ويهودها الأقدمين. وأحاديث المضافة في ليالي السمر المألوفة خالطتها السياسة أولاً بأول حتى طغت عليها. وكثر زوار المضافة من رجال الحكومة، وكانوا بمعظمهم إما من البوليس أو الجيش. ولم تعد الأحاديث مع هؤلاء تدور حول الضرائب أو المخالفات أو المجاملات التي يزجيها الفلاحون لرجال الحكومة، بل صارت تدور حول الأحوال العامة، ويتخللها الصراع الخفيّ بين هؤلاء الزوار الذين يطرحون أسئلة مريبة ويستقصون نشاطات ناس بعينهم من أهل القرية وبين رواد المضافة من الفلاحين الذين يتسربلون دائماً بعدم المعرفة. وازداد تواتر اللقاءات المغلقة التي تنعقد في المضافة بين أعداد محدودة من الرجال، ويدور الحديث خلالها همساً ويُمنع الآخرون من حضورها. ودخلت كلمات جديدة، وكذلك أسماء جديدة، على قاموس الأحاديث الدائرة هنا وهناك، فصرنا نسمع عن الأسلحة الحديثة: البرنّ، الماشنجن، الميلز، وتطرق أسماعنا أسماء ترومان وستالين وأتلي وتشرشل، أو أسماء الجمعية العامة ومجلس الأمن وجامعة الدول العربية، فضلاً عن الحاج أمين وأسماء حكام العرب المتداولة من قبل. وتجدد الاهتمام بأسماء المنظمات اليهودية المسلحة: الهاجاناه واتسل وأرغون، وكثر الكلام عليها وعلى استعداداتها للحرب.

ثم حدث تطور حاسم في العلاقة بين جديّ سلمان وعبد المجيد. كانت الخصومة التي نشأت بسببي بين الجدّين قد أبقت علاقاتهما بين فاترة ومتوترة طيلة السنوات السابقة فلم يتبادلا الزيارات والمجاملات إلا في أضيق الحدود، كأن يلتقيا في عرس أو عزاء أو في مناسبة استقبال زائر عالي المقام. أما في تلك السنة، فقد جمع الهم العام الذي تتراكم

نذره في الأفق الرجلين المتجافيين. جاء جدّي عبد المجيد، فجأة، إلى مضافة الحمولة في دار أخيه، وانتقل الراديو إلى هذه المضافة. وتوطدت علاقة الحمولة كلّها بالحمائل الأخرى، وأعيد الاعتبار إلى هيئة الاختيارية التي تضم وجهاء الحمائل السبع ونشطت المشاورات بين الجميع. وبوجود الراديو في المضافة، ازداد عدد زوارها المعنيين بالشأن العام وألف الناس أن يتجمعوا، خصوصاً في الأوقات التي تذاع فيها نشرات الأخبار. وبعد الراديو، جاءت الجريدة إلى المسمية الصغيرة. وكان الناس يتحلقون حول عمي محمود وهو يقرأ لهم دون إتقان شديد ما تنشره الجريدة.

كنت آنذاك قد بلغت الصف الثالث في المدرسة، وبقيت معدوداً بين أوائل التلاميذ في الصف دون أن أفوز بالمرتبة الأولى، إذ بقي ذلك الولد من المسمية الكبيرة يسبقني إليها. وكنت قد أنهيت الثامنة من عمري ودخلت التاسعة. على أن وعيي المصقول بزخم الأحداث المتعاقبة، مثلي في هذا مثل مجايليّ كلهم، كان يتجاوز هذا العمر بكثير. وما كان الأمر بالنسبة لنا أمر التأثر بأجواء الكبار وتقاليدهم، فحسب، بل كان، أيضاً، هذا الوعي على الخطر المحدق الذي نما مبكراً وغذاه التواتر الشديد للأحداث. وذات يوم، وكنّا قد تجمعنا في باحة المدرسة استعداداً لبدء يوم دراسي جديد، دعينا إلى الاصطفاف في وقت متأخر عن المألوف، وكنّا نحسّ بأن في الجوّ شيئاً غير عادي دون أن نتبين هذا الشيء على وجه التحديد. ثم لم يلبث أن تأكد إحساسنا حين لم يُقبل المعلمون لإجراء التفتيش الصباحي، بل جاء المدير وألقى فينا خطبة ضاجّة وأبلغ إلينا في نهايتها أن الدراسة توقفت وأن الوقت هو وقت الجهاد من أجل الدفاع عن الوطن المهدد.

تلقينا نبأ إقفال المدرسة قبل الموعد المعتاد لنهاية العام الدراسيّ بين مصدق ومكذب. وأياً كانت مشاعرنا الأخرى إزاء النبأ المفاجئ، فلا شك في أن شيئاً كثيراً من الابتهاج قد خالط هذه المشاعر، فإقفال المدرسة يعني إعفاءنا من مشقة الدراسة والتحضير لامتحانات نهاية العام، و يهيء لنا فرصاً أوفر للانطلاق على هوانا والانخراط في هذه الأجواء المفعمة بالنشاط العام التي تلفّ القرية. وفي طريق العودة إلى القرية، لم نترك شيئاً من المحظورات إلا فعلناه، سطونا على ما في البيارات والحواكير من خضار وعابثنا نواطيرها غير هيّابين، وأعددنا علب سكاير زائفة وبعناها في محطة القطار لركابه العابرين، وتمتعنا بالمال الحرام إلى آخره. ثم ألقينا أنفسنا في الغدران التي لم يكن ماؤها قد جفّ بعد، وظللنا نسبح ونعبث حتى أعيانا الجهد.

وفي اليوم التالي، وصل إلى القرية خالاي نافذ وعمر. كان الاثنان قد بلغا في ذلك العام الصف الأخير في مدرستيهما الثانويتين وعليهما أن يتقدما للحصول على الشهادة الحكومية. وقد أجريت الامتحانات في هذه السنة قبل موعدها. وبوصول الشابيّن

المتعلمين إلى القرية، بما لديهما من الخبرة التي حصلا عليها في المدن حيث مركز العمل الوطني وقياداته وأنديته السياسية، انبعثت في القرية موجة جديدة من النشاط حفز عليها وجود الشابين المفعمين بالحماس والرغبة في تنظيم المقاومة. والحقيقة أن الشابين بادرا إلى العمل فور وصولهما. ولأمر ما، لا أعرف سببه، انخرط نافذ في النشاط السياسي، فيما انصرف عمر إلى الجانب العسكري وتزعم، على نحو أو آخر، حركة الشباب الداعين إلى الاستعداد للقتال.

وهكذا، صارت الجريدة تقرأ بلغة طلقة وصحيحة في المضافة أو على المصاطب التي تجمع الناس في العصارى أو تحت السدرة. وكان لنافذ، إلى تمكنه من اللغة، نبرة جذابّة في القراءة وقدرة على تلوين مخارج الحروف بحيث تتواءم التلاوة مع المعاني وتقربها إلى الأذهان. وبوجود قارئ له هذه الجاذبية، وباستعداده التام لتقديم الشروح اللازمة للنصوص الغامضة التي تنشرها الجريدة، أخذت حلقة المستمعين تتسع يوماً بعد يوم. ونشطت المجادلات التي تتناول الأحداث العامة، وانفتح وعي الناس على عوالم كانت تبدو لهم غامضة قبل ذلك.

وأتذكر أن الجدل احتدم أكثر ما احتدم حول ذلك الموضوع الذي لم أفهمه في حينه على نحو دقيق؛ وهو قرار التقسيم والموقف المطلوب منه. كانت الجمعية العامة للأمم المتحدة، كما لا بدّ من أنك تعرف، تناقش القرار الشهير بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود. وقد رفضت القيادة الوطنية هذا القرار رفضاً حاسماً وحرضت الجمهور على رفضه. والحقيقة أن الجوّ العام في القرية كان ضد القرار، ليس فقط من باب الولاء للقيادة الوطنية التي يوليها الناس ثقة مطلقة، بل، أيضاً، بدافع الإحساس بالغبن إزاء القرار الذي يحرم أهل البلاد من نصف وطنهم ويعطيه لوافدين غرباء ليس لهم فيه حق. بالرغم من ذلك، لم يخل الأمر من وجود مشاعر مغايرة من نوع تلك المشاعر التي تتسرب إلى النفوس خلسة وتثير فيها بعض التردد. وكان لهذه المشاعر مصدران: واحد واضح هو جدل توفيق ابن الشيخ خليل الذي كان يحث الناس على القبول بما يعرضه قرار التقسيم حتى لا يفقدوا كل شيء، وآخر غامض ناجم عن حقيقة أن القرار الدولي يعدّ المسمية الصغيرة جزءاً من الدولة العربية، ما يوفر لأهلها أملاً بالسلامة. كان توفيق متأثراً، على ما قيل عنه، بآراء الشيوعيين، وكان يحاجج دون أن تُحدث حججه تأثيراً عميقاً في مستمعيه، خصوصاً حين يواجهه نافذ المفعم بالولاء للقيادة وزعيمها الحاج أمين بلغة تتلاءم مع مشاعر الفلاحين المهتاجين أكثر مما تتلاءم اللغة التي يستخدمها توفيق. وكنت أنحاز، بالطبع، إلى نافذ، وأعجب بمقدرة خالي على إفحام مجادله، وأفرح حين ألمس تجاوب الفلاحين مع منطقه.

بموازاة هذا النشاط، جدد المجاهدون القدماء عزائمهم، وانضم إليهم فتيان الجيل الجديد، وظهر السلاح القديم واتسع الاهتمام بتوفير مصادر جديدة للسلاح. ونظمت الحراسات قرب مداخل القرية وعلى الدروب الموصلة إليها. وصار من المألوف أن نسمع أصوات الطلقات تتردد في الأجواء المحيطة بالقرية، أصواتاً يطلقها المجاهدون في النهار وهم يجربون أسلحتهم العتيقة، أو يطلقها الحراس في الليل. وأنشأ خالي عمر جماعة من المجاهدين الفتيان. وكان عمر يظهر أغلب الأوقات متمنطقاً بمسدس أو حاملاً بندقية، ويسعى هنا وهناك حاثاً الفتيان على التدرب على السلاح.

في غضون ذلك، انتظمت العلاقات بين مجاهدي المسميتين: الكبيرة والصغيرة، غاضت الخصومات السابقة، وتوارت دواعي المنافسة القديمة، وحلّت روح التعاون إزاء الخطر الداهم، وتوالت الاجتماعات بين وجهاء المجاهدين في القريتين، واتصلت المشاورات، وانتهى الأمر إلى إحياء فصيل المجاهدين السابق الذي جمع مقاتلي القريتين إبّان ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩. وقد أنيطت قيادة هذا الفصيل المتجدد بقائده السابق عبد الله مهنا "أبو جهاد" الذي كان فتى في أيام الثورة فصار الآن رجلاً تامّ النضج حكيماً وذا مهابة تفرض نفسها على الجميع في القريتين.

وبمضيّ الأيام، برزت ظاهرة أخرى ذات دلالة. فالرجال الذين سبق أن غادروا القرية للعمل في معسكرات الجيش البريطاني البعيدة أخذوا يعودون. وقد حمل هؤلاء معهم حكايا الأسلحة البريطانية التي تسربت إلى أيدي الصهيونيين والصفقات التي عقدت لهذا الغرض والرشاوى الهائلة التي حصل عليها الضباط البريطانيون. ومع عودة هؤلاء العمال، عاد إلى القرية، أيضاً، بعض رجالها الذين كانوا قد انتسبوا للبوليس. ومن هؤلاء من جاء معه بسلاحه الإنجليزي، فتميز بين رجال القرية الآخرين بالبندقية الجيدة التي يحملها ويحسن استخدامها. ترك هؤلاء البوليس لينضموا إلى المجاهدين فأوكل أبو جهاد إليهم مهمة تدريب الفتيان الجدد الذين انضموا إلى الفصيل. وبمضيّ الوقت، أيضاً، أخذت المشاغل المتصلة بالاستعدادات الدفاعية وما يرتبط بها من شؤون وشجون تطغى على الاهتمامات السياسية وتستقطب معظم الاهتمام.

مثل هذا الجو كان لا بدّ من أن يعكس تأثيره علينا، نحن الصغار. والواقع أنه لم يلبث أن أثّر على سلوكنا كله. فقد اكتسبت سحنتنا جدية لا تناسب الأعمار الغضة. وشاعت بيننا التعابير التي يستخدمها الكبار مما له صلة بالأحداث الجارية. وتبدلت ألعابنا بعد أن دخلت عليها دمى المسدسات والبنادق وطلقات الفلّين ذات الدويّ الصاخب. وعندما تجدد نشاط فصيل المجاهدين، أنشأنا لأنفسنا فصيلاً من الأولاد، وجعلنا لأعضائه رتباً ووزعنا المسؤوليات. فكان للفصيل قائد ونائب قائد وقادة مجموعات. بل إن المنافسات

الخفيّة التي انعكست في تشكيلات الفصيل المجاهد وجدت أصداء لها في تشكيلات فصيلنا، أيضاً. ولم يكن بين أولاد حمولة سلمان ذلك الولد الذي يقتنع الجميع بجدارته للمركز الأول، فتولى هذا المركز ولد من آل عبد الهادي، على أن يكون نائبه من آل سلمان. هنا، احتدمت المنافسة بين عمي محمد وخالي غالب، ففاز محمد بالموقع الثاني في الفصيل على الرغم من الحيَل التي استخدمها غالب. ووزع الفصيل الذي انضم إليه نظرياً أولاد القرية كلهم إلى مجموعات توزعت عليها شلل الأولاد الكثيرة، وصار لكل مجموعة قائد. والحقيقة أني طمعت في الحصول على قيادة مجموعة غير أني خجلت من أن أندب نفسي لهذه المهمة ولم يرشحني أحد لها، ففاتت الفرصة. ولأننا كنا قد ألفنا شيئاً من السلوك الجمعي المنتظم في المدرسة، فإن فصيلنا بدا من حيث المظهر في حالة لائقة، ولعله كان من هذه الناحية أليق من الفصيل الحقيقي. كان لدينا زي موحد، هو الزي المدرسي، وكنّا، أيضاً، نتقن الاصطفاف والدوران إلى الوراء أو ذات اليمين أو اليسار بحركة واحدة، وفق تعليمات قائدنا الذي يستهدي بما كان يفعله المعلمون في الباحة وفي دروس الرياضة البدنية، وكنّا، وهذا هو الأهم في المقارنة بين حالي الفصيلين، نستجيب لتعليمات القائد أكثر مما يستجيب المجاهدون الذين يأنفون الانضباط لتعليمات قائدهم.

وقد ابتكر فصيل الأولاد لنفسه نشاطات تتعدى العبث الصبياني. فقد كنا ننظم دوريات تطوف حول القرية حتى في الليل لتحميها من احتمالات التسلل الغريب. وكنا نرسل مجموعات تكمن للباص المتجه نحو المستعمرة اليهودية وتقذفه بالحجارة كلما أمكن لنا أن نفلت من رقابة الكبار أو نضمن النجاة من عقوباتهم المتوقعة. بل إننا وصلنا إلى حدّ التجسس على نشاطات الكبار، نرسل من يتابعهم خفية حين يمضون للتدريب في الحقول حتى ينقل لنا حركاتهم فنقلدها، أو نكلف من يتجسس على مجالسهم الخاصة حين تنعقد لتتداول في الشأن العام حتى نتشمم الأخبار فننشغل بتحليل مغزاها، أو نكلف أنفسنا التجول في محيط القرية والبحث عن ألغام نفترض أن العدّو قد زرعها لإيذاء مواطنينا. وإذا تصورت أن نشاطاتنا لم تكن لها فائدة، فأنت مبالغ، فقد كانت تحركاتنا تلهب الحماس في القرية وتنتزع الإعجاب الخفيّ والمعلن وترفع المعنويات إلى الأوج. وكان الخطباء الذين يتكلمون في الاجتماعات العامة لا ينسون أن ينوهوا بمواقف الصغار. وكنا نحن نطرب لهذا التنويه. وقد صارت عبارة "الصغار قبل الكبار في الدفاع عن الوطن" التي يرددها الخطباء بمثابة شعار عام لفصيلنا اليقظ.

مثل هذه التحولات والاستعدادات كانت تجري في كل القرى والمدن الفلسطينية، ثم أصبحت هي السمة الغالبة منذ أعلنت الحكومة البريطانية أنها ستنهي انتدابها على

البلاد وتسحب جيشها منها، ما يعني أن التطاحن بين العرب واليهود هو الذي سيقرر مصير الوطن. هذا لا يعني أن نشاطات الحياة الأخرى توقفت أو قلّ شأنها. فقد استمرت هذه النشاطات، خصوصاً في منطقتنا حيث التواجد اليهودي ضئيل، وإن تكن النشاطات الجديدة قد طبعت الحياة التقليدية بطابعها. فعمليات الحرث والبذار، ثم الحصاد فيما بعد، انتظمت في أوقاتها، غير أن الفلاحين صاروا يذهبون إلى الحقول مسلحين أو برفقة مسلحين يقومون بمهمة الحراسة.

كنّا مستغرقين في الجوّ الجديد، وما كنّا نعرف أن طفولتنا قد غاضت إلى الأبد. ولقد صنعت تلك الأيام بداية اهتمامنا بالحياة العامة والتعود على الانخراط في المخاطر، ثم لم يفارقنا هذا الاهتمام بعد ذلك.

على الجانب الآخر، اتصلت النشاطات على نحو أحكم تنظيماً وأشدّ فعالية بما ينسجم مع درجة التطور العالية المتحققة على هذا الجانب والإمكانات الوفيرة المتيسرة له. أدرك الصهيونيون بعد مضيّ ثلاثين سنة على الانتداب البريطاني على فلسطين، وعجزهم عن تحقيق السيطرة على البلاد في ظله، أن الحلم التوراتي اليهودي الغامض بأرض الميعاد غير قادر على اجتذاب ما يكفي من اليهود لتشكيل أغلبية في البلاد. لقد استخدم الصهيونيون هذا الحلم ليزيّنوا به مشروعهم الاستعماري الاستيطاني، وتفننوا في استخدامه، غير أن تأثيرهم بقي محدوداً أمام صلادة الواقع الذي يؤكد أن فلسطين بقيت بالرغم من كل شيء عربية الطابع، ولم يرتق وضع اليهود فيها حتى ذلك الوقت إلى ما هو أفضل من وضع أقلية غريبة المنبت معادية لأهل البلاد. وأدرك الصهيونيون، أيضاً، أن مساعيهم لامتلاك أرض فلسطين والجهود الطائلة التي بذلوها في هذا المجال، والأموال التي أنفقوها، والقوانين التي وضعتها سلطات الانتداب لخدمتهم، لم تمكنهم من الاحتياز على نسبة كبيرة من أرض فلسطين. وإذا استثنينا قطع الأرض التي نقلتها سلطات الانتداب إلى حوزة الصهيونيين من أملاك الدولة والقليل من الإقطاعيات التي اشتريت من مالكين غير فلسطينيين، فإن ملكية الجانب اليهودي للأرض لم تزد كثيراً على ما كان يملكه اليهود قبل الانتداب. والحصيلة أن كل ما كان قد انتقل إلى حوزة اليهود من أرض لم يزد على النسبة التي تعرفها والتي هي سبعة بالمائة من مساحة البلاد. على النقيض من ذلك، كانت الحال لصالح اليهود حين يتعلق الأمر بالصناعة والتجارة والعمليات المالية. هنا، أسعفت الظروف الصهيونيين، تماماً، وتحقق لهم التفوق الكاسح في ظل القوانين التي أباحت للأموال الوافدة أوسع فرص الاستثمار، وهيأت كل فرص التطور للصناعة والاستثمارات اليهودية، وحجبت ذلك كله عن نظيرها العربي وضيقت عليه.

مع هذه التطورات، المواتي منها للصهيونيين وغير المواتي، رأى هؤلاء أن وعي الجمهور الفلسطيني العربي على المخاطر التي تتهدد بلاده آخذ في النمو، وأن الحركة الوطنية الفلسطينية آخذة في التصلب، والدعوة إلى المقاومة متزايدة الاتساع والشدّة، وأن كثيرين من المواطنين في الريف وفي المدن مستعدون لتلبية هذه الدعوة مع أوفر الاستعداد للتضحية. كما رأى الصهيونيون أن البلاد العربية المحيطة بفلسطين والقريبة منها قد ظفرت بشيء من الاستقلال، قليل أو كثير، وأجْلت، أو أصبحت على وشك أن تجلي، جيوش البريطانيين والفرنسيين التي تحتلّها. ولمس كل من يعنيهم الأمر لمس اليد أن الجمهور في هذه البلاد يضغط على حكوماته ضغطاً شديداً كي تدعم عرب فلسطين، ويتخذ المبادرات هنا وهناك مستبقاً مواقف حكامه.

وإذا كانت بريطانيا قد أعطت للمشروع الصهيوني انطلاقته الكبرى في ظروف الحرب العالمية الأولى، ثم رعت هذه الانطلاق ومهدت الأرض لنموها طيلة مدة احتلالها لفلسطين، فإن هذه البريطانيا صارت في وضع حرج بعد الحرب العالمية الثانية، ولم يعد بإمكانها أن تستمر في التصرف في المنطقة بما هي قوة وحيدة أو أن تتجاهل مصالح الشعوب العربية والتبدلات الواقعية التي طرأت على الوضع العالمي برمته. وهكذا، وجدت بريطانيا نفسها في مواجهة حادة مع العرب، فيما هي عاجزة، أيضاً، عن المضيّ في تأييد المطامع الصهيونية إلى نهايتها. وحين آثرت بريطانيا الانسحاب، تحت شعار إلغاء الانتداب وإحالة الموضوع الفلسطيني إلى الأمم المتحدة، أدركت القيادة الصهيونية والموالون لها أن زوال المظلة البريطانية التي حمت المشروع الصهيوني حتى ذلك الوقت سوف يبقيهم عراة في مواجهة أهل فلسطين والبلدان العربية المحيطة بها. صحيح أن بعض الفرق الصهيونية المتطرفة المتأثرة، أساساً، بالأفكار الفاشية كانت ترفع شعار العمل ضد بريطانيا وتدعو لمقاومتها وإرغامها على الجلاء وتقوم ببعض النشاطات في هذا الاتجاه، غير أن القوى الرئيسة في الحركة الصهيونية قدّرت بصورة صحيحة معنى الحماية البريطانية لمشروعها الاستيطاني، فاستفادت من هذه الحماية لتوطيد الكيان اليهودي في البلاد، وضغطت على المتطرفين الصهيونيين كي يوقفوا نشاطاتهم ضد البريطانيين التي هي في الواقع محدودة. وقد توفرت للصهيونيين، بالإضافة إلى الحماية البريطانية ذات التأثير الحاسم وفي ظل هذه الحماية، إمكانات لا يجوز أن تضاهى بها الإمكانات القليلة التي بيد العرب. ففرص التمويل الوافد من مصادره الأوروبية والأمريكية كادت تكون بغير حدود، والأقنية التي تصب الأموال كانت مفتوحة على آخرها، والمهاجرون اليهود من ذوي الكفاءات المتطورة الذين حصلوا على خبراتهم في أرقى دول الغرب، في جامعاتها ومصانعها ومؤسساتها المتعددة، وفروا للكيان اليهودي مساندة لا تقدر بثمن، وكذلك

الأسلحة التي تحملها السفن وتدخل البلاد بطرق متعددة، مشروعة وغير مشروعة، وتجد طريقها إلى المستوطنات اليهودية، والمدربون العسكريون الذين تخرجوا من مدرستي الحربين العالميتين الأولى والثانية وخبروا فنون القتال على جبهات هاتين الحربين كلها، كل هذا وفرّ للكيان اليهودي فرص تنظيم نفسه على أسس متطورة، في مقابل أشكال التنظيم المتخلفة المتاحة لأهل البلاد.

فلما انتهت الحرب العالمية الثانية وتعرض مركز بريطانيا العالمي، وكذلك وضعها في البلاد، للحرج، وقررت الانسحاب من فلسطين، اتخذت القيادة الصهيونية المبادرة لإقامة دولتها الموعودة قبل أن تغيب الفرص التي يوفرها الوجود البريطاني. وكانت إقامة هذه الدولة بالمفهوم الصهيوني وبالتطابق مع المطامع الصهيونية تعني إلغاء وجود أهل البلاد في بلدهم، وهذا يعني حملهم على الرحيل. بالتي هي أحسن أو بالتي هي أسوأ اتخذ القرار، إذن، وترتب على المسلحين الصهيونيين أن ينشروا الرعب في البلاد كي يحملوا أهلها على الرحيل، أو أن يبيدوا من يتشبث بالبقاء.

هنا، استفادت الصهيونية من العطف العالمي الهائل الذي حظي به اليهود إبّان الحرب العالمية الثانية بسبب الجرائم النازية التي استهدفت المجتمعات اليهودية في البلاد التي سيطر النازيون عليها، كما استفادت، بالطبع، من الاهتمام العالمي الواسع بتوفير ملجأ آمن للضحايا اليهود. ونُظمت حملة دعائية هائلة، هي الأوسع من نوعها إن لم تكن، أيضاً، الأغرب. وصوّر الأمر للرأي العام في الغرب كأن الضحايا اليهود كانوا الضحايا الوحيدين الذين استهدفهم النازيون، وكأن فلسطين هي المكان الوحيد الذي يمكن أن يتجه إليه الباحثون عن الأمان. وفي ضجيج هذه الحملة، غُيّب المنطق، فتمّ تجاهل وجود شعب فلسطين وحقوقه تجاهلاً كاملاً، وجرى التعتيم على رغبات اليهود أنفسهم ممن كانت تجتذبهم بلاد أخرى ولا يريدون الذهاب لفلسطين. وطمس السؤال البسيط: إذا كان الإرهاب النازي قد أبعد أعداداً من اليهود عن بلادهم، فلماذا لا يعود هؤلاء المبعدون إلى هذه البلاد بعد أن تم القضاء على النازية؟ لقد هاجرت عشرات ملايين المواطنين من المناطق التي استولى النازيون عليها في أوروبا، ثم عاد المهاجرون إلى مواطنهم الأصلية بعد اندحار النازية، فلماذا لا يعود إليها المهاجرون اليهود أيضاً؟ إنها الرغبة الصهيونية في التعجيل بإقامة الدولة اليهودية في فلسطين قبل فوات الأوان، وهو التأييد الغربي المجلل بمصالح الغرب في بلاد العرب.

لقد محضت دول الغرب الاستعماري تأييدها للصهيونية، ليس حباً باليهود، ولا استجابة منها لحاجاتهم الحقيقية أو المزعومة، بل سعياً منها لحماية مصالحها في المنطقة التي

يموج باطن أرضها وظاهره بالثروات الجاهزة وفرص الإثراء. وقدمت هذه الدول دعمها للمشروع الصهيوني آملة في أن تصبح الدولة اليهودية، وهي المحتاجة أبداً لحماية الغرب ودعمه، قاعدة لمصالح الغرب. ولم تأبه الدول الغربية بحقيقة أن دولة كهذه لا يمكن أن تقوم إلا على ركام من جثث اليهود والعرب وأن قيامها يعني إحاطة اليهود ببحر من العداء العربي، أي نقل سكان الجيتوات الصغيرة المتفرقة إلى غيتو كبير واحد لا يمكن حمايته إلا بمزيد من دم سكانه ودم مقاوميهم. وهكذا، توجب على أهل فلسطين العرب وجيرانهم من اليهود الذين عاشوا بينهم بأمان قبل المشروع الصهيوني أن يدفعوا استقرارهم ومصادر رزقهم وأرواحهم ذاتها وقوداً لمطامع استعمارية تواطأ على تحقيقها من لا يقيمون وزناً حقيقياً لمصائر البشر.

هذه حقائق سنعيها فيما بعد. أما في ذلك الوقت فكنّا نعاين بعض تجلياتها كما تنعكس في الواقع الذي نعيشه، وترشح إلى عقولنا الغضة مما يمكن أن تستوعبه هذه العقول من المناقشات الدائرة حول هذه الحقائق ودلالاتها. توتر الجوّ على الجانبين. وكان قرار اغتصاب وطن الفلسطينيين قد اتخذ على الجانب الآخر مع الرغبة في التعجيل بتنفيذه قبل ضياع الفرصة. وأحس الفلسطينيون بدرجة أو بأخرى بأنهم أمام منعطف حاسم، وتسممت الأجواء في طول البلاد وعرضها، وأخذ كل طرف يحضّر استعداداته للقتال ضمن إمكاناته.

هذا الجو المسموم أدى إلى قطع الصلات العادية التي كانت قائمة بين الجانبين، ولم يتح للجانب العربي أن يراقب كل ما يجري على الجانب الآخر. غير أن شيئاً مما كان يجري ظهر للعيان. وقد تيسر لنا، نحن المنتظمين في فصيل الأولاد في المسمية الصغيرة، أن نشهد بعضه. فقد أمكن أن نرى أن باص المستعمرة صار يمر من جانب قريتنا وهو يحمل إلى جانب الركاب العاديين مسلحين يتولون الحراسة في الذهاب والإياب، وأن نلحظ الوجوه المتصلبة والعيون التي ترش نظرات الحذر والخشية على جانبي الطريق. كما أمكن أن نرى، أيضاً، قوافل السيارات اليهودية متعددة الحجوم والموديلات وهي تتجه إلى المستعمرة أو تعود منها، محروسة بالمصفحات البريطانية التي تحمل رشاشات ومدافع يقوم خلفها جنود بريطانيون جاهزون لإطلاق النار عند أول نذير. ولاحظنا التبدل الذي طرأ على موقف ركاب السيارات وحراسها البريطانيين منا. ففي الأيام التي لم يكن الحذر فيها هو سيد الموقف، اعتاد بعض الركاب أن يوجه لنا نظرة مرحة أو ابتسامة حين يرانا واقفين على الطريق، كما اعتاد بعض الجنود أن يلقي شيئاً ما لأبناء الفلاحين، قطعة شوكلاته، أو علكة، أو شطيرة من الخبز الأبيض، أو حتى علبة من علب السردين أو اللحم المحفوظ. أما في جوّ الحذر فلم يعد أحد يلقي نحونا إلا تلك النظرات التي تراقب أيدينا خشية أن تتحرك لرمي حجر.

وكنّا، ونحن نمارس نشاطاتنا المستجدة فنمضي إلى الحقول لنقلد تدريبات الكبار، نشاهد جماعات من يهود المستعمرة يجوبون الأرض المحيطة بها ويتدربون على المشي واستخدام السلاح أو يستكشفون المواقع. مشاهدات كهذه كانت تؤجج في نفوسنا الحقد وتضرم فينا الرغبة في مهاجمة هذه الجماعات وإفساد ترتيباتها. وقد ربينا، نحن الصغار، على ما ربّي عليه أهلنا الكبار من استخفاف بقوة اليهود. وقرّ في أذهاننا أن هؤلاء الذين شاع وصفهم بأولاد الميتة ليسوا أهلاً للحرب، ولولا وجود البريطانيين في البلاد وجيشهم القوي لما صار لليهود فيها شيء يذكر ولما جرؤوا على تحدي أهلها. وكنّا، كأهلنا، نترقب اليوم الذي سينسحب فيه البريطانيون فتصبح أيدي العرب طليقة لحسم الأمر مع هؤلاء الدخلاء الذين تطاولوا على أصحاب البلاد وأباحوا لأنفسهم أن يعبثوا بقيمهم ومقدساتهم.

كان الجانب العربي يستهين في قرارة نفسه وفي ظاهرها بالجانب اليهودي. وقد آمن فلاحونا بأن الربّ فرض على اليهود كما جاء في القرآن "الذلّة والمسكنة"، منذ خانوا عهده وخالفوا أنبياءه، وأنّ الذل سيرافقهم حتى قيام الساعة. وشاعت بين الناس، خصوصاً منهم أولئك الأقل انخراطاً في نشاطات المقاومة العملية، كل الأساطير التي ترجع أصولها إلى الكتب والموروثات الشفهية القديمة حول مصير اليهود بعد أن حلت بهم لعنة الرب حين عادوا إلى الوثنية بدل أن ينتظروا كلمات الربّ التي ذهب موسى ليستمع إليها. وكانت المجالس التي تبحث عن تعزيةٍ إزاء الخطر الكبير الحالِّ بالناس تتداول الأسطورة التي تظهر أن الربّ كتب على اليهود أن يتجمعوا في فلسطين ليكونوا في مكان واحد عندما يأذن الربّ للمسلمين بقتال اليهود فيتحقق الانتصار الحاسم عليهم. وقد أعيد الاعتبار لهذه الأسطورة عندما أعلنت دول الجامعة العربية أنها ستتدخل عسكرياً لحماية عرب فلسطين فور خروج بريطانيا من البلاد. وما يزال حديث جدّي عبد المجيد حاضراً في ذهني عندما أذاع الراديو نبأ القرار الذي اتخذه مجلس الجامعة العربية بهذا الصدد، فقد كان الجدّ يروي لمستمعيه حديثاً منسوباً إلى النبي محمد، فيه أن الساعة لن تقوم حتى يتحارب المسلمون واليهود، فيختبئ اليهودي وراء حجر أو شجرة، فينطق الحجر وتنطق الشجرة: يا مسلم، ورائي يهودي، تعال فاقتله! لقد وظف الإحساس القاهر بالظلم الطبيعة ذاتها في معركة المصير.

وفي يومٍ كنّا قد توغلنا فيه عبر الحقول أكثر من المألوف، صادفنا جماعة من شباب المستعمرة وشاباتها يسيرون خلف راية واحدة ويلبسون زياً موحداً من القمصان والبناطيل القصيرة الخاكية، وأمامهم آمر يوجه خطاهم في مشية منتظمة كمشية الجنود، وهم يحملون بنادق جديدة لمّاعة. اجتذبنا المشهد، فكمنّا في مخبأ ملائم، واتخذنا وضع

المراقبين. وسار أفراد الجماعة وداروا عدة مرات في الأرض التي نطلّ عليها، ثم قال آمرهم شيئاً بلغتهم، فتوقفوا، ثم لم يلبث أن نصبت صفائح من الورق المقوى المؤطر بالخشب وعليها علامات دائرية وأخرى مربعة، كما لم يلبث أن انبطح أفراد الجماعة على الأرض بمواجهة هذه الصفائح وراحوا يتناوبون إطلاق النار بتوجيه من الآمر. عندها، لم نقدر على ضبط مشاعرنا المتأججة، فوجدنا أنفسنا ننهض ونشرع بقذف الجماعة بالحجارة، وبدا أن مسلكنا فاجأهم، تماماً، فقد اضطرب جمعهم ونشأ بينهم جدل لم نتبين، بالطبع، دلالاته، وإن أدركنا أنهم يتناقشون حول ما ينبغي عمله إزاء مسلكنا. والحقيقة أن ردود فعل أفراد الجماعة تنوعت، فمنهم من حمى رأسه بيديه وراح يضحك غير عابئ بهذه القذائف، ومنهم من رمانا بما لا نفهمه من شتائم أو وجّه نحونا إشارات تحمل معنى الشتيمة، ومنهم من بقي منبطحاً غير عابئ، لا بحجارتنا ولا بنا، وواصل إطلاق النار. واحد من أفراد الجماعة، واحد فقط، اشتطّ في ردّ فعله، فغادر سربه جارياً نحونا في حركة متحدية، ما جعله هدفاً لمعظم الحجارة التي نقذفها. وقد أمتعنا وهيج حماسنا أن نرى هذا الفتى مرتبكاً وهو محاصر بالحجارة المتساقطة حوله. لكن متعتنا لم تدم طويلاً، إذ إن الشاب كمنَ وراء نبتة بريّة، ثم أشرع بندقيته، وأطلق رصاصها نحونا. وانطلق الرصاص في الوقت ذاته من بنادق أخرى، فاضطرب جمعنا نحن هذه المرة، ولم نجد متسعاً حتى للتشاور، فجرينا متراجعين ناحية القرية بأقصى ما أسعفتنا به أقدامنا من قوة.

وكنّا قد اقتربنا من القرية، حين لقيتنا جماعة مسلحة من شبانها، معهم خالي عمر ببندقيته الشهيرة ومسدسه المحزوم على وسطه. كنّا ما نزال مروّعين حين توجب علينا أن نجيب عن الاستفسارات المنهالة علينا. وبعد أخذ ورد، أُمرنا بالعودة إلى القرية والتزام الدور، فيما واصلت جماعة الشبّان طريقها بنية البحث عن المسلحين الصهيونيين الذين أطلقوا علينا النار.

كانت تلك حادثة أثارت اهتمام القرية كلها. واجتمع الوجهاء في المضافة عند جدّي سلمان وراحوا يتداولون في الأمر. وعندما عادت جماعة الشبان، انضمت إلى الاجتماع. وقد اتضح أن مسلحينا بحثوا عن العدو في المكان الذي وصفناه لهم فلم يجدوه فيه، كما لم يجدوه في أي مكان قريب.

في ذلك اليوم، استقبلت المضافة قبيل الغروب زائراً غير متوقع، إنه الطبيب اليهودي الذي رأيته، مرة، في دار زوج والدتي وهو يفحصها بحضور زوجها، وكان اسمه قد استقر في ذهني لغرابته: الدكتور مناحيم. جاء الرجل وحده، حملته فرسه العربية الأصيلة ودخل القرية غير هيّاب واتجه رأساً إلى المضافة. هناك، طلب الدكتور مناحيم الاختلاء بجدّي

سلمان، فغاب معه الجدّ في إحدى حجرات الدار، ثم عاد إلى المضافة وحده بعد أن ودع زائره عند باب الدار وأعطى إشارة للمتحلقين حولها كي يحسنوا وداعه. وأبلغ الجدّ إلى الحشد الذي اكتظت به المضافة: "سليمة هذه المرة، جعل الله العواقب خيراً". ثم أمرنا نحن الصغار بإخلاء المجلس. وعندما جئت إلى جدي بعد انصراف الزوار لأحييه تحية المساء، احتضنني الرجل المهموم، ثم أوقفني إزاءه ونظر إليّ نظرة مديدة، وقال: "ما عملتموه ليس فيه فائدة".

في غضون ذلك، كان الراديو ينقل إلى المستمعين طنين الحماس الذي يلتهب في الدول العربية. وكان مذيعون ذوو أصوات مجلجلة يؤكدون لفلاحينا أن دول العرب على أتم الاستعداد لتصفية الحساب مع حفنات اليهود، وأن فلسطين لن تكون إلا لأصحابها، أما الغزاة فمآلهم إلى البحر الذي جاءوا منه. وكانت الأنباء المطمئنة التي يذيعها الراديو تقترن بأسماء لها مهابتها، فالذين يقدمون لأهل فلسطين التعهدات القاطعة هم أصحاب جلالة أو فخامة أو سمو أو رفعة أو معالٍ أو سعادة، وليس أقلّ من ذلك. ولذا، لم يكن الفلاحون يبتلعون هذه الأقوال ويطمئنون إليها فحسب، بل كانوا يستقوون بها، أيضاً، ويتعزون بها عن ضعف إمكاناتهم وقصور ذات أيديهم أمام الواقع القاهر الذي يعيشون فيه، ويعتقدون اعتقاداً جازماً أن وجود الغزاة في بلدهم لن يعمر طويلاً بعد أن تزحف جيوش العرب لإنقاذهم منهم. كان حال فلاحينا كحال الأرض العطشى، تنهال عليهم التطمينات التي يفتقرون إليها في قرارة نفوسهم، فيتشربونها بنهم كما تتشرب الأرض الجافة قطرات الماء، ويهدهدون قلقهم المزمن على المصير، ويواعدون أنفسهم بيوم قريب يتحقق فيه النصر وينتصب ميزان العدالة فتبقى لهم مصادر رزقهم ويتوفر الأمان.

الاستهانة بالجانب اليهودي والاستقواء بالجانب العربي كانا، إذن، يوفران هذا الاطمئنان على المستقبل. إلا أن فلاحينا ما كانوا مطمئنين إلى كفاية ما بحوزتهم، هم، من سلاح، خصوصاً لأنهم يعرفون أن عليهم مقاومة المسلحين الصهيونيين، وحدهم، إلى أن تتمكن جيوش الدول العربية من الدخول إلى البلاد. كان السلاح قليلاً ومعظم المتوفر منه عتيقاً والذخيرة أندر من مطر الصيف. وصار الحصول على السلاح والذخيرة هو الهاجس الذي يشغل بال الجميع. وقد قفز التوتر بأسعار الأسلحة إلى أرقام فوق متناول الميسورين من الفلاحين، فضلاً عن المعسرين، وسعر البندقية الواحدة فاق كلفة الحج إلى مكة. ولم تكن العلاقة مع القيادة التي يعيش معظم أفرادها متوارين عن الأنظار بسبب ملاحقة السلطات لهم أو خارج البلاد متصلة أو منتظمة، ولا كان في حوزة هذه القيادة السلاح الكافي لتنظيم دفاع فعال في كل المناطق. كان رسل من هذه القيادة يترددون على قيادة الفصيل بين وقت وآخر ويبشرون بقرب مجيء السلاح، إلاّ أن السلاح لا يجيء. لقد كسا هاجس السلاح أحاديث المضافة والمصاطب بطابع اليأس.

ووجد بين رجال القرية قليلون شككوا بصدق الوعود أو بإمكانية تنفيذها، وحثوا الناس على المبادرة إلى تدبير السلاح بأنفسهم. وكان معنى هذه المبادرة أن يبيع الفلاح شيئاً مما في حوزته، بعد أن عزّ الدائنون في ظروف الاضطراب تلك، وأخفى حتى المرابون دفاترهم. وهكذا، تذرعت أغلبية الناس بالصبر في انتظار إنفاذ الوعود، فما في الحوزة قليل، وهو إلى هذا ضروري وعزيز بحيث يصعب الاستغناء عنه.

وذات يوم، وصل إلى المسمية الصغيرة عسكريان بريطانيان، شاويش وجندي، حملتهما سيارة جيب أثار وصولها دهشة أهل القرية، وحملهم على التجمع حول الوافدين. وبعربية ركيكة، سأل الجنديان: أين مستر حوراني؟ وأنت تعرف أن من شأن سؤال كهذا أن يكون في قريتنا مضحكاً، فالناس لا يتداعون بأسمائهم العائلية، ثم إنهم، جميعاً، في القرية، يحملون الاسم العائلي ذاته. وبعد أخذ وعطاء طويلين، فهم المتحلقون حول الجنديين، وكنت بينهم، أن البريطانيين يسألان عن خالي نافذ بالذات، ويريدانه لشأن لا يستطيعان الإفصاح عنه.

لقد تبين أن خالي نافذ، هو الذي يتكلم الإنجليزية بإتقان، قد تمكن من تحقيق اتصال مع هذين العسكريين اللذين يوشكان أن يغادرا البلاد مع وحدتهما، وعرض عليهما أن يبيعا القرية ما يستطيعان سرقته من معسكرهما من السلاح والذخيرة. فعل خالي نافذ، هذا، على ما يبدو، بمبادرة منه قبل أن يستشير أحداً ودون أن يركن إلى احتمال استجابة العسكريين. وها هما في القرية وقد جاءا للمساومة التي لم يتهيأ لها الخال تماماً ولم يهيىء ما يلزم لإتمامها. وقد جلس الخال مع زائريه على مصطبة أمام الدار الكبيرة، فيما تحلق فضوليون كثيرون حول المصطبة وراحوا يتابعون الحديث الطويل الدائر بالإنجليزية بدهشة وبغير فهم، ويرددون عبارات الثناء على فتى القرية الذي يتقن رطانة الحاكمين. فلما انصرف الزائران، جاء الخال وأبوه إلى المضافة واختليا بجدّي سلمان. ثم انعقدت جلسة ضمت وجهاء القرية الآخرين، وطال السهر وامتدّ الحديث. وبعد أيام، ظهرت على كتف خالي عمر بندقية إنجليزية جديدة وجنادان من الذخيرة النحاسية البرّاقة، وتزين وسط خالي نافذ بمسدس محمول على زنّار انشكّت فيه الطلقات، وضمّت الدار الكبيرة رشاشاً لم نره بل سمعنا باسمه"برن"، فقد ملأ الحديث عنه القرية وأشاع فيها الاعتزاز بالسلاح الفعال.

وجود هذا السلاح النادر شدّد عزائم المطالبين بالمبادرة إلى شراء السلاح وأطلق ألسنتهم في حملة جديدة لحثّ المترددين وحملهم على المبادرة. ويبدو أن خالي نافذ تطوع بالقيام بمساعٍ جديدة، غير أن مساعيه لم تأت بنتيجة.

وقد فاجأ الجميع انضمام العم محمود، قارئ الجريدة غير الفصيح، إلى الراغبين في اقتناء بندقية. والواقع أن رغبة العم تحولت إلى لهفة طاغية منذ حمل ابنا أخيه السلاح. وشهدت العيون المدققة خلوات متواترة بين نافذ والعم وغيبات نافذ خارج القرية بعد كل خلوة وعودته إليها دون أن تشي نظرته بما يدل على أن العم سيظفر بطلبه. وفي النهاية، غاب العم نفسه عن القرية يوماً وليلة، ثم عاد وقد شكّ في خرج دابته بندقية. كانت هذه البندقية من النوع العتيق، إلا أنها دُهنت للتو فبدت في حالة حسنة. يومها، جلس العم أمام دكانه والبندقية منتصبة بين يديه وهو يوزع نظرات الفخار على زواره بالتساوي ويستمع إلى أخبار الجريدة التي يقرأها ابن أخيه دون أن تستغرقه كثيراً. غير أن فخار العم الذي أطال السهر تلك الليلة أكثر من المألوف لم يقدر له أن يستمر طويلاً. ففي اليوم التالي، انتقى العم جماعة من أصحابه وصحبهم إلى ظاهر القرية كي يجرب بندقيته أمامهم. وقد انضمّ إلى هؤلاء جمع كبير حمله الفضول على المجيء بغير دعوة. وما كان لنا، نحن الأولاد، أن نفوت فرصة كهذه دون أن نكون من شهودها. وقد انبطح العم عند حافة الوادي متخذاً وضع الرامي المتمرس، وسدد فوهة البندقية نحو صخرة تنتصب وراء الحافة الأخرى. وتفرّس العم في الهدف طويلاً، ثم ضغط على الزناد، فلم يخرج الدويّ المرتقب. كرر العم المحاولة مرة، وأخرى، ومرات، ولا دويّ في الأفق سوى دويّ الضحكات التي أخذت تتعالى من حوله. وظل حرج العم إزاء الحاضرين يزداد بعد كل محاولة. وعرض أحدهم، ممن يُعدُّ خبيراً في البنادق، المساعدة على العم، وكابر العم في البداية، بل حاول أن يكتشف الخلل بنفسه، إلا أن عناده لان في النهاية، فأعطى البندقية للخبير.

اتضح أن الطلقات ليست من مقاس البندقية. فتطوع من ذهب إلى القرية وجلب طلقات من المقاس الملائم. وبحذر شديد، ضغط العم على الزناد فخرج الدويّ الأخاذ. ونسي العم وقاره فأخذ يرقص من الفرح. وكرر العم الإطلاق مرة ثانية وثالثة مأخوذاً بوقع الصوت، غير عابئ بما إذا كان الرصاص قد أصاب الهدف أو أخطأه. وفي المرة الرابعة، لم يسمع العم سوى الصمت المريب، فاهتاج من جديد وأعطى البندقية بنفسه للرجل الخبير متلهفاً لمعرفة سبب العطل. كانت إبرة البندقية قد انكسرت وانتهى أمرها، بهذا أفتى الرجل وهو يوجه إلى العم نظرات تحمل معنى المشاركة في الأسى، لكنها لا تترك بارقة لأي أمل. لحظتها، بلغ هياج العم محمود ذروته، فاختطف البندقية من يد الخبير، وراح يخبط حاملها الخشبي على الحجارة بقصد تحطيمها. فأثارت حركة العم جزع المتحلقين حوله وتراكض الناس مبتعدين عنه، إذ خشوا أن يطلق الشيطان البندقية في وجوههم، إلا ذلك الخبير الذي احتفظ وحده بهدوئه. وكرر العم الخبطات دون أن تنكسر

البندقية، فتوقف فجأة وجال بنظره هنا وهناك متأملاً الناس الذين عادوا للاقتراب منه، وصرخ بصوت يحشرجه الحنق: "أُعطي دكاني كله لمن يجيئني ببندقية جديدة".

بعد هذه التجربة، استولى عليّ التوق لإطلاق بندقية بنفسي. أدركت، بالطبع، أن من الصعب توفير هذه الفرصة لطفل. لكن هذا التوق شغلني بحيث صرفني عن النوم. وحين سألتني راعيتي عن سرّ سهادي، بحتُ لها بالأمر، فقطبت جبينها مغضبة ونهتني عن التفكير به: "لم يبق غير هذا، بعد كل شيطناتك". غير أن النهي لم يردعني. وفي الصباح، غادرت الدار عازماً عزماً أكيداً على البحث عن خالي عمر. وبين يدي الخال الجادّ، بسطت رجائي وشفعته بالتوسل الشديد. لكن الخال لم يستجب للرجاء ولم ترقق قلبه التوسلات الحارة. وكان من رأي الخال أن التعامل مع البندقية ليس عبث أولاد حتى يأذن لي به. ورحت إلى الخال الآخر. وكان نافذ يحبني حباً شديداً لا يخفيه، ويحرص على تلبية رغباتي. وتوسط نافذ لدى شقيقه، بل لعله تواطأ معه على أمرٍ كي لا يخيّب أملي فيه. وأبدى الخال عمر بعض اللّين فأمسك هو البندقية بيديه، ووجه فوهتها إلى أعلى، متيحاً لي فرصة الضغط على زنادها. كانت تجربة لا أنساها، فلم يتح لي أن أستمتع بالمحاولة اليتيمة، إذ إن الخبطة الشديدة التي تلقيتها من كعب البندقية المرتد على بطني أفسدت متعتي المتوقعة، وأسالت دموعي. على الرغم من هذا، فقد صار لديّ ما أفاخر به الأقران، إذ إني الوحيد من بينهم الذي أطلق النار من سلاح حقيقي، وهو، إلى هذا، سلاح جديد.

-١٦-

الأحداث تضطرم فيما تستمر المشاغل الأخرى

ألقى التوتر العام المتزايد تأثيراته الحادة على حيوات الناس في المسمية الصغيرة، حتى جلل النشاطات كلها، وذلك مع بقاء مجرى الحياة العادية في مفاصلة الرئيسة على حاله. وتوقع الناس موسم حصاد حافلاً وأملوا في أن يحلّ مبكراً بتأثير طقس لم يسبق لحرارته مثيل. بل إن من الناس من باشر بإعداد الفريكة منذ أوائل نيسان/ إبريل. وقدم التجار والمرابون إلى القرية منذ ذلك الوقت، فهؤلاء الذين تأكدوا من أن البريطانيين راحلون لا محالة شاءوا أن يسووا حساباتهم مع الفلاحين قبل الرحيل، أي قبل حلول الموسم. وقد جاء هؤلاء حاملين دفاترهم والصكوك التي بحوزتهم، واختلف سلوكهم هذه المرة، فقد أبدوا استعدادهم للقبول بأي شيء، وراحوا يحثّون مدينيهم على التمسك بقواعد الأخلاق والوفاء بالأمانات. أما رجال الحكومة، فقد خفت زياراتهم للقرية منذ بدأ البريطانيون بالرحيل. ثم انقطعت زيارات هؤلاء، تماماً، بعد أن لقي جمعة "المصيبة" حتفه على أحد الدروب المفضية إلى المسمية الصغيرة في ظروف لم يتمكن أحد من الكشف عنها. والحقيقة أن مصرع رجل البوليس الذي سبق أن أذلّ القرية كان الإشارة الأبلغ دلالة على أن دولة البوليس البريطاني زالت وانتهى أمرها.

اخترق طلق ناري أطلق من بعيد رأس "المصيبة". فيما كان، على ما يبدو، قادماً إلى القرية، ثم عثر مشاة عابرون على جثته متفسخة بعد أيام، وفرح أهل القرية إذ تخلصوا منه، واستولى الخوف على رجال الحكومة فانقطعوا عن زيارة القرية.

في تلك الفترة، كثرت غيابات الوجهاء والمجاهدين المرموقين عن القرية، فكان منهم من يذهب إلى الرملة، شمالاً، أو المجدل، جنوباً، أو القدس، شرقاً. وكان مفهوماً أن هذه الزيارات تتم لإجراء الاتصالات مع القيادة ومع مراكز المجاهدين الآخرين. وأصبحت الاتصالات بين مجاهدي المسميتين يومية. وكان قائد الفصيل المشترك عبد الله مهنا "أبو جهاد" كثيراً ما يظهر في المسمية الصغيرة على حصانه وقد انتصبت البندقية التي لا تفارقه على كتفه وتدلى المنظار الميداني على صدره، وتوشح جنباه ووسطه بأجندة الطلقات.

وتحت وطأة الإحساس بالخطر والأحداث الداهمة، تمّت الزيجات المقررة من دون احتفالات. وهكذا، قدّر لعمتي نظيرة أن تتزوج دون عرس. ومع أن جدّي سلمان الحريص على سمعته أصرّ على إعداد وليمة، فقد تمّ الأمر بهدوء. جاءت جماعة من أهل التينة واصطحبت العروس في موكب غاب عنه الغناء والرقص والدبكات، ولم يرافقها من أهلها إلا أمّها والخال محمد يوسف الذي تطوع بتمثيل أقرباء العروس. ولأمر ما، أصرت العمة المتجهة إلى مصيرها الباهت على أن أرافقها في العربة التي أقلتها هي وأمها وأم العريس. وحملت بضع عربات أخرى جهاز العرس، وواكبها خيّالة من التينة. ولما وصل الموكب إلى القرية الأخرى، كان أهلها في الانتظار أمام دار المختار العريس، كما كانت في الانتظار وليمة أخرى، إلا أن كل شيء، هنا، جرى، أيضاً، بهدوء.

هاشم وعطا الأبلهان تأثرا هما الآخران بالجوّ السائد. صار هاشم أكثر صمتاً، بل صار لا يتكلم إلا في حالات نادرة وقلّت سرحاته خارج القرية، فكان يُرى إما جالساً وهو ساهم في أحد عطفات القرية أو متنصتاً قرب المصاطب على مجالس الفلاحين مأخوذاً بالصخب الذي يسودها. وصار عطا، أيضاً، أقل صخباً، وإن لم يصبح هادئاً كهاشم. وقد اجتذبت نشاطات الأولاد الجديدة عطا فأخذ يرافقنا ويقلد ما نقوم به من حركات وقد كسا وجهه بسمات جِدّ أظهرته أقلّ بلاهة مما هو، حتى لقد كدنا ننسى أنه أبله في الأصل.

وأضفى وجود أولاد المدرسة في القرية بزيّهم المميز طابعاً خاصاً على المشهد. فبدت القرية أكثر احتشاداً مما كانت تبدو عادة في أيام قائظة كهذه. ولم يعد الرعيان يوغلون بقطعانهم بعيداً عن القرية، بل صاروا يؤمون المروج أو حنوات الوادي القريبة، ويحرصون على أن يظلوا في موقع النظر، بحيث تمكن نجدتهم بسهولة إذا تعرضوا لأي هجوم طارئ. وأعيد الاعتبار إلى جامع القرية. فأنت تعرف أن هذا الجامع لم يكن يستخدم إلا في أيام الجمعة وقت الصلاة الجامعة، فأصبح مفتوحاً كل الأيام يصلي فيه من يشاء وتعقد حلقات المداولة في الشؤون العامة والاجتماعات التي يدعى إليها الرجال حين يتطلب الأمر إعلامهم بجديد.

بل إن حركة نساء القرية ذاتهن صارت أكثر طلاقة. فبعد أن كانت التقاليد المقيّدة تحدّ من هذه الحركة فتحصرها داخل الدور أو في الغدوات والروحات إلى البئر والحقول أو في الزيارات الضرورية، أطلق الجوّ المستجد حركة النساء. فصار من الممكن رؤية عدد من النساء المتزوجات وهن يجلسن على هامش مجالس الرجال ويصغين إلى ما يدور فيها. كما صار من الممكن، أيضاً، رؤية أسراب من الفتيات متجمعات أمام بوابة دار أو عند منعطف أو في ركن من أركان الساحة أو متجولات في محيط القرية وهن يتبادلن الأحاديث ويرسلن نحو مجالس الرجال نظرات غير هيّابة. وقد تداولت القرية بمشاعر تتوزع بين الاندهاش والتعاطف حكاية امرأة جاءت إلى جدّي سلمان وحاججته في حق المرأة في حمل السلاح والاشتراك في الجهاد. كانت هذه المرأة أرملة استشهد زوجها في ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩، ثم لم تتزوج بعده. وقد احتفظت زوجة الشهيد ببندقيته في مخبأ في الدار. فلما أخرج الناس أسلحتهم المخبوءة، أخرجت هي الأخرى البندقية العزيزة وعلقتها في مكان بارز في دارها، وكانت تتباهى بوجود هذه البندقية في الدار. وفي اليوم الذي وقع فيه الاحتكاك بيننا، نحن الصغار، والمسلحين الصهيونيين، وكان ابن هذه المرأة معنا، جاءت هي إلى جدّي، وحاولت أن تقنعه بأن يأذن لها بالتدرب على السلاح. لم تظفر هذه المرأة بتحقيق رغبتها، غير أن طلبها لم يواجه بالزجر، حتى أن جدّي تعمد، وهو يحاججها، أن يحيي حميتها، حتى وهو يقول لها بحزم إن القرية لا ينقصها الرجال وينصحها بأن تعطي البندقية لِسِلْفِها.

في تلك الفترة، أيضاً، تساهل العم محمود والدكنجي الآخر في القرية، أبو زكري، في تعاملهما مع الفلاحين المدينين لهما، وخص كل منهما الفلاحين الذين اشتروا سلاحاً أو الذين يرغبون في شرائه بمعاملة متميزة. فمن هؤلاء من أُعفي من سداد بعض دينه، ومنهم من دُوِّر دينه كله إلى العام التالي. وتقدم العم محمود الداعين لتوفير المال من أجل الحصول على السلاح، وراح يستقصي بنفسه الوسائل الممكنة.

أعمق التأثير لحق بحال جدّي عبد المجيد. فالتوتر الذي شمل البلاد كلّها منذ إعلان قرار التقسيم عطّل أعمال الجدّ التجارية مع سورية والأردن، فتوقفت سفراته الطويلة إليهما، وصار يقضي معظم أيامه في القرية وينغمس أكثر فأكثر في همومها المستجدّة. غير أن هذا على كثرته ما كان له أن يستوفي الطاقة المتوقعة التي تحرك نشاطات الجدّ على طول البلاد وعرضها. ولا شك في أن الجدّ الذي اعتاد أن يجد جديداً يفعله في كل يوم أخذ يشعر بالضيق، وقد دفعه هذا الوضع إلى ابتكار مشروع جديد أو، بعبارة أدق، إلى أحياء حلم قديم بمشروع سبق أن فكر فيه ولم يجد قبل ذلك الفرصة لتحقيقه. وعلى كثرة ما حاولت، لم يتهيأ لي أن أعرف من أين جاءت جدّي فكرة هذا المشروع، وكلّما سألته عن ذلك، كان يجيب: " جيلكم جيل كسلانين!".

صمم جدي عبد المجيد على إقامة مزرعة نموذجية من أحدث طراز، مزرعة تضم أقساماً للحبوب والخضار والفواكه وتربية البقر والدجاج، ومكائن لطحن الحبوب واستخراج الماء وإعداد الزبدة وتفقيس البيض. ولإتمام المشروع الكبير، كان الجدّ بحاجة إلى رأسمال وقطعة أرض فسيحة تستوعب هذه الأقسام كلها. وما كانت بيد الجدّ أموال سائلة كافية، أما أملاكه من الأرض فكانت موزعة على قطع متفرقة لا تفي أي منها وحدها بالغرض. كما كان الجدّ بحاجة إلى نشاطات متصلة كي يؤمن، خصوصاً في ظروف الاضطراب ومصاعبها، المكائن اللازمة. وفي سعيه لتحقيق هذا كلّه، وجد الجدّ ما يملأ وقته وينشّط حميته. ولو شئت أن أروي لك ما فعله الجدّ في هذه الحالات جميعها لاحتاج الأمر إلى كتابة مجلد مستقل دون أن يستوفيه كله. يكفي، إذن، أن تعرف أن الجدّ اختار لمشروعه الجديد أكبر قطع الأرض التي يملكها، وقرر أن يوسعها بما يحصل عليه من القطع المجاورة بمبادلة هذه القطع بالقطع الأخرى التي يملكها هو. والتمويل حصل عليه الجدّ من باركلز بنك في يافا. استفاد واسع العلاقات من علاقته بواحد من المسؤولين في فرع البنك الشهير في المدينة الفلسطينية، وحصل على قرض وفر له المال اللازم بضمانة أرضه التي استرهنها البنك. وأما المكائن فقد اشترى الجد من السوق ما هو لازم للمرحلة الأولى من مشروعه، أي المحرك اللازم لاستخراج الماء ومطحنة الحبوب الحديثة.

كان الجدّ، وهو الذي صار لديه حتى ذلك الوقت أربعة أولاد من الصبيان، يأمل في أن يجعل أولاده الذكور سبعة، وقد ضمّن مشروعه إقامة بناء من الحجر والإسمنت تشغل المطحنة طابقه الأرضي ويضم، فوق ذلك، سبعة طوابق، ليسكن كل ولد في واحد منها عندما يتزوج في المستقبل. وقد ابتدأت خطوات المشروع الأولى بحفر البئر وأساسات البناء في طرف الأرض الواقعة بين المسميتين. واختار الجد للإشراف على تركيب مكائن البئر والمطحنة مهندساً يهودياً عجوزاً من أصحابه اسمه أبراهام، وكنا نناديه إبراهيم.

وحين أغلقت المدرسة أبوابها، كان الحفر في البئر قد وصل إلى الطبقة الصخرية فلم يبق إلا اختراقها لينبثق الماء، وكان العمل في الطابق الأرضيّ قد تمّ، وابتدأ العمل في تركيب محرك الماء والمطحنة. وقد ألفت أن أمضي وقتاً من النهار بصحبة خالي نافذ في منطقة المشروع. وكان هذا الخال قد صار، عملياً، هو المتعامل الرئيس مع الخبراء والمراجع لدراساتهم واقتراحاتهم. وأتيح لي أن أعرف هذا اليهودي المسنّ ذا الخبرة الطويلة في العمل والحياة والنظرة الثاقبة للأمور، عن قرب شديد. وكان إبراهيم، أو أبراهام، هذا رجلاً وديعاً وأليفاً، حتى لقد انتهيت إلى أن أحببته بالرغم من الحذر الذي قيّد اندفاع عواطفي نحو اليهودي الذي يجيء إلى القرية في ظروف غير مواتية.

كان إبراهيم يقبل على العمل منذ الصباح الباكر، يجيء إلى المشروع على ظهر دابّة وديعة مثله، ويستبدل فور وصوله ملابس الخروج بملابس العمل الزرقاء ويشرع في العمل دون توانٍ. وكان الرجل يُحضر معه طعام غدائه وعلف الدابّة، ويرفض دعوة الجدّ له إلى الطعام مصرّاً في كل مرة على أنه يتقاضى حقّه في الأجر النقدي المدفوع له وأن ليست له حقوق أخرى. وفي الظهيرة، حين ننصرف نحن إلى الطعام الكثير الذي يُحمل إلى المشروع من أجلنا، كان هو يفتح سلته الأنيقة، فيخرج منها شطيرة، تتبدل محتوياتها بين يوم وآخر دون أن يتبدل حجمها الضئيل، وتفاحة أو موزة أو حبّات من العنب أو المشمش المجففين فيأكلها ثم يعود إلى العمل. والضيافة الوحيدة التي كان إبراهيم يقبلها هي فنجان القهوة العربية الذي يتلذذ بشربه كلما حملناه له، ويعلن في كل مرة امتنانه الشديد إذ نخصه به ويشكرنا بعربية طلقة: شكراً كثيراً. وكانت مبالغة المهندس في الشكر تثير استغرابنا نحن الذين اعتدنا أن نقدم القهوة لأي عابر سبيل، حتى لو كان غير معروف. وعدا الوقت القصير الذي يخصصه هذا المهندس لغدائه، كان لا يُرى إلا منهمكاً في العمل، يصنع أشياء بيديه فيركّب أو يفكك، ويشرف على توجيه الآخرين. وحتى بعد أن توطدت علاقتي بالرجل وصرت أهوى تبادل الحديث معه، كان هو يصغي لي أو يرد عليّ دون أن يتوقف عن العمل. وإذا أثار إبراهيم شيء في أقوالي، كان يلتفت نحوي التفاتة قصيرة مبتسماً، أو مؤمّناً، أو معاتباً، أو مستفهماً، ولا تكفُّ يداه عن متابعة ما هو فيه.

هذا العجوز المثابر كان يظهر عدم حفاوته بالشؤون العامة ويضيق بالأسئلة التي توجه إليه حول الصراع بين العرب واليهود. وإذا حاصرتُ إبراهيم بالأسئلة، وهي غالباً ما تتضمن اتهامات للجانب الذي ينتمي إليه، طافت بوجهه موجة أسى ظاهرة، وأجاب مراوغاً: " ما زلتَ صغيراً، فلماذا لا تنشغل باللعب؟".

وقد سألت الرجل الذي تعلقت به عما إذا كان قد حمل السلاح ضد الفلسطينيين، فتجاهل سؤالي، وبقي منصرفاً إلى عمله دون أن يلتفت نحوي. وحين كررت السؤال، ألقى إبراهيم ناحيتي واحدة من نظراته العاجلة، وفيها كل معاني الإشفاق عليّ، ثم قال بأناة: "تعال إليّ في وقت الغداء، وسأحدثك!". لكني لم أجئ إلى الموعد، فقد أخذني خالي معه إلى مكان آخر، وحين رجعنا كنت قد نسيت السؤال ولم يذكّرني هو به. ثم حانت الفرصة للحديث الصعب في وقت آخر. يومها، تعرضت لحادث أسلمني لرعب شديد. كان سائق إحدى الشاحنات التي تحمل موادّ للمشروع قد ترك بابها مفتوحاً، وكنت متوقاً، دائماً، لمعرفة سرّ هذه السيارة الضخمة التي تتحرك وتتوقف بقدرة قادر، فاغتنمت غفلة الجميع وتسللت إلى حجرة القيادة ورحت أعبث بما وقعت عليه يداي فيها، ولم أدر كيف تم الأمر، حين أخذت الشاحنة تدرج ببطء، كما لم أدر، بالطبع، كيف أوقفها. وكان أن قفزت من

الباب المرتفع ووقعت على الأرض، وقد أسلمني الرعب إلى حالة من الخوف الذي لا يوصف. وتنبه السائق، كما تنبه آخرون، لما حصل، فجرى السائق نحو شاحنته وأوقفها، فيما تحلق الآخرون حولي، وكانوا يواسونني حين اقتحم السائق المحنق الحلقة وأخذ يضربني صارخاً فيّ:"مصيبة، كدت تتسبب في مصيبة"، وظل يضربني إلى أن تمكن الآخرون من إيقافه. وقد حملت إلى المبنى، حيث كان إبراهيم منصرفاً للعمل ففوجئ بحالي، فترك عمله وجاء لمواساتي وأمر الآخرين بالانصراف إلى أعمالهم. كان الرجل ودوداً وكان متفهماً، حتى دون أن ينطق. وحين اطمأن هذا الحريص على العمل إلى أني استعدت هدوئي، ابتسم لي مشجعاً وهمّ بالانصراف ثانية إلى عمله. عندها، تذكرت السؤال ووضعت لنفسي الإجابة مدفوعاً بحبّي له:" لا يمكن أن تكون قد حملت السلاح ضد أهلي". ويبدو أن عبارتي الحارة قد أثارت في إبراهيم شجناً لم يملك أن يغالبه، فقد تجمد في مكانه، لحظة، تطلع خلالها ناحية المحرك الذي يعمل فيه، ثم همّ بأن يتجه إليه، لكنه بدّل رأيه فجأة، وعاد إليّ، وأخذ يحكي.

في تلك القعدة، قال إبراهيم كلاماً كثيراً، وكنت أصغي إليه ومشاعري تتماوج مع تماوج المعاني التي يفصح عنها الحديث الطويل. نعم، لقد حمل أبراهام السلاح، فعل ذلك في شبابه، وكان مستعداً لأن يقاتل العرب لو أتيحت له الفرصة. نشأ إبراهيم في أسرة متدينة، جاءت أسرته إلى البلاد من بولونيا، واختار أبوه المتدين السكن في القدس وفيها ولد إبراهيم. ولما أنهى الولد الدراسة الثانوية، أرسله أبوه إلى ألمانيا حيث تعلم في الجامعة وعاد إلى البلاد مهندساً حين كان العثمانيون ما يزالون يحكمونها. ووجد المهندس عملاً في شركة يملكها صهيونيون وتنقل للإشراف على تركيب المحركات في عدد من المستعمرات اليهودية، وقد امتلأت نفسه حماساً للحلم الصهيوني بإقامة الدولة اليهودية. ولم يكن إبراهيم قد أمضى في العمل إلا سنوات قليلة حين قامت الحرب العالمية الأولى فأبعدته السلطات العثمانية هو وأسرته عن فلسطين مع من أبعدتهم من اليهود الغرباء، ثم عاد إلى القدس بعد أن حل البريطانيون في فلسطين محل العثمانيين، وقد ازداد حماسه للمشروع الصهيوني وظن أن في تحقيقه خلاصاً للأسر اليهودية التي تشردها الأهواء المتباينة هنا وهناك في أنحاء العالم. في ذلك الوقت، انتسب إبراهيم لمنظمة صهيونية وتدرب فيها على السلاح، لكنه حصل في الوقت ذاته على عمل في إدارة حكومية للمشاريع. وبحكم عمله الجيد، أتيح لإبراهيم أن يحتك بأهل البلاد، وليس باليهود وحدهم. كما أتيح له أن يعاين الغبن الشديد الذي يتعرض له المواطنون الأصليون فيما يتمتع اليهود، وحدهم، بكل الامتيازات وتصرف الأموال العامة على المشاريع التي تخصهم. وكان ذلك هو المنطلق الذي بدأت معه نظرة إبراهيم إلى المسألة كلها تتبدل.

وهو يدرك، الآن، أن ما وصلت إليه الأحوال ليس سوى مأساة يستفيد منها عدد قليل من الناس ويكتوي الآخرون، جميعاً، بنارها، وهو، لهذا، غير مستعد للإسهام في أي شيء يعمق العداء بين الجانبين، وإن كان عاجزاً عن وقف التدهور الحاصل في الوضع كلّه.

لم أكن أنا وحدي الذي أحبّ المهندس إبراهيم، بل إن كل من تعاطى معه انتهى إلى أن يحبّه، حتى لو تحفّظ إزاءه في البداية. كان الشغيلة الذين يعملون معه كلهم من العرب. وكان هو حازماً في تعامله معهم وتوجيهاته لهم، إلا أنهم لمسوا في تصرفاته نوعاً من المنطق، وقدروا فيه عدم شحّه عليهم بخبرته، كما قدّروا تحمله للمسؤولية أمام صاحب المشروع عن كل شيء بما في ذلك الأخطاء التي يتسببون هم فيها. وكان الشغيلة يتحدثون عنه باحترام وبكثير من الودّ. ولم يكن يشغل بال المتعاملين مع إبراهيم إلا كونه يهودياً. فلكثرة ما تلقى مواطنونا من الأذى على أيدي يهود، صاروا مدهوشين حين وقعوا على هذا اليهودي العادل.

ولم تلبث الحكايات التي تصف طيبة إبراهيم أن شاعت في القرية، أشاعها، بالطبع، الذين اتصلوا به، فتبدل موقف الناس الذين استنكروا في البداية أن يستخدم الجدّ يهودياً في مشروعه ويوكل إليه أهم عمل في المشروع كله. كان الوضع ينطوي على تناقض. فبينما أخذ اضطرام الأحداث يؤجج الأحقاد المتبادلة بين العرب واليهود ويدفع العرب إلى مزيد من الحقد على الذين يغتصبون وطنهم، توطدت مكانة اليهودي إبراهيم في نفوس الناس وزادت معزّتهم له. وقد انعكس ذلك في تزايد عدد الدعوات التي يتلقاها إبراهيم من فلاحينا بمناسبة وبغير مناسبة. ومع أن الناس استسلموا لموقف الرجل الصارم في عدم الاستجابة لأيّ دعوة، فإنهم لم يكفّوا عن توجيه دعوات جديدة له، كانوا يفعلون هذا كنوع من التقدير للرجل الطيب.

وهاأنذا أتذكر الآن أن العجوز مرض مرة، فأرسل إلى الجدّ من يبلغ إليه أنه سيتغيب عن العمل بضعة أيام كما أرسل التوجيهات اللازمة للشغيلة، وقد افتقدناه في تلك الأيام. وتشاور محبّو إبراهيم فيما إذا كان من الملائم أن يذهبوا لزيارته في المستعمرة، واقترح أحدهم أن ينتقوا وفداً منهم يذهب لعيادته في منزله، غير أن شدّة الأحداث أطفأت هذا الاقتراح. ولما عاد إبراهيم إلى العمل، حمل محبّوه إليه الهدايا التي توجب التقاليد إهداءها للمريض. وتجمع في مكان المشروع كوم من سلال الفاكهة وصرر السكر والبّن والشاي وأواني اللبن والزبدة، وبالرغم من أن إبراهيم احتفظ بصرامة وجهه المعهودة، فإنه لم يملك إزاء هذا التعاطف أن يحبس تأثره الذي فاضت به نظرات عينيه. وقد شكر إبراهيم الجميع فرداً فرداً، لكنه حين حان موعد انصرافه لم يحمل الهدايا معه، بل تركها،

جميعها، للناطور. وفي اليوم التالي، حمّل إبراهيم سلّته حزمة إضافية، وحين فتحها تبين أن فيها قطعاً من الشكولاته، وقد وزعها على من قدموا له الهدايا في اليوم السابق. وقبل أن يقرر هؤلاء كيف يتصرفون بقطع الشوكلاته، هل يقبلونها أو يرفضونها كما رفض هو هداياهم، دعاهم المهندس إلى العمل وسبقهم إليه، ولم تُمسّ القطع طيلة النهار. ولما انصرف إبراهيم، تشاور الناس، واختلفوا، فمنهم من أكل قطعته أو حملها معه، ومنهم من قدّمها بدوره إلى الناطور.

وجود هذا الناطور نفسه كان واحداً من هذه الأمور الغريبة التي يتحف الجدّ بها القرية ويشغلها بالحديث عنها. وقد شاعت حول هذا الناطور حكايا كثيرة، ليس من بينها حكاية واحدة يمكن الركون إلى دقتها. جاء الجدّ بناطوره، هذا، من حيث لا يدري أحد على وجه اليقين، وأوكل إليه حراسة المشروع، وأسكنه فيه، مؤثراً هذا الغريب على كل رجال القرية العاطلين عن العمل. كان عيد، وهذا هو الاسم الوحيد الذي عرف به الناطور، جميلاً جمالاً أخاذاً، له بشرة سوداء فاحمة مثل ليل كانون ووجه حلو الملامح وجسد ممشوق كأنه قدّ من طينة خاصة تجعل له، على الدوام، استقامة الرمح ومتانته ومرونته في وقت واحد. وكانت لعيد عينان براقتان هما، وحدهما، اللتان تفصحان عن خلجات نفسه حين تختلج. وعرف الناس الرجل صموتاً لا يتحدث إلا نادراً، وإذا نطق فبما لا يعدو النعم واللاّ وما يشبههما من ألفاظ وجيزة الدلالة. لم يعرف أحد لهذا الرجل أصلاً أو منشأ أو بلداً، ولم يجب هو عن أي من أسئلة الفضوليين بهذا الشأن، ولم يسمح صمته المزمن بأن يتعرف عليه الناس من لهجته. كما أن الجدّ لم يدل بأيّ معلومات بشأن ناطوره. وقد التصق عيد بالمشروع حتى صار من موجوداته الدائمة، أقام لنفسه كوخاً من الخشب والصفيح وكسا سقفه بالسعف وستر السعف بقماش خيمة عتيقة. واعتاد الزوار أن يجدوا الرجل الغامض في مكان ما داخل أرض المشروع في أي وقت مراقباً، أو مستلقياً، أو متجولاً بين الزرع أو أكوام الأدوات، فهو لا يغادر المشروع أبداً. لم يأت أحد من خارج القرية لزيارة عيد ولا غادر هو القرية في أي وقت من الأوقات. ولم يحاول عيد أن يتقرب من أحد ولا شجع أحداً على التقرب منه، وكان من عادته أن يصد أيّ محاولة دون إيضاح. وهكذا عاش الرجل في المشروع مسربلاً بوحدته.

هذا الوضع أطلق ألسنة الناس بالإشاعات والتكهنات حول الوافد الذي يكتنفه هذا الغموض كله. فقيل، بين ما قيل عن عيد، إنه سجين فارّ التقطه الجدّ صدفة في بعض حواري يافا وجاء به موفّراً له المأوى والأمان. وقيل إن عيد عربيّ من السودان قتل شخصاً في حادث ثأر وفرّ من وجه مطارديه فساقه الترحال إلى فلسطين واقتاده إلى شراك الجدّ. وذهب البعض إلى أن عيد طريد عدالة، تطلبه سلطات فرنسا في الجزائر أو

سلطات إيطاليا في ليبيا أو سلطات أسبانيا في المغرب الأقصى أو سلطات بريطانيا في بعض بلدان الخليج بعد أن ذبح بيديه ضابطاً في واحد من الجيوش التي تحتل هذه البلدان. وراجت حكاية أخرى يؤكد رواتها أن الرجل كان عبداً لأمير سعودي، وأن هذا الأمير أوكل لعبده حراسة باب حريمه وأن العبد تورط في علاقة مع امرأة في الحريم ثم فرّ من مطارديه. وأغرب ما روي عن عيد أنه ابن غير شرعي لواحد من الحكام العثمانيين الذين كانوا في فلسطين قبل البريطانيين، وأن هذا العثماني استولده من عبدة كانت هي نفسها أميرة أفريقية جاء بها تجار العبيد إلى الحاكم. والذين روجوا هذه الرواية قالوا إن الابن غير الشرعي بقي أثيراً عند والده وقد اصطحبه هذا الوالد معه إلى اسطنبول، عندما جلا العثمانيون عن البلاد. ويضيف الرواة أن الإبن عاش في قصر والده في العاصمة التركية كما يعيش أبناء الأمراء وظل كذلك إلى أن ساءت حالة الوالد بعد سقوط إمبراطورية بني عثمان ومجيء الحكام الأتراك الجدد. ثم يقدم الرواة تفاصيل كثيرة عن مصير عيد بعد انهيار عزّ والده، فيقولون إن الوالد الذي فقد كل شيء أقدم على الانتحار، وأن ورثة المنتحر باعوا أمّ عيد، بعد ذلك، كعبدة، وتشرد عيد نفسه سنوات، حتى وصل إلى فلسطين.

الحقيقة الوحيدة التي لم يكتنفها أي غموض بشأن عيد، هذا، أنه بدا متمسكاً بوجوده في المكان حريصاً على القيام بالعمل الموكول إليه.

شيء غريب آخر انشغل به جدي عبد المجيد في ذلك الوقت وشغل به الناس، أيضاً. وأنت تعرف أن أهل قريتنا كانوا يضيقون بصفة الصغيرة التي التصقت بمسميتهم ويعدّونها مسبّة. وكان جدّي عبد المجيد دائب الشكوى من أنه يُواجه حيث يحلّ في سفراته العديدة بالسؤال عن سبب إلحاق هذه الصفة باسم قريته، فيضطر لتقديم الشروح الطويلة ويضايقه اضطراره للإقرار بأنه ينتمي لقرية ثانوية. وبدافع الرغبة في الخلاص من هذه الصفة وتثبيت صفة القرية كموئل يخصّ آل الحوراني، وحدهم، تطوع الجدّ بالعمل لتبديل اسم القرية ليصير مسمية الحوراني، وهكذا، جمع الجدّ تواقيع أهل القرية، أو بصماتهم، على عريضة بهذا الشأن موجهة للسلطات. وحمل جدّي سلمان، بوصفه المختار، العريضة إلى غزة، حيث مقرّ إدارة اللواء الذي تتبعه القرية. وتابع جدّي عبد المجيد الحكاية بحماس ودأبٍ لا يتلاءمان مع المشاغل العديدة التي استجدت في تلك الفترة. وأتذكر أن الفكرة استهوتنا، نحن الصغار، مثلما استهوت الكبار وربما أكثر. فالاسم الجديد سيعفينا من الشعور بالنقص في منافستنا مع أولاد المسمية الكبيرة. ووجدتني بين الصغار على رأس المتحمسين، فصاحب الفكرة هو جدّي، والذي حمل العريضة إلى غزّة هو جدي الآخر، وهما اللذان سيرفعان الصفة الوضيعة عن قريتنا.

-١٧-

أوائل الاشتباكات، أوائل الشهداء واللاجئين

انجلى الموقف في البلاد على نحو انتفت معه أيّ إمكانية للهدوء. صار العرب عرباً، فحسب، مستهدفين ومعرضين لفقدان الوطن ومحمولين حملاً للقتال دفاعاً عنه. وصار اليهود يهوداً، فحسب، تقودهم المنظمات الصهيونية وتسوقهم إلى القتال بدافع الرغبة في إقامة دولتهم على حساب أهل البلاد. ولم تجد بريطانيا ما تفعله أفضل من أن تنسحب، فتدع بذور الشرّ التي زرعتها خلال ثلاثين سنة من حكمها للبلاد كي تنمو فتعطي ثمارها السوداء المتوقعة.

وأنت تعرف أن الجميعة العامة للأمم المتحدة شرعت في مناقشة القضية الفلسطينية منذ منتصف العام ١٩٤٧. وقد شكلت الجمعية لجنتها الشهيرة التي جاءت إلى البلاد لاستطلاع آراء الناس بشأن مستقبلها. كان على أهل البلاد من العرب، حسب رغبة الدول التي صادقت في الجمعية العامة على خطة لتقسيم فلسطين، أن يظهروا للجنة موافقتهم على منح جزء من بلدهم هو أخصب أجزائها لليهود كي يقيموا عليه دولتهم، وأن يقرّوا تدويل جزء آخر هو أقدس أجزاء بلادهم. أما اليهود فكان عليهم أن يعلنوا قبولهم بالجزء الذي خصصته خطة التقسيم لهم ويطووا مطامعهم المعلنة في الأجزاء الأخرى. وأنت تعرف، أيضاً، أن غالبية العرب عارضت هذه الخطة. ولعلك تعرف، إلى هذا، أن غالبية الجمهور اليهودي استكثرت أن تتحدد مطامعها في الحدود التي رسمتها الخطة، وإن تمتعت القيادة الصهيونية بقدر من المرونة مكّنها من أن تظهر الموافقة على

الخطة الدولية، وهي تضمر خططها الخاصة بها الرامية للاستيلاء على الأجزاء الأخرى من البلاد.

منذ ذلك الوقت الذي شُكلت فيه اللجنة الدولية، حظيت المسمية الصغيرة بزيارات متعاقبة من ناس ذوي شأن في القيادة الوطنية. جاء هؤلاء إلى القرية لينظموا التدابير اللازمة للدفاع عن الوطن ويحثوا الناس على إعلان رفضهم التقسيم. كانت الهيئة العربية العليا، ومعظم أعضائها معتقل أو متوارٍ أو منفيّ خارج البلاد، قد قررت مقاطعة لجنة الأمم المتحدة وحظرت الاتصال بها. ولكن أشكال التعبير عن الرأي الرافض لخطة التقسيم تعددت وتنوعت، وقد شهدت المسمية الصغيرة من هذه الأشكال الاجتماعات التي تعقد في الجامع. هنا، كان الناس يحتشدون ويستمعون للخطب التي يلقيها عليهم ممثلو القيادة والمتعلمون من أبناء القرية. وقد قرّ في الأذهان، لسبب ما، أن إلقاء الخطب مقصور على المتعلمين الذين يتقنون الفصحى. إن البلاغة العربية لا تطيب ولا تستقيم إلا مع الجمل الفصيحة ذات الطنين والرنين اللذين يملآن الأسماع. وليس مهماً بعد هذا أن تصل المعاني كاملة أو ناقصة إلى أفهام الفلاحين الأميين. وكان من الطريف، والحال هو هذا الحال، أن نحتشد نحن صبية المدارس قبل غيرنا في الجامع، إذ كنا أقدر من الكبار على استيعاب لغة الخطاب بعد أن ألفناها في المدرسة. كما كان من الأطرف أن يضطر رجال كبار ذوو شأن ومهابة إلى الاستعانة بنا لاستيضاح معنى العبارات، حين يفوتهم التقاط معناها بأنفسهم، يفعلون ذلك بترفع تعكسه لهجتهم الحانقة وهم يخاطبوننا متظاهرين بأن ما فاتهم هو الاستماع للعبارة، وليس إدراك معناها. وبالرغم من أننا كنا نتظاهر، بدورنا، بأننا نعيد على السائلين ما فاتهم الاستماع إليه ونفعل ذلك بهيئة الأولاد الصغار الذين يطيعون الكبار، فقد كان الإحساس بالتفوق على هؤلاء الكبار يمتعنا.

كان انعقاد اجتماعات الخطابة يفرحنا ويوفر لنا فرصة الفخار والامتلاء بالزهو. ولأني كنت وريث خطيب القرية الأول، ولم يكن الكبار قد نسوه، فإن كثيرين منهم كانوا يتوجهون لي باستيضاحاتهم. وكان هذا مما يعزز إحساسي بالتميز ويثير شهيتي للاستماع للخطب بمزيد من الانتباه. شيء آخر كان يلذّ لي أن أفعله إثر استماعي الخطب، إذ كنت أتوجه إلى دار جدتي المهتمة بما يجري. وهناك، حيث تنتظر في العادة نساء أخريات، كنت أعيد ما سمعته وأقصّ وقائع الاجتماع. ويبدو أنني كنت أؤدي المهمة على نحو يرضي مستمعي. وهكذا، جعلتني الأحداث ذلك الإعلاميّ الصغير ذائع الصيت بين نساء المسمية الصغيرة. وكنت أطرب حين أسمع ثناء النسوة عليّ. أما هنّ فكن يستمعن إليّ مأخوذات بجرس صوتي، وكثيراً ما يرددن: "الولد سرُّ أبيه"، فيتعزز إحساسي بالتميز أكثر فأكثر، ويزداد حرصي على المشاركة في مجالس الكبار لأبهر جمهوري بأيّ جديد أقع عليه.

وقد عرفت، بمقدار ما أمكن لذهني الغضّ أن يستوعب، أن الناس في البلاد، كما هو شأنهم في قريتنا، مختلفون بشأن الموقف من خطة التقسيم. وإذا كانت الأغلبية الكاسحة تجهر برفضها التقسيم، فهناك قليلون يدعون الناس للقبول بالأمر الواقع ويحذرون من أن الرفض قد يوقع البلاد في ما هو أسوأ من التقسيم. وكانت مجالس الكبار تتداول شأن هؤلاء فتشتمهم الأغلبية وتتوزع الأقلية بين صامت أو داعٍ للتأمل في موقفهم. وقد شاع نعت هؤلاء الداعين للقبول بالتقسيم بالبولشفيك أو جماعة البولشفيك أو أتباع المسكوب. وإذ كنت متأثراً بالآراء السائدة، فقد كنت أغلي بالحنق على هؤلاء الذين يدعون للتفريط بالبلاد، ورحت أكرر مع الوقت النعوت التي يقذفها الساخطون عليهم دون أن أفهم لها معنى محدداً.

ومع اتساع التعبئة ضد التقسيم واقتراب البلاد من حالة الاقتتال الشامل بين اليهود والعرب الذي بدأ فعلاً في بعض المناطق، نشط توفيق الحوراني في محاولاته لمواجهة الأغلبية الرافضة. كان الشيوعيون قد اجتذبوا هذا الشاب المتعلم وأقنعوه بآرائهم، أو فتنوه بها، على لغة كارهيه، بالرغم من أنه ابن رجل دين فاضل هو الشيخ خليل. ومع أني اعتدت أن أردد كلام الساخطين على الشاب المتهم بالخروج على دين أبيه، فقد أحببته شخصياً وحملت في نفسي إعجاباً خفياً بجرأته. وكنت إذا التقيت الشاب في دارهم المجاورة لدارنا أصمت وأنا أواصل النظر إليه وأتابع حركاته في الدار، وأحس في داخلي بالذنب لأني أشارك الآخرين في التشنيع على جماعته.

و أتذكر مرة جاء فيها إلى القرية زائر من القدس ذو أهمية عالية. وشى بمكانة الزائر المتميزة وصوله إلى القرية بسيارة خاصة، ووجود عدد من المرافقين المسلحين بصحبته، واحتفاء الوجهاء الكبار بقدومه، واجتماع أهل القرية كلهم للاستماع إلى خطابه. وقد اكتظت فسحة الجامع بالكبار، فلم يبق لنا، نحن الصغار، إلا أن نراقب ما يجري عبر النوافذ، فتزاحمنا حولها ورحنا نتدافع للحصول على الأمكنة الأنسب. صعد الرجل درجات المنبر الثلاث بتؤدة، وحيا الناس تحية طويلة مفخمة، ثم أطلق العنان للجمل الفصيحة، فحرض الجمهور على الصهيونية الباغية وبريطانيا الظالمة والأمم المتحدة التي تحكمها مصالح لا تتوافق مع مصالح العرب والمسلمين. ثم فتح الرجل بعد ذلك سيرة روسيا والبولشفيك ونعت هؤلاء بأنهم أقران الصهيونيين والمستعمرين وأنهم لا يريدون الخير لأمة المسلمين. وكان الحنق قد جعل نبرة الرجل أقوى وألفاظه أقذع حين وصل إلى هذه النقطة، ثم حين انتقل ليشتم أتباع البولشفيك في البلاد وينعتهم بالخونة دعاة الانحلال والإلحاد. وأبلغ الرجل إلى مستمعيه أن البولشفيك لا يتورع عن الزواج بأخته وأن أتباع البولشفيك في بلادنا يريدون بقاء اليهود في البلاد لأنهم منحلّون مثلهم، ولأن

لهم غايات عند بنات اليهود ونسائهم. عند هذا، وقف توفيق في موقع في المسجد لم أتبينه من موقفي عند النافذة، ورد على الخطيب رداً لم يصل إلى مسمعي واضحاً، فحدث هرج ومرج كبيران، ولم نعد نسمع ما يقال. وقد رأينا الخطيب على المنبر وهو يفور غضباً ويشير بيديه نحو الشاب. وانتهى الأمر بأن دفعت الأيدي توفيق حتى أرغمته على مغادرة الجامع. فعل الفلاحون هذا بعد أن استثار الخطيب حماسهم للعرض والدين والوطن، ولكنهم أحسوا، على ما يبدو، بشيء من الندم لأنهم أساءوا لواحد من أبنائهم، فقد حل بعد طرد الشاب صمت كئيب خيّم على الجامع.

ولا بدّ من أن الخطيب التقط مغزى الصمت، فقد أخذ يتحدث عن الشيخ خليل ومكانته وتقواه دون أن يشير إلى الابن. غير أن رد الشيخ خليل فاجأ الناس، فقد رأوه يقف فجأة ويجيل نظراته فيهم ثم يغادر الجامع وهو صامت صمتاً أبلغ من الكلام. ووجدتني مجذوباً إلى الشيخ، فلحقت به وأمسكت بعباءته وسرت بجانبه. فلما وصلنا إلى دار الشيخ كان توفيق قد سبقنا إليها. وقد استدعى الوالد ابنه واختلى به ولم يأذن لأحد بالتطفل على حديثهما. وإذ طالت الخلوة، لم أجد بداً من مغادرة الدار، فعدت إلى الجامع فوجدت أن الجمع قد انفض. يومها، خالط مشاعري نحو توفيق شيء من الاضطراب. وقد حمت حول القرية بعض الوقت، ثم عدت إلى دارنا وفي نفسي ما فيها من مشاعر لا أملك أن أصفها.

ومهما يكن من أمر، فإن الجدل حول خطة التقسيم اتصل، فيما تواترت احتكاكات واشتباكات متفرقة بين العرب واليهود، وتوالت استعدادات الجانبين للقتال. وبقي الأمر على هذه الحال إلى أن اتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارها بالمصادقة على خطة التقسيم. عندها، اشتعل القتال في كل مكان تتواجد فيه تجمعات يهودية وسط المحيط العربي، ولم يعد بمقدور أحد أن يحول دون امتداد الحريق الذي ألهب البلاد بطولها وعرضها.

هنا، قد ينبغي أن أذكّرك بأن الوجود اليهودي في جنوب فلسطين لم يكن بالدرجة من الكثافة التي كان عليها في الوسط والشمال. بل إن مناطق بكاملها من الجنوب خلت من هذا الوجود تماماً أو ضمت مستعمرات قليلة صغيرة ومتباعدة.

وهكذا، عندما تجدد الاقتتال، دارت أشدّ المعارك في البداية في مناطق التواجد اليهودي الكثيف. وهي ذاتها، أيضاً، المناطق التي تكثف فيها الوجود العسكري البريطاني. وراحت الإذاعات والصحف تنقل إلى أسماع المواطنين أنباء هذه المعارك. وكان واضحاً من مجرى التطورات أن القيادة الصهيونية مصممة على تهويد أوسع مساحة من البلاد

قبل أن ينسحب حماتها البريطانيون منها. وفي اعتداءاتهم على الأحياء والقرى العربية، تعمد الصهيونيون أن يثيروا هلع المواطنين ليرغموهم على الرحيل. فتهويد البلاد لا يتم بوجود مواطنيها فيها. وأنت تعرف أن الحرب شنيعة في حدّ ذاتها ومثيرة للفزع حتى حين تقتصر ضحاياها على المشتركين في القتال ويلتزم هؤلاء بالقوانين والقواعد التي تحظر المسّ بمن لا يشترك فيه. فلك أن تتصور، إذن، مقدار سوء الحال حين تتذكر، أو تعرف، أن الصهيونيين وجهوا إرهابهم المسلح ضد المدنيين بالذات وتقصدوا أن يثيروا الرعب في صفوفهم أكثر مما وجهوه ضد الذين يقاتلونهم. وعرف الصهيونيون، وهم يفعلون ذلك، كيف يمسون الأوتار الحساسة، فنظموا سلسلة من المذابح التي استهدفت النساء والأطفال، وتركوا للأنباء التي تحدثت عن التشنيع بالضحايا وهتك الأعراض أن تشيع وسط الجمهور. وتطوعت حتى مصادر الأنباء العربية وهي تتصدى لفضح جرائم الصهيونيين بالترويج لهذه الأنباء بالكلمة المسموعة والمكتوبة وبالصورة المطبوعة أيضاً.

وكان من شأن هذا كله أن أحدث ردود فعل متباينة، فقد استنهض همم العرب للتشدد في الدفاع عن وطنهم المستهدف، وأثار الخوف على مصير النساء والأطفال وغير المقاتلين من الرجال بحيث عمدت بعض المدن والقرى التي يتهددها العدوان الصهيوني إلى إخلاء هؤلاء لتجنيبهم الفظائع المتوقعة وإتاحة مجال أرحب للمقاتلين من أجل المناورة. وفي الحالات التي لم تُخل فيها بعض المناطق بتأثير الفظائع، أقدم الصهيونيون على إخلاء الذين يبقون أحياء من المقيمين فيها بقوة السلاح، وحملوهم حملاً على البحث عن السلامة خارج مناطقهم. وأكثر ما كان يشغل البال تحت تأثير الوقائع الحقيقية والأخبار المهولة هو الخوف من المجازر التي ترتكب بدم بارد، تلك التي يقوم بها مسلحون صهيونيون دربوا على الفتك بالآمنين، وتعلموا كيف يقطعون الرؤوس بالبلطات ويبقرون بطون الحبالى بسكاكين البنادق ويذبحون الأطفال كما تذبح الحملان، ثم يبقون على بعض شهود العيان ويطلقون سراحهم كي يحدثوا الآخرين عما رأوا بأم أعينهم. أما الخوف من هتك الأعراض فهو الهاجس الذي فتك بالناس بمقدار ما فتك بهم السلاح المنفلت من أي قيد. ولعلك تعرف أن العرض، في ذهن المواطن العربي أسير الأيديولوجيا الإقطاعية المتزمتة ومعتقدات الفئات المدينية الوسطى المحافظة، ثمين مثل الأرض. بل إن هناك من يعدّ العرض أثمن من الأرض، على أساس أن الأرض التي تغتصب يمكن تحريرها من جديد، أما العرض الذي ينتهك فهو لا يعوض.

وحين أعلنت الدول العربية المستقلة قرارها بالعزم على دخول فلسطين لنصرة أهلها بجيوشها عندما ينسحب منها آخر البريطانيين في منتصف أيار/ مايو ١٩٤٨، كان المجاهدون الفلسطينيون يبذلون ما يمكن احتسابه بين المستحيلات ليواصلوا الصمود

بأسلحتهم العتيقة القليلة في وجه الهجمات الصهيونية التي يدعمها عسكر بريطانيا ومستودعات أسلحتهم وذخائرهم وأجهزة استخباراتهم. وقد قدم الإعلام العربي دعماً كبيراً لمعنويات المجاهدين الصامدين، خصوصاً لأن الذين يعرفون أحوال الجيوش العربية معرفة دقيقة كتموا معلوماتهم عن الجمهور وسمحوا له بأن يمني نفسه بالأوهام وهو يتطلع لليوم الذي ستقدم فيه هذه الجيوش وتشيل معه عبء الدفاع.

ومع اقتراب موعد الانسحاب البريطاني النهائي، شدد الصهيونيون حملاتهم على المناطق الحساسة مجمّعين قواهم وإمكاناتهم للاستيلاء عليها، تاركين حماية المناطق الأخرى للقوات البريطانية ذاتها.

كانت المسمية الصغيرة، كما لا بد من أن تحزر، تقع في المنطقة الهادئة نسبياً في ذلك الوقت، تصل أصداء الأحداث إليها ويتأثر الناس بها ويكتنفهم هذا الجو الثقيل المفعم بالنذر، فيما هم يواصلون استعداداتهم لتنظيم الدفاع. وأتذكر يوماً كنت فيه عائداً من زيارة الوالدة في المسمية الكبيرة، فعرجت على مشروع جدّي عبد المجيد القريب منها، فلم أجد هناك أحداً غير الناطور. وكان من الصعب أن أحصل على إجابة واضحة من عيد عندما سألته: أين ذهب الناس؟ فالنعم واللا، وكذلك هزات الرأس والكتفين التي لا يستخدم عيد سواها، لم تكن كافية لإشباع فضولي وإطفاء اندهاشي من غياب الجميع. فتركت الرجل المسربل بالغموض وأكملت مشواري إلى المسمية الصغيرة. وهناك، عرفت أن الرجال مجتمعون في الجامع، فصار لدي هدف أمضي إليه.

كانت المسمية الصغيرة، مثلها مثل البلاد كلها، قد اهتزت في ذلك اليوم لنبأ استشهاد قائد الجهاد المقدس عبد القادر الحسيني. لقد استشهد قادة آخرون قبل عبد القادر، وحزن الناس لفراقهم وسخطوا على الظروف التي أودت بهم ومجّدوا تضحياتهم. غير أن الحزن على فراق عبد القادر والسخط الذي انفجر في طول البلاد وعرضها والتمجيد الذي كلل تضحيته لم يسبق لها مثيل في تاريخ فلسطين. كان عبد القادر يمثل في فلسطين تاريخاً وحاضراً ومستقبلاً، فهو ابن زعيم الحركة الوطنية الفلسطينية الحديثة، موسى كاظم الحسيني، الذي ترأس اللجنة التنفيذية منذ تأسيسها في أول العشرينيات حتى وفاته في العام ١٩٣٤، وهو قريب لوارث هذه الزعامة الحاج أمين الحسيني. وقد ترأس عبد القادر قوة الجهاد المقدس التي أسستها القيادة الوطنية لتكون نواة القوة العسكرية الفلسطينية المستقلة ورأس حربتها في الدفاع عن الوطن. وبصفته هذه ومن موقعه هذا، كان الرجل رمزاً لفلسطين المقاتلة من أجل حريتها ولمستقبلها المستقلّ. ويوم كانت البلاد كلها تلوب بحثاً عن السلاح اللازم لتنظيم دفاع فعّال، تصدر عبد القادر

قائمة القادة الذين صبّوا جهداً كبيراً في هذا الاتجاه، وقد اقترن استشهاده بحكاية شاعت في طول البلاد وعرضها، اختلطت فيها البطولة والمأساة ولخصت حال البلاد كلها في تلك الفترة الحبلى بشتى الاحتمالات. فقد سافر عبد القادر قبل أيام من استشهاده إلى سورية ليواجه مؤتمر قمة عربياً منعقداً هناك ويطالبه بتوفير السلاح اللازم لعرب فلسطين. وعرف الرأي العام أن الرجل ألحّ في المطالبة لكنه قوبل بالمماطلة وحدها. وأكد متناقلو الرواية أن عبد القادر عنف المجتمعين بأقسى الكلام وصارحهم بأن قصورهم في توفير سبل الدفاع عن فلسطين سوف يؤدي إلى ضياعها. وفهم الناس أن حنق القائد على الحكام الذين يعلنون أشياء ويفعلون عكسها لم يكن له حدود، وأنه هددهم بجرأة بفضح نفاقهم أمام شعوبهم. وبينما كان عبد القادر ما يزال في سورية، استولى المسلحون الصهيونيون على موقع هام قريب من القدس هو "القسطل". وكان سقوط القسطل في أيدي الصهيونيين يعني سيطرتهم على موقع استراتيجي وتقوية موقفهم العسكري في المنطقة الواقعة تحت مسؤولية عبد القادر كلها. هنا، قطع عبد القادر زيارته لسورية وعاد إلى القدس على عجل، ونظم في اليوم التالي هجوماً انتحارياً جريئاً قاده بنفسه، وخاض معركة مواجهة مباشرة، فاستعاد القسطل من أيدي الصهيونيين وسقط شهيداً على أرض المعركة. وانفجر نبأ استشهاد القائد الجريء ليلهب النفوس بكل ما تختزنه من مشاعر متباينة.

وحين بلغت الجامع، كان أهل المسمية الصغيرة كلُّهم محتشدين هناك. وكان خالي نافذ الذي أحضروه من فراش المرض واقفاً على المنبر يخطب فيعدد للناس مزايا القائد الشهيد ويحكي حكاية استشهاده ويبيّن مغزاها، والناس بين دامع وباك وواجم. بعد نافذ، تكلم رجل حضر من القدس مندوباً عن القيادة، خطب الرجل بفصحى مجلجلة، ناقلاً إلى الجمهور تحيات المفتي الأكبر ودعوته لهم إلى الصبر على الشدائد وتوطيد الأمل بالربّ الذي لن يتخلى عن المؤمنين. ثم حكى الرجل للناس تاريخ آل الحسيني ودورهم في الحركة الوطنية منذ تأسيسها وأصلهم ونسبهم الشريف ومواقف رجالاتهم البارزين، وركز على دور المفتي ووصفه بفصحاه المجلجلة تلك بأنه سليل المعالي ووريث الأمجاد وعماد الحاضر والمستقبل. ثم أعاد الرجل حكاية استشهاد عبد القادر مضيفاً إليها تفاصيل لم يروها خالي نافذ، ومضيفاً إلى هذه التفاصيل ما يرتبط بها من معان ودلالات.

لم يجيء مندوب القيادة إلى المسمية الصغيرة للمشاركة في احتفالها بتأبين الشهيد، فحسب، بل كان مكلفاً، أيضاً، بالإشراف على تشكيل اللجنة القومية التي تقع على عاتقها مهمة تنظيم مساهمة القرية في الثورة المشتعلة في البلاد. وبعد أن انتهت الخطب، بدأت

المداولات حول تشكيل هذه اللجنة. فانبثقت الخلافات النابعة من إرث طويل من الخصومات والمنافسات بين حمائل آل الحوراني. ولكن التعبيرات عن هذه الخلافات لم تكن حادة، إذ إن جلال الموقف والحاجة للاتحاد في وجه الخطر ليّنا لهجة الجميع.

كان واضحاً أن جدّي عبد المجيد يريد أن يستأثر لنفسه ولآل سلمان من بين الحمائل بالحصة الكبرى في اللجنة. لكن رغبة الجدّ المزدوجة، هذه، لم تجد في معطيات الواقع إلا القليل مما يدعمها. أراد جدي عبد المجيد أن تناط به رئاسة اللجنة وأن تضم اللجنة جدي سلمان بوصفه المختار وابنه عمر بوصفه شيخ الشباب، وأن تتمثل كل حمولة أخرى بواحد من رجالها. وكانت أغلبية رجال القرية مستعدة للموافقة على إناطة رئاسة اللجنة بالجدّ، فهو في حسابات الجميع رجل المهمات الكبيرة، شريطة أن يقبل آل سلمان بأن يكون الجدّ هو ممثلهم الوحيد في اللجنة، فلا يستأثروا بمقاعد أخرى فيها. وفي معارضة رغبة الجدّ، اقترح أحدهم أن يتمّ اختيار الأعضاء على أساس دورهم في الجهاد. وكان الأخذ بهذا الاقتراح يعني، عملياً، تقليص نفوذ آل سلمان إلى أضيق الحدود. ذلك أن هذه الحمولة هي أقل حمائل الحوراني عدداً، والمنتظمون في سلك المجاهدين من رجالها هم الأقل، أيضاً. ولو قبل هذا الاقتراح فلن يصبح حتى الجدّ أبرز المرشحين لرئاسة اللجنة، فقد كان بين الموجودين، مثلاً، رجل جليل طيب السمعة هو الحاج عبد الهادي، وله ثلاثة أولاد شبان احترفوا الجهاد وبرزوا فيه. وما كان بين آل سلمان رجل واحد له هذه المكانة. كان الاقتراح في الظروف التي تسود فيها الدعوة للجهاد مغرياً، ولكن الجدّ اعترض عليه محتجاً بأن من الصعب التمييز بين المجاهدين فالكل مجاهد، من حمل السلاح من قبل ومن هو مستعد لحمله الآن. واقترح رجل آخر أن تضم اللجنة ثلاثة، فقط، رئيسها المتفق عليه، وهو جدي عبد المجيد، ومختاري القرية، جدّي سلمان والعم عبد الحميد. فاشتد الجدل من جديد، فالاقتراح يؤدي، فقط، إلى تعزيز سيطرة آل سلمان على اللجنة واستبعاد المجاهدين عنها.

طال الجدل دون التوصل إلى نتيجة محددة، وبدا أن الوصول إلى نتيجة كهذه متعذر مع تباين الآراء والمصالح واختلاط المقاييس وسطوة الاعتبارات التقليدية وتأثير الظروف المستجدة. وكان من الممكن أن ينفضّ الاجتماع دون أي اتفاق. لكن جدّي سلمان الذي كان قد بقي صامتاً طيلة الوقت تكلم. قال الجد الذي يحترمه الجميع: "نحن، كلنا، أقرباء ننحدر من جد واحد، وآل سلمان كغيرهم سواء بسواء، والوقت ليس وقت خلافات وانقسامات". واقترح الجدّ بعد أن أطفأ حديثه الهادئ حدّة الجدل أن يُترك الأمر لمشاورات متأنية بين رئيس اللجنة وهيئة اختيارية القرية التي تتمثل فيها الحمائل كلها ومندوب القيادة، ووعد بأن تسوى المسألة على عجل بأحسن وجه. ودعا الجد

الوجهاء المعنيين بالتشاور للانتقال إلى المضافة، حيث كانت وليمة الغداء قد أعدت من أجل مندوب القيادة.

يومها، توزع إعجابي الشديد بين الجدّين: جدّي عبد المجيد الحريص على إظهار تميز حمولتنا وجدّي سلمان الحريص على إظهار تواضعها!

وفي المضافة، جرى الجدل بصخب أقل، وسويت المسألة في نهاية المطاف على النحو الذي فرضه واقع الحال. وصارت للمسمية الصغيرة منذ ذلك اليوم لجنة قومية يترأسها جدّي عبد المجيد وفي عضويتها العم عبد الحميد والحاج عبد الهادي وممثلان لحمولتين أخريين، وأُرضيَ ممثلو الحمائل الأخرى، أو أُسكتوا. ولم تضم اللجنة أياً من المجاهدين المحترفين.

لم تكن الهزّة التي سببّها استشهاد عبد القادر الحسيني قد تلاشت حين تعرضت البلاد لهزة أخرى على أنباء المجزرة المريعة التي نفذتها قوة صهيونية في دير ياسين. اسم دير ياسين، الآن، شهير، ولم يبق أحد لم يسمع به ويعرف ما تمَّ من فظائع على أيدي المهاجمين الصهيونيين. لقد دهم الصهيونيون القرية وأهلها نيام فقتلوا الكبار والصغار ومثلوا بالجثث، وفعلوا هذا كله بدم بارد على نحو مدروس لا يدع مجالاً لأي شك في أن العملية أعدت لتزرع الهلع في أوساط العرب وتدفعهم إلى النزوح عند أول بادرة خطر. ومع أن الحجم الحقيقي للفظائع التي ارتكبها الصهيونيون في دير ياسين كان مريعاً بما فيه الكفاية لإثارة الجزع العام، فإن إعلام الطرفين، العربي واليهودي، بالغ في تصوير هذه الفظائع. فساهت المبالغة عن قصد وعن غير قصد في تعميم الإحساس بالخطر ونشره في كل مكان. وفي المسمية الصغيرة، كان الخطر الصهيوني حتى مجزرة دير ياسين خطراً عاماً يستهدف البلاد بالإجمال، فصار بعد المجزرة خطراً عينياً يحس الناس في القرية بأنه محدق بهم وأنه يستهدف حياتهم وأعراضهم هم بالذات.

وكان من أول نتائج استفحال الخطر أن حسمت مسألة الحصول على السلاح. لقد أظهرت الحكاية التي اقترنت باستشهاد عبد القادر الحسيني أن وعود الدول العربية بتوفير السلاح لعرب فلسطين ليست أصدق كثيراً من وعود، عرقوب. فيما أظهرت مجزرة دير ياسين أن لا مناص من اقتناء السلاح أياً ما كان ثمنه والجهود المطلوبة للحصول عليه. والواقع أن كثيرين من أهل القرية بادروا بعد المجزرة للتضحية حتى بأعز ما لديهم من أجل تأمين ثمن السلاح، فمنهم من باع حليّ زوجته أو رهن محصول موسمه القادم أو استدان، ومنهم من باع حتى الدّابّة التي يعتمد عليها عمله. ونظمت اللجنة القومية ما يشبه الاكتتاب، حيث سجل الراغبون في الحصول على البنادق أسماءهم

ودفعوا ثمنها المفترض، وتبرع المقتدرون بما يزيد على هذا الثمن، بحيث أمكن توفير أثمان عشر بنادق من التبرعات، لكي توزع على الراغبين في الجهاد ممن عجزوا عجزاً تاماً عن توفير ثمن بنادقهم.

كان تحرك المسمية الصغيرة في هذا الاتجاه جزءاً من حركة أشمل اشترك فيها بضع قرى متجاورة في المنطقة. وتشكل من ناس هذه القرى الوفد الذي أوكلت إليه مهمة السفر إلى مصر لشراء السلاح من السوق السوداء فيها. وقد أنيطت بمدير المدرسة مهمة رئاسة الوفد وسلمت له الأموال، وانعقدت آمال واسعة على عودته ظافراً. وعندما سافر الوفد الباحث عن السلاح إلى مصر، كانت ثلاثة أسابيع أو أربعة، فقط، تفصل فلسطين عن الموعد الذي تقرر أن تدخل فيه الجيوش العربية لنجدة أهلها، أي عن الخامس عشر من أيار/ مايو ١٩٤٨، وهو موعد إتمام الجلاء البريطاني عن البلاد. وقد شهدت هذه الأسابيع القليلة سلسلة من الأحداث الحاسمة التي تواترت بسرعة لم يسبق لها مثيل، وانتهت بأن أدخلت أهل قريتنا الصغيرة في معمعان الصراع الدامي.

ففي هذه الأسابيع، شدّد الصهيونيون هجماتهم للسيطرة على مدينة القدس والمناطق الهامة المحيطة بها. وللقدس، كما تعرف، حساسيتها الخاصة عند أهل البلاد، وقد اتصلت الاشتباكات فيها وحولها دون انقطاع. وبعد القسطل التي عاد الصهيونيون إلى مهاجمتها، حاول هؤلاء الاستيلاء على "باب الواد" الموقع الآخر الذي يتحكم بأحد المداخل الرئيسة نحو البلدة المقدسة. هنا، في هذا المكان ذي الحصانة الطبيعية، دارت أعتى الاشتباكات وتلاحقت حيث استبسل المدافعون العرب واستشرس المهاجمون الصهيونيون في صراع طاحن. وهنا، خاض مجاهدو قريتنا أولى المعارك الحامية التي اشتركوا فيها في تلك الفترة، فقد تكونت منهم قوة للنجدة شارك فيها جدّي عبد المجيد بنفسه وانضمت إلى نجدات القرى الأخرى التي ذهبت لإسناد المدافعين العرب عن الموقع الهام. وفي وسط البلاد، شدد الصهيونيون حملاتهم للسيطرة على مدينتي "حيفا" و"يافا"، وتواطأ معهم قادة الوحدات العسكرية البريطانية المتجمعة في هذين الميناءين قبل الرحيل، فتمت السيطرة على المدينتين وأُجلي عنهما معظم سكانهما العرب بالقوة، وأديرت عملية الإجلاء بحيث تتم عبر البحر حتى لا يتاح لهم أن ينتقلوا إلى المناطق المجاورة لمدينتهما فيعملوا بعد ذلك على إقلاق من يحتلونهما. أما في المنطقة الجنوبية، فقد بادر الصهيونيون للعمل، بالرغم من تواجدهم غير الكثيف فيها. هنا، ركز الصهيونيون حملاتهم على القرى الواقعة عند عُقَدِ الطرق المؤدية إلى مستعمراتهم المتفرقة في المنطقة. فكان أن تحولت "بيت دراس" العزيزة على قلوب أهل المسمية الصغيرة إلى هدف لهجمات صهيونية متلاحقة، وذلك لأن بيت دراس بأهلها المعروفين بشدة بأسهم تشرف على مفترق طرق شديد الأهمية.

وحين اشتد الخطر على بيت دراس، تداعى مجاهدو المسمية الصغيرة لنجدة القرية الصديقة الباسلة، بالرغم من حاجتهم للبقاء في قريتهم لضمان الدفاع عنها فيما يقترب الخطر منها. واستقر الرأي على أن يذهب قسم من مجاهدي المسمية إلى بيت دراس. وتحمس كثيرون للذهاب مع النجدة وكان بين هؤلاء أبناء الحاج عبد الهادي المجاهدون الثلاثة، وأكبرهم الشيخ عبد الرحمن الذي لم يفلح أحد في ثنيه عن الذهاب مع النجدة. ورأى الناس أن من غير الإنصاف أن يشترك إخوة ثلاثة معاً في هذه المهمة الخطرة. وحاول الناس الضغط على الإخوة كي يقنعوهم بأن تقتصر المشاركة على واحد منهم. ورضخ الإخوة للضغط مع إصرار كل واحد منهم على أن يكون هو ذلك المشترك. وكان أن أجريت قرعة فرسا الاختيار على أوسط الإخوة عمراً وهو إبراهيم. وقد رضي ثالث الإخوة وهو عبد اللطيف بالنتيجة. ولكن الشيخ عبد الرحمن الذي فاتته القرعة أبى أن يتخلف عن النجدة. وهكذا ذهب هو وأخوه إبراهيم كلاهما مع الذاهبين الذين أنجدوا القرية المحاصرة وساهموا في فك الحصار عنها. وفي طريق العودة من بيت دراس إلى المسمية الصغيرة، فيما كان العائدون المبتهجون بالنصر يرددون الأهازيج، فاجأتهم قافلة صهيونية عسكرية من تلك القوافل التي تحرسها الدبابات البريطانية، كانوا قرابة دزينة من المجاهدين المشاة حملة البنادق في مواجهة قوة صهيونية بريطانية محمولة على السيارات ومدعمة بالدبابات والمدافع والرشاشات، وكانت المعركة التي واجهت العين فيها المخرز، وتصدى فيها العدل البسيط والإيمان الصافي للظلم المدجج بالسلاح والمؤطر بأحدث منجزات العلم. في هذه المعركة، استشهد ابنا الحاج عبد الهادي الأخوان عبد الرحمن وإبراهيم كلاهما، وروى دمهما بالمعنى الحرفيّ للكلمة الزرع في ذلك الحقل الذي أسلما فيه الروح.

ومع الجثمانين اللذين حملهما رفاق الجهاد، وصلت إلى المسمية الصغيرة الأنباء التي رواها الرفاق عن بسالة الأخوين ووفود القرى التي عبرها الموكب والتي جاءت لتشارك أهل المسمية الصغيرة الاحتفال بمجد الاستشهاد. وحين أقبل الحشد على القرية، كان فصيل الأولاد، وفي عداده عبد الله الأخ الصغير للشهيدين، يمارس تدريباته في الفضاء المحيط بالقرية من ناحية البئر ويحاول أن يجتذب إليه أنظار الرجال المجتمعين تحت السدرة للتداول في شأن من الشؤون. وقد جرينا لنحيط بالقادمين، ولم ننتبه إلى أن في الأمر شيئاً غير عادي إلا حين اتجه الحشد ناحية دار الحاج عبد الهادي. عندها، فارقنا عبد الله متعجلاً الدخول إلى الدار وتسارعت خطوات الحاج عبد الهادي القادم من ناحية السدرة مع جمع الرجال. وكنّا حتى تلك اللحظات ما نزال نمارس عبثنا المألوف ونحيط الحشد الصامت بصخبنا الصبياني. لكن النبأ لم يلبث أن سرى بيننا فسرى معه

الصمت الذي صار سيّد الموقف. ووجه الحاج عبد الهادي الذي أحاط به الوافدون مع الجثمانين بالنبأ قبل أن يدخل داره. ومع أن فقد الابنين معاً أثقل من أن يحتمله أعتى الرجال، فقد تجلّد الحاج واحتفظ بصمته، غير أن جسده ناء بالعبء فتهاوى فأسنده المحيطون به وأدخلوه الدار. هناك، كان عبد الله الجالس إزاء الجثمانين يجهش بالبكاء والدموع تغرق وجهه. وبصوت كليل، انتهر الحاج عبد الهدي ابنه الطفل: "لا تبك! أخواك شهيدان في ذمة الله، والشهيد حبيب الله". لكن الحاج لم يلبث هو نفسه أن استسلم للبكاء.

بعد أسبوع واحد من استشهاد الأخوين، ذهبت نجدة أخرى من المسمية الصغيرة إلى بيت دراس التي لم يكف الصهيونيون عن مهاجمتها. وكان في عداد النجدة الجديدة أخو الشهيدين عبد اللطيف الذي لم تقنعه أيّ حجّة بتجنب الخطر. وقد تكرر هذه المرة، أيضاً، ما وقع في المرة السابقة. فبعد النجاح في فك الحصار عن بيت دراس، واجهت النجدة في طريق العودة وفي المكان ذاته القافلة الصهيونية البريطانية ذاتها. وشاء المجاهدون الذين أصبحوا أوفر خبرة أن يتجنبوا الدخول في معركة غير متكافئة. وكان هؤلاء يتشاورون حول أنجع الوسائل للتواري عن الأنظار حين سبقت رشاشات القافلة قرارهم، وفرضت عليهم الاشتباك معها. وكان الشهيد هذه المرة هو الحاج أحمد عبد العزيز الرجل الخمسينيّ عمّ الشهيدين السابقين.

لم يكن إرسال النجدات وتقديم الشهداء المظهر الوحيد لانخراط المسمية الصغيرة انخراطاً مباشراً في الأحداث التي تهزّ البلاد وتأثرها العميق بها. فقد ترتب على القرية أعباء أخرى لعل أبرزها في تلك الفترة كان المشاركة في إيواء المواطنين الذين استولى الصهيونيون على مناطقهم وأجلوهم عنها. وما تزال في ذاكرتي الصورة التفصيلية للفوج الأول من هؤلاء الذين لجأوا إلى القرية. جاء هذا الفوج من "سلمة". وهي قرية قريبة من يافا، ظلت منذ انفجار الأحداث تقاوم وتصد الهجمات وتحمي أحد الطرق المؤدية إلى يافا، إلى أن سقطت يافا ذاتها. بعدها، تمكن الصهيونيون من قهر سلمة واستولوا على القرية الجميلة، هي التي سبق لي أن رأيتها في تلك الرحلة التي حدثتك عنا، ومحيطها الخصيب الذي تزينه بيارات البرتقال. ولسبب ما، ربما كان قرابة أو نسباً أو صداقة حميمة، اختار بعض أسر سلمة الناجية من الموت اللجوء إلى المسمية الصغيرة، فيما توزعت الأسر الأخرى هنا وهناك في أرجاء البلاد، أو حملتها المراكب إلى خارجها.

كان في قريتنا في الناحية التي تقوم فيها دور آل سلمان دار غير مسكونة خلّفها عمي سعيد، بعد وفاته. أنا لا أعرف العم سعيد، فقد مات قبل أن أولد، ولكني أعرف الحكاية

الغريبة التي تتداولها الأسرة بشأنه. لقد هاجر هذا العم في شبابه الأول إلى القارة الأميركية، ثم عاد إلى القرية وهو كهل مثقل بالهموم والأمراض. وروى العم عن غربته حكايات لم يؤكدها سواه، فقال إنه عاش هناك حياة رخيّة وجمع ثروة معتبرة فصار لديه رأسمال قرر أن يعود به إلى القرية ويستمتع به بين أقربائه. وقال العم إن باخرة العودة حملته من البلاد البعيدة إلى الإسكندرية ومنها انتقل إلى القاهرة وركب أول قطار مسافر إلى فلسطين. في هذا القطار، فقد العمّ المال الذي حمله معه، ولم يبق له من الثروة التي تحدث عنها إلا ساعة جيب فضية، من ماركة "أوميغا"، كان العم يظهرها لكل من يلقاه ليدلل على أنه قد شهد، حقاً، أيام عزّ سالفة في الغربة. أما كيف فقد العم العائد ماله كله، فروايته تقول إن مجموعة من اللصوص الخبثاء شاركته مقصورته في القاطرة ودسّت له مخدراً أو نفثت في وجهه دخان مخدر حتى غاب عن الوعي، فسلبته ماله واختفت قبل أن يصحو. ولم يعمر العم طويلاً بعد عودته. ولأمر ما، لم يستخدم أحد داره بعد وفاته، ولكثرة ما أحاط بهذه الدار من حكايا، كنّا، نحن الأولاد، لا نجرؤ حتى على التسلل إليها في أوقات عبثنا، بل لقد انتهينا إلى أن نسينا وجودها، ولم نتذكرها إلا حين فتحت لإيواء هذه الأسر القادمة من سلمة.

شغل وصول اللاجئين القرية كلها صغارها وكبارها. وأنت تعرف أن القرية معتادة على استقبال الزوار والحفاوة بهم. ومن الحق أن هؤلاء الوافدين الجدد استقبلوا بالحفاوة المعهودة وعوملوا معاملة الضيوف. غير أن الأمر كان مختلفاً هذه المرة. ويصعب عليّ أن أصف الفرق، إنه شيء يتعلق بالمشاعر، فقد خلا الاستقبال من البهجة التي ترافق احتفال الناس بزوارهم، واقتصرت مشاعر الزوار على الإحساس بالامتنان الشديد إزاء الحفاوة التي خصوا بها دون أن يبدو أنّ في الأمر ما يبهجهم. لقد تناوب وجهاء الحمائل دعوة الوافدين إلى ولائم الغداء أو العشاء، إلا أن هذه الولائم افتقرت إلى ذلك النوع من الإحساس بالتواصل النديّ الذي يسود الولائم العادية. وتعاقب أهل القرية على زيارة الوافدين في الدار التي احتشدوا فيها. غير أن الأحاديث لم تكن سلسلة ولا هيّنة، بل شابها ذلك الإحساس بالفرق بين منزلة الزائر ومنزلة المضيف، وأخذ معظمها طابع التحقيق حول ملابسات المأساة التي حلّت بأهل سلمة، فأضفى على الجوّ ذلك النوع من التحرج الذي يسببه في العادة فتح الجروح.

ويوم زرت الدار بصحبة جدتي مدللة، جلسنا هي وأنا مع نسوة مبلبلات الأفكار زائغات النظرات غير قادرات على التصرف بالثقة التي تميز تصرف المضيف في داره. والأطفال الذين جاءوا بصحبة هذه الأسر ما كانوا كالأطفال العاديين، بل كانوا أقرب إلى الدمى التي لا تتحرك إلا بفعل فاعل. جمدت حركة الأطفال الذاتية، وانطفأت رغبتهم في المعابثة،

وغاض الفرح في عيونهم، وكساهم خليط من الخوف والتهيب والأسى، وظهر هذا كله في نظراتهم وتعبيرات وجوههم وحركاتهم، وحال بينهم وبين تحقيق تواصل حميم طبيعي معنا، نحن مجايليهم.

لقد أثر فينا وجود هؤلاء المهاجرين تأثيراً عميقاً. كنا نعرف قبل مجيئهم أن أهل البلاد مهددون بالاقتلاع عن وطنهم. أما بعد أن صار هؤلاء بيننا، فقد عاينا هذا الخطر بالملموس، وشاهدنا أبعاده بأمهات العيون.

وكانت مشاعر الناس، على العموم، معقدة في تلك الأيام التي سبقت دخول الجيوش العربية فلسطين، أو لنقل إنها كانت موزعة في اتجاهات متباينة. كان الناس يشهدون الكارثة التي تزحف من حولهم فيشتد قلقهم على المصير، وكانوا يتلقون في الوقت ذاته أنباء المقاومة الباسلة الواقفة في وجه الكارثة، فيتعزّون. وفي الحالتين، كان الناس يعلقون الآمال على يوم الخامس عشر من أيار / مايو، فيحثون أنفسهم على الصبر والصمود. وبين هذا وذاك، تتماوج المعنويات بين القاع والذروة، وتتلون المشاعر بين اليأس والتفاؤل، ولا يتيسر لأحد الاستقرار.

-١٨-

في رمضان
جاء الإنذار، فأخذوها في الليل

حل اليوم المرتقب، فشهد الأحداث الثلاثة المتوقعة المتباينة:إتمام الجلاء البريطاني عن فلسطين، والإعلان عن قيام دولة إسرائيل فيها، ودخول الجيوش العربية إليها. بين الأحداث الثلاثة، تركزت أنظار عرب فلسطين على قدوم الجيوش الشقيقة لنجدتهم. فجلاء القوات البريطانية لم يعن أكثر من الشرط الذي لا بدّ منه كي تدخل هذه الجيوش. والإعلان عن قيام إسرائيل لم يبدل بالنسبة لأهل البلاد حقائق الواقع ما داموا يرفضون أي وجود مستقل للجانب اليهودي في بلادهم، سواء تمثل هذا الوجود في الييشوف أو في دولة.

في صبيحة الخامس عشر من أيار / مايو، بدت المسمية الصغيرة كأنها في يوم عيد. فخرج الناس كلّهم من منازلهم، الأولاد والنساء والرجال. والذين يملكون السلاح علّقوا بنادقهم على أكتافهم أو تنمطقوا بأحزمة مسدساتهم وملأوا أجنابهم بأجندة الذخيرة. وصار راديو جدّي عبد المجيد ملك الساحة في هذا اليوم. فالراديو، هذا الذي سبق أن نقل من الدار الكبيرة إلى المضافة، نقل منذ الضحى مع بطاريته الكبيرة إلى المصطبة أمام دكان العم محمود، وتحلق الناس حوله جالسين أو واقفين، وراحوا يتنصتون وينقلون ما يسمعونه إلى سواهم، فيما برز العم محمود وسط الحلقة مزدهياً ببندقية جديدة، وأخذ يوزع القهوة وقناني الشراب على زوّار مصطبته، ورفض أن يكشف المصدر الذي حصل منه على البندقية.

ألغت الإذاعات العربية برامجها العادية في هذا اليوم، وأطلقت العنان على آخره للفقرات الصاخبة. فتعاقبت المارشات العسكرية المجلجلة والخطب والأحاديث والبلاغات الحربية ونشرات الأخبار المفعمة بالحماس. وكان في هذا كله ما يطرب أسماع الفلاحين المتعطشين للخلاص، هؤلاء الذين ظنوا أن هذا الهرج وهذا المرج سوف ينقذانهم من الخطر المحدق بهم. وبتأثير هذه الجلبة وما اقترن بها من آمال، نسي فلاحونا مخاوفهم السابقة، وغاضت هواجسهم، وغطى البشر المشتعل مع قعقعة المارشات العسكرية على مشاعر القلق التي هدّت الأعصاب في الأشهر الأخيرة. وبالرغم من أن التجارب السابقة مع تدخلات الدول العربية في الشأن الفلسطيني لا تسوغ هذا التفاؤل، فقد بدا أن ناسنا بحاجة لأي أمل من أي نوع كي يخففوا وقع الخطر الماثل الذي ينذر بفقدان كل شيء. ولم تبخل الإذاعات العربية وخطب الحكام العرب المنقولة عبر هذه الإذاعات بما يغذي أملاً كهذا. وراحت البلاغات الحربية تصف أنباء انتصارات الجيوش العربية وتفاصيل المعارك التي تخوضها في شمال البلاد وشرقها وجنوبها، ومع كل بلاغ جديد تضجُّ المصطبة بتهاليل المتحلقين حول الراديو: اقتحم الجيش المصري الحدود من ناحية العريش وأخذت آلياته تطوي الأرض طيّاً باتجاه وسط البلاد وتكنس في طريقها المقاومة التي تبديها المستعمرات اليهودية المتفرقة، هنا وهناك. واتجهت وحدات أردنية نحو مدينة القدس وأخذت على عاتقها مهمة الدفاع عن البلدة المقدسة. وتقاسمت الوحدات السورية والعراقية واللبنانية مناطق شمال البلاد واشتبكت مع القوات الصهيونية المتحصنة فيها. وانضاف إلى هذا كله وحدات سعودية وأخرى يمنية جاءت لتقديم الدعم هنا أو هناك. والى هذا كله، أبلغ الراديو إلى مستمعيه أن ألوف المتطوعين تدفقوا إلى البلاد، جاء بعضهم من سورية ولبنان والعراق والأردن ليدعم جيش الإنقاذ الذي سبق أن أسسته جامعة الدول العربية، وجاء آخرون من مصر لينضموا إلى مجموعات المتطوعين الشعبيين الذين اختاروا التوجه إلى الخليل والقدس كي يدافعوا عن الأماكن المقدسة. وما كان لأحد من فلاحينا، وهو تحت سطوة إعلام يبهرج الوقائع، أن يشك في فعالية هذا الحشد العربي. ومن الذي كان سيصدق أن جيوش سبع دول عربية ومتطوعيها لا يملكون، لا من حيث العدد المطلق ولا العتاد ولا مستوى التدريب، القوى اللازمة لوضع حد لغطرسة المنظمات الصهيونية، تلك المنظمات التي يتحدث عنها الراديو بصيغة "الشراذم المكونة من شذّاذ الافاق".

في تلك الصبيحة، التي يستحيل أن تغيب تفاصيلها عن الذاكرة في أي وقت من الأوقات، كنت مأخوذاً كالآخرين بما أسمع وأرى، فلا يقرّ لي قرار. وقد توزع نشاطي بين المضافة التي أبقى جدّي سلمان قهوتها جاهزة والمصطبة التي يلعلع عندها الراديو وحلقات

الأولاد، حيث تدور أعتى المناقشات حول الأحداث وتفسيراتها. وكنت عند المصطبة حين أقبل عبد الله مهنا "أبو جهاد" على حصانه المميز، وقد حملت تعابير وجهه إمارات لا تخطىء العين مدلولها، فهو قادم من أجل أمر كبير. لم ينضم أبو جهاد للجالسين على المصطبة، بل اكتفى بتوجيه التحية، ثم اصطحب أعضاء اللجنة القومية ووجهاء المجاهدين وتوجه معهم إلى المضافة.

ولم يلبث أن عرفت القرية أن قائد الفصيل يهيىء لمعركة كبيرة، وأنه ظفر بموافقة لجنتنا القومية على المشاركة فيها. ثم لم ينقضِ النهار حتى تبين أن هدف المعركة هو الاستيلاء على كنب وادي الصرار، فالتهبت مشاعر الناس بدفقة هائلة من الحماس توّجت الحماس العام الذي شهده هذا اليوم الفريد.

يقع كنب وادي الصرار على بعد كيلو مترات شمال المسميتين، وهو معسكر كبير شغلته القوات البريطانية طيلة مدة إقامتها في البلاد، وحين جلت عنه تسلمته وحدة من الهاغاناه، وهي وحدة يمكن التغلب عليها بإمكاناتها الحالية، أما إذا تركت لشأنها فمن غير المستبعد أن تحصل على تعزيزات جديدة، فيتعذر التغلب عليها بعد ذلك. وقد اقترح أبو جهاد خطة لاقتحام المعسكر بالتعاون بين فصيل المسميتين ومجاهدي ستّ قرى أخرى أو سبع.

انشغلت القرية كلها في الاستعداد للعملية التي تقرر أن تبدأ في اليوم التالي، فترتب على النساء أن ينصرفن لإعداد الطعام الذي سيتزود به المجاهدون. وتبرع العم محمود وأبو زكري بأرطال من الحلاوة. وتحولت المضافة إلى خليّة نحل. ووزّع جدي عبد المجيد نشاطه بين المضافة والمشروع الذي لم يتوقف العمل فيه بل انتعش مع انتعاش الأمل العام، بالرغم من أن المهندس إبراهيم توقف عن المجيء إليه. وراح خالي عمر يحاول أن يفعل شيئاً لتنظيم مساهمة الشبّان في المعركة. والحقيقة أن الاستعداد للمعركة الكبيرة كشف أكثر مما فعل أي شيء آخر مدى افتقار القرية للسلاح. ففي ختام الحسابات كلها، تبين أن عدد الذين يملكون بنادق لا يتجاوز الثلاثين، وأن بنادقهم من أنواع ومقاييس مختلفة، وبعضه لا تتوفر له الذخيرة الملائمة. ولم يكن هناك أي أمل معقول بعودة قريبة للوفد الذي يبحث عن السلاح في مصر والذي انقطعت أخباره منذ ذهابه.

ويبدو أن قائد الفصيل المجرّب استشعر خطورة نقص السلاح لدى مجاهديه مع الحاجة الشديدة إليه في هذه المعركة التي سيضطرون فيها لمهاجمة الهاغاناه في المعسكر البريطاني الذي تسلمته بمستودعات أسلحته وتحصيناته الكثيرة. وقد تحرك أبو جهاد بدافع هذه الحاجة، فانتقى وفداً من وجهاء المجاهدين، وتوجه بصحبته لزيارة وحدة من جيش الإنقاذ كانت تتواجد قريباً من المعسكر من ناحية الرملة. ولما رجع الوفد كان في جعبته

وعد بالمساعدة وإن لم يظفر بسلاح جديد. وفي المساء، غادرنا مسلحو قريتنا الثلاثون، ومعهم البرنّ العتيد الذي اشتراه خالي نافذ من العسكريين البريطانيين، وعدد آخر من الرجال المتحمسين، هؤلاء الذين رغبوا في أن يشهدوا المعركة، بالرغم من افتقارهم للسلاح الناري، فتسلحوا بالخناجر والسيوف.

لم تَنمِ القرية في تلك الليلة إلا لماماً، فقد انعقدت الجلسات العامة حتى ساعة متقدمة من الليل. وعندما تفرق الناس، طغى القلق على معظمهم فحرمهم النوم المريح. في هذا الجوّ، لم يهتم أحد بمراقبة ما يفعله الصغار. وقد تهيأت لنا الفرصة لنستجيب لحماسنا المفرط على مداه، فنثبت أن فصيل الأولاد يستطيع أن يكون نافعاً. وهكذا، ودون أن يطلب منا أحد ذلك أو ينتبه لما نقوم به، أخذنا على عاتقنا مهمة تنظيم الحراسة حول القرية وحمايتها من أي طارئ. كنا مسوقين بالرغبة في المشاركة بعمل أي شيء، ولم يتوقف أي منا عند السؤال الذي قد يخطر ببالك: ما الذي كان بمقدورنا أن نفعله لو دهم القرية هذا الطارئ؟!

ليلتها، توجب عليّ أن أكمن للحراسة مع واحد من الأقران في الحاكورة التي خلف البئر، لنراقب الجهة التي تلي وادي الزريقة من تلك الناحية. والحقيقة أن المهمة أمتعتنا، في البداية، ففي الحاكورة التي ينيرها القمر الكثير مما يمكن أكله والتسلي به، وصخب الحلقة الضاجة عند البئر يؤنسنا، فيما يوفر لنا وجودنا في موقع أداء الواجب تلك الأحاسيس الغامضة التي تملأ الروح بالرضا عن النفس. غير أن الحال تبدل بعد أن اختفى القمر وتفرقت الحلقة الضاجّة وواجهنا هذا المدى المعتم والجرس المهول الذي يكتنفه. وأصبحت العيون والآذان عاجزة عن اختراق ما يحيط بها. هنا، تصارع الإحساس المستجدّ بالرهبة مع وقدة الحماس المتبقية، وتسلل إلى النفس الطفلة ذلك الخوف الذي يخجل الطفل المضطلع بدور الكبار من الإفصاح عنه صراحة. ودون أن نتفق على ذلك، حاولنا، قريني وأنا، أن نسلّي أنفسنا بافتعال أحاديث تدور حول نقاط منشطة للهمم، غير أن هذا لم ينفع إلا لبعض الوقت. وكان لا بد بعد ذلك من أن يستسلم كل منا لهواجسه المتزايدة وينطوي عليها. وجاء وقت صار فيه الخوف هو الإحساس الوحيد الذي يملأ جسدي وروحي. والحقيقة أني فكرت بالانسحاب أكثر من مرة. ولم يمنعني من الانسحاب إلا خوفي من شماتة الأقران حين يكتشفون جبني. ولست أدري ما الذي كان سينتهي إليه أمري لو لم يجئني الفرج على يد راعيتي الأمينة: ظهرت وضحة الكبيرة في الحاكورة على غير توقع، وهتفت باسمي بصوت جهور، فجريتُ ناحية الصوت ناسياً حتى أن أودع قريني، وأسلمت نفسي للحضن الحفيّ.

في ضحى اليوم التالي، انتشلتني من نومي العميق جلبة غير عادية: حركات ضاجّة وزغاريد ونداءات صاخبة. جاءت، إذن، أولى البشائر: ظفر المجاهدون بالمعسكر ونصبوا العلم العربيّ على ساريته العالية. ثم عرف الناس التفاصيل: نظم أبو جهاد الهجوم بحيث يبدأ قبل إشراقة الضوء، ففاجأ رجال الهاغاناه مفاجأة تامة وأربكهم، فانهارت مقاومتهم واستولى المجاهدون على المعسكر. وقد اشتركت في الهجوم وحدة من جيش الإنقاذ يقودها ضابط سوري وصل إلى الموقع بصحبة جنوده الخمسين قبل الهجوم بساعات. وغنم المجاهدون ثلاث مصفحات. وفي غمرة الابتهاج بالظفر، لم تستوقف الناس الأنباء التي تصف الوجه الآخر من الصورة، فقد فقد المجاهدون في الهجوم خمسين شهيداً بينهم ثلاثة من أهل قريتنا، ولم يغنم المجاهدون أيّ أسلحة أو ذخائر، لأن المدافعين عن المعسكر تمكنوا من تفجير المستودع قبل انسحابهم منه.

ومع أن الناس عرفوا تفاصيل المعركة من رسول المجاهدين الذي حملها إلى القرية على عجل، فقد شاقهم أن يعرفوا ما الذي سيقوله الراديو بشأنها. ولأن العم محمود كان قد ذهب مع المجاهدين، فقد أعيد الراديو إلى المضافة، فاحتشد هناك خلق كثير منتظرين سماع النبأ. إلا أن نشرات الأخبار تعاقبت الواحدة تلو الأخرى، وأبلغت إلى الناس أنباء العمليات التي تقوم بها الجيوش العربية على كل الجبهات، دون ذكر، أو حتى إشارة، للعملية التي تشغل البال. كنت أنتظر مع المنتظرين في المضافة لبعض الوقت، وحين يزعجني الانتظار أغادر المضافة وأشارك الأولاد نشاطاتهم، لأعود من جديد إلى المضافة. وهكذا، على مدى ساعات، والراديو ممعن في تجاهله للعملية، والناس موزعو المشاعر بين مندهش ومتبرم وداعٍ لمزيد من الانتظار.

وفجأة، وكان ذلك مع العصر، انشغل الناس بما صرف أذهانهم كلية عن الاهتمام بالراديو وأنبائه. فقد امتلأت أرجاء القرية بضجيج لا مثيل له، إنها المصفحات الثلاث التي غنمها المجاهدون في المعركة يقودها جنود من جيش الإنقاذ، وهي تطوف القرى لتظهرها على العلامة الدالّة على الانتصار وتنقل إليها، في الوقت ذاته، أجداث شهدائها. وغني عن البيان أن أهل القرية كلهم قد التفوا حول المصفحات وواكبوها في جولتها في أرجاء القرية.

وقد توزعت المشاعر بين الابتهاج بالغنيمة الثمينة والأسى على المفقودين، واختلطت الأهازيج الحماسية بالترحمات على الراحلين. في تلك العصيرة، انفتحت في مقبرة المسمية الصغيرة ثلاثة قبور جديدة، وأُهيل التراب على أجداث الشهداء بملابسهم المدماة التي كانت بمثابة أكفان، دون أن تهبط الخسارة الكبيرة بمعنويات الناس التي احتفظت بألقها التام، وغادرت المصفحات القرية لتكمل جولتها في القرى الأخرى.

وفي المساء، احتشد رجال القرية في دار جدّي سلمان للوليمة الاحتفالية التي دعا الجد إليها ذوي الشهداء الثلاثة. وانتصب حديث المحتشدين كله على أنباء المعركة ونتائجها، وخلا الجوّ تماماً من مسحة الأسى التي تجلل المآتم. وحين حلّ موعد نشرة الأخبار المسائية والناس بين مصغٍ لها ومنصرف عنها، التقطت الأسماع أخيراً اسم وادي الصرار، فتنبه الجميع. وجلجل صوت المذيع المتحمس وهو ينقل إلى مستمعيه نص البلاغ الحربي الصادر عن قيادة جيش الإنقاذ حول معركة وادي الصرار العظيمة. وأصغى الناس بانتباه مشدودين لكل كلمة وكل نبرة في صوت المذيع، فما الذي سمعوه في البلاغ؟ إن جيش الإنقاذ، تنفيذاً للأوامر الصادرة إليه من قائده العام، اقتحم معسكر وادي الصرار الحصين وأوقع في صفوف العصابات الصهيونية المتمترسة فيه إصابات كبيرة في الأرواح والعتاد وألجأ الناجين من الموت إلى الفرار وغنم عدداً وفيراً من المعدات الحربية. وانتهى البلاغ بالتأكيد على أن جيش الإنقاذ الذي لقن شذاذ الآفاق هؤلاء درساً لن ينسوه مصمم على مواصلة معركة تحرير فلسطين وتطهيرها من الغاصبين. كل هذا دون ذكر قريب أو بعيد للمجاهدين الفلسطينيين الذين حرروا المعسكر أو لشهدائهم الذين فدوه بأرواحهم.

ولك، بعد، أن تتصور ما الذي حلّ بالناس بعد أن انتهى البلاغ على هذا النحو. أما أنا فأستطيع أن أقول لك إن الإحساس بالغبن الفادح هو الذي سيطر عليّ في تلك اللحظات. وقد جريت ناحية جدي سلمان، لا أدري لماذا، فإذا الجدّ الحبيب مطرق، وهو يردد بصوت لوّنه الأسى بجرس كئيب: "واصبر، وما صبرك إلا بالله"!

في الصباح، تسرب إلى المسمية الصغيرة نبأ يفيد أن ناس القرى المجاورة يتوجهون إلى المعسكر حيث تبين أن بين موجوداته الكثير مما يمكن أن ينتفعوا به. وما كاد النبأ يشيع حتى بدأت حركة أهل القرية على الطريق الطويل المؤدي إلى المعسكر. ثم لم يلبث أن اختلط أهالي القرى العديدة بعضهم ببعض، فتشكل من الجميع ما يشبه القافلة. وقد انصب هذا الحشد كله مع انتصاف النهار في المعسكر. والتقى المجاهدون بأسرهم. وبدأ ذلك الاحتفال المرتجل الذي فاقت روعته روعة أي احتفال آخر: دبكات رجال، ورقصات نساء، وأغان وتهاليل وزغاريد تنبع من الروح وتعكس الأفراح والآمال التي تصطخب فيها. وفي غضون ذلك، بدأتْ، أيضاً، عملية الاستيلاء على ما ينفع من موجودات المعسكر الباقية، وانتقى كل إنسان، رجل أو امراة أو طفل، شيئاً يحمله ليعود به إلى قريته، فمنهم من حمل فرشاً أو بطاطين أو علب أغذية، ومنهم من اختار أداة ما أو قطعة حديد أو لوحاً من الخشب.

كنت قد رافقت الحشد مع عدد من أقراني. وقد فعلنا الأعاجيب لنعبر عن بهجتنا في الاحتفال. وحين بدأت عملية الاستيلاء على الموجودات، فعلنا ما فعله الآخرون. وقد انتقيت عاموداً دقيقاً من الخشب طويلاً ورفيعاً، اخترته لأني سمعت جدتي تذكر ذات يوم حاجتها لشيء كهذا، فأردت أن أُتحفها به، هي التي لم تأت إلى المعسكر. وتحمستُ للغنيمة حماساً شديداً، وانطلقت في طريق العودة مع الآخرين جارّاً العاموود وأنا أسرع الخطا متعجلاً إبهاج الجدّة بالمفاجأة. غير أن حماسي أخذ يغيض أولاً بأول، فقد شوت الأرض المسفلتة قدميَّ الحافيتين، وألهبت أشعة الشمس رأسي، واكتوت كفّاي بالحرارة الناجمة عن احتكاكهما المتواصل بالخشب الخشن. ومع امتداد الطريق واتصال الآلام، تطور الأمر من سيىء إلى اسوأ حتى صار فوق طاقتي. ففعلت ما فعله كثيرون غيري من الصغار والكبار ممن تخففوا من عبء أحمالهم فألقوها، كلّها أو بعضها، على الطريق، وتخليت عن العامود محتفظاً بالأمل بأن أبهج جدّتي بشيء آخر، بالحكايا التي سأرويها لها عن عجائب هذا اليوم.

كانت معركة وادي الصرار الرافعة التي شالت معنويات مجاهدينا فارتفعت بها إلى الأوج، إلا أنها تحولت بعد حين قصير إلى المنعطف الذي هبطت منه هذه المعنويات مرة أخرى إلى القاع. فالفرحة بالاستيلاء على المعسكر لم تعمر طويلاً. ففي غياب العدد الكافي من المسلحين المتفرغين للجهاد، توجب على المجاهدين الذين استولوا على المعسكر أن يعودوا بعد أيام إلى قراهم، خصوصاً لأن موسم الحصاد صار على الأبواب ولا بدّ من الاستعداد له. وقد رتّب الأمر بحيث تبقى وحدة جيش الإنقاذ في المعسكر بصحبة عدد محدود من المجاهدين، كي يتمكنوا من الدفاع عنه إذا تعرض لهجوم الهاغاناه ويصمدوا خلال الوقت اللازم لوصول نجدات القرى إليهم. والذي حصل أن رجال جيش الإنقاذ الخمسين غادروا المعسكر فجأة دون سابق إنذار، أخذوا المصفحات الثلاث وانسحبوا، ولم يبق في المعسكر إلا الحفنة القليلة من المجاهدين الذين كانوا بصحبتهم. وقد أخذ هؤلاء المجاهدون بالمفاجأة وأدركوا عجزهم عن التصدي لأي هجوم قادم، فعادوا إلى قراهم ليبلغوا إلى فصائلهم ما وقع. واغتنمت الهاغاناه الفرصة المواتية فعادت قوتها إلى المعسكر دون معركة. كنت مع جدّي عبد المجيد في المشروع حين جاء من أبلغ إليه هذه الأنباء المحزنة. وكان أول ما خطر على بال الجدّ أنه لا بدّ من الاستنجاد بالجيش المصري الذي توالي وحداته الزحف باتجاه منطقتنا. وقد اتجه الجد، فوراً، إلى المسمية الكبيرة ليتشاور مع وجهائها وقائد الفصيل فيها حول ما ينبغي عمله للاتصال بالمصريين.

وقبل أن يستوعب الناس حقيقة ما حصل أو تُبلور المشاورات بين القرى شيئاً لدرء الخطر، جاءت أنباء أخرى محزنة؛ فقد عاد من مصر وفد شراء السلاح وليس معه إلاّ

القصة التي تعرّض لها والتي وجدها فلاحونا من أعجب العجائب. فالوفد الذي أمضى في مصر كل هذا الوقت أفلح في نهاية المطاف في شراء عدد من البنادق وصناديق الذخيرة من السوق السوداء، بعد أن دفع أثماناً فاقت كل التقديرات السابقة واضطر لإنقاص مشترياته عن العدد المطلوب. وقد نظم تجار السلاح أنفُسهم، كجزء من الصفقة، عملية إخراجه من مصر بصحبة الوفد وإدخاله إلى القسم الفلسطيني من البلدة الحدودية رفح. هنا، حين صارت الشحنة تحت المسؤولية الكاملة لأعضاء الوفد، قلّ حذر هؤلاء على أساس أنهم في بلدهم وأن السلطات التي تحكم هذا الجزء من البلد هي سلطات الجيش المصري الذي جاء إليها ليحارب مع الفلسطينيين لإنقاذ بلدهم. والحقيقة أن الوفد أخذ، بالضبط، من مأمنه، فقد اكتشفت دورية عسكرية مصرية شحنة السلاح، بينما كانت هذه الدورية تفتش السيارات على الطريق بين رفح وغزة. وحُمل السلاح ومعه أعضاء الوفد إلى مقرّ قيادة الجيش المصري في المدينة الجنوبية.

هذا الجزء من قصة الوفد أثار، بالطبع، دهشة الفلاحين المحتشدين في المضافة ممن استمعوا إلى رئيس الوفد وهو يحكيها لهم. أما ما تلا ذلك فإنه لم يثر الدهشة، فحسب، بل السخط والإحباط في آن واحد، أيضاً. فقد أخضع الوفد من قبل استخبارات الجيش المصري لتحقيق مطول. وعومل أعضاء الوفد في التحقيق معاملة المجرمين، وتعرضوا لشتى الضغوط والإهانات التي لم يعرف فلاحونا مثلها إلا على أيدي العسكر العثماني. وعبثاً، حاول أعضاء الوفد أن يبيّنوا في التحقيق أنهم وطنيون مندوبون لمهمة عامّة وضرورية لتوفير الحماية للبلاد. فالمحقق المصري ما كان يجهل هذا، ولكن معرفته بالأمر لم تقلل من اعتراضه على جلب السلاح إلى المدنيين، فالسلاح، كما قال المحقق لأسراه، خُلق للجيش وليس للبهائم من الفلاحين الذين لا يحسنون استخدامه. والسلاح، كما قال المحقق، أيضاً، ليس لعبة يتولاها من هبّ ودب، خصوصاً هؤلاء المدنيين الذين لا يعرفون الضبط والربط ولا يتبعون خططاً ولا يلتزمون بقيادة. وبعد أن قضى أعضاء الوفد أياماً في عذاب التحقيق، ظفروا بالإفراج عنهم، مع تشدد المحقق في التنبيه عليهم بأن لا يعودوا لمثلها وأن ينصحوا مواطنيهم بالكفّ عن العبث بمسألة السلاح وترك الأمر للجيش. وعندما طلب أعضاء الوفد من المحقق أن يعيد إليهم السلاح ليحملوه إلى الذين دفعوا أثمانه، قال هذا بإيجاز حازم إن السلاح مُصادَر، ثم أفهمهم أن عليهم أن يفرحوا لأنهم هم أنفسهم قد نجوا بجلودهم.

شغلت هذه الواقعة أذهان فلاحينا، وحيّرت معظمهم. وكان الأمر، حقيقة، غير مفهوم بالمرة بالنسبة للناس الذين يبنون الآمال العريضة على قدوم الجيش ليروا أنه يقوم بمصادرة الأسلحة التي دفعوا هم أثمانها.

ومهما يكن من أمر، فقد كان لعودة الوفد بغير أسلحة وقع ثقيل على الناس. كانت تلك كارثة، فالحاجة للسلاح تشتدّ ساعة بعد ساعة، وها هو ذا الأمل بالحصول عليه من المصدر المرتقب يخيب، والذين اكتتبوا للحصول على السلاح عصروا أنفسهم عصراً ليوفرا ثمنه. والآن، حتى لو وجد هؤلاء من يبيعهم السلاح، لم يبق فيهم ما يُعصر. وكان الناس قد لاحظوا أن الجانب الصهيوني الذي خسر المعسكر ثم استعاده بعد أن غادره المجاهدون، فقط، قد تنبه إلى أن في المنطقة قوة مقاتلة يحسب حسابها، فأخذ يعزز استعدادته للقضاء على القوة قبل أن تنمو. وهذا يعني أن الحاجة للسلاح ستشتد أكثر فأكثر في الأيام المقبلة، مع غياب الأمل بالحصول عليه.

في هذا الجو ومع تزايد الأمثلة المحسوسة التي من هذا النوع بإضافة خبرات القرى الأخرى مع الجيش إلى خبرات قريتنا، أخذ الإحساس بخيبة الأمل يخالط الآمال الكبيرة التي انتعشت مع مجيء الجيوش العربية إلى البلاد ويشوبها بالشكوك.

وبين الأمل وخيبته، تشكل وفد القرى التي اشتركت في معركة وادي الصرار، والتي صودر السلاح المشترى بأموالها، واتفق على أن يتصل الوفد بقيادة الجيش المصري فيبحث معها شؤون الدفاع عن المنطقة، وبضمنها مسألة السلاح المصادر والمطالبة بتسليمه لأصحابه. وكانت البلاغات الحربية التي تكرر الإذاعات بثّها كل ساعة تحدد الأماكن التي وصل إليها الجيش المصري في زحفه. وحين أمكن لوفد القرى أن يبدأ مهمته، كانت وحدات الجيش المصري قد استقرت في بلدة المجدل، بل تجاوزتها نحو الشمال والشرق، أيضاً. وهكذا، تحددت الجهة التي يذهب إليها الوفد.

والحقيقة أن نتيجة زيارة الوفد للمجدل عززت حالة اختلاط المعنويات التي صارت عنواناً للموقف كله مع نهاية ربيع ذلك العام وبداية صيفه اللاهبين. فقد واجه الوفد صعوبات كبيرة حتى تمكن من مقابلة أحد الضباط. وفي المقابلة التي عومل فيها أعضاء الوفد معاملة مراجعين عاديين وليس ممثلي قرى بأكملها، سمع هؤلاء الكلام ذاته الذي قيل لوفد شراء السلاح بشأن اقتناء المدنيين له. وتلقى الوفد إيضاحات أوفى تصبُّ في المنحى ذاته، فقيل له إن الجيش أخذ على عاتقه مسؤولية الدفاع، ولا حاجة، بعد، لنشاطات المجاهدين. وعندما ذكّر الوفد محدثه الضابط بأن القرى التي جاء منها الوفد لم يدخلها الجيش، بعد، وهي بحاجة للسلاح من أجل الدفاع عن نفسها بنفسها، رد الضابط بالقول: دور هذه القرى آت في وقت قريب وما على أهلها إلا أن يصبروا بعض الوقت ويتدبروا أمورهم كما فعلوا حتى الآن. هنا عرض أبو جهاد آخر حجج وفده، فقال: إن القرى أصبحت مستهدفة من الهاغاناه وقد تقع في أيدي العدوّ قبل وصول الجيش المصري إليها. ويبدو أن الضابط المصري عدّ هذا القول تعريضاً بالوعود التي فاه بها

وتشكيكاً بصدقها. وكان هذا الضابط، على كل حال، وكما يمكن لك أن تتصور بسهولة، قد ضاق بهذا الجدل المفروض عليه كله، فأظهر برمه ورد على قول قائد الفصيل بالعبارة التي اشتهرت بعد ذلك في طول البلاد وعرضها: "هم يأخذونها في الليل، ونحن نجيء بها في النهار". قال الضابط عبارته، ثم أنهى اللقاء بشيء من الفظاظة طالباً من أعضاء الوفد ألا يصدّعوا رأسه بالمساخر التي يؤمنون بها.

وهكذا، عاد الوفد دون أن يتمكن أحد من أعضائه أو ممن استمعوا لحكايته من التوصل إلى موقف يقيني. فالأمل معقود على احتمال وصول الجيش إلى المنطقة قبل أن تدهمها القوات الصهيونية، وهو احتمال لا يوجد ما يؤكده مثلما أنه لا يوجد ما ينفيه، وخيبة الأمل لها ما يبررها في سلوك هذا الجيش الذي يرفض أن يساعد مجاهدي البلاد أو أن يعيد إليهم سلاحهم المصادر. إذن، هو ذلك المزيج من الأمل ويخيبته، وقد استمر طيلة الأسابيع التالية، دون أن يتضح أي جديد.

واصل الجيش المصري تقدمه نحو الوسط، فوصل إلى أسدود، على بعد عشرين كيلو متراً من قريتنا. وامتدت وحداته شرقاً، فبلغت الفالوجة وبيت جبرين. وتقدم الجيش الأردني فبلغ اللد والرملة وأصبح هو الآخر على مقربة، دون أن يظهر ما يشير إلى أنه سيتوجه ناحيتنا. وفي الشمال، كان الجيش السوري وكذلك العراقي يتقدمان ويتراجعان حسب الأحوال ونتائج المعارك.

وانقضى شهر حزيران/ يونيو كله والناس لا يعرفون ما الذي يمكن أن يقع، كما انقضى معظم شهر تموز/ يوليو. وانصرف بعض الفلاحين إلى الحصاد بهمة كما في الأحوال العادية، وباشر آخرون الحصاد بتلكؤ، وانصرف بعضهم عن الحصاد. وواصل جدي عبد المجيد الاهتمام بمشروعه كأن الأحوال في منتهى العادية. كان المهندس إبراهيم قد انقطع عن المجيء إلى المشروع منذ الخامس عشر من أيار / مايو، غير أن العمل الموكل إليه كان قد أنجز بمعظمه ولم يبق منه إلا تفاصيل قليلة أنجزها العمال بأنفسهم. في ذلك الوقت، بالذات، عرف الجدّ أن مسعاه لتبديل اسم المسمية الصغيرة وجعله مسمية الحوراني قد نجح، وأن قرار السلطات بهذا الشأن قد صدر قبل أن يغادر حاكم اللواء البريطاني مقره في غزة، ولعله كان آخر القرارات التي وقعها هذا الحاكم. نبأ كهذا كان من شأنه أن يثير أوسع الاهتمام ويستتبع أحلى الاحتفالات لو وصل إلى القرية في ظروف أخرى، أما وقد وصل فيما الوضع كله على كفّ عفريت فإنه لم يترك في نفوس الناس أيّ أثر خاص. جدي عبد المجيد، وحده، لم يشأ أن تفوت المناسبة بغير احتفال. مرة أخرى، لا يعني هذا أن الجد كان قليل التأثر بالأحداث الجارية أو قليل الانتباه للمخاطر المحدقة، كل ما في الأمر أنه كان أكثر أهل القرية ثقة بأن كل شيء سينتهي على ما يرام. وبتواقت

وصول النبأ حول تسمية القرية مع انتهاء القسم الأول من المشروع، شاء الجد أن يدمج الاحتفال بالأمرين، فنحرت الخراف وهيئت المناسف في أرض المشروع والتفّ الناس حولها. جرى كل شيء كما يجري عادة في الاحتفالات الكبيرة، إلا أن الجوّ افتقر إلى البهجة الحقيقية، فسحن الناس وحركاتهم وأحاديثهم تسربلت بالهم الكبير الذي يشغل الأذهان، وإن حاولوا أن يجاملوا الجدّ ويسايروا ما يعدّونه شذوذاً منه.

والواقع أن مشروع الجدّ لم يعد، بعد، خطة، فحسب، بل صار شيئاً متحققاً على الأرض. فالبناية ذات الطوابق السبعة أرسيت أساساتها وانتصب طابقها الأرضي فضمّ المطحنة وملحقاتها. والبئر الواعدة بالماء انبثق ماؤها من تحت الصخر وقام بجانبها المحرك الذي يسحب هذا الماء ويدفعه لسقاية الأرض. والقطعة الأولى من الأرض المخصصة للمشروع زرعت بطيخاً وشماماً وخياراً، وامتلأت مساحتها بالنباتات الخضراء اليانعة، وظهرت الكرات الخضراء بين أوراق هذه النباتات، واعدة بموسم جيّد. وقد رأى المدعوون للاحتفال هذا كلّه رأي العين، ولمسوه بالأيدي، ولكنه لم يجتذب من اهتمامهم إلا أقلّه.

لقد عكس الاحتفال الغريب الجوّ الغريب المسيطر على الناس في تلك الأيام الأخيرة من تموز / يوليو ١٩٤٨. إنه جو كارثي من النوع الذي لا يصبح مفهوماً إلا بعد أن تقع الكارثة التي حمل هو أنفاسها قبل أن تقع. وإنها مشاعر الناس التي صارت هذا الخليط الجامد من الأمل المهيض وخيبة الأمل النامية، من الاستعداد للصمود والرغبة في الرضوخ للقدر والاستكانة إزاء القادم المجهول. كلّ ذلك كسا حركة الناس وتعبيرات وجوههم بالمعاني التي تفصح عن كل شيء عندما لا تفصح عن شيء محدد بعينه، وقد أثقل هذا الجوَّ الكارثيَّ جوُّ الطبيعة الذي بلغت فيه الحرارة درجة الالتهاب وتناوشته رياح مغبَّرة متعددة الاتجاهات.

بعد ثلاثة أيام من الاحتفال، ابتدأ رمضان، شهر الصوم. وقد طاب لي أنا الطفل ابن التاسعة أن أصوم كما يفعل الكبار، فاهتم بي الجميع وأثنوا عليّ. وكان هذا هو، على ما يبدو، ما توخيته حين تطوعت بتقليد الكبار بالصوم القاسي دون أن أكون مطالباً بذلك. ولأني ذلك الصغير الصائم الحائز على رضا الكبار، توفرت لي حقوق لا أحصل عليها في غير هذا الظرف.

ففي الصباح، أبقاني جدي سلمان معه في المضافة الخالية أطول من المعتاد، وتلا عليّ الكثير من آيات القرآن التي يحفظها، وتبسّط في شرح القصص التي تحكيها هذه الآيات. وكان أن استمعت، لأول مرة، إلى قصة يوسف بالتفصيل. هذا الطفل الذي ضاق إخوته بمنزلته الخاصة عند أبيهم يعقوب وساءهم إيثار الأب له من دونهم، فتآمروا عليه، وألقوه في بئر ماء، وزعموا للأب أن الذئب افترسه، إلى نهاية الحكاية التي تظهر أن الطفل نجا

من الموت وظهر، ثانية، في مصر وقد صار فيها وزيراً ذا حول وطول، وعفا عن إخوته وأعاد البهجة إلى قلب أبيه الصابر.

وحين أطلقني جدّي سلمان مظهراً تفهمه رغبتي في التسلية، ذهبت إلى دار جدتي. هناك كانت الجدّة وأمّها منصرفتين لإعداد الجبن، فجلست أراقب العملية بانتباه من يشتهي أن يظفر بواحد من هذه الأقراص اللذيذة. وقد وعدتني الجدّة التي أثنت، بالطبع، عليّ لصيامي بأن تخصني بقرص محلّى في المساء إذا صمدت على الصيام بقية النهار، فتعهدت أن أصمد. إلا أني لم أطق المكوث مدة أطول أمام المغريات التي تجتذبني لكسر هذا التعهد، فقررت الانصراف. وكانت الجدّتان قد بدأتا في إحصاء الأقراص التي أنجزتا صنعها، ثم أخذتا تتشاوران بشأن توزيعها على الأقرباء في هذا اليوم الأول من أيام الشهر المبارك. وحمّلتني الجدّة هدية الجبن المخصصة لأسرة جدّي سلمان، فعدت بها إلى الدار حريصاً على أن أنقل للجدّ كل التمنيات الطيبة التي أوصتني جدّتي بنقلها له. وهناك، كان الجدّ يستعدّ للخروج فصحبني معه، فقمنا بجولة في الحقول حيث راقب عملية الحصاد الجارية بكلال، وعرجنا على حقل للجدّ يعمل فيه عدد من الحصادين المأجورين. ثم اقترح جدي سلمان أن نزور المشروع، فأطربني اقتراحه ومضيت أتنطط بجانبه إلى أن بلغنا المكان.

كان جدي عبد المجيد هناك، وكذلك خالاي نافذ وعمر، وقد فوجئوا جميعاً بالزيارة غير المتوقعة، واحتفوا بالزائر تلك الحفاوة الخاصة التي تعكس تقديرهم لمنزلته مثلما تعكس روح السماحة التي تحلّ على الناس في هذا الشهر. وفي الجولة التي قمنا بها في أرض المشروع، كان الجوع يقرصني، وقد نشّف العطش حلقي، فسليت نفسي بالتفرج على الثمار المندلقة من بين الأوراق اليانعة. ولو طاوعت رغبتي الحقيقية لما حرمت نفسي من هذه الثمار. غير أني شعرت، وأنا الطفل المتطوع بالصيام تطوعاً، أني قيد المراقبة من الجميع، فتماسكت، إذ عزّ عليّ أن أفقد تميزي الذي اكتسبته بالصيام. وعندما حان موعد الانصراف، حمّلنا جدّي عبد المجيد بطيخة وشمامة انتقاهما بنفسه لأسرة أخيه، فعدنا بهما إلى الدار كي نهيئ أنفسنا لوجبة الإفطار التي اقترب أوانها.

كانت نساء الدار قد هيأن لإفطار الأوّل من رمضان وجبة فاخرة: إوزة كبيرة محشية بالرزّ والتوابل. ولأني طفل، كان عليّ أن أتناول الوجبة مع النساء والأولاد داخل الدار. لكني، وقد نجحت في إتمام يومي صائماً، ظفرت بحق مشاركة الرجال في التقليد الرمضاني. يقضي هذا التقليد بأن يفطر رجال الحيّ الواحد أو الحمولة الواحدة بعضهم مع بعض. يجيء كل واحد منهم إلى المضافة بطبق مما أعدّ في دراه، وتضمهم مائدة واحدة مع الأطباق المتنوعة. والحقيقة أن تكريمي بالاشتراك في لقاء كهذا زادني إحساساً بالفخار

والتميز. وقد خصني جدّي سلمان بقطعة من فخذ الإوزة، وتبارى الرجال الآخرون في تقديم أطيب ما تحتويه أطباقهم لي. كل هذا، دون أن يكفّ الجميع عن الإشادة بي والثناء عليّ. هذه الوجبة الثقيلة، بعد صيام يوم قاسٍ، تبعتها الاسترخاءة التي لا بدّ منها في مثل هذه الأحوال. وقد دارت الأحاديث متقطعة، وتركزت على التوقعات التي لا يصل أحد إلى رأي جازم بشأنها. وتساءل العم محمود دون أن يوجه الكلام لأحد بعينه: "لا أدري لماذا لا ينشط الناس في الحصاد هذا العام؟ الهمم باردة أكثر من اللزوم، والوقت يمضي". وطاف السؤال في المضافة والكل صامت، إلى أن نطق أحد الحاضرين بنبرة لا تدل عن أنه يجيب عن السؤال: "لسنا ندري لمن نحصد ولمن ندرس ونحن على ما نحن فيه". ثم لم يضف أحد شيئاً إلى الموضوع. وقال شخص آخر:"ظننّا أن الأحوال ستتعدل مع دخول جيوش العرب، وها نحن نرى، شهران وثلاثة، حرب وهدنة، تسمع الأذن أشياء وترى العين أشياء أخرى، ثم لا ندري ما الذي تجيء به الأيام". وقال جدّي سلمان: "وكّلوا الأمر لله ولا تقنطوا من رحمته". إلا أن نبرة الجدّ الذي يحثّ الناس على الصبر خلت هي ذاتها من التفاؤل.

اليوم التالي، الثاني من رمضان، الثامن من آب/ أغسطس، يوم لا ينسى. ابتدأ هذا اليوم عادياً، أي كغيره من أيام تلك الفترة. نهضت من النوم معتزماً أن أواصل الصيام. واستمعت لآيات أخرى مما تلاه جدّي سلمان في المضافة. وشرح لي الجدّ حكاية اليهود والبقرة كما روتها السورة القرآنية التي تحمل اسم البقرة: أتعب بنو إسرائيل الربّ بتقلّبهم بين الإيمان به والعودة لعبادة الأوثان. وبعد واحدة من تقلباتهم، فرض الربُّ على بني إسرائيل أضحية، ونقل نبيُّه موسى طلبه إليهم، وكان طلباً بسيطاً: "اذبحوا بقرة!". وبدل أن يذبح هؤلاء واحدة من أبقارهم دون متاعب، طلبوا من موسى أن يعود إلى جبل الطور ويكلم الربّ ويسأله عن لون البقرة المطلوب ذبحها، ثم طلبوا منه ثانية أن يسأل عن سنّها. وكرر بنو إسرائيل التقصي عن الأوصاف، فيما توجّب على موسى أن يكرر الذهاب إلى الجبل، دون أن يكون لذلك في واقع الأمر لزوم. وعقّب الجدّ على القصة من عنده: "إنهم هكذا؛ متعبون، تعب منهم الربّ نفسه، فغضب عليهم ولعنهم، بعد أن كان قد فضلهم على العالمين".

وبعد هذا الحديث من جدّي سلمان، توجهت إلى الدار الكبيرة. وهناك، استقبلتني أم عدنان بمجاملاتها المعهودة. وقالت أم عدنان إن وجبة طيّبة قد فاتتني بالأمس، وهي تتمنى، وقد عرفت أني صائم، أن أجيء اليوم إلى وجبة الإفطار. ولم يكن في الدار من الرجال إلا خالي نافذ، فقد توجه الجدّ لأمر ما إلى القدس، وانصرف خالي عمر لشؤونه الخاصة مع شبّانه المتحمسين. واصطحبني نافذ معه إلى المشروع حيث لم نجد هناك إلا

الناطور المسربل بصمته وغموضه. ولأمر ما، حاول خالي نافذ أن يحمل هذا الصامت المزمن على الكلام، وقد شاقتني المحاولة. وتناوبت أنا والخال طرح الأسئلة دون أن نتلقى من الرجل ما يزيد على لائه ونعمه اللتين لا يفوه بسواهما. ولأننا كنّا نتوقع هذا من عيد فإننا لم نكفّ عن توجيه أسئلة جديدة. وبدا واضحاً أن الرجل ضاق بحصارنا إيّاه، فتركنا فجأة ومضى في مشوار طويل وسط الزرع. وعندما رجع، وكان جدّي عبد المجيد قد رجع من القدس، كان عيد يحمل بطيختين تامتيّ النضج كاملتي الاستدارة ضخمتين وشهيتين. ووضع الرجل البطيختين بجانب الجدّ، ما عنى أنه انتقاهما من أجل الأسرة. وفي الدار الكبيرة، على مائدة الإفطار التي غمرتها أطايب أمّ عدنان، أكلنا واحدة من البطيختين، ثم أمر الجدّ بأن تحفظ البطيخة الأخرى لأكلها في وجبة السحور، وقالت أم عدنان إنها أبقت من الدجاجات المحشيّة اثنتين لهذه الوجبة، أيضاً.

فجأة، وكنّا نتهيأ للنهوض عن المائدة، ظهر عيد بقامته المديدة أمام باب الحجرة. ولأن ظهوره على هذا النحو غير مألوف أبداً، فقد أدرك الجدّ أن في الأمر شيئاً خطيراً أخرج الناطور عن عاداته الصارمة، فحثّه على الكلام. ولم يقل الناطور شيئاً، لكنه مدّ إلى الجدّ ورقة كان يحملها في يده، فأعطى الجدّ الورقة لنافذ على عجل كي يقرأها له.

الورقة التي سُلِّمتْ لعيد في وقت الإفطار، حين يكون الناس كلهم في دورهم، حملت إلى القرية إنذاراً من الهاغاناه. في الإنذار تعطي الهاغاناه لأهل المسمية الصغيرة مهلة ساعتين اثنتين تبدأ من الساعة السابعة، أي منذ اللحظة التي تسلم الجد فيها الإنذار. وعلى أهل المسمية الصغيرة أن يجمعوا خلال هاتين الساعتين الأسلحة التي بحوزتهم كافة والمجاهدين الثلاثين الذين استخدموا هذه الأسلحة وأعضاء اللجنة القومية ويسلموا هؤلاء الناس وسلاحهم إلى قوة الهاغاناه التي تنتظر في أرض المشروع. ثم إن على أهل المسمية الصغيرة أن يعلنوا بعد ذلك قبولهم بدولة إسرائيل واستعدادهم لتقبل الإجراءات التي تفرضها عليهم. وإذا رفض أهل المسمية الصغيرة هذا العرض، فعليهم أن يغادروا القرية، جميعهم، خلال المهلة ذاتها، من دون أسلحة، وأن يتوجهوا باتجاه الشرق، أي في الاتجاه الذي يقود إلى الأردن. ويحذّر الإنذار القرية من أيّ محاولة للاتصال بالقرى المجاورة، ويؤكد أن كل من يغادر القرية لهذا الغرض معرض لإطلاق النار عليه من أصحاب الإنذار الذين يراقبون الطرق.

قرأ نافذ الورقة، والجد مصغٍ بهيئة من يتلقى النبأ الذي يتوقعه ويغالب نفسه في الوقت ذاته لينفي إمكانية وقوعه. ولم يعقب الجد بشيء على الفور، بل إن الناطور هو الذي نطق:"هم هناك، ينتظرون الجواب". عندها قال الجد: "سنرى"، ونهض، وتبعه خالاي نافذ وعمر، وغادروا الدار، وتبعهم عيد صامتاً.

-١٩-

غربة بدأ أولها في ديـر الـدّبان

اختلى أعضاء اللجنة القومية والوجهاء الآخرون في المضافة، فيما شاع نبأ الإنذار في القرية وحمل الناس على التجمع أمام دار جدي سلمان. في غضون ذلك، وصل خيّال من المسمية الكبيرة، وعرف الناس أن القرية الشقيقة تلقت إنذاراً مماثلاً، وأن المجاهدين فيها قرروا المقاومة.

ليس من الصعب عليك أن تتصور الوضع الذي وجد الناس أنفسهم فيه، فالإنذار الذي تلقوه كان بمثابة حكم بالإعدام الفوري على المجاهدين المطلوب تسليمهم، وإلغاء لوجود القرية، ووأد لأحلام ناسها، وتشريدهم. وكل الأماكن التي تلقت إنذارات كهذه ولم تتمكن من المقاومة واجهت هي وناسها هذا المصير. أما المقاومة فإمكاناتها غير متوفرة ونتيجتها ستكون مجزرة شاملة ينتهي معها كل شيء، كل شيء، بلا استثناء. والقبول بالخيار الآخر الذي يعرضه الإنذار؛ أي مغادرة القرية، لا يوفر أيّ ضمانة، فسيخسر الناس قريتهم وأملاكهم، وحين يهيمون بغير سلاح يصبحون فريسة سهلة للكمائن المعادية التي ستفتك بالمجاهدين دون عناء وبمن يطالهم رصاص الكمائن من الناس الآخرين. ومهلة الساعتين اللتين تمضي دقائقهما متتابعة لا توفر فرصة للتفكير بأي تدبير فعال.

لم تطل خلوة المختلين في المضافة. خرج هؤلاء على المتحلقين في الساحة، ثم تحدث جدي عبد المجيد بنبرة متماسكة. وأبلغ الجدّ إلى الناس أن على المسلحين أن يبقوا في القرية للدفاع عنها، فيما ينظم الرجال الآخرون خروج أهل القرية منها. وفي مواجهة الصخب

الذي انفجر عند الاستماع لهذا القرار، أضاف الجدّ: "يبيت أهل القرية في الحقول في انتظار انجلاء الموقف، فإذا كتب الله للقرية السلامة عادوا إليها، وإلا فإن عليهم التوجه إلى منطقة آمنة وترقب ما يفعله الجيش القريب الذي لا بدّ من أن يحرر البلاد والعباد". وإذ انفجر الصخب من جديد، تكلم المختار العم عبد الحميد، فحثّ الناس على التزام الهدوء وتجنب الفوضى واتباع ما قرره المسؤولون عن القرية والتعجيل في تأمين سلامة النساء والأولاد.

كيف يمكن وصف مشاعر الناس في هاتين الساعتين الحاسمتين؟ وأي وصف يمكن أن يستقصي ما تحتويه مخازن النفوس بما احتبس فيها من توجس طيلة الأشهر الأخيرة، وما فاض من تلك المخازن حين انتزع الإنذار صماماتها؟! وأي المشاعر كان الأشدّ حضوراً في تلك اللحظات: الخوف من المجازر، أم الحرص على صيانة الأعراض، أم الإحساس الماثل بأنها النهاية الفاجعة لأمل الاستمرار في الوطن، أم الشك بمقدرة المتدخلين العرب على تبديل المصير الذي ترسمه إرادات وإمكانات أكبر من إمكانات أهل الوطن؟ كان القلق الذي صار سيد الموقف ينزُّ من أجساد الناس ويشعُّ من عيونهم فيملأ أرجاء القرية. وأخذ الناس المطالبون بترك القرية يدخلون دورهم ويخرجون منها ثم يعودون إليها ليخرجوا ثانية، وكل ما في تصرفاتهم يشي بحيرتهم الكاملة، وكأنهم كانوا، بهذا، يروّضون أنفسهم على الرضوخ لداعي الفراق أو يحاولون تأجيل لحظة وقوعه ما أمكنهم ذلك.

والمدهش أن عشرات الأسئلة الصغيرة شغلت ذهن كل واحد في القرية، وكانت جميعها متماثلة، وإن لم تلق إجابات متماثلة لدى الجميع: هل يحمل الناس معهم بعض حوائج دورهم، أو يرحلوا خفافاً؟ وأي شيء يحملون؟ وهل يقفلون أبواب دورهم أو يتركونها مفتوحة كما ألفوا أن يفعلوا؟ وكيف يتصرفون بالنسبة للدوابّ، هل يصطحبونها معهم أم أن هذا غير لائق، هل يتركون لها وجبة واحدة من العلف أو يؤمنون علفها لعدة أيام؟ هل يأخذ الناس معهم وجبة السحور، فقط، أو يحتاطوا خشية أن تطول إقامتهم في الحقول؟

عندما أُعلن قرار الرجال، توجهتُ إلى دار جدتي مدللة، كنت أوثر أن أبقى معها، ثم إن راعيتي كانت قد ذهبت إلى السوافير الشرقية ولم تعد. وكانت الجدّة متماسكة كعادتها. وحين استشارت الجارات الجدّة حول ما ينبغي حمله أو تركه من موجودات المنزل، لم تتخل عن عادتها في الإيجاز: "احملن ما يلزم للسحور ونوم الأولاد، وهذا كاف!"، ثم أضافت: "والأشياء الثمينة، الدنيا ليست لها أمان". وقد جمعت الجدّة حليّها الفضية والذهبية في كيس علقته في رقبتها، وهيأت صرةً فيها بساط وأغطية خفيفة، وسلالاً فيها

طعام. وحضّرت الجدّة عنزتها الشهباء لاصطحابها معها، فهي لا تستغني عن كوب القهوة مع الحليب الطازج أيا كان الظرف. في غضون ذلك، دارت جدتي خضرة بحركتها الوئيدة في أرجاء الحجرتين ورتبت أشياءها، ثم مضت إلى ساحة الدار فوضعت العلف للعنزات، وأضافت إناء ماء وإناء علف لقنّ الدجاج وسدت مدخله. وحين حان موعد المغادرة، قالت الجدّة لي: "العنزة من نصيبك، إصحَ، لا تفلتها!".

انتظم ركب الراحلين تحت سماء غاب قمرها فسطعت النجوم كأنما استثارها الحدث فأطلت من أبراجها لتشهده. قطع مئات الناس ودوابّهم القليلة المحملة بالصرر وادي الزريقة، واخترقوا الحقول في قافلة يكتنفها صخب لاتتميّز معالمه، ولا يدري أحد فيها أين، بالضبط، ينبغي التوقف. كان خطو الناس بطيئاً، إلا أن حركتهم بقيت منتظمة. وكانت المشاعر موزعة بين ما يشدّ الناس إلى القرية التي أرغموا على مغادرتها إرغاماً وما يدفعهم إلى الابتعاد عن الخطر. وبعد مسيرة لا أدري كم طالت، اتخذ أحدهم المبادرة، وتبعه الناس، فألقوا بأجسادهم وصررهم في حقل محصود حديثاً، وتوزعوا على حلقات ضمت كل واحدة منها أعضاء الأسرة الواحدة أو الأسر العديدة المتقاربة. وانداحت في الجوّ أصداء تلك الأحاديث التي يفرضها هذا التعامل الأول مع المجهول. وجلستُ بجانب الجدّة في الحلقة التي تتسوطها موزّع الانتباه بين متابعة الحديث الدائرة ومراقبة العنزة التي أحتفظ بمقودها في يديّ كي لا تفلت مني. في هذا الجوّ المفعم بالغرابة والغموض، وجدتني غير راغب في شيء محدد. وقد افتقدت حتى الرغبة في التواصل مع الأقران أو العبث وإياهم. وراح حديث النساء في الحلقة يتركز حول مآسي القرى الأخرى. وأخذت التفاصيل المحزنة تتوالى. تروي هذه من النساء حكاية فتتبعها تلك بحكاية أخرى، وكلها حكايات متماثلة: الأمل المضيع والأعزاء المفقودون والأرض التي ضاعت واستولى عليها هؤلاء الأغراب. وحين بدأت سيدة من مهاجري سلمة تعيد على مسامع المتحلقين، ربما للمرة المئة، حكاية تهجير قريتها، أصغت النساء بانتباه شديد فكأنهن يسمعن هذه الحكاية للمرة الأولى. والحقيقة أن الحكاية اكتست مغزى جديداً حين رويت وسط هذا العراء أمام ناس يدركون في قرارة أنفسهم أنهم بدأوا للتو مشوار التشرد على الطريق ذاته. والمدهش أنه ما من واحدة من المتحدثات تطرقت إلى المأساة الماثلة في هذا العراء أو تساءلت عما سيؤول إليه مصير قريتنا بالذات، فهل راودهنّ الأمل بأن القرية ستنجو وأن المدافعين عنها سيردون الغزاة، أو رأين أن المصير الأسود قد تقرر وانتهى الأمر؟

وبمضي الوقت، تمطّى الحديث كما تمطت الأجساد، وخفتت الأصوات وضؤلت الحركة، واستسلم بعضهم للنوم، فيما تحولت حوارات الآخرين إلى همس. وغفوت مع من غفا

دون أن أفقد تماماً الصلة بما حولي. ولا أدري كم مضى من الوقت حين حرك ضجيج المعركة المداهم من ناحية القرية الجميع. ولا أعرف ما الذي أخرجني من غفوتي: صوت الطلقات أم ارتعاشة العنزة التي أحتفظُ بمقودها في يدي.

كان الإحساس بخطر الرصاص الطائش هو أول ما حرك نزلاء الحقل العاري، فكان أن التجأ الجميع إلى الحقول المجاورة غير المحصودة وواروا أجسادهم بين عيدان الزرع، ثم أخذوا يتنصتون. وكان من الممكن، حقاً، متابعة مجرى المعركة من خلال الأصوات القادمة من ناحية القرية، إذ كان من السهل تمييز أصوات البنادق التي يستخدمها المجاهدون بطلقاتها المتفرقة ولعلعة البرنّ الوحيد، عن أصوات البنادق الأوتوماتكية ومدافع الهاون التي يستخدمها المهاجمون. ثم انضافت الألوان إلى الأصوات لتدلّ الناس على ما يجري في القرية. فقد أحرقت القنابل عدداً من الدور، وعلت ألسنة اللهب بلونها الأرجواني المتميز وهالات الدخان التي تجللها وتخالط أرجوانها باللون الرمادي. ثم ظهرت أولى الدلائل على نتيجة المعركة حين ظهر الخال محمد يوسف بصحبة عدد من الرجال قادمين من القرية. كان الخال بين الرجال الذين لا يملكون سلاحاً ولكنهم آثروا، على رغم ذلك، أن يبقوا مع المجاهدين. وها هو قد قدم ليبلغ إلى المحتمين بعيدان الزرع أن الوضع صعب وأن على الجميع أن يبتعدوا بمقدار ما يستطيعون خشية أن يطاردهم المهاجمون بعد أن يتمكنوا من احتلال القرية. كان واضحاً من نبرة الخال ونبرات الرجال الذين جاءوا معه أنهم أوفدوا إيفاداً لهذه المهمة. وقد حدد هؤلاء الهدف: التوجه إلى دير الدّبان.

هكذا بدأت رحلة الابتعاد عن مسقط الرأس.

لم يقبل الناس فكرة التوجه إلى دير الدّبان ببساطة، ولكن الظرف لم يكن يسمح بالجدل. وانتظمت قافلة الرحيل على عجل، وابتدأت التحرك في الاتجاه الذي يبتعد بها عن الخطر. وقد سرتُ مع السائرين، خلفي الخطر الذي يدفعني، وأمامي العنزة المذعورة التي تجرني، وأنا موزع المشاعر بين الخوف من هذا الخطر والخوف من أن تفلت العنزة من يدي. وقد قادنا السير إلى قرية التينة، أقرب القرى إلى المسمية الصغيرة من تلك الناحية. ورأى بعضهم أن نتوقف فيها وجادلوا الخال محمد يوسف المتشبث بالتوجه إلى دير الدّبان. ثم حسم الجدل حين اتضح أن التينة ذاتها تلقت الإنذار ذاته وأن مجاهديها فعلوا ما فعله مجاهدو قريتنا، وهم يتوقعون الهجوم في أيّ لحظة. واتصل السير حتى بلغت القافلة مفترق طرق، فتوقف الناس وتجادلوا من جديد. وفي حلقتنا، اشتعل الجدل، أيضاً، حتى حسمته الجدّة. كانت الجدّة تفكر دون شك في ولديها اللذين بقيا مع المجاهدين في

القرية. ولئن لم تفصح أقوال الجدة عن ذلك صراحة، فقد أظهره اقتراحها: "نتوقف هنا، نتسحّر، وإن سلم الرجال فلا بدّ من أن يمروا من هذا المكان، عندها سنرى". وافق المتحلقون حول الجدّة من آل سلمان على اقتراحها، فيما اختار ناس الحلقات الأخرى السير في اتجاهات متباينة. وهكذا، قعدنا نحن عند ذلك المفترق، وانتظرنا.

كانت جدتي مدللة بادية التماسك، وكانت الجدّة الكبيرة متماسكة هي الأخرى وإن بقيت صامتة طيلة الوقت. وكان الآخرون صامتين معظم الوقت، فإن احتاجوا للحديث تبادلوه هامسين بعبارات موجزة، فكأن ثمة من يتنصت عليهم. وبالرغم من كل شيء، أعدت جدتي مدللة شيئاً من الطعام للسحور، وفردته على الأرض، ودعت الآخرين للأكل، وأخذت هي تلوك أولى اللقمات، غير أن أحداً في الحقيقة لم يقبل على الطعام. ولم يلبث أن كفّت الجدّة نفسها عن الأكل، بل ذهبت لأبعد من ذلك حين أوضحت أنها لن تصوم: "لن يحاسبنا الله إن أفطرنا غداً".

وكنّا أسيري الصمت والحيرة، حين انجلت جلبة مقبلة نحونا عن وصول عدد من رجال دير الدّبان بينهم الخال أبو عدنان. وقد أحدث وصول الرجال المفاجئ في بهمة الهزيع الأخير من هذا الليل شيئاً من الانتعاش في نفوسنا. قدم الرجال مع بنادقهم، واتضح أنهم تلقوا إشارات تدل على أن قرى المنطقة تتعرض للهجوم فهبّوا للنجدة. وبوصول هؤلاء الرجال، ومع إلحاح الخال أبو عدنان الذي يقودهم، تقرر أن نكفّ عن الانتظار وأن نتجه فوراً إلى دير الدبّان. كان بيننا وبين القرية المقصودة مشوار طويل لو شئنا أن نتبع الطريق المهد، فيما كان بالإمكان اختصار المسافة لو اتبعنا درب المشاة الوعر. ولأمر ما، شاءت الجدّة أن نختصر الطريق. وهكذا، جرّتني العنزة على حجارة الدرب وأشواكه. وظهر ضوء الفجر ثم أشرقت الشمس وأنا ما أزال أدرج مع جماعتي على هذا الدرب. ثم توجب أن أتابع السير على هذا النحو بقدميّ الحافيتين وشمس الصيف اللهّابة تشوي جسدي من كافة الأنحاء. وكانت أم عدنان أول من جهر بالشكوى من التعب، فاقترحتْ أن نستريح بعض الوقت. غير أن الجدّة أحاطت العراء من حولنا بحركة من يديها لتبيّن أن المكان خال من أي مستظلّ، ثم قالت: "إن تأخرنا حَرَقْنا القيظ، المشي أرحم".

ظُهرَ ذلك اليوم، دخلت جماعتنا المجهدة والمتربة والمسربلة بكل أنواع المشاعر الممضة قرية دير الدبان. كانت تلك هي زيارتي الثانية للقرية التي تتوزع دورها القليلة منحدر تلة واطئة فتجاور الصخور والفسح الصغيرة المزروعة بأشجار الفاكهة. ولن تلبث أن تعرف أن هذه الزيارة كانت، أيضاً، هي الأخيرة. وقد خفّ أهل دير الدبّان جميعهم لاستقبالنا، فيما اتجهت الجماعة إلى الدار الوحيدة الكبيرة في القرية. وهي الدار التي يملكها أبو

عدنان. هناك ألقينا أنفسنا فور وصولنا على البسط والفرش التي مدت لنا في مضافة الدار والزوايا الظليلة من ساحتها، واستسلمنا لذلك النوم الثقيل الذي يغرق فيه من ينهكه التعب والقهر. ولم تكن الشمس قد غابت حين استيقظت على الوقع المزعج لجدل صاخب محتدم بجواري، حيث نمت، في المضافة.

كان مصير المسمية الصغيرة قد تقرر، وتفرق الناجون من الموت من مجاهديها، فمضى كل واحد منهم للبحث عن أسرته ليلتحق بها. وكان جداي عبد المجيد وسلمان وخالاي عمر ونافذ والعم محمود قد قدموا للتو منهكين بمقدار ما يمكن لك أن تتصور. وقد نشب الجدل بين جدي عبد المجيد وزوجته أم عدنان فور قدوم الجدّ. فالمرأة التي كتمت غيظها طيلة الوقت وتعذر عليها النوم وسط الحشد الذي ملأ الدار الغريبة لم تملك نفسها حين أقبل زوجها، بل انفجرت شاكية: "أنا لم أخلق لهذه العيشة". وابتدأ الصراخ من الجانبين. كان منطق امرأة الجد واضحاً بالرغم من السخط المتفجر الذي ألحق الاضطراب بتعابيرها: هذه البلاد ليست بلادها وناسها ليسوا أهلها، وهي ليست مرغمة على التشرد. وكان حرج الجد واضحاً هو الآخر، فالجدّ لم يتعمد أن يعرض زوجته لهذا المصير، فالبلاء عام وقد حلّ بالجميع، والشكوى في هذا الوقت ليس لها نفع، ثم إن المسألة مسألة أيام، أو أسابيع، ليس أكثر، وسيستعيد الجيش المصري القرية المفقودة وتعود الأيام إلى سالف عزّها. وطلبت أم عدنان أن يتدبر الجدّ أمره، فوراً، فيرسلها مع أطفالها إلى ذويها في دمشق، وإذا اختار هو أن يلاحق أمله في العودة فما عليه إلا أن يبقى مع أولاد المرأة الأخرى كي يعود إلى أهله. وأظهرت أم عدنان شكها بوعود الجيش المصري أو أي جيش آخر، فعلت هذا، على ما يبدو، ليس لأنها تشك فعلاً في صدق هذه الوعود أو لأن لها في الأساس موقفاً ما منها، بل لأن التشكيك بها يخدم حاجتها الملحة إلى الخروج من هذا الوضع الذي تحولت فيه إلى مشردة. وأصر الجدّ على موقفه، فهو لن يتخذ أيّ خطوة قبل أن ينجلي الموقف، ولا بد من الانتظار.

وحاولت أم عدنان التي خفت صراخها وتحول إلى نهنهة أن تستعين بالمحيطين لها كي يقنعوا الجدّ بتلبية رغبتها، غير أن نظرات العيون الآسفة أقنعتها بأن الجميع متعاطف مع موقف الجد وأشعرتها بأنهم يلومونها لأنها تثير هذا الضجيج فيما الناس منشغلون بما هو أكبر من رغبتها في الراحة. ولا بدّ من أن موقف الناس قد أغاظ هذه المرأة بدل أن يحملها على التسلح بالهدوء. كما لا بدّ من أن سلبية الناس إزاء الرغبة التي تجدها هي عادلة تماماً قد عززت إحساس المرأة الشامية بالغربة عن هذا المجتمع الفلاحي الذي حُملت إليه حملاً. وقد أدى هذا وذاك إلى أن تفقد أم عدنان من جديد السيطرة على نفسها، فانفجرت صارخة بأن الموت أهون عليها من البقاء وسط هذه القذارة، ثم نهضت

معلنة أنها ستذهب وحدها إلى دمشق وستمشي مشياً، إن لزم الأمر، أو تستجدي الناس أجرة السفر استجداء، وشفّعت إنذارها بحركة أرادت بها أن تغادر الدار فعلاً. وكان حنق الجدّ قد بلغ ذروته هو الاخر.

أحنق الطلب المغيظ والتحرجُ أمام العيون المشفقة عليه، وانديباحات الهم العام، الجدّ، فوقف بجسده في وجه زوجته ليحول بينها وبين الخروج. وبنيته هذه، رفع الجدّ ذراعيه أمام امرأته، وظنت هي أنه يهمّ بضربها، ولم يكن ينقصها إلا هذه الحركة كي تفقد آخر قدرة للسيطرة على النفس، فراحت تهذي بكلام غير مفهوم وتهاجم الزوج بيديها، تخمش وجهه وتخبط صدره، وتلطمه. وقد فوجئ الجدّ برد الفعل هذا مفاجأة تامة، كما فوجئ به الحضور جميعاً، هم الذين ألفوا أن يضرب الزوج زوجته، لا أن يحدث العكس. ووسط البلبلة التي سببها المشهد الغريب، سحب الجد مسدسه وهدد امرأته بالقتل إن لم تهدأ. وجمّد التهديد المرأة دفعة واحدة، فاقتعدت الأرض.

وكان الخال أبو عدنان خلال ذلك خارج الدار، يشرف على إعداد الذبائح من أجل طعام زواره، وقد اجتذبه الصراخ وأطل على المشهد في لحظاته الأخيرة. ويبدو أن الرجل المتفهم التقط على الفور حاجة المرأة الغريبة لمن يظهر التعاطف معها، فهتف في وجه الجدّ: "حلمك، يا أبو نافذ! هذه أم عدنان، وواجبها كبير علينا". وتدخلت زوجة المضيف هي الأخرى وراحت تواسي ضيفتها المغضبة. وأفلحت جهود المضيفين في طيّ المشكلة.

حدث هذا كله وأنا لاطٍ في حضن جدتي مدللة أرقب المشهد صامتاً ساكن الحركة كغيري من مراقبيه. وحين انفثأ الحنق المكبوت كله وأذن الناس لأنفسهم بالحركة والكلام، انفجرتُ بالبكاء دفعة واحدة. وشدتني الجدّة إليها بحركة حانية، وهتفت دون أن توجه الخطاب لأحد بعينه "اخزوا الشيطان، يكفينا الذي نحن فيه!". وكان في كلام الجدّة إشارة تخص جدّي عبد المجيد وتدعوه إلى أن يتذكر مقامه بين الناس. وقد شاء جدّي سلمان أن يؤكد المعنى ذاته فهتف بدوره وهو ينظر ناحية أخيه دون سواه: "عدّاك العيب يا أمّ نافذ، يا أخت الرجال!". وبعد أن أدار جدّي عبد المجيد على الحضور نظرة غير محددة، انتبه إلى أن المسدس ما يزال في يده، فأعاده إلى جرابه بحركة متأنية، ثم انسحب من المضافة دون أن يقول شيئاً، وتبعه أبو عدنان. أما زوجة الجد التي كانت تجلس مبدية الهدوء وواضعة خدها على راحة يدها في تعبير صريح عن الأسى العميق، فقد التفتت إلى ربّة الدار وطلبت شربة ماء، ثم أضافت بنبرتها المستكينة: "سيسامحني الله، ومن الذي يستطيع أن يصوم، بعد سخط السماء وظلم أهل الأرض!". ثم سألت المرأة بعد أن بللت شفتيها بالماء: "أين يمكن أن أريح بدني؟". وكأنما كانت ربة الدار في انتظار هذه الإشارة، فقد اقتادت المرأة المجهدة إلى حيث يمكنها أن تنام.

في ذلك اليوم، قدمت إلى دير الدبان جماعات أخرى من أهل المسميتين والقرى المجاورة لهما، وتوزعت على دور القرية. وعندما ضاقت الدور بالجماعات الجديدة، حلّ الناس في الفسح التي تتوسط هذه الدور. ومع واحدة من هذه الجماعات، جاءت والدتي وأسرة زوجها الكبيرة. وقد وجدت الأسرة داراً تؤويها، إلا أن الوالدة آثرت أن تنضم إلينا ومعها طفلها الرضيع رباح وابنها الأكبر بسنتين محمد. وخلال الأيام الأخرى التي أمضيناها في دير الدبان لم يتوقف وصول جماعات المهاجرين. كان هجوم الصهيونيين، إذن، شاملاً على قرى المنطقة الخالية من الجيوش العربية. وقد توجب على المهاجرين الجدد أن يشغلوا الخرائب والكهوف والمغر المحيطة بدير الدبان. ومن هذا الخليط المثقل بالهموم والقصص المأساوية، تشكل مجتمع غريب، أخلاط من الناس، منهم من كان ميسوراً ومنهم من كان فقيراً أو متوسط الحال، وقد ساوى التشرد بينهم في الشقاء وتماثلت ظروفهم المستجدة دون أن تتساوى، بعد، مشاعرهم، أو تتماثل ردود فعلهم إزاء ما حل بهم جميعاً، يصحو الناس كما يبيتون، وهم لا يعرفون لأنفسهم عملاً أو مشاغل ولا يدرون ما الذي سيأتي به يومهم أو ليلهم، يحلمون بانتهاء أمد الهدنة التي تلتزم بها الجيوش العربية دون أن تلتزم بها إسرائيل، ويأملون في أن يؤدي استئناف القتال إلى انتصار هذه الجيوش وإعادتهم إلى قراهم، يمضون نهاراتهم وأماسيهم في أحاديث معادة، ويتسقطون الأنباء من نشرات الأخبار فلا يقعون على ما يعزز أملهم ولا على ما يسلمهم إلى اليأس الشامل، فيظلون محتارين، توقد نأمة متفائلة أملهم، وتهبط نأمة يائسة بمعنوياتهم إلى الحضيض.

بعض المهاجرين جلب معه ما يقتات به، فيما جاء بعضهم الآخر خالي الوفاض. وقد توجب على أهل دير الدبان أن يطعموا الحشد المتكاثر ويؤمنوا له الضروري من حاجاته الأخرى. والحقيقة أن أمر جماعتنا سار في اليوم الأول، بل في الأيام الأولى، على نحو مقبول. فدارُ الخال الشهم مضيافة وناسها مدربون على الحفاوة بالزوار، ونحن، بعد، أقرباء ولأسرنا صلات قديمة في هذه القرية. وقد تداولتنا دور الأقرباء والأصدقاء على دعوات متلاحقة للطعام. لكن الأمر أخذ يتعقد بعد ذلك. فأبو عدنان هو مختار القرية ووجيهها البارز. وبموقعه هذا، ما كان بمقدور الرجل ولا أي من أقربائه أن يقصروا رعايتهم على أقربائهم من المسمية الصغيرة وحدهم، فتثاقلت الأعباء وأحسسنا نحن بتثاقلها، فازداد حرجنا.

وتداول كبار الأسرة في الأمر، جدّاي والآخرون. وكان الشائع أن المهاجمين يمكثون في القرى التي يحتلونها يوماً وبعض يوم ثم يغادرونها لهجوم على قرى أخرى. وقد تسقط أهلنا الأخبار فتيقنوا من أن المسمية الصغيرة خالية إلا من حراس قليلين أُبقوا فيها

ليقوموا بمهمة الإنذار عند اللزوم، شأنها، في هذا، شأن قرى أخرى عديدة في المنطقة المحتلّة. على هذا الأساس، وبدافع الحاجة، تقرر أن يجازف كل قادر من أهل القرية بالتسلل إلى داره وجلب ما يستطيع جلبه منها. كان في الأمر بطبيعة الحال مخاطرة كبيرة، فمن المحتمل أن لا تكون الأخبار الشائعة دقيقة، وهناك الدوريات المسلحة التي تجوب المنطقة، واحتمال الاصطدام بكمائن الحراس عند الوصول إلى القرية. بالرغم من ذلك، فرضت الحاجة نفسها فتغلبت على الخشية من المخاطرة.

اصطحب جداي سلمان وعبد المجيد جملين قدمهما لهما الخال أبو عدنان، وغادرا دير الدبان في المساء ليدخلا المنطقة المحتلة بعد أفول القمر ويبلغا المسمية الصغيرة مع استحكام الظلام ويغادراها قبل إطلالة الضوء. ذهب الجدّان في عداد قافلة صغيرة من الرجال الذين تجرأوا على المجازفة، ذهبوا مجتمعين، إلا أنهم رجعوا إلينا متفرقين، كل حسب الظروف التي واجهها.

كان والد عائشة أول الراجعين إلينا. لم أحدثك عن مصير المجنونة حتى الآن، لا لشيء إلا لأن هذا المصير لم يعرف إلا بعد أن رجع أبوها. كان أهل عائشة حين غادروا قريتنا في ذلك الجو المضطرب قد نسوها في قفصها على ما يبدو، أو لعلّهم فضلوا أن يبقوها في محبسها واثقين من أنهم سيعودون إليها بعد المعركة المرتقبة، كما رووا للناس، وقد أمضهم التفكير بمصيرها طيلة الأيام التي أمضيناها في دير الدبان. فلما برزت فكرة التسلسل، تحمس لها أبو عائشة، وهكذا ذهب مع جماعة المتسللين الأولى. وما أظن أن أمل هذا الأب كان كبيراً، ومع ذلك فإنّ ما عاينه عندما دخل داره المهجورة كان كافياً لتسليمه إلى كآبة أبدية ووجع ضمير لم يكف عن تعذيبه منذ ذلك الحين. وكانت تلك هي حال هذا الأب حين رجع إلى دير الدبان ومعه دابته التي لم يحمل عليها شيئاً، كان ذاهلاً، ورفض أن يجيب عن أي سؤال، ولكن الناس أدركوا الإجابة دون حاجة لإفصاح. فلما عاد المتسللون الآخرون، عرف الناس بقية التفاصيل: تلقى جسد عائشة دفقة من الطلقات فقضت نحبها في قفصها الحديدي، وتفسخ هذا الجسد بمضيّ الأيام الحارة وملأت الرائحة الجوار.

لم تكن مأساة عائشة هي الفجيعة الوحيدة التي تمخضت عنها أحداث الليلة الرهيبة، فهاشم وعطا واجها هما الآخران مصيراً مريعاً. وقد نقل لنا جدي عبد المجيد حكاية الأبلهين كما رواها له ناطوره العجيب. دخل الجدّ إلى داره، تملكته الحيرة، فكل أشياء الدار عزيزة وليس معه سوى جمل واحد، فماذا ينقل وماذا يترك؟ وفي النهاية، اتّبع الجدّ ما أوحى به طبعه، فحمّل الجمل بالكتب قبل أي شيء آخر، وأضاف إليها كيس طحين

وصفيحة زيت وعدداً من الأغطية. ثم خطر للجدّ أن يلقي نظرة على مشروعه المتروك ولم يستطع أن ينحي هذا الخاطر بالرغم مما ينطوي عليه الأمر من مجازفة هائلة، فتوجه إلى المشروع. هناك، وجد الجدّ ناطوره يقظاً كعادته وغير مفاجأ بشيء. في ذلك اللقاء، سمع الجدّ الكثير من هذا الصامت. وقال الجدّ لمستمعيه في دير الدبان إنه عرف من هو عيد، بالضبط، وما هي حكايته، إلا أنه، أي الجدّ، ليس في حل لإطلاعهم عليها. ثم أعاد الجدّ على مستمعيه ما رواه له عيد من حكاية القرية وما حل بالذين بقوا فيها بعد الهجوم.

حمل عيد في تلك الليلة جواب اللجنة القومية على الإنذار وعاد إلى المشروع. واكتشف عيد عند عودته أن موجهي الإنذار اتخذوا من أرض المشروع الواقع بين المسميتين مكاناً لتجميع قواتهم التي ستهاجم القريتين. وسلم عيد الجواب ولم يطلب الإذن بالمغادرة وما كانوا هم سيسمحون له بها بعد ما عرف ما عرف. وهكذا، قدر لعيد أن يشهد المعركة التي تديرها قيادة تتمركز بقربه وأن يعرف كل شيء. وعندما انتهت الاشتباكات، رجعت الوحدات المقاتلة ومعها الذين ألقت القبض عليهم من أهل المسميتين. كان في عداد هؤلاء الأبلهان: هاشم بقامته المهيبة وعطا بحركته الناشطة. وقد صُفّ الأسرى المنكودون على جدار المبنى، وراح أحد الضباط يجري تحقيقاً سريعاً مع كل منهم ويقرر مصيره على الفور في ضوء ما يستخلصه من إجاباتهم. وعندما وصل الضابط إلى هاشم، سأله عن مهنته، فأجاب الأبله الذي كان قد التقط عدداً من الألفاظ العسكرية عبر الأجواء التي سادت القرية في الأشهر الأخيرة:"مدفعجي!"، قالها هاشم باعتزاز أحنق الضابط المنتصر. وقبل أن ينطق الضابط بسؤاله التالي، تنطح عطا للكلام: "نعم هو مدفعجي، أما أنا فطيّرجي". ومن المؤكد أن الضابط المحقق كان في وضع يعرف معه أن القرية التي فرغت قواته من احتلالها للتوّ ليس فيها مدفع، كما أنه ليس فيها، بالطبع، طيّارة. ولا بدّ من أنّ الضابط ظن أنه إزاء مجاهدين صلبين يسخران منه ومن الموت. وبظنّه هذا، حكم على هاشم وعطا بأن يذوقا أشنع ميتة. و هناك آخرون حكم الضابط عليهم بالإعدام في تلك الليلة ونفذ الإعدام فيهم رمياً بالرصاص وهم واقفون على الجدار. أما هاشم وعطا فقد هيأ لهما الضابط ميتة قطع البكاء صوت الجد عدة مرات وهو يعيد وصفها الذي سمعه من عيد، وأبكى مستمعيه. وها أنا ذا أشعر بأني سأثقل عليك كثيراً لو أعدت الرواية بتفاصيلها. وقد يكفي أن أقول لك إن هاشم وعطا وضعا معاً، وفق رواية عيد التي نقلها الجدّ، في مرجل المطحنة حيث يوضع الحبّ المعدّ للطحن، وأن الآلة الرهيبة بدأت دورانها حين كان الاثنان ما يزالان يتبادلان المماحكات.

الحكايات التي نقلها المتسللون الراجعون طغت على اهتمام أسرهم بما عداها، وغيبت حتى الاهتمام بما جلبه هؤلاء من الدور. والحقيقة أن جماعتنا المقيمة في دار الخال أبي

عدنان لم تفطن إلى ضآلة ما جلبه جدي عبد المجيد من مؤونة إلا في اليوم التالي. فطن الأهل لذلك حين قارنوه بما جلبه جدي سلمان الذي حمّل الجمل بما يؤكل فقط. وقد دافع الجدّ الملوم عن سلوكه بأن العلم هو رأس المال الوحيد المتبقي لنا، وقال الجد: "المستقبل في هذه الكتب". وفي لحظة من لحظات المكاشفة النادرة، تلك التي فرضها الجوّ المثقل بالأسى، اعترف الجدّ بأننا فقدنا كل شيء. وأقر الجدّ بأنه استثمر كل ما يملك من نقود في مشروعه الفريد، وأخرج حافظة نقوده وعدّ محتوياتها:"سبعة قروش ونصف، ليس معي غيرها". وأضاف الجد، وقد التوت شفتاه بحركة لا تعرف إن كانت ابتسامة أو شيئاً آخر مغايراً:" كان معي، غير هذه، ثلاثة جنيهات دفعتها لعيد"، ثم تطوّع بشرح لم يطلبه أحد:" أتعرفون لماذا؟ لأن الناطور قرر أن يبقى في المشروع، ولو طردوه فسيتسلل إليه ثانية، ويعيش هناك خفية".

سمعت الأسرة كلها حديث جدّي عبد المجيد هذا، فانضافت دفعة أسى جديدة لتصبغ وضعنا المؤسي في حدّ ذاته بقتام أشد. وحلّ على مجلسنا صمت شامل لا تُسمع خلاله إلا أصوات الأنفاس ولا تُرى إلا الرؤوس المطرقة والوجوه التي أصبحت جهامتها سابغة. وكأنما فطن الجدّ إلى هذا الأثر المؤسي لحديثه فشاء أن يبدل الجو، فاستعاد لغته السابقة وراح يتحدث عن الأمل المعقود على استئناف القتال بعد انتهاء الهدنة الثانية. ومع أن تأثير آخر الحديث لم يكن كتأثير أوّله، فقد أمعن الجدّ في محاولته لتبديل الجوّ، وقال: "لن تطول الغربة، الجيش المصري قريب". فاه الجدّ بهذه العبارة وهو ينظر ناحية زوجته ويعرف أنها تفكر بالذهاب إلى دمشق.

-٢٠-

بطيخة تسبب عراكاً، وأرنب مختلف عليه

مع كل يوم جديد، كانت مجموعات جديدة من المهاجرين تصل إلى دير الدّبان. وبازدياد العدد وتوالي الأيام، أخذ وضع الجميع، أهل القرية والمهاجرين إليها، يتدهور. فأهل القرية الذين لم يكونوا قد فرغوا من جني محصول عامهم نضبت مؤونتهم المخزونة. والمؤونة التي جيء بها إلى القرية كان لا بدّ من أن تنضب حتى مع التقنين الشديد في استخدامها. ولم يتعلق الأمر بالطعام، وحده، بل بكل شيء آخر. فقد شحّ الماء، وبليت الثياب التي جئنا بها، كما شحّت القدرة على الصبر وبليت الأعصاب. ومثلما ساءت الخدمات، ساءت، أيضاً، العلاقات بين الناس. فصار الناس يتحاورون كأنهم يتقاذفون بالحجارة، وصار من العسير أن ينتهي أي حوار إلى الاتفاق على رأي موحد. ودبّت الخلافات بين الأسر، وبين أهل القرية وبين المهاجرين، وبين الجماعات الوافدة من قرى مختلفة، وبين حمائل القرية الواحدة. ولأن الوضع الجديد أسلم الرجال إلى فراغ تام لا يعرفون كيف يدورون فيه، فقد فتحوا مخزون الخلافات القديمة وراحوا يتقاذفون محتوياتها بعضهم ضد بعض. فكان من الرجال من يرى أن القرى قصّرت في تحضير الدفاع عن نفسها وينسب التقصير لهذا أو ذلك من الأسباب، فيما يرى غيره أن القيادة الوطنية هي المقصرة وهي التي لم تحذّر الناس بما فيه الكفاية ولم تعدّهم الإعداد الملائم لمواجهة المخاطر. كان ناس يلومون الدول العربية وآخرون يعلقون آمالهم كلّها عليها. وقد طال الأمر على النحو ذاته الدول الإسلامية، أيضاً. كان للائمين منطقهم: "دول وحكومات وميزانيات وجيوش تعجز في مواجهة حفنة من الغرباء ممن كانوا لا في العير ولا في

النفير". كما كان للآخرين منطقهم: "هذه الدول فعلت ما تقدر عليه وها هي جيوشها في البلاد وهي تحاول عمل ما يمكن عمله". والجدل المتوتر حول الشأن العام قاد، بطبيعة الحال، إلى جدل مماثل حول المواقف الخاصة، فتبادل المتجادلون الاتهامات حول أدوارهم وولاءاتهم وصواب ما فعلوه أو خطأه. وفي أوساط النساء، انضاف إلى التوتر العام الأسباب الطارئة التي خلقها الوضع المتردي كله.

ومهما يكن من أمر، فقد جاء دور دير الدبّان لتتعرض للهجوم. وكما حدث في القرى الأخرى، قاوم هنا من قاوم إلى أن أعجزته الإمكانات عن الصمود، فيما اضطرت جموع أهل القرية والمهاجرين إلى استئناف رحلة التشرد من جديد.

كان الأمر هذه المرة أصعب بالنسبة لنا. فما عاد من الممكن التعلل بالأماني والاعتقاد بأن المسألة مسألة مبيت ليلة في الحقول. ولا ظل من الممكن الحصول على ضيافة في القرية المجاورة والاحتفاظ ببقايا مظاهر العزّ التي يهتم بها الفلاحون. وحين استؤنفت رحلة التشرد، لم يكن أحد في جماعتنا قادراً على اتخاذ القرار السديد حول الجهة التي يمكن الذهاب إليها. فالجهات التالية كلها مشتعلة بالقتال بعد انقضاء أمد الهدنة، وليس من بينها واحدة آمَنُ من الأخرى.

وهكذا، توجب السير على غير هدى، جماعتنا مع غيرها، جموع بائسة ويائسة، كبار وصغار أعياهم الجهد وذوّب الهم ما بينهم من حدود، رجال أذلّهم الافتقار إلى الحيلة وأرهقهم الجهد القاسي المفروض عليهم، ونساء بدّد الهمّ ما يحرصن عليه من وقار. كسا الأسى ملامح الناس في الجمع الهائم في البراري، وامتزج اليأس بحركاتهم فجعلها رتيبة، وانعكس سوء الحال على ملابسهم التي صارت مجرد أسمال. كتل متنافرة ومتجانسة في آن واحد، يدفعها الخطر دون أن يجتذبها أي أمل، وقد توزعت على دروب ضيقة ووعرة لم تُهيأ لتسير عليها جموع كبيرة. ولمّا غاب الأمل بأي استضافة وضاع الإحساس بالاتجاه وتعذر اتخاذ قرار، فقد أسلمت الجموع أمرها للصدف، وسارت في ذلك الطقس الذي يشوي الجماد والأحياء، حتى أعياها السير، وأخذ بعض الناس يتساقطون، فيما يحثُّ الآخرون أنفسهم على متابعة السير بأمل أن يقعوا على مستظل ما يقيهم لهب السماء إن لم يحمهم من شواظ الأرض. وكلما لمحت جماعة شجرة في هذا العراء أو مستظل صخرة أو كهفاً أو مغارة سارعت إليه. وعندما أصبح قرص الشمس كتلة من اللهب، كانت الجماعات المتعددة قد حطّت على الأرض وانتشرت على المدى، متقاربة أو متباعدة، حسب تقارب المستظلات التي توفرت بالصدفة أو تباعدها. وإذ قرص الجوع الناس تلك القرصات التي يتعذر احتمالها، كان لا بد من التنازل عن

الكبرياء وغض النظر عن أسر التقاليد. فالذين حملوا شيئاً من طحين، انصرفوا لإعداد خبزهم على نار العيدان، ثم أخذوا يلوكون اللقم المغمسة بالرماد وهم يتجنبون أن تقع نظراتهم على الجائعين من حولهم، ممن لم تتيسر لهم حتى لقم كهذه.

في هذا التيه، بقيت لي المهمة التي انتدبتني جدتي مدللة لها منذ البداية: قيادة العنزة. وقد أدركت الجدّة التي حرصت على اصطحاب العنزة لغرض محدد أن هذه العنزة ستفيد في الظروف الجديدة لأكثر من غرض، فازداد حرصها على الاحتفاظ بها وتشددت وهي توصيني بالانتباه إليها. وعندما أمكن أن نجد مستظل صخرة نأوي إليه، فيما كانت السماء تشدد هجومها اللاهب على الأرض، انصرفت الجدّة مكللة بصمتها الذي استحكم لإعداد لقمة للجماعة. حلبت خالتي شفيقة ذات السنوات الثلاث عشرة العنزة، وأخرجت الجدّة من مكنوناتها حفنة من الفريكة، وأعد الخال محمد يوسف النار، فيما جلب خالي عمر الماء، وانتظرنا حتى تم إعداد الطبق الساخن فتحلقنا حوله. ودعت الجدّة ضرتها للانضمام إلى الحلقة، وسكبت شيئاً من الطعام في طبق منفصل وناولتني إيّاه، ففهمت دون كلام منها أن عليّ أن أحمله إلى جدّي عبد المجيد. لم يفت الجدّة أن توفر للجدّ اللقمة، لكنها أفصحت حتى في هذا الظرف عن موقفها، فهي ترفض أن تأكل وإياه من طبق واحد. كانت تلك أولى وجباتنا المقننة التي ستتكرر بتقنين أشد في هذه التيه، وأيّ وجبة! طبق واحد من الحليب والفريكة وقطع صغيرة من الخبز سلمت الجدّة واحدة منها لكل واحد منّا بيده، وصمت مطبق لا تسمع معه إلا هذه النمنمات التي تصدرها الأفواه وهي تلوك اللقم وتلوك معها إحساسها بالذل.

في نقاط أخرى في هذا القفر، انتظمت حلقات مماثلة من المحظوظين الذين لديهم مؤونة. وبين الحلقات الملتفة حول الطعام المتيسر، لاب أفراد وزمر ممن لا يحملون ما يقتاتون به، فحاصروا الآكلين بتلك النظرات التي تطلقها الحاجة القاهرة ويلجمها الكبرياء ويمتزج فيها الحسد مع الاستسلام للأمر الواقع. بين هؤلاء اللائبين، رأيت أسرة رجل من قريتنا هو قريب لنا كان معدوداً حتى في القرية بين الفقراء. كان أبو جابر، وهذا هو الاسم الذي أعرفه به، معيلاً لأسرة كبيرة، هو الذي لا يملك إلا قطعة صغيرة من الأرض. وكان الرجل من الناس الذين يوصفون بأنهم قليلو التدبير، ولم تكن زوجته، وهي امرأة مفرطة في الطيبة، أقدر منه. وفي مسيرة التشرد، ساءت حالة الأسرة أكثر مما كانت سيئة في الأساس. وعندما انصرف المحظوظون إلى تناول طعامهم، جلس أبو جابر وزوجته متسلحين باعتداد الفقير بنفسه محتمين بهذا السلاح ضدّ ذلّ الإثقال على الآخرين. أما الصغار فقد راحوا يتجولون هنا وهناك متجنبين، على ما بدا لي، الاقتراب من حلقات الآكلين. فعل الصغار هذا وقتاً طويلاً فجالوا كثيراً، ولعل بعضهم أن يكون قد حظي

بقطعة خبز أو لقمة مغمسة بالأدام قدمت له في هذه الحلقة أو تلك. لكن من المؤكد أن أياً منهم لم يظفر بما يسكت قوارص الجوع، وأن منهم من لم يظفر بشيء على الإطلاق. بالرغم من ذلك، بدا هؤلاء الصغار كأنهم تواطأوا على أن لا يقتربوا من حلقتنا نحن بالذات، ولعلهم تجنبوا الجرح الذي سيواجهونه حين نكتشف، نحن أقرباءهم الأدنين، مقدار عوزهم وجوعهم. غير أن واحداً من أطفال هذه الأسرة، هو أصغر القادرين منهم على المشي، لم يتمكن من مغالبة جوعه أطول مما فعل، فدنا من حلقتنا، ووقف إزاءنا. وكان الجوع وقلّة المعروض من الطعام يتضافران لتعزيز إحساسنا بإيثار النفس فيبقيان عيوننا مسلطة على الطبق الذي يتوسط حلقتنا ويدفعاننا إلى تجاهل نظرة الصغير الموجهة إلى الطبق ذاته. وفي وعينا، كان الأمر واضحاً، فلو دعونا الصغير إلى الطعام فسيتبعه ذلك الجيش من إخوته. وكان على كل واحد منا أن يقر بوعي أو بغير وعي: هل يتحول إلى إنسان تحكمه الأنانية لأنه بهذا وحده يستطيع الاستمرار في العيش، أم أن الشيء الإنساني في كل واحد منا أقوى من الحاجة للاستمرار في البقاء؟

اخترقتني النظرات المحرقة للصغير، فأطلقتُ في حلقتنا هذا السؤال بصوت خافت دون أن أوجّهه لأحد بعينه: "هل نطعم الولد الجائع؟"، فلم أتلق إجابة من أحد. وكان من شأني أن أظن أنهم لم يسمعوا سؤالي، لو لم يشِ استحكام الصمت، فجأة، بأنهم سمعوه فعلاً. مددت يدي إلى الطبق وغمست فيه لقمة خبز وأردت أن ألتهمها، غير أن شيئاً فيّ أقوى من أي تمّنع دفع نظري ناحية الصغير مباشرة، فرأيت عينيه مسلطتين على هذه اللقمة. لحظتها، تحدد الأمر: قمت من مكاني، وأعطيت اللقمة للصغير ثم جررته وأجلسته حيث كنت أجلس حول الطبق، ووقفت مطلِقاً نحو جماعتي نظرات متهمة.

لا أبالغ إذا قلت لك إن هذه الحركة التي بدرت مني، والتي حملتني عليها دوافع لا أستطيع وصفها، هي التي ترسم في حياتي الشخصية النقطة الفاصلة التي انتهت عندها أنانية الطفولة وتأسس بدءاً منها الإحساس بالمسؤولية إزاء الجماعة. وكأنما فتحت هذه الحركة أقنية المشاعر التي كبتها الآخرون: فالخالة شفيقة أطلقت صرخة حارقة: "يا ولداه! أين كنا، وأين صرنا؟!". والخال عمر كفّ عن الأكل وأجهش بالبكاء. واختلجت عضلات وجه الخال نافذ فيما هو يكابر ليمنع انفجار مشاعره. وغادر جدي عبد المجيد الحلقة، فيما انصرف الخال محمد يوسف لجمع إخوة الولد الصغير وإحضارهم. وحين أبدى هؤلاء شيئاً من التمنع، شجعهم غالب على المجيء مجارياً الجو العام. وبقيت أم عدنان متماسكة فحدثت الصغير: "كل يا ولدي!". وكانت الجدّة ترقب المشهد بوجه ثابت القسمات، ثم نهضت، فاغترفت حفنة من الفريكة من صرتها، وملأت حُقاً بالحليب، وعادت إلى المجلس وهي صامتة دون أن تتبدل الملامح الصلدة التي تكسو وجهها. وانتظرت الجدة حتى فرغ

الصغار من لوك اللقمات القليلة التي تيسرت لهم، ثم حمّلتهم الفريكة والحليب: "قولوا لأمكم أن تطعم الرضيع!".

بقينا في هذا القفر أياماً وليالي لا أذكر عددها. وقد أمكن اكتشاف مغارة لجأت إليها الجماعة، وكنا ننام فيها بصحبة الدود والعلق والحشرات الأخرى التي تجعل نومنا مجرد تهويمات تقطعها القرصات المؤلمة. ولا بدّ من أن الذين بيدهم سلطة القرار في الجماعة آثروا الإقامة في المغارة لأنها تسترهم عن العيون وتعفيهم من إحراجات كثيرة كانوا سيتعرضون لها لو بقينا في العراء.

في هذه الأيام والليالي، أخذ الناس يتفقدون الأقرباء والأصدقاء الذين انفصلوا عنهم أثناء السير وتفرقوا في القفر الواسع. وقد وقعت بالصدفة على أسرة جدّي سلمان. وَجَدَت الأسرة هي الأخرى مغارة استترت فيها عن العيون. وكان حال الأسرة قد ساء حتى ليصعب التعرف في العيون المنطفية والوجوه المغمومة على أفراد الأسرة التي طالما تمتعت بالعزّ والجاه. وقفت بباب المغارة التي دلّني أحدهم عليها أحاول أن أتبين وجوه الموجودين فيها. فهتف عمي محمد باسمي وجرى نحوي واقتادني إلى حيث يجلس جدي سلمان. فاحتضنني هذا الجدّ بمودة: "قلقنا عليك". وكرج إسماعيل الصغير وقعد بجانبي. وراحت زينب تتنطط حولي، فيما ثغت فوزية التي لم تكن قد أتقنت النطق بعد. أما وضحة الصغيرة، فقد علقت على كلام الجدّ: "لماذا القلق؟ أحلفُ أنه كان يخمخم هناك، إنهم يدللونه، أما هنا، يا حسرة، يا ضياع عزّك يا أبو رشاد، ليس عندنا ما يملأ عين هذا الولد الذي أفسده الدلال!". ومع ذلك، فإن نبرة المرأة المستاءة خلت من البغض، كل ما في الأمر أنها وجدتها فرصة للتشكي من سوء الحال. وقد أصغى الصغار لأمّهم دون اهتمام سلبي أو إيجابي بما تقول، ثم انهالوا عليّ بالأسئلة عما يجري هناك. ولم يكن يشغل بالهم مما يجري في المغارة الأخرى إلا أمران: مقدار توفر الطعام ومتاعب النوم مع الحشرات. وقد أصغت امرأة الجدّ للقصص التي رحت أرويها، لكن صمتها لم يطل، فقد أطلقت لسانها من جديد بالتعليقات الساخطة. ولمّا احتج عمي محمد محاولاً أن يكفّ عني أذى أمّه، انتهرته الأم بقسوة، وأفلتت لسانها على آخره في تقريعي وتقريع صغارها، أيضاً. وتسمم الجوّ، بحيث اضطر الجدّ إلى مغادرة المغارة بالرغم من الحرارة التي تشوي الأجساد خارجها. ولم أجد ما يشجعني على البقاء مع هذه المرأة المجبولة بالسخط. فتذرعت بالعنزة وقلت للصغار إن جدتي مدللة تريدني أن أبقى عندها، وانصرفت.

في المغارة الأخرى، اكتشفت أن أسرتين من الأقرباء انضمتا إلى جماعتنا المحشورة فيها. وبهذا الحشد الذي ضاقت به المغارة، صار الحصول على مكان للاستلقاء أصعب

من الحصول على موقع في الجنّة. بالرغم من ذلك، أمكن أن أظفر بموقع يتسع لجسدي وأن أتمدد فيه وأطلق العنان لأفكاري الحزينة المضطربة. وقد غفوت لوقت لا أدري كم امتدّ. فلما صحوت، كان الظلام مطبقاً والجميع هاجعين. وكانت الأنفاس التي جعلها الهواء الفاسد ثقيلة تتردد بأنغام متباينة فتزيد الوضع قتامة وتعزز إحساسي بالضيق الذي نام معي ثم صحا حين صحوت. وكنت جائعاً جوعاً مؤلماً. ولم أعرف إن كان الآخرون قد أكلوا شيئاً أثناء نومي دون أن يفطنوا لإيقاظي أم أنهم باتوا جياعاً. وقد غالبت الضيق والجوع وأنا مضطجع حتى غلباني، فنهضت. وحين هممت بالسير، اصطدمت قدمي بالجسد المستلقي بجواري دون أن أتبين صاحبه. وأدركت أن من المتعذر عليّ أن أتخطى كوم الأجساد المتراكم دون أن أدوس على أحد في هذا الظلام المطبق، فاستسلمت للأمر الواقع، وأمضيت بقية الليل بين النعاس الذي يغلبني فيسلمني إلى النوم والجوع الذي يقرصني فيخرجني منه. كان نومي كابوساً، وكذلك كان صحوي.

خلصتني جلبة الصباح من آخر الكوابيس التي افترستني في تلك الليلة. كان الجميع قد نهضوا كأنما أيقظهم زعيق بوق، الوجوه المصفرّة والأجساد التي يبّسها التمدد على الأرض غير الممهدة. وكان أول ما نشده الجميع هو الهواء الطازج. وهكذا، انفلتنا من مدخل المغارة كما ينفلت القطيع الذي طال احتباسه، وانتثرنا في الخارج، وراح كل واحد منا يلين أعضاءه ويملأ رئتيه بالهواء الذي لم تلهبه حرارة الشمس بعد. تمطى الرجال، ومسدت النساء أجنابهن مع حرصهن على دواعي الحشمة، وأعاد الذين ذهبوا إلى المدارس من الأولاد ما عرفوه فيها من التمارين الرياضية، وقلد الأولاد الأصغر هؤلاء وأولئك. أحدثت هذه الحركات بعض الانتعاش في الأمزجة التي تيبست في الليل كما تيبست أجساد أصحابها. وانطلقت الألسنة من محابسها. قال العم محمود: "لا بدّ من أن نعرف الأخبار". وقال الخال محمد يوسف دون أن يظهر من نبرته أنه حانق: "يوم كبقية الأيام، تفوه على الدنيا!". ثم أعلن العم محمود أنه سيستعير بندقية جدّي عبد المجيد ويذهب إلى الصيد فربما أمكن الوقوع على شيء يصاد، فرد خالي عمر: "هل تحلم يا عمّ، لا توجد طلقات". وحين تلقى عمر نظرة العم الآسفة، استدرك: "ربما ينفع المسدس"، ثم جلب المسدس من المغارة وجلس لينظفه. أما جدي عبد المجيد فبقي وحيداً صامتاً ملفوفاً بمشاعر غير قابلة للاختراق. ودخلت أم عدنان إلى المغارة لتتدبر أمر زينتها، فيما راحت جدتي خضرة تلوب هنا وهناك غير آبهة بالأجساد التي تصطدم بها ودون أن يدرك أحد لماذا تلوب على هذا النحو. واجتذب غالب عدداً من الأولاد ليذهب وإياهم في جولة لم يوضح هدفها. وتحلق بعض الكبار للعب السيجة، فيما أخذت حلقة من النساء تتشكل وينشط فيها الحديث.

وحدها، جدتي مدللة، فكرت بشيء مفيد، وكانت أولى تعليماتها موجهة لي: "أنت عليك العنزة، تأخذها بعد حلبها، ولا بدّ من أن تأكل هذه البهيمة شيئاً". ثم تتابعت تعليمات الجدة، فصار على خالتي شفيقة أن تحلب العنزة، وعلى امرأة العم محمود أن تعدّ العجين حتى يختمر مع الظهيرة، وعلى امرأة الخال محمد يوسف أن تروّب الحليب حتى يطبخ اللبن الرائب لوجبة الغذاء. كما صار على الفتيات أن يجلبن العيدان للوقود. ومع هذه التعليمات، صار مفهوماً أننا لن نحصل على فطور. ومن موقفها أمام مدخل المغارة، قالت الجدّة: "الأفواه كثيرة، فلماذا لا يبحث الناس عن شيء يؤكل"، وشفعت قولها بنظرة مؤنبة ألقتها ناحية أخيها الذي كان يحاول اجتذاب خالي نافذ ليلعب معه السيجة. فأعلن الخال محمد يوسف أنه سيذهب، إذن، مع العم محمود وعمر للصيد، غير أن العم رفض صراحة اصطحابه معه.

لاءمت المهمة التي أوكلت لي مزاجي تماماً. فقد نما فيّ منذ بداية هذه الرحلة شيء بدّد رغبتي في العبث، ولم أجد لدي ميلاً لمخالطة الآخرين. فأمسكت مقود العنزة وسرت وأنا أجرّها ورائي. ولعل العنزة التي تقاسمنا أنا وهي بؤس الحال قد حزرت الغاية من اقتيادها، فقد تبعتني بيسر، بل راحت تسبقني أحياناً، أو تتنطط حولي باحثة عن شيء تقتات به بين نثار النفايات.

لم يكن حال جماعات المهاجرين الموزعة في هذا القفر أفضل من حال جماعتنا، بل إن معظمها كان في حال أسوأ. والذين لم يسعفهم الحظ في العثور على مستظل كانوا يعرفون ما الذي ينتظرهم حين يستكمل قرص الشمس استعداداته لصب غضب السماء على أجسادهم. وكان هؤلاء يستروحون طراوة الصباح مدركين أن الفرصة قصيرة ولن يلبث أن يكويهم اللهب. والذين افتقروا إلى المؤونة كانوا يعرفون بدورهم ما الذي ينتظرهم مع هذا النهار الطالع الذي لا يحمل لهم أي أمل بإطفاء غلّة الجوع وتجنيبهم ذلّ الوقفة العاجزة إزاء سغب صغارهم. وبين هؤلاء، تقع العين على زوج يقذف زوجته بسهام حنقه وقد هيأ له عجزه أنها قصرت في أمر ما، أو على آخر يتشاتم مع قرينه لسبب أو لغير سبب. كما تقع العين على امرأة تحاول أن تفعل شيئاً ما لصغيرها الذي بات، أو أصبح، مريضاً، وهي عارفة في قرارة نفسها أن العين البصيرة لا يتوفر لها في هذا القفر إلا أقصر الأيدي.

وبينما كنت أجول بين هذه الجماعات، اجتذبتني حركة من العنزة، شدتني عنوة باتجاه حلقة تضخم عدد أفرادها على نحو غير مألوف. وكان واضحاً من الجلبة أن شجاراً حاداً، هو في واقع الأمر أقرب إلى العراك، قد نشب بين أفراد هذه الحلقة. وحين دنوت من الحلقة مقوداً بفضول العنزة، أنا الذي أفتقد حتى الفضول، اتضحت الحكاية، وضحها

فتات الشتائم التي كان يتبادلها المتعاركون وكذلك تفاصيل المشهد الماثل. وتبينّ أن ربّ الأسرة التي تشغل هذه البقعة في العراء اصطحب خلال رحلة التشرد بطيخة حرص على توفيرها ليوم صعب فألجأه الجوع إلى إخراجها في هذا الصباح. وكان ظهور البطيخة ذات الغلاف الأخضر البراق الموحي بالشبع والحلاوة والارتواء وسط البائسين الذين باتوا على الجوع بمثابة ظهور جرّة من جرار علي بابا الأربعين وسط جمع من الفقراء. ولم يكن غريباً، إذن، أن يجتذب ظهور هذا الكنز ناساً من الجماعات المجاورة. وقد تجمع الناس فشكلوا حصاراً كاملاً حول الأسرة المحظية. وأجج الجوع المشاعر العدوانية. وبلغت هذه المشاعر ذروة اهتياجها عندما بدأ الرجل بتوزيع القطع على أفراد أسرته متجاهلاً، بالطبع، النظرات التي تفترس هذه القطع. ولا بدّ من أن يكون الشجار قد بدأ على هذا النحو أو ما يشبهه: تجرأ واحد من المحاصرين فطلب قطعة لنفسه أو لصغيره الذي يصاحبه، فعل ذلك في البداية بأدب ممزوج بالرجاء، وحين تجاهل رجل البطيخة الطلب كما هو متوقع، كرر الطالب رجاءه بنبرة حادة أو لائمة، فتجوهل طلبه ثانية، فاغتاظ الطالب لأنه أدرك أن الحصول على القطعة الشهية لن يتم باللين ولأنه لا يجد مسوغاً لاستخدام العنف، وكان لا بدّ من افتعال المسوغ افتعالاً. وهكذا، صبّ الطالب احتجاجه على تجاهل الرجل لطلبه واصفاً إياه بقلة الأدب، وقرن الاحتجاج بالشتيمة: بخيل. بعد هذه البداية، اختلط الحابل بالنابل، وتقاذف المتنازعان الكلام الجارح، وتشجع المحاصرون الآخرون فيما استعدّ الذين صارت قطع البطيخ في أيديهم للدفاع عن اللقمة العزيزة المهددة، ونشب العراك، وتشابكت الأيدي التي تحاول انتزاع القطع بالأيدي التي تدافع عما بحوزتها. وحين أوصلتني العنزة إلى هذا المعترك، كان نثار الفاكهة الأحمر يلون الأنامل والأذرع والوجوه والملابس بلون الدم الطازج.

في ظروف غير هذه، كان الأمر سيبدو مسلياً، وربما اشتركت في العراك أو شجعت عليه. أما في هذه الظروف، فما أشدّ ما أحسست بالنفور، وما أشدّ ما تعمق إحساسي بالضيق الذي يخنقني! وقد توجب عليّ أن أستخدم أقصى قواي لأجر العنزة بعيداً عن المعترك، هي التي اقتحمت الساحة وأخذت تتشمم النثار لعلها تقع على ما يؤكل. ولما لم تفلح كل قواي في إقصاء العنزة عن المكان الواعد، لم أجد مناصاً من الانحناء والتقاط قطعة من قشر البطيخة وإغواء العنزة بها كي تتبعني. ثم ابتعدت موغلاً في البرية وموغلاً في الهموم. ولا أدري كم من الوقت استغرقت جولتي. لقد وقعت العنزة على ما تبتلعه، أما أنا فلم يتسن لي أن أقع على شيء. وعندما ألهبت وقدة الشمس رأسي وضاقت قدماي المتيبستان بلهب الأرض ولوى الجوع أحشائي الفارغة، عدت إلى جماعتي جاراً العنزة التي فتر نشاطها.

كانت الجدّة قد أعدت شيئاً ما لوجبة الظهيرة دون أن تنتظر عودة الصيادين، وقد بدا أنها قليلة الثقة بنتائج الصيد. ولا بدّ من أن الجدّة أدركت مقدار جوعي، فقد دست في يدي

قطعة خبز مشجعة إياي على أكلها قبل أن تقدم الوجبة الموعودة. فجلست عند مدخل المغارة مستبرداً في شريط الظل الضيق الذي لم تكنسه الشمس بعد، ورحت ألوك اللقمات الجافة. كان الجميع، عدا الصيادين، قد عادوا وتوزعوا بين داخل المغارة ومدخلها، وكانوا هامدي الحركة، تضغط نظراتهم الجائعة وكذلك ألسنتهم على الجدّة كي تعجل في تقديم الطعام، فيما تشبثت الجدّة بموقفها، إذ لا طعام قبل عودة الغائبين. وشاقني المشهد دون أن يستغرقني، فرحت أراقبه بعينين نصف يقظتين، فيما استراحت العنزة بجانبي وراحت تجتر بدورها ما اختزنه بطنها خلال جولتنا الطويلة.

وحين بدا أن قدرة الجميع على الاحتمال استنزفت عن آخرها، وأن صبرهم نفد كلّه وأنهم على وشك التمرد على ثبات الجدّة، وصل عمي محمود وخالي عمر حاملين تعبهما وخيبة أملهما وذلّ نظراتهما، بدل الطرائد المأمولة. ولأن الجميع فهموا أن عودة الصيادين، على خيبتهما، تؤذن بتقديم الوجبة المنتظرة، فقد أطلق وصولهما موجة غريبة من الفرح وسط الحشد. وبدل التقريع، راح الخال محمد يوسف يقدم لهما التهاني على العودة بالسلامة. وقد ظن الصيادان الخائبان أن الخال الذي منع من اصطحابهما يسخر منهما، فلما استأنسا الجدّ في نبرته بدا على وجهيهما ذلك النوع من الذهول الذي يقترن بعدم الفهم. ثم لم يلبث الجميع أن نسوا هذا كلّه حين دعوا إلى الطعام.

في صباح اليوم التالي، غادرنا جدّي عبد المجيد مبكراً. أعلن الجدّ أنه سيذهب إلى بيت جبرين مع مجموعة من أقرانه، ليستطلعوا الأخبار، ثم انصرف بغير وداع. وانطلق عمي محمود وخالي عمر في رحلة صيد جديدة، وبصحبتهما الخال محمد يوسف هذه المرة. ولما عاد الصيادون مع الظهيرة، بدا للوهلة الأولى أن الحظ ابتسم لنا حقا. وكان حرّ الظهيرة قد ألجأنا إلى مواقعنا بين المغارة ومدخلها حين أقبل الثلاثة ومعهم أرنب يستثير حجمه الاحترام قبل أن يثير الشهيّة. وسرت بين الجميع همهمة البشارة، فانطلقنا نحن الصغار لملاقاة الصيادين المقبلين بحملهم المعتبر وأحطنا بهم نحن وصخبنا الذي فجره ألف سبب. وألقى عمي محمود الطريدة أمام حلقة النساء اللواتي كففن عن الثرثرة ورحن يرقبن المفاجأة. غير أن الصمت المريب الذي تسلح به الخال محمد يوسف استلفت نظر الجدّة اليقظ، فسألته بحدة: "ما الحكاية؟"، فوجّه الخال نظرتين متتابعتين، واحدة ناحية العمّ محمود والأخرى ناحية خالي عمر، وبقي صامتاً. وكررت الجدّة السؤال، غير أن الخال احتفظ بصمته وإن بدا أن في نفسه شيئاً يتشوق للإفصاح عنه. هنا، نهضت الجدّة وأمسكت بالأرنب وقلّبته، ثم ألقت به، وكأنما حزرت شيئاً، فتساءلت مغضبة: "أين الدم؟ دم هذا الأرنب لم يسلْ".

وانطلق لسان الخال المكبوت: "هي التي عرفت".

وبين صيحات الخال ومقاطعات شريكيه في الصيد، اتضحت الحكاية شيئاً فشيئاً. فخلال التجوال الممض في الوعر، لمح صيادونا أرنباً قابعاً بغير حركة في ظل نبتة عرعر، فاستعدوا للظفر بالغنيمة. وأطلق خالي عمر على الأرنب رصاصة من مسدسه وثناها بأخرى وثالثة. فلما لم يتحرك الأرنب بالرغم من صوت الرصاص المدّوي، فقد ظن الثلاثة أنه أصيب في مقتل. وحين أمسك هؤلاء بالأرنب وقلّبوه، انتبهوا إلى أن بدنه نظيف من الدم واكتشفوا أن جلده خال من الثقوب. غير أن رغبة الرجال الذين أتعبهم طول التطواف في أن لا يعودوا خائبين تغلبت، فتجاهلوا المغزى الواضح لخلوّ الطريدة من الدم والثقوب، وأقنعوا أنفسهم بأن الرصاص هو الذي أودى بحياة الأرنب. ولكي تعرف طبيعة المشكلة التي نشأت، عليّ أن أذكّرك بأن الشرع يبيح أكل الطريدة شريطة أن يسيل دمها. وقد احتدم الجدل، أججه هذا التباين الواضح بين التشبث بتعليمات الشرع والاستجابة لمتطلبات الجوع. قالت جدتي مدللة: "هذه فطيسة، لا يحل أكلها". وحاجج العم محمود: "هي صيد. خاف الأرنب من دويّ الرصاص فمات، وهذا صيد". وقد وجدت الجدّة من يؤيدها صراحة، غير أن صمت الأغلبية أظهر الميل الغالب لتأييد العم. واستفاد خالي عمر المؤيد، بالطبع، للعم من هذا الموقف، فبدأ يسلخ فروة الأرنب ويهيئه للطبخ. يومها، أكلنا في حلقتين، الذين احتفظوا بتأييدهم للجدّة حتى النهاية تقاسموا الطبق الذي أعدته وظفروا بعده بحفنات من القطين أو التين المجفف، وزعتها الجدّة عليهم بسخاء لا يتلاءم مع الظرف. والذين اجتذبتهم رائحة اللحم المشويّ تحلقوا حول الأرنب وراحوا يلوكون لحمه وهم يتبادلون نظرات محملة بألف معنى.

والحقيقة أن الخلاف ذاته، وكذلك الانقسام الذي نجم عنه، كانا وقتها غير مفهومين بالنسبة لي. غير أني تبعت الجدّة بحكم اعتيادي على إطاعتها. أما بقية الصغار فقد ظفروا بشيء من هنا وشيء من هناك. وقد اتبع الخال محمد يوسف رأيه الأول فجاء إلى حلقة القطين وبالغ في إظهار تلذذه وهو يأكل. فلما وضع الأرنب المشوي وسط الحلقة الأخرى، وساد ذلك الصمت الذي تضافر على إحكامه تهيب الآكلين من الملامة وتقزز الرافضين، لم يملك الخال السيطرة على شهيته المستثارة، فقفز ناحية تلك الحلقة فجأة، وأخذ لنفسه قطعة من اللحم، ونظر إلى أخته وهو يبتسم وهتف بنبرة أرادها أن تكون مرحة: "إن الله غفور رحيم".

وقبل انطفاء قرص الشمس، عاد جدي عبد المجيد، وصل وهو يحمل تفاؤلاً استعاده في رحلته ومعه أحسن الأخبار: الجيش المصري موجود في بيت جبرين، وقد اتفقنا على أن نتوجه إليها في الصباح. ومع الأخبار التي لم يكن من الممكن الوقوع على أطيب منها في تلك الظروف، جاء الجد بصرة من العنب الطازج الذي حصل عليه من كروم بيت جبرين.

-٢١-

سرق الإنجليز خيول يوسف فتعارك الأولاد

ملأ ضجيج الاستعداد للرحيل جوّ القفر، منذ إشراقة الضوء الأول مع الفجر، وانداح على مداه الواسع. ولما لم يكن لدى الناس الكثير مما يفعلونه استعداداً لهذا الرحيل، فقد بدأ التحرك قبل أن يُطلّ قرص الشمس ويحمل نذر القيظ المداهم.

لم يتسنّ لهذا التحرك منظمون ولا حكمه نظام. على الرغم من ذلك، بدا الأمر كأن هناك سلطة خفيّة فرضت تعاليمها على الناس. خلت حركة الجميع في توجهها نحو بيت جبرين من التدافع أو التسابق. وسار الناس على الدروب غير الممهدة كما يسيل الماء بين مساكب الزرع، بيسر ودون توقف، ولعل مما سهل الأمر، هذه المرة، أن الهدف معروف، فهو بيت جبرين، أو بكلمات أخرى: الأمن المأمول.

وكما كان الأمر منذ البداية، لصقت بي مهمة اقتياد العنزة. وكانت العنزة مطواعة هذه المرة، فسارت بجانبي هادئة ومتفهمة. وكأن الهموم التي غدت ملازمة لرحلة الهجرة هذه فعلت فعلها في العنزة فهدأت توترها وأطفأت نزقها ووضعت في رأسها شيئاً من الحكمة، تماماً كما أن هذه الهموم ذاتها فعلت الشيء ذاته فيّ أنا. وكانت الجدّة التي بعث الرحيل إلى بيت جبرين في نفسها الأمل بالعثور على مؤونة جديدة قد أباحت لنا أن نظفر بفطور مهيب قبل الانطلاق، فأطعمتنا ما كان قد بقي من العنب الذي جلبه الجدّ والكثير من الخبز، بل إن الرجال حصلوا، أيضاً، على القهوة الممزوجة بالحليب. وقد جعل هذا

مسيرتنا أيسر وساعد الأجساد التي أضناها الجوع على احتمال مشاقّها. وإلى هذا، كان مزاج الجدّة قد طاب على نحو غير مألوف، حتى أنها أظهرت تسامحاً ملحوظاً مع الذين أكلوا الأرنب الميت. بل إنها أخذت تداعبني في بعض مراحل الطريق. وفي مرات غير قليلة، تولت الجدّة قيادة العنزة بنفسها، أو أوكلت المهمة لشخص آخر، وأفهمتني أن بإمكاني ممارسة ما أشتهي من العبث. بل إن الجدّة مضت لأكثر من هذا مرة، إذ حثتني حثّاً: "تسلَّ! المشوار متعب".

لم تعدل الرحلة وما اقترن بها من أمل متجدد مزاج الجدّة، وحده، فكثيرون غيرها انتعشوا في هذا الصباح الواعد. الخال محمد يوسف راح يتحدث بطلاقة عن أهل بيت جبرين ويعدد مناقبهم ويمنّي مستمعيه بضيافة طيبة هناك. وجدي عبد المجيد لاطف زوجته ووعدها بأنه سيتفحص الأمور في بيت جبرين، فإن وجد أن إمكانية العودة إلى المسمية الصغيرة لن تتحقق في وقت قصير فسيتدبر الأمر بحيث يرسلها مع صغارها إلى دمشق. وخطط العم محمود وخالي عمر لرحلات صيد جديدة تواعدا على القيام بها فور الاستقرار في البلدة. وعَبْرَ أرتال السائرين الممتدة على مدى النظر، أطلق الأمل حناجر البعض حتى بالغناء. وكان من هؤلاء من أجاد حين صور المأوى الموعود، ففرض على المحيطين به أن يصغوا إليه وأنعش آمالهم بالاستقرار.

كل هذا كان حسناً، إلا أنه لم يدم. فالحرب التي استأنفتها الشمس ضد الأرض ألهبت الأرض والسائرين عليها. وشيئاً فشيئاً، صار الدوس على الدرب عذاباً حقيقياً. وصار هذا العذاب أقسى من أن يطاق بالنسبة للذين لم يجدوا متسعاً لأقدامهم على الدروب الضيقة فاضطروا للسير في الوعر، حيث تلسعهم الأشواك وتبري الحجارة أقدامهم ويكويها اللهيب. وكان الضيق بهذا كله قد بدأ يخالط المشاعر التي انتعشت في الصباح، حين انضاف همّ الطائرات الإسرائيلية إلى همّ الطبيعة. دهمنا هذا الهمّ، أول ما دهم، حين تكشف الضجيج الذي اجتذب أنظار الناس إلى السماء عن ثلاث طائرات محلقة على علوّ منخفض قادمة من جهة المنطقة المحتلة ومتجهة ناحية بيت جبرين. وقد أحدث الظهور المفاجئ لهذه الطائرات بلبلة في الأرتال المنتظمة، فمن الناس من أسرع في السير ومنهم من أبطأ، ومنهم من مال إلى هذه الناحية أو تلك. وكان الجميع خائفين. وبعد دقائق تجادل فيها الناس حول مغزى ظهور هذه الطائرات، اجتذب الضجيج الأنظار من جديد، وظهرت الطائرات المنخفضة عائدة إلى الجهة التي جاءت منها أول مرة، وتجددت البلبة كما تجدد الجدل. ورأى بعضهم أن الطائرات تستهدف مواقع المصريين، فيما رأى آخرون أنها تطير على هذا العلوّ لتستطلع حال المهاجرين، ولن تلبث أن تعود كي تهاجمهم. وتكررت جولات هذه الطائرات، مثلما تكررت موجات الخوف والبلبلة. وفي واحدة من هذه

الجولات، لاحظنا دناناً تشبه البراميل هابطة صوب الأرض التي نسير عليها. وقد راقب الناس بذهول شديد هذا المشهد الذي يرونه لأول مرة. ولم يكن ذهول الناس قد تكشف عن شيء حين اهتزت البرّية بالانفجارات، وتبعها الصراخ والعويل.

وكما يضطرب قطيع الحملان إذا ظهرت الذئاب الكاسرة بين صفوفه فجأة، اضطربت أرتال المهاجرين، وامتزجت الأصوات النائحة بصرخات الذعر وواكبتها الحركات التائهة، وبدا الأمر كأن القيامة قامت دون سابق إنذار. لم يسقط أي من هذه الدنان المتفجرة في الناحية التي نسير فيها. وبالرغم من ذلك، شمل الاضطراب صفوفنا، كما شمل الآخرين. وقد وجدتني أرتجف وأنا ألوذ بالجدّة التي حمتني بيد وأمسكت مقود عنزتها باليد الأخرى، وهي تغالب ذعرها بهدهدتي وترديد أورادها الدينية. ويبدو أن خالي عمر تذكر في تلك اللحظات مهمته بما هو قائد عسكري، فصرخ: "خذوا الأرض!"، أي: انبطحوا! فعل القائد الفتى هذا بعد أن كانت الطائرات قد أفرغت حمولتها واختفت، ولم ينبطح هو نفسه، على كل حال، فلم يفهم أحد ما الذي تعنيه عبارته، فتصرف كل واحد على هواه: جدّي عبد المجيد وابنه نافذ اللذان قطعت الغارة جدلهما قرفصا حذرين وأطلقا نظرهما في الاتجاه الذي مضت فيه الطائرات، والخال محمد يوسف راح يهرول هنا وهناك بغير هدف، زاعقاً على هذا أو ذاك من الصغار كي يهدأ، دون أن يهدأ هو نفسه. الوحيد الذي انبطح على الأرض هو العم محمود، فعل ذلك من تلقاء نفسه منذ الانفجار الأول. فلما انتهت الانفجارات، عاد العم فجلس ووجّه سؤالاً لجدّي: "هل صحيح أن البندقية بغير ذخيرة؟" وهنا فقط، فطن الجد لأمر، فهتف: "لكن، أنا لم أسألك من قبل أين بارودتك الجديدة، تلك!". وبنبرة من أخذ بما تجنب أن يؤخذ به، اعترف العم: "في المعركة، هناك في المسمية الصغيرة، أطلقت رصاصاتي كلها، فأخذت من ذخيرة جاري، لعن الله الظلام، لم تكن من المقاس المناسب، فانفجرت البارودة".

استمر الاضطراب الشامل وقتاً طويلاً. ثم بدأ الأكثر تعقلاً يثوب إلى رشده. وانتظمت من هؤلاء حلقات متفرقة للتشاور حول الخطوة التالية. إلا أن الجموع المساقة بمشاعرها لم تنتظر نتائج أي مشاورات، بل تحركت بعد أن تخفف ناسها من أحمالهم، وبدأت تسير دون أن يحكم سيرها هذه المرة نظام ظاهر أو خفي. وفي بقعتنا، تشاور الرجال، أيضاً، وكانوا ما يزالون يتشاورون، أيضاً، حين أخذ القفر من حولنا يخلو، واتضح أن هناك قتلى ومصابين تحلق حولهم عدد من الناس في بقع متفرقة. هنا، تذكر المتشاورون أن من الواجب تفقد الأقرباء والأصحاب، فقد يكونون بين الضحايا. وأوفد الرجال خاليّ نافذ وعمر لهذه المهمة، وحين عاد الخالان، أبلغا إلى حلقة الرجال نتائج ما شهداه. ونشأ جدل جديد، فبين الضحايا واحد من أهل قريتنا ومعارف من قرى أخرى، والواجب

يقضي بمواساة أسر الضحايا والمساعدة على نقل الأجداث أو دفنها. غير أن هناك من اعترض بحجة أن هذه المهمة سوف تؤخر وصولنا إلى بيت جبرين بما ينطوي عليه التأخر من مخاطر التعرض لغارات جديدة. وكان جدّي عبد المجيد بين من رأوا هذا الرأي وبدا أنه قادر على فرضه على الآخرين. وحين كاد الأمر يصل إلى قرار باستئناف الرحيل، تدخلت الجدّة: "يا حيف على الرجال، كيف ينسون الواجب!". فلم يقل الجدّ شيئاً، وأظهر بصمته أنه يأخذ ملاحظة الجدّة بعين الاعتبار. وتوجه الرجال لأداء الواجب، وانضمت إليهم بضع نسوة. أما نحن الصغار فقد أصرت الجدّة على إبقائنا بمنأى عن مشاهدة الدماء، فقعدنا بصحبة النسوة الأخريات منتظرين الفراغ من هذا الواجب.

بمعوقات كهذه ومع حلول الاضطراب، فقدت أرتال السائرين نحو بيت جبرين اتصالها، فسار الناس في زمر وجماعات متباعدة. وكانت جماعتنا بين أواخر الجماعات التي تناثرت على دروب البرية. سرنا بعد أن تم دفن الذين وافق ذووهم على دفنهم في ذلك العراء. ولم يعد هناك، بعد، أي مجال للمرح. وبالرغم من تناثر الجموع، تكررت الغارات. وقعت الغارة الثانية بعد ساعة من الأولى، وأصابت واحدةٌ من القذائف جماعة غير بعيدة عن جماعتنا. وتكرر التشاور والتوقف، وأفلحت جهود الجدّة مرة أخرى، وإن بصعوبة أشد هذه المرة، في حجب مشهد الدماء عن أعين الصغار. وتباعدت المجموعات أكثر فأكثر حين استأنفنا السير. فلما وقعت الغارة الثالثة، سقطت واحدة من القذائف في بقعة خالية على مقربة من جماعتنا، حتى أن عفار التراب لامس أجسادنا. لم يصب أحد من جماعتنا بسوء، غير أن دنوّ الخطر منا إلى هذا الحدّ عزّز وجهة نظر جدي عبد المجيد. وجاء القرار حاسماً: السير بسرعة وبغير توقف مهما تكن الظروف. ولم تعترض الجدّة بأي نحو من الأنحاء.

غدا سيرنا أقرب إلى الهرولة تحت شمس العصيرة. ومع الكدّ واللهب، حل الجوع وأطبق الهمُّ الأفواه. وقد بقيت الطائرات تلاحقنا. وكانت هذه الملاحقة غريبة حار حتى الكبار في تفسير مغزاها. فما الذي يريده هؤلاء الذين احتلوا البلاد من الجموع البائسة التي تحثّ الخُطا مبتعدة عن قراها؟ فرض تواتر الغارات هذا السؤال على الجميع. وفجأة صرخ خالي نافذ: "وجدتها كما وجدها أرخميدس!". وحين أفصح الخال عما وجده بلغة مفهومة، أوضح لنا أن هدف الغارات هو ثنينا عن الاتجاه الذي نمضي فيه وإرغامنا على التوجه باتجاه الأردن. ويبدو أن اكتشاف خالي نافذ لهذا التفسير قد استهواه، فراح يعزز وجهة نظره بالبراهين: "لا يريدون لأهل البلاد أن ينتقلوا من بلد فيها إلى آخر، تذكّروا، عندما استولى اليهود على يافا، مثلاً، سدّوا طريق الهجرة إلى وسط البلاد وسهلّوا لهم المغادرة عبر البحر. وفي حيفا، عندما سيطر اليهود على المدينة، تكرر الأمر،

وظهرت مراكب عديدة حملت الناس إلى لبنان". وفي لحظة كفّ فيها نافذ عن الحديث، قال الجدّ بنبرة حازمة: "نذهب إلى بيت جبرين، وهناك نفكر".

واستمرت الهرولة فوق حجارة ذلك الوعر وأشواكه، وتابعت الطائرات المطاردة، وصارت ترشق الأرض برصاص الرشاشات، بدل القنابل.

ومع حلول المساء، أشرفنا على بيت جبرين، فكانت في الانتظار مفاجأة أطفأت ما كان قد تبقى من الأمل بالظفر بالأمان. كانت المجموعات العديدة التي سبقتنا قد تمكنت من دخول البلدة، أما نحن فقد أوقفتنا عند مشارفها معركة تدور فيها بين الجيش المصري والجيش الإسرائيلي. كانت رشقات الرصاص تتوالى والمدافع وقذائفها تزأر بين وقت وآخر ونحن لا ندري على وجه اليقين من أين تنطلق القذائف أو أين تحط. توقفنا في المكان المشرف دون أن نجرؤ، بالطبع، على اختراق حواجز النار. وتبعتنا جماعات أخرى توقفت بجانبنا. ثم بدأ مجرى المعركة يتقطع فتحل فترة صمت يعقبها الأزيز والضجيج لتحل فترة صمت أخرى. وجازف بعض الجماعات الصغيرة فاندفع إلى القرية في هذه الفترات. غير أن جماعتنا كانت كبيرة وكان عدد الصغار فيها كثيراً فلم تتمكن من المجازفة.

ومن جديد، انعقدت حلقة التشاور. وكان من رأي الجدّ أن نفعل ما فعله سوانا فنجازف. واقترح عمي محمود أن نتريث حتى ينجلي الموقف أو يطلع ضوء النهار. وتعددت الآراء بين النساء وتباينت، أيضاً. قالت أم عدنان: "أموت هنا، ولا أتحرك"، وقالت امرأة عمي محمود: "نتبع ما يقرره الرجال"، واحتفظت جدتي بصمتها.

وفي جولة من جولات التراشق المتعاقبة، استؤنف إطلاق النار على نحو أشد، وبدا من الأصوات أن مصادره المتقابلة تقاربت. وفجأة، اشتعلت في السماء قذائف ضوئية كأنها قناديل معلقة فأنارت المشهد أمامنا. واتضح أن هناك عبّارة تشبه الجسر أقيمت فوق واد يخرج من البلدة يمر عليها طريق السيارات المحاذي لطرف البلدة من ناحيتنا. وعرفت من أحاديث العارفين أن الطريق يقود من ناحية الشرق إلى الخليل وبيت لحم والقدس بينما يقود من ناحية الغرب إلى الفالوجة والمجدل وغزة. ولا بدّ من أن يكون الطريق الأول هو الذي استخدمناه حين شاءت أمي أن تفي بنذورها لمقام إبراهيم الخليل والمسجد الأقصى. كانت المشاعر مستثارة والخوف من المجهول الذي يمتد أمامنا مسيطراً على الجميع، فيما أخذ إطلاق النار يشي بضراوة الاشتباك الدائر. وبينما كنت مثلي مثل الآخرين مشدوداً لما يجري أمامي، ضغطت الجدة على يدي، كأنما لتنبهني إلى أنها ستقول شيئاً هاماً، ثم قالت بالفعل: "خبّر جدك أن من الأسلم أن نمرق من تحت العبارة وندخل القرية حين يتوقف هذا البلاء!".

تقرر الأمر. وتحركنا باتجاه البلدة حين حلّت لحظة الصمت المرتقب. وقد ساعدنا ضوء القمر الذي سطع قبل قليل على تبين مواقع خطونا ونحن نسير حذرين وكذلك حين توجب أن ننحدر باتجاه قاع الوادي. وكانت العنزة التي هدأت بعد أن أثارها إطلاق الرصاص تمضي بجانبي مطواعة. غير أن قدم العنزة زلقت بحصاة أو بشيء من قبيلها، قبل أن نبلغ أنا وهي القاع، فراحت تتنطّط، متبعة غريزتها غير آبهة لحاجتي إلى ضبط حركتي في هذا المنحدر. وقد ترتب على هذا الوضع أن أُفلت مقود العنزة من يدي حتى لا ترديني حركتها فأسقط في القاع. وركبني الخوف من أن أفقد العنزة فأتعرض لملامة الجدّة، أنا الذي حزت على رضاها كل هذا الوقت. والواقع أن الخوف من فقدان العنزة ملأ ذهني في تلك اللحظات فطغى على كل ما عداه. وتركز كل اهتمامي في العمل على استعادة المقود، وشغلتني محاولات الإمساك بالعنزة فتخلّفت عن جماعتي بضعة أمتار دون أن ينتبه أحد منهم لذلك. وظفرت بالمقود في النهاية، غير أن شيئاً مهولاً وقع في تلك اللحظة بالذات. كان أفراد المجموعة قد اجتازوا المسافة تحت العبّارة فيما أنا في مكاني في الطرف الآخر حين انطلقت القذائف المضيئة وانصب الهول من كل ناحية على كل ناحية. وجمدتني المفاجأة، فلم أدر كيف أتصرف، خصوصاً أن الأضواء المشتعلة حولي جعلتني أحس بأني مكشوف لكل أنواع المخاطر. رأيت الأهل على الطرف الآخر فبدوا تحت الأضواء المتداخلة كالأشباح المترجرجة في لهب النيران، وقد تجمدت حركتهم هم الآخرين. ولما أخذت القنابل تحط هنا وهناك من حولنا، فقد سرت الحركة في أفراد الجماعة فأخذوا يتراكضون متوزعين ذات اليمين وذات الشمال. وفي النهاية، صعد كل واحد منهم ناحية من نواحي الوادي واختفوا عن ناظري، وبقيت وحدي في ذلك القاع. ولم أميّز ، بالطبع مَن مِن الأهل اتجه ناحية الشرق أو ناحية الغرب، ولا انشغل بالي بهذا التمييز وأنا مجمد بخوفي.

لا أدري كم امتدّ جمودي في قاع الوادي. كل ما أعرفه هو ذلك الرعب الذي سكنني وأحاط بي. وليست لدي حتى الآن الكلمات التي أصف بها هذا الرعب. وإذا كنت قد احتفظت بمقود العنزة في يدي، فلأن الرعب ذاته جمّد حركتها هي الأخرى، وكنت أنا ذاهلاً عنه وعن مقودها. وقد بقيت في القاع عاجزاً عن الإقدام أو التراجع أو الإتيان بأي حركة، ذاهلاً عن كل شيء، إلى أن حل الصمت من جديد. حينها، تحرك ذهن الفتى الذي صار إليه الطفل الذي كنته، وخطر لي في البداية أن العودة أسلم. لكن هذا الخاطر نحاه السؤال: إلى من أعود؟ ثم خطر لي أن أتقدم وأفعل ما فعله الأهل، لكن أسئلة أخرى جمدت هذا الخاطر، أيضاً: إلى أين أتجه، إلى الشرق أم إلى الغرب وقد توزع أهلي على الناحيتين؟ وماذا لو استؤنفت الاشتباكات؟ وكنت في جمودي وحيرتي حين لمحت شبحاً

يتقدم نحوي، وميزت في القامة الطويلة النحيلة هيئة خالي نافذ فأخذ روعي يهدأ. إلا أن العنزة جفلت فجأة، فانشغلت لحظة بمحاولة السيطرة عليها. وفي هذه اللحظة، انفلتت أصوات القذائف من محابسها كرة أخرة، ولم يعد بإمكاني أن أسيطر على نفسي ولا على العنزة التي أصابها الذعر. واندفعت العنزة اندفاعة أفلت معها مقودها من يدي وتسلقت الوادي من ناحية الشرق. وبحركة غريزية، خطوت عدة خطوات عازماً على اللحاق بالعنزة، غير أن صوت خالي أوقفني: "ألف لعنة على العنزة، الزم مطرحك!". ولزم هو النقطة التي وصل إليها. ثم حدث أن أخذت القنابل المروعة تتساقط بالقرب منا وغمرني نثار التراب وكذلك الضجيج. ولم يعد لدي ما أسيطر به على نفسي. نسيت الخال المنبطح على بعد أمتار والعنزة التي فقدتها والأهل وكل شيء، ووجدتني مندفعاً لتسلق حافة الوادي في الاتجاه الذي يبعدني عن المكان الذي سقطت فيه آخر قنبلة. وقد اندفعت بالصدفة ناحية الغرب. وحين بلغت الحفّة، أطلقت ساقيّ وجريت بمقدار ما أسعفتني قوتي وبمقدار ما حركني الخوف. وظللت أجري وأجري إلى أن تعثرت فوقعت على الأرض. عندها، فقط، انفجرت دموعي وأخذ جسدي كله يختلج وقبضتاي تنبشان التراب غائباً عن كل ما حولي. ولم أنتبه لنفسي إلا حين احتواني ذراعان حانيان؛ كانت تلك هي خالتي شفيقة، وكانت تبثني عبارات المواساة، وتشجعني، وتبكي.

رآني الأهل من مخبئهم الذي اختاروه للاحتماء من القذائف، فقدمت خالتي لإنقاذي دون أن تعبأ بتحذيرات الآخرين. وانضممت إلى الجماعة التي تقلص عددها بعد أن افترقت عن الذين قادتهم الصدفة إلى ناحية الشرق. وبعد التدقيق، تبين أن جدّي عبد المجيد وزوجته وصغارهما، وكذلك جدتي خضرة، هم الذين أرغموا على التوجه إلى الناحية الأخرى، ثم انضم إليهم خالي نافذ بعد نجاته من القاع.

في الصباح ، توقفت الاشتباكات بعد أن انسحب المهاجمون من محيط البلدة التي طوقوها أثناء الليل. وقررت مجموعتنا أن تبحث عن شقّها الذي غاب. وقد استمر البحث طيلة النهار دون طائل. فعلى الناحية الأخرى، كما على ناحيتنا، تناثرت مجموعات المهاجرين التي وصلت في اليوم السابق عبر الحواكير والحقول الفسيحة منضمة، بذلك، إلى مجموعات كثيرة سبقتها إلى هذه الأمكنة في أيام أخرى. وكان بعض المجموعات قد دخل البلدة التي بدأنا البحث فيها ملتمساً ما يهدئ آلام الجوع. ولم نقع على أحد من أهلنا، هنا. وفي الحقول، كان البحث عن أفراد بعينهم وسط عشرات الألوف من الناس مثل البحث عن خاروف مفقود في سوق الغنم. ومع تضاؤل الأمل، استشرى اليأس، وانبثقت أسئلة لا تحظى بإجابات، فظلت تثير القلق. وعندما عجزنا عن العثور على ناس شطرنا الآخر، اقترح الخال محمد يوسف أن نتابع السير في الاتجاه الذي مضوا فيه

أمس، إذ قد نعثر عليهم في إحدى القرى التالية. غير أن العم محمود اعترض بحدة على هذا الاقتراح، كانت حجته دامغة، فليس من المضمون أن نعثر على ضالتنا، وليس في القرى التي تقع على هذا الاتجاه من نعرفه بحيث نلجأ إليه. وقد أيدت الجدّة العم محمود، وأضافت أن البقاء في بيت جبرين مع هذا الاكتظاظ الشديد لن يفيدنا، لكن إذا اتجهنا في الاتجاه الآخر فإن لنا معارف كثيرين في القرى التي تقع على هذا الاتجاه بحيث يتيسر أن نجد مأوى ونكون بعيدين عن الخطر الذي يكتنف بيت جبرين. وتذكر العم محمود أمراً فهتف: "كرتيّا قريبة، نذهب إليها، ونقيم عند الحاج مطاوع". وباقتراح معقول كهذا ، أسقط العمّ أي معارضة.

لم تكن القرية التي توجهنا إليها قد تعرضت، بعد، لأي هجوم. فكرتيا واقعة شمال غرب الفالوجة، داخل سيطرة الجيش المصري ولا يوجد بجوارها أيّ مستعمرة يهودية، وليس لموقعها أهمية خاصة تؤثر على مجرى العمليات بحيث يستهدفها الجيش المعادي. لهذا كله، تمتعت كرتيا بموقع آمن نسبياً. ويبدو أن هذا السبب، وهو بين الأسباب التي اجتذبتنا إلى القرية، قد اجتذب مجموعات أخرى من المهاجرين التواقين إلى الأمان. وحين أقبلنا ناحية القرية، توجب على جماعتنا أن تخترق جماعات المهاجرين المنتشرة في محيطها وساحاتها. ولأن جماعتنا كانت واثقة من متانة منزلتها عند الحاج مطاوع، فقد قصدت داره بثبات. وكانت في انتظارنا، هناك، مفاجأة سارة، إذ إن جدّي سلمان سبقنا إلى دار صديقه. واستضافت الدار أسراً أخرى من أصدقاء صاحبها، ولكن الدار كانت كبيرة، والناس الذين لقوا أسوأ الظروف قبل وصولهم إليها وجدوا الإقامة فيها نعمة من نعم الرب لا يوفرها لكثيرين. وبعد مشاورات لم تطل، انضممنا إلى الحجرة الفسيحة التي آوت أسرة جدي سلمان، وعاد لي بطبيعة الحال وضعي بما إني من أفراد هذه الأسرة. وقد عزم جدي سلمان على استبقائي معه.

امتدت إقامتنا في كرتيا بضعة أسابيع حظينا خلالها بما يحمي المعد من الجوع وتخلصنا من الهيئات المزرية التي جئنا بها إلى القرية، لأن أهل الدار ومن يلوذ بهم وهبونا بعض ملابسهم، ولأن الإقامة في هذا المستقر الحفيّ وفرت لنا وسائل النظافة. أما جموع المهاجرين المحيطة بالقرية فقد وجدت في الحقول التي لم يُستكمل حصادها ما يقيم أودها. فكانت تجمع السَّبَل وتجرش حباته أو تدقها دقاً وتصنع من الجريش ما يملأ المعدة. كان الماء، وحده، هو الشحيح. فكلف الحاج مطاوع فريقاً من أولاده وشبان قريته الآخرين ليشرفوا على توزيع الماء. واضطرت جموع المهاجرين إلى إيفاد ناس منها للبحث عن الماء في مصادره البعيدة. وهكذا، كانت الإقامة في كرتيا مقبولة، خصوصاً أنها توفرت لنا بعد اجتياز ذلك القفر وعبور وادي النار في بيت جبرين.

وإذا كان الكبار قد بقوا مهمومين بما يشغل بالهم في تلك الظروف، فقد ألفنا، نحن الصغار، الوضع الجديد بسرعة وخلقنا لأنفسنا فيه مشاغل تستغرقنا. فإلى جانب الواجبات التي ألفنا الاضطلاع بها منذ بدء هذه المأساة، ظهرت واجبات جديدة، وكان منها التوجه لجلب الحطب والقش اللازمين للنار في الدار التي ننزل فيها، والبحث في البراري عن أغلفة القذائف الفارغة حيث يمكن الاستفادة من نحاسها، ومساعدة المهاجرين الآخرين في جلب الماء من الأماكن النائية. أما اللعب العابث، فكنا قد نسيناه، وحين حاول أطفال كرتيا استدراجنا للعبث لم يجدوا منا الاستجابة الكافية، فانجذبوا هم لمشاغلنا. وبين مشغلة وأخرى كانت لنا نحن الصغار جلساتنا الخاصة بنا، نعقدها في حلقات تكبر أو تصغر حسب الأحوال، ونذير بيننا تلك الأحاديث التي يفرضها الجو المستجد. هنا، وقد غاب التنافس في الألعاب المألوفة، حل التفاخر بالأمجاد محل هذا التنافس. وكنا، نحن أولاد المهاجرين، نجد أنفسنا مندفعين في رواية حكايات تبهر أولاد القرية وتستهدف إعلاء شأننا في عيونهم، فنصف المعارك التي خاضها ذوونا في مواجهة هجمات البريطانيين واليهود، ونذكر الشهداء ونعدد مناقبهم ونركز على صلات القربى التي تجمعنا بهم، ونعدد الإصابات التي أوقعها ذوونا في صفوف الأعداء، أو نتفاخر بالأمجاد التقليدية: الكرم وحجوم الملكيات والبيارات والبساتين. وكنا، بالطبع، نبالغ في هذا كله.

والحقيقة أن هذه المشغلة، أو التسلية إن شئت، كانت الأشد جاذبية لنا، نحن صغار المهاجرين. ففي أجواء الحرمان التي نعيشها، صار للتفاخر وظيفة التعويض عن الإحساس الشديد بالنقص. وكنا نذهل أقراننا من أبناء كرتيا بأحاديثنا عن أمجاد قرانا. كان ميسوراً لنا أن نشتط في المبالغة، أما هم فما كان بوسعهم أن يتفاخروا بأكثر مما في حوزتهم فعلاً، وكانت دهشتهم إزاء رواياتنا تريحنا. ولعلنا بدأنا الأمر بهدف تحقيق هذا الإدهاش، وحده، ثم استسغنا المبالغة بعد أن استشعرنا فوائدها الأخرى. وقد نشأ بين أولاد المهاجرين نوع من التواطؤ غير المخطط له، فلم يكن أحد منهم يكذّب الآخر، ذلك أن الكل يفعل الشيء ذاته. وهكذا، بتأثير دوافع لا تقاوم، زرع خيالنا حقول قرانا كلها بالبيارات وكروم العنب والزيتون وبساتين الفاكهة. وصنع هذا الخيال معارك متصلة صال فيها المقاتلون وجالوا وأثخنوا صفوف العدو بالجراح. ونسب الخيال لكل أسرة شهيداً، وربط كل شهيد بحكاية فذّة تجلت فيها بطولته الخارقة. وحوّل الخيال مطامير القمح إلى مستودعات للحبوب، وجعل البواكي حظائر تزدحم بالمواشي. ومشروع الجدّ الذي عرفت أن مرحلته الأولى، وحدها، هي التي أنجزت صار عمارة شاهقة الارتفاع ومكائن يملأ ضجيجها الأفضية وتلالاً من الثمار التي تعجز الشاحنات عن نقلها إلى الأسواق.

وكان بعض ما نرويه، إن لم يكن كله، يصل إلى مجالس الكبار التي يشترك فيها ذوونا، فلا يصدر عن هؤلاء ما يردعنا عن المبالغة، كانوا هم أنفسهم بحاجة إلى هذا التعويض. وأذكر مرة اشتط فيها ابن العم محمود، وهو إبراهيم، في وصف الدكان الذي يملكه أبوه في المسمية الصغيرة. وقد جعل إبراهيم الدكان المتواضع متجراً فسيحاً تتراصف فيه البضائع من كل صنف وتتكدس الخضراوت والفاكهة التي يجلبها أبوه من حواكيره العديدة. ومضى إبراهيم لأبعد من هذا فجعل في الدكان ركناً سرياً يخزن فيه الأب البنادق والذخيرة ويبيعها للفلاحين بأسعار منخفضة. هذا الشطط في الخيال حثّ خيال يوسف ابن الخال محمد يوسف الذي ورث الميل إلى المرح عن أبيه ومزجه بميل مزمن إلى المبالغة، فلا يعرف سامعه إن كان يهزل أو يكذب. وراح يوسف الذي يكبرنا جميعاً ببضع سنوات يصف بساتين أبيه وبياراته وحقوله وقطعان مواشيه وجماله. ولما فرغ يوسف من هذا كله وتيقن من أنه امتلك انتباه سامعيه، ابتكر جديداً لم يكن أحد منا قد سبقه إليه. فقد ملّك يوسف أباه خيولاً في المسمية الصغيرة. وكانت خيول يوسف من النوع الذي لا تكاد تطلقه حتى يختفي من سرعة الجري، أو كانت، كما وصفها، أسرع من الريح. ولما سأله أحد أولاد كرتيّا المدهوشين: أين هذه الخيول الآن؟ لم يتحرج يوسف إزاء السؤال المحرج، بل أجاب بالنبرة الواثقة نفسها التي روى فيها الحكاية: "صادرها البريطانيون، وأخذوها معهم إلى بلادهم، أنت تعرف، خيول الإنجليز كدش، وهم بحاجة للخيول الأصيلة". ويبدو أن كذبة يوسف الجديدة استهوته هو نفسه فجعل لها ذيولاً طويلة. قال يوسف مظهراً التحسر العميق: "مسكين أبي، عرض عليه الإنجليز أن يشتروا هذه الخيول بالمال. أنت تعرف، الإنجليز يشترون كل شيء بالمال. لكن، كيف أقول، أبي يحب خيوله ولا يبيعها للإنجليز، لكنهم ناموا على غش، قالوا له عندما رفض: برافو، وناموا على غش، وقبل انسحابهم جاءت سياراتهم وشحنت الخيول في الليل، وأخذوها معهم إلى بابور البحر".

ومن سوء حظ يوسف أن ابناً من أبناء الحاج مطاوع انضم إلى جلستنا فيما كان هو مأخوذاً برواياته. وكان هذا الابن قد استمع بالصدفة إلى حديث أفضى به الحاج لزوجته ووصف فيه حالة نزلاء داره، فذكر فيه أن على الزوجة أن تخصّ أسرة محمد يوسف بالعناية "فهؤلاء فقراء، سابقاً ولاحقاً"، حسب كلام الحاج الذي سمعه الابن بنفسه. ودون أن يقصد الولد الإساءة لأحد هتف في وجه يوسف: "كذّاب، أنتم فقراء". ولم يبتلعها يوسف، فصفع الولد. وكان ذلك إيذاناً ببداية عراك انقسمت فيه الحلقة إلى فريقين: فريق المسمية الصغيرة وفريق كرتيّا، وخلّف جراحات في النفوس وفي الأجساد. وانتقلت حكاية العراك إلى مجلس الكبار، فتندروا بها، واجتذبتهم، على ما يبدو، حكاية الخيول

الأسرع من الريح، وواجهوا بها الخال محمد يوسف ممازحين، فكان أن ضحك الخال غير مأخوذ بتندر أقرانه به، وقال:"لماذا لا تكون أسرع من البرق، أيضاً؟! صيت غنى ولا صيت فقر".

لم يقدر لإقامتنا في كرتيّا أن تستمر، امتدت ألسنة النار إلى هذه القرية، أيضاً. واستأنفت جموع المهاجرين الرحيل بعد أن صار أهل القرية أنفسهم مهاجرين. وكالعادة، انقسمت جماعتنا في الرأي. وكان من رأي جدّي سلمان أن نتوجه إلى الفالوجة القرية الكبيرة القريبة التي تتمركز فيها وحدة كبيرة من وحدات الجيش المصري، حيث يمكن لأصدقائه العديدين في القرية أن يؤمنوا لنا مأوى نبقى فيه حتى تفرج. أما الجدّة، فأظهرت برمها الواضح إزاء هذا الانتقال من قرية إلى التي تليها، واقترحت أن نمضي بعيداً حتى المجدل، حيث الأمان وحيث يمكن أن ننتظر الفرج الذي يبدو أنه ليس قريب المنال. وأيدّ العم محمود الجدّة بحماس، كما أيدّها، أيضاً، أخوها. وفي الحصيلة، انقسمت الجماعة من جديد، اتجه الباحثون عن الأمان في المجدل ناحية المجدل، وجمّع جدّي سلمان أسرته، وأنا معها، وتوجه بها إلى الفالوجة.

في الفالوجة، وجد الجدّ المأوى المأمول. وقد خيّرنا أصحاب الجدّ بين مشاركتهم السكن في إحدى دورهم في وسط القرية، أو السكن في دار مستقلة في طرفها. وأوضح هؤلاء أن سكان الدور المتطرفة أخلوها بعد أن تواترت الهجمات الليلية على الفالوجة، وصارحونا بأن الإقامة هناك تنطوي على مخاطرة. بالرغم من هذا، آثر الجدّ الدار المستقلة. وكانت الدار التي قدمت لنا هي آخر الدور في طرف القرية الشرقي. في هذه الدار، صار عليّ أن أتعرض من جديد لنزوات وضحة الصغيرة التي شحذت المتاعب المستجدة حدة طبعها. ولكني، بعد ان عانيت ما عانيت من أصناف الأذى، لم أعد، بعد، ذلك الطفل الغرّ الذي تسلمه مماحكات امرأة الجد للأسى، ولم يعد أولادها المتعاطفون معي أغراراً، أيضاً. وهكذا، لم تعد نزوات وضحة الصغيرة تشغل بالنا أو تؤثر في أمزجتنا ذلك التأثير السيىء الذي كانت تحدثه من قبل.

الهمّ الذي شغل الجميع كان همّ هذه الاشتباكات المتواترة التي تحرم أهل القرية الكبيرة والمهاجرين إليها من النوم في الليل وتسلمهم إلى القلق المتواصل في النهار. كان الإسرائيليون يهاجمون القرية كل بضع ليال، وأحياناً كل ليلة، يأتون من هذه الجهة مرة ومن تلك الجهة مرة أخرى، فيلعلع صوت الرصاص وينتزع الخطر الناس من دورهم في الناحية التي تتعرض للهجوم ويسوقهم إلى وسط القرية. هناك، في الساحة التي تتوسط القرية، ينتصب مقام وليّ الله الذي سميت القرية باسمه، شهاب الدين أحمد الفلّوجي.

وإلى هذا المقام الذي تنسب المعتقدات الشعبية لصاحبه كرامات خارقة يلتجئ الناس عندما يشتد الخطر ويتضرعون لصاحب المقام ليحميهم. وحين تعرض الطرف الشرقي من القرية للهجوم، اجتذبتنا حركة الناس الهاربين من الخطر في الجوار، فتوجهنا معهم إلى وسط البلدة وأمضينا الليل بين الجمهور المبتهل في ضريح صاحب الكرامات. وتكرر الهجوم مرة أخرى ومرات على هذه الناحية، وتكرر معه فرارنا الليليّ هذا. وفي واحدة من هذه المرات، وكان الجمع الذي نسير وسطه باتجاه المقام يملأ الزقاق، اقترب المهاجمون أكثر من المألوف، حتى كانت طلقاتهم تئز فوق رؤوسنا مباشرة. بل إن امرأة كانت تسير بجانبنا أصيبت بطلقة وشهقت وأسلمت الروح ونحن ننظر إليها. وفي مرة أخرى، تكرر الاقتراب ذاته، وتمكن المهاجمون من دخول بعض الدور، وكان منها الدار التي نقيم فيها، وقد أحرقوها قبل أن يضطروا لمغادرتها، فاضطررنا للبحث عن مأوى في مكان أقل خطراً.

هذه المرة، انتقى الجدّ الذي عومل معاملة وجيه لاجئ إلى القرية داراً في القسم الحديث من هذه القرية الكبيرة. وكانت الدار على مقربة من الطريق العام المسفلت الذي تعبره السيارات في حركتها بين المجدل والخليل. وكان للجيش المصري مقابل هذه الدار معسكر تشغله سرية من سرايا الكتيبة الحالّة في الفالوجة. وقد ألف جدّي سلمان أن يتخذ لنفسه مجلساً في مقهى على الطريق المسفلت، حيث كانت السيارات العابرة وسيارات الأجرة تتوقف للراحة أو لالتقاط الركاب. وفي جلسته تلك، كان الجد يتسلى مع أصحابه ويتسقط الأخبار من العابرين، وقد اجتذبه المكان بحيث صار له فيه مجلس دائم يذهب إليه كل يوم. وكان الجدّ يحبّ أن يصحبني، وكنت أحبّ صحبته فأنطلق معه إلى المقهى، حيث يمكن أن أجلس في حلقته حين يجتذبني الحديث، أو أنصرف إلى مشاغل أخرى، ثم أعود إليه.

وقد ألفنا، نحن الأولاد، أن نتوجه إلى المعسكر ونقع فيه على تسليات كثيرة تشغلنا وتثير دهشتنا. وبمضيّ الوقت، صار ظهورنا في المعسكر أمراً مألوفاً من جنوده وعرفائه، بل جاء وقت صاروا فيه يترقبون قدومنا بلهفة. كان هؤلاء على فقرهم الواضح أحسن حالاً منا، فهم يحصلون على مؤونة ثابتة، ثلاث وجبات في اليوم، وكانوا يجودون علينا بما يفيض عن حاجاتهم أو بما يقتصدونه خصيصاً من أجلنا. ففي الصباح، كما في المساء، يحصل العسكري على طبق من حساء العدس وكوب من الشاي المحلّى بالسكر. وفي وجبة الغداء، يتلقى العسكري طبقاً من حساء الخضار المطبوخة باللحم، وإن خلا الطبق من قطع اللحم فهو على كل حال مطبوخ بمرقه اللذيذ. وكان الخبز الذي يقدم مع الحساء، وهو الخبز البلدي أو الأسمر، وفيراً في كل الأحوال. وفي أوقات بعينها، يسمّونها أوقات

الترفيه، وهي تتكرر مرتين كل أسبوع، يحصل العسكري على علبة من البسكويت أو الخبز المحمص، أو على قطعة من الخبز الفينو، الأبيض، محشوة بأقراص الفلافل، أو الطعمية كما يسميها المصريون. وكانت روائح الفلافل بالذات هي أكثر ما يستثير شهيتنا نحن الأولاد ويذكرنا بأيام المدرسة حين كنا نتسابق لشراء أقراص الفلافل كلّما توفرت لنا ملاليم أو قروش.

ومع نموّ الألفة بيننا وبين عسكر السرية، صار من المألوف أن نقوم ببعض المهام داخل معسكرهم. وكان القيام بهذه المهام يمتعنا، فكنا نتنافس للظفر بها. كنا ننظف الخيام، ونغسل الأواني، ونساعد الطباخين في تنقية حبوب العدس وتقشير الخضار، أو نجلب الماء أو نسهم في عملية توزيع حصص الطعام على الخيام. ومنا من ظفر حتى بحق المشاركة في تنظيف قطع السلاح التي توجب الأنظمة على العسكر أن ينظفوها كل يوم.

وبين من عرفت في هذا المعسكر شاويش، أو رقيب، طيب من إحدى قرى الإسكندرية، أولاني هذا الشاويش عناية خاصة، فكان يوكل إليّ ما أحبّ من المهام ويخصني من مؤونته بأكثر من البقايا. وكثيراً ما أشركني هذا الشاويش في تنظيف بندقيته، أو قدم لي علبة بسكويت كاملة، أو آثرني على نفسه بقطعة الفينو والقرصين الشهيين اللذين يعمرانها، بل كثيراً ما دعاني لشرب الشاي والتمتع معه بلذائذ الخبز المحمص. تم تطور الأمر، وصار الشاويش عوضين، وهذا هو اسمه، يزودني ببعض الهدايا للأسرة. وقد لفتت علاقتي بالشاويش نظر جدي سلمان. ولما توالت هدايا الشاويش للأسرة، نبهني الجدّ إلى أن من المعيب أن أقبل الهدايا دون مقابل. وكانت حجتي أن عوضين يعاملني كما يعامل صديقاً، وليس شحاذاً، فجاء رد الجد: "ادعه إذن إلى دارنا وسنعدّ له غداء محترماً!". وقد فرح عوضين فرحاً غامراً عندما أبلغت إليه الدعوة وقلت له إنها موجهة له من جدّي شخصياً. وراح الشاويش يتباهى بهذا الشرف بين أقرانه. وكنت أفهم أن يفرح عوضين بالدعوة، لكني لم أفهم سرّ مباهاته بها. وقد شرح جدّي الأمر لي وهو يضحك: الشاويش يعرف الجدّ عبر حكاياتي أنا عنه فجدي بالنسبة له عمدة قدّ الدنيا، وأن يدعو العمدة عوضين إلى مائدته فهذا تشريف كبير لا يتيسر للقروي المصري الطيب في كل وقت.

انشغل الجدّ وزوجته في التفكير بما ينبغي إعداده للضيف. كان عوضين أول ضيف يدعى إلى مائدتنا منذ غادرنا المسمية الصغيرة. ولم تسمح الظروف بطبيعة الحال بالتفكير بوليمة من تلك الولائم التي اشتهرت دار الجد بإعدادها في أيام العزّ. وضحة الصغيرة غضّت النظر عن واقع أني، أنا المفعوص المدلل، هو المتسبب في الدعوة، ورحبت

بالفرصة التي تتيح لها أن تعيد إلى الدار شيئاً من أجواء الأيام الفائتة. ورأت امرأة الجدّ أن المنسف أمر لا بدّ منه لإكرام هذا الغريب البعيد عن أهله، وإن كان من الممكن إعداد ديك ليتصدر المنسف بدل الخاروف. إلا أن أحوال الجد قصرت حتى عن هذا، وقد صارح زوجته بالموقف: "ليس معنا مال كثير لنبذره ونحن لا نعرف ما الذي ستجيء به الأيام". فتشبثت وضحة الصغيرة برغبتها في التباهي: "لماذا، إذن، ندعو الناس إن كنا غير قادرين على القيام بما يليق بهم؟!". وتشعب الجدل بين العادات المتأصلة وقصور ذات اليد، إلى أن استقر الرأي على إعداد عدة أطباق من الخضار المتيسرة وأعشاب الأرض، على أن يكون بينها واحد يحتوى أوقية من اللحم رضي الجدّ بأن يشتريها. وضعت خطة هدفها تبييض الوجه ما أمكن أمام الغريب. فالطبق المتميز سيوضع على المائدة في الناحية التي يجلس فيها الضيف، بحيث يتوهم أن الأطباق الأخرى فيها لحم، أيضاً. وقد تشددت زوجة الجدّ وهي تحذر أعضاء الأسرة من مدّ أيديهم لهذا الطبق الخاص: "لا نريد أن يظن أننا فقراء". ثم لم تفوّت المناسبة، بل نظرت ناحيتي، وغمزت: "يكفينا أن هذا الفاسد يخمخم هنا وهناك دون حياء!".

جاء الشاويش المصري ومعه صول، أو مساعد أول، من السريّة، قدّمه هذا الشاويش باحترام شديد، وقال: إن حضرة الصول رغب في التعرف على العمدة. وقد أفسد وجود ضيفين بدل واحد خطة امرأة الجدّ بشأن الطبق الخاص. والواقع أن حابل الأطباق اختلط بنابلها، غير أن روح الجدّ المضيافة عوضت فقر المائدة. والواقع، أيضاً، أننا كنا وحدنا الذين أحسسنا بهذا الفقر حين قارنا هذه الوليمة بولائم أيام العزّ. أما الضيفان فقد بدا أن كرم مضيفهما أدهشهما، وعبّرا عن دهشتهما بكلمات بليغة. وتسلح الجدّ باتزانه المألوف إزاء إشادة الضيفين بكرمه، وأبدى اعتذاره باعتبار أن ما أمكن تقديمه هو دون الواجب. وصارت هذه الزيارة فاتحة لزيارات أخرى كررها عوضين. وقد ألف الشاويش أن يصطحب هذا أو ذاك من زملائه في كل زيارة. وفي إحدى الأماسي، جاء عوضين على غير موعد ليبلغ إلى الجدّ أنه حدّث ضابطه عن العمدة وأن الضابط يرغب في التشرف بزيارتنا. ورحّب الجدّ، بالطبع، بزيارة الضابط، واتفق مع الشاويش على أن يجيء الضابط للغداء في اليوم التالي. في هذه المرة، غامر الجدّ بتعريض مدخراته للخطر، وأعدّ للضيوف منسفاً جلله ديك معتبر. بل إن الجدّ جلب، أيضاً، فاكهة وحلوى. وكانت تلك واقعة ذكرتنا بأيام العزّ، وشغل الحديث عنها أوقاتنا أياماً طويلة، وأنعشت إحساس امرأة الجدّ بالزهو.

منذ حللنا بالفالوجة، راح جدّي سلمان يتسقط أخبار الأقرباء الذين افترقنا عنهم. وشيئاً فشيئاً، تجمعت النتف واتضحت الصورة، فعرفنا أن المقام استقر بجدتي مدللة في قرية

قريبة من المجدل هي حمامة، بعد أن تعذر الحصول على مأوى في المجدل ذاتها. وقد ضمت الجدة وأولادها حجرة واحدة مع أمّي وطفليها محمد ورباح، وأسرتي العم محمود والخال محمد يوسف. كما عرفنا أن جدّي عبد المجيد تنقل مع ابنه نافذ وزوجته الشامية وأولادهما من قرية إلى أخرى معانياً ما عاناه المهاجرون من سوء الأحوال، وأنه بذل جهده ليصبّر الزوجة المصرة على الذهاب إلى دمشق معللاً نفسه بالأمل بعودة قريبة إلى المسمية الصغيرة، فلما رأى ما آلت إليه الأحوال في الجهة التي هو فيها وكيف احتلّ الإسرائيليون البلاد الواحدة بعد الأخرى، تضاءل أمله، واقتنع هو نفسه بأن من الأنسب التوجه إلى سورية وتخليص نفسه من المرمطة التي يتعرض لها المهاجرون. وقد باع الجدّ البندقيّة والمسدس اللذين بقيا له واكترى بثمنهما سيارة نقلته إلى البلد المجاور. وقد بعث الجد إلى أقربائه، وبضمنهم جدّي سلمان، من ينبئهم بوجوده في دمشق، وذكر أن نافذ سيجيء في وقت قريب ليتفقد أحوال هؤلاء الأقرباء ويبحث عن إمكانية نقل بقية الأسرة إلى العاصمة السورية. كما عرفنا أن المقام استقر بجدتي الكبيرة خضرة مع أسرة قريبها الخال أبي عدنان في مكان ما قرب أريحا. وقال الذي نقل لنا هذا النبأ إن الجدة الكبيرة حرصت على إبلاغي أنا، بالذات، أن العنزة التي أفلتت مني في بيت جبرين موجودة عندها الآن، وأن الربّ لم يضيع تعبي في اقتيادها في ذلك المشوار الطويل. وقد أدهشني عثور الجدة على العنزة الضالة فاحتسبتها واحدة من كراماتها التي سمعت عنها.

وفي يوم كنت فيه على رصيف المقهى، وكان جدي سلمان داخله يبثّ همومه مع أنفاس النارجيلة، وصل باص الركاب القادم من جهة الخليل، وتوجهت ناحية الباص، لأفاجأ بصوت أليف يناديني باسمي، وكان هذا هو خالي نافذ، وهو في الباص.

لم يطل التشاور بين خالي وجدّي. وقد وافق الجدّ دون ممانعة على أن أصحب نافذ في سفرته إلى حمامة، حيث ألتقي أمّي وجدتي، على أن يعيدني إلى الفالوجة عندما يرجع بعد أيام. وهكذا، ببساطة شديدة، تركت جدّي الحبيب دون وداع، واتجهت في الاتجاه الذي ارتسمت فيه خطوط حياتي القادمة. ولم أحزر، وقتها، بالطبع، ما الذي تخبئه الحياة لي وللجد.

-٢٢-

سحر وبوريك وطبيب وأشياء أخرى غير مفيدة

يوم الحشر الذي ترسم الحكايات صورة مهولة له في مخيلتي رأيت ما يشبهه حين دخل الباص بنا المجدل. جنود مصريوّن، مشاة أو بجانب دباباتهم أو فوق عرباتهم، أهالٍ ومهاجرون، عمّالون وبطّالون، وباعة في حوانيتهم أو بقرب بسطاتهم أو جوّالون، نساء وأطفال ورجال، دوابٌ من مختلف الحجوم والأنواع، صراخ ونداءات وأصوات متداخلة ولهجات متعددة، سيارات واقفة وأخرى تشق طريقها بإطلاق الزمامير على آخرها. هذا كله احتشد في ساحة البلدة، في مركزها، وهؤلاء كلهم بدوا في عجلة من أمرهم، كأن شيئاً خفياً يلاحقهم ويتعجلهم ليفرغوا مما هم فيه أو مما هم ليسوا فيه.

بلغنا البلدة عصر ذلك اليوم وقد امتزج الشواظ الهابط من السماء مع اللهيب الصاعد من الأرض ليعززا إحساسي بأننا في يوم الحشر. وتوجب علينا أن نتخلص من هذا المحشر لكي نواصل المشوار إلى حمامة سيراً على الأقدام. ولقينا من أفهمنا أن علينا أن نفعل هذا قبل أن يحين موعد حظر التجول وقبل أن يقفل الجيش الطرق التي تصل المجدل بالقرى المحيطة بها. وبعد أن أفلح خالي في شق طريق لنا بجسده وسط الزحام، وجدنا نفسينا على الطريق الممهد الذي يؤدي إلى حمامة، وقرص الشمس المتجه نحو البحر يلامحنا منذراً بقرب تواريه وراء الأفق الأزرق. وكان رتل متصل من الناس يسير في الاتجاه ذاته وقد ملأ الطريق، فإن أبطأ الرتل حين تقطع سيارة حركته السريعة توجب أن نبطئ، وإن عاود السير بسرعة توجب عليّ أن أجري كي لا أضيع بين أقدام المنطلقين بأقصى سرعتهم على هذا الطريق.

وكان وصولنا إلى الجدّة ومن معها مفاجأة تامة للجميع، فما من أحد أنبأهم من قبل بأن الخال سيأتي في هذا الوقت، ولا توقعوا، حتى لو أتى، أن أجيء أنا معه بهذه البساطة. وقد انقضى الليل كله دون أن يفرغ المحتشدون في الحجرة من الأحاديث. حتى الصغار الذين يطبق طول السهر عيونهم عنوة كانوا يغالبون النعاس ليحتفظوا بحضورهم وسط هذا المشهد ويسمعوا الحكايات التي تُقصُّ فيه. وكان خالي نافذ سيد الحلبة، وتوجب عليه أن يجيب عن مئات الأسئلة.

وقص نافذ قصة رحيلهم إلى سورية، قال: إن الجدّ الذي أعيته مغالبة ظروف الهجرة بغير مال وأتعبه نقيق زوجته تصور أن بإمكانه أن يلجأ إلى أقربائنا المحاميد في درعا، حيث يمكن أن يلقى الرعاية والعون. وكان الجدّ واثقاً من أن المحاميد سوف يغتنمون الفرصة ليردوا إليه بعض الجميل، وسوف يمكث بينهم معززاً مكرماً إلى أن تنجلي هذه الغمة عن الفرج المأمول.

بأمل كهذا، ساذج بمقدار ما هو قوي، توجه الجدّ إلى درعا، واختار النزول في دار أغنى أغنياء المحاميد الشيخ مزْيد. وكان الشيخ، يومها، وجيهاً بارزاً وعضواً في مجلس النواب. وقد أدهش الجدّ أول ما أدهشه أن الشيخ مزيد استقبلهم جميعاً، أطفالاً ونساء ورجالاً، في المضافة وأبقى صررهم فيها دون أن تصدر عنه أيّ إشارة لتهيئة الدار لإيوائهم. وتكررت الدهشة حين جيء لهم بعشائهم المعدّ على عجل، ثم حين أشير إليهم بأن يأكلوا، دون احتفال، وكأنهم من الغرباء العابرين قليلي الشأن. وهذا بالذات هو ما جعل الجدّ يتميز غيظاً وتحتقن أساريره ويمتنع عن تناول الطعام بحجة التعب وإن أومأ إلى أفراد الأسرة كي يأكلوا، لأنه يعرف مقدار جوعهم. ثم اتضح المغزى الكامل لهذا الاستقبال الفاتر حين طرحت مسألة النوم، طرحها الجدّ بنفسه بصراحة وبما يشبه التحدي متعجلاً اختبار نوايا صاحب الدار، فقال مضمناً نبرته مئة مغزى: "الصغار متعبون ولا بدّ من أن يناموا"، وشفع القول بنظرة مديدة أطلق بها سهام اللوم القارص نحو الشيخ مزيد. غير أن الشيخ الذي يبدو أنه حزم أمره منذ ظهورهم أمام داره لم يتبلبل ولم يتردد، بل هتف بواحد من أبنائه بنبرة جليّة: "سيذهب عمك أبو نافذ إلى الفندق فخذه إليه ووصّهم، هناك، عليه!".

ولم يكن نافذ بحاجة إلى شرح طويل كي يعرف سامعوه مشاعر جدّي في هذا الموقف. فلم يكن من السهل على الرجل الذي طالما أكرم أقرباءه ودللهم أن يواجه هذا المقدار من نكران الجميل، خصوصاً في الظروف الحساسة التي يمرّ بها. وكان من الطبيعي، إذن، أن ينفجر حنق الجدّ في المضافة فيطلق للسانه العنان في شتم ناكر الجميل ويعلن التبرؤ

منه ومن الأقرباء جميعاً. وقد حلف الجدّ ألا يبيت في درعا، حتى لو اضطر لأن يبيت خارجها في البرية. وغادر الجد المضافة محنقاً، وتبعته الأسرة. لم يكن مع الجد نقود يكتري بها ما ينقلهم إلى دمشق ولا جرؤ أحد من الأسرة على دعوته وهو على ما هو عليه من اهتياج إلى التروّي. وهكذا، شالت الأسرة صررها وبدأت السير على الطريق المنطلق من درعا إلى دمشق، لتجد أن جماعات أخرى من الفلسطينيين الذين عبروا الحدود تسبقهم على الطريق ذاته. وامتزج اللاجئ باللاجئ (في سورية يسمون المهاجر لاجئاً)، وتماثلت الحكاية مع الحكاية، حين وجد الجميع أن أحوالهم انحدرت إلى ما دون نقطة الصفر.

وصلت الأسرة، أخيراً، إلى دمشق، التقطتها، قال نافذ، شاحنة عابرة عند الشيخ مسكين فحملتها إلى دمشق في صندوقها. وهناك نزل الجدّ بأسرته في دار أنسبائه في حيّ العمارة في المدينة القديمة. كان والد أم عدنان قد توفي قبل سنتين أو ثلاث وورّث ابنتيه وابنه هذه الدار. وحسب الشرع، نالت أم عدنان ربع الدار، وبهذا أمكن أن تحلّ الأسرة في هذه الدار، ولم يطالبها أحد بدفع الأجرة. وكان أنسباء الجدّ الشاميون أرحم به من أقربائه الدرعاويين، فقد واسوه وعاملوه بتفهم وقدموا له ما قدروا عليه ليساعده على تنظيم حياته الجديدة واحتسبوا ذلك ديناً عليه وأمهلوه في السداد إلى أن تنفرج الأحوال. غير أن الإقامة الجديدة لم تكن لينة مع ذلك. فالحجرة الوحيدة الكبيرة في الدار مخصصة للضيوف وفيها الأثاث الفخم الذي تحرص الأسرة الدمشقية على اقتنائه في مثل هذه الحجرة وهو يملؤها بتمامها. وفي الدار حجرة أخرى صغيرة، يسمونها المربّع، وهذه كان يشغلها شقيق أم عدنان الأعزب فشاركه نافذ فيها. بقيت بعد هذا حجرة واحدة متوسطة الحجم وقد خصصت للأسرة الوافدة، بعد أن وافقت شقيقة أم عدنان على إيثار أختها بها والانتقال مع زوجها وبنيها إلى دار أخرى كانا قد اشترياها، شريطة أن تدفع الأسرة الوافدة أجرة ما يفيض عن حصتها في الدار، حين تنفرج الأحوال.

أما تدبير شؤون المعيشة اليومية فأمره أصعب، فالأسرة اللاجئة تعيش بلا موارد من أي نوع. ومساعدات الأنسباء المحسوبة ديناً تقصر مهما سخت عن تلبية الضروري من الحاجات ولا يعرف أحد إلى أي وقت سيتحمل هؤلاء تقديمها. بالرغم من ذلك، قال نافذ، يمكن للأمور أن تدبر، ونظر إلى الجدّة وهو يقول هذه العبارة. وكان حديث خالي حول هذه النقطة غامضاً على العموم. الشيء الوحيد الذي أوضحه في حديثه أنه، هو نافذ، تقدم بطلب للعمل مدرساً في مدارس الدولة، وقد بين أن أمله كبير في الحصول على الوظيفة لأنهم في سورية يتوسعون مع بداية استقلالها في فتح المدارس في كل مكان في البلاد، وهم بحاجة لأعداد كبيرة من المدرسين.

في اليوم التالي، حين تمكن نافذ من التحدث إلى الجدّة وحدها، ولم يكن معهما سواي، تطرق للموضوع الحساس الذي جاء ليعالجه. قال نافذ للجدة إن أباه نادم على ما بدر منه في السابق تجاهها، وهو عازم على أن يصحح غلطته. وأراد نافذ أن يمضي في حديثه عن هذه النقطة، غير أن الجدّة أوقفته بحزم: "هذا شيء مات، وما مات لا يحيا من جديد". وأسقط في يد الابن، وأراد مرة أخرى أن يحمل الجدة على الاستماع إليه، فلم تزد على أن كررت عبارتها: "ما مات لا يحيا من جديد". ثم، كمن حزرت أن في فم ابنها بقية كلام، قالت الجدة مشجعة: " إن كان عندك شيء غير هذا، فقله!".

تطرق نافذ لهذا الشي الآخر متردداً، أوضح رأيه في أن الأسرة لا بدّ من أن تستقر في مكان واحد، وأنهم هناك في دمشق قد بدأوا مساعيهم لاستخراج إذن لبقية أعضاء الأسرة كي يسمح لهم بدخول سورية والإقامة فيها، وأن الجدّ يريد أن يطمئن إلى أنها موافقة على المجيء. فأعطت الجدّة كلمتها على الفور: "أكون حيث يكون أولادي"، ثم سألت وقد أدركت أن ابنها لم يفرغ كل ما في نفسه:"عندك شيء جديد؟". هنا، قال نافذ بنبرة من يريد أن يفرغ من نقل رسالة يعرف أنها لن تستقبل بترحيب:"نعم، بودّ أبي أن تقرضيه شيئاً من المال". ولما لم يسمع نافذ الرفض الذي توقعه، فقد تشجع وأفاض في شرح الأسباب التي تحمل الجدّ على طلب القرض والأسباب التي تجعله يأمل في الحصول عليه من الجدّة. في غضون ذلك، بقيت الجدة صامتة، فهل طافت برأسها ذكرى ذلك المال الذي طلبه الجد في مرة سابقة وهو في دمشق وما تبع ذلك؟ من غير المعقول ألا تستحضر الجدة هذه الذكرى حين يطلب الجدّ نفسه المال منها ويرسل الطلب من دمشق بالذات. ومن الغريب أن خالي نافذ على فطنته لم يفطن وقتها لهذا الأمر. ولا بدّ من أن خالي فسرّ صمت الجدّة على أنها تفكر في مدخراتها وحاجتها إليها، فقد اخترق صمتها:" سوف يرد لك القرض، وأنا الذي أضمنه". هنا، انفتحت عينا الجدّة: "حالكم عجيب!"، كلمتان، فقط، قالتهما وأعقب ذلك صمتها واستغراقها فيه. عندها، فطن خالي، على ما يبدو، لحراجة الموقف، فطلب مني أن أنصرف.

عزم خالي على الرحيل في اليوم التالي، وأظهر حرصاً شديداً على الوفاء بوعده لجدي سلمان وإعادتي إليه في الفالوجة. غير أن ممانعة الجدّة وتشبث والدتي ببقائي ولو بضعة أيام أخرى تغلبا على حرصه. وقد غادر الخال حمامة وتركني فيها، بعد أن حصل على وعد قاطع بأن تتدبر الجدّة أمر إعادتي إلى الفالوجة في وقت قريب. غير أن وقتاً كهذا لم يتيسر في أي يوم من الأيام. فقد انتهى القتال الدائر على الطريق الواصل بين المجدل وبيت جبرين إلى سيطرة الإسرائيليين على هذا الطريق وانسحاب القوات المصرية منه. وحدها كتيبة الفالوجة لم تنسحب فانقطعت الخطوط التي تصلها بالوحدات الأخرى،

وخضعت القرية للحصار الشهير الذي تعرفه والذي دام ستة شهور وانقطعتُ بالتالي عن الاتصال بأسرتي فيها.

كم بقينا في حمامة بعد ذلك؟ لا أعرف، ولا أظن أن أحداً من جماعتنا اهتم بأن يحصي أيامنا فيها. لقد مضت هذه الأيام متشابهة بالنسبة لهم، وكذلك بالنسبة لي. أسوح كل يوم مع الأقران في النهار، نذهب ناحية البحر، أو نتجول في الحواكير والكروم ونلتقط ما نستطيع التقاطه من ثمرها حين يغفل النواطير، ونتفرج على العساكر المصريين الذين اختلطت مواقعهم مع مواقع المهاجرين ففقدت المواقع العسكرية تميزها. وإذ لم يكن لدى هؤلاء العساكر ما يفعلونه غير قطع الوقت بالعبث أو النوم، فقد كانوا مثلنا، متغربين وتائهين لا يعرفون إلى أين ستنتهي الأمور، وكانت معابثتنا لهم تساعدهم على تزجية الوقت، والفارق الوحيد بيننا وبينهم أنهم كانوا يحصلون على ثلاث وجبات منتظمة في اليوم وأن طعامهم يصل إليهم بسهولة. وفي الليالي، تضمني الحجرة المكتظة مع حشد الأقارب، حيث لم يكن لأي منا ما يفعله. كانت الأحاديث تدور بين الكبار فيما يغالب الصغار الحاجة إلى النوم لعلهم يسمعون ما يسليهم أو يلبي فضولهم الفتيّ لمعرفة ما يجري. وقد غابت عن أحاديث الأماسي الحكايات التي اعتاد الكبار أن يحكوها ليسلّوا الصغار فتلهب خيالهم. وغالباً ما كان الحديث يدور حول صعوبة الوضع، ومتاعب المعيشة، وقسوة الانتظار، وخيبات الأمل في الجيوش التي تقعد وحدات منها بغير قتال وتقاتل وحدات أخرى فتنهزم، ومآسي الأسر التي يتفرق أعضاؤها في البراري المتباعدة. وكانت هذه كلها قد صارت أحاديث معادة.

أما جديد الأحاديث فكان ذلك الذي يدور حول المشاكل الناجمة من اكتظاظ الناس في الدور أو في البراري، واختلاط القادمين من أماكن مختلفة أو المنحدرين من فئات ومراتب اجتماعية متفاوتة، المرأة التي تتهم الرجل الفلاني ذا المقام الأدنى من مقامها بأنه يوجه إليها نظرات غير نظيفة، والرجل الذي يأخذ على جيرانه في الحاكورة الواحدة أنهم يمارسون علاقاتهم الحميمة بشكل غير لائق دون مراعاة لوجود الآخرين بقربهم، والفتاة التي وجدت في تهاون الرقابة العائلية الفرصة للاختلاء بشاب فأبلغ الوشاة أمرها إلى أهلها ولم يجد هؤلاء مكاناً يحبسون فيه فتاتهم فربطوها إلى جذع شجرة وتناوبوا على ضربها، أو العائلة التي افتقدت حاجة من حوائجها الثمينة ولم تجد في هذا الحشد الذي لا تعرف ناسه شخصاً بعينه توجه إليه شكوكها فشكّت في الجميع، وصاحب الحاكورة الذي يشكو لأن نزلاء حاكورته من المهاجرين خربوا نباتها ولم يكتفوا بالإقامة البريئة فيها.

وكان صاحب الدار التي نشغل حجرة فيها أكثر أهل حمامة تذمراً. فالرجل المسن الذي يملك هذه الدار والحاكورة المجاورة لها استضاف فيهما أخلاطاً من الناس الذين لا يعرفهم. فعل الرجل هذا منتخياً دون أن يطلب أي مقابل. ولا بد من أن يكون الرجل قد تصور في البداية أن المسألة مسألة أيام معدودة يعود هؤلاء الناس بعدها إلى بلداتهم ويحمدون له فضله عليهم ويحفظون له الجميل. فلما طال الأمر، ثقل على العجوز ما حل بملكه من خراب، وتلاشى صبره حتى غار كلّه بمضيّ الأيام، فأخذ يعبر عن غيظه. بدأ الأمر بانفجارات صغيرة تؤججها هذه الواقعة أو تلك، ثم انتهى إلى انفجارات متواترة لا تحتاج لسبب خاص كي ينفلت مخزون الغيظ. وصار الرجل كتلة حنق ملتهبة تتجول بين الجماعات البائسة وتحرمها من الاستقرار.

وقد قدر لي أن أشهد واحدة من انفجارات الحاج عطا الله، وهذا هو اسمه، في وجه جماعتنا في اليوم التالي لوصولي إلى الدار. كانت المجموعة قد قررت أن تحتفي بوصول خالي نافذ وفق التقاليد، فبكر الخال محمد يوسف بالذهاب إلى السوق في الصباح وعاد ويداه مملوءتان برزم اللحم والخضار والفاكهة. وتصادف أن كان الحاج في باحة الأرض حين ولجها الخال بأحماله. ولم يكن الحاج قد عرف، بعد، أن الجماعة استقبلت ضيوفاً في الليلة الفائتة، فأحنقه أن يرى كل هذه النفائس بحوزة الذين يعيشون حياة بائسة، فانفجر: "أكل ومرعى وقلة صنعة، لحماً تأكلون، خضار بالأرطال، والفاكهة تسطون عليها، ولم يبق إلا أن تجيئوا بالحلوى، ومع ذلك تشكون القلّة، ولا كلام لكم إلا عن سوء الأحوال!". ردد الحاج مقارناته الظالمة بلهجة ساخرة، ثم انتقل فجأة إلى الصراخ، وأطلق في وجه الخال كل ما في القاموس الفلاحي من كلمات الشتائم والعبارات المهينة. أما الخال الميال بطبعه إلى أخذ الأمور بالحسنى، فقد حاول أن يهدئ الحاج المستثار. فلما فاضت الشتائم، وكانت جماعات الدار والحاكورة قد تجمعت للفرجة، لم يملك الخال هو الآخر نفسه، فكال للحاج بالكيل ذاته. وكاد الأمر يتحول إلى اشتباك بالأيدي لولا أن الجدّة وصلت في اللحظة المناسبة، فبدأت بتهدئة أخيها، ثم وجهت ناحية الحاج نظره صارمة: "تقدم معروفك للناس ثم تبول عليه! ألا تخجل من نفسك؟". فأطرق الرجل، ثم انصرف وهو يهمهم. وقد تجنب الحاج الاحتكاك بجماعتنا بضعة أيام بعد ذلك، لكن ضجيج انفجاراته في وجه الآخرين كان يصل إلينا، وما كان بمقدور شيء أن يوقف الرجل. ثم ألغى الحاج الهدنة التي ألزم نفسه بها تجاه جماعتنا، فساوانا بالآخرين. وانتهى الأمر بالجميع إلى أن يعدوا سلوك الحاج واحدة من هذه الظواهر الغريبة التي ألجأتهم ظروف الدهر إلى التآلف معها دون رغبة منهم. وكان من نتائج ذلك أن يغضّ الأهل الطرف إذا عابث أولادهم صاحب الدار وأزعجوه. فانضاف إلى مشاغلنا، نحن الصغار، ابتكار الوسائل التي نثير بها حنق الحاج لنتفرج على رد فعله.

والحقيقة أن تعاقب الأيّام على هذا النحو الرتيب والحياة التي لا تتمايز فيها ألوان أو مفاصل أو التواءات أورثا الكبار الإحساس بالانطواء، فلم يشغلوا أنفسهم بشؤون الصغار إلا في أندر الحالات. ولم يعد أمامنا ما يعرقل رغبتنا في معابثة الآخرين أو حتى إيذائهم، أو في الانطلاق في البراري على هوانا. وفي واحدة من المرات التي قادتنا أقدامنا فيها إلى شاطئ البحر، أسلمنا أجسادنا للابتراد في مائه، وظللنا نسبح ونتعابث حتى أجهدنا التعب، فجررنا أقدامنا جراً في طريق العودة إلى الدار التي بلغناها مع مغيب الشمس. كانت والدتي هناك واقفة عند المدخل، حاملة رباح الرضيع على يدها ومحمد الصغير يتنطط بجانبها، وكانت ترقبنا ونحن قادمون نحوها بنظرات يفيض منها الحنان فيضاً. في تلك اللحظات، دهمني الإحساس بالأمان. وكأنما أدركت هي ما يجول بنفسي أو أن غريزة الأمومة وجهت حركتها، فقد قرفصت واحتضنتني بيدها الخالية وراحت تقبلني وتتفقد أحوالي بمودة غامرة، ثم، فجأة، وبنبرة من تنبه لما يثير القلق، سألت وهي تركز نظرها في عيني اليسرى: "ما لها هذه العين؟"، فلم أفهم سبب قلقها، وقلت كمن يدفع عن نفسه تهمة: "لا شيء". فجرتني الوالدة ناحية الجدّة، وهناك عرفت أن في الأمر شيئاً: "انظري إلى هذه العين، حمراء كالدم!".

منذ تلك الأمسية، رافقتني القصة الحزينة .

اتضح أن العين رمداء، وقد تفاقمت حالتها في الليل. وبالرغم من أن رمد العيون كان شائعاً منذ كنا في قريتنا وأن الظاهرة تفاقمت في وقت الهجرة، فقد كان قلق الأم عظيماً فانعكس على مجموعتنا كلها. وتبارى الجميع في الإدلاء بآرائهم في السبب وتقديم النصائح حول العلاج المطلوب، و أخضعوني للتحقيق حول ما فعلته منذ غادرت الدار في الصباح: هل تلقيت ضربة على العين، هل دخل فيها جسم غريب، هل أمضيت وقتاً طويلاً تحت أشعة الشمس، هل نظرت ناحية القرص المبهر؟ ولما كشف التحقيق أني لم أقم بشيء غير مألوف، قالت الجدّة مصدرة ما يشبه الفتوى: "ملح البحر، هو الذي خرش العين". أما أمي فلم تقتنع، وقد قرّ في ذهنها أنه الحسد، حَسدَ الناس ابنها ذا العينين الجميلتين فرموه بشرّهم. وبعد التشخيص الذي من هذا النوع، جاء العلاج من النوع ذاته: أحضرت الجدّة بناء على إلحاح الأم قطعة رصاص وذوبتها على النار ثم أطفأتها في الماء، فتشكلت من الذوب تلك الهيئة التي يمكن ان تدل على هيئة الحاسد. واختلف الحاضرون في تحديد الشخص المعني، فأعيدت المحاولة فتكرر الاختلاف. غير أن الأم كونت لنفسها رأياً وتشبثت به وسمت امرأة بعينها من الجوار مصرة على أنها هي الحاسدة. وقالت الأم: "دبّار هذه المرأة عندي". وعنى هذا أن أمي ستدبّر مع كتّاب الحجب ممن يعالجون السحر بالسحر عملاً يبطل شرّ المرأة الحاسدة.

جرى كل هذا دون أن تتحسن حالة العين بل إنها تفاقمت، كما قلت لك، وبدأت أحس بالألم الذي تزايد مع تقدم الليل على نحو خلت معه أن رصاصة ثقيلة ومحماة حلّت وسط العين. وإزاء شكواي التي لم أملك أن أحبسها طويلاً، توالت على عيني الكمادات المدفأة بالماء الساخن ومنقوع الشاي الذي يغسلون به العين المصابة. ثم جاءت النصيحة الحاسمة للأم التي تشرف على هذا العلاج من سيدّة من الأهل: "عليك بمحلول البوريك، لا ينفع شيء غيره". ولم يكن البوريك، هذا، متوفراً لدى مجموعتنا، فطافت الأم حجرات الدار وأرجاءها توقظ النائمين حتى عثرت على السائل المأمول. والواقع أن النقط الأولى التي انصبت في العين سببت لي ألماً كأنه الكيّ، فصرخت وأيقظت صرختي صاحبة النصيحة، فقالت هذه وهي نصف نائمة: "الحمد لله، إن كانت قد آلمته فهذا معناه أن فيها الشفاء". وفي الصباح، كانت العين قد أصبحت أثقل من قطعة الرصاص، أما الألم فقد خفّ. فلّما سألتني الأم التي لم تنم طيلة الليل إلا لماماً عما أحسّ به، تجنبت أن أثقل عليها فحدثتها عن الألم الذي خفّ، فتفاءلت الأم وتفاءل الآخرون، وأغرق منقوع الشاي ومحلول البوريك عيني من جديد.

توالت العلاجات التي من هذا النوع أياماً أخرى. وأوكلت الأم إلى واحد من كتّاب الحجب المعدودين معالجة شرّ المرأة الحاسدة. إلا أن حالة العين ظلت تزداد سوءً، وبلغ الأمر حداً لاحظت معه أني لم أعد أبصر بوضوح بهذه العين. عندها، قال خالي عمر موجهاً الخطاب للجدّة: "يلزمه طبيب". وحين لم يصدر عن الجدّة ما يشي باعتراضها، تشجع عمر: "لا بدّ من أخذه إلى المجدل، حمامة ليس فيها طبيب". وفي المجدل، أخذوني إلى عيادة طبيب اكتظت ممراتها وحجراتها بالمرضى ومرافقيهم، ومضى اليوم كله دون أن يجيء دوري للدخول إلى الطبيب، وتوجب أن نعود في اليوم التالي. في هذه المرة، دسّت الأم شيئاً في يد الحاجب الذي ينظم إدخال المحتشدين إلى حجرة المعاينة، بجانب القروش الخمسة التي تدفع للطبيب، فأمكن أن أدخل الحجرة. هناك، استقبلني رجل أرهقته كثرة العمل وخلفت لديه حالة مغيظة من عدم المبالاة بآلام مرضاه، بالرغم من أنهم يدفعون أجرة المعاينة. وبلهجة مهينة، خلت من أي نبرة تعاطف أو حتى لوم، قال الرجل: "تأخرتم، فات الأوان، ومع ذلك فالشفاء بيد الله". ثم كتب الرجل أسماء قطرات ومراهم طلب من مرافقيّ أن يشتروها من الصيدلية، ثم قال وهو يدفعنا ناحية باب الخروج: "عليكم أن تجيئوا به كل يوم". وكان هذا يعني دفع خمسة قروش كل مرة ودس شيء في يد الحاجب، أيضاً.

-٢٣-

الغارة تحصد نصف الأسرة فتستعصي الدموع

هذا الطبيب لم يرني بعد ذلك، ولم يتسنّ لي أن أزور طبيباً سواه. طرأت أحداث طاغية، فصار من المتعذر أن يهتمّ أهلي بمعالجة الطفل الذي أصيبت عينه، ولم يعد بالإمكان الوقوع على طبيب حتى لو اهتم الأهل بذلك. بدأت الأحداث فور مغادرتنا العيادة في ذلك النهار. وكنّا ما نزال في مركز البلدة حين تعرض سوقها للغارة الجوية الشهيرة التي غمرته بالحطام والدماء والأشلاء. وقد رغب الخال محمد يوسف في أن نتوجه إلى المكان لنشهد النتائج. فاعترضت الأم لأنها لم ترد لي أن أرى هذا المشهد. واحتد الجدل بين الخال وابنة أخته إلى أن وجد الخال الحجة الدامغة. وكان العم محمود قد جاء معنا إلى المجدل في الصباح ثم افترق عنا حيث كان على موعد مع أحد تجار المجدل ليتفاوض معه على العمل في دكانه في السوق، وكان لا بدّ، إذن، من الاطمئنان على مصيره.

كيف يمكن أن أصف لك ما رأيت! هل تستطيع الحروف الرتيبة أن تصور مشهداً ينبض فيه الموت بالموت، كما تنبض الحياة عادة بالحياة، هل أصف الدمار الذي خلط حطام الأبنية بحطام الواجهات والبسطات والعربات، أم أصف الجثث التي احترقت والجثث التي تمزقت والأخرى التي تشوهت، أصف الأنين الذي يبثه المصابون أم أصف لوعة النساء والرجال والأطفال الذين تجمعوا لتفقد الأعزاء، أم أصف ذهول الناجين الذين لم يستوعبوا، بعد، أنهم نجوا حقاً؟ ولماذا أثقل عليك من جديد، أنت الذي تعرف أن التعرض للمجازر كاد يتحول بالنسبة لهؤلاء الناس إلى حدث يومي؟! لقد أخذت الطائرات الإسرائيلية

كل ما يلزمها من الوقت لكي تنبش هذا المركز المكتظّ نبشاً وتمزق أحشاءه. وبالرغم من أن معظم الذين كانوا في المجدل سبق لهم أن تعرضوا للخطر على نحو أو آخر، في مكان أو في غيره، فإن الهول الذي انصبّ في ذلك اليوم على مركز البلدة فاق كل ما شهده الناس من قبل وتجاوز حتى التصورات.

بكت أمي ونحن نعبر الساحة المنكوبة، أطلقت العنان لعَبَراتها وأجهشت، إلا أن لهفتها على معرفة مصير العم حمتها من السقوط صريعة الأسى. أما الخال محمد يوسف فقد عالج ذهوله على طريقته الخاصة فراح يمد يد العون لهذا أو يقدم نصيحة لذاك أو ينهى أحداً عن الإتيان بحركة ضارة. وكان الخال خلال ذلك يشتم، إلا أنه كان، أيضاً، يرتجف ولا يكاد يسيطر على نفسه. وأما أنا فقد شلّني نوع من الإحساس لا أعرف له وصفاً. لم أبك، ولم أعول، ولم أشتم. كنت مذهولاً، وكنت خائفاً دون أن أفكر في شيء بعينه، أسير مستجيباً ليد أمي حين تجذبني، وأقف حين يوقفني شيء، أرى، وأسمع، ولكني لا أتحقق من أمر، أنتقل من مشهد إلى مشهد ومن مجموعة إلى أخرى دون أن أدرك أن المشاهد تتبدل أو أن الناس يتغيرون. انتفت الألوان وغاب التمييز حتى بين الأبيض والأسود وامتزج الحسيّ بالمعنوي، الجثث المشوهة وأنين المصابين وأسى المحيطين بهم. وصار للساحة، كلها، بكل ما فيها، وقع واحد، إنه الجبل الذي لو حطّ على جسدك لما رأيت منه شيئاً.

تصدعت الدكان الذي أصبح العم محمود شريكاً فيه منذ الصباح فقط، وانتثرت موجوداته، واختلطت الحبوب بالبذور بالبقول بالزيوت. وكان العم واقفاً قرب الدكان يعاين ما حلّ به تارة، وما حل بالساحة، تارة أخرى. لم يصب جسد العم لكن روحه أصيبت، فكان حاله كحال الآخرين، نفس ذاهلة وجسد كأنما سرى فيه عقار سام فبدل لونه وشكله وزعزع تماسكه، وإن ظل قائماً أمام الناظرين. لم يقل العم شيئاً حين أدرك وجودنا، ولم يفه أي منا بشيء. هل فرحنا بنجاته؟ لا بد من أن الأمر كان كذلك، غير أن الكمد الحالّ بكلّ شيء لم يترك منفذاً للفرح. ودون أن أدري لذلك سبباً، وجدتني ألوذ بأمّي، أدفن وجهي في ثيابها، ثم أبكي. ولم تحاول الأم حتى هدهدتي، بل تركتني لحالي، وإن أخذت يدها تمسد رأسي بحركة ذاهلة. ويبدو أن اهتياجي المفاجئ نبّه المحيطين بي إلى أنهم لا يستطيعون أن يظلوا جامدين إلى الأبد. فالخال تقدم ليتمعن في ما بقي من محتويات الدكان، ولعله أراد أن يتفحص إمكانية استخلاص شيء مفيد من هذا الخليط. والعم محمود الذي نبهته حركة قريبة قال بنبرة جعلها الأسى باهتة: "لا فائدة". فأضافت الأم من عندها: "اتركك من هذا، يا خال"، ثم حثته على الانصراف: "رأى الولد ما يكفيه طول العمر، ويزيد".

أحدثت الغارة آثاراً عميقة وواسعة. فبعد أن تحرر الناس من الذهول، أرخوا القيود التي تكبلهم، فتفجرت مخازن الحنق المحبوس طيلة شهور، وتحولت النفوس إلى جمرات ملتهبة، وانطلقت الألسنة بالنقد. أما مآوي المهاجرين في القرى المحيطة، ومنها، بالطبع، حمامة، فتحولت إلى أندية يتبادل فيها الناس الأخبار والآراء ويتناقشون حول المصير الأسود الذي سيقوا إليه. وبالرغم من أن الأعين البصيرة لم يكن في خدمتها إلا أيدٍ قصيرة، فقد امتلأ الجوّ بالنذر. صحيح أن السلاح صودر، أو فقد، أو اختفى بصورة وبأخرى، وصحيح أن أواصر التنظيم التي جمعت الناس في قراهم قد تفككت على دروب التيه، غير أن جموع الساخطين راحت تبحث عن شيء تستخدمه لتنظيم التعبير عن السخط. ونشطت أجهزة الجيش المدربة على مراقبة أبناء شعبها، وركزت جهدها لتمنع أي تحرك لا يلائم موقف حكومتها. قامت مظاهرات عفوية وأخرى أكثر من عفوية، واعتقلت أجهزة الجيش من ظنت أنه محرض. وبالإجمال، لاحت احتمالات المجابهة.

وفجأة، ودون أن يعرف أحدٌ هذا من قبل أن يتوقعه، حدث ما بتر المجرى اللاحق للتطورات كله.

كنا محشورين في الحجرة التي تؤوينا، وكان إظلام الحجرة يعني أن وقت شروق الشمس لم يقترب، حين أيقظتنا جلبة الآليات العسكرية وقد شرعت في مغادرة حمامة. توهمنا أننا إزاء معركة. وقالت الجدّة: "خير، اللهم اجعله خيراً"، دون أن توحي نبرتها بالثقة. وهتف الخال محمد يوسف: " غارة جديدة؟". أما العم محمود الذي صار سريع التأثر بالضجيج منذ الغارة على السوق فقد أخذ يصرخ في الصغار المذعورين ويطلب منهم الهدوء، ولا يهدأ هو نفسه. وهذا كله لم يستمر سوى لحظات. ثم اتضح كل شيء. صدرت الأوامر للجيش المصري بالانسحاب من المنطقة والتراجع جنوباً نحو غزة. شملت الأوامر الوحدات المصرية المنتشرة على مسافة خمسة وعشرين كيلو متراً بين أسدود وبيت حانون. وقد رتبت إعدادات الانسحاب بسرية كاملة، فلم يعرف الناس بها إلاّ لحظة الشروع في تنفيذها. ولأن الانسحاب تم بعد المجزرة، فقد كان تنفيذه بمثابة إنذار بالموت لمئات الألوف.

وبالرغم من أن القذائف لم تكن تلاحق الناس هذه المرة، فإن الخوف من المجازر التي ستعقب انسحاب الجيش المصري حمل الناس على التعجيل بالرحيل عن المنطقة. واختار الناس دون اتفاق أن يتجنبوا الطريق العام بسبب وجود كمائن معادية فيه، فساروا على ناحية البحر، حيث لا يوجد طريق ممهد، وحيث تغوص أقدامهم في رمل الشاطئ وتنتقل فوقه بصعوبة. ألوف وعشرات ألوف ومئاتها من الناس امتدت أرتالهم المحملة بالصرر

على امتداد ذلك الشاطئ بين أسدود وغزة، تلهبهم أشعة الشمس وتشويهم حرارة الرمال وتعذبهم الهموم. وقد استغرقت رحلة العذاب، هذه، اليوم بطوله دون توقف.

في الصباح، أي في الساعات الأولى من الرحلة، كان الأمر بالنسبة لي ما يزال محتملاً. فقد سرت مع السائرين وقدماي تلامسان رملاً لم تحله الشمس، بعد، إلى جمر، ونسمات البحر تهبّ فتثير في النفوس بعض الهمة. أما بعد أن حميت النساران اللتان أتحرك بينهما، واشتدّ ألم العين المصابة، وكلّ الجسد حتى صار هو الكلال ذاته، فقد اختلف الأمر. بالرغم من ذلك، لم يكن لديّ من خيار سوى متابعة السير، وقد تابعته، كما فعل غيري. كان الجميع يصبّرون أنفسهم على المكروه، ففعلت مثلهم وأسلمت جسدي لحركة الجموع. وها أنا ذا لا أتذكر، الآن، من هذه المرحلة إلا أني أنجزتها بمعجزة لا أعرفها دون أن أسقط على الأرض. ولو طلب مني أحد أن أعيد الرحلة ذاتها، حتى في شروط أفضل، لما قبلت ذلك ولو كان في انتظاري أثمن الجوائز. فأن تسير في رمل حار، تحت شمس الصيف، خمسة وعشرين كيلو متراً دون استراحة، وأن تكون مريضاً ومرعوباً ومفتقراً للتغذية المنتظمة، ثم تكون إلى هذا طفلاً ابن تسع سنوات، فليس هذا كله بالأمر السهل.

وفي النهاية، وصلنا إلى المنطقة المأهولة، وأخذنا نعبر القرى القريبة من غزة. لم نلجأ إلى أي من هذه القرى لأن جموع المهاجرين التي سبقتنا شغلت كل شبر يمكن الالتجاء إليه، فتوجب علينا، إذن ، أن نتابع الحركة حتى نجد مطرحاً نلقي فيه أجسادنا . وكان أول توقف لنا في جباليا، القرية الأقرب إلى المدينة. هناك، نشط الأهالي لاستقبال الساغبين الظمآنين المنهكين. وكان من حظ جماعتنا أن آوتها دار فسيحة.

حللنا في هذه الدار ليلاً، وكنا بين أوائل من ولجوها، وكان أول ما فعلناه أن أسلمنا أجسادنا للأرض التي بردتها طراوة المساء. وقد أخرس التعب والإحساس بالضياع ألسنتنا، فلم نفه بشيء. كان الأمر هذه المرة مختلفاً عن مرات الرحيل السابقة. فقد غادرنا المسمية الصغيرة فيما كان الجيش المصري يتقدم والأمل معلق بنجاحاته، ووصلنا إلى حمامة وهو ما يزال يقاتل، أما الآن فقد فررنا بعد أن انسحب الجيش متراجعاً. كنا هذه المرة نبحث عن النجاة بالنفس ليس أكثر، ولم يكن حتى هذا مضموناً. وبدا أهل الدار الذين انشغلوا بإيواء مجموعات أخرى متفهمين، فلم يسألوا شيئاً، ولم يرددوا حتى المجاملات ولا عبارات المواساة. وقد ركز هؤلاء جهدهم على توفير الماء والطعام الذي يقيم الأود، فتيسر لنا أن نسكت غول الجوع وننام بعد ذلك نوماً طويلاً. وفي الصباح، أيقظنا الفزع الذي دهمنا حين تعرفنا في الضجيج الذي ملأ السماء على أصوات الطائرات. لم

تقصف هذه الطائرات جباليا، لكن الفزع لم يصبح أقلّ. وما كان بإمكان أي شيء أن يهدئ النفوس التي أهاجها الرعب.

ووجدت الجموع أنفسها مدفوعة إلى الحركة من جديد، لا لشيء إلا لأنها غير قادرة على الاستقرار. ولم يكن ثمة هدف ولا كان أحد يعرف الى أين يذهب. وسرنا مع حركة الجموع، فدخلنا غزة، وكانت المدينة مكتظة بمن لجأوا إليها، أماكنها العامة وشوارعها وساحاتها وكل شيء فيها كان مكتظاً على آخره. وبقوة الاندفاع، ظل الجمهور يتحرك، حتى وجدنا أنفسنا مع هذا الجمهور خارج المدينة. ولم يكن أمامنا سوى بحر الرمال الملتهبة الذي تبدأ حدوده حيث تنتهي حدود ماء البحر. وحثنا على السير أمل غامض بالوقوع على مكان أخضر أو مسقوف، فسرنا حتى وصلنا إلى دير البلح. وكانت هذه قرية، وليس فيها مكان شاغر لوافد جديد. فمضينا إلى الشاطئ حيث مضى سوانا، وألقينا أجسادنا على حافته عاجزين عن الحركة، والضياع يلفنا من كلّ جانب.

بعد فترة قصيرة، غادرنا الخال محمد يوسف بهيئة من انتوى أمراً لا يريد الإفصاح عنه قبل أوانه، ولم يهتم أحد بذلك، ومن الذي كان قادراً على أن يهتم بشيء؟! وغاب الخال زمناً لم نقسه، ثم عاد وفي عينيه ما يشي بأنه وقع على شيء، لكنه لم يقل شيئاً قبل أن يختلي بالجدّة ويتبادل معها جدلاً هامساً. ولما بدا أن الأخوين اتفقا، هتف الخال: "هيّا بنا!".

وقع الخال في تجواله على بستان نخيل قريب من القرية من ناحية الشاطئ. ولأن كثيرين أرادوا أن يلتجئوا إلى البستان، فقد وقف صاحبه وأقرباؤه بالبنادق ليحموه من المشردين الباحثين عن مأوى. وكان في طرف البستان كشك مصنوع من الصفيح، مما يؤوي إليه صيادو السمك عند اللزوم. فتفاهم الخال مع صاحب البستان على استئجار الكشك متعهداً له أن تتولى الجماعة التي ستحلّ فيه حماية البستان. وفي طريقنا إلى المأوى، بالغ الخال في وصف مزايا كشكه، حتى لقد توهمنا أننا سنقيم، أخيراً، في دار حقيقية ونكون وحدنا. غير أن الدار المأمولة لم تكن في واقع الحال سوى هذه الحجرة التي تحدّها الصفائح الصدئة من جهاتها الخمس فتستر الذين فيها لكنها لا تقيهم البرد أو الحرّ أو الضجيج. ومنذ ولجنا المكان، ظهرت أولى المشاكل مع الرجل الطماع صاحب البستان، فالخال لم يذكر للرجل حين استأجر منه الكشك كم عدد أفراد الجماعة. ولما عدّنا الرجل فوجد أننا أربعة وعشرون، فقد خاف على كشكه من أن ينهار. إذ من المتعذر أن تتسع المساحة حتى لنصف هذا العدد دون تحاشر يهدد بانهيار الصفائح. وثار الجدل، و أراد صاحب البستان أن يلغي الاتفاق، فيما أحاطت بنا عيون حملة البنادق

منذرة بأوخم العواقب. وتدخلت الجدّة فعرضت أن تدفع مزيداً من المال. وفي النهاية، سويت هذه المشكلة. فقد اتضح أن في البستان، قريباً من الكشك، بايكة يخزن فيها الرجل علف دوابّه وأدواته. وقد تم الاتفاق على إعادة ترتيب الأشياء في البايكة بحيث يُخلى نصف مساحتها فينام نصفنا فيها، وذلك خلال الليل، فقط، أما في النهار فإن في المحيط الممتد بين البستان والبحر متسعاً للجميع.

كنّا في الواقع بين أوائل الذين حلّوا في تلك البقعة من الشاطئ، لكن حركة الجموع دفعت إليها حشوداً جديدة، فشغل الناس بأجسادهم العراء كلّه. أما البستان ذاته فقد كانت بنادق حراسه صارمة في تشددها إزاء من حاولوا ولوج حدوده. وحين أشار بعض الذين حاولوا اقتحام البستان إلى وجودنا فيه، ردّ صاحبه: " هؤلاء من أقربائنا"، ولم نجرؤ من جانبنا على تقديم أيّ إيضاح. هذا التميز، أو قل: هذا الحظ، كان من شأنه أن يشعرنا بشيء من الغبطة. غير أن غبطتنا تلاشت حين جاء موعد النوم. وإذا كان الذين افترشوا العراء قد افتقدوا الستر، فقد توفر لنا هذا الستر، إلا أننا افتقدنا معه الراحة. فلا مساحة الكشك ولا المساحة المستخلصة من البايكة كانت كافية. ثم إن الثقوب التي تمتلئ بها الصفائح والشقوق التي تفصل هذه الصفائح بعضها عن بعض تحولت إلى مئات الصفارات التي تنفخ فيها الريح في وقت واحد طيلة الليل.

وقد عرفت في هذا المكان معنى أن يتعذر عليك النوم وأنت محتاج له، لا لشيء إلا لأن المكان المتيسر لك لا يتسع لجسدك. لقد خُصصت للكبار مساحات تتجاور أجسادهم فيها كما يتجاور السردين في العلب. أما الصغار فتركوا لشأنهم وكان عليهم أن يتدبروا أمورهم تدبراً فيتكوموا في الزوايا أو بين الأرجل أو في أي فراغ مهما ضؤلت مساحته. وقد شغلتُ أنا مساحة ضئيلة عند الزاوية بجانب أمي، هي التي توجب عليها أن تحتضن رضيعها وصغيرها الآخر حتى لا تمعسهم الأبدان المتحاشرة في هذه العلبة. وفي الساعات الأولى من الليل، حرصت الأم الحادبة على أن توفر لي ما يكفي من المساحة كي أمدّ ظهري، وذلك بأن طوت هي ساقيها. فبقي عليّ أن أفعل الشيء ذاته. لكن الأم المكدودة استغرقت في النوم، فلم يعد بإمكانها أن تراقب وضع جسدها، فانفردت الساقان بحيث استولتا على جزء من المساحة المخصصة لي، فلم يعد بمقدوري أن أبقي حتى ظهري ممدوداً دون أن تمتد ساقا الأم فوقي أو أن أتمدد أنا بظهري فوقهما. والحقيقة أني استندت بظهري إلى صدر الأم وحاولت أن أغفو، ولعلي غفوت فعلاً بعض الوقت. إلا أن أنفاس الأم ضاقت فدفعتني وهي نائمة، فقرفصت متكوماً على نفسي ما استطعت ذلك. لكن الحاجة للنوم غلبتني فأسندت نفسي من جديد إلى صدر أمي، فعاودها الضيق. وتكرر الأمر مرة ومرات، فيما زاد الحرمان من النوم إنهاكي. عندها، قررت أن

أغادر الكشك وأنام في العراء، وقد فعلت ذلك، غير أني لم ألبث أن أفقت مقروراً وأنا أرتجف، فعدت إلى زاويتي وقرفصت حتى الصباح. وحين نهضت الأم والكبار الآخرون، بقي معظمنا، نحن الصغار، داخل الكشك. بقينا لأننا لم نقوَ على الحركة ولأن سلطان النوم كان قاهراً. وغفونا غير آبهين للضجيج الذي يملأ المحيط من حولنا. ولم نغادر الكشك إلا حين تعذّر البقاء فيه بعد أن حولته الشمس إلى فرن ملتهب.

في الليالي التالية، ابتكر كل واحد منّا وسيلته الخاصة كي يتمكن من النوم. وكان ابتكاري أنا من نوع خاص. حقاً، حتى لقد تندر به الأهل وأعطوا للطريقة التي أنام بها صفة مشتقة من اسمي. فقد استخدمت المساحة المتوفرة لي لوضع رأسي وكتفيّ وجزء من ظهري عليها، فيما بسطت بقية الجسد على جدار الكشك. وهكذا، صرت أنام بالمقلوب. لم يكن الأمر مريحاً بالطبع ولا خالياً من المنغصات، خصوصاً حين تئزّ الرياح فتلسع الجسد. إلا أن النوم حتى في هذا الوضع كان أفضل من قضاء الليل مسهداً والتقلب في النهار وسط اللهب والضجيج.

ولم يكن في هذه البقعة الكثير مما يستهوي الصغار. كانت فرص التجول محدودة حيث الاكتظاظ الشديد والرمال. وكان الخريف قد أخذ يهيّج أمواج البحر بحيث تعذرت السباحة فيه. وصار من شأن القتام العام الذي يسود النفوس والضيق الذي يقبض الصدور أن جعلا العلاقات بين الناس تفتقد الحميمية المألوفة. ولم ننج نحن الصغار من تأثير هذا الجوّ، فقد قست نفوسنا وتصلبت أطباعنا، وراحت علاقاتنا بعضنا ببعض تكتسي بعدوانية متزايدة. فكنّا نتشاجر بسبب وبغير سبب. وإذا تصالحنا وتعاونا فلكي نتشاجر مع مجموعة أخرى. وما كان الكبار في مزاج أفضل، وقد صار حتى الجدل العادي بينهم تقاذفاً بالتهم والشتائم. وانعكس هذا كله في تعامل الكبار معنا، فهم يهملوننا على الأغلب، وإذا اهتموا بنا فلكي يقرعونا أو يشتمونا. حتى التخاطب الذي تفرضه حاجة الكبار لتوجيهنا أو مطالبتنا بعمل شيء، غلبت عليه هذه القسوة. فالدعوة إلى الطعام يعبر عنها فعل الأمر: "اتمهرى" وهي كلمة تعني ببساطة: كلْ ما يهري معدتك. والدعوة إلى الشرب: "اتسمم"، وإلى النوم: "انخمد"، وإلى الجلوس: "ارتزي"، وإلى الانصراف: "انقلع". وإلى السكوت: "سدْ بوزك". هذا كله إذا كانت الدعوة خالية من الحنق أو من الرغبة في التقريع. أما التقريع فصارت له ألفاظ يصعب عليّ أن أرددها هنا، حتى ولو من أجل إطلاعك على ما صارت إليه حالنا.

بكلمات قليلة، فقدنا في تلك الظروف ليس الهناء والأمن والأمل وحدها، بل فقدنا، أيضاً، مظاهر الحنان والرقة، مثلما فقدنا لغة الخطاب المتحضّر. وكنا حتى ونحن ندير أحاديث

عادية نتقاذف بعبارات قاسية أفتك من الرصاص. والخطير في الأمر أن مضيّ الزمن جعلنا نعدّ سلوكاً كهذا أمراً عادياً، وأنسانا أن الناس يتعاملون بطرق مختلفة، بل أنسانا أن هناك في أماكن أخرى في الدنيا ظروفاً غير هذه.

ومع العدوانية في السلوك والكلام، اكتست سخرياتنا بعدوانية سافرة، بل صارت السخرية وسيلتنا لإيذاء الآخرين، والحطّ من شأنهم أو جرح مشاعرهم، أو إغاظتهم. ولم تعد السخرية، كما كانت في المجتمعات الفلاحية قبل ذلك، وسيلة للسمر وتمضية الوقت والعبث البريء. من أمثلة ذلك وما طرأ عليه من تحول سلبي حكاية تخاطبنا في ما بيننا بالألقاب الساخرة التي نطلقها بعضنا على بعض. كنّا قبل الهجرة، أيضاً، نتخاطب بالألقاب. ونادراً ما ينشأ طفل في القرية دون أن يقترن اسمه بلقب ساخر، مشتق من عيب في خلقته أو من حادثة وقعت له أو مشتق حتى مما له صلة بواحد من أهله. فهذا من الأولاد لقبه، مثلاً، "العظروط"، لأن جسده نحيل، وهذا "أبو مخطة" لأن أنفه دائم السيلان، وهذا "ابن آمنة"، مثلاً، لأن في طبعه ليونة تتصف بها النساء أو لأن أمّه متسلطة على أبيه. ولكن تخاطبنا بهذه الألقاب كان هدفه في الأغلب التسلية، أو التعبير عن الانتقاد الحاثّ على معالجة العيب المقصود، ولا يستهدف التخاطب الإيذاء إلا في حالات التنابذ والتعادي. بعد الهجرة، انقلبت الآية، فالألقاب صارت أشد قبحاً واستخدامها صار على الأغلب مقصوداً للإيذاء وحده.

وفي واحدة من منابذاتنا، قذفني أحد الاقران باللقب الذي سمعته آنذاك لأول مرة. كنّا قد رتبنا غارة على نخلات متطرفة في بستان البلح. وضعنا خطة محكمة لإنجاح الغارة. فاصطنع فريق منّا مشاجرة أمام صاحب البستان، وبالغ المتشاجرون في لجاجتهم بحيث اجتذبوا انتباه الرجل وحراسه فصرفوا عيونهم اليقظة عن مراقبة الناحية التي سنسطو عليها. وقام فريق آخر بتسلق النخلات وجمع ما يملأ الجيوب من الثمر الشهي بأسرع ما يمكن. بعد هذا، تجمعنا في نقطة على الشاطئ كي نقتسم الأسلاب. ونشأ الخلاف، وانطلقت قذائف الشتائم، فرماني هذا القرين بشتيمة :"أعور". لم أنتبه في بداية الأمر للشتيمة، فأنا لا أعرف أني أعور، ولم أرَ وجهي في مرآة منذ كففنا عن الذهاب إلى المدرسة. وحين لمس الشاتم أن قذيفته لم تحدث الأثر المطلوب، كرر الشتيمة: "أعور، نعم، أعور وعينك طارّة"، وطارّة هذه تعني أن العين ليست عوراء فحسب، بل إنها متضخمة ومدلوقة خارج محجرها.

مع هذه الإضافة من الشاتم، تذكرت أني حقاً لم أعد أبصر بعيني المريضة منذ زمن، ولا بدّ من أن يكون شيء ما قد حلّ بها. ولسعتني الفكرة، ووجدتني أجري باتجاه الكشك

حيث كانت أمي جالسة مع نسوة أخريات. ودون مقدمات، هتفت وأنا ألهث:"أريد مرآة". فنظرت الأم إليّ ولم تقل شيئاً، فرفعت نبرة صوتي وكررت الطلب، وأضفت:"أنتم تخبئون شيئاً عني". وقبل أن تقول الأم شيئاً، تدخلت الجدّة:"اتركنا لما نحن فيه، واذهب مع الصغار!". غير أني تشبثت بطلبي صائحاً وباكياً. هنا، تحركت أمي، احتضنتني وقادتني إلى البايكة، وراحت تهدئني: "أنت أحلى الأولاد، وليقلع الله عيون الحاسدين!"، ثم غلبها البكاء ففاضت دموعها وأجهشت. عندها، أدركت أن ما قاله الشاتم صحيح. بالرغم من ذلك، نازعني أمل غامض في أن يكون الأمر كذبة، واختفت دون أن أفطن إلى ذلك رغبتي في المرآة، غير أني بقيت حزيناً. وذات يوم، مرّ بجماعتنا حلاّق جوّال يعرض أن يقصّ الشعر مقابل أي شيء. واتفق الكبار على أن الوقت قد حان لتخليصنا من شعورنا التي لم تعرف القصّ منذ شهور. وفي مرآة الحلاّق، طالعتني العين التي حلّت بها الآفة، ففي المحجر الأيسر، بدل ذلك الشيء الجميل الذي كانت أمي تتباهى به، اندلقت كرة متطاولة أكل بياض قاتم ألوانها الزاهية، فجعل منها بقعة نابية في الوجه ونظيراً شائهاً للعين الأخرى التي غاظني، في تلك اللحظة، أنها تحتفظ برونقها الصافي. ولأمر لا أعرف له تفسيراً، لم يبدر مني أي رد فعل، ولم أندهش. وقد سمعت بوضوح شديد سؤال الحّلاق: "كيف؟ أعجبتك القصة؟". وأجبت بلا تلجلج: "كثّر الله خيرك!".

لقد أسلمني هذا الاكتشاف لنوع هادئ من الذهول الذي تلبسني عدة أيام. لم أنطو على نفسي، لكن نشاطي ضعف، ولم أتحول إلى ذلك الذي يهرب من مواجهة الناس، ولكني لم أعد ذلك المقدام الذي يقتحم حلقات الصغار والكبار دون تهيب.

وكنت ما أزال على هذه الحال حين وصل إلى الشاطئ النبأ الذي هزّ جماعتنا وأحزن المحيطين بها. كان الحصار الذي فرضته القوات الإسرائيلية على الفالوجة قد استحكم، فيما جاهد الأهالي والكتيبة المصرية الموجودة في القرية ضد الاستسلام جهاداً صنع الملحمة التي ترتبط باسم القرية والتي لا بدّ من أنك تعرفها. وكانت جماعتنا قلقة، يشتد قلقها كلما تواترت الأنباء عن المعاناة التي يتعرض لها المحاصرون في القرية. وكان الجميع يبذلون جهدهم لتسقّط الأنباء عن أحوال جدّي سلمان وأسرته، فلا يظفرون إلا بنتف لا تطفئ من القلق إلا أقله. أما حين حلّت الفاجعة، فقد جاء النبأ من تلقاء نفسه، وجاءت معه التفاصيل، حملها كلّها رجل تسلل من القرية المحاصرة والتحق بأقرباء له في شاطئ دير البلح. تعرضت دار جدّي سلمان في الفالوجة لغارة جوية فأودت به وبثلاثة من أولاده: بنتين وصبي. في يوم الغارة، أعدّ الجدّ وليمة لضباط الكتيبة المصرية، ويبدو أن الإسرائيليين رصدوا تجمع الضباط في الدار فنظموا الغارة. لكن الطائرة المغيرة وصلت بعد أن كان آخر الضباط قد غادر الدار. وكان الجدّ الذي أتم واجبات الضيافة

يغسل يديه في باحة الدار، وابنته زينب تصب له الماء من الإبريق، وإسماعيل الصبي الصغير وأخته الأصغر منه يتنططان حول الجد. وقد تعرض الأربعة لإصابة مباشرة. وهكذا، حصدت الغارة نصف الأسرة.

روى القادم من الفالوجة النبأ دون أن يعلم أن على الشاطئ أقرباء حميمين للضحايا. وانتقل النبأ من فم إلى فم حتى بلغ جماعتنا. وقد تلقاه الأهل بين مصدق ومكذب وممنٍّ النفس بأن يكون في الرواية خطأ أو تشابه في الأسماء. وبحث الخال محمد يوسف والعم محمود عن الفالوجي ناقل النبأ، وعندما عادا إلى الكشك، وحولهما جمع من الناس وهما في حالة المحتاج إلى المساعدة، أدرك الأهل أن المصيبة وقعت، فعلاً، وانطلق العويل.

وها أنذا أتذكر بوضوح لا مثيل له صورة جماعتنا أمام الكشك وسط حشد المواسين، والكل يبكي ويعول. أبكت الأهل ضخامة الخسارة وفقدان الأعزاء الذين افترقوا عنهم بغير إرادة منهم. وبكى الآخرون لأن مصيبة غيرهم ذكرتهم بمصائبهم المماثلة. وانتظمت مناحة لا تسمع فيها إلا عويل النساء ونهنهات الرجال. واحد، فقط، من المحتشدين لم يسمع له عويل ولم تسحّ من عينه دمعة ولم يرَ الناس من ردود فعله إلاّ ذهوله، ذلك هو أنا. فما الذي حلّ بالطفل الذي كنته؟ يقيناً أن اللوعة حرقت أحشائي والألم عصر جسدي وقد أحسست أن اليتم الذي لازمني منذ بداية حياتي قد استحكم في تلك اللحظة، وها أنا أفقد أبي الثاني، بل قل: الأب الذي لم أعرف أباً غيره، وأفقد معه ثلاثة من هؤلاء الإخوة الذين لم أعرف إخوة سواهم، وأُترك في هذا العراء دون أسرة. بالرغم من ذلك، بل بالرغم من حاجتي إلى البكاء، افتقدت الدمع، مثلما افتقدت انتباه الآخرين لحزني. والواقع أن دمعي جفّ منذ تلك اللحظة ولم يعد بمقدور شيء أن يبكيني حتى ولو طحنتني المصائب.

في تلك اللحظات، وأنا أراقب استغراق الناس في أحزانهم دون أن ينتبه أحد لحزني وأسمع عويل الناس دون أن أعول، أحسست على نحو شديد الغموض أن شيئاً جديداً يتكون فيّ أو أنه قد تكوّن وانتهى الأمر. لقد تمخضت الأحداث الهائلة التي تعاقبت على الطفل طيلة شهور عن شيء، فجعلت منه شخصاً آخر. لم يعد الطفل طفلاً بالرغم من أن عمره ما زال تسع سنوات، ولم يصبح رجلاً وإن بدا قادراً على احتمال مصائب تهلك أعتى الرجال. إنه المهاجر الذي تطارده القذائف والطائرات وتكتنفه خيبات الأمل، أو هو اللاجئ، كما سيسمى فيما بعد، أو العائد كما ستسمّيه الأدبيات السياسية. هو رجل في إهاب طفل، وطفل بأطباع رجل، له من الرجال جَلَدُهم ومن الأطفال استهانتهم بالأخطار دون أن يكون من هؤلاء أو أولئك.

لم أتبدل أنا وحدي، فكل من حولي تبدل بصورة أو بأخرى. لقد فعل الصراع بين الأمل وخيبة الأمل فعله في الناس جميعاً. كانت خيبة الأمل قد صارت هي الطاغية دون أن يكفّ الناس كليّة عن التعلق بالأمل الذي تبثّه الإذاعات. ولو أن من شأن الإنسان المنكوب أن يشكل قناعاته حسب معطيات واقع الحال وحده، لقنع الفلسطينيون بأن النكبة التي زعزعت حيواتهم الشخصية وكيانهم الوطني لن تلغيها وعود الدول العربية ولن ينفع معها أي تعلق بالأوهام. غير أن المنكوب، خصوصاً حين تكون نكبته بهذا التحول، هو أكثر الناس تعلقاً بالأوهام، إنه بحاجة إلى الوهم وإلا قتله الإحساس بالواقع. والحقيقة أن الجمهور الذي انحدرت أحواله إلى أدنى الدرجات دون أن يكف عن التعلق بالبقاء كان سيخلق أوهامه بنفسه لو لم تتطوع الدول العربية ببث الأوهام في صفوفه. لقد شهدت الأيام الأولى للمنفى تأسس أمل المهاجرين بالعودة. كان هذا الأمل حتى في ظروف الأيام الأولى معادلاً للوهم. بالرغم من ذلك، فعل هذا الأمل فعله في مساعدة الناس على الاحتمال والحيلولة دون انهيارهم انهياراً كاملاً. ولكي يبقى الناس أنفسهم مهيئين للعودة المأمولة، أي لكي يصونوا أنفسهم من الانهيار الشامل، فعلوا كل ما بوسعهم للتشبث بالأمل، بما في ذلك الإغضاء عن حقائق الموقف كما يظهرها الواقع، والتشبث بالماضي كأن شيئاً لم يكن. وهكذا، بالغ الناس في التشبث بالعلاقات العائلية ضد التمزق الذي لحق بها، كما بالغوا في تحسين صورة حياتهم المنقضية وتثبيت صورتها المحسّنة وحدها في الذاكرة. فصارت الأسرة المفتقدة هي أعظم الأسر، والقرية المهجورة أجمل القرى، والحياة المتروكة أهنأ حياة.

كان الخال محمد يوسف يصر على أن الماء الذي ألف أن يشربه في المسمية الصغيرة هو أعذب ماء في الدنيا. وأتذكر مرة جئت فيها لجدتي مدللة بشيء من البلح فلاكت حبّات منه دون شهية، ثم علقت: "أين هذا من البلح الذي كنّا نأكله في المسمية؟! بلح هذه البلاد تفل"، أي من دون نكهة. ونسيت الجدّة تماماً أن البلح الذي كنّا نأكله في المسمية كان يجلب إليها من "هذه البلاد"، وليس من أي مكان آخر، وأن المسمية لم تكن تنتج البلح. حتى أمّي، هي التي لا أظن أنها شهدت أياماً كثيرة هانئة في دارها في المسمية الكبيرة، كانت تتحدث عن هذه الدار بوصفها قصراً طفح بالهناء والسعادة. ولم تكف الأم عن البحث عن مصير زوجها الذي افترقت عنه في إحدى الدروب، كما لم يكفّ هو، بالطبع، عن البحث عنها، حتى وجد أحدهما الآخر فانتقلت مع طفليهما للإقامة معه في مدينة غزة، حيث استقر بها المقام.

والحقيقة أن بحث الأسر عن أشطارها الضائعة، وإن حفزت عليه دوافع عديدة مفهومة، اكتسى، أيضاً، بطابع استعادة الأواصر التي شدّت الناس في الماضي بعضهم إلى

بعض. ولذا، اتسعت هذه العملية وانتظمت لها وسائل أوجدتها لهفة الناس المتزايدة على الاحتفاظ بما يمكن الاحتفاظ به من الأواصر المهدّدة بالتفكك. كانت الأخبار تتناقل شفاهة بطبيعة الحال، ينقلها القادمون والرائحون بين المجموعات المشتتة. وصار من يعتزم الانتقال من جهة إلى أخرى، لأي سبب من الأسباب، يتعمّد أن يزور المحيطين به من جماعات المهاجرين فيسألهم إن كانوا راغبين في تكليفه البحث عمن يفتقدون من أقربائهم. ثم تطور الأمر، فظهر محترفون ينقلون الرسائل مقابل أجر أو عطايا وعبر وسائل شتى. وراحت أخبار الذين فارقناهم من أهل قريتنا تتجمع. فعرفنا أن نصف آل الحوراني توزع على أماكن اللاجئين التي انتشرت في ما صار يعرف بالضفة الغربية، وأن النصف الآخر توزع في ما صار يعرف بقطاع غزة. كما عرفنا أن من نجا من أسرة جدّي سلمان ما يزال في الحصار في الفالوجة.

وذات يوم، وصلتنا من الفالوجة رسالة مكتوبة، كتبها عمي محمد. وقد أنبأنا العم العزيز الذي لا يكبرني إلا بسنتين أو ثلاث بتفاصيل الفاجعة التي حلّت بالأسرة، واقتبس من محفوظاته آيات قرآنية تحثّ المؤمنين على احتمال المصائب وتَعِدُ الصابرين منهم بالثواب الجزيل. وكتب العم الذي حولته الكارثة إلى رجل أنه يتولى الآن مسؤولية الأسرة، وحثنا على أن ندعو الله كي يمكنه من القيام بهذا العبء على نحو سديد. وكان أغرب ما في الرسالة أن العم الصغير الذي يحتفظ بالتأثير الشديد للتقاليد التي نشأ عليها لم ينسَ موضوع المخترة. فبرحيل جدي سلمان، شغر منصب المختار، ولو كان محمد هذا في سنّ ملائم لشغل المنصب. وها هو ذا يراعي هذا الواقع ويتشبث في الوقت ذاته بأن يشغل أحدٌ هذا المنصب، كأن شيئاً لم يتبدل، وأن يكون شاغله من آل سلمان بالذات، فيعلن أنه يتنازل عن حقّه في المخترة للعم محمود، ويدعو العم إلى أن يعلن نفسه المختار ويعده بأنه لن ينازعه على هذا المنصب حين يكبر. ولم يفت عمي محمد أن يرسل مع الرسالة ختم المخترة.

-٢٤-

في غزة، كل شيء يختلط بكل شيء

بعد انتقال أمي إلى مدينة غزة، لم تطل إقامتنا على الشاطئ، والأم هي التي سعت لنقلنا نحن، أيضاً، إلى المدينة. جاءت الأم لزيارتنا ومعها مشروع للانتقال، بعد أن استقرت هي في الدار التي استأجرها زوجها أبو عمر لأسرته. وكانت أحوال الزوج، بالرغم من أنه خسر كسائر المهاجرين أملاكه وأعماله ومشاريعه، أفضل من أحوال الآخرين. وقد عرفنا من الأم أن زوجها، فضلاً عن المدخرات التي يحتفظ بها، تلقى معونة مالية من شريك له في بئر السبع. والشريك المقصود هو الشيخ سلمان الهزيّل زعيم عشيرة الوحيدات. وكان زوج أمي قد أنشأ مع الشيخ مطحنة في بئر السبع قبل الهجرة، على أساس أن يتقاسما الأرباح. ولم يرحل الشيخ سلمان عن بلدته حين دخلها الإسرائيليون، بل وجد، وهو رئيس عشيرة كبيرة من البدو في المنطقة، وسيلة للتفاهم معهم، فأبقوا له بعض أملاكه وبينها المطحنة، فيما صادروا أملاك الآخرين. وقالت الأم إن زوجها يعرض علينا المساعدة التي يقدر عليها وهو مستعد لأن يستأجر لنا مأوى في المدينة نقيم فيه إلى أن تُفرج. ورجت الأم الجدّة أن تقبل العرض: "الوقت وقت ضيق على الجميع، والناس بعضها لبعض، وأبو عمر رجل شهم".

لم تقبل الجدّة عرض المساعدة، فالتقاليد تعتبر من المعيب أن تعيش الأسرة في كنف زوج ابنتها. غير أن فكرة الانتقال إلى غزة وجدت صدى في نفس الجدّة التي تدرك أن من المتعذر الاستمرار في هذا الكشك اللعين، خصوصاً بعد أن دهمنا الخريف وعواصفه

المؤذية، كما أنه من المتعذر توقع عودة قريبة إلى المسمية. وكانت قسوة الطقس قد حملت نزلاء الشاطئ كلهم على التفكير في البحث عن مأوى أرحم من العراء الذي هم فيه. وطلبت الجدّة مهلة للتفكير، وكان عليها على ما يبدو أن تحصي مدخراتها وتتخذ القرار الذي سيمسّ هذه المدخرات. ثم تدخل عامل آخر فحسم الأمر. فقد نشأت في صفوف المهاجرين دعوة للاهتمام بتعليم الأولاد. وكان على الجدّة أن تفكر بابنها غالب وبي، نحن اللذين طال انقطاعنا عن المدرسة حتى كدنا ننسى التعليم. فلما عرفت الجدّة أنهم بدأوا في مدينة غزة بافتتاح صفوف مسائية لأبناء المهاجرين، حيث يتعلمون في المدارس بعد أن يغادرها تلاميذها من أبناء المدينة، انتقلنا إلى هناك.

في غزة، آوتنا، جدتي وخالتي شفيقة وخاليَّ عمر وغالب وأنا، حجرة استأجرناها في دار طينية، فيها، في حجرتها الأخرى، صاحب الدار وزوجته العجوزان وحدهما. هذه الدار تقع في الشارع غير الممهد، أو الزقاق، الذي ينحدر من التلّة التي تعرف باسم جبل المنطار في طرف غزة من ناحية الصحراء، وينتهي في مركز حيّ الشجاعية، في الساحة التي ينعقد فيها سوق الجمعة. وكنا، بهذا، قريبين من الدار التي استأجرها أبو عمر لأسرته في الشارع ذاته. أما العم محمود فقد انتقل بأسرته إلى مكان آخر. وبقي الخال محمد يوسف مع أسرته في الكشك مدة أطول، ثم تهيأت له فرصة العمل ناطوراً لفيلا يملكها ناس من آل الصايغ الغزيين، وقد أذنوا له أن يقيم مع أسرته في كاراج الفيلا، وكانت هذه تقوم منعزلة في منطقة الرمال، في الناحية الأخرى من المدينة قريباً من شاطئ البحر.

في تلك الفترة، شهدت حياتنا شيئاً من الاستقرار. كنّا ننتظر أن يظفر جدّي عبد المجيد بالإذن المطلوب كي يستقدمنا إلى دمشق. وكانت الجدّة، منذ عرفنا نبأ كارثة الفالوجة، قد أرسلت إلى دمشق ما ينبئهم بضرورة استقدامي أنا، أيضاً. وكانت أنباء دمشق تبلغ إلينا أن الحصول على الإذن أمر صعب، خصوصاً بعد أن تقطعت أوصال البلاد ولم يبق أمامنا من طريق للوصول إلى سورية في صورة شرعية سوى طريق مصر، ما يتطلب مضاعفة الجهود، لكنهم لن يكفّوا عن المحاولة مهما كلف الأمر.

في غضون ذلك، صرنا، نحن الأولاد، نذهب إلى المدرسة ونجد فيها ما يشغلنا. وكانت في الحيّ الذي نقيم فيه مدرسة ابتدائية كبيرة هي التي تعلمنا فيها، فكنا نذهب إليها بعد الظهر ونظل فيها حتى المساء. وعلى كبرها، لم تكن حجرات المدرسة كافية لإيواء المقبلين على التعليم من أبناء المهاجرين. وقد أمكن حلّ هذه المشكلة بجمع الأولاد الفائضين عن الحجرات في خيم نُصبت في باحة المدرسة. واحتاج الأمر، بالطبع، إلى مدرسين. وقد

اختير للتدريس المدرسون الذين وفدوا مع المهاجرين. ولأن العدد لم يكف، جرى استخدام مدرسين جدد من بين المتعلمين المهاجرين الذين تطوعوا لهذه المهمة تطوعاً. وهكذا، انضم خالي عمر لجماعة المدرسين في المدرسة. وكان من حظنا أن جهة خيرية ما من تلك الجهات المحلية أو الدولية العديدة التي نشطت لتقديم العون قررت دفع رواتب رمزية للمدرسين المتطوعين، فأمكن أن يتوفر للأسرة دخل منتظم مقداره أربعة جنيهات في الشهر، هو راتب خالي عمر. مأوى، ومدرسة، ودخل، بدا الأمر معها، في تلك الظروف، شيئاً خارقاً.

يومي الأول في المدرسة الجديدة لا أنساه. كان من المفروض أن تبدأ الدراسة في الواحدة بعد الظهر، غير أننا ذهبنا إلى المدرسة أبكر من هذا بكثير، غير مصدقين أن الفرصة تهيأت لنا، حقيقة، لوصل ما انقطع من تعليمنا واستعادة مباهج المدرسة التي فقدناها. وتجمعنا منذ الصباح عند دار أبي عمر، رهطاً من أبناء المسميتين، فتشكلت منا جماعة وافرة العدد واتجهنا إلى المدرسة. لم نكن الوحيدين الذين قدموا مبكرين، فقد سبقنا آخرون. ولم يلبث أن قدم الجميع، وذلك قبل ساعات من الموعد. فلم تبلغ الساعة العاشرة حتى كانت باحة المدرسة قد اكتظت بأبناء المهاجرين الذين تميّزهم أسمالهم وسحنهم المفتقرة لرواء العافية. وقد توزعنا في البداية على حلقات، ضمت كل واحدة منها الأولاد الذين سبق أن جمعتهم مدرسة واحدة في الماضي. وكنت كغيري من الأولاد راغباً في الانطلاق والتواصل أو إعادة التواصل مع الآخرين في هذا اليوم المشهود. غير أن توقي لم يلبث أن شابه التحرج، فكل قادم جديد إلى حلقتنا كان يبحلق في وجهي مفاجأً بما حلّ بعيني، منهم من كان يصمت ومنهم من كان يسأل. وكان عليّ أن أصمت أو أجيب، فيزداد تحرجي في الحالتين. ثم أخذت الحلقات المتفرقة تتداخل وتتواصل ويبدأ التعارف بين القادمين من مناطق مختلفة. هنا، لم يجر التعارف على أساس الانتماء للحمائل أو العائلات، بل للبلدات الأصلية. وقد لاحظت أننا، أنا والقادمين من أي من المسميتين، قدمنا أنفسنا دون اتفاق مسبق على أننا من المسمية، هكذا، دون إضافة أوصاف. لقد وحدتنا الغربة من جديد.

ولم تلبث باحة المدرسة المكتظة أن تحولت إلى ميدان للصخب. فأزعج هذا زملاءنا الغزيّين ومدرسيهم في صفوفهم. وتوالت إطلالات المدرسين من النوافذ ودعواتهم إيانا إلى الهدوء دون أن تحدث تأثيراً يذكر. فلما وصلت الشكاوى إلى الإدارة، جاء المدير الغزيّ بنفسه إلى الباحة ووجه لنا أوامر صارمة كي نهدأ، أو نغادرها.

وأخيراً، انصرف التلاميذ الغزيّون وهم يرموننا بنظرات مزدرية ولائمة، وحان وقت نوبتنا الدراسية فدعانا الجرس إلى الانتظام في الأرتال المألوفة. فتدافعنا، وطال الأمر حتى

أمكن أن تنتظم هذه الأرتال التي ضم كل واحد منها عشرات كثيرات أو تجاوز المائة. وفي مواجهتنا، وقف المدرسون، وكان بينهم خالي عمر وبذلته الجديدة التي ضحّت الجدة ببعض مدخراتها كي تشتريها له من أجل هذه المناسبة. كما كان بين المدرسين الشيخ إبراهيم بجسده الضخم وبذلته الضيقة هذه المرة. أما الشيخ مصطفى فلم يبد له أثر. وبرز من بين المدرسين رجل ضخم حزرنا من الطريقة التي يتصرف بها أنه المدير. وقد جال الرجل بين الأرتال مشرفاً على حسن انتظامها، ثم وقف إزاءنا، وألقى خطبة لم يسمح لي وقوفي في أواخر الرتل بأن أسمع إلا القليل منها. وقد تكررت في الخطبة كلمة الكارثة التي شاع استخدامها منذ تلك الأيام. ثم دعانا المدير بصوت واضح إلى أن ننشد نشيد "موطني". فأطلقت الحناجر اللحن الذي ملأ الباحة: "الجلال والجمال والبهاء والسناء"، وتكرر السؤال الذي تشتمل عليه لازمة النشيد: "هل أراك؟ سالماً منعماً وغانماً مكرماً". ولم يكن للسؤال في أذهاننا من جواب إلا ما يثير الأسى.

موقفي في آخر الرتل الطويل المخصص لطلاب الصف الرابع حدد المكان الذي سأدرس فيه والشعبة التي سأنتمي إليها من شعب هذا الصف. فقد أخذوا المتقدمين في الأرتال إلى الحجرات، وساقوا الباقين إلى الخيم المنصوبة في الباحة. ولم يكن في الخيمة إلا العراء واللوح الأسود وصندوق الطباشير، فلا مقاعد ولا طاولات ولا خرائط ولا كرسيّ للمدرّس. وكنّا ما نزال واقفين لا نعرف ما ينبغي عمله حين جاء المدرس. وقد طلب منا الرجل أن نجلس على الأرض، وبقي هو واقفاً أمامنا ورأسه يصطدم بقماش الخيمة، ثم قدم الرجل نفسه على هذا النحو: "أنا من عجّور، مهاجر مثلكم".

في هذا اليوم الأول، لم يطل مكوثنا في المدرسة، فقد تعذر في هذه الشروط أن نتلقى أيّ دروس. واكتفى المدرس بأن تعرّف علينا بالطريقة التي عرّفنا بها على نفسه. فذكر كل واحد منا اسم البلدة التي جاء منها، وكأن ذكرها يغني عن ذكر اسمه الشخصي. ثم كرر المدرس الكلام الذي صرنا نسمعه في كل مكان عن أهمية التعليم لأبناء المهاجرين الذين فقدوا كل شيء، باعتبار أنه سيكون رأسمالهم الوحيد وعدّتهم الوحيدة لمواجهة المستقبل، وكذلك لتوفير شروط النصر على الأعداء والعودة إلى مساقط الرؤوس.

في تلك الفترة، بالإضافة لتوفير التعليم، تطوعت جهات عدّة، كما قلت لك، بتأمين أشكال شتى من العون للمهاجرين. فمع حلول الفصل البارد، كان لا بد من إيواء عشرات، بل مئات الألوف المنتشرة في العراء وتوفير مأوى دائم للأسر التي لجأت إلى المساجد والمدارس. والحقيقة أن بعض الأسر وجدت المأوى بجهودها الخاصة، كما كان شأن أسرتنا التي توجب أن تدفع جنيهاً وربعاً أجرة شهرية للحجرة التي آوتنا. غير أن

الأغلبية لم تتوفر لها الإمكانات اللازمة لذلك. وهكذا، ظهرت الخيام، ونشأت المخيمات التي تعرفها.

وشكّل الحصول على الغذاء والكساء معضلة قاسية بالنسبة لمعظم الأسر. فوجد من يوزع الطحين والزيوت والسكر والرز على المحتاجين الذين توجب عليهم أن يغضوا الطرف عن دواعي الكرامة وأن يقفوا في الأرتال الطويلة بانتظار الحصول على المعونة التي لم تكن، بالطبع، كافية، ولكنها أفضل من لا شيء. وجاءت بالات، أي طرود، الملابس العتيقة من حيث لا ندري من خارج الحدود، أرسلها أناس ليست لديهم، بالطبع، أيّ فكرة عن الأزياء المحلية ولا يعرفون مدى تعلق الناس بهذه الأزياء واعتيادهم عليها وربطهم بين ما يلبسونه وما يعدّونه لأنفسهم من مقامات وكرامة. ومرة أخرى، توجب على الناس الذين بليت ثيابهم أن ينسوا المقامات والكرامات وأن يستروا أجسادهم ويدفئوها بما يجود به الخيّرون من ملابس ذات أزياء عجيبة وغريبة.

وفي المدرسة، خُص التلاميذ من أبناء المهاجرين بمعاملة متميزة. فكانوا يقدمون لنا كوباً من الحليب المحلى بالسكر قبل بدء الدراسة، ويعطوننا وجبة من الأطعمة المحفوظة أثناء الاستراحة. كان السائل المعد من مسحوق الحليب المجفف يجلب إلى المدرسة في براميل تُصفّ في الباحة ويقف المدرسون بجانبها ونساق إليها، رتلاً بعد رتل، كي نشرب الكوب أمام المدرس وبإشرافه. هذا الحليب لم يكن له المذاق الذي اعتدنا عليه، نحن الذين لم نعرف إلا الحليب الطازج المحلوب للتو، فلم نستسغ مذاقه، فكنا ننفر منه، فترغمنا تهديدات المدرس على شربه إرغاماً. وأسوأ من هذا الحليب كان زيت السمك السائل الذي يرغموننا على شرب ملعقة منه كل يوم، ومذاقه المقزز. أما الأطعمة المحفوظة، فكان منها ما يمتعنا حقاً، كانوا يعطوننا شيئاً مختلفاً كل يوم على مدار أيام الأسبوع، حلاوة الطحينة التي نعرفها من قبل ونحبّها، وكذلك علب السردين واللحم أو الدجاج، والسمك المدخن الذي تعرفنا عليه لأول مرة في ذلك الوقت ورائحته الجذابة وطعمه المستساغ. وكانت حصص الطعام تسلم لنا باليد، فنتحلق في الباحة لنأكلها تحت رقابة المدرسين الذين أنيطت بهم مهمة التأكد من أننا نأكلها بأنفسنا ولا ننقلها إلى أهلنا. فلما بهتت الرقابة بمضيّ الوقت، وجدت هذه الأطعمة طريقها إلى الدور، بل إن منها ما ظهر في الأسواق حيث يبيعه المحتاجون إلى النقد.

وعملية التدريس ذاتها تحسنت بمضيّ الوقت، فظهرت الدفاتر والكتب. واشترى المقتدرون حاجاتهم ووفر المتبرعون ما أمكن توفيره للآخرين. وفي حالات النقص، كان تلاميذ عدة يتشاركون في كتاب واحد. وتدبرت الأسر لأولادها طراريح يجلسون عليها في الخيم.

وظفر المدرسون في هذه الخيم بكراسٍ يجلسون عليها وطاولات يستندون إليها. وخاطت لي أمي حقيبة من قماش فصار لي ما أحمل فيه أشيائي إلى المدرسة وأخبئ ما أنقله إلى الأسرة من أطعمة. مشكلة واحدة صعب حلّها هي مشكلة التدفئة، فلا ملابسنا كانت كافية ولا الخيم مما يقينا البرد، وقد كان شتاء ١٩٤٨ - ١٩٤٩ قاسي البرودة. وكان علينا أن نختار بين المعاناة من تأثير الهواء الحبيس الذي تنحبس معه الأنفاس أو المعاناة من القرّ الذي يحزّ لحم أجسادنا. ولم يكن اختيار أيّ من هذين الشرين متروكاً لنا نحن التلاميذ، بل كان علينا أن نخضع لمزاج المعلم، فهو الذي قد يغلق باب الخيمة ونوافذها أو يفتحها حسب هذا المزاج. والحقيقة أن النوعين من المعاناة كانا يتناوبان أجسادنا.

يقال في العادة: إن نوازع الحياة أقوى من نوازع الفناء. وهذه حقيقة تهيأ لي أن أتأكد من سدادها في وقت مبكر من عمري. فهذه الجموع التي تدفعها معظم ظروفها نحو الفناء حددت رغبتها في الحياة من خلال الحرص على تأمين مستقبل أفضل لأولادها، والبحث عن مشاغل، بل حتى عن مسرات، ما كان لها أن تنشغل أو تستمتع بها لو لم تكن الظروف هي هذه الظروف المقيتة التي سيق إليها عرب فلسطين في عام نكبتهم الشاملة.

كنّا، نحن الذين نذهب إلى المدرسة أربع ساعات في اليوم، قد وجدنا ما يشغلنا. بل إن وقتنا المديد قبل وقت الدراسة وبعدها لم يعد كافياً لإتمام المشاغل الأخرى التي ابتكرناها أو وجدنا أنها ضرورية. وفي الزقاق المنحدر من المنطار، كنّا نقضي الوقت من الصباح حتى الظهيرة في الحديث الذي اكتسى بالجدّية واللعب الذي أعطينا له طابع الشغل. كانت أحاديثنا تدور حول ما آلت إليه الأحوال في البلاد وتناقش السبل الممكنة لتحرير ما احتلّ منها. وكان اللعب، أو الشغل، ينصبّ على الطريقة التي يمكن بها تأمين الدفاع عن المكان الذي نحن فيه.

قد يدهشك الأمر، ولكني أؤكد أنه كانت لنا نظرياتنا في هذا الشأن. وكنا ننتقد طريقة الجيوش وفوضى المجاهدين ونسعى لابتكار سبل جديدة، ثم نجسد أفكارنا في مشاريع دفاعية نقيمها في الزقاق. ففضلاً عن الفصيل الذي أعدنا تشكيله فضم هذه المرة أولاداً من بلاد متعددة والبنادق التي اصطنعناها من فروع الشجر وأوجدنا لها مخابئ نجمعها فيها لنعود إليها بعد المدرسة، نصبنا مدافع ومدافع مضادة للطائرات وصوبنا فوهاتها نحو الأرض المحتلة أو نحو الفضاء. بل إننا جمعنا من البراميل والدواليب المهملة ما أقمنا منه هياكل دبابات نشرناها للدفاع عن الزقاق. وكنا نجري المناورات، فنتدرب على القتال وإدارة المعارك ومواجهة الغارات، ونستخدم حناجرنا للتعبير عن أصوات القذائف والهدير. أما الطائرات، فكنا نصنعها من الورق ونربطها بالخيطان ونطلقها في الجو، ثم

نطلق عليها من حناجرنا ما يؤول بها إلى السقوط، فنتقدم نحوها ونأسر طياريها ونعقد المحاكمات لنحقق معهم حول جرائمهم حين يقصفون الأبرياء.

وبمضي الوقت، صار لكل جماعة منا منطقتها التي تتمتع فيها بالسيادة، ففيها أسلحتها وآلياتها ومستودعاتها، ومنها تنطلق في هجماتها على مناطق المجموعات الأخرى، أو تذهب لنجدة هذه المجموعات، حسب الأحوال واختلاف الخطط التي نرسمها للمناورات.

وكان لمناوراتنا قواعد لا تخترق وقوانين نعاقب من يخالفها. فالجهة التي تتعرض للهجوم لا بد من أن تقع فيها إصابات، فإذا انطلقت القذيفة نحو ولد أو انفجرت قنبلة بقربه، توجب عليه أن يلقي بنفسه على الأرض ممثلاً دور من يتعرض للإصابة، فإما أن يئن بعد ذلك كمجروح، أو يهمد كميت. ثم وصلنا إلى حدّ تنظيم جنازات للشهداء وإصدار البلاغات عن خسائر العدو، محاذرين، عند ذكر الخسائر، أن نقع في المبالغة التي اشتهرت بها بلاغات الجيوش.

أما أيام الجمعة، وهي أيام العطل الأسبوعية، فكان علينا أن نؤدي فيها مهمة شاقة، وإن كانت مسلية: إنها جلب الوقود للأسرة. كان استخدام الوقود من النفط ترفاً لا تسمح الظروف حتى بالتفكير به. فكان لا بدّ إذن من الحطب. والحطب في غزة عزيز، فهذه المدينة التي يكتنفها البحر ورماله، من جهة، والصحراء، من الجهة الأخرى، لا تتوفر لها مصادر كثيرة للحطب. وكان بجانب غزة، على مبعدة كيلومترات، حرش من أشجار السرو والصنوبر، فصار هذا الحرش هو هدف الباحثين عن الوقود المجاني. كنّا نتوجه إلى الحرش مع الصباح، نذهب إليه جماعة، وقد تزوّد كل منّا بكيس من الخيش، فنملأ الأكياس بالأوراق الجافة والعيدان، ونشيلها، ونعود بها على ظهورنا. وإذا كان في مشوار الذهاب وفي الحرش ذاته الكثير مما يسلّي فقد كان في مشوار العودة الكثير الكثير مما يتعب، أيضاً.

أما الكبار، فقد وجدوا ما يشغلهم، بالإضافة لهموم الصغار، في البحث عن مصادر اللقمة العزيزة. كان على النساء أن يتدبرن أي شيء من أي شيء ليوفرن للأفواه المتطلبة ما يسدّ الرمق. وتهيأت للقليل من الرجال فرص العمل، فعمل هؤلاء مقابل اللقمة أو مقابل ما هو أقل منها. واقتصر نشاط الأغلبية على الجري وراء الجهات الخيرية التي تقدم المعونات، وتدبُّر الحاجات الضرورية مما تقدمه هذه الجهات. ولجأ الناس إلى مدخراتهم النقدية أو العينية، فبيعت الحليّ والأشياء الثمينة الأخرى وراجت سوقها. وكان ضباط الجيش وعرفاؤه والمحترفون من عساكره والمقتدرون من الأهالي هم الزبائن. ونشطت حركة تهريب الذهب من قطاع غزة إلى مصر. والذين توفر لديهم رأسمال أو خبرة في الأعمال بدأوا البحث عن مشاريع يوظفون فيها مالهم أو خبراتهم.

وفي بحثه عن الفرص، لجأ أبو عمر إلى أسلوبه المجرّب: إقامة العلاقات مع الضباط وموظفي الإدارة المصرية وتنظيم الولائم الباذخة تمهيداً للحصول على تعهدات لمشاريع الإدارة. انتقى أبو عمر ضيوفه في البداية من بين الذين يوفرون أقنية الاتصال مع الشخصيات النافذة في الإدارة، يدعوهم إلى مائدته، ويسرف في إكرامهم، ويغمرهم بالهدايا، وحين تهيأ للرجل الخبير الظرف الملائم، راح يجتذب النافذين أنفسهم، فيكرر معهم الحكاية باذخاً أكثر وباذلاً مالاً أكثر، وملوحاً بالأعطيات والرشاوى الملائمة.

في غضون ذلك، طورت الجهات الخيرية عملها، وسعت لتنظيمه. فأجريت إحصاءات عاجلة لتسجيل المهاجرين، كي تتحدد الحصص التي تُقدّم لكل أسرة. قام بالإحصاء موظفون من السكان أنفسهم، أهل غزة أو المهاجرين إليها. وإذ أدرك الناس أن هدف الإحصاء هو تقنين حصص المعونة حسب عدد أفراد الأسرة، فقد دفعتهم الحاجة إلى خداع الموظفين كي يظفروا بحصص أكثر. وحين لم ينفع الخداع، لجأ الناس إلى الرشوة. وفي اليوم الذي جاء فيه رجال الإحصاء إلى زقاقنا، استنفرنا، نحن الأولاد، بناء على توجيهات الكبار، ولعبنا الدور الحاسم في التيسير على المهاجرين المعوزين. فكان عدد منّا ينضم إلى كل أسرة حين يدخل المحصون دارها، ثم ينتقل إلى أسرة أخرى. وتناوبنا العملية بحيث لا يظهر الولد نفسه إلا في أمكنة متباعدة حتى لا يتذكر المحصون وجهه. وقد تمت عملية الإحصاء في الزقاق بغير مشاكل تذكر. معظم المحصين لم يفطن للأمر، والذين فطنوا له تجاهلوا هذا النوع من التزوير تعاطفاً منهم مع المحتاجين، أو أغلقت الرشوات أفواههم.

جدتي مدللة التي شحذت الأحداث القاسية تشبثها بالصدق، بدل أن تلينه، أبت أن تفعل أسرتنا ما تفعله الأسر الأخرى واستكبرت أن نكذب: "إذا غششنا العبد فهل نخدع الربّ؟"، صاغت الجدّة رأيها بهذا الحسم، ورفضت المناقشة. وجارى خالي عمر الذي أصبح رجل الأسرة الجدّة. وعندما أُحصينا، كنّا خمسة، أي أعضاء الأسرة الحقيقيين وحدهم. غير أن الرجل المحصي نفسه أضاف اثنين دون أن يطلب منه أحد، فسجّلنا سبعة، وابتسم، وغادرنا وهو يتمنى لنا عودة قريبة إلى المسمية الصغيرة.

إلى جانب المواد الغذائية، وُزعت على المهاجرين كميات من الأغطية، وكان من بينها تلك البطاطين المضرّبة بخطوط عريضة واللحفُ الرقيقة ذات الطرز الغريبة التي لم يعرفها ناسنا من قبل. ولأن الناس افتقدوا الملابس الدافئة، فقد تدبروا أمرهم بهذه الأغطية، فخاطوا من اللحف نوعاً غريباً من المعاطف وتدثروا به لاتقاء البرد، وحولوا البطاطين إلى جلاليب. وانضافت هذه الأزياء الهجينة إلى خليط الأزياء الذي امتزجت فيه الملابس

التقليدية بملابس البالات، وبها صار من السهل تمييز المهاجر عن المقيم. أما الأكياس البيضاء التي تستخدم للطحين فقد استخدمت لصنع السراويل الداخلية، ولما لم يكن من المتيسر إزالة الكتابة المدموغة عليها، والتي تشير عادة إلى مصادرها ومرسليها، فقد صارت هذه السراويل مادة للتندر بين النساء والرجال. ولم يكن من النادر أن يرتدي رجل أو امرأة سروالاً طبع على قفاه بالبنط الأحمر العريض اسم الولايات المتحدة الأمريكية، أو أسماء الهيئات الدولية التي تساعد المهاجرين.

وفي البداية، كان الناس مفرطي الحساسية إزاء اضطرارهم لتلقي العون من هذه الجهات المجهولة. كان في الأمر، بالطبع، ما يجرح الكرامة بالنسبة لمن نشأوا على قيم تعدّ الحاجة لتلقي العون من المأكل والملبس معرّة وتضع متلقيه في مرتبة الشحاذ. وكنت ترى الواحد من هؤلاء عائداً إلى منزله أو خيمته منكس الرأس وهو يشيل ما وهب له من مخصصات ويتجنب أن تلتقي نظراته بنظرات معارفه، حتى إذا وصل المجروح في كرامته إلى المنزل ألقى بحمله حانقاً ومأزوماً، وانفجر لأتفه الأسباب في وجه زوجته وأولاده أو جيرانه. غير أن الحاجة إلى ما يحفظ الحياة ويضمن استمرارها طغت أولاً بأول على المشاعر. وقد سهل الأمر على نحو ما أن الناس جميعهم تساووا أمام هذه الحاجة وكانوا كلّهم مضطرين للدوس على أحاسيسهم، فبدأ التحرج ينحلّ، لم يَزُل، بالطبع، الإحساس بالمهانة، ولم يبرأ جرح الكرامة، ولكنهما تواريا تحت الجلود، وتواطأ الجميع دون اتفاق على تجاوزهما. وكانت المعونة تنفد قبل حلول موعد استلام المعونة التالية. فأطلقت الحاجة العامة الألسن في الحديث عن الموعد القادم والكميات الموزعة. ثم صار الناس يتذمرون من قلّة المعونة ويتبادلون الشكوى بشأنها،وهم يسخرون في الوقت ذاته من حاجتهم للحصول عليها. وهكذا، حلّت السخرية السوداء محل التحرج. وجاء وقت صارت فيه المسائل المرتبطة بالمعونة شغل الناس الشاغل. وبعد أن كان الناس يذهبون إلى مراكز التوزيع على استحياء ويقفون متباعدين بانتظار حلول دورهم للحصول عليها، صاروا يتدافعون وهم وقوف في الأرتال الطويلة أمام المراكز. لقد أنشأ العوز قيماً جديدة تلائم ظروف التشرد والافتقار لكل شيء. ومع هذا الوضع، تراكم الإحساس بالضيق المختزن داخل النفوس: إنه اللجوء، والذل الذي يرافقه فيسعى أصحابه لإخفائه بشتى السبل.

وأوجد العوز، وقد امتزج الإحساس بسطوته مع الحنين إلى الممتلكات المفقودة، نوعاً من النشاط قام به بعض الناس لتلبية الحاجات. فمع حلول موسم الحمضيات، وكان قطاع غزة يفتقر إلى البيارات، نشطت حركة تسلل عبر خطوط وقف إطلاق النار. وكان على المتسللين أن يتجنبوا نقاط المراقبة المصرية ونقاط المراقبة الإسرائيلية المقابلة لها، مجازفين،

في الحالتين، بالتعرض لإطلاق النار عليهم أو الاعتقال. وإذا أفلح هؤلاء في اجتياز المخاطر، فإنهم يجيئون إلى البيارات التي تركوها عندما أرغموا على الهجرة أو تركها سواهم، فينقلون من الثمر ما يستطيعون حمله أو تستطيع دوابهم حمله، ويعودون بالطريقة ذاتها إلى القطاع، معرضين أنفسهم للمخاطر مرة أخرى.

في البداية، كان أصحاب البيارات أو عمالهم السابقون هم الذين يذهبون إليها ويعودون بما تحتاجه الأسر. ثم لم يلبث أن اتسعت الحركة وتنوعت أصناف المتسللين واختلطت دوافعهم وتعددت. وفي المحصلة، نشأت تجارةٌ رأسمالها المخاطرة بالحياة أو الحرية وعائدها ضئيل. وقد تكرر وقوع الضحايا دون أن تتوقف هذه الحركة. ومع تكرر عمليات التسلل وتنبه السلطات المصرية لها، برز خطر جديد يتعرض له المتسللون حين يكتشف أمرهم. فهذه السلطات، وهي حديثة العهد بإدارة القطاع وغير الخبيرة بمعالجة الحالة التي نشأت عن التشرد الجماعي والإحباط واليأس، صارت مفعمة بالشكوك إزاء الفلسطينيين كافة وإزاء أي من تحركاتهم. وكانت السلطات تخشى أن يكون بين هؤلاء المتسللين جواسيس، إن لم يكونوا كلهم كذلك، فينقلوا إلى الطرف الآخر أخبار الجبهة المصرية. حتى قبل هذا التسلل، كانت الدوريات العسكرية المصرية تجوب شوارع غزة وتقيم نقاط التفتيش على الطرق وتوقف العابرين وتفتشهم وتسألهم عن بطاقات إثبات الشخصية، التي غالباً ما يفتقرون إليها، وتقذف في وجه من تشاء بتهمة التجسس وتسوقه إلى التحقيقات المضنية. وبهذا التسلل، توفر سبب جديد للاتهام، فكيف يستطيع هذا الساري، رائحاً أو غادياً في جنح الظلام، أن يثبت أنه ليس جاسوساً لإسرائيل يتستر بالتجارة ليخفي خيانته! أما على الجانب الآخر، فكانت الشكوك أعمق ومسوغاتها أكثر، إذ كيف يمكن للساري أن يثبت أنه ليس عميلاً مصرياً وافداً في مهمة للاستطلاع أو التخريب! ثم إن هذه التجارة ذاتها كانت ممنوعة على الجانبين، حتى لو لم تقترن بشبهة التجسس. مع ذلك كله، بالرغم من التشدد في إجراءات الحماية المكثفة على الجانب الآخر، ظل برتقال القرى المحتلة القريبة من القطاع يصل إلى أسواقه. وكان من الممكن أن يحصل الناس على برتقالهم إذا قدروا على دفع الثمن المطلوب.

ولم تكن حوادث التسلل هي وحدها التي توتر خطوط وقف إطلاق النار، بل توفرت أسباب أخرى عديدة تحمل الإسرائيليين على مهاجمة المواقع المختلفة في القطاع المحصور بين مواقع الإسرائيليين وشاطئ البحر. وكان التوتر يشتدّ كلما احتاجت إسرائيل لتخويف الفلسطينيين والضغط عليهم كي يكفّوا عن المطالبة بحقوقهم، أو كلما احتاجت للضغط على الجانب المصري كي يلين موقفه في المفاوضات الجارية من أجل إبرام هدنة بين الجانبين. وبقي موضوع الكتيبة المصرية المحاصرة في الفالوجة قائماً يحدث تأثيراته

المتباينة هنا وهناك. فالفلسطينيون وجدوا في بطولة القرية الصامدة إزاء الحصار سبباً للدعوة إلى استئناف القتال بأمل أن يستعيدوا ما فقدوه. أما المصريون فقد تحول صمود الفالوجة والوحدة الموجودة فيها إلى حكاية تقض مضاجع مسؤوليهم الكبار الذين أوقفوا إطلاق النار وتحفز على التذمر في صفوف الجيش، فتشددوا في المفاوضات حتى يؤمنوا لوحدتهم المحاصرة خروجاً مشرفاً من القرية، كي لا يتفاقم التذمر. والإسرائيليون الذين أزعجهم، بالطبع، أن تبقى الفالوجة جزيرة مناوئة كثفوا حصارهم لها وشددوا هجماتهم عليها بأمل حمل من فيها على الاستسلام دون شرط. وكان هذا كله يلهب خطوط وقف إطلاق النار بين وقت وآخر، ويحمل الإسرائيليين على خرق اتفاق وقف إطلاق النار ومهاجمة هذا الموقع أو ذاك من المواقع العسكرية والمدنية في القطاع.

ومرت أوقات تواتر فيها إطلاق النار يومياً، خصوصاً في هدأة ليالي الشتاء الطويلة. ولأننا كنّا نقيم بالقرب من خط وقف إطلاق النار، فقد توجب علينا أن نمضي ليالي كثيرة متكومين في الحجرة دون نوم بانتظار أن تصمت الأسلحة. أما في النهارات المتوترة، فكان الطيران الإسرائيلي هو الذي يتولى المهمة، فتجول طائراته في سماء القطاع وتقلق الجميع.

وفي يوم جمعة من الأيام التي لا أنسى تفاصيلها، كنت أزور أمي في الصباح. وشاء أبو عمر، الذي أخذ يوليني اهتماماً متزايداً منذ سكنّا بجواره، أن يخصّني بمعاملة متميزة، فصحبني في مشواره إلى سوق الجمعة. وعندما أشرفنا على السوق مقتربين من النقطة التي يصبّ فيها الزقاق في الساحة، اجتذب انتباهنا صوت الطائرات المحلقة في السماء ومشهدها، فشخصت عيوننا نحوها. وفجأة، انفتحت بطون الطائرات لتهبط منها الدنان المتلاحقة التي صرنا نعرف ما الذي يعنيه هبوطها من السماء نحو الأرض. دفعني أبو عمر إلى الانبطاح وانبطح هو بجانبي. ولم يلبث أن سدّ الطنين الطاغي أذنيّ مع توالي الانفجارات. وحين اجتذبني أبو عمر للنهوض وأمكن أن أنهض، رأيت ذلك الذي لا ينسى. لم يكن الأمر مثل مجزرة المجدل التي عاينتها بعد وقوعها. كان ما أعاينه الآن هولاً تعجز اللغات كلها عن وصفه. فقد فتكت الطائرات الإسرائيلية بساحة عارية مكتظة بالناس، فجعلتها مسلخاً دامياً انعجنت فيه الأجساد البشرية أو تناثرت نتفها، واختلط هذا أو ذاك بحطام البسطات ومحتوياتها. واجتذب ما وقع للسوق أعداداً هائلة من الناس اندفعت من كل ناحية لتفقد الأعزاء الذين كانوا فيه. وقد كادت حركة المندفعين تجذبنا، أنا وزوج أمي، إلى مركز السوق، لولا أن الرجل القوي جاهد بكل قوته كي نسير في الاتجاه المعاكس. ولست أعرف لماذا تجنب أبو عمر التوجه نحو السوق، هل فعل هذا هرباً من رؤية الدماء أو لكي يبعدني عن المشهد، أم أنه حزر ما سيحدث؟

مهما يكن من أمر، فإن حركة أبي عمر هي التي جنبتنا، هو وأنا، مواجهة الموت. ذلك أن الطائرات رجعت لتفتك بالساحة من جديد، بعد أن تجمع الناس فيها حول الضحايا الذين حصدتهم الغارة الأولى.

-٢٥-

لمّ الشمل، الطريق تمرّ ببور سعيد

بعد الجهود التي بذلتها الأسر التي افترق أعضاؤها بعضهم عن بعض للتعرف على أشطارها المشققة، بدأت محاولات هذه الأسر لتجميع هذه الأشطار في مكان واحد، وانصبت الجهود في هذا الاتجاه. لقد تمت العملية الأولى بسهولة نسبية، فكانت الأخبار عن مصائر الأشطار المتباعدة تنتقل، كما رأيت، عبر السعاة المتطوعين والمحترفين. ثم دخلت أجهزة الصليب الأحمر الدولي على الخط، فصارت تنقل الرسائل، وتلتها البرامج التي خصصتها الإذاعات العربية لتنقل رسائل المهاجرين إلى ذويهم المشتتين. أما العملية الثانية، أي عملية لمّ شمل الأسر الممزقة، فهي التي كانت صعبة، بل في غاية الصعوبة.

ولكي تدرك مقدار صعوبة لم الشمل ما عليك إلا أن تتذكر ما آلت إليه التقسيمات التي أودت بوحدة البلاد الفلسطينية في تلك الفترة بين ١٩٤٨ و ١٩٤٩. لقد قامت إسرائيل في شطر من البلاد ثم شملت سيطرتها خلال شهور قرابة أربعة أخماسها. وهكذا سيطر الإسرائيليون على منطقة امتدت من حدود سورية ولبنان، شمالاً، إلى خليج العقبة على البحر الأحمر، جنوباً. وبهذه السيطرة، فصلت إسرائيل بين قطاع غزة، في جنوب غرب البلاد، والضفة الغربية لنهر الأردن، في شرق البلاد، وهما المنطقتان اللتان تجمعت فيهما جموع المهاجرين ممن لم يغادروا إلى البلاد العربية الأخرى. ولكي تتصل أشطار الأسر المتفرقة في هاتين المنطقتين، كان لا بد من عبور المنطقة التي تفصلهما والتي تسيطر عليها

إسرائيل، وهذا ممنوع، أو كان لا بدّ من السفر إلى البلد العربي المجاور للقطاع، وهو مصر، والانتقال منه عبر البلاد العربية إلى البلد المجاور للضفة، وهو الأردن، أو العكس، وهذا متعذر أو شبه متعذر بسبب الإجراءات التي اتخذتها مصر وغيرها من الدول العربية فحدّت من إمكانية التحرك عبر أراضيها.

ثم، لكي أوضح الأمر بصورة أجلى، عليّ أن أبيّن لك أن قطاع غزة ليس سوى شريط ساحلي ضيق المساحة، طوله بضعة وأربعون كيلو متراً ومتوسط عرضه ثمانية كيلو مترات. وقد احتشد في هذا الشريط الفقير بالأرض الزراعية مئات ألوف المهاجرين بالإضافة إلى سكانه، فاكتظت المساحة بالمحتشدين فيها، ولم يكن فيها ما يغري قاطني المناطق الأخرى بالمجيء إليها. وعلى هذا، فإن التوجه للمّ الشمل سار في الأغلب في اتجاه الخروج من القطاع وليس المجيء إليه. ومع خطر العبور عبر مناطق السيطرة الإسرائيلية وإقفال الحدود المصرية إقفالاً تاماً في وجه المهاجرين، بقيت الوسيلة الوحيدة المتاحة هي التسلل إلى الضفة الغربية تسللاً، مع ما تنطوي عليه العملية من مخاطرة مثلثة الوجوه، حيث يتوجب عبور المواقع المصرية والأردنية، والتعرض للدوريات والكمائن الإسرائيلية المنتشرة في المسافة الطويلة الممتدة بينها. وهكذا، لم يقدم على المخاطرة إلا من كانت حاجته طاغية التأثير فتغلّبت حتى على الخوف من الموت الذي يترصد المتسلل في كل ناحية. وقد أوجدت الحاجات التي من هذا النوع أدلاء احترفوا قيادة الراغبين في الانتقال من القطاع إلى الضفة. وكان أقلّ وسائل الانتقال خطراً هو المشي عبر صحراء النقب، حيث الدروب غير المطروقة، وإن لم تكن هي أقصر الدروب إلى الضفة.

على هذه الدروب، سار المخاطرون، بصحبة الأولاد: الابنُ الذي انفصل عن أسرته ولم يجد في القطاع من يؤويه، والزوجة التي وجدت نفسها دون معيل أو حام، والطامحُ في الحصول على فرصة عمل على الجانب الآخر، ومن في حكمهم. وكان على العازم على التسلل أن يبحث عن دليل، وأن يساومه حتى يتفقا على المبلغ المطلوب. ثم كان على هذا المتسلل أن ينتظر الليلة المناسبة للتسلل. وأنسب الليالي هي، بالطبع، أشدها ظلمة. والحقيقة أن كثيرين لجأوا إلى هذه الوسيلة، إلا أن قليلين منهم، فقط بلغوا الطرف الآخر. فمن المتسللين من اعتقل هنا أو هناك أو في الوسط، ومنهم من تاه إذ تاه دليله وسط الظلمة، ومنهم من هلك واختفت أخباره. بالرغم من ذلك، بقي أدلاء وبقي متسللون، وإن ارتفع السعر حتى صار دفعه تضحية حقيقية.

كنّا، في أسرتنا، ونحن الراغبون في الالتحاق بشطر الأسرة الذي لجأ إلى دمشق، نتابع الأنباء عن المتسللين باهتمام خاص، فنتفاءل حين نعلم أن أحدهم حقق مأربه، ونتشاءم

حين تشيع أنباء المآسي التي تعرض لها الآخرون. وكنّا نتلقى في الوقت ذاته أنباء المساعي التي يبذلها جدي عبد المجيد لاستقدامنا إلى دمشق بصورة شرعية، فيشيل أحد الأنباء تفاؤلنا إلى الأوج، وينحدر نبأ آخر بتشاؤمنا إلى القاع، ويزداد اهتمامنا بمسألة التسلل أو ينقص حسب الأحوال. وقد عرفنا أن الجدّ لم يسوّ العقبة مع السلطات السورية وإن كان من الممكن أن يذللها. أما العقبة التي لا تذلل فهي مع السلطات المصرية، حيث تعذر الحصول على إذن لنا باجتياز الأراضي المصرية في الطريق إلى سورية. ثم جاء وقت يئس فيه الجدّ نفسه من الحصول على إذن كهذا. وقد أدرك الجدّ ترددنا في المخاطرة بالتسلل وفهم دوافع هذا التردد، بل إنه كان يخشى هو نفسه ألا ينجح ابنه الفتى عمر في تنظيم العملية على نحو يضمن سلامتها. وقرر الجدّ أن يخاطر بنفسه، فيجيء إلينا متسللاً ليشرف على العملية.

توجه الجد إلى الأردن، ولكي يؤمن نفقات الرحلة، حمل التاجر القديم معه قنابيز وعباءات وعُقلاً وحطات، أخذها من مخازن معارفه من التجار في دمشق بأمل أن يتّجر بها في الضفة الغربية فيدفع لهم أثمانها بعد أن يعود. وحين وصل الجدّ إلى الضفة وتفقد أقرباءه المشتتين في أنحائها وعرض في الوقت ذاته بضاعته للبيع، اكتشف أن الجميع، أقرباء وغير أقرباء، عازفون عن الشراء وغير قادرين على دفع ثمن البضائع الجديدة. كما اكتشف الجدّ أن أعزّة القوم من أقربائه وأصدقائه الكثيرين صاروا أذلة، فلم يجد ما يواسيهم به سوى إهدائهم ما حمله من دمشق مفوضاً أمره إلى ربّه في مسألة سداد الديون. وفي الضفة، تلقى الجدّ تحذيرات متوالية من المخاطرة بالتسلل إلى غزة، إلا أنه، وهو المهرب العتيق، عزم على المخاطرة، واتفق بالفعل مع أحد الأدلاء، وانتظر حلول الليلة الملائمة كي يجيء إلينا. لكن ما وقع للجدّ لم يكن في الحسبان. فقد وصلت إلى سلطات الأمن الأردنية وشاية تقول إن عبد المجيد الحوراني، وهو من الأنصار المعروفين للهيئة العربية العليا لفلسطين ورئيسها الحاج أمين الحسيني، جاء إلى الضفة الغربية بتكليف من الهيئة التي كان مكتبها الرئيسي قد انتقل إلى دمشق، ليحرض الفلسطينيين على مقاومة ضمّ الضفة إلى المملكة الأردنية. واستند الواشون في تأكيدهم التهمة إلى واقعة أن الجدّ وزع الهدايا الكثيرة على الناس بالرغم من أنه هو نفسه ليس من الأغنياء. واعتقل الجدّ في الأردن، ثم انتهت الحكاية بإعادته عنوة إلى الحدود السورية.

أخبار الجدّ هذه نقلها إلينا الدليل الذي كان من المفروض أن يرافق الجد في رحلة التسلل. قال الدليل إن الجدّ دفع له أجرته مقدماً وبسخاء، وإنه، إكراماً منه لهذا الرجل الطيب الملهوف على أسرته، تجشم عناء البحث عنا حتى وجدنا. وعرض الرجل على الجدّة وخالي عمر أن يتولى مرافقتنا إذا رغبنا من جهتنا في التسلل إلى الضفة. كان

خالي عمر متحمساً للفكرة منذ البداية، أما الجدّة فهي التي تحسبت من العواقب وظلت تتحسب دون أن تحسم الأمر، فعدنا من جديد إلى التأرجح بين التفاؤل والتشاؤم.

في غضون ذلك، تابع الجدّ محاولاته السابقة بهمة أكبر هذه المرة. وقد سهل الأمر أن رجلاً من قادة الهيئة العربية العليا، وهو من مؤسسي حزب الاستقلال الفلسطيني، هو صبحي الخضراء، عينّ في سورية مديراً للمؤسسة العامة التي أنشئت للإشراف على شؤون اللاجئين الفلسطينيين. وقد وجه الرجل المتفهم الجدّ ليحصل على موافقة وزير الداخلية الذي تتبعه المؤسسة. فانصبت جهود الجدّ في هذا الاتجاه. وفي غمرة تلهفه على حلّ المعضلة، ابتلع الجدّ المهانة التي لحقت به على يد أقربائه المحاميد، فزار زعيماً آخر، غير الشيخ مزيد، من زعمائهم هو الشيخ مفلح، وكان هذا قد صار عضواً في مجلس النواب، وبتوسط هذا النائب، أعطى وزير الداخلية موافقته، بل أبدى تفهمه للهفة الجد. وتابع الجدّ محاولاته لتليين رفض السلطات المصرية، فوجه مزيداً من النداءات وعرائض الاسترحام. ولما عرف أن السلطات المصرية أفرجت عن الحاج أمين الحسيني بعد أن كانت قد اعتقلته إثر تشكيل حكومة عموم فلسطين في غزة ونقلته إلى القاهرة، راسل الجدّ زعيمه الأثير وطلب تدخله. وجاء الجواب أن الزعيم الفلسطيني المفرج عنه موضوع في القاهرة قيد الإقامة الجبرية في منزله، لكنه سيقوم بما يقدر عليه، وهو يدعو الجدّ إلى الصبر. والحقيقة أن الجدّ لم يحتج إلى صبر طويل بعد ذلك. فبطريقة ما، لعلها أن تكون الرشوة أو أي شيء آخر، تدبر الحاج أمين الحسيني الأمر، وصدر الإذن المطلوب، وهو يبيح لنا دخول الأراضي المصرية من رفح إلى العريش إلى بور سعيد ويعطينا مهلة ثلاثة أيام كاملة كي نتدبر أمر سفرنا إلى سورية في البحر.

ووصلت البشائر، كما وصلت الأذونات المكتوبة الممهورة بالأختام الحكومية وتواقيع الشخصيات المرموقة في دولتين عربيتين. وكنّا آنذاك مشرفين على إنهاء العام الدراسي، وقد ظفرت بشهادة الترفيع من الصف الرابع الابتدائي إلى الصف الخامس، ونلت لأول مرة في حياتي الدراسية الدرجة الأولى في صفي في الشعبة التي كنت فيها، ونال منافسي القديم عليها، ذلك الولد من المسمية الأخرى، الدرجة الأولى في الصف ذاته في شعبة أخرى.

وفي ضحى يوم ربيعيّ اشتد حرّه وتكاثفت الرطوبة في هوائه، توجهنا نحو محطّة غزة لنستقل القطار الذي سيحملنا إلى مصر. شلنا الصرر التي ضمت ما هو ضروري من حوائجنا، ولم تكن كثيرة. وصحبَنا حشد من الأقرباء والأصدقاء الذين أصرّوا على وداعنا في المحطة. ومشينا، جماعة تتماوج المشاعر المتباينة على وجه ناسها ويحيط بها

الصمت الذي لفّ الراحلين والمودعين فكان أبلغ من أي كلام. وكانت أمي، وهى تسير بجوار الجدة، تمسك بيدي، تارة، وتطلق نظرها في غير ما اتجاه، أو تشدني إليها، تارة أخرى، وتحيطني بذراعها، وتميل عليّ بين وقت وآخر لتقبلني، فيما تتلامح الدموع في عينيها النديتين، وكنت في غضون ذلك مشتت الأفكار، فمغامرة السفر الطويل الذي أنا مقدم عليه والذهاب إلى دمشق التي تملأ صورتها مخيلتي، والابتعاد عن هذا المحشر المحاط بالبؤس والمخاطر، والآفاق الرحبة المفتوحة لشتى التصورات، ذلك كله كان يزين لي الرحيل ويجتذبني إليه. بالرغم من ذلك، لم أكن سعيداً، ولا أظن أن أياً من أفراد جماعتنا الراحلة كان سعيداً. وكلّما شدتني الأم إليها أو مالت فقبلتني، كان شيء في داخلي يفيض فيطغى على تفكيري بمحاسن الرحيل، فأتمنى لو أن هذا الذي حدث فبدّل مصائرنا لم يحدث وأني بقيت بجوار أمي. لقد وثقت رحلة التشرد علاقتي بهذه الأم، فصرت أحسّ بأن لي، حقا، أماً، وها أنا على وشك أن أفارقها وأرحل إلى بلاد بعيدة. كان الإحساس بقسوة هذا الفراق يمضني، وبين التوق إلى آفاق المجهول التي على وشك أن تنفتح والانشداد إلى الحاضر الذي على وشك أن ينقضي، كان الطفل الممسك بيد أمه، وهو على وشك أن يفارقها، يسير بجانبها وهو يتمزق.

بلغنا المحطة أبكر بكثير من موعد انطلاق القطار، فاقتضى الأمر أن تطول الإحراجات والآلام التي تقترن بالوداع. ويقيناً أني كنت أتعجل المغادرة، لا لشيء إلا لأتحرر مما يمزقني. ثم وقعت المفاجأة التي فرّجت عليّ وعلينا جميعاً مما نحن فيه بعض الوقت. فقد أقبلت نحونا، ونحن على الرصيف، المرأة التي سبق أن عرفنا أنها موجودة في القطاع دون أن نلتقي بها: إنها وضحة الكبيرة، راعيتي الطيبة الأمينة في أيام إقامتي في دار جدي سلمان في المسمية الصغيرة. كانت هذه المرأة في زيارة لأهلها في السوافير الشرقية عندما احتلت قريتنا. وقد هاجرت مع أهلها عندما جاء دور قريتهم للهجرة، وتشردت معهم على دروب الشتات حتى انتهوا إلى القطاع. وكنا نبحث عنها وكانت هي تبحث عنا، دون أن يتيسر لنا الإلتقاء. فلما انتهى إلى سمعها أننا راحلون جاءت لتوديعنا، وها هي ذي تظهر، على غير توقع، في المحطة، فيقدر لنا أن نلتقي في اللحظة التي ينبغي أن نتوادع فيها. ما أعمق وفاء وضحة الكبيرة! لقد توجست هذه المرأة أن يكون لقاؤنا هذا الأخير، فجاءت لي بأمانة كان أبي قد استودعها إياها قبل موته وأوصاها بأن تسلمها لي حين أبلغ مبلغ الرجال، لم أكبر بعد إلى الحد الذي يوجب تسليم الأمانة، ولكنها تخشى أن لا تراني حين أبلغ هذا الحد، فهي تسلمني الأمانة منذ الآن. شرحت وضحة الكبيرة هذا الأمر وهي تتجلد كي لا تفيض الدموع التي تتلألا في عينها، وناولتني صرة محكمة الرباط. وكان في الصرة القمباز الحريري الذي فصّله أبي لنفسه من قطعة

القماش التي أهداها له من قيل إنه الملك فيصل الأول، وكذلك العباءة والعقال المقصب. أرتني المرأة هذا الذي تعدّه هي كنزاً وأوصتني بأن أصونه، ذكرى من آثار الأب، وبرهاناً على أن هذا الأب لم يكن قليل الشأن. وفي ذلك الموقف، باحت وضحة الكبيرة بسرّ حفظته طيلة الوقت. قالت المرأة إن أبي كان يملك ساعة وقلم حبر مذهباً، وقد أعارهما في آخر سنيّ حياته لقريب لنا غادر المسمية الصغيرة ليدرس في الأزهر، ثم توفي أبي وهذا القريب ما يزال في القاهرة، فلما عاد منها راجعته هي بشأن القلم والساعة وقالت له إنهما حق للابن. وقد طمأنها هذا القريب الذي أصبح رجلاً ذا شأن في القرية إلى أنه سيصون الأمانة ويسلمها لي عندما أصير قادراً على الانتفاع بها. ثم حثتني المرأة :"لا تنسَ ساعة أبيك وقلمه، اطلبها من الرجل، هو الآن في الضفة!".

ظلت أمي متماسكة إلى أن دعتنا صافرة القطار للالتحاق به. عندها، انفجرت الأم وتبعها الآخرون. ووسط مشهد الدموع وأصوات العويل المتفجرة على رصيف محطة غزة، توادعنا. وحدها، كانت الجدّة محتفظة بجلدها، وقد عانقت مودعيها بطقسيةٍ تكاد تكون مدروسة، ثم احتضنت ابنتها وقتاً طويلاً متيحة للابنة الحزينة أن تبكي على صدر أمّها. وبعد أن أتمت الجدّة كل ما ينبغي لوداع مهيب، صعدت إلى القطار مشيرة إلينا كي نتبعها على الفور. وعندما احتوتنا مقصورة الدرجة الثالثة في قطار المسافات الطويلة هذا، استحوذتُ على النافذة ورحت أرقب حشد المودعين الحزين، وركزت نظري على الأم التي كفت عن العويل وأخذت تبادلني نظرات تعجز أيّ لغة عن وصف مدلولاتها. وتحرك القطار ونظري موصول بنظر الأم، وابتعد، فابتعدنا أحدنا عن الآخر، وحلقة المودعين تصغر، وأمي نقطة في وسطها، وأنا مشدود إلى هذه النقطة، حتى غابت، وها أنذا أتيتم من جديد!

وبقيت مشدوداً إلى نافذة القطار، تتوالى أمامي المشاهد فأراقبها دون أن تستغرق انتباهي كلّه: القرى والبلدات والمخيمات التي نبتت هنا وهناك في أرجاء القطاع، والناس الذين نمر بهم، الجالسون أو الساعون، والذين يجتذبهم صوت القطار فيلقون نحوه نظرات مبهمة ثم يعودون لما هم فيه. وتكررت وقفات القطار، في دير البلح، ثم في خان يونس، ثم في رفح، ثم في العريش، وصعد إليه ركاب جدد أغلبهم من العسكر، وتوزعوا على العربات والمقاصير فزاد اكتظاظها وتزايد الضجيج المنبعث منها. وعندما غادر القطار محطة العريش، تبدلت المشاهد، إنها سيناء. ولم يعد أمامنا إلا هذه الصحراء المرملة وهذا البحر الأزرق بانبساطهما الرتيب، فلم يعد ثمة ما أراقبه، فهجعت على المقعد بين الجدّة وخالي عمر حتى وجدتني أغفو ورأسي مستند إلى كتف الخال، ثم أصحو، لأغفو من جديد.

وكان ثلاثة من الجنود المصريين قد انضموا إلى مقصورتنا في محطة العريش، دخلوا المقصورة صاخبين، فلما انتبهوا إلى أن فيها أسرة من المدنيين وليس جنوداً مثلهم، فقد ألزموا أنفسهم هدوءاً لا يتناسب مع مشاعرهم المتقدة، هم الذاهبون في إجازة تبعدهم عن جحيم الحياة العسكرية وتجمعهم بالأهل الذين طال شوقهم إليهم. وقد أخذ هؤلاء الجنود يتبادلون فيما بينهم عبارات هامسة فيما يوزعون أنظارهم علينا متهيبين، على ما يبدو، إزاء هذا الحزن الذي يسربلنا صغاراً وكباراً، ومتحرجين من مبادلتنا الحديث. وقد بقي الحال على هذا النحو إلى أن غفوت. فلّما صحوت، كان غالب قد كسر التحرج وابتدأ حديثاً مع هؤلاء الجنود، وأخذ يقصّ عليهم حكايتنا، لا كما هي في الواقع تماماً، بل كما شاءت لغالب رغبته في المباهاة وإعلاء شأننا في نظر هؤلاء الغرباء. وأنت تعرف أني كنت أستسيغ هذه المبالغة في موقف غير هذا، أما في ذلك القطار الذي يجتاز بنا عتبة إفريقيا الصحراوية ومع هؤلاء الغرباء بزيهم العسكري وإزاء النبرة التي يصطنعها غالب مقلداً حديث الكبار ذوي الشأن، فقد أحسست بالنفور الشديد، ورميت غالب بنظرة لائمة، التقطها هو دون شك، لكنه تجاهلها تماماً، وأمعن في المبالغة، وكان وقتها يجيب عن سؤال من أحد الجنود حول هدف رحلتنا إلى مصر، فأخذ يصور لهم أننا بصدد التفرج على البلد العظيم مصر، قبل أن نلتحق بأهلنا في سورية، حيث يملك أبوه متجراً كبيراً فيها ويعمل أخوه مديراً لإحدى مدارسها.

وبين استسلامي للإغفاءات المتعاقبة وضيقي بكذبات غالب المتلاحقة، انقضت الرحلة الرتيبة ووصلنا إلى مدينة القنطرة على قناة السويس.

كان الليل قد حلّ. وكان علينا أن نعبر قناة السويس إلى الطرف الثاني من القنطرة، كي نأخذ قطاراً آخر يوصلنا إلى بور سعيد. وفي المحطة التي هبطنا فيها، والتي بهرتني أرجاؤها الفسيحة وأضواؤها الكهربائية الطاغية، لم يتواجد في ذلك الوقت المتأخر إلا عدد قليل من الموظفين. وقد نشأت حول أوراقنا مشكلة لم أدرِ كنهها، تعذر حلّها مع الموظفين المناوبين في الليل، فتوجب أن ننتظر إلى صباح اليوم التالي حتى يجيء المسؤول القادر على البت في المشكلة. وهكذا، أمضينا ليلتنا الأولى في مصر في بهو المحطة، وكانت طويلة ومملة تلك الليلة التي جافاني فيها النوم، فيما هجع الآخرون على المقاعد الخشبية بجانب الصرر التي جعلوا منها وسائد أسندوا رؤوسهم إليها وناموا. وفي الصباح، عندما جاء المسؤول المعنيّ، توجب علينا أن ننتظر فترة أخرى إلى أن حلّ دورنا لملاقاته. ومضى الوقت ثقيلاً بالنسبة لي أنا الذي بقيت بلا نوم ولا طعام حتى الظهر حين أنهى خالي عمر تجواله بين الموظفين وأذن لنا بالتحرك.

حملتنا إلى الضفة الأخرى من القناة العريضة عبّارة هائلة الحجم، احتشد فوقها جمع كبير من الناس والدواب والعربات. تهادت العبارة ببطء لذيذ فوق صفحة الماء. وكانت تلك هي سفرتي الأولى فوق مركب عائم، وكنت مدهوشاً، وتمنيت بالرغم من كلالي أن يدوم العوم دون توقف. ولكن الرحلة بين شاطئي القناة لم تستغرق سوى دقائق، انفتحت بعدها بوّابة العبّارة وامتدّ منها جسر خشبي سرنا عليه، فأسلمنا إلى الطرف الآخر من مدينة القنطرة. ومع حلول المساء، أوصلنا القطار إلى بور سعيد. هنا، كما في غزة، كان في الشوارع جنود كثيرون، وكانوا يسيرون في جماعات متميزة لا تختلط بالمدنيين. غير أن سحن الجنود في بور سعيد، وكذلك أزياؤهم، ومثلها رطانتهم، اختلفت عن ما ألفناه. فقد كانت ملابسهم أنيقة إلى حدّ يستوقف النظر، وكانت ملامحهم تدل على أنهم غرباء، ولم يكن فيها ذلك الملمح الواضح الذي يصنعه سوء التغذية المزمن. وأوضح خالي عمر: "إنهم الإنجليز، يحتلّون قناة السويس"، ثم أضاف هامساً، دون حاجة للهمس: "الأفضل أن نتجنبهم". وقد أدهشني هذا التوجيه من الخال، فأنا لم أفكر حتى في الاقتراب من هؤلاء الغرباء.

لم تكن لجماعتنا أيّ خبرة في الإقامة في المدن الغريبة، ولم يعرف أي منا ما الذي ينبغي عمله للحصول على فندق مناسب. وقد وقفنا في المحطة حائرين إلى أن تقدم منا رجل بدأ بسؤالنا عن ما إذا كنّا نبحث عن فندق، فأدهشتنا معرفته بحاجتنا، ولكنّا وجدنا فيه المنقذ من الحيرة، فكتمنا الدهشة، وأسلمنا أنفسنا لقيادته. كانت الجدّة تعرف أن الفنادق غالية السعر والإقامة فيها مرتفعة التكاليف، ولكن الخجل منع أياً منّا من الإفصاح عن حاجتنا لفندق رخيص، فقادنا المنقذ على هواه، وأخذنا إلى فندق قريب من الميناء بعد أن عرف أننا نعتزم مواصلة السفر في البحر. وقد بدا لنا هذا الفندق شديد الفخامة، حتى لقد ترددنا في قبول الإقامة فيه، ولولا التعب الذي أوهن قدرتنا على الحركة لانصرفنا عنه. ومن جانبه، أظهر صاحب الفندق، وقد عاين هيئاتنا ولاحظ ترددنا، شكّه الصريح في قدرتنا على الدفع، فطلب أن ندفع مقدماً أجرة الليالي الثلاث التي عرف أننا سنمضيها في فندقه.

طلبت الجدّة حجرة واحدة لخمسة أشخاص. وفهمت الجدّة من جواب صاحب الفندق أن فندقه لا يضم حجرة فيها خمسة أسرّة، فكان جوابها أن الأسرّة غير ضرورية فنحن ننام على الأرض. وأحنق جواب الجدّة الرجل الذي قبلنا على مضض، فقال هذا بنبرة غاضبة إن هذا لا يتم في فندقه المحترم. وفي نهاية الجدل الذي عقّده الاختلاف البينّ بين اللهجات، رضخنا لعرض الرجل، فضمتنا حجرتان متجاورتان، في كل منهما سريران، وقد ترتب عليّ أن أنام مع غالب في سرير واحد.

سأدرك فيما بعد كم كانت "لوكندة بور سعيد الجديدة" التي حللنا فيها متواضعة. أما في ذلك الوقت فقد تهيأ لي أننا نحلّ في قصر مهيب: الحجرات الفسيحة الكثيرة والممرات التي يتوه فيها السائر الغريب، والطوابق التي يعلو بعضها بعضاً، والصور والزينات الأخرى المعلقة على الجدران داخل الحجرات وخارجها، وهذه الأسرّة ذات الحوامل الحديدية المتوجة بطرر النحاس اللامعة، والأغطية الملونة والوسائد والفرش التي تغوص فيها الرؤوس والأجساد، والبلاط اللامع، ومصابيح الكهرباء الموزعة في كل ناحية، كل هذه كانت بالنسبة لي من العجائب. أما عجيبة العجائب فتمثلت في الحمام الذي يتوسط الحجرتين والمرحاض الرخامي الذي ينتصب انتصاباً في وسطه والصنابير العديدة التي توصل إليك الماء بغير عناء وأنت فيه.

لقد خشيت استخدام الحمام، فلما غلبتني الحاجة دخلته متهيباً، واستنجدت بفطنتي فاهتديت إلى أن أجلس فوق المرحاض القائم في وسطه وأقضي حاجتي فيه. وكان هذا هو كل ما استطعت أن أهتدي إليه باجتهادي الخاص. أما كيف أنظف نفسي بعد ذلك فقد أعوزتني الفطنة، فلم أهتد للوسيلة الملائمة، فلملمت ملابسي وذهبت إلى الجدة على استحياء، وشكوت لها حالي واستعانت الجدة على كره مني بخالي عمر الذي يبدو أنه رأى شيئاً كهذا من قبل، أو سبق له أن استفهم عن الأمر من خادم الفندق. فأخذني الخال إلى الحمام ودلني على الشطافة وشرح لي كيف تعمل. لم أفهم الشرح على نحو صحيح، وظننت أنها مجرد صنبور أدير مقبضه فيسيل الماء فأتصرف به، وهذا ما فعلته بعد أن خرج الخال، ولم يسل الماء سيلاً بل انبثق بقوة واندفع ناحية السقف ثم ارتد رذاذاً بلّلني كلّي وغمر أرض الحمام. أذهلتني المفاجأة وتوهمت أني ارتكبت خطأ خرّب الشطافة العزيزة، فهربت.

كانت الفضيحة صغيرة، إلا أن حساسيتي المفرطة ضخّمتها وأسلمتني إلى الخجل من مواجهة شغيلة الفندق ونزلائه طيلة إقامتنا فيه. وقد علمتني هذه التجربة المبكرة درساً ما أزال أتبعه إلى اليوم. وكلّما حللت بفندق، أبدأ بالتمعن في أدوات الحمام الحديثة، وأسأل عن طرق استخدامها حين لا أعرفها.

-٢٦-

البحر والميناء،ثم الجبل، والهدف دمشق

توجه خالي عمر منذ الصباح إلى الميناء ليتدبر أمر السفينة التي ستنقلنا إلى سورية، وبقينا نحن في الفندق في انتظاره متكومين حول الجدة، لأننا لا نعرف ما الذي يمكن أن نفعله غير ذلك. فلما عاد الخال في الظهيرة، كانت نتائج مسعاه مرسومة على وجهه،فقد حمل هذا الوجه من الأسى ما يكفي لإشاعة الحزن في قبيلة بأسرها.

جال الخال بين وكلاء السفر في الميناء. وكان أول ما عرفه الخال أن السفن التي تغادر بور سعيد أو تمر بمينائها لا يتجه أي منها إلى سورية. وفي لهفته للبحث عن حل بديل، فهم الخال أن بالإمكان التوجه من بور سعيد إلى بيروت، حيث يمكن إكمال الرحلة من هناك إلى دمشق بالسيارة. وحين أراد الملهوف أن يحجز مقاعدنا على السفينة المتجهة لبيروت، رفض الوكيل، لأننا لا نحمل تأشيرات دخول إلى لبنان. ولكي نحصل على تأشيرات كهذه، إن أمكن حقاً الحصول عليها، كان لا بد من أن نذهب إلى القاهرة لنطلبها من القنصلية اللبنانية، مع تأكيد الوكيل أنهم هناك لا يعطون تأشيرات للفلسطينيين. قد خطر للخال أن يجازف بالسفر إلى القاهرة، فاصطدم بحقيقة أن تأشيراتنا المصرية لا تبيح له السفر إليها، بل تحدد خط عبورنا بمصر بين العريش وبور سعيد، فقط، وليس من المستبعد، إذن، أن يتعرض الخال للاعتقال في واحدة من نقاط التفتيش المنتشرة بين بور سعيد والقاهرة، خصوصاً لأن السلطات في مصر لا ترحب بالفلسطينيين.

وهكذا، انتصبت أمامنا مشكلة بحجم جبل شاهق الارتفاع مقفل المسالك. فالسفر من بور سعيد متعذر، والبقاء فيها بانتظار مكاتبة الجد ليتدبر أمر دخولنا إلى لبنان متعذر هو الآخر، لأن التأشيرة المصرية أعطتنا ثلاثة أيام فقط .أما العودة من بور سعيد إلى غزة فمتعذرة، أيضاً، إذ إنها تتطلب الحصول على تأشيرة عودة، ونحن لم نحصل عليها حين غادرنا، ولا يمكن الحصول عليها إلا بعد مراجعة المخابرات الحربية ومكتب الحاكم العسكري للقطاع، وكلاهما في القاهرة. وكان قد بقي أمامنا يوم واحد أو يومان، ليس غير، لنتدبر حلاً يخرجنا من هذا القفص الكاتم للأنفاس، وقد أمضينا هذا اليوم في كمد لا يوصف دون أن نهتدي، بالطبع، إلى أي حل.

في صباح يومنا الثالث في الفندق، وكنا نجلس حول الجدة حزانى، لا يعرف أي منا ما الذي سيحمله اليوم الجديد، اقتحم صاحب الفندق الحجرة محنقاً، وأبدى دهشته لأننا لم نغادر منذ الأمس مع أن تأشيرة إقامتنا انتهت صلاحيتها. وقد همّ خالي عمر بأن يقول شيئا، إلا أن الجدة سبقته وهي تخترق الرجل بنظراتها الغاضبة: "أليس في قلبك شفقة؟ أين نذهب؟!". وحين أبدى الرجل استعداده للاستماع، شرح له خالي عمر معضلتنا. ولم يكن الرجل، كما اتضح لنا، خالي القلب تماماً من الشفقة، فقد انصرف، بعد أن فوض أمره وأمرنا إلى الله. وتوهمنا أننا كسبنا وقتاً وكان الخال يحاول أن يتدبر الأمر بالرشوة، وكان قد تلقى وعوداً غامضة لكنه لا يعول عليها. وكانت الجدة قد أظهرت الاستعداد لدفع أي مبلغ يطلبه من يحل المشكلة، حتى لو اضطرت لبيع حلية من حليّها العزيزة. غير أن وهمنا لم يلبث أن تبدد بقسوة، فقد ظهر بعد قليل رجلا بوليس أبلغا إلينا أن علينا أن نغادر البلد. وحين تساءلنا:إلى أين؟ وكيف؟ قال كبير الرجلين:" هذا شغلكم، أما شغلنا فهو ألا تبقوا في البلد".عندها، أعلنت الجدة بذلك الحزم الذي لا يقدر عليه إلا اليائس أننا لن نتحرك من مكاننا إلا إذا أمنوا هم سفرنا ولو إلى جهنم الحمراء. وبعد هذين الرجلين، جاء ضابط، وجاء غيره، وصرنا حكاية انشغل بها البوليس ونزلاء الفندق ووكلاء السفر في الميناء. وفي النهاية، فرضت السلطة حلها: أخذنا البوليس عنوة إلى الميناء، وهناك ختمت وثائق سفرنا على عجل، ثم ألقوا بنا على رصيف في المنطقة الحرة، وقالوا: "الآن،تدبروا أمركم!".

انتقلت حكايتنا معنا إلى الرصيف الحُرّ هذا. وهناك، أمضينا أياماً وليالي لا أتذكر عددها. لم يكن ثمة سقف يؤوينا تحته، فأقمنا في العراء. ولم يكن ثمة مكان نشتري منه الطعام، فأكلنا مما جاد به المشفقون علينا من العابرين وبحارة المراكب. وأسعفتنا الألواح الخشبية المرمية هنا وهناك على الرصيف فافترشناها في أوقات النوم كما أسعفنا دفء الطقس فلم نحتج إلى الأغطية. وصار لنا بين البحارة،وخصوصاً بحارة المراكب

الصغيرة، معارف بل أصدقاء يهتمون بأمرنا. يذهب هؤلاء في رحلاتهم القصيرة ويعودون فيجدوننا حيث تركونا. ويجود علينا هؤلاء بشيء مما يحملونه وهم ذاهبون أو مما يفرغونه وهم عائدون.

في هذه الظروف، يغيض الإحساس بتمايز الأشياء والأوقات، فتتساوى جميعها، وتتسطح المشاعر، فلا يعرف المرء إن كان سعيداً أو تعيساً، ولا يهتم إن كان المحيطون به أخياراً أو أشراراً، ولا يتبين القسوة من اللطف، ولا العطف من السخرية، يفقد المرء الأمل واليأس معاً وتستوي أمامه المصائر، فلا يهمه إلى أين سينتهي.

وكنا قد وصلنا إلى حالة فقدان الوزن هذه ففقدنا الاهتمام بالمصير، حين جاء من أعادنا إلى أصل الحكاية وأعاد لنا الأمل بالعودة إلى عالم الناس الأسوياء.

صاحب مركب صغير، كان بحارته يشحنونه بصناديق المانجو ونحن نراقبهم، أقبل علينا متئداً، وجلب صندوقاً فارغاً وضعه قبالتنا وجلس عليه. ألقى الرجل السلام بنبرة محايدة، وطرح الأسئلة المعتادة عن الصحة والمزاج، ثم أخرج من جيبه غليوناً ضخماً وحشاه بالتبغ وهو يتابع نظراتنا التي تتابع حركته. ومع أول الأنفاس، راح الرجل يتحدث عن الطقس حديثاً كادت رتابته تقلقنا. وبالرغم من أن نظرتنا كانت تشي باستغرابنا لمسلكه، فقد تجاهل الرجل دهشتنا فكأنه ليس هو المعني بها. ومن الطقس،انتقل الرجل للسؤال عن أحوالنا، وجه أسئلته بالنبرة المحايدة ذاتها فكأن ليس في أحوالنا ما هو شاذ، وأفرط الرجل في طرح الأسئلة واستقصاء التفاصيل دون أن يبدو عليه أنه يخرج عن إطار المجاملات التي يزجيها لناس غرباء رجل عازم على إمضاء الوقت إلى أن يفرغ بحارته من شحن المركب. ثم نهض الرجل بالحركة الوئيدة التي جلس بها، وظننا أنه فرغ منا، لكنه قال فجأة دون أن تظهر نبرته أنه يعرض أمراً غير عادي:" ستسافرون، الناس لبعضها، فلا تقلقوا!".

كم كان طيباً الريّس عثمان هذا. لقد جاء إلى الميناء ليهيئ للسفر مركبه الذي ينقل الفواكه بين بور سعيد وبيروت. وسمع الرجل بحكايتنا، وشاء أن يتيقن بنفسه من جدية حاجتنا للسفر قبل أن يغامر بنقلنا دون تأشيرة، فجاء يطرح الأسئلة ليستخلص الجواب. واختلى الريّس عثمان بخالي عمر خلوة قصيرة تم خلالها ترتيب الأمر: سينقلنا الرجل على ظهر مركبه إلى بيروت دون مقابل، وهناك نغادر المركب لحظة وصوله قبل أن يفطن رجال الأمن، وعلينا بعد ذلك أن نتدبر أمرنا مع السلطات، وكانت نصيحة الرجل: مفتاح التدبير رشوة كبيرة.

ضحى ذلك اليوم، حين انطلق بنا مركب الريّس عثمان، كانت نفوسنا قد غدت أطرى من النسائم التي تتماوج في الجو وتليّن حرارة شمس حزيران/ يونيو الساطعة. حتى الجدة، أشرق وجهها ببهجة طغت على الكمد الذي كسا هذا الوجه طيلة الأيام الماضية فتألق بمظاهر عافية لم أشهدها فيه منذ غادرنا المسمية. وغالب نفسه تأثر باللفتة المفرطة في الكرم، فاستنفر عربيته الفصيحة التي يلجأ إليها في الحالات غير العادية، ووجه للريّس عثمان عبارات شكر منمقة، ثم راح يطوف بين البحارة ويحكي لهم عن مكارم الأسرة التي ننتمي إليها ويعدد أمجادها. وأنعش الفرج الذي تيسر لنا مزاج خالتي شفيقة، فأطلقت لسانها بالثناء على شهامة الريّس عثمان وطيبة بحارته، فعلت ذلك بصوت مرتفع متعمدة أن يسمعه الجميع، وحين تيقنت من أنهم يستمعون إليها وجهت أنظارها ناحية البحارة بالتتابع، ورفعت إلى السماء دعوات حارة طالبة من الرب أن يغمر هؤلاء الناس الطيبين بأفضاله وأن يجنبهم أي مكروه. ولم يجد خالي عمر المتأثر بما حصل أكثر منا جميعاً ما يقوله سوى أن يحمد الرب، وأن يكرر الحمد، ويطلب منا أن نحمده، أيضاً.

وعندما انفلت المركب من حشد السفن والمراكب الأخرى المكتظة في مياه الميناء وصارت بور سعيد وقناة السويس خلفنا، انعطف ناحية اليمين واتخذ مساره المستقيم في عرض البحر. هنا، تحلق البحارة على ظهر المركب حيث نجلس نحن في زاوية من زواياه ليتناولوا غداءهم. وقبل أن يشرعوا في الأكل، حمل واحد منهم إلينا طعاماً وفيراً، لحماً وخضاراً ومخللات وفاكهة، فكانت وجبة لم نظفر بمثلها منذ شهر رمضاننا الأخير في المسمية. فأكلنا كما يأكل من طال بهم أمد الجوع، وأفرطنا في الأكل حتى أتخمنا بطوننا. وراق مزاج الجدة، فراحت تدندن بأغنية عن السفر. كانت الأغنية حزينة، تحمل معانيها لوعة البعد عن الوطن وتوق الغريب للعودة إليه. ولكن، أن ينحل تزمّت الجدة فتغني، حتى لو كان الغناء عن لوعة الفراق، فهذا إشارة طيبة. وقد كان اللحن على كل حال جميلاً، فسرى في روحي وهدّأ نفسي المتوترة، فاستسلمت للنوم ورأسي في حجر الجدة.

لم أدرِ كم طالت إغفاءتي، ولكن قرص الشمس كان ما يزال مرتفعاً حين صحوت. أيقظتني مغصة مؤلمة لوت أحشائي، وتطلعت فلم أجد أحداً في المطرح الذي أضطجع فيه، فأقمت ظهري وتلفتّ حولي باحثاً عن الآخرين، محاولاً أن أستعيد صلتي التامة بالمشهد الذي أنا فيه. ودهمتني مغصة أخرى، فنهضت واقفاً على وقع الألم. عندها، لمحت خالي عمر واقفاً إزاء الزاوية المقابلة، مولياً وجهه ناحية الماء ومدلياً رأسه باتجاهه، وجسده يهتز في حركة توحي بأن الخال يقذف ما في جوفه. وبين موجتين من الاهتزاز، التفت الخال ناحيتي، و أشار إلى معدته. ودهمتني الرغبة ذاتها على نحو مفاجئ. وقد امتلأ فمي بالقيء قبل أن أبلغ الحاجز.

هاجمنا دَوّار البحر، نحن الخمسة. وساءت حالتنا، بعد ساعات، فقط، من إقلاع المركب. لقد ظهرت الأعراض أول ما ظهرت على الجدة وأنا نائم في حجرها، فاهتم الريّس عثمان بأمرها اهتماماً كبيراً. وإذ لم يكن في المركب من الحجرات إلا قمرة الريّس والحجرة الأخرى التي يستخدمها البحارة ويحشدون فيها حاجاتهم الخاصة، فقد تخلى الريّس عن قمرته للجدة وأمر بنقلها إليها. ثم توالى ظهور الأعراض على الآخرين، فكنت، أنا النائم، آخر من ظهرت عليه أعراض الإصابة. وهكذا، انضممنا إلى القمرة الواحد تلو الآخر. وجاءنا البحارة بما ننام عليه، وتناوبوا الإطلال علينا وتفقد أحوالنا وتأمين حاجاتنا. كان الأمر بالنسبة لنا شنيعاً، فقد تناوشتنا الرغبة في القيء طيلة النهار والنهار الذي تلاه وعلى مدى ليلتين. وكنت أرى كل شيء حولي يدور، أو أحسني دائراً حول كل شيء كأني معلق على أجنحة مروحة لا تكف عن الحركة. وكلما تناولت سائلاً أو طعاماً، عافته معدتي فقذفته على الفور. وفي جو القمرة، كان الأمر مريعاً، فقد امتلأت خياشيمي برائحة المانجو النفاذة، فعفتها وتمنيت أن أتخلص منها، إلا أنها ظلت تحاصرني. وتهيأ لي أن ضيقي بهذه الرائحة هو الذي يسلمني إلى الدوار ويدفعني إلى التقيؤ، فتفاقم إحساسي بالضيق وأنا أدرك أن لا مجال للفكاك من المانجو في هذا المركب المعبأ بها. وهكذا، صار صحوُنا آلاماً ومنغصات وليلنا كوابيس مزعجة، على مدى نهارين وليلتين.

وفي صباح يومنا الثالث على المركب، صحونا معافين تماماً كأن شيئاً لم يكن، بل كأن الآلام التي مضت ليست سوى وهم. وجاءنا البحارة الطيبون بفطور مهيب: شاي كثير وأجبان وزيتون وعصير مانجو طازجة. وأقبلت على الوجبة بنهم، وملأت معدتي من كل شيء، إلا من هذا العصير من المانجو الذي لم أطق رائحته فلم أجرؤ على الاقتراب منه. وجاء الريّس عثمان بغليونه الداخن، فحيانا بمودته الهادئة، وهنأنا بالسلامة، وأبلغ إلينا أننا نعوم الآن بالقرب من الشاطئ اللبناني، ولن يطول الوقت حتى نبلغ بيروت. ونصحنا الرجل بأن نصعد إلى ظهر المركب:" الهواء الطازج ينفعكم، وستتفرجون". كان الريّس، وقد أشرفت الرحلة على نهايتها، بحاجة إلى قمرته، فحملنا صررنا وانتقلنا إلى فضاء السطح.

رأينا على يميننا بلدة قال أحد البحارة إنها صور، فهتف خالي عمر:"لعنة الله على المرض، فاتنا أن نرى الساحل الفلسطيني". لقد عُمْنا طيلة اليومين الماضيين في موازاة من هذا الساحل دون أن نلمحه، وها نحن نعوم بحذاء صور، ثم صيدا، ونتجه إلى بيروت، ونلمح القرى المنتشرة على الساحل أو المعلقة على سفوح المرتفعات وهاماتها، فلا نحس بأكثر مما يحس به العابر الذي يشده الحنين إلى ما خلّفه وراءه، ولا يجتذبه ما يحيط به.

ثم أقبلنا على ميناء بيروت، وتهاوى المركب على صفحة الخليج، وشق طريقه بين المراكب العائمة فيه، إلى أن رسا بجانب الرصيف. هنا، بدأت مشكلتنا بأسرع مما توقع الريّس عثمان. فقد كان ثلاثة من رجال البوليس اللبناني، ضابط وعسكريان، في الانتظار على الرصيف. وقد صعد الضابط إلى المركب على الفور. وكان الضابط يتبادل تحيات مرحة مع الريّس عثمان وبحارته حين وقع نظره علينا متكومين بجانب صررنا ومتهيبين من ظهوره المفاجئ على المركب. أوقف الضابط دفق مجاملاته، وتساءل وهو يشير ناحيتنا: "هذه ليست مانجو، من هؤلاء؟"، فأجاب الريّس عثمان مراوغاً: " معارف، جئنا بهم إلى بلدكم الجميل، أحبّوا أن يتفرجوا على البلد، وسيذهبون إلى سورية".

قال الريّس عثمان عباراته، ثم حاول أن يشغل ضابط البوليس بالحديث عن شؤون المركب. غير أن الضابط الذي لم ير في هيئاتنا أي شيء يدل على أننا طلاب فرجة لم يؤخذ بحيلة الريّس، بل تقدم نحونا وبدأ بتوجيه الأسئلة دون أن يحيينا.

حزر الضابط للتو أننا فلسطينيون مهاجرون، وقد تهيأ له أن مركب الريّس عثمان توقف في غزة، والتقطنا من هناك. واتضح خلال الجدل الذي اشترك فيه الريّس عثمان أن مراكب كثيرة تجيء إلى لبنان حاملة فلسطينيين من قطاع غزة يقولون إنهم جاءوا للالتحاق بأسرهم في لبنان أو سورية. وقال الضابط إزاء رجاء الريّس له بتسهيل الأمر إن هذا صعب، لأن لديه تعليمات مشددة بهذا الشأن. وتبين أن وجود دورية البوليس غير المتوقع على هذا الرصيف له علاقة بتنفيذ هذه التعليمات التي تستهدف منع تسلل المهاجرين إلى لبنان. فلما أوضح الريّس عثمان أننا لا ننوي الإقامة في البلد وأننا سننتقل فوراً إلى سورية، أجاب الضابط: " كلهم يقولون هذا عندما يصلون". وبدا من تشدد الضابط أننا في ورطة لا مخرج منها. بل إن هذا الضابط نفسه قال بعبارة صريحة :"ستبقون في المركب تحت الحراسة، وتعودون فيه إلى حيث يعود". وشفع الضابط قوله بإشارة منه إلى رجلي البوليس فصعدا إلى المركب ليقوما بمراقبتنا. هنا، أجهشت خالتي شفيقة بالبكاء، ولكزت الجدة ابنها عمر ليقول شيئاً للضابط، غير أن الخال همس بهذا الشيء في أذن الريّس، فهز هذا رأسه و أشار إلينا حاثاً إيانا على الصبر. انتحى الريّس عثمان بالضابط جانباً وتهامس الاثنان فترة، ونحن نرقبهما، دون أن يصل حديثهما إلينا وإن ظهر أن الحديث شائك. ثم رجع الضابط إلينا بوجه خفّت صرامة قسماته، وبدأ يستنطقنا من جديد. ودارت الأسئلة هذه المرة عن الديانة والأسماء والأعمار وأسماء الأقارب الموجودين في سورية وأين يسكنون وبأي وسيلة سننتقل إليهم ومتى، وما شابه من هذه الأمور. أجاب خالي عمر عن الأسئلة بالتفصيل، وسجل الضابط الإجابات. وفي غضون ذلك، انفرد الريّس عثمان بالجدة وقال لها شيئاً، ولما دنوت منهما كانت الجدة تفكّ الصرة العزيزة التي تدخر فيها ليراتها الذهبية.

تلقى الضابط ليرات الجدة التي ناوله إياها الريّس عثمان. وضعها في جيبه بحركة خاطفة، ثم قال بعد أن عدها بأصابعه وهي في الجيب موجهاً الكلام للريس: "لا تظن أنها لي وحدي، هناك كثيرون لا بد من إغماض عيونهم". ولانت نبرة الضابط وهو يقول لنا: "ابقوا هنا حتى أرجع إليكم. سأبذل جهدي أصعب ما في الأمر هو ديانتكم".

نهار عسير آخر أمضيناه في انتظار أن تفلح مساعي الضابط مع رؤسائه. ظل هذا الضابط يسعى بيننا في المركب وبين الرؤساء في مكاتبهم، طيلة ساعات. وتوجب على الجدة أن تفكّ صرتها مرة أخرى. كما توجب على الريّس عثمان أن يصحب الضابط ليضيف حنكته إلى تأثير الليرات. وفي نهاية مطاف استنفدت خلاله أعصابنا ونضبت ليرات الجدة، أمكن تدبير الأمر. وقد وافق الرؤساء على أن تنقلنا سيارة أجرة من رصيف الميناء مباشرة إلى سورية، شريطة أن نستأجر السيارة بمعرفة البوليس، وأن يرافقنا إلى الحدود رجل بوليس ندفع له أجرة عودته إلى بيروت، وأن لا تتوقف هذه السيارة في أي مكان في لبنان.

وهكذا، قدر لي أن أركب التاكسي للمرة الثانية في حياتي. ولكم اختلفت هذه المرة عن تلك التي في القدس، فلا فرح في هذه المرة ولا رغبات. تسللنا إلى التاكسي محاذرين أن تلتقي نظراتنا بنظرات المحيطين بنا وهم لا يخفون دهشتهم إزاء التناقض بين السيارة الفخمة وركابها الحفاة وصررهم البائسة. وبوجود رجل البوليس معنا، لم نجرؤ حتى على تبادل الكلام في ما بيننا. وسارت بنا السيارة على أطراف بيروت، فلم نرَ المدينة، ولا كانت بنا رغبة لرؤيتها. ثم ابتدأ التصعيد في درب الجبل المتلوي، وتتالت القرى وصولاً إلى قمة الجبل. وتلا ذلك الهبوط باتجاه السهل الممتد على الناحية الأخرى. هنا، قال رجل البوليس موجهاً خطابه إلينا لأول مرة منذ ابتداء الرحلة: "الحدود قريبة". ولم تطل وقفتنا عند الحدود، فقد تولى الرجل بنفسه إنهاء المعاملات اللازمة فيما بقينا بانتظاره في السيارة، ثم عاد بالأوراق، وقبض أجرته، وفارقنا بغير وداع. وعلى الحدود السورية، لم تكن هناك مشكلة حقيقية، كل ما في الأمر أننا انتظرنا وقتاً طويلاً إلى أن تمكنوا من الاتصال بدمشق والتأكد من أن إذن الدخول الذي نحمله ما يزال صالحاً. وبعد الكثير الذي عانيناه، لم نجد في هذا الانتظار ما يدعو إلى التذمر. وحده السائق كان برماً، لكنه انتظر مثلنا. وكانت هجعة الليل تفرد هيبتها حين دخلنا دمشق.

لم يكن معنا عنوان. ولم نعرف أن العنوان ضروري للاهتداء إلى الدار التي يسكنها الجد.

كان كل ما فينا من طاقات قد استنفد، فلم تبق لنا قدرة على الفرح أو الحزن أو حتى القلق. خلّفنا وراءنا حياة تعددت فيها الألوان وتنوعت المشاعر. وها نحن نُقبل على عالم جديد، لا نتبين ألوانه ولا نتعرف على مشاعرنا إزاءه. إنها خانة الصفر، أو هي دون الصفر.

صدر للمؤلف

- **روايات**

١. المحاصرون، ١٩٧٣.

٢. بير الشوم، ١٩٧٩.

٣. سمك اللجة، ١٩٨٢.

- **دراسات**

١. الفكر السياسي الفلسطيني ١٩٦٤-١٩٧٤.

٢. العمل العربي المشترك وإسرائيل، الرفض والقبول: ١٩٤٤-١٩٦٨.

٣. جذور الرفض الفلسطيني ١٩١٨-١٩٤٨.

- **شهادات**

١. دروب المنفى١، الوطن في الذاكرة.

٢. دروب المنفى٢، الصعود إلى الصفر.

٣. دروب المنفى ٣، زمن الأسئلة.

٤. دروب المنفى ٤، الجري إلى الهزيمة.

٥. دروب المنفى ٥، أين بقية الحكاية؟

٦. الحنين، حكاية عودة.

منشـــورات شـــمل

سلسلة الدراسات بالعربية

العدد رقم ٣
الفلسطينيون في سورية الواقع الديمغرافي والاقتصادي والاجتماعي.
نبيل السهلي، ١٩٩٦

العدد رقم ٥
الفلسطينيون في مصر وشمال سيناء.
عبد القادر ياسين، ساري حنفي، اوليفييه سانمارتن، ١٩٩٦

العدد رقم ٧
اللاجئـون الفلسـطينيون في العــراق.
لبيب قدسية، ١٩٩٧

العدد رقم ٨
قرارات جامعة الدول العربية الخاصة بإقامة الفلسطينيـين في الدول العربية.
عباس شبلاق، ١٩٩٧

العدد رقم ١٠
مراكز المرأة في المخيمات الفلسطينية ومشكلات العمل المجتمعي.
سميح شبيب، ١٩٩٩

العدد رقم ١٢
الاوضاع الاجتماعية والديمغرافية للاجئين في مخيمات الضفة الغربيـة.
أنور حمام، ١٩٩٩

العدد رقم ١٣
لاجئو الداخل.
محمود سعيد، ١٩٩٩

العدد رقم ١٤
أوضاع اللاجئين الفلسطينيين في لبنان.
سمير الزبن، ٢٠٠٠

العدد رقم ١٥
اللاجئون الفلسطينيون في لبنان إلى متى
نصري صالح حجاج، ٢٠٠٠

العدد رقم ١٦
العرب في اسرائيل
عبد الرحمن عبد الغني، انطوان شلحت، محمد ميعاري، ٢٠٠٠

سلسلة الدراسات (بالانجليزية)

Monographs

No.1

Civil and Citizenship Rights of Palestinian Refugees "&" Palestine Refugees at the Crossroad of 1996 Permanent Status Negotiations.

Abbas Shiblak & Uri Davis, 1995

No.2

"Israeli Plans to Resettle the Palestinian Refugees 1948 -1972"

Nur Masalha,1996

No.4

"The League of Arab States and Palestinian Refugees' Residency Rights"

"Israeli Resettlement Schemes for Palestinian Refugees in the West Bank & Gaza Strip Since 1967"

Norma Masriyeh Hazboum, 1996

No.6

"Reintegration of the Palestinian Returnees"

NichVan-Hear & others, 1996

No.9

"The Palestinians in Egypt and North Sinia"

Abdul-Kader Yassin , Sari Hanafi & Saint-Martin, 1995

No.11

"League of Arab States Resolutions on Palestinian Refugees' Residency Rights in Host Arab States"

Abbas Shiblak, 1998

الكـتب

النازحون الفلسطينيون ومفاوضات السلام
تيسير عمرو وآخرون، ١٩٩٥

قضية اللاجئين والمفاوضات
جويل بيترز وآخرون، ١٩٩٩

الشتات الفلسطيني: هجرة ام تهجير
شريف كناعنة، ٢٠٠٠

الكتب (بالإنجليزية)

Books

Still on Vacation! The Eviction of the Palestinians in 1948
Sharif Kanaana, 2000

Palestinian Refugee Camps in the West Bank: Attitudes Towards Repatriation and Integration
Najeh Jarrar, 2003

سلسلة التاريخ الشفوي

الأرض في ذاكرة الفلسطينيين، إعتماداً على التاريخ الشفوي في مخيم جنين.
عبد الفتاح القلقيلي، ٢٠٠٤

دروب المنفى (١)، الوطن في الذاكرة.
فيصل حوراني، طبعة ثانية ٢٠٠٤

الحنين، حكاية عودة.
فيصل حوراني، ٢٠٠٤

اصدارات مؤسسة الدراسات المقدسية

٢٠٠١-٢٠٠٤

- فيصل حوراني، الحنين حكاية عودة "شهادة" (بالاشتراك مع شمل، مركز اللاجئين والشتات الفلسطيني)، ٢٠٠٤.
- القدس، دراسات في تاريخ المدينة: تحرير عصام نصار، سليم تماري، ٢٠٠٤.
- اسرائيل، دليل عام: تحرير كميل منصور، ٢٠٠٤.
- يوميات خليل السكاكيني، الكتاب الأول والثاني (بالاشتراك مع مركز خليل سكاكيني الثقافي): تحرير أكرم مسلم، ٢٠٠٣-٢٠٠٤.
- القدس الانتدابية في المذكرات الجوهرية ١٩١٨-١٩٤٨: تحرير سليم تماري وعصام نصار، ٢٠٠٤.
- خليل نخلة، اسطورة التنمية في فلسطين الدعم السياسي والمراوغة المستديمة (بالاشتراك مع مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية)، ٢٠٠٤.
- القدس العثمانية في المذكرات الجوهرية ١٩٠٤-١٩١٧: تحرير سليم تماري وعصام نصار، ٢٠٠٣.
- نظمي الجعبة وخلدون بشارة، رام الله عمارة وتاريخ (بالاشتراك مع مركز المعمار الشعبي رواق)، ٢٠٠٢.
- يزيد صايغ، الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٤٩-١٩٩٣؛ الكفاح المسلح والبحث عن الدولة، ٢٠٠٢
- القدس ١٩٤٨، الاحياء العربية ومصيرها في الحرب: تحرير سليم تماري، ٢٠٠١.
- ديالا خصاونة، بيوت فلسطين (بالاشتراك مع مركز المعمار الشعبي رواق)، ٢٠٠١.

دوريات

- مجلة الدراسات الفلسطينية.
- حوليات القدس.
- Jerusalem Quarterly File.



دروب المنفى

الوطن في الذاكرة

هذا الكتاب هو المجلد الأول من خماسية "دروب المنفى"، شهادات فيصل حوراني التي رسمت بلغة الأدب بانوراما الحياة الفلسطينية من أواخر ثلاثينيات القرن العشرين حتى أواخر سبعينياته. وقد صدر هذا المجلد أول مرة في العام ١٩٩٤، في طبعة حصر توزيعها في بلد الناشر فلم يُقدّر له أن يصل إلى جمهور القراء الواسع.

وإذ يُعيد مركز شمل ومؤسسة الدراسات المقدسية إصدار هذا المجلد في هذه الطبعة الخاصة، فلأهميته ولأن الناشر معنيّ بالتركيز على التاريخ الشفهي وإبراز الرواية الفلسطينية للأحداث.

يجدر التنويه بأن هذا المجلّد تبعه أربع مجلّدات هي "الصعود إلى الصفر" و"زمن الأسئلة" و"الجري إلى الهزيمة" و"أين بقية الحكاية" وقد نُشرت جميعها تباعاً بين ١٩٩٦ و ٢٠٠٣، في عمّان ورام الله وبيروت.



SHAML - Palestinian Refugee and Diaspora Center
P.O. Box 2456 - Ramallah, Palestine



Institute of Jerusalem Studies
P.O. Box 54769 - Jerusalem, Palestine

ISBN 9950-315-02-6

2004